

المجلد الخامس

دار الفكر العربي



البداية والنهاية

﴿ فى التاريخ ﴾

للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل
عمر بن كثير ، القرشى ، ابن الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء التاسع

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م ﴾

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، فقدمها فأقام بها أشهرا، ثم خرج معتمراً، ثم عاد إلى المدينة في صفر فأقام بها ثلاثة أشهر، وبنى في بني سلمة مسجدا، وهو الذي ينسب إليه اليوم. ويقال: إن الحجاج في هذه السنة وهذه المدة - شتم جابرا وسهل بن سعد، وقرعهما لم لا نصرا عثمان بن عفان؟ وخاطبهما خطابا غليظاً - قبحه الله وأخزاه - واستقضى أبا إدريس[(1)] الخولاني أظنه على اليمن والله أعلم. قال ابن جرير: وفيها نقض الحجاجُ بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير بناه وأعادها على بنيانها الأول. قلت: الحجاج لم ينقض بنيان الكعبة جميعه، بل إنما هدم الحائط الشامي، حتى أخرج الحجر من البيت، ثم سده وأدخل في جوف الكعبة ما فضل من الأحجار، وبقية الحيطان الثلاثة بحالها، ولهذا بقي البنيان الشرقي والغربي - وهما ملصقان بالأرض - كما هو المشاهد إلى يومنا هذا، ولكن سدّ الغربي بالكلية وردم أسفل الشرقي حتى جعله مرتفعا كما كان في الجاهلية ولم يبلغ الحجاجَ وعبدَ الملك ما كان بلغ ابن الزبير - من العلم النبوي، الذي كانت أخبرته به خالته عائشة عن رسول الله ﷺ. كما تقدم ذلك من قوله: «لولا أن قومك حديثو عهدهم بكفر - وفي رواية: بجاهلية - لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحِجر، وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا، ولألصقتهما بالأرض؛ فإن قومك قصُرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر، ولم يتموها على قواعد إبراهيم: ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا». فلما تمكن ابن الزبير بناها كذلك.

ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال: وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك.

وفي هذه السنة: ولّى المهلّبُ بن أبي صُفرة حربَ الأزارقة، عن أمر عبد الملك لأخيه بشر ابن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج في جيوش من البصرة والكوفة، ووجد بشر على المهلّب في نفسه حيث عيّنه عبد الملك في كتابه، فلم يجد بداً من طاعته في تأميره على الناس في هذه الغزوة، وما كان له من الأمر شيء. غير أنه أوصى أمير الكوفيين - عبد الله بن مخنف - أن يستبد بالأمر دونه، وأن لا يقبل له رأيا ولا مشورة، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل برَامَهُرْمُز[(2)]، فلم يقم عليها إلا عشراً حتى جاء نَعِيّ بشر بن مروان، وأنه مات

(1) هكذا في الطبري، وفي نسخة: أبا مسلم

(2) بلدة بخوزستان. والهرمز والهرمزان: الكبير من أمراء العجم.

بالبصرة، واستخلف عليها خالد بن عبد الله، فأرخى بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا في آثارهم من يردّهم، وكتب خالد بنَ عبد الله إلى الفارّين يتوعّدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم، ويتوعدهم بسطوة عبد الملك، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حُرَيث في المصير إلى الكوفة. فكتب إليهم: إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين، وليس لكم إذنٌ ولا إمام ولا أمان. فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحالهم فركبوها، ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا مختفين بها حتى قدم الحجاج واليا على العراق، مكان بشر بن مروان - كما سيأتي بيانه قريبا.

وفي هذه السنة عزل الملك بُكير بن وشاح التميمي عن إمرة خراسان، وولاها أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد القرشي ليجتمع عليه الناس؛ فإنه قد كادت الفتنة تتفاقم بخراسان بعد عبد الله بن خازم فلما قدم أمية بن عبد الله خُراسان - عرض على بُكير بن وشاح أن يكون على شرطته، فأبى وطلب منه أن يوليه طخارستان، فخوفوه منه أنْ يخلعه هنالك فتركه مقيما عنده. قال ابن جرير: وحج بالناس فيها - الحجّاج، وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن واليمامة. قال ابن جرير: وقد قيل إن عبد الملك اعتمر في هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

رافع بن خديج بن رافع الأنصاري: صحابي جليل، شهد أحدا وما بعدها، وصفين مع علي - وكان يتعانى المزارع والفلاحة، توفي وهو ابن ستة وثمانين سنة، وأسند ثمانية وسبعين حديثا. وأحاديثه جيدة. وقد أصابه يوم أحد سهم في ترقوته، فخيره رسول الله ﷺ بين أن ينزعه منه وبين أن يترك فيه العطبة ويشهد له يوم القيامة. فاختار هذه، وانتقض عليه في هذه السنة فمات منه رحمه الله.

أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي. صحابي جليل من فقهاء الصحابة، استصغر يوم أحد، ثم كان أول مشاهده الخندق، وشهد مع رسول الله ﷺ ثنتي عشرة غزوة. وروى عنه أحاديث كثيرة، وعن جماعة من الصحابة، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة، كان من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم.

قال الواقدي وغيره: مات سنة أربع وسبعين، وقيل: قبلها بعشر سنين، فالله أعلم.

قال الطبراني: حدثنا المقدام بن داود، ثنا خالد بن نزار، ثنا هشام بن سعيد - عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «النبيون قلت: ثم أي؟ قال ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا السترة

ـ وفى رواية ـ إلا المباءة أو نحوها ، وإن أحدهم ليبتلى بالقمل حتى ينبذ القمل ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء » . وقال قتيبة بن سعيد : ثنا الليث بن سعد ، عن ابن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى سعيد الخدرى : أن أهله شكوا إليه الحاجة ، فخرج إلى رسول الله ﷺ يسأل لهم شيئاً ، فوافقه على المنبر وهو يقول : « أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة فإنه من يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، والذى نفس محمد بيده ، ما رزق الله عبداً من رزق ـ أوسع له من الصبر ، ولئن أبيتم إلا أن تسألونى ـ لأعطيتكم ما وجدت » وقد رواه الطبرانى عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد ، نحوه .

عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى ، أبو عبد الرحمن المكى ، ثم المدنى . أسلم قديماً مع أبيه ولم يبلغ الحلم ، وهاجرا وعمره عشر سنين . وقد استصغر يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق أجازه ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، فشهدها وما بعدها . وهو شقيق حفصة بنت عمر ـ أم المؤمنين ، أمهما زينب بنت مظعون ـ أخت عثمان بن مظعون . وكان عبد الله بن عمر ربعة من الرجال ، آدم له جمة[1] تضرب إلى منكبيه جسيما يخضب بالصفرة ويحفى شاربه . وكان يتوضأ لكل صلاة ، ويدخل الماء فى أصول عينيه ، وقد أراده عثمان على القضاء ، فأبى ذلك ، وكذلك أبوه وشهد اليرموك والقادسية وجلولاء ، وما بينهما من وقائع الفرس ، وشهد فتح مصر ، واختط بها داراً ، وقدم البصرة ، وشهد غزو فارس ، وورد المدائن مراراً ، وكان عمره يوم مات النبى ﷺ ثنتين وعشرين سنة . وكان إذا أعجبه شىء من ماله يقربه إلى الله عز وجل ، وكان عبيده قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد ، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه ، فيقال له : إنهم يخدعونك ، فيقول : من خدعنا لله انخدعنا له . وكان له جارية يحبها كثيراً ، فأعتقها وزوجها لمولاه نافع ، وقال : إن الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)[2] واشترى مرة بعيراً فأعجبه لما ركبه ، فقال : يا نافع ، أدخله فى إبل الصدقة . وأعطاه ابن جعفر فى نافع عشرة آلاف ، فقال : أو خيراً من ذلك ؟ هو حر لوجه الله . واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفاً وأعتقه ، فقال الغلام : يا مولاى ، قد أعتقتنى فهب لى شيئاً أعيش به ، فأعطاه أربعين ألفاً . واشترى مرة خمسة عبيد ، فقام يصلى ، فقاموا خلفه يصلون ، فقال : لمن صليتم هذه الصلاة ؟ فقالوا : لله ! فقال : أنتم أحرار لمن صليتم له ، فأعتقهم . والمقصود أنه ما مات حتى أعتق ألف رقبة ، وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وكانت تمضى عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحماً إلا وعلى يديه يتيم . وبعث إليه معاوية بمائة ألف لما أراد أن يبايع ليزيد ، فما حال عليه الحول وعنده منها شىء ، وكان يقول : إنى لا أسأل أحداً شيئاً ، وما رزقنى الله فلا أرده . وكان فى مدة

(١) الربعة : الرجل بين الطول والقصر . والآدم من الناس : الأسمر ، والجمع أدمان . والآدم من الإبل : الشديد البياض . والجمة : مجتمع شعر الرأس . (٢) الآية : ٩٢ من سورة آل عمران .

الفتنة لا يأتى أمير إلا صلى خلفه ، وأدى إليه زكاة ماله . وكان أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يتتبع آثار رسول الله ﷺ يصلى فيها ، حتى إن النبى ﷺ نزل تحت شجرة ، وكان ابن عمر يتعاهدها ويصب فى أصلها الماء . وكان إذا فاتته العشاء فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وكان يقوم أكثر الليل ، وقيل: إنه مات وهو فى الفضل مثل أبيه، وكان يوم مات خير من بقى.

ومكث ستين سنة يفتى الناس من سائر البلاد . وروى عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة ، وروى عن الصديق ، وعن عمر ، وعثمان ، وسعد ، وابن مسعود ، وحفصة ، وعائشة ، وغيرهم . وعنه خلق كثير منهم : بنوه حمزة ، وبلال ، وزيد ، وسالم ، وعبد الله ، وعبيد الله، وعمر إن كان محفوظاً ، وأسلم مولى أبيه ، وأنس بن سيرين ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وطاووس ، وعروة ، وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن سيرين ، والزهرى ، ومولاه نافع .

وثبت فى الصحيح عن حفصة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن عبد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل » . وكان بعد يقوم الليل . وقال ابن مسعود : إن من أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا - ابن عمر . وقال جابر : ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها - إلا ابن عمر ، وما أصاب أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً . وقال سعيد ابن المسيب : مات ابن عمر يوم مات، وما من الدنيا أحد أحب أن ألقى الله بمثل عمله - منه . وقال الزهرى : لا يعدل برأيه ؛ فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة ، فلم يخف عليه شىء من أمره ، ولا من أمر أصحابه - رضى الله عنهم . وقال مالك : بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة ، وأفتى فى الإسلام ستين سنة ، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض . قال الواقدى وجماعة : توفى ابن عمر سنة أربع وسبعين ، وقال الزبير بن بكار وآخرون : توفى سنة ثلاث وسبعين ، والأول أثبت ، والله أعلم .

عبيد بن عمير ، بن قتادة بن سعد بن عامر بن خندع بن ليث ، الليثى ، ثم الخندعى - أبو عاصم المكى ، قاضى أهل مكة . قال مسلم بن الحجاج : ولد فى حياة النبى ﷺ ، وقال غيره: ورآه أيضاً ، روى عن أبيه ، وله صحبة ، وعن عمر ، وعلى ، وأبى هريرة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعبد الله ابن عمرو ، وأم سلمة وغيرهم ، وعنه جماعة من التابعين وغيرهم ، ووثقه ابن معين ، وأبو زرعة ، وغير واحد . وكان ابن عمر يجلس فى حلقته ، ويبكى ، وكان يعجبه تذكيره ، وكان بليغاً ، وكان يبكى حتى يبل الحصى بدموعه . قال مهدى بن ميمون ، عن غيلان بن جرير قال : كان عبيد بن عمير إذا آخى أحداً فى الله استقبل به القبلة ، فقال : اللهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك ، واجعل محمداً شهيداً علينا بالإيمان ، وقد سبقت لنا منك الحسنى غير متطاول علينا الأمد ، ولا قاسية قلوبنا ، ولا قائلين ما ليس لنا بحق ، ولا سائلين ما ليس لنا به علم . وحكى البخارى عن ابن جريج: أن عبيد بن عمير مات قبل ابن عمر - رضى الله عنه .

أبو جحيفة وهب بن عبد الله السوائي ، صحابي رأى النبي ﷺ ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبي ﷺ ، لكن روى عنه عدة أحاديث ، وعن علي ، والبراء بن عازب . وعنه جماعة من التابعين ، منهم : إسماعيل بن أبي خالد ، والحكم ، وسلمة بن كهيل ، والشعبي ، وأبو إسحاق السبيعي ، وكان قد نزل الكوفة ، وابتنى بها داراً . وتوفي في هذه السنة ، وقيل : في سنة أربع وتسعين ، فالله أعلم . وكان صاحب شرطة علي ، وكان علي إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره .

سلمة بن الأكوع بن عمرو بن سنان الأنصاري ، وهو أحد من بايع تحت الشجرة ، وكان من فرسان الصحابة ومن علمائهم . كان يفتي بالمدينة ، وله مشاهد معروفة في حياة النبي ﷺ وبعده . توفي بالمدينة ، وقد جاوز السبعين سنة .

مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني ، وهو جد الإمام مالك بن أنس . روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان فاضلا عالماً ، توفي بالمدينة .

أبو عبد الرحمن السلمي : مقرىء أهل الكوفة بلا مدافعة ، واسمه : عبد الله بن حبيب ، قرأ القرآن على عثمان بن عفان ، وابن مسعود : وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة ، من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج . قرأ عليه عاصم بن أبي النجود ، وخلق غيره . توفي بالكوفة .

أبو معرض الأسدي : اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفي . ولد في حياة النبي ﷺ ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه ، وله شعر جيد ، ويعرف بالأقيشر . وكان أحمر الوجه كثير الشعر . توفي بالكوفة في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين سنة .

بشر بن مروان الأموي : أخو عبد الملك بن مروان . ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، وله دار بدمشق عند عقبة اللباب ، وكان سمحاً جواداً ، وإليه ينسب دير مروان عند حجير ، وهو الذي قتل خالد بن حصين الكلابي يوم مرج راهط ، وكان لا يغلق دونه الأبواب ويقول : إنما يحتجب النساء . وكان طليق الوجه ، وكان يجيز على الشعر بألوف ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل . والجهمية تستدل على الاستواء على العرش - بأنه الاستيلاء - ببيت الأخطل :

قد استوى بشر على العراق　　من غير سيف ودم مهراق

وليس فيه دليل ؛ فإن هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانياً ، وكان سبب موت بشر : أنه وقعت القرحة في عينه ، فقيل له يقطعها من المفصل ، فجزع ، فما أحس

حتى خالطت الكتف ، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ، ثم مات . ولما احتضر جعل يبكى ويقول : والله لوددت أنى كنت عبداً أرعى الغنم فى البادية لبعض الأعراب ، ولم أل ما وليت ، فذكر قوله لأبى حازم ـ أو لسعيد بن المسيب ـ ، فقال : الحمد لله الذى جعلهم عند الموت ينظرون إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم ، إنا لنرى فيهم عبراً . وقال الحسن : دخلت عليه فإذا هو يتململ على سريره ، ثم نزل عنه إلى صحن الدار ، والأطباء حوله .

مات بالبصرة فى هذه السنة ، وهو أول أمير مات بها ، ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه ، وأمر الشعراء أن يرثوه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها : غزا محمد بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان ، وهو والد مروان الحمار ـ صائفة الروم ، حين خرجوا من عند مَرْعش . وفيها : ولى عبد الملك نيابة المدينة ، ليحيى بن أبى العاص ـ وهو عمه ، وعزل عنها الحجاج . وفيها ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة ، وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وذلك بعد موت أخيه بشر ، فرأى عبد الملك أنه لا يسدّ عنه أهل العراق غير الحجاج ، لسطوته وقهره وقسوته وشهامته ، فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق ، فسار من المدينة إلى العراق فى اثنى عشر راكباً ، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها ، وكان تحتهم النجائب ، فنزل قريب الكوفة ، فاغتسل واختضب ، ولبس ثيابه ، وتقلد سيفه ، وألقى عذبة العمامة بين كتفيه ، ثم سار فنزل دار الإمارة ، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة ، فخرج عليهم وهم لا يعلمون . فصعد المنبر وجلس عليه ، وأمسك عن الكلام طويلا ، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجثوا على الركب ، وتناولوا الحصى ليحذفوه بها ، وقد كانوا حصبوا الذى قبله . فلما سكت أبهتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، والله إن كان أمركم ليهمنى قبل أن آتى إليكم ، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بى ، ولقد سقط منى البارحة سَوْطى الذى أؤدبكم به ، فاتخذت هذا مكانه ـ وأشار إلى سيفه ـ ، ثم قال : والله لآخذن صغيركم بكبيركم ، وحُرّكم بعبدكم ، ثم لأرصَعَنَّكم[1] رصع الحداد الحديدة ، والخباز العجينة . فلما سمعوا كلامه ، جعل الحصى يتساقط من أيديهم . وقيل : إنه دخل الكوفة فى شهر رمضان ظهراً ، فأتى المسجد ، وصعد المنبر ـ وهو مُعتجر بعمامة حمراء متلثم بطرفها ـ ،

---

(١) الرصع : الضرب باليد ، وشدة الطعن ، ودق الحب بين حجرين .

ثم قال : علىّ بالناس ! فظنه الناس وأصحابه من الخوارج ، فهمّوا به ، حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه اللثام وقال :

أنا ابن جَلاَ وطلاّعُ الثَّنَايا   متى أضع العمامة تعرفونى[١]

ثم قال : أما والله إنى لأحمل الشىء[٢] بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤُساً قد أينعت وآن اقتطافها ، وإنى لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ، قد شمرت عن ساقها فشمرى ، ثم أنشد :

هذا أوان الشّد فاشتدّى زيمْ   قد لفّها الليل بسوّاق حُطَمْ

ليس براعى إبل ولاغنم   ولا بجزّار على ظَهر وَضَمْ

قد لفّها الليـل بعَصْلَبىٍّ   أروعَ خرّاج من الدّوِّى[٣]

مُهــــاجرٍ ليس بأعْرَابىِّ

ثم قال : إنى والله يا أهل العراق ما أغمز بغماز ، ولا يُقَعْقَع لى بالشّنان[٤] ولقد فُررت[٥] عن ذكاء ، وجَرَيت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين ـ عبد الملك بن مروان ـ نثر كنانته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً ، فوجدنى أمرّها عوداً وأصلبها مغمزاً فوجّهنى إليكم ، فأنتم طالما رتعتم فى أودية الفتن ، وسلكتم سبيل الغىّ ، واخترتم جـدد الضلال . أما والله لألحُوَنـكم لَحْو العود ، ولأعصبنّـكم عَصْب السَّلَمَةُ[٦] ، ولأضربنّـكم ضَرب غرائب الابل . إنى والله لا أعد إلا وفَيت ، ولا أخلق إلا فَرَيت ، فإياى وهذه الجماعات وقيلاً وقالا ، والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعنّ لـكل رجل منـكم شُغُلاً فى جسده . ثم قال : من وجدتُ بعد ثالثة من بَعث المهلب ـ يعنى الذين كانوا قد رجعوا عنه لمـا سمعوا بموت بشر بن مروان كما تقدم ـ سفـكتُ دمه وانتهبتُ ماله ، ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك .

---

(١) هذا البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحى ، رواها الأصمعى فى الأصمعيات . والثنايا : ما صعد من الجبال .

(٢) فى الطبرى : الشر بدل الشىء

(٣) هذا الرجز لرويشد بن رميض العنبرى ـ وقيل: لشريح بن ضبيعة والزيم: اسم للحرب. والحطم: الراعى الظلوم للماشية ، والمراد الذى يحطم كل شىء . والوضم : كل ما يقطع عليه اللحم . والعصلبى : الشديد القادر على العمل والمشى . والدوى: جمع الدوية ـ وهى الفلاة

(٤) الشنان : جمع شن ـ وبهاء : القربة الخلق الصغيرة

(٥) أى اختبرت ، وفر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف عمرها

(٦) السلمة : شجرة من العضاة وأعصبنكم : أقطعكم

ويقال : إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته ، أطال السكوت ، حتى إن محمد بن عُمير أخذ كفا من حصى وأراد أن يحصبه بها ، وقال : قبّحه الله ! ما أعياه وأذمه ! فلما نهض الحجاج وتكلّم بما تكلم به — جعل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشعر به ، لما يرى من فصاحته وبلاغته . ويقال : إنه قال في خطبته هذه : شاهت الوجوه : إن الله ضرب (مَثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)[١] وأنتم أولئك ، فاستووا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدرُّوا ، ولأعصبنكم عصب السَّلَمة حتى تنقادوا ، وأقسم بالله لتقبلُنَّ على الإنصاف ولتدعُنَّ الإرجاف ، وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، وإيش الخبر ! وما الخبر ! أو لأهبرنّكم[٢] بالسيف هبرا يدعُ النساء أيامى ، والأولاد يتامى ، حتى تمشوا السُّمَّهى[٣] وتقلعوا عن ها — وها . . . في كلام طويل بليغ غريب ، يشتمل على وعيد شديد ، ليس فيه وعد بخير .

فلما كان في اليوم الثالث ، سمع تكبيراً في السوق ، فخرج حتى جلس على المنبر فقال : يا أهل العراق ! يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ! إني سمعت تكبيرا في الأسواق ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب . وقد عصفت عجاجة تحتها قصف[٤] ، يا بني اللكيعة[٥] وعبيد العصا وأبناء الإماء والأيامى ، ألا يَربَع كل رجل منكم على ظَلْعه[٦] ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر موضع قدمه . فأقسم بالله ، لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها .

قال : فقام إليه عُمير بن ضابىء التميمي ثم الحنظلي فقال : أصلح الله الأمير ، إنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل ، وهذا ابني هو أشب مني قال : ومن أنت ؟ قال عمير بن ضابىء التميمي ، قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟ قال : نعم ! قال : ألست الذي غزا عثمان بن عفان ؟ قال : بلى . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : كان حبس أبي وكان شيخا كبيراً ، قال : أو ليس هو الذي يقول :

همَمتُ ولم أفعل وكدتُ وليتني «فعلتُ ووليّت البكاء حلائلا»[٧]

---

(١) الآية : ١١٢ من سورة النحل (٢) أي أقطعنكم ، والهبرة : القطعة من اللحم
(٣) أي تتفرقوا في كل وجه (٤) القصف : شدة الريح (٥) اللكيعة : الحمقاء من الإماء
(٦) الظلع : الوهن والضعف من شدة السير
(٧) في الطبري : تركت على عثمان تبكي حلائلا

ثم قال الحجاج : إنى لأحسب أن فى قتلك صلاح المصرين ، ثم قال : قم إليه يا حرسى، فاضرب عنقه ، فقام إليه رجل فضرب عنقه ، وانتهب ماله . وأمر منادياً ، فنادى فى الناس : ألا إن عمير بن ضابىء تأخر بعد سماع النداء ثلاثا ، فأمرنا بقتله ، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر ، فعبر عليه فى ساعة واحدة - أربعةُ آلاف من مَذحج ، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى المهلب ، وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه ، فقال المهلب : قدم العراق والله - رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو .

ويروى : أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابىء ، حتى قال له عَنْبسة بن سعيد : أيها الأمير ! إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قتل فلطم وجهه ، فأمر الحجاج عند ذلك بقتله .

وبعث الحجاج - الحكم بن أيوب الثقفى نائباً على البصرة من جهته ، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله ، وأقر على قضاء الكوفة شريحاً ثم ركب الحجاج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة أبا يَعْفور ، وولى قضاء البصرة لزُرارة بن أوفى ، ثم عاد إلى الكوفة .

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الملك بن مروان ، وأقرّ عمّه يحيى على نيابة المدينة ، وعلى بلاد خُراسان أمية بن عبد الله . وفى هذه السنة : وثب الناس بالبصرة على الحجاج ، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عُمير بن ضابىء قام فى أهل البصرة ، فخطبهم نظير ما خطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد ، ثم أتى برجل من بنى يَشْكُر فقيل هذا عاص ، فقال : إن بى فتقاً ، وقد عذرنى الله وعذرنى بشر بن مروان ، وهذا عطائى مردود على بيت المال ، فلم يقبل منه ، وأمر بقتله ، فقتل ، ففزع أهل البصرة ، وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رَامَهُرْمز ، وعليهم عبد الله بن الجارود وخرج إليهم الحجاج - وذلك فى شعبان من هذه السنة - فى أمراء الجيش ، فاقتتلوا هناك قتالا شديداً ، وقتل أميرهم - عبد الله بن الجارود فى رءوس من القبائل معه ، وأمر برءوسهم ، فقطعت ونصبت عند الجسر من رَامَهُرْمز ، ثم بعث بها إلى المهلب ، فقوى بذلك وضعف أمير الخوارج . وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف ، فأمرهما بمناهضة الأزارقة ، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رَامَهُرْمز بأيْسَر قتال ، فهربوا إلى أرض كازَرُون من أقليم سابُور ، وسار الناس وراءهم ، فالتقوا فى العشر الأواخر من رمضان .

فلما كان الليل ، بيّت الخوارج المهلّب من الليل فوجدوه قد تحصن بخندق حول معسكره ، فجاؤا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز - وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل - فاقتتلوا فى الليل ، فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه ، وهزموهم

هزيمة منكرة . ويقال : إن الخوارج لما التقوا مع الناس فى هذه الوقعة ـ كان ذلك فى يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا شديداً لم يُعهد مثله من الخوارج ، وحملت الخوارج على جَيش المهلب بن أبى صفرة ، فاضطروه إلى معسكره ، فجعل عبد الرحمن يمده بالخيل بعد الخيل ، والرجال بعد الرجال ، فمالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بعد العصر ، فاقتتلوا معه إلى الليل ، فقتل عبد الرحمن فى أثناء الليل ، وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه .

فلما كان الصباح ، جاء المهلب فصلّى عليه ودفنه ، وكتب إلى الحجاج بمَهْلكه ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزيه فيه ، فنعاه عبد الملك إلى الناس بمِنًى ، وأمّر الحجاجُ مكانه عتّاب بن ورقاء ، وكتب إليه أن يطيع المهلب ، فكره ذلك ، ولم يجد بُدًّا من طاعة الحجاج ، وكره أن يخالفه . فسار إلى المهلب ، فجعل لا يُطيعه إلا ظاهراً ، ويعصيه كثيراً ، ثم تقاولا ، فهمّ المهلب أن يوقع بعتّاب ، ثم حجز بينهما الناس ، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب ، فكتب إليه ، أن يقدم عليه وأعفاه من ذلك . وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب .

وفيها خرج داود بن النعمان المازنى ـ بنواحى البصرة ، فوجه إليه الحجاج أميراً على سَرِيّة فقتله . قال ابن جرير : وفى هذه السنة تحرك صالح بن مسرّح ، أحد بنى امرىء القيس ، وكان يرى رأى الصُّفْرِيّة[1] ، وقيل : إنه أول من خرج من الصُّفرية ، وكان سبب ذلك : أنه حج بالناس فى هذه السنة ومعه شَبيب بن يزيد ، والبَطين ، وأشباهُهم من رُءوس الخوارج ، واتفق حج أمير المؤمنين عبد الملك ، فهمّ شبيب بالفَتْك به ، فبلغ عبد الملك ذلك ممن خبره بعد انصرافه من الحج ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يتطلبهم ، وكان صالح بن مسرّح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والإقامة بها ، وكان له جماعة يلوذون به ويعتقدونه ، من أهل دَارا وأرض الُموصل ، وكان يعلمهم القرآن ، ويقص عليهم ، وكان مصفَراً كثير العبادة وكان إذا قص يحمد الله ويثنى عليه ويصلى على رسوله ، ثم يأمر بالزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، ويحث على ذكر الموت ، ويترحّم على الشيخين : أبى بكر وعمر ، ويثنى عليهما ثناء حسناً ولكن بعد ذلك يذكر عثمان فيسبّه وينال منه ، وينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا عليه وقتلوه من فَجَرة أهل الأمصار . ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنكار ما قد شاع فى الناس وذاع ، ويهون عليهم القتل فى طلب ذلك ، ويذم الدنيا ذمًّا بالغاً ، ويصغّر أمرها ويحقره ، فالتف عليه جماعة من الناس . وكتب إليه شَبيب بن يَزيد الخارجىّ يستبطئه فى الخروج ويحثه عليه ويندب إليه . ثم قدم شَبيب على صالح وهو بدَارَا ، فتواعدوا وتوافقوا على الخروج فى مستهل صفر من هذه السنة الآتية ـ وهى سنة ست وسبعين ـ

(١) الصفرية : صنف من الخوارج ينسبون إلى رئيسهم زياد بن الأصفر ، وقيل غير ذلك فى تسميتهم .

وقدم على صالح ـ شَبِيب ، وأخوه مصاد ، والمحلل ، والفضل بن عامر ، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بدَارَا ، نحو مائة وعشرة أنفس ، ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان،فأخذوها ونفروا بها ، ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما كان ، كما سنذكره فى هذه السنة التى بعدها ، إن شاء الله تعالى .

وكان ممن توفى فيها ـ فى قول أبى مسهر وأبى عبيد :

العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه: السلمى أبو نجيح سكن حمص . وهو صحابى جليل ، أسلم قديماً هو وعمرو بن عنبسة ، ونزل الصفة . وكان من البكائين المذكورين فى سورة براءة ، كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله تعالى : (وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ)[1] الآية . وكانوا تسعة ، وهو راوى حديث « خطبنا رسول الله ﷺ خطبة وَجلت منها القلوب وذَرفت منها العيون . . . » الحديث إلى آخره . ورواه أحمد ، وأهل السنن ، وصححه الترمذى وغيره ، وروى أيضاً أن النبى ﷺ « كان يصلى على الصف المقدم ثلاثا ، وعلى الثانى واحدة » ، وقد كان العرباض شيخاً كبيراً ، وكان يحب أن يقبضه الله إليه ، وكان يدعو : اللهم كبرت سنى ورهن عظمى ، فاقبضنى إليك ، وروى أحاديث .

أبو ثعلبة الخشنى : صحابى جليل ، شهد بيعة الرضوان ، وغزا حنيناً ، وكان ممن نزل الشام بداريا غربى دمشق إلى جهة القبلة ، وقيل : ببلاط قرية شرقى دمشق ، فالله أعلم . وقد اختلف فى اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، والأشهر منها : جرثوم بن ناشر ، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث ، وعن جماعة من الصحابة . وعنه : جماعة من التابعين ، منهم : سعيد بن المسيب ، ومكحول الشامى ، وأبو إدريس الخولانى ، وأبو قلابة الجرمى وكان ممن يجالس كعب الأحبار ، وكان فى كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ، ثم يرجع إلى المنزل فيسجد لله عز وجل . وكان يقول : إنى لأرجو أن لا يخنقنى الله عند الموت كما أراكم تختنقون ، فبينما هو ليلة يصلى من الليل إذ قبضت روحه وهو ساجد . ورأت ابنته فى المنام كأن أباها قد مات فانتبهت مذعورة فقالت لأمها : أين أبى ؟ قالت : هو فى مصلاه ، فنادته فلم يجبها ، فجاءته فحركته فسقط لجنبه ، فإذا هو ميت ، رحمه الله . قال أبو عبيدة ، ومحمد بن سعد ، وخليفة ، وغير واحد : كانت وفاته سنة خمس وسبعين . وقال غيرهم : كانت وفاته فى أول إمرة معاوية ، فالله أعلم . وقد توفى فى هذه السنة .

الأسود بن يزيد : صاحب ابن مسعود ، وهو الأسود بن يزيد النخعى من كبار التابعين ، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود ، ومن كبار أهل الكوفة ، وكان يصوم الدهر ، وقد ذهبت عينه

---

(١) من الآية : ٩٢ من سورة التوبة .

من كثرة الصوم ، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرة ، وكان يهل من الكوفة . توفى فى هذه السنة ، وكان يصوم حتى يخضر ويصفر ، فلما احتضر بكى فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : مالى لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك منى ؟ والله لو أنبئت بالمغفرة من الله، لأهابن الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، فلا يزال مستحيياً منه .

حمران بن أبان : مولى عثمان بن عفان ، كان من سبى عين التمر ، اشتراه عثمان ، وهو الذى كان يأذن الناس على عثمان ـ توفى فى هذه السنة ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وسبعين

كان فى أولها ـ فى مستهل صفر منها ليلة الأربعاء ـ اجتماع صالح بن مسرّح أمير الصُّفرية ، وشبيب بن يزيد ، أحد شجعان الخوارج ، فقام فيهم صالح بن مسرّح ، فأمرهم بتقوى الله وحثهم على الجهاد ، وأن لا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى الدخول معهم ، ثم مالوا إلى دوابّ محمد ابن مروان نائب الجزيرة ، فأخذوها فنفروا بها ، وأقاموا بأرض دَارا ـ ثلاث عشرة ليلة، وتحصن منهم أهل دارا ، ونصيبين، وسنجر ، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس ، عليهم : عدىّ بن عدىّ بن عميرة ، ثم زاده خمسمائة أخرى ، فسار فى ألف من حرّان إليهم ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ؛ لما يعلموا من جَلَد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم ، فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمة شنيعة بالغة ، واحتووا على مافى معسكرهم . ورجع فلّهم إلى محمد بن مروان ، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جَعْوَنة ، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحر ، وقال لهما : أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس ، فساروا إليهم فى ثلاثة آلاف مقاتل ، والخوارج فى نحو من مائة نفس وعشرة أنفس ، فلما انتهوا إلى آمد ، توجه صالح فى شطر الناس ـ إلى خالد بن الحر ، ووجه شبيباً فى الباقى ـ إلى الحارث بن جعونة ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى الليل ، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن الآخر ، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين ، وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين ، وهربت الخوارج فى الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا فى أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عُميرة ، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلا ، فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس[1] ، فهو فى كُردوس ، وشبيب عن يمينه فى كُردوس ، وسُوَيد بن سليمان[2] عن يساره فى كُردوس ،

---

(١) الكراديس : الفرق والكتائب من الخيل ، والكردوس : القطعة العظيمة من الخيل .

(٢) فى الطبرى : ابن سليم

وحمل عليهم الحارث بن عميرة ، وعلى ميمنته : أبو الرَّوَّاع الشاكري ، وعلى ميسرته : الزبير بن الأروح التميمي : فصبرت الخوارج على قتالهم صبراً شديداً ، ثم انكشف سويد بن سليمان ، ثم قتل صالح بن مسرح أميرهم ، وصُرع شبيب عن فرسه ، فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك ، وقد بقي معهم سبعون رجلا ، فأحاط بهم الحارث بن عُميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا ، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً ، فلما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج على الصعب والذلول من الباب ، فبيتوا جيش الحارث بن عميرة ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب الناس سراعا إلى المدائن ، واحتاز شبيب وأصحابه ما في معسكرهم وكان جيش الحارث بن عميرة ـ أول جيش هزمه شبيب ، وكان مقتل صالح بن مسرح ـ في يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها : دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته غزالة ، وذلك أن شبيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسرح ـ واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه ، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ، ثم هزمهم بعد ذلك . ثم سار فجاز المدائن فلم ينل منهم شيئاً ، فسار فأخذ دواباً للحجاج من كلوذا ، وفي عزمه أن يبيت أهل المدائن ، فهرب من فيها من الجند إلى إلى الكوفة ، فلما وصل فَلُّهم(١) إلى الحجاج جهز جيشا أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب . فمروا على المدائن ، ثم ساروا في طلب شبيب فجعل يسير بين أيديهم قليلا قليلا وهو يريهم أنه خائف منهم ، ثم يكرّ في كل وقت على المقدمة فيكسرها وينهب ما فيها ، ولا يواجه أحداً إلا هزمه ، والحجاج يلح في طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد ، وشبيب لا يبالي بأحد ، وإن ما معه مائة وستون فارسا ، وهذا من أعجب العجب . ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها ، فخرج الجيش بكماله إلى السَّبَخة(٢) لقتاله ، وبلغه ذلك فلم يبال بهم بل انزعج الناس له وخافوا منه وفرقوا منه ، وهمّ الجيش أن يدخل الكوفة خوفا منه ويتحصنوا بها منه ، حتى قيل لهم : إن سويد بن عبد الرحمن في آثارهم وقد اقترب منهم ، وشبيب نازل بالمدائن بالدير ليس عنده خبر منهم ولا خوف ، وقد أمر بطعام وشواء أن يصنع له ، فقيل له : قد جاءك الجند فأدرك نفسك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك ولا يكترث بهم ويقول للدهقان الذي يصنع له الطعام : أجده وأنضجه وعجل به فلما استوى أكله ، ثم توضأ وضوءاً تاماً ثم صلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة ، ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال : أسرجوا لي

(١) أي المنهزمون منهم . وفل القوم : هزمهم ، والجمع : فلول ـ وأفلال

(٢) السبخة : موضع بالبصرة ، والسبخة أيضاً : أرض ذات نز وملح

البغلة ، فركبها ، فقال له أخوه مصاد : اركب فرساً ، فقال : لا ! حارس كل امرٍ أجَلُهُ ، فركبها ثم فتح باب الدير الذى هو فيه وهو يقول : أنا أبو مَدَلّه[1] لا حكم إلا الله ، وتقدم إلى أمير الجيش الذى يليه بالعمود الحديد فقتله ، وهو سعيد بن المجالد ، وحمل على الجيش الآخر الكثيف فصرع أميره ، وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة . ومضى شبيب إلى الكوفة من أسفل الفرات ، وقتل جماعة هناك ، وخرج الحجاج من الكوفة هارباً إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة : عروة بن المغيرة بن شعبة ، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها ، فأعلم الدهاقين[2] عروة بن المغيرة بذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير ، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبقه الحجاج إليها فدخلها العصر ، ووصل شبيب إلى المِرْبدَ عند الغروب ، فلما كان آخر الليل ، دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الإمارة فضرب بابه بعموده الحديد فأثرت ضربته فى الباب ، فكانت تعرف بعد ذلك ، يقال : هذه ضربة شبيب ، وسلك فى طرق المدينة وتقصد محال القتال ، وقتل رجالا من رؤساء أهل الكوفة وأشرافهم ، منهم : أبو سليم ، والدليث بن أبى سليم ، وعدى بن عمرو ، وأزهر بن عبد الله العامرى ، فى طائفة كثيرة من أهل الكوفة ، وكان مع شبيب امرأته غزالة ، وكانت معروفة بالشجاعة ، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تذم بنى مروان .

ونادى الحجاج فى الناس : يا خيل الله اركبى ، فخرج شبيب من الكوفة إلى محال الطعن والضرب ، فجهز الحجاج فى أثره ستة آلاف مقاتل ، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينعس ويهز رأسه ، وفى أوقات كثيرة يكر عليهم فيقتل منهم جماعة ، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً ، وقتل جماعة من الأمراء منهم زائدة بن قدامة ، قتله شبيب [وهو ابن عم المختار ، فوجه الحجاج مكانه لحربه عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقابل شبيباً ورجع ، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثى ، فالتقوا فى أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس ؛ فمن أعيانهم : عقيل بن شداد السلولى ، وخالد بن نهيك الكندى ، والأسود بن ربيعة ، واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر ال‍[illegible] وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً ، فبعث له جيشا من أهل الشام فقدموا فى السنة الآتية ، وإن ما مع شبيب شِرذمة قليلة ، وقد ملأ قلوب الناس رُعبا][3] وجرت خطوب كثيرة له معهم ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلت هذه السنة .

---

(١) هذه كنية له : والمدله : الساهى القلب الذاهب العقل من عشق ونحوه ، ومن لا يعى ما فعل وما فعل به

(٢) أى التجار ــ والدهقان : التاجر ــ فارسى معرب (٣) ما بين القوسين سقط من المصرية

قال ابن جرير : وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير ، وهو أول من نقشها . [وقال الماوردى فى كتاب الأحكام السلطانية : اختلف فى أول من ضربها بالعربية فى الإسلام ؛ فقال سعيد بن المسيب : أول من ضرب الدراهم المنقوشة ـ عبد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير والدراهم رومية وكسروية . قال أبو الزناد : وكان نقشه لها فى سنة أربع وسبعين . وقال المدائنى : خمس وسبعين ، وضربت فى الآفاق سنة ستة وسبعين ، وذكر : أنه ضرب على الجانب الواحد منها «الله أحد» وعلى الوجه الآخر : «الله الصمد» قال : وحكى يحيى بن النعمان الغفارى عن أبيه : أن أول من ضرب الدراهم ـ مصعب بن الزبير ، عن أمر أخيه عبدالله بن الزبير ، سنة سبعين ـ على ضرب الأكاسرة ؛ عليها «الملك» من جانب ، و «الله» من جانب ، ثم غيرها الحجاج وكتب اسمه عليها من جانب ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة ـ فى أيام يزيد بن عبد الملك ، ثم خلصها أجود منها ـ خالد بن عبد الله القسيرى فى أيام هشام ، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم ، ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيرية ، والخالدية ، واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة ، منها : الدراهم البغلية ، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق . والطبرية ، وكان الدرهم منها أربعة دوانق ، واليمنى دانق فجمع عمر بن الخطاب بين البغلى والطبرى ، ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعى ـ وهو نصف مثقال وخمس مثقال .

وذكروا أن المثقال لم يتغير وزنه فى جاهلية ولا إسلام ، وفى هذا نظر والله أعلم][1] .

وفيها : ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وهو مروان الحمار آخر من تولى الخلافة من بنى أمية ، ومنه أخذها بنو العباس وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة ، وعلى إمرة العراق الحجاج ، وعلى خراسان أمية بن عبد الله ، والله أعلم .

[وممن توفى فيها من الأعيان : أبو عثمان النهدى القضاعى ؛ اسمه عبد الرحمن بن مل ، أسلم على عهد النبى ﷺ وغزا جلولاء ، والقادسية ، وتستر ، ونهاوند ، وأذربيجان وغيرها ، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً ، يصوم النهار ويقوم الليل . توفى وعمره مائة وثلاثين سنة بالكوفة .

صلة بن أشيم العدوى من كبار التابعين من أهل البصرة . وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد ، كنيته ابو الصهباء . كان يصلى حتى ما يستطيع أن يأتى الفراش إلا حبوا ، وله مناقب كثيرة جداً ، منها : أنه كان يمر عليه شباب يلهون ويلعبون فيقول : أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فحادوا فى النهار عن الطريق وناموا الليل فمتى يقطعون سفرهم ؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة ، فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعنى بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو وبالليل ننام ، ثم تبع صلة

(١) ما بين القوسين سقط من المصرية

فلم يزل يتعبد معه حتى مات . ومر عليه فتى يجر ثوبه فهم أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم فقال : دعونى أكفكم أمره ، ثم دعاه فقال: يا ابن أخى لى إليك حاجة ،قال: وما حاجتك؟ قال أن ترفع إزارك، قال: نعم ، ونعمت عين ،فرفع إزاره ، فقال صلة : هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه لشتمكم. ومنها ما حكاه جعفر بن زيد قال : خرجنا فى غزاة وفى الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة ،فقلت:لأرمقن عمله الليلة ، فدخل غيضة ودخلت فى أثره فقام يصلى وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا فى شجرة، قال: فتراه التفت أو عده جرواً حتى سجد ، فقلت : الآن يفترسه ، فجلس ثم سلم فقال : أيها السبع إن كنت أمرت بشىء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر ، فولى الأسد وإن له لزئيراً تصدع منه الجبال ، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال : اللهم إنى أسألك أن تجيرنى من النار ، أو مثلى يجترىء أن يسألك الجنة ! ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا ، وأصبحت وبى من الفترة شىء الله به عليم . قال : وذهبت بغلته بثقلها فقال : اللهم إنى أسألك أن ترد على بغلتى بثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه ، قال : فلما التقينا بالعدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعنا بهم طعنا وضربا ، فقال العدو . رجلان من العرب صنعا بنا هذا فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ اعطوا المسلمين حاجتهم ـ يعنى انزلوا على حكمهم . وقال صلة : جعت مرة فى غزاة جوعا شديداً فبينما أنا أسير أدعو ربى وأستطعمه ، إذ سمعت وجبة من خلفى فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض ، فإذا فيه دوخلة[1] ملآنة رطباً فأكلت منه حتى شبعت ، وأدركنى المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث ، فاستطعمنى من الرطب فأطعمته . ثم إنى مررت على ذلك الراهب بعد زمان فإذا نخلات حسان فقال : إنهن لمن الرطبات التى أطعمتنى ، وجاء بذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس ـ ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً ، فقام يصلى فقامت تصلى معه ، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح ، قال: فأتيته فقلت له : أى عم! أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلى وتركتها ؟ قال : إنك أدخلتنى بيتاً أول النهار أذكرتنى به النار ، وأدخلتنى بيتاً آخر النهار أذكرتنى به الجنة ، فلم تزل فكرتى فيهما حتى أصبحت ؛ البيت الذى أذكره به النار هو الحمام ، والبيت الذى أذكره به الجنة هو بيت العروس. وقال له رجل: ادعو الله لى ، فقال : رغبك الله فيما يبقى ،وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذى لا يركن إلا إليه ، ولا يعول فى الدين إلا عليه . وكان صلة فى غزاة ومعه ابنه فقال له : أى بنى! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم صلة فقاتل حتى قتل ، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت : إن كنتن جئتن لتهنينى فرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لتعزينى. فارجعن . توفى صلة فى غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس فى هذه السنة .

(١) الدوخلة ـ بتشديد اللام وتخفيفها ـ : ما ينسج من الخوص ويحمل فيه الرطب .

زهير بن قيس البلوى ، شهد فتح مصر وسكنها ، له صحبة ، قتلته الروم ببرقة من بلاد المغرب ؛ وذلك أن الصريخ أتى الحاكم بمصر - وهو عبد العزيز بن مروان - أن الروم نزلوا برقة ، فأمره بالنهوض إليهم ، فساق زهير ومعه أربعون نفساً ، فوجد الروم ، فأراد أن يكف عن القتال حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد ، احمل بنا عليهم ، فحملوا فقتلوا جميعاً .

المنذر بن الجارود ، مات في هذه السنة تولى بيت المال ، ووفد على معاوية ، والله أعلم][(١)].

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها : أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً ، وانضاف عليهم عشرة آلاف ، فصاروا خمسين ألفاً ، وأمّر عليهم عتّاب بن وَرقاء ، وأمره أن يقصد لشبيب أين كان ، وأن يصمم على قتاله - وكان قد اجتمع على شبيب ألف رجل - وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة . ولما بلغ شبيبا ما بعث به الحجاج إليه من العساكر والجنود ، لم يعبأ بهم شيئاً ، بل قام فى أصحابه خطيباً ، فوعظهم وذكرهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء . ثم سار شبيب بأصحابه نحو عتّاب بن ورقاء ، فالتقيا فى آخر النهار عند غروب الشمس ، فأمر شبيب مؤذنه - سلام بن يسار الشيبانى ، فأذن المغرب ، ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب صلاة تامة الركوع والسجود ، وصفّ عتّاب أصحابه - وكان قد خندق حوله وحول جيشه من أول النهار - فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى طلع القمر وأضاء ، ثم تأمل الميمنة والميسرة ، ثم حمل على أصحاب رايات عتّاب وهو يقول : أنا شبيب أبو مُدلِه ، لا حكم إلا لله ، فهزمهم وقتل أميرهم - قبيصة بن والق - وجماعة من الأمراء معه ، ثم كرّ على الميمنة وعلى الميسرة ، ففرق شمل كل واحدة منهما ، ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتّاب بن وَرْقاء ، وزهرة بن جونة ، وولى عامة الجيش مدبرين ، وداسوا الأمير عتّاب وزهرة ، فوطئتهما الخيل ، وقتل فى المعركة عمار بن يزيد الكلبى .

ثم قال شبيب لأصحابه : لا تتبعوا منهزماً ، وانهزم جيش الحجاج عن بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة . وكان شبيب لما احتوى على العسكر ، أخذ ممن بقى منهم البيعة له بالإمارة ، وقال لهم : إلى أى ساعة تهربون ؟ ثم احتوى على ما فى المعسكر من الأموال والحواصل[(٢)] ، واستدعى بأخيه مَصاد من المدائن ، ثم قصد نحو الكوفة ، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ . (٢) أى البقايا من كل شىء .

السكلبي ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج ـ في ستة آلاف فارس ، ومعهما خلق من أهل الشام ؛ فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة ، وقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل الكوفة ، لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملا لنا ، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء .

وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه ، وسار شبيب حتى بلغ الصراة[1] ، وخرج إليه الحجاج بمن معه من الشاميين وغيرهم .

فلما تواجه الفريقان ، نظر الحجاج إلى شبيب وهو في سثمائة ، فخطب الحجاج أهل الشام وقال : يا أهل الشام ، أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين ، لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس[2] حقكم ، غضوا الأبصار واجثوا على الركب ، واستقبلوا بأطراف الأسنة ، ففعلوا ذلك .

وأقبل شبيب وقد عبى أصحابه ثلاث فرق ؛ واحدة معه ، وأخرى مع سويد بن سليم ، وأخرى مع المحلل بن وائل . وأمر شبيب سويداً أن يحمل ، فحمل على جيش الحجاج ، فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة ، فانهزم عنهم ، فنادى الحجاج : يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا . ثم أمر الحجاج فقدم كرسيه الذي هو جالس عليه إلى الأمام . ثم أمر شبيب المحلل أن يحمل فحمل ، فثبتوا له ، وقدم الحجاج كرسيه إلى أمام . ثم إن شبيباً حمل عليهم في كتيبته ، فثبتوا له ، حتى إذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلا ، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى ألحقوه بأصحابه ، فلما رأى صبرهم نادى : يا سويد ، احمل في خيلك على أهل هذه السرية لعلك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه ، فحمل فلم يفد ذلك شيئاً ، وذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في ثلاثمائة فارس ردأ له من ورائه ، لئلا يؤتوا من خلفهم ، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً ، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ، ففهم ذلك الحجاج ، فقال : يا أهل السمع والطاعة ، اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء والأرض ما شيء دون الفتح ، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ؛ فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظهرون على شبيب وأصحابه ، حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما وراثها .

فنادى شبيب في أصحابه : يا أولياء الله ! الأرض الأرض ، ثم نزل ونزلوا . ونادى الحجاج : يا أهل الشام ! يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول النصر والذي نفسي بيده ، وصعد مسجداً هنالك وجعل ينظر إلى الفريقين ، ومع شبيب نحو عشرين رجلا معهم النبل ، واقتتل الناس قتالا شديداً

(١) الصراة : نهر بالعراق . (٢) الرجس : الشيء القذر ، والمراد به هنا : الفعل القبيح والكفر

عامة النهار من أشد قتال فى الأرض ، حتى أقر كل واحد منهم لصاحبه ، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه . ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج فى أن يركب فى جماعة . فيأتى الخوارج من خلفهم ، فأذن له ، فانطلق فى جماعة معه نحو من أربعة آلاف ، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم ، فقتل مصاداً أخا شبيب ، وغزالة امرأة شبيب ، قتلها رجل يقال له : فروة ابن دقاق الكلبى ، وخرق فى جيش شبيب ، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه ، وكبروا . وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس ، فأمر الحجاج أن ينطلقوا فى طلبهم ، فشدوا عليهم فهزموهم ، وتخلف شبيب فى حامية الناس ، ثم انطلق واتبعه الطلب ، فجعل ينعس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه ، ودنا منه الطلب ، فجعل بعض أصحابه ينهاه عن النعاس فى هذه الساعة ، فجعل لا يكترث بهم ، ويعود فيخفق رأسه ، فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول : دعوه فى حرق النار ، فتركوه ورجعوا .

ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس ، فقال فى خطبته : إن شبيباً لم يهزم قبلها ، ثم قصد شبيب الكوفة ، فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج ، فالتقوا يوم الأربعاء ، فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة [وكان على سرية الحجاج ـ الحارث بن معاوية الثقفى ـ فى ألف فارس معه ، فحمل شبيب على الحارث بن معاوية ، فكسره ومن معه ، وقتل منهم طائفة ، ودخل الناس الكوفة هاربين . وحصن الناس السكك ، فخرج إليه أبو الورد ـ مولى الحجاج فى طائفة من الجيش ، فقاتل حتى قتل ، ثم هرب أصحابه ودخلوا الكوفة ، ثم خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضاً ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد ، فمروا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ، ثم خطب أصحابه وقال : اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة ، ثم رمى بالمال فى الفرات ، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ، ولا يبرز له أحد إلا قتله . ثم خرج إليه بعض الأمراء الذين على بعض المدن ، فقال له : يا شبيب ! ابرز إلىّ وأبرز إليك ـ وكان صديقه ـ فقال له شبيبٌ : إنى لا أحب قتلك ، فقال له : لكنى أحب قتلك ، فلا تغرنك نفسك وما تقدم من الوقائع ، ثم حمل عليه ، فضربه شبيب على رأسه ، فهمس[٢] رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه ، ثم كفنه ودفنه . ثم إن الحجاج أنفق أموالا كثيرة على الجيوش والعساكر فى طلب شبيب ، فلم يطيقوه ، ولم يقدروا عليه ، وإنما ساط الله عليه موتاً قدراً من غير صنعهم ولا صنعه فى هذه السنة][١] .

---

(١) ما بين القوسين سقط من المصرية . (٢) أى انكسر .

ذكر مقتل شبيب فى هذه السنة عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك : أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة - وهو الحكم بن أيوب بن الحكم ابن أبي عقيل وهو زوج ابنة الحجاج - يأمره أن يجهز جيشا أربعة آلاف فى طلب شبيب ، ويكونون تبعاً لسفيان بن الأبرد ، ففعل ، وانطلقوا فى طلبه فالتقوا معه ، وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل الشام ، فلما وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام ، ثم ساروا إلى شبيب فالتقوا به فاقتتلوا قتالا شديداً ، وصبر كل من الفريقين لصاحبه ، ثم عزم أصحاب الحجاج لحملوا على الخوارج حملة منكرة ، والخوارج قليلون ، ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى جسر هناك[1] ؛ فوقف عنده شبيب فى مائة من أصحابه ، وعجز سفيان ابن الأبرد عن مقاومته ، ورده شبيب عن موقفه هذا ، بعد أن تقاتلوا نهاراً طويلا كاملا عند أول الجسر - أشد قتال يكون ، ثم أمر ابن الأبرد أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقاً واحداً ، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا نحواً من ثلاثين رجلا من أصحاب ابن الأبرد ، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض ؛ وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر . فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر ، فبينما شبيب على متن الجسر راكبا على حصان له ، وبين يديه فرس أنثى ، إذ نزا حصانه عليها وهو على الجسر ، فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط فى الماء ، فقال : ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ثم انغمر فى الماء ثم ارتفع وهو يقول (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[2] فغرق . فلما تحققت الخوارج سقوطه فى الماء كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين فى البلاد ، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيبا من الماء وعليه درعه ، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه ، فإذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة ، وكانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة الإنسان . وقيل : إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائرهم ، فلما تخلف فى الساقة اشتوروا وقالوا : نقطع الجسر به ، ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط فى الماء فغرق ، ونادوا : غرق أمير المؤمنين ، فعرف جيش الحجاج ذلك فجاؤا فاستخرجوه .

ولما نعي شبيب إلى أمه قالت : صدقتم ! إنى كنت رأيت فى المنام وأنا حامل به ، أنه قد خرج منها شهاب من نار ، فعلمت أن النار لا يطفئها إلا الماء ، وأنه لا يطفئه إلا الماء . وكانت أمه جارية اسمها جهيزة ، وكانت جميلة ، وكانت من أشجع النساء ، تقاتل مع ابنها فى الحروب . وذكر ابن خلكان أنها قتلت فى هذه الغزوة ، وكذلك قتلت زوجته غزالة ، وكانت أيضا

---

(١) يسمى هذا الجسر - جسر دجيل

(٢) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام

شديدة البأس، تقاتل قتالا شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال . وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء :

أَسَدٌ عليّ وفي الحروب نَعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غَزَالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

قال : وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل ابن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيباني ـ يدعي الخلافة ، ويتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الغرق ـ لنال الخلافة إن شاء الله ، ولما قدر عليه أحد . وإنما قهره الله على يدي الحجاج لما أرسل إليه عبد الملك بعسكر الشام لقتاله ، ولما ألقاه جواده على الجسر في نهر دجيل قال له رجل : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ قال : (ذلك تقديرُ العزيزِ العَليم) .

قال ثم أخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فنزع قلبه من صدره فإذا هو مثل الحجر . وكان شبيب رجلا طويلا أشمط[٢] جَعْداً ، وكان مولده في يوم عيد النحر سنة ست وعشرين وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له : أنت القائل :

فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنّا حُصَين والبَطين وقَعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال : إنما قلت : ومنا يا أمير المؤمنين شبيب . فأعجبه اعتذاره وأطلقه ، والله سبحانه أعلم .

وفي هذه السنة ، كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبي صفرة ـ نائب الحجاج ، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم قطري بن الفجاءة ، وكان قطريّ أيضا من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين ، وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا في هذه السنة ، وأما هو فلا يدرى أحد أين ذهب ، فإنه شرد في الأرض . وقد جرت بينهم مناوشات ومحاولات يطول بسطها ، وقد بالغ ابن جرير في ذكرها في تاريخه . قال ابن جرير :

وفي هذه السنة ، ثار بُكير بن وشاح ـ الذي كان نائب خراسان ـ على نائبها أمية بن عبد الله ابن خالد ، وذلك أن بُكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله ، وقد جرت بينهما حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير في تاريخه .

وفي هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد كما قدمنا ، وقد كان من الشجاعة والفروسة على جانب كبير لم ير بعد الصحابة مثله ، ومثل الأشتر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ومن يناط بهؤلاء في الشجاعة مثل قَطريّ بن الفجاءة من الأزارقة ، والله أعلم .

---

(١) الفتخ : استرخاء المفاصل ولينها ، وهو صفة مدح للمرأة (٢) الشمط : بياض الرأس يخالطه سواده

وفيها توفى من الأعيان :

كثير بن الصلت، بن معدى كرب الكندى . كان كبيراً مطاعاً فى قومه ، وله بالمدينة دار كبيرة بالمصلى ، وقيل : إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل ، توفى بالشام.

محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله . كانت أخته تحت عبد الملك ، وولاه سجستان ، فلما سار إليها قيل له : إن شبيباً فى طريقك ، وقد أعيا الناس ؟ فاعدل إليه لعلك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد ، فلما سار لقيه شبيب ، فاقتتل معه ، فقتله شبيب . وقيل : غير ذلك ، والله أعلم.

عياض بن غنم الأشعرى ، شهد اليرموك ، وحدث جماعة من الصحابة وغيرهم ، توفى بالبصرة ، رحمه الله .

مطرف بن عبد الله ، وقد كانوا إخوة ، عروة ـ ومطرف ـ وحمزة ، وقد كانوا يميلون إلى بنى أمية ، فاستعملهم الحجاج على أقاليم ؛ فاستعمل عروة على الكوفة ، ومطرف على المدائن ، وحمزة على همدان .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها: كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم افتتحوا إرقيلية ، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وثلج وبرد ؛ فأصيب بسببه ناس كثير .

وفيها: ولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه ؛ فسار إلى طنجة ، وقد جعل على مقدمته طارقاً ، فقاتلوا ملوك تلك البلاد ، وبعضهم قطعوا أنفه ونفوه .

وفيها: عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان ، وأضافها إلى الحجاج مع سجستان أيضاً . وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من إمرة الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمى ، فقدم المهلب على الحجاج ـ وهو بالبصرة ـ وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً ، فأجلسه معه على السرير ، واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه ، فمن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له العطية . ثم ولى الحجاج المهلب ـ إمرة سجستان ، وولى عبد الله بن أبى بكرة ـ إمرة خراسان ، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده ؛ فقيل : كان ذلك بإشارة المهلب ، وقيل : إنه استعان بصاحب الشرطة ، وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمى ، حتى أشار على الحجاج بذلك ، فأجابه إلى ذلك ، وألزم المهلب بألف بألف درهم ، لأنه اعترض على ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فيها الوليد بن عبد الملك ، وكان أمير المدينة ـ أبان بن عثمان . وأمير العراق وخراسان وسجستان ، وتلك النواحي كلها ـ الحجاج ، ونائبه على خراسان ـ المهلب ابن أبي صفرة ، ونائبه على سجستان ـ عبد الله بن بكرة الثقفي ، وعلى قضاء الكوفة ـ شريح ، وعلى قضاء البصرة ـ موسى بن أنس بن مالك الأنصاري .

وقد توفي في هذه السنة من الأعيان :

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي : صاحب رسول الله ﷺ ، وله روايات كثيرة ، وشهد العقبة ، وأراد أن يشهد بدراً ، فمنعه أبوه ، وخلفه على إخوانه وأخواته ـ وكانوا تسعة ، وقيل : إنه ذهب بصره قبل موته . توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة ، وأسند إليه ألف وخمسمائة وأربعين حديثاً .

شريح بن الحارث بن قيس ، أبو أمية الكندي ، وهو قاضي الكوفة ، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، ثم عزله علي ، ثم ولاه معاوية ، ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة . وكان رزقه على القضاء في كل شهر ـ مائة درهم ، وقيل : خمسمائة درهم ، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول : سيعلم الظالم حظ من نقص ، وقيل : إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية (يَا دَاوُد إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى)[1] الآية ، وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر . وقيل : إنه مكث قاضياً نحو سبعين سنة ، وقيل : إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة ، فالله أعلم وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن ، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ توفي بالكوفة وعمره : مائة وثمان سنين .

وقد روى الطبراني قال : حدثنا علي بن عبد العزيز ، ثنا عارم أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن شعيب بن الحبحاب ، عن إبراهيم التيمي قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حق من نقصوا ، إن الظالم ينتظر العقاب ، وإن المظلوم ينتظر النصر . ورواه الإمام أحمد ، عن إسماعيل بن علية ، عن ابن عون ، عن إبراهيم به . وقال الأعمش : اشتكى شريح رجله ، فطلاها بالعسل ، وجلس في الشمس ، فدخل عليه عواده فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالحاً . فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال : وعد خيراً . وفي رواية : أنه خرج بإبهامه قرحة ، فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها . وقال الأوزاعي .

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة ص

حدثنى عبدة بن أبى لبابة قال : كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين ، وكان شريح لايخبر ولا يستخبر . ورواه ابن ثوبان عن عبدة عن الشعبى عن شريح قال : لما كانت الفتنة لم أسأل عنها ، فقال رجل : لو كنت مثلك ما باليت متى مت ، فقال شريح : فكيف بما فى قلبى ؟ وقد رواه شقيق بن سلمة عن شريح قال : فى الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ، ولا ظلمت مسلما ولا معاهداً ـ ديناراً ولا درهما ، فقال أبو وائل : لو كنت على حالك لأحببت أن أكون قد مت ، فأوى إلى قلبه فقال : كيف بهذا ؟ وفى رواية : كيف بما فى صدرى تلتقى الفتيتان وإحداهما أحب إلى من الأخرى ؟ وقال لقوم رآهم يلعبون : مالى أراكم تلعبون ؟ قالوا : فرغنا ! قال : ما بهذا أمر الفارغ . وقال سوار بن عبد الله العنبرى : حدثنا العلاء بن جرير العنبرى حدثنى سالم أبو عبد الله أنه قال : شهدت شريحا ـ وتقدم إليه رجل ـ فقال : أين أنت ؟ فقال : بينك وبين الحائط ، فقال : إنى رجل من أهل الشام ، فقال : بعيد سحيق ، فقال : إنى تزوجت امرأة ، فقال : بالرفاء والبنين ، قال : إنى اشترطت لهـا دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : اقض بيننا ، قال : قد فعلت .

وقال سفيان . قيل لشريح : بأى شىء أصبت هذا العلم ؟ قال : بمعارضة العلماء ، آخذ منهم وأعطيهم. وروى عثمان بن أبى شيبة عن عبدالله بن محمد بن سالم عن إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه عن أبى إسحاق عن هبيرة ، أنه سمع عليا يقول : يا أيها الناس ! يأتونى فقهاؤكم يسألونى وأسألهم ، فلما كان من الغد غدونا إليه حتى امتلأت الرحبة ، فجعل يسألهم : ما كذا ؟ ما كذا ؟ ويسألونه ما كذا ؟ ما كذا ؟ فيخبرهم ويخبرونه ، حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا ، غير شريح فإنه جاث على ركبتيه لا يسأله عن شىء إلا أخبره به ، قال : سمعت عليا يقول : قم يا شريح فأنت أقضى العرب .

وأتت شريحا امرأتان : جدة صبى ، وأمه ـ يختصمان فيه ، كل واحدة تقول : أنا أحق به .

فقالت الجدة :

أبا أمية أتيناك ... وأنت المرء نأتيه ... أتتك الأم والجدة ... وكلتـانا تفـديه[1]

فلو كنت تأيمت ... لما نازعتكى فيه ... تزوجت فهاتيه ... ولا يذهب بك التيه

ألا أيها القاضى ... فهذى قصتى فيه

قالت الأم :

ألا أيهـا القاضى ... قد قالت لك الجده ... قولا فاستمع منى ... ولا تطردنى رده

تعزى النفس عن ابنى ... وكبدى حملت كبده ... فلما صار فى حجرى ... يتيما مفرداً وحده

تزوجت رجاء الخير ... من يكفينى فقده ... ومن يظهر لى الود ... ومن يحسن لى رفده

---

(١) هذه الأبيات طبق الأصل ولم نجد لها نظيراً

فقال شريح :

قد سمع القاضي ما قالما ثم قضى وعلى القاضي جهد إن غفل

قال للجـــدة : بيني بالصبي وخذى ابنك من ذات العلل

إنها لو صبرت كان لها قبل دعوى ما تبتغيه للبدل

فقضى به للجدة وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح ، أنه قضى على رجل باعترافه فقال : يا أبا أمية ! قضيت عليّ بغير بينة ، فقال شريح: أخبرني ابن أخت خالتك. وقال على بن الجعد : أنبأنا المسعودى عن أبى حصـــين قال : سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال : علف مجان وابن طيب . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن أبى حيان التيمى ، حدثنا أبى قال : كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت فى جوف داره ، ولم يكن له مَثْعَب « شارع » إلا فى جوف داره ، يفعل ذلك اتقاء أن تؤذى المسلمين ـ يعنى أنه يلقى السنور فى جوف داره لئلا تؤذى بنتن ريحها المسلمين ـ وكانت ميازيب أسطحة داره فى جوف الدار لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين . وقال الرياشي : قال رجل لشريح : إن شأنك لشوين . فقال له شريح : أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها فى نفسك . وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب النحوى حدثنا عبد الله بن شبيب قال : حدثنى عبد الرحمن بن عبد الله ابن زياد بن سمعان قال : كتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد ، فإنك والمكان الذى أنت فيه ، والمكان الذى خرجت منه ـ بعين من لا يعجزه مَن طلب ، ولا يفوته مَن هَرب ، والمكان الذى خلفته لم يعد وامرأ حمامه ، ولن تظلمه أيامه ، وإنك وإيام لعلى بساط واحد ، وإن المنتجع من ذى قدرة لقريب .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا على بن مسهر عن الشيبانى عن الشعبى عن شريح ، أن عمر كتب إليه : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه رجاء ما ليس فى كتاب الله ، وانظر فى سنة رسول الله ﷺ فاقض بها ، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، وفى رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فإن لم يكن ؛ فإن شئت فتقدم ـ وإن شئت فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيراً ، والسلام .

وقال شريح : كنت مع عليّ فى سوق الكوفة ، فانتهى إلى قاص يقص فوقف عليه وقال : أيها القاص! تقص ونحن قريبو العهد ؟ أما إنى سائلك فإن تجب فما سألتك وإلا أدبتك ، فقال القاص : سل يا أمير المؤمنين عما شئت ، فقال على : ما ثبات الإيمان وزواله ؟ قال القاص : ثبات الايمان الورع وزواله الطمع . قال على : فذلك فقص . قيل إن هذا القاص هو نوف البكالى

وقال رجل لشريح : إنك لتذكر النعمة فى غيرك وتنساها فى نفسك ، قال : إنى والله لأحسدك على ما أرى بك . قال : ما نفعك الله بهذا ولا ضرّنى .

وروى جرير عن الشيبانى عن الشعبى قال : اشترى عمر فرسا من رجل على أن ينظر إليه ، وأخذ الفرس فسار به فعطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا ! قال : فاجعل بينى وبينك حكما ، قال الرجل : نعم ! شريح ، قال عمر : ومن شريح ؟ قال : شريح العراق ، قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ! رد كما أخذت أو خذ بما ابتعته ، فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها ، فإنه لأول يوم عرفه يومئذ .

وقال هشام بن محمد الكلبى : حدثنى رجل من ولد سعد بن وقاص قال : كان لشريح ابن يدعو الكلاب ويهارش[1] بين الكلاب ، فدعا بداوة وقرطاس فكتب إلى مؤدبه فقال :

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها   طلب المراش مع الغواة الرجس
فإذا أتاك فعفّه بملامة   وعظه من عظة الأديب الأكيس
فإذا هممت بضربه فبدرّة   فإذا ضربت بها ثلاثا فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه   مع ما تجرعنى أعز الأنفس

وروى شريح عن عمر عن عائشة ، أن النبى ﷺ قال لها : « ياعائشة (إنَّ الّذين فرّقوا دِينَهم وكانوا شِيَعاً)[2] إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، إن لكل صاحب ذنب توبة ، إلا أصحاب الأهواء والبدع ، أنا منهم برىء وهم منى براء » . وهذا حديث ضعيف غريب ، رواه محمد بن مصفى عن بقيّة عن شعبة ـ أو غيره ـ عن مجالد عن الشعبى . وإنما تفرد به بقيّة بن الوليد من هذا الوجه ، وفيه علة أيضا . وروى محمد بن كعب القرظى عن الحسن عن شريح عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستغربلون حتى تصيروا فى حثالة من الناس ، قد مزجت عهودهم وخربت أماناتهم ، فقال قائل : فكيف بنا يا رسول الله ؟ فقال : تعملون بما تعرفون ، وتتركون ما تنكرون ، وتقولون : أحد أحد ، انصرنا على من ظلمنا واكفنا من بغانا » . وروى الحسن بن سفيان عن يحيى بن أيوب ، عن عبد الجبار ابن وهب عن عبد الله السلمى عن شريح قال : حدثنى البدريون ـ منهم عمر بن الخطاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ، ويستقبل بشبابه طاعة الله تعالى ، إلا أعطاه الله تعالى أجر اثنين وسبعين صديقا ، ثم قال : يقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهوته من أجلى ، المبتذل شبابه لى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » . وهذا حديث غريب .

(١) التهريش : التحريش بين الكلاب   (٢) من الآية : ١٥٩ من سورة الأنعام

وقال أبو داود : حدثنا صدقة بن موسى ، حدثنا أبو عمران الجونى عن قيس بن زيد – وقال أبو داود: أو عن زيد بن قيس – عن قاضى المصرين شريح ، عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول : يا ابن آدم ! فيم أضعت حقوق الناس ؟ فيم أذهبت أموالهم ؟ فيقول : يا رب لم أفسده ، ولكن أصبت إما غرقا وإما حَرقا ، فيقول الله سبحانه : أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فترجح حسناته على سيئاته فيؤمر به إلى الجنة » لفظ أبى داود . ورواه يزيد بن هارون عن صدقة به ،وقال فيه : « فيدع الله بشيء فيضعه فى ميزانه فيثقل » . ورواه الطبرانى من طريق أبى نعيم عن صدقة به ، ورواه الطبرانى أيضا عن حفص بن عمر ، وأحمد بن داود المكى قالا : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا صدقة به . والله سبحانه وتعالى أعلم .

عبد الرحمن بن غنم : الأشعرى نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة،وقيل: إن له صحبة، وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها فى الدين، وكان من العباد الصالحين

جنادة بن أمية الأزدى : شهد فتح مصر، وكان أميراً على غزو البحر لمعاوية ، وكان موصوفا بالشجاعة والخير ، توفى بالشام وقد قارب الثمانين

العلاء بن زياد البصرى : كان من العباد الصالحين من أهل البصرة ، وكان كثير الخوف والورع ، وكان معتزل فى بيته ولا يخالط الناس ، وكان كثير البكاء ، لم يزل يبكى حتى عمى . وله مناقب كثيرة . توفى بالبصرة فى هذه السنة قلت : إنما كان معظم بكاء العلاء بن زياد بعد تلك الرؤيا التى رآها له رجل من أهل الشام : أنه من أهل الجنة ، فقال له العلاء : أما أنت يا أخى فجزاك الله عن رؤياك لى خيراً ، وأما أنا فقد تركتنى رؤياك لا أهدأ بليل ولا نهار ، وكان بعدها يطوى الأيام لا يأكل فيها شيئا ، ويبكى حتى كاد يفارق الدنيا ، ويصلى لا يفتر ، حتى جاء أخوه إلى الحسن البصرى فقال : أدرك أخى فإنه قاتل نفسه ، يصوم لا يفطر ، ويقوم لا ينام ، ويبكى الليل والنهار لرؤيا رآها بعض الناس له : أنه من أهل الجنة . فجاء الحسن فطرق عليه بابه فلم يفتح ، فقال له : افتح فإنى أنا الحسن ، فلما سمع صوت الحسن فتح له ، فقال له الحسن : يا أخى! الجنة وما الجنة للمؤمن ، إن المؤمن عند الله ما هو أفضل من الجنة ، فقاتل أنت نفسك ؟ فلم يزل به حتى أكل وشرب وقصر عما كان فيه قليلا . وروى ابن أبى الدنيا عنه ، أنه أتاه آت فى مقامه فأخذ بناصيته وقال : يا غلام ! قم فاذكر الله يذكرك . فما زالت تلك الشعرات التى أخذ بها قائمة حتى مات ، وقد قيل : إنه كان يرفع له إلى الله كل يوم من العمل الصالح – بقدر أعمال خلق كثير من الناس؛ كما رأى ذلك بعض أصحابه فى المنام . وقال العلاء : نحن قوم وضعنا

أنفسنا في النار ؛ فإن شاء الله أن يخرجنا منها ـ أخرجنا . وقال : كان رجل يرائى بعمله فجعل يشمر ثيابه ويرفع صوته إذا قرأ ، فجعل لا يأتى على أحد إلا سبّه ، ثم رزقه الله الاخلاص واليقين ، فخفض من صوته وجعل صلاحه بينه وبين الله ، فجعل لا يأتى على أحد بعد ذلك إلا دعا له بخير](١).

سراقة بن مرداس الأزدى : كان شاعراً مطبقاً ، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فتوفى بها .

النابغة الجعدى : الشاعر . السائب بن يزيد الكندى ، توفى فى هذه السنة .

سفيان بن سلمة الأسدى . معاوية بن قرة البصرى . زر بن حبيش

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام ، حتى كادوا يفنون من شدته ، ولم يغز فيها أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم ، ووصلت الرومُ فيها أنطاكية ، فأصابوا خلقاً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة . وفيها غزا عبيد الله بن أبى بكرة ـ رتبيل ـ ملك الترك ، حتى أوغل فى بلاده ، ثم صالحه على مال يحمله إليه فى كل سنة . وفيها قتل عبد الملك بن مروان ، الحارثَ بن سعيد المتنبىَّ الكذاب ، ويقال له : الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقى . مولى أبى الجلاس العبدرىّ ، ويقال : مولى الحكم بن مروان ، كان أصله من الجُولة فنزل دمشق وتعبد بها وتنسك وتزهد ، ثم مُكر به ورجع القهقرى على عقبيه ، وانسلخ من آيات الله تعالى ، وفارق حزب الله المفلحين ، واتبع الشيطان فكان من الغاوين ، ولم يزل الشيطان يزج فى قفاه حتى أخسره دينه ودنياه ، وأخزاه وأشقاه . فإنا لله ، وحسبنا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا عبد الوهاب نجدة الجَوْلى ، حدثنا محمد بن مبارك ثنا الوليد ابن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال : كان الحارث الكذاب من أهل دمشق . وكان مولى لأبى الجُلَاس ، وكان له أب بالجولة ، فعرض له إبليس ، وكان رجلا متعبدا زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرؤيت عليه الزهادة والعبادة ، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ، ولا أحسن من كلامه ، فكتب إلى أبيه ـ وكان بالجولة : يا أبتاه ! أعجل على فإنى قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لى ، قال : فزاده أبوه غيا على غيه ، فكتب إليه أبوه : يا بنى أقبل على ما أمرت به ، فإن الله تعالى يقول (هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشياطين ◉ تنزَّل على كُلِّ أفاك أثيم)(٢) ولست بأفاك ولا أثيم ، فامض لما أمرت به . وكان يجىء

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ (٢) الآيتان ٢٢٠ ـ ٢١١من سورة الشعراء

إلى أهل المسجد رجلا رجلاً فيذاكرهم أمره ، ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى وإلا كتم عليه .

قال : وكان يريهم الأعاجيب ، كان يأتي إلى رُخامة في المسجد فينقرها ، بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً ، حتى يضج من ذلك الحاضرون. قلت: وقد سمعت شيخنا العلامة ،أبا العباس بن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : كان ينقر هذه الرُّخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح ، وكان زنديقا ، قال ابن أبي خيثمة في روايته: وكان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، وكان يقول لهم: اخرجوا حتى أريكم الملائكة ، فيخرج بهم إلى دير المراق ، فيريهم رجالا على خيل فيتبعه على ذلك بشر كثير ، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه ، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة ، قال : فعرض على القاسم أمره ، وأخذ عليه العهد إن هو رضي أمراً قبله ، وإن كرهه كتم عليه ، قال فقال له : إني نبي ، فقال القاسم : كذبت يا عدو الله ، ما أنت نبيّ ، وفي رواية : ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ : « إنّ الساعةَ لا تقومُ حتى يخرج ثلاثون دَجَّالون كذّابون، كلُّهم يزعم أنه نبي » وأنت أحدهم ولا عهد لك .

ثم قام فخرج إلى أبي إدريس ـ وكان على القضاء بدمشق ـ فأعلمه بما سمع من الحارث ، فقال أبو إدريس : نعرفه ، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك وفي رواية أخرى: أن مكحولا وعبد الله بن أبي زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذباه وردا عليه ما قال ، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره ، فطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً ، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً ، واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فنزلها ، فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو ، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه ، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل ويفعل ما يأمره به ، فلما وصل الرجل إلى النصرية ببيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته ، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعته فإذا أمرهم باشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره ، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث ، فقال لبوابه : استأذن على نبي الله ، فقال : في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح ، فصاح النصريّ : أسرجوا .

فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار ، وهمّ النّصرى على الحارث فاختفى منه في سرب هناك : فقال أصحابه : هيهات يريدون أن يصلوا إلى نبي الله ، إنه قد رفع إلى السماء . قال: فأدخل النصري يده في ذلك السرب فإذا بثوبه فاجتره[1] فأخرجه ، ثم قال للفرغانيين[2] من أتراك

---

(١) أي جره واجتذبه (٢) أي الشجعان المتمردين

الخليفة ، قال : فأخذوه فقيدوه . فيقال :إن القيود والجامعة[1] سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها ؛ وجعل يقول : (قلْ إن ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نَفْسى ، وإن اهتَدَيْتُ فبما يُوحى إلىّ رَبّى إنه سَميع قريب)[2] وقال لأولئك الأتراك (أتَقْتُلون رَجُلاً أنْ يقولَ رَبّىَ اللهُ)[3] ؟ فقالوا له بلسانهم ولغتهم : هذا كرانِنا فهات كرانك ؛ أى : هذا قرآننا فهات قرآنك ، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة ، وأمر رجلاً فطعنه بحربة فانثنت فى ضلع من أضلاعه ، فقال له عبد الملك : ويحك ! أذكرت اسم الله حين طعنته ؟ فقال : نسيت ، فقال : ويحك ! سم الله ثم اطعنه ، قال فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه . وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالا من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذى به من الشيطان ، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك ، وهذا من تمام العدل والدين .

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثنى مع سمع الأعور يقول : سمعت العلاء بن زياد العدوى يقول : ما عبطت عبد الملك بشىء من ولايته إلا بقتله حارثاً ، حيث إن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبى ، فمن قاله فاقتلوه ، ومن قتل منهم أحداً فله الجنة » . وقال الوليد بن مسلم : بلغنى أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك : لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال : ولم ؟ قال : إنه إنما كان به المذهب[4] فلوجوعته لذهب ذلك عنه ، وقال الوليد عن المنذر بن نافع سمعت خالد بن الجلاح يقول لغيلان : ويحك يا غيلان ! ألم تأخذك فى شبيبتك ترامى النساء فى شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثا يحجب امرأته ويزعم أنها أم المؤمنين ، ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً

وفيها: غزا عبيدالله بن أبى بكرة رُتْبيل ملك الترك الأعظم فيهم ، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى ، فكتب الحجاج إلى ابن أبى بكرة ؛ أن ناجزه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتلته ، فخرج فى جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ، ثم التقى مع رُتْبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة ، وجاس ابن أبى بكرة وجنده خلال ديارهم ، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره ، وتبر ما هنالك تتبيراً ، ثم إن رتبيل تقهقر منه وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى ، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخا ، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً ، ثم إن الترك أخذت عليهم

---

(١) الجامعة : الغل (٢) من الآية ٥٠ من سورة سبأ (٣) من الآية ٢٨ من سورة غافر
(٤) المذهب : اسم شيطان من ولد إبليس

الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك ، حتى ظن كلٌّ من المسلمين أنه لا محالة هالك : فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل على أن يأخذ منه سبعمائة ألف ، ويفتحوا للمسلمين طريقا يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم ، فانتدب شُرَيح بن هانيء - وكان صحابيا ، وكان من أكبر أصحاب عليّ وهو المقدم على أهل الكوفة - فندب الناس إلى القتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال ، فنهاه عُبيدُ الله بن أبي بَكرة فلم ينته ، وأجابه شرذمة من الناس الشجعان وأهل الحفاظ . فما زال يقاتل بهم الترك حتى فنى أكثر المسلمين رضى الله عنهم ، قالوا وجعل شريح بن هانيء يرتجز ، ويقول :

أصبحتُ ذابتّ أقاسي الكبرَا ... قد عِشتُ بين المشركين أعصُرا

ثمت أدركت النبيَّ المنذرا ... وبعده صديقه وعُمَرا

ويومَ مِهْران ويومَ تستَرا ... والجمع في صِفّينهم والنَّهرَا

ويا جُمَيرات مع المُشقرا[1] ... هيهات ما أطول هذا عُمَرا

ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقتل معه خلق من أصحابه ، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رُتبيل ، وهم قليل ، وبلغ ذلك الحجاج فأخذ ما تقدم وما تأخر ، وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ، ويستشيره في بعث جيش كثيف إلى بلاد رُتبيل لينتقموا منه بسبب ما حل بالمسلمين في بلاده ، فحين وصل البريد إلى عبد الملك، كتب إلى الحجاج بالموافقة على ذلك ، وأن يعجل ذلك سريعاً ، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش فجهز جيشا كثيفا لذلك على ما سيأتي تفصيله في السنة الآتية بعدها . وقيل : إنه قتل من المسلمين مع شُريح بن هانيء ثلاثون ألفا ، وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار، وقاسوا شدائد ، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد قتل المسلمون من الترك خلقا كثيراً أيضاً قتلوا أضعافهم .

ويقال: إنه في هذه السنة استعفى شُرَيح من القضاء، فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته في السنة الماضية ، والله أعلم .

قال الواقدي وأبو معشر وغير واحد من أهل السير : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان أمير المدينة النبوية ، وفيها قتل قَطَريّ بن الفجاءة التميمي - أبو نعامة الخارجي ، وكان من الشجعان المشاهير، ويقال: إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخلافة ، وقد جرت له خطوب

(١) زدنا هذا لأنه ورد في الطبري

وحروب مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره ، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً في أماكنه وكان خروجه في زمن مصعب بن الزبير ، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها ، ووقائعه مشهورة . وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كثيرة فهزمها ، وقيل: إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية ، وهو على فرس أعجف وبيده عمود حديد ، فلما قرب منه كشف قطريّ عن وجهه فولى الرجل هارباً ، فقال له قطرى : إلى أين ؟ أما تستحى أن تفر ولم تر طعناً ولا ضرباً ؟ فقال : إن الإنسان لا يستحى أن يفر من مثلك . ثم إنه في آخر أمره توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش، فاقتتلوا بطبرستان ، فعثر بقطرى فرسه فوقع إلى الأرض، فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج . وقيل : إن الذى قتله سَودة بن الحرّ الدارى . وكان قطريّ بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه ، من خطباء العرب، المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن ، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره ، ومن سمعها انتفع بها :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال وَيْحكِ لن تُراعِى
فإنك لو طلبتِ بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تُطاعِى
فصبرا فى مجال الموت صبراً ... فما نَيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غايةُ كل حى ... وداعيهِ لأهل الأرض داع
فمن لا يغتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عُدّ من سَقط المتاع

ذكرها صاحب الحماسة ، واستحسنها ابن خلكان كثيراً .

وفيها: توفى عبيد الله بن أبى بكرة رحمه الله ، وهو أمير الجيش الذىدخل بلاد الترك وقاتلوا رُتبيل ملك الترك ، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هانىء كما تقدم ذلك ، وقد دخل عبيد الله بن أبى بكرة على الحجاج مرة وفى يده خاتم ، فقال له الحجاج : وكم ختمت بخاتمك هذا ؟ قال: على أربعين ألف ألف دينار ، قال : ففيم أنفقتها ؟ قال : فى اصطناع المعروف ، ورد الملهوف، والمكافأة بالصنائع وتزويج العقائل . وقيل: إن عبيدالله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد فأعطاها ثلاثين ألفا . وقيل : إنه أهدى إليه وصيف ووصيفة وهو جالس بين أصحابه ، فقال لبعض أصحابه : خذهما لك ، ثم فكر وقال : والله إن إيثار بعض الجلساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة ، ثم قال : يا غلام ، ادفع إلى كل واحد من جلسائى وصيفا ووصيفة ، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفاً ووصيفة . توفى عبيد الله بن أبى بكرة ببست وقيل بزرخ ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، والحمد لله رب العالمين .

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

ففيها كان السيل الجُحَاف [1] بمكة ، لأنه جَحَفَ على كل شيء فذهب به ، وحمل الحجاج من بطن مكة الجمال بما عليها ، والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن ينقذهم منه ، وبلغ الماء إلى الحجون ، وغرق خلق كثير ، وقيل: إنه ارتفع حتى كاد أن يغطى البيت ، والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الواقدى أنه قال : كان بالبصرة فى هذه السنة الطاعون ، والمشهور أنه كان فى سنة تسع وستين كما تقدم . وفيها قطع المهلب بن أبى صفرة نهر ، وأقام بكش [2] سنتين صابراً مصابراً للأعداء من الأتراك ، وجرت له معهم هنالك فصول يطول ذكرها . وفد عليه فى غضون هذه المدة كتاب ابن الأشعث بخلعه الحجاج ، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ، ثم كان ما سيأتى بيانه وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث . وفى هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رُتبيل ملك الترك ، ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبى بكرة فى السنة الماضية ، فجهز أربعين ألفاً - من كل من المصرين عشرين ألفاً ، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، مع أنه كان الحجاج يبغضه جداً ، حتى قال : ما رأيته قط إلا هممت بقتله ، ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبى فقال : انظر إلى مشيته ، والله لقد هممت أن أضرب عنقه ، فأسرها الشعبى إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدن أن أزيله عن سلطانه إن طال بى وبه البقاء .

والمقصود : أن الحجاج أخذ فى استعراض هذه الجنود وبذل فيهم العطاء ، ثم اختلف رأيه فيمن يؤمّر عليهم ، ثم وقع اختياره على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقدمه عليهم ، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج : إنى أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الفرات ، فقال : ليس هو هنالك ، هو لى حبيب ، ومنى أرهب أن يخالف أمرى أو يخرج من طاعتى ؟ فأمضاه عليهم ، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رُتبيل .

فلما بلغ رُتبيل مجىء ابن الأشعث بالجنود إليه ، كتب إليه رُتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين فى بلاده فى السنة الماضية ، وأنه كان لذلك كارهاً ، وأن المسلمين هم الذين ألجؤه إلى قتالهم ، وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن يبذل للمسلمين الخراج ، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك ، وصمم على دخول بلاده ، وجمع رُتبيل جنوده وتهيأ له ولحربه ، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة، أو أخذ قلعة من بلاد رُتبيل - استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له ، وجعل المشايخ

---

(1) الجحاف : الذى يذهب بكل شيء (2) كش : بلدة بجرجان .

على كل أرض ومكان مخوف ، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رُتبيل ، وغنم أموالا كثيرة جزيلة ، وسبى خلقاً كثيرة ، ثم حبس الناس عن التوغل فى بلاد رُتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد ، ويتقوا بما فيها من المغلات والحواصل ، ثم يتقدمون فى العام المقبل إلى أعدائهم، فلا يزالون يحوزون الأراضى والأقاليم حتى يحاصروا رُتبيل وجنوده فى مدينتهم ـ مدينة العظماء ـ على الكنوز والأموال والذرارى حتى يغنموها، ثم يقتلون مقاتلتهم، وعزموا على ذلك ، وكان هذا هو الرأى . وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم، وبهذا الرأى الذى رآه لهم . وقال بعضهم : كان الحجاج قد وجه هميان بن عدى السدوسى إلى كرما مسلحا لأهلها ، ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك ، فعصى هميان ومن معه على الحجاج ، فوجه الحجاج إليه ابن الأشعث فهزمه، وأقام ابن الأشعث بمن معه ، ومات عبيد الله ابن أبى بكرة ، فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبى بكرة ، وجهز إلى ابن الأشعث جيشاً أنفق عليه ألفى ألف ـ سوى أعطياتهم ، وكان يدعى هذا الجيش : جيش الطواويس ، وأمره بالإقدام على رُتبيل فكان من أمره معه ما تقدم .

قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس فى هذه السنة ـ أبان بن عثمان ، وقال غيرهما : بل حج بهم سليمان بن عبد الملك . وكان على الصائفة فى هذه السنة الوليد بن عبد الملك ، وعلى المدينة أبان ابن عثمان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة ـ أبو بُردة بن أبى موسى ، وعلى قضاء البصرة ـ موسى بن أنس بن مالك . وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

أسلم مولى عمر بن الخطاب : وهو أبو زيد بن أسلم، أصله من سبى عين التمر، اشتراه عمر بمكة لما حج سنة إحدى عشرة ، وتوفى وعمره مائة وأربع عشرة سنة ، وروى عن عمر عدة أحاديث، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً، وله مناقب كثيرة رحمه الله .

جبير بن نفير : ابن مالك الحضرمى، له صحبة ورواية ، وكان من علماء أهل الشام ، وكان مشهوراً بالعبادة والعلم، توفى بالشام وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل: أكثر، وقيل: أقل .

عبد الله بن جعفر بن أبى طالب : ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عميس ، وهو آخر من رأى النبى ﷺ من بنى هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة « أتى النبى ﷺ إلى أمهم فقال : ائتونى ببنى أخى ، فأتى بهم كأنهم أفرخ ، فدعا بالحلاق فحلق رءوسهم ثم قال : اللهم اخلف جعفراً فى أهله، وبارك لعبد الله فى صفقته ، فجاءت أمهم فذكرت للنبى ﷺ أنه ليس لهم شىء ، فقال: أنا لهم عوضاً من أبيهم » ، وقد بايع النبى ﷺ عبد الله بن جعفر

وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين ، وهذا لم يتفق لغيرهما ؛ وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس ؛ يعطى الجزيل الكثير ويستقله ، وقد تصدق مرة بألفى ألف ، وأعطى مرة رجلا ستين ألفا ، ومرة أعطى رجلا أربعة آلاف دينار . وقيل : إن رجلا جاب مرة سكرا إلى المدينة فكسد عليه ، فلم يشتره أحد ، فأمر ابن جعفر قيمه أن يشتريه وأن يهديه للناس . وقيل : إن معاوية لما حج ونزل فى دار مروان قال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن ، أو الحسين ، أو ابن جعفر أو فلانا ؟ وعد جماعة ـ فخرج فلم ير أحداً ، فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فأتى معاوية فأخبره فقال : ما أنا إلا كأحدهم ، ثم أخذ عصا فتوكأ عليها ، ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل ، فأجلسه فى صدر فراشه ، فقال له معاوية : أين غداؤك يا ابن جعفر ؟ فقال : وما تشتهى من شىء فأدعو به ؟ فقال معاوية : أطعمنا مخاً . فقال: يا غلام هات مخا ، فأتى بصحيفة فأكل معاوية ، ثم قال ابن جعفر لغلامه : هات مخاً ، فجاء بصحيفة أخرى ملآنة مخاـ إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات ، فتعجب معاوية وقال : يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء . فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار ، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية ، وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم ، ويقضى له مائة حاجة . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد ، فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له: كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة ؟ قال: ألف ألف . فقال له : قد أضعفناها لك ، وكان يعطيه ألفى ألف كل سنة ، فقال له عبد الملك بن جعفر : بأبى أنت وأمى ! ما قلتها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، فقال يزيد : ولا أعطاكها أحد قبلى ولا يعطيكها أحد بعدى . وقيل: إنه كان عند ابن جعفر جارية مغنية تسمى: عمارة ، وكان يحبها محبة عظيمة ، فحضر عنده يزيد بن معاوية يوماً فغنت الجارية ، فلما سمعها يزيد افتتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منه ، فلم يزل فى نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية ، فبعث يزيد رجلا من أهل العراق ، وأمره أن يتطلع فى أمر هذه الجارية ، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليه هدايا وتحفا كثيرة ، وأنس به ، ولا زال حتى أخذ الجارية وأتى يزيد . وكان الحسن البصرى يذم ابن جعفر على سماعه الغناء واللهو وشرائه المولدات ، ويقول : أما يكفيه هذا الأمر القبيح المتلبس به من هذه الأشياء وغيرها ؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله ﷺ ، وكان الحجاج يقول: إنما تزوجتها لأذل بها آل أبى طالب . وقيل : إنه لم يصل إليها ، وقد كتب عبد الملك إليه أن يطلقها فطلقها . أسند عبد الله بن جعفر ثلاثة عشر حديثاً .

أبو إدريس الخولانى : اسمه عائذ الله بن عبد الله ، له أحوال ومناقب ، كان يقول : قلب نقى فى ثياب دنسة ـ خير من قلب دنس فى ثياب نقية . وقد تولى القضاء بدمشق ، وقد ذكرنا ترجمته فى كتابنا « التكميل » .

معبد الجهني القدري: يقال إنه معبد بن عبد الله بن عليم، راوي حديث: «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وقيل غير ذلك في نسبه. سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية، وعمران بن حصين، وغيرهم. وشهد يوم التحكيم، وسأل أبا موسى في ذلك ووصاه ثم اجتمع بعمرو بن العاص فوصاه في ذلك فقال له: أيها يا تيس جهينة، ما أنت من أهل السر والعلانية، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل. وهذا توهم فيه من عمرو بن العاص، ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر، ويقال إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له: سوس، وأخذ غيلان القدر من معبد. وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة، ووثقه ابن معين وغيره في حديثه. وقال الحسن البصري: إياكم ومعبداً فإنه ضال مضل، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله. وقال سعيد ابن عفير: بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله. وقال خليفة بن خياط: مات قبل التسعين ـ فالله أعلم، وقيل: إن الأقرب قتل عبد الملك له، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

ففيها: فتح عُبيد الله بن عبد الملك بن مروان ـ مدينة قاليقلا. وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة، وفيها: قُتل بُكير بن وشاح، قتله بَحير بن وَرقاء الصُّرَيمي، وكان بُكير من الأمراء الشجعان. ثم ثار لبُكير بن وشاح رجل من قومه يقال له: صعصعة بن حَرب العوفي الصريمي، فقتل بُحير ابن ورقاء الذي قتل بكيرا؛ طعنه بخنجر وهو جالس عند المهلب بن أبي صفرة، فحمل إلى منزله وهو بآخر رمق، فبعث المهلب بصعصعة إليه، فلما تمكن منه بُحير بن ورقاء قال: ضعوا رأسه عند رجل، فوضعوه فطعنه بحير بحربته حتى قتله ومات على إثره. وقد قال له أنس بن طارق: اعف عنه فقد قتلت بكير بن وشاح، فقال: لا والله لا أموت وهذا حَي ـ ثم قتله، وقد قيل إنه إنما قتل بعد موته فالله أعلم.

فتنة ابن الأشعث

قال أبو مخنف: كان ابتداؤها في هذه السنة. وقال الواقدي: في سنة ثنتين وثمانين، وقد ساقها ابن جرير في هذه السنة فوافقناه في ذلك. وكان سبب هذه الفتنة: أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه، وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه، فلما أمره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره، وأمره بدخول بلاد رُتبيل ملك الترك، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقووا إلى العام المقبل، فكتب

إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه فى ذلك، ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنُّكول عن الحرب ، ويأمره حتما بدخول بلاد رُتبيل ، ثم أردف ذلك بكتاب ثان - ثم ثالث مع البريد ، وكتب فى جملة ذلك : يا ابن الحائك الغادر المرتدّ ، امض إلى ما أمرتك به من الإيغال فى أرض العدو وإلا حلّ بك مالا يطاق وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث : ويقول : هو أهوج أحمق حسود ، وأبوه الذى سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله ، ودلّ عبيد الله بن زياد على مُسلم بن عقيل حتى قتله ، وجدّه الأشعث ارتد عن الإسلام ، وما رأيته قط إلا هممت بقتله .

ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البُرد بذلك ، غضب ابن الأشعث وقال : يكتب إلى بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندى ، ولا من بعض خدمى ؛ لخَوَره وضعف قوته ؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غَزالة - يعنى أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه ، فانهزموا منها وهى امرأة لما دخلت الكوفة - ثم إن ابن الأشعث جمع رُءوس أهل العراق وقال لهم : إن الحجاج قد ألحّ عليكم فى الإيغال فى بلاد العدو ، وهى البلاد التى قد هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد ، فانظروا فى أمركم ، أما أنا فلست مُطيعه ولا أنقض رأيا رأيته بالأمس ، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأى له ولهم ، وطلب فى ذلك من إصلاح البلاد التى فتحوها ، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلاّتها وأموالها ، ويخرج عنهم فصل البرد ، ثم يسيرون فى بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رُتبيل ملك الترك فى مدينة العظماء .

ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعاجلة رُتبيل ، فثار إليه الناس وقالوا : لا - بل نأبى على عدو الله الحجاج ، ولا نسمع له ولا نطيع .

قال أبو مخنف : فحدثنى مطرّف بن عامر بن واثلة الكنانى ، أن أباه كان أول من تكلم فى ذلك ، وكان شاعراً خطيباً ، وكان مما قال : إن مثل الحجاج فى هذا الرأى ومثلنا - كما قال الأول لأخيه : احمل عَبْدَك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك . أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة فى سلطانه ، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء . ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج - ولم يذكر خلع عبد الملك - وبايعوا لأميركم عبد الرحمن ابن الأشعث ، فإنى أشهدكم أنى أول خالع للحجاج . فقال الناس من كل جانب : خلعنا عدو الله ، ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج ، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان ، وبعث ابن الأشعث إلى رُتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رُتبيل أبداً . ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلا من سجستان إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق ، فلما توسطوا

الطريق قالوا : إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان ، فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث ، فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله ، وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين، فإذا قالوا نعم بايعهم .

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان ، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستعجله في بعثه الجنود إليه ، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة ، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث ، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك فأبى عليه ، وبعث بكتابه إلى الحجاج . وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له : إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل ، أبق على أمة محمد ﷺ ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فإن قلت أخاف الناس على نفسي، فالله أحق أن تخافه من الناس ، فلا تعرضها لله في سفك الدماء ، أو استحلال محرم ، والسلام عليك .

وكتب المهلب إلى الحجاج : أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علو ، ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره ، وإن لأهل العراق شرة[1] في أول مخرجهم ، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردهم حتى يصلوا إلى أهليهم وينبسطوا إلى نسائهم ويشموا أولادهم . ثم واقفهم عندها فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله . فلما قرأ الحجاج كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله مالي نظر ، ولكن لابن عمه نصح ولما وصل البريد بكتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ، ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج فقال : يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فخفه ، وإن كان من قبل سجستان فلا تخفه ، ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث ، وعصى رأى المهلب فيما أشار به عليه ، وكان في مشورته النصح والصدق ، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع من عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساء ، أين نزل ؟ ومن أين ارتحل ؟ وأى الناس إليه أسرع ؟ وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس، ومائة وعشرون ألف راجل .

وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث ، فنزل تستر ، وقدم بين يديه مطهر بن حر العكي أميراً على المقدمة ، ومعه عبد الله بن رميثة أميراً آخر ، فانتهوا إلى دجيل فإذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي ، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل ، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة ، واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وقماش وأموال ، وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة

(١) الشرة : النشاط والإقدام .

أصحابه ، وأخذه ما دَبَّ ودرج . وقد كان قائماً يخطب ، فقال : أيها الناس ، ارجعوا إلى البصرة ، فإنه أرفق بالجند . فرجع بالناس، وتبعتهم خيول ابن الأشعث ، لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه ، ولا فاذاً إلا أهلكوه[1] ، ومضى الحجاج هارباً،لا يلوى على شىء، حتى أتى الزاوية فعسكر عندها، وجعل يقول : لله در المهلب ، أى صاحب حرب هو ! قد أشار علينا بالرأى ، ولكنا لم نقبل .

وأنفق الحجاج على جيشه ـ وهو بهذا المكان ـ مائة وخمسين ألف ألف درهم ، وخندق حول جيشه خندقاً ، وجاء أهل العراق ، فدخلوا البصرة ، واجتمعوا بأهاليهم ، وشموا أولادهم ودخل ابن الأشعث البصرة ، فخطب الناس بهم ، وبايعهم ، وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : ليس الحجاج بشىء ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله ، ووافقه على خلعهما جميع من فى البصرة من الفقهاء ، والقرّاء ، والشيوخ ، والشباب . ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة ، فعمل ذلك ، وكان ذلك فى أواخر ذى الحجة من هذه السنة .

وحج بالناس فيها ـ إسحاق بن عيسى[2] ، فيما ذكره الواقدى وأبو معشر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفيها غزا موسى بن نصير ـ أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك ـ بلاد الأندلس ، فافتتح مدناً كثيرة ، وأراضى عامرة ، وأوغلَ فى بلاد المغرب ، إلى أن وصل إلى الرقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط ، والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان : بحَير بن ورقاء الصريمى ـ أحد الأشراف بخراسان ، والقواد والأمراء الذى حارب ابن خازم وقتله ، وقتل بُكَير بن وشاح . ثم قتل فى هذه السنة .

سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر ، أبو أمية الجعفى الكوفى ، شهد اليرموك ، وحدث عن جماعة من الصحابة ، وكان من كبار المخضرمين ، ويقال : إنه رأى النبى ﷺ ، وكان مولده عام ولد النبى ﷺ ، وصلى معه . والصحيح أنه لم يره ، وقيل : إنه ولد بعده بسنتين ، وعاش مائة وعشرين سنة ـ لم ير يوماً محتبياً ولا متساندا ، وافتض بكراً عام وفاته فى سنة إحدى وثمانين ، قاله أبو عبيد وغير واحد ، وقيل : إنه توفى فى سنة ثنتين وثمانين ، فالله أعلم .

عبد الله بن شداد بن الهاد : كان من العباد الزهاد ، والعلماء ، وله وصايا وكلمات حسان ، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة ، وعن خلق من التابعين .

---

(١) الشذاذ من الناس : المتفرقون . والفذ : المنفرد . يريد أنهم شجعان لا يفلت منهم أحد .

(٢) فى الطبرى أن الذى حج فى هذه السنة سليمان بن عبد الملك ، نقلا عن إسحاق بن عيسى .

محمد بن على بن أبي طالب ، أبو القاسم ، وأبو عبد الله أيضاً ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وكانت سوداء سندية من بني حنيفة ، اسمها خولة . ولد محمد في خلافة عمر بن الخطاب ، ووفد على معاوية ، وعلى عبد الملك بن مروان ، وقد صرع مروان يوم الجمل ، وقعد على صدره ، وأراد قتله ، فناشده مروان بالله ، وتذلل له وأطاعه ، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك ، فقال : عفواً يا أمير المؤمنين ، فعفا عنه ، وأجزل له الجائزة . وكان محمد بن على من سادات قريش ، ومن الشجعان المشهورين ، ومن الأقوياء المذكورين . ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه ، فجرى بينهما شر عظيم حتى هم ابن الزبير به وبأهله ، كما تقدم ذلك . فلما قتل ابن الزبير ، واستقر أمر عبد الملك ، وبايعه ابن عمر ، تابعه ابن الحنفية ، وقدم المدينة فمات بها في هذه السنة . وقيل : في التي قبلها ، أو في التي بعدها ، ودفن بالبقيع . والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى ، وأنه حي يرزق ، وهم ينتظرونه ، وقد قال كثير عزة في ذلك :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... تعود الخيل يقدمها لواء

ولما هم ابن الزبير بابن الحنفية ، كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبي الطفيل واثلة بن الأسقع ــ وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله ــ وقد كان ابن الزبير جمع لهم حطباً كثيراً على أبوابهم ليحرقهم بالنار ، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار ــ وقد كان المختار يدعو إليه ، ويسميه المهدي ــ فبعث المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف ، فاستنقذوا بني هاشم من يدي ابن الزبير . وخرج معهم ابن عباس ، فمات بالطائف ، وبقي ابن الحنفية في شيعته ، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه ، فخرج إلى أرض الشام بأصحابه ــ وكانوا نحو سبعة آلاف . فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك : إما أن تبايعني ، وإما أن تخرج من أرضي ، فكتب إليه ابن الحنفية : أبايعك على أن تؤمن أصحابي ، قال : نعم .

فقام ابن الحنفية في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : الحمد لله الذي حقن دماءكم ، وأحرز دينكم ، فمن أحب منكم أن يأتي مأمنه إلى بلده محفوظاً فليفعل ، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقي في سبعمائة رجل ، فأحرم بعمرة ، وقلد هدياً ، وسار نحو مكة . فلما أراد دخول الحرم ، بعث إليه ابن الزبير خيلا ، فمنعه أن يدخل ، فأرسل إليه : إنا لم نأت لحرب ولا لقتال ، دعنا ندخل حتى نقضي نسكنا ، ثم نخرج عنك ، فأبى عليه ، وكان معه بدن قد قلدها ، فرجع

إلى المدينة ، فأقام بها محرماً حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير ، فكان ابن الحنفية فى تلك المدة محرماً . فلما سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة ، وقضى نسكه ، وذلك بعد عدة سنين، وكان القمل يتناثر منه فى تلك المدة كلها. فلما قضى نسكه رجع إلى المدينة وأقام بها حتى مات، وقيل : إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية : قد قتل عدو الله فبايع ، فكتب إليه : إذا بايع الناس كلهم بايعت ، فقال الحجاج : والله لأقتلنك ، فقال ابن الحنفية : إن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة فى اللوح المحفوظ ، فى كل نظرة ثلاثمائة وستون قضية ، فلعل الله تعالى أن يجعلنى فى قضية منها فيكفينيك فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك ، فأعجبه قوله ، وكتب إليه : قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف ، فارفق به ، فهو يأتيك ويبايعك . وكتب عبد الملك بكلامه ذلك – إن لله ثلاثمائة وستين نظرة – إلى ملك الروم .

وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدده بجموع من الجنود لا يطيقها أحد ، فكتب بكلام ابن الحنفية ، فقال ملك الروم : إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك ، وإنما خرج من بيت نبوّة .

ولما اجتمع الناس على بيعة عبد الملك ، قال ابن عمر لابن الحنفية : ما بقى شىء فبايع ، فكتب ببيعته إلى عبد الملك ، ووفد عليه بعد ذلك .

توفى ابن الحنفية فى الحرم بالمدينة ، وعمره خمس وستون سنة ، وكان له من الولد : عبد الله ، وحمزة ، وعلى ، وجعفر الأكبر ، والحسن ، وإبراهيم ، والقاسم ، وعبد الرحمن ، وجعفر الأصغر ، وعون ، ورقية ، وكلهم لأمهات شتى .

وقال الزبير بن بكار : كانت شيعته تزعم أنه لم يمت ، وفيه يقول السيد :

ألا قل للوصىّ فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منـا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طراً مقامك فيهم ستين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بمورق شعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وإنّ له به لمقيل صدق وأندية تحدثه كراما
هدانا الله اذ حزتم لأمر به عليه يلتمس التماما
تمام نوره المهدى حتى تروا راياته تترى نظاما

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه فى آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة

أخرى ، منهم : الحسن بن محمد العسكرى ، الذى يخرج فى زعمهم من سرداب سامرا ، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وترهاتهم ، وسنزيد ذلك وضوحاً فى موضعه إن شاء الله .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففى المحرم منها - كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج فى آخره ، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام ، ثم تواقفوا يوماً آخر ، فحمل سفيان بن الأبرد - أحد أمراء أهل الشام - على ميمنة ابن الأشعث فهزمها ، وقتل خلقاً كثيراً من القراء من أصحاب ابن الأشعث فى هذا اليوم ، وخرّ الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثا على ركبتيه ، وسل شيئاً من سيفه ، وجعل يترحّم على مصعب بن الزبير ويقول : ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل . وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث : أبو الطفيل بن عامر بن واثلة الليثى ، ولما فرّ أصحاب ابن الأشعث رجع ابن الأشعث بمن بقى معه ومن تبعه من أهل البصرة ، فسار حتى دخل الكوفة ، فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه ، فقاتل الحجاج خمس ليال أشد القتال ، ثم انصرف ، فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة ، فاستناب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم بن أبى عُقيل ، ودخل ابن الأشعث الكوفة ، فبايعه أهلها على خلع الحجاج ، وعبد الملك بن مروان . وتفاقم الأمر ، وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال ، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع .

قال الواقدى : ولما التقى جيش الحجاج ، وجيش ابن الأشعث بالزاوية ، جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة ، فقال القراء : - وكان عليهم جَبلة بن زحر - أيها الناس! ليس الفرار من أحد بأقبح منكم، فقاتلوا عن دينكم ودنياكم . وقال سعيد بن جبير نحو ذلك وقال الشعبى : قاتلوهم على جورهم ، واستذلالهم الضعفاء ، وإماتتهم الصلاة ، ثم حملت القراء - وهم العلماء - على جيش الحجاج حملة صادقة ، فبرعوا فيهم . ثم رجعوا ، فإذا هم بمقدمهم جبلة بن زُحر صريعاً ، فهدّم ذلك ، فناداهم جيش الحجاج : يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم ، ثم حمل سفيان بن الأبرد ، وهو على خيل الحجاج - على ميسرة ابن الأشعث ، وعليها الأبرد بن مرة التميمى ، فانهزموا ولم يقاتلوا كثير قتال ، فأنكر الناس منهم ذلك . وكان أمير مَيسرة ابن الأشعث الأبْرد شجاعاً لا يفرّ ، وظنوا أنه قد خامر ، فنقضت الصفوف ، وركب الناس بعضهم بعضاً ، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال ؛ فلما رأى ما الناس فيه ، أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة ، فبايعه أهلها ، ثم كانت وقعة « دَيْر الجاجم » فى شعبان من هذه السنة

وقعة دير الجماجم

قال الواقدى : وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة ، خرج إليه أهلها فتلقوه وحفّوا به ودخلوا بين يديه ، غير أن شِرْذمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مَطَر بن ناجية - نائب الحجاج - فلم يمكنهم من ذلك ، فعدلوا إلى القصر ، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلالم فنصبت على قصر الإمارة ، فأخذه واستنزل مطَر بن ناجية ، وأراد قتله ، فقال له : استبقنى فإنى خير من فرسانك ، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه ، وبايعه ، واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة ، وانضم إليه من جاء من أهل البصرة . وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب ، وأمر بالمسالح من كل جانب ، وحفظت الثغور والطرق والمسالك . ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة فى البر حتى مرّ بين القادسية والعُذيب ، وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس فى خيل عظيمة من المصرين ، فمنعوا الحجاج من دخول القادسية ، فسار الحجاج حتى نزل دير قُرَّة ، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم ، ومعه جنود كثيرة ، وفيهم القراء ، وخلق من الصالحين . وكان الحجاج بعد ذلك يقول : قاتل الله ابن الأشعث ، أما كان يزجُر الطَّير حيث رآنى قد نزلت دير قُرَّة ، ونزل هو بدير الجماجم .

وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، وقدم على الحجاج فى غُبون ذلك أمداد كثيرة من الشام ، وخندق كل من الطائفتين على نفسه ، وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم ، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض فى كل يوم فيقتتلون قتالا شديداً فى كل حين ، حتى أصيب من رءوس الناس خلق من قريش وغيرهم . واستمر هذا الحال مدة طويلة ، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك ابن مروان ، فقالوا له : إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج - فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم ، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان ، وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ومعهما جنود كثيرة جداً ، وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق يقول لهم : إن كان يرضيكم منّى عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم ، وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام ، وليختر ابن الأشعث أى بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان ، وقال فى عهده هذا : فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك ، فالحجاج على ما هو عليه ، وإليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان ، وعبد الله بن عبد الملك فى طاعة الحجاج وتحت أمره ، لا يخرجون عن رأيه فى الحرب وغيره .

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق ؛ من عزله إن رضوا به ، شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً ، وعظم شأن هذا الرأى عنده ، وكتب إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى عنهم ، لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعى على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يفلح ، كان الله لك فيما ارتأيت ، والسلام عليك .

قال : فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر ، فتقدم عبد الله ومحمد ، فنادى عبد الله : يا معشر أهل العراق ، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت ؛ فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال . وقال محمد بن مروان : وأنا رسول أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك ، فقالوا : ننظر فى أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية ، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك ، وإبقاء الأعطيات ، وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج ، فنفر الناس من كل جانب وقالوا : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعُدداً ، وهم فى ضيق من الحال ، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا ، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً . ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية ، واتفقوا على ذلك كلهم .

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك ، وعمه محمداً ــ الخبر ، قالا للحجاج : شأنك بهم إذاً ، فنحن فى طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين ، فكانا إذا لقياه سلما عليه بالإمرة ويسلم هو أيضاً عليهم بالإمرة ، وتولى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك . فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب ، فجعل الحجاج على ميمنته ــ عبد الرحمن بن سليم ، وعلى ميسرته ــ عمارة بن تميم اللخمى ، وعلى الخيل ــ سفيان بن الأبرد . وعلى الرجالة ــ عبد الرحمن بن حبيب[1] الحكمى . وجعل ابن الأشعث على ميمنته ــ الحجاج بن حارثة الجشمى[2] ، وعلى الميسرة ــ الأبرد بن قرة التميمى . وعلى الخيالة ــ عبد الرحمن بن عباس بن أبى ربيعة ، وعلى الرجالة ــ محمد بن سعد بن أبى وقاص الزهرى ؛ وعلى القراء ــ جبلة بن زحر بن قيس الجعفى . وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبى ، وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وكميل بن زياد ــ وكان شجاعاً فاتكا على كبر سنه ــ وأبو البخترى الطائى وغيرهم ، وجعلوا يقتتلون فى كل يوم ، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق[3] والأقاليم ، من العلف والطعام . وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم فى أضيق حال من العيش ، وقلة

(١) فى ابن الأثير : ابن خبيب (٢) فى الطبرى : ابن جارية الخثعمى (٣) القرى

من الطعام ، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه . وما زالت الحرب فى هذه المدة كلها ، حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم فى كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام فى أكثر الأيام . وقد قتل من أصحاب الحجاج : زياد بن غنم ، وكسر بسطام ابن مصقلة فى أربعة آلاف جفون سيوفهم واستقتلوا ، وكانوا من أصحاب ابن الأشعث.

وفى هذه السنة كانت وفاة المهلب بن أبى صفرة ؛ وهو المهلب بن أبى صفرة ظالم أبو سعيد الأزدى ، أحد أشراف أهل البصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرمائهم . ولد عام الفتح ، وكانوا ينزلون فيما بين عمان والبحرين ، وقد ارتد قومه فقاتلهم عكرمة بن أبى جهل فظفر بهم ، وبعث بهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة، وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث ، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا فى أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين، وولى الجزيرة لابن الزبير سنة ثمان وستين ، ثم ولى حرب الخوارج أول دولة الحجاج ، وقتل منهم فى وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة ، فعظمت منزلته عند الحجاج . وكان فاضلا شجاعاً كريماً يحب المدح. وله كلام حسن ، فمنه : نعم الخصلة السخاء ؛ تستر عورة الشريف وتلحق خسيسة الوضيع ، وتحبب المزهود فيه . وقال : يعجبنى فى الرجل خصلتان: أن أرى عقله زائدا على لسانه ، ولا أرى لسانه زائداً على عقله .

توفى المهلب غازياً بمرو الروذ وعمره ستة وسبعون سنة ـ رحمه الله . وكان له عشرة من الولد وهم : يزيد ، وزياد ، والمفضل ، ومدرك ، وحبيب ، والمغيرة ، وقبيصة ، ومحمد ، وهند ، وفاطمة .

توفى المهلب فى ذى الحجة منها ، وكان من الشجعان ، وله مواقف حميدة ، وغزوات مشهورة فى الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج ، وجعل الأمر من بعده ليزيد بن المهلب على إمرة خراسان ، فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان .

أسماء بن خارجة الفزارى الكوفى : وكان جواداً ممدحا ، حكى أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال : حاجة لا أستطيع ذكرها ، فألح عليه فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبى معها ، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده ، حتى مرت تلك الجارية فقال : هذه ، فقال له : اخرج فاجلس على الباب مكانك ، فخرج الشاب فجلس مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلى ، وقال له : ما منعنى أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار ، إلا أن الجارية كانت لأختى ، وكانت ضنينة بها ، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف ، وألبستها هذا الحلى ، فهى لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف .

المغيرة بن المهلب : ابن أبي صفرة ، كان جواداً ممدحا شجاعا ، له مواقف مشهورة .

الحارث بن عبد الله : ابن ربيعة المخزومي ـ المعروف بقباع ، ولي إمرة البصرة لابن الزبير .

محمد بن أسامة بن زيد بن حارثة : كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم ، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع .

عبد الله بن أبي طلحة بن أبي الأسود : ـ والد الفقيه إسحاق ، حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها ، فأصبح أبو طلحة فأخبر النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « عرستم بارك الله لكما في ليلتكما » . ولما ولد حنكه بتمرات :

عبد الله بن كعب بن مالك : كان قائد كعب حين عمي ، له روايات ، توفي بالمدينة هذه السنة .

عفان بن وهب : أبو أيمن الخولاني المصري ، له صحبة ورواية ، وغزا المغرب ، وسكن مصر وبها مات .

جميل بن عبد الله : ابن معمر بن صباح بن ظبيان بن الحسن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبيد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سرهد بن أسلم بن الحاف ابن قضاعة ـ أبو عمرو الشاعر صاحب بثينة ، كان قد خطبها فمنعت منه ، فتغزل فيها واشتهر بها ، وكان أحد عشاق العرب ، كانت إقامته بوادي القرى ، وكان عفيفاً حيياً دينا شاعرا إسلاميا ، من أفصح الشعراء في زمانه ، وكان كثير عزة راويته ، وهو يروي عن هدبة بن خشرم عن الحطيئة عن زهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب . قال كثير عزة : كان جميل أشعر العرب حيث يقول :

وأخبرتماني أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمي بليلى المراميا

ومنها قوله : وما زلت بي يا بثن حتى لو انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

وما زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا

وما أحدث النأي المفرق بيننا ... سلوًّا ولا طول اجتماع تقاليا

ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديا

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وله أيضاً : إني لأحفظ غيبكم ويسرني ... لو تعلمين بصالح أن تذكري

إلى أن قال : ما أنت والوعد الذي تعدينني ... إلا كبرق سحابة لم تمطر

وقوله : ورروى لعمرو بن أبي ربيعة ، فيما نقله ابن عساكر :

ما زلت أبغي الحي أتبع فلهم ... حتى دفعت إلى ربيبة هودج

فدنوت مختفيا ألم ببيتهـــا حتى ولجت إلى خفى المولج
قالت: وعيش أخى ونعمة والدى لأنبهن الحى إن لم تخرج
فتناولت رأسى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تحرج
فلثمت فاها آخـــذاً بقرونها فرشفت ريقا بارداً متثلج

قال كثير عزة : لقينى جميل بثينة ، فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من عند هذه الحبيبة ، فقال : وإلى أين ؟ فقلت : وإلى هذه الحبيبة - يعنى عزة - فقال : أقسمت عليك لما رجعت إلى بثينة فواعدتها لى ، فإن لى من أول الصيف ما رأيتها ، وكان آخر عهدى بها بوادى القرى ، وهى تغسل هى وأمها ثوباً ، فتحادثنا إلى الغروب . قال كثير : فرجعت حتى أنخت بهم ، فقال أبو بثينة : ما ردك يا ابن أخى ؟ فقلت : أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك ، فقال : وما هى ؟ فأنشدته وبثينة تسمع من وراء الحجاب :

فقلت لها : يا عز أرسل صاحبى إليك رسولا والرسول موكل
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعل
وآخر عهدى منك يوم لقيتنى بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل

فلما كان الليل أقبلت بثينة إلى المكان الذى واعدته إليه ، وجاء جميل - وكنت معهم - فما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادمات ، وانفض ذلك المجلس ، وما أدرى أيهما أفهم لما فى ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار ، عن عباس بن سهل الساعدى ، أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له : ما تقول فى رجل لم يشرب الخمر قط ، ولم يزن قط ، ولم يسرق ، ولم يقتل النفس ، وهو يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : أظنه قد نجا ، وأرجو له الجنة ، فمن هذا ؟ قال : أنا ، فقلت : الله ما أظنك سلمت وأنت تشبب بالنساء منذ عشرين سنة - ببثينة ، فقال : لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ - وإنى لفى أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا - إن كنت وضعت يدى عليها بريبة ، قال : فما برحنا حتى مات . قلت : كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز ابن مروان ، فأكرمه وسأله عن حبه بثينة ، فقال : شديداً ، واستنشده من أشعاره ومدائحه ، فأنشده ، فوعده أن يجمع بينه وبينها ، فعاجلته المنية فى سنة ثنتين وثمانين - رحمه الله آمين .

وقد ذكر الأصمعى عن رجل ، أن جميلا قال له : هل أنت مبلغ عنى رسالة إلى حى بثينة ، ولك

ما عندي ؟ قالي : نعم ! قال : إذا أنا مت فاركب ناقتي ، والبس حلتي هذه ، وأمره أن يقول أبياتاً . منها قوله :

قومي بثينـــة فاندبي بعويل وابكي خليلا دون كل خليل

فلما انتهى إلى حيهم أنشد الأبيات ، فخرجت بثينة كأنها بدر سرى في جنة ، وهي تتثنى في مرطها ، فقالت له : ويحك إن كنت صادقاً ! فقد قتلتني ، وإن كنت كاذباً فقد فضحتني ، فقلت : بلى والله صادق ، وهذه حلته وناقته ، فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتاً ترثيه بها وتتأسف عليه فيها ، وأنه لا يطيب لها العيش بعده ، ولا خير لها في الحياة بعد فقده ، ثم ماتت من ساعتها . قال الرجل : فما رأيت أكثر باكياً ولا باكية من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق : لو تركت الشعر وحفظت القرآن ؟ فقال : هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من الشعر لحكمة » .

عمر بن عبيد الله بن معمر بن عثمان ـ أبو حفص القرشي التيمي . أحد الأجواد والأمراء الأمجاد ، فتحت على يديه بلدان كثيرة ، وكان نائباً لابن الزبير على البصرة ، وقد فتح كابل مع عبد الله ابن خازم ، وهو الذي قتل قطري بن الفجاءة . روى عن ابن عمر ، وجابر ، وغيرهما ، وعن عطاء بن أبي رباح ، وابن عون ، ووفد على عبد الملك ، فتوفي بدمشق سنة ثنتين وثمانين ، قاله المدائني . وحكى أن رجلا اشترى جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره ، فأحبها حباً شديداً ، وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ، ولم يبق له شيء سوى هذه الجارية ، فقالت له الجارية : قد أرى ما بك من قلة الشيء ، فلو بعتني وانتفعت بثمني صلح حالك ، فباعها لعمر بن عبيد الله هذا ـ وهو يومئذ أمير البصرة ـ بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال ندم ، وندمت الجارية ، فأشارت تخاطب سيدها بأبيات شعر ، وهي :

هنيئاً لك المال الذي قد أخذته ولم يبق في كفي إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب عيشة أقلي فقد بان الخليط أو اكثري
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلة ولم تجدي بدًّا من الصبر فاصبري

فأجابها سيدها فقال :

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن لفرقتنا شيء سوى الموت فاصبري
أأوب بحزن من فراقك موجع أناجي به قلباً طويل التذكر
عليك سـلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فلما سمعهما ابن معمر قد شببت قال : والله لا فرقت بين محبين أبداً ، ثم أعطاه المال ـ وهو

مائة ألف ـ والجارية ؛ لما رأى من توجعهما على فراق كل منهما صاحبه . فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق . توفى عمر بن عبيد الله بن معمر هذا بدمشق بالطاعون ، وصلى عليه عبد الملك ابن مروان ، ومشى فى جنازته ، وحضر دفنه ، وأثنى عليه بعد موته . وكان له من الولد : طلحة ـ وهو من سادات قريش . تزوج فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر ، على صداق أربعين ألف دينار ، فأولدها : إبراهيم ، ورملة . فتزوج رملة إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس ، على صداق مائة ألف دينار ، رحمهم الله .

كُمَيل بن زياد بن نهيك بن خيثم النخعى الكوفى . روى عن عمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبى هريرة . وشهد مع علىّ صفين ، وكان شجاعاً فاتكاً ، وزاهداً عابداً . قتله الحجاج فى هذه السنة ، وقد عاش مائة سنة . قتله صبراً بين يديه ، وإنما نقمَ عليه ؛ لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه ، فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه ، فقال له الحجاج : أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص ؟ ثم أمر فضربت عنقه ، قالوا : وذكر الحجاج عليا فى غبون ذلك ، فنال منه ، وصلى عليه كُمَيل ، فقال له الحجاج : والله لأبعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه أنت ، فأرسل إليه ابن أدهم ، وكان من أهل حمص ، ويقال : أبا الجهم بن كنانة ، فضرب عنقه . وقد روى عن كُمَيل جماعة كثيرة من التابعين ، وله الأثر المشهور عن على بن أبى طالب الذى أوله « القلوب أوعية فخيرها أوعاها » وهو طويل قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات ، وفيه مواعظ وكلام حسن ـ رضى الله عن قائله .

زاذان أبو عمرو الكندى : أحد التابعين ، كان أولا يشرب المسكر ، ويضرب بالطنبور ، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله بن مسعود ، وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق ، وخشية شديدة ، حتى كان فى الصلاة كأنه خشبة .

قال خليفة : وفيها توفى زر بن حبيش ـ أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة ، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة . وقال أبو عبيد : مات سنة إحدى وثمانين ، وقد تقدمت له ترجمة .

شقيق بن سلمة : أبو وائل ، أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين ، وأسلم فى حياة النبى ﷺ .

أم الدرداء الصغرى : اسمها هجيمة ، ويقال : جهيمة ، تابعية عابدة ، عالمة فقيهة ، كان الرجال يقرءون عليها ، ويتفقهون فى الحائط الشمالى بجامع دمشق . وكان عبد الملك بن مروان يجلس فى حلقتها مع المتفقهة يشتغل عليها وهو خليفة ـ رضى الله عنها .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متواقفون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة ، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم ، والمبارزة فى كل يوم بينهم واقعة ، وفى غالب الأيام تكون النصرة لأهل العراق على أهل الشام ، حتى قيل : إن أصحاب ابن الأشعث ـ وهم أهل العراق ـ كسروا أهل الشام ـ وهم أصحاب الحجاج ـ بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم ، ومع هذا فالحجاج ثابت فى مكانه صابر ومُصَابر ، لا يتزحزح عن موضعه الذى هو فيه ؛ بل إذا حصل له ظفر فى يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عدوه ، وكان له خبرة بالحرب ، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القُرَّاء ؛ لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يحرضونهم على القتال ، والناس يقتدون بهم ، فصبر القراء لحملة جيشه . ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم ، وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم حمل على ابن الأشعث ، وعلى من معه من الجيش ، فانهزم أصحاب ابن الأشعث ، وذهبوا فى كل وجه ، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فَلٌّ قليل من الناس ، فأتبعه الحجاج جيشاً كثيفاً مع عمارة بن غنم اللخمى ، ومعه محمد بن الحجاج ، والإمرة لعمارة ، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلا أو أسراً ، فما زال يسوق ، ويخترق الأقاليم ، والكور ، والرَّساتيق ، وهم فى أثره ـ حتى وصل إلى كرمان ، واتبعه الشاميون ، فنزلوا فى قصر كان فيه أهل العراق قبلهم ، فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فرُّوا معه ـ من شعر أبى جَلْدَة اليَشْكُرى يقول :

أيا لهفاً ويا حـــزنا جميعاً ويا حَرَّ الفــؤاد لما لَقِينا
تركنا الدِّين والدنيا جميعاً وأسلمنا الحـــلائلَ والبنينا
(فما كُنَّا أناساً أهلَ دنيا فنمنعها ولو لَمْ نَرْجُ دِينا)(١) .
تركنا دُورنا لطغام عَكٍّ وأنباط القرَى والأشعرينا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رُتبيل ملك الترك ، فأكرمه رُتبيل ، وأنزله عنده وأمنه وعظمه .

قال الواقدى : ومرَّ ابن الأشعث ـ وهو ذاهب إلى رُتبيل ـ على عامل له فى بعض المدن ،

---

(١) الذى فى الطبرى :
فما كنا أناسا أهل دين فنصبر فى البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناسا أهل دنيا فنمنعها ولو لم ترج دينا

كان ابن الأشعث قد ـ استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق ، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا وأنزله ، فعل ذلك خديعةً به ومكراً ، وقال له : ادخل إلى عندى إلى البلد لتتحصن بها من عدوك ، ولكن لا تدعُ أحداً ممن معك يدخل المدينة ، فأجابه إلى ذلك ، وإنما أراد المكر به ، فمنعه أصحابه ، فلم يقبل منهم ، فتفرق عنه أصحابه . فلما دخل المدينة وثب عليه العامل ، فمسكه وأوثقه بالحديد ، وأراد أن يتخذ به يداً عند الحجاج ، وقد كان الملك رُتبيل سُرَّ بقدوم ابن الأشعث ، فلما بلغه ما حدث له من جهة ذلك العامل بمدينة بست ـ سار حتى أحاط ببست ، وأرسل إلى عاملها يقول له : والله لئن آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستنزلك ، وأقتل جميع من فى بلدك ، فخافه ذلك العامل ، وسير إليه ابن الأشعث ، فأكرمه رُتبيل ، فقال ابن الأشعث لرُتبيل : إن هذا العامل كان عاملى ومن جهتى ، فغدر بى وفعل ما رأيت ، فأذن لى فى قتله ، فقال : قد أمنته .

وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش بن أبى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هو الذى يصلى بالناس هنالك فى بلاد رُتبيل . ثم إن جماعة من الفُل الذين هربوا من الحجاج ـ اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه ، فيكونوا معه ـ وهم قريب من ستين ألفاً ـ فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رُتبيل ، فتغلبوا على سجستان ، وعذبوا عاملها عبد الله بن عامر التمّار وإخوته وقرابته ، واستحوذوا على ما فيها من الأموال ، وانتشروا فى تلك البلاد وأخذوها ، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث : أن اخرج إلينا حتى نكون معك ننصرك على من يخالفك ، ونأخذ بلاد خراسان ، فإن بها جنداً ومنعة كثيرة منا ، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، فنرى بعد ذلك رأينا . فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلا إلى نحو خراسان ، فاعتزله شرذمة من أهل العراق مع عبيد الله بن سمرة ، فقام فيهم ابن الأشعث خطيباً ، فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب ، وقال : لا حاجة لى بكم ، وأنا ذاهب إلى صاحبى رُتبيل فأكون عنده . ثم انصرف عنهم وتبعه طائفة منهم ، وبقى معظم الجيش .

فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عياش بن أبى ربيعة الهاشمى ، وساروا معه إلى خراسان ، فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، فمنعهم من دخول بلاده ، وكتب إلى عبد الرحمن بن عياش يقول له : إن فى البلاد متسعاً ، فاذهب إلى أرض ليس بها سلطان ، فإنى أكره قتالك ، وإن كنت تريد مالاً بعثت إليك ، فقال له : إنا لم نجىء لقتال أحد ، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب ، وليست بنا حاجة إلى شىء مما عرضت . ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خَراسان ، فخرج إليه يزيد بن المهلب ، ومعه أخوه المفضل فى جيوش كثيفة ، فلما صادفوهم اقتتلوا غير كثير ، ثم انهزم أصحاب

عبد الرحمن بن عياش ، وقتل يزيد منهم مقتلة كبيرة ، واحتاز ما في معسكره ، وبعث بالأسارى وفيهم : محمد بن سعد بن أبي وقاص- إلى الحجاج . ويقال: إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب : أسألك بدعوة أبي لأبيك- لما أطلقتني ، فأطلقه .

قال ابن جرير : ولهذا الكلام خبر فيه طول . ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم ، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث ، نادى مناديه في الناس : من رجع فهو آمن ، ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالري فهو آمن . فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث ، فأمنهم الحجاج . ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم - سعيد بن جبير ، على ما سيأتي بيانه .

وكان الشعبي من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة ، فذكره الحجاج يوماً ، فقيل له : إنه سار إلى مسلم بن قتيبة ، فكتب إلى مسلم : أن ابعث لي بالشعبي . قال الشعبي : فلما دخلت عليه سلمت عليه بالأمرة ، ثم قلت : أيها الأمير ! إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وأيمُ الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق ، كائناً في ذلك ما كان ، قد والله تمردنا عليك ، وخرجنا وجهدنا كلَّ الجهد ، فما آلونا ، فما كنا بالأقوياء الفَجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سَطَوْت فبذنوبنا ، وما جرّت إليك أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فلك الحجة علينا . فقال الحجاج : أنت والله يا شعبي- أحبُّ إلى ممن يدخل علينا ، يقطر سيفُه من دمائنا ، ثم يقول : ما فعلتُ ولا شهدتُ ، قد أمنت عندنا يا شعبي . قال : فانصرفت ، فلما مشيت قليلا قال : هلمّ يا شعبي ، قال : فوجل لذلك قلبي ، ثم ذكرت قوله : « قد أمنت يا شعبي » فاطمأنت نفسي ، فقال: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي ؟ - قال : وكان لي مكرماً قبل الخروج عليه - فقلت : أصلح الله الأمير ، قد اكتحلتُ بعدك السهر ، واستوعرتُ السهل ، واستوخمتُ الجناب ، واستحلست الخوف ، واستحليت الهمّ ، وفقدت صالح الإخوان ، ولم أجد من الأمير خلفًا . قال : انصرف يا شعبي ، فانصرفت .

ذكر ذلك ابن جرير وغيره ورواه أبو مخنف عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن الشعبي .

وروى البيهقي : أنه سأله عن مسألة في الفرائض وهي : أم زوج وأخت ، وما كان يقوله فيها الصديق ، وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود . وكان لكل منهم قول فيها ، فنقل ذلك كله الشعبي في ساعة ، فاستحسن قول علي ، وحكم بقول عثمان ، وأطلق الشعبي بسبب ذلك . وقيل : إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم إليه يزيد بن المهلب ، كما تقدم ذلك ، ثم سار إلى الكوفة ، فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال : اشهد على نفسك أنك قد كفرت ، فإذا قال - نعم

بابعه ، وإن أبى قتله ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبى أن يشهد على نفسه بالكفر ، قال : فأتى برجل فقال الحجاج: ما أظن هذا يشهد على نفسه بالكفر اصلاحه ودينه ـ وأراد الحجاج مخادعته ـ فقال : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض ، وأكفر من فرعون وهامان ونمروذ . قال : فضحك الحجاج وخلى سبيله .

وذكر ابن جرير من طريق أبى مخنف : أن أعشى همدان أتى به إلى الحجاج ـ وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج، وعبد الملك بن مروان ، ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه ـ فاستنشده إياها ، فأنشده قصيدة طويلة دالية، فيها مدح كثير لعبد الملك وأهل بيته، فجعل أهل الشام يقولون: قد أحسن أيها الأمير ، فقال الحجاج : إنه لم يحسن ، إنما يقول هذا مصانعة . ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى ، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج ، وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه .

واسم الأعشى هذا : عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ـ أبو المصبح الهمدانى الكوفى الشاعر ، أحد الفصحاء البلغاء المشهورين . وقد كان له فضل وعبادة فى مبتدأه ، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعرف به ، وقد وفد على النعمان بن بشير ؛ وهو أمير بحمص فامتدحه ، وكان محصوله فى رحلته إليه منه ومن جند حمص ـ أربعين ألف دينار ، وكان زوج أخت الشعبى ؛ كما أن الشعبى كان زوج أخته أيضاً . وكان ممن خرج مع ابن الأشعث، فقتله الحجاج كما ذكرنا ـ رحمه الله

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث ، بعث كيفا يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه ، ثم تواقف الحجاج وابن الأشعث ، وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره ، فجاء ابن الأشعث فاحتاز ما فى المعسكر وبات فيه ، فجاءت السرية إليهم ليلا ، وقد وضعوا أسلحتهم ، فمالوا عليهم ميلة واحدة ، ورجع الحجاج بأصحابه ، فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير ، وغرق خلق كثير منهم ـ فى دجلة ودجيل ، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه، فقتل منهم نحوا من أربعة آلاف، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان واحتازوه بكماله ، وانطلق ابن الأشعث هاربا فى ثلاثمائة ، فركبوا دجيلا فى السفن ، وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ، ثم ساروا من هنالك إلى بلاد الترك ؛ وكان فى دخوله بلاد رتبيل ما تقدم . ثم شرع الحجاج فى تتبع أصحاب ابن الأشعث ، فجعل يقتلهم مثنى وفرادى ؛ حتى قيل : إنه قتل منهم بين يديه صبراً ـ مائة ألف وثلاثين ألفا ، قاله النضر بن شميل، عن هشام بن حسان ، منهم : محمد بن سعد بن أبى وقاص ، وجماعات من السادات الأخيار ، والعلماء الأبرار ، حتى كان آخرهم : سعيد بن جبير ـ رحمهم الله ورضى عنهم ، كما سيأتى ذلك فى موضعه .

بناء واسط

قال ابن جرير : وفى هذه السنة بنى الحجاج واسطاً ، وكان سبب بنائه لها : أنه رأى راهباً على أتان قد أجاز دجلة ، فلما مرّ بموضع واسط وقفت أتانه فبالت ، فنزل عنها وعمد إلى موضع بولها ، فاحتفره ورمى به فى دجلة ، فقال الحجاج : علىّ به ، فأتى به ، فقال له : لم صنعت هذا ؟ قال : إنا نجد فى كتبنا أنه يبنى فى هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه ما دام فى الأرض أحدٌ يوحّده فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط فى ذلك المكان، وبنى المسجد فى ذلك الموضع وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع ـ صقلية . وممن توفى فيها من الأعيان :

عبد الرحمن بن جحيرة الخولانى المصرى ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكان عبد العزيز ابن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصص وبيت المال ، وكان رزقه فى العام ألف دينار ، وكان لا يدخر منها شيئاً .

طارق بن شهاب بن عبد شمس الأحمسى : ممن رأى النبى ﷺ ، وغزا فى خلافة الصديق ، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ بضعاً وأربعين غزاة ، توفى بالمدينة هذه السنة .

عبيد الله بن عدى بن الخيار : أدرك النبى ﷺ ، وحدث عن جماعة من الصحابة .

عبد الله بن قيس بن مخرمة : كان قاضى المدينة ، وكان من فقهاء قريش وعلمائهم ، وأبوه عدى ممن قتل يوم بدر كافراً .

وتوفى بها فى هذه السنة : مرثد بن عبد الله ـ أبو الخير اليزنى .

وفيها: فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث؛ منهم من هرب ، ومنهم من قتل فى المعركة ، ومنهم من أسر ، فضرب الحجاج عنقه ، ومنهم من تقبصه الحجاج حتى قتله .
وقد سمى منهم خليفة بن خياط ـ طائفة من الأعيان ، فمنهم : مسلم بن يسار المزنى ، وأبو مرانة العجلى قتل ، وعقبة بن عبد الغفار قتل ، وعقبة بن وشاح قتل ، وعبد الله بن خالد الجهضمى قتل ، وأبو الجوزاء الربعى قتل ، والنضر بن أنس ، وعمران ـ والد أبى حمزة الضبعى ، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحى ، ومالك بن دينار ، ومرة بن ذباب الهدادى ، وأبو نجيد الجهضمى ، وأبو سبيح الهنائى ، وسعيد بن أبى الحسن ، وأخوه الحسن البصرى .

قال أيوب : قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج عائشة يوم الجمل ، فأخرج الحسن معك ، فأخرجه .

ومن أهل الكوفة : سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد ، والشعبي ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، والمعرور بن سويد ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وأبو البختري ، وطلحة بن مصرف ، وزبيد بن الحارث الياميان ، وعطاء بن السائب . قال أيوب : فما منهم صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه .

ومن أعيان من قتل الحجاج : عمران بن عصام الضبعي - والد أبي جمرة ، كان من علماء أهل البصرة ، وكان صالحا عابداً ، أتى به أسيراً إلى الحجاج ، فقال له : اشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك ، فقال : والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به ، فأمر به فضربت عنقه . عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، روى عن جماعة من الصحابة ، ولأبيه أبي ليلى صحبة . أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب . خرج مع ابن الأشعث ، فأتى به الحجاج ، فضرب عنقه بين يديه صبراً .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال الواقدي : فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك المَصِّيصة ، وفيها غزا محمد بن مروان أرمينية ، فقتل منهم خلقاً ، وصرف كنائسهم وضياعهم ، وتسمى سنة الحريق . وفيها : استعمل الحجاج على فارس محمد بن القاسم الثقفي ، وأمره بقتل الأكراد . وفيها : ولى عبد الملك الإسكندرية عياض بن غنم التجيبي ، وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود - الذي كان قد وليها في العام الماضي . وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب ؛ من ذلك بلد أرومة ، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً ، وأسر نحواً من خمسين ألفاً . وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من أصحاب ابن الأشعث ، منهم :

أيوب بن القِرِّية : وكان فصيحاً بليغاً واعظاً ، قتله صبراً بين يديه ، ويقال : إنه ندم على قتله . وهو : أيوب بن زيد بن قيس - أبو سليمان الهلالي ، المعروف بابن القِرِّية . وعبد الله بن الحارث بن نوفل . وسعد بن إياس الشيباني . وأبو غنيمة الخولاني ، له صحبة ورواية ، سكن حمص ، وبها توفي وقد قارب المائة سنة . عبد الله بن قتادة . وغير هؤلاء جماعة ، منهم من قتلهم الحجاج ، ومنهم من توفي : أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، كان ذا منزلة عند أهل الشام ، فخاف منه معاوية ، فهم منه ذلك أبو زرعة ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تهدم ركناً بنيته ، ولا تحزن صاحباً سررته ، ولا تشمت عدواً كبته ، فكف عنه معاوية

وفيها: توفى عتبة بن منذر السلمى ، صحابى جليل ، كان يعد فى أهل الصفة . عمران بن حطان الخارجى . كان أولا من أهل السنة والجماعة ، فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها ، وكان هو دميم الشكل ، فأراد أن يردها إلى السنة فأبت ، فارتد معها إلى مذهبها ، وقد كان من الشعراء المفلقين ، وهو القائل فى قتل علىّ وقاتله :

يا ضربة من تقى ما أراد بهـا   إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوماً فأحسـبه   أو فى البرية عنـد الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الطير قبرهم   لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا

وقد كان الثورى يتمثل بأبياته هذه فى الزهد فى الدنيا ، وهى قوله :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عـراة وجوّع
أراها وإن كانت تحب فإنهـا   سحابة صيف عن قليـل تقشع
كركب قضوا حاجاتهم وترحلوا   طريقهم بادى العـلامة مهيع

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين ، وقد رد عليه بعض العلماء فى أبياته المتقدمة فى قتل علىّ رضى الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها :

بل ضربة من شقى ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذى العرش خسرانا
إنى لأذكره يوماً فأحسـبه   أشقى البرية عنـد الله ميزانا

روح بن زنباع الجذامى : كان من أمراء الشام ، وكان عبد الملك يستشيره فى أموره .

وفيها : كان مهلك عبد الرحمن بن الأشعث الكندى ، وقيل : فى التى بعدها ، فالله أعلم وذلك أن الحجاج كتب إلى رُتبيل ملك الترك الذى لجأ إليه ابن الأشعث يقول له : والله الذى لا إلهَ إلا هو ، لئن لم تبعث إلىَّ بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل، ولأخربنها . فلما تحقق الوعيدمن الحجاج استشار فىذلك بعض الأمراء ، فأشار عليهبتسليم ابن الأشعث إليهقبل أن يخرب الحجاج دياره ، ويأخذ عامة أمصاره ، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين ، وأن لا يؤدى فى كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج ، فأجابه الحجاج إلى الك . وقيل : إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضـه سبع سنين ، فعند ذلك غدر رُتبيل بابن الأشعث ؛ فقيل : إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه ، وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل : بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً فقتله وهو بآخر رمق . والمشهور أنه قبض عليه ، وعلى ثلاثين من أقربائه ، فقيدهم فى الأصفاد ، وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح ، صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر

ومعه رجل موكل به لئلا يفر ، وألقى نفسه من ذلك القصر ، وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً ، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاجتزه ، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث ، وبعث برءوسهم إلى الحجاج ، فأمر فطيف برأسه فى العراق ، ثم بعثه إلى عبد الملك ، فطيف برأسه فى الشام ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر ، فطيف برأسه هنالك ، ثم دفنوا رأسه بمصر وجثته بالرخج ، وقد قال بعض الشعراء فى ذلك :

هيهات موضع جثة من رأسها رأس بمصر وجثـــة بالرخج

وإنما ذكر ابن جرير مقتل ابن الأشعث فى سنة خمس وثمانين ، فالله أعلم

وعبد الرحمن هذا : هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس ، ومنهم من يقول : عبد الرحمن بن قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى الكوفى ، قد روى له أبو داود ، والنسائى عن أبيه عن جده عن ابن مسعود : حديث « إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ما قال البائع أو تشاركا » . وعنه أبو العميس . ويقال : إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة ، فالله أعلم . والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة ، وليس من قريش ، وإنما هو كندى من اليمن ،

وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا فى قريش ، واحتج عليهم الصديق بالحديث فى ذلك ، حتى إن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين ، فأبى الصديق عليهم ذلك ؛ ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذى دعا إلى ذلك أولا ثم رجع عنه ، كما قررنا ذلك فيما تقدم . فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه ، وهو من صلبية قريش ، ويبايعون لرجل كندى بيعة لم يتفق عليها الحل والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك ، فيه خلق كثير ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

•

أيوب بن القِرِيَّة : وهى أمه ، واسم أبيه : يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمرى الهلالى ، كان أعرابيا أميًّا ، وكان يضرب به المثل فى فصاحته وبيانه وبلاغته . صحب الحجاج ، ووفد على عبد الملك ، ثم بعثه رسولا إلى ابن الأشعث ، فقال له ابن الأشعث : لئن لم تقم خطيباً ، فتخلع الحجاج لأضربن عنقك ، ففعل وأقام عنده . فلما ظهر الحجاج استحضره ، وجرت له معه مقامات ومقالات فى الكلام ، ثم آخر الأمر ضرب عنقه ، وندم بعد ذلك على ما فعل من ضرب عنقه ، ولكن ندم حيث لا ينفعه الندم . كما قيل : * وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل *

وقد ذكره ابن عساكر فى تاريخه ، وابن خلكان فى الوفيات ، وأطال ترجمته ، وذكر فيها أشياء حسنة ، قال : والقِرِيَّة ـ بكسر القاف وتشديد الياء ـ وهى جدته ، واسمها . جماعة بنت جشم .

قال ابن خلكان : ومن الناس من أنكر وجوده ووجود مجنون ليلى ، وابن أبى العقب صاحب الملحمة ـ وهو يحيى بن عبد الله بن أبى العقب ، والله أعلم .

روح بن زنباع بن سلامة الجذامى ـ أبو زرعة . ويقال : أبو زنباع الدمشقى ، داره بدمشق فى طرف البزوريين عند دار ابن عقب صاحب الملحمة . وهو تابعى جليل ، روى عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ وتميم الدارى ، وعبادة بن الصامت ، ومعاوية ، وكعب الأحبار وغيرهم ، وعنه جماعة منهم: عبادة بن نسى . كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه ، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط ، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين . وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة، ولم يتابع مسلم على هذا القول، والصحيح أنه تابعى وليس بصحابى،

ومن مآثره التى تفرد بها : أنه كان كلما خرج من الحمام يعتق نسمة ، قال ابن زيد : مات سنة أربع وثمانين بالأردن . وزعم بعضهم أنه بقى إلى أيام هشام بن عبد الملك ، وقد حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة ، فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان ، ثم وضعت بين يديه ، فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء ، فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام ، فجاء الراعى فنظر إلى طعامه وقال : إنى صائم ، فقال له روح : فى مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم يا راعى ؟ فقال الراعى : أفأغبن أيامى من أجل طعامك ؟ ثم إن الراعى ارتاد لنفسه مكاناً ، فنزله وترك روح بن زنباع ، فقال روح بن زنباع : ـ

لقد ضننت بأيامك يا راعى إذ جاد بها روح بن زنباع

ثم إن روحا بكى طويلا وأمر بتلك الأطعمة فرفعت، وقال: انظروا : هل تجدون لها آكلا من هذه الأعراب أو الرعاة ؟ ثم سار من ذلك المكان ، وقد أخذ الراعى بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها ـ كما ذكر ابن جرير : كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث فالله أعلم . وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب ؛ وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك ، فلما انصرف مر بدير ، فقيل له : إن فيه شيخاً كبيراً من أهل الكتاب عالماً ، فدعى فقال : يا شيخ ! هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه ؟ قال : نعم . قال له: فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده ملكا أقرع ، من يقم فى سبيله يصرع ، قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم رجل اسمه اسم نبى ، يفتح به على

الناس ، قال : أفتعرفني ؟ قال : قد أخبرت بك . قال : أفتعرف مآلي ؟ قال : نعم ! قال : فمن يلي العراق بعدي ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، قال : أفي حياتي أو بعد موتي ؟ قال : لا أدري ، قال : أفتعرف صفته ؟ قال : يغدر غدرة لا أعرف غير هذا ، قال : فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد ابن المهلب ، وسار شهرا وهو وَجِل من كلام الشيخ ، ثم بعث إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده ، فجاء الكتاب بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه . ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى بعُبيد بن مَوْهب ، فدخل عليه وهو ينكت في الأرض ، فرفع رأسه إليه فقال : ويحك يا عُبيد ! إن أهل الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي سيليه رجل يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ، ويزيد بن حُصين ابن نمير ، ويزيد بن دينار ، وليسوا هناك ، وما هو إلا يزيد بن المهلب . فقال عبيد : لقد شرّفتهم وعظمت ولايتهم ، وإن لهم لقدراً وجلداً وحظاً فأخلق به . فأجمع رأي الحجاج على عزل يزيد ابن المهلب ، فكتب إلى عبد الملك يذمه ويخوفه غدره ، ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابي ، فجاء البريد بكتاب فيه : قد أكثرت في شأن يزيد ، فسمِّ رجلا يصلح لخراسان ، فوقع اختيار الحجاج على المفضّل بن المهلب ، فولاه قليلا تسعة أشهر ، فغزا بلاد عَبس وغيرها ، وغنم مغانم كثيرة ، وامتدحه الشعراء ، ثم عزله بقتيبة بن مسلم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قُتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ ، ثم ذكر سبب ذلك ، وملخصه : أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه ، فجعل كلما اقترب من بلدة خرج إليه ملكها فقاتله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريباً من تِرْمِذ ، وكان ملكها فيه ضعف ، فجعل يهادنه ، ويبعث إليه بالألطاف والتحف ، حتى جعل يتصيد هو وهو . ثم عنّ الملك فعمل له طعاماً ، وبعث إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتني في مائة من أصحابك ، فاختار موسى من جيشه مائة من شجعانهم ، ثم دخل البلد ، فلما فرغت الضيافة اضطجع موسى في دار الملك وقال : والله لا أقوم من هنا حتى يكون هذا المنزل منزلي أو يكون قبري ، فثار أهل القصر إليه فجاجف عنه أصحابه ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين أهل تِرْمِذ ، فاقتتلوا فقتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم ، واستدعى موسى ببقية جيشه إليه ، واستحوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الاعداء ، وخرج منها ملكها هاربا ، فلجأ إلى إخوانه من الاتراك ، فاستنصرهم فقالوا له : هؤلاء قوم نحو من مائة رجل أخرجوك من بلدك ، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء .

ثم ذهب ملك ترمذ إلى طائفة أخرى من الترك ، فاستصرخهم فبعثوا معه قصاداً نحو موسى ليسمعوا كلامه ، فلما أحس بقدومهم ـ وكان ذلك في شدة الحر ـ أمر أصحابه أن يؤججوا ناراً ،

ويلبسوا ثياب الشتاء ، ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يصطلون بها ، فلما وصلت إليهم الرسل رأوا أصحابه وما يصنعون فى شدة الحر فقالوا لهم : ما هذا الذى نراكم تفعلون ؟ فقالوا لهم : إنا نجد البرد فى الصيف والكرب فى الشتاء ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : ما هؤلاء بشر ، ما هؤلاء إلا جن ، ثم عادوا إلى ملكهم ، فأخبروه بما رأوا فقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء .

ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجاش بطائفة أخرى ، فجاؤا لحاصرهم بترمذ ، وجاء الخزاعى لحاصرهم أيضاً ، فجعل يقاتل الخزاعى أول النهار ، ويقاتل آخره العجم ، ثم إن موسى بيتهم ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأفزع ذلك عمر الخزاعى فصالحه وكان معه ، فدخل يوما عليه وليس عنده أحد ، وليس يرى معه سلاحاً ، فقال له : — على وجه النصح — أصلح الله الأمير ، إن مثلك لا ينبغى أن يكون بلا سلاح ، فقال : إن عندى سلاحاً ، ثم رفع صدر فراشه ، فإذا سيفه منتضى ، فأخذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هاربا ، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبد الله بن خازم .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمرة الديار المصرية ، وحسّن له ذلك رُوح بن زنباع الجذامى ، فبينما هما فى ذلك إذ دخل عليهما قَبيصة ابن ذُؤيب فى الليل ، وكان لا يحجب عنه فى أى ساعة جاء — من ليل أو نهار ، فعزاه فى أخيه عبد العزيز ، فندم على ما كان منه من العزم على عزله ، وإنما حمله على إرادة عزله — أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده : الوليد ، ثم سليمان ، ثم يزيد ، ثم هشام ؛ وذلك عن رأى الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك ، وكان أبوه مروان عهد بالأمر إلى عبد الملك ، ثم من بعده إلى عبد العزيز ، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الإمرة من بعده بالكلية ، ويجعل الأمر فى أولاده وعقبه ، وأن تكون الخلافة باقية فيهم ، والله أعلم

عبد العزيز بن مروان : هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس — أبو الأصبغ القرشى الأموى . ولد بالمدينة ، ثم دخل الشام مع أبيه مروان ، وكان ولى عهده من بعد أخيه عبد الملك ، وولاه أبوه إمرة الديار المصرية فى سنة خمس وستين ، فكان واليا عليها إلى هذه السنة ، وشهد قتل سعيد بن عمرو بن العاص كما قدمنا ، وكانت له دار بدمشق وهى دار الصوفية اليوم — المعروفة بالخانقاه السميساطية ، ثم كانت من بعده لولده عمر بن عبد العزيز ، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاها للصوفية وقد روى عبد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير ، وعقبة بن عامر ، وأبى هريرة ، وحديثه عنه فى مسند أحمد وسنن أبى داود ، أن رسول الله ﷺ قال : « شر ما فى الرجل جبن خالع وشح هالع » . وعنه : ابنه عمر ، والزهرى وعلى بن رباح وجماعة .

قال محمد بن سعد : كان ثقة ، قليل الحديث ، وقال غيره : كان يلحن فى الحديث وفى كلامه ، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها، فكان من أفصح الناس . وكان سبب ذلك: أنه دخل عليه رجل يشكو ختنه ـ وهو زوج ابنته ـ فقال له عبد العزيز : من خَتَنَكَ ؟ فقال الرجل : ختنى الخاتن الذى يختن الناس ، فقال لكاتبه : ويحك بماذا أجابنى ؟ فقال الكاتب : يا أمير المؤمنين ، كان ينبغى أن تقول : من ختنُك ، فآلى على نفسه أن لا يخرج منْ منزله حتى يتعلم العربية ، فمكث جمعة واحدة فتعلمها ، فخرج وهو من أفصح الناس ، وكان بعد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه ، وينقص عطاء من يلحن فيه ، فتسارع الناس فى زمانه إلى تعلم العربية . قال عبد العزيز يوماً إلى رجل : ممن أنت ؟ قال : من بنو عبد الدار ، فقال : تجدها فى جائزتك ، فنقصت جائزته مائة دينار .

وقال أبو يعلى الموصلى : حدثنا مجاهد بن موسى ، ثنا إسحاق بن يوسف ، أنبأنا سفيان ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم قال : كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر : ارفع إلىّ حاجتك . فكتب إليه ابن عمر : إن رسول الله ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » ولست أسألك شيئاً ، ولا أرد رزقاً رزقنيه الله عز وجل منك .

وقال ابن وهب : حدثنى يحيى بن أيوب ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سويد بن قيس قال: بعثنى عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر ، قال : فجئت فدفعت إليه الكتاب ، فقال : أين المال ؟ فقلت : لا أستطيعه الليلة حتى أصبح ، قال : لا ـ والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار ، قال : فدفع إلىّ الكتاب حتى جئته بها ، ففرقها رضى الله عنه .

ومن كلامه رحمه الله : عجباً لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه ، كيف يحبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء . ولما حضرته الوفاة أحضر له مالٌ يحصيه ، وإذا هو ثلاثمائة مدّ من ذهب ، فقال : والله لوددت أنه بَعَر حائل بنجد ، وقال : والله لوددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أن أكون هذا الماء الجارى ، أو نباتة بأرض الحجاز ، وقال لهم : ائتونى بكفنى الذى تكفنونى فيه ، فجعل يقول : أفٍّ لك ما أقصر طويلك ، وأقل كثيرك .

قال يعقوب بن سفيان ، عن ابن بكير ، عن الليث بن سعد قال : كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين . قال ابن عساكر : وهذا وَهْم من يعقوب بن سفيان ، والصواب : سنة خمس وثمانين ؛ فإنه مات قبل عبد الملك أخيه ، ومات عبد الملك بعده بسنة سنة ست وثمانين . وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء ، كريماً جواداً ممدحاً ، وهو والد الخليفة الراشد ـ عمر بن عبد العزيز . وقد اكتسى عمر أخلاق أبيه ،

وزاد عليه بأمور كثيرة . وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر : عاصم ، وأبو بكر ، ومحمد ، والأصبغ ـ مات قبله بقليل ، فحزن عليه حزناً كثيراً ، ومرض بعده ومات ـ ، وسهيل . وكان له عدة بنات : أم محمد ، وسهيل ، وأم عثمان ، وأم الحكم ، وأم البنين ـ وهن من أمهات شتى ، وله من الأولاد غير هؤلاء مات بالمدينة التي بناها على مرحلة من مصر ، وحمل إلى مصر فى النيل ، ودفن بها ، وقد ترك عبد العزيز من الأموال والأثاث ، والدواب من الخيل والبغال والإبل ، وغير ذلك ـ ما يعجز عنه الوصف ، من جملة ذلك : ثلاثمائة مدّ من ذهب غير الورق ، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة ، فإنه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير : أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز ـ وهو بالديار المصرية ـ يسأله أن ينزل عن العهد الذى له من بعده لولده الوليد ، أو يكون ولى العهد من بعده ، فإنه أعز الخلق علىّ . فكتب إليه عبد العزيز يقول : إنى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما ترى فى الوليد . فكتب إليه عبد الملك يأمره بحمل خراج مصر ـ وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه شيئاً من الخراج ولا غيره ، وإنما كانت بلاد مصر بكمالها ، وبلاد المغرب ، وغير ذلك ، كلها لعبد العزيز ، مغانمها وخراجها وحملها ـ فكتب عبد العزيز إلى عبد الملك : إنى وإياك يا أمير المؤمنين ، قد بلغنا سنًّا لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا ، وإنى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت أولا ، فإن رأيت أن لا تعتب علىّ بقية عمرى فافعل ، فرقّ له عبد الملك ، وكتب إليه : لعمرى لا أعتب عليك بقية عمرك . وقال عبد الملك لابنه الوليد : إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك ، ثم قال لابنيه : الوليد وسليمان : هل قارفتما محرماً أو حراماً قط ؟ فقالا : لا والله ، فقال : الله أكبر ، نلتماها ورب الكعبة . ويقال : إن عبد الملك لما امتنع أخوه من إجابته إلى ما طلب منه فى بيعته لولده الوليد ـ دعا عليه وقال : اللهم إنه قطعنى فاقطعه ، فمات فى هذه السنة ، كما ذكرنا . فما جاءه الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليلا ـ حزن وبكى ، وبكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز ، ولكن سره ذلك من جهة ابنيه ؛ فإنه نال فيهما ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما بعده .

وقد كان الحجاج بعث إلى عبد الملك يحسن له ولاية الوليد ويزينها له من بعده ، وأوفد إليه وفداً فى ذلك ، عليهم عمران بن عصام العنزى ، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فتكلم ، وتكلم الوفد فى ذلك ، وحثوا عبد الملك على ذلك ، وأنشد عمران بن عصام فى ذلك :

أميرَ المؤمنين إليك نُهدى على النَّأى التحيةَ والسلاما
أجِبْنى فى بَنِيك يَكُن جوابى لهم عادِيّة ولنـــا قِوَاما

فلو أنّ الوليد أُطاعُ فيه ... جعلتَ له الخلافة والذماما
شبيهُك حول قبّته قريش ... به يَستمطرُ الناس الغماما
ومثلك فى التُّقى لم يَصْبُ يوماً ... لَدُنْ خلع القلائد والتِّماما
فإن تُؤْثِر أخاك بها فإنّا ... وجدِّك لا نُطيق لها اتهاما
ولكننا نحاذر من بَنيه ... بنى العَلّات مأثرةً سَماما
ونخشى إن جعلتَ الملك فيهم ... سحاباً أن تعودَ لهم جَهاما
فلا يك ما حَلبتَ غداً لقوم ... وبعدَ غدٍ بَنُوكَ هُمُ العياما
فأقسم لو تخطّانى عِصَام ... بذلك ما عذَرْتُ به عصاما
ولو أنّى حبوتُ أخاً بفضل ... أريدُ به المقالة والمقاما
لَعقّب فى بَنِىَّ على بَنيه ... كذلك أو لَرُمتُ له مراما
فمن يَكُ فى أقاربه صُدُوع ... فصَدْعُ الملك أبطؤه التئاما

قال : فهاجه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد ، فأبى عليه ، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحد ، فتمكن حينئذ مما أراد من بيعة الوليد وسليمان ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر بيعة عبد الملك لولده الوليد

ثم من بعده لأخيه سليمان بن عبد الملك

وكان ذلك فى هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان ، بويع له بدمشق ، ثم فى سائر الأقاليم ، ثم لسليمان من بعده ، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع فى حياة عبد الملك لأحد ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة ، فضربه ستين سوطاً ، وألبسه ثياباً من شعر ، وأركبه جملا ، وطاف به فى المدينة ، ثم أمر به ، فذهبوا به إلى ثنية ذباب — وهى الثنية التى كانوا يصلبون عندها ويقتلون — فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة ، فأودعوه السجن ، فقال لهم : والله لو أعلم أنكم لا تقتلوننى لم ألبس هذا الثياب . ثم كتب هشام بن إسماعيل المخزومى إلى عبد الملك ، يعلمه بمخالفة سعيد فى ذلك ، فكتب إليه يعنفه فى ذلك ويأمره بإخراجه ، ويقول له : إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به ، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف . ويروى أنه قال له : ما ينبغى إلا أن يبايع ، فإن لم يبايع ضربت عنقه ، أو خليت سبيله .

وذكر الواقدى أن سعيداً لما جاءت بيعة الوليد امتنع من البيعة ، فضربه نائبها فى ذلك الوقت - وهو جابر بن الأسود بن عوف - ستين سوطاً أيضاً وسجنه ، فالله أعلم .

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدى : وحج بالناس فى هذه السنة : هشام بن إسماعيل المخزومى نائب المدينة ، وكان على العراق والمشرق بكماله - الحجاج بن يوسف .

قال شيخنا الحافظ الذهبى : وتوفى فى هذه السنة :

أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة ، كان من فقهاء المدينة العشرة ، قاله يحيى بن القطان . وقال محمد بن سعد : كان ثقة ، وكان به صمم ووضح كثير ، وأصابه الفالج قبل أن يموت .

عبد الله بن عامر بن ربيعة . عمرو بن حريث . عمرو بن سلمة . واثلة بن الأسقع . شهد واثلة تبوك ، ثم شهد فتح دمشق ونزلها ، ومسجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة . قلت : وقد احترق مسجده فى فتنة تيمرلنك ، ولم يبق منه إلا رسومه ، وعلى بابه من الشرق قناة ماء .

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان - صخر بن حرب بن أمية ، كان أعلم قريش بفنون العلم ، وله يد طولى فى الطب ، وكلام كثير فى الكيمياء ، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانش ، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً منطيقاً كأبيه ، دخل يوماً على عبد الملك بن مروان بحضرة الحكم بن أبى العاص ، فشكى إليه أن ابنه الوليد يحتقر أخاه عبد الله بن يزيد ، فقال عبد الملك : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)[1] ، فقال له خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)[2] ، فقال عبد الملك : والله لقد دخل على أخوك عبد الله ، فإذا هو لا يقيم اللحن ، فقال خالد : والوليد لا يقيم اللحن ، فقال عبد الملك : إن أخاه سليمان لا يلحن ، فقال خالد : وأنا أخو عبد الله لا ألحن ، فقال الوليد - وكان حاضراً - لخالد بن يزيد : اسكت ، فوالله ما تعد فى العير ولا فى النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين ! ثم أقبل خالد على الوليد فقال : ويحك ! وما هو العير والنفير غير جدى أبى سفيان صاحب العير ، وجدى عقبة بن ربيعة صاحب النفير ؟ ولكن لو قلت : غنيمات وجبيلات ، والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا : صدقت - يعنى أن الحكم كان منفياً بالطائف يرعى غنما ويأوى إلى جبلة الكرم ، حتى آواه عثمان بن عفان حين ولى - فسكت الوليد وأبوه ، ولم يحيرا جواباً ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) من الآية : ٣٤ من سورة النمل (٢) من الآية : ١٦ من سورة الإسراء

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها: غزا قتيبة بن مسلم نائب الحجاج على مَرْو وخراسان - بلاداً كثيرة من أرض الترك ، وغيرهم من الكفار ، وسبى وغنم وسلم ، وتسلم قلاعاً وحصوناً وممالك ، ثم قفل فسبق الجيش ، فكتب إليه الحجاج يلومه على ذلك ، ويقول له : إذا كنت قاصداً بلاد العدو ، فكن فى مقدمة الجيش ، وإذا قفلت راجعاً فكن فى ساقة الجيش - يعنى لتكون ردءاً لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد - وهذا رأى حسن ، وعليه جاءت السنة . وكان فى السبى امرأة برمك - والد خالد بن برمك - فأعطاها قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم ، فوطئها فحملت منه ، ثم إن قتيبة منّ على السبى ، وردت تلك المرأة على زوجها ، وهى حُبلى من عبد الله بن مسلم ، وكان ولدها عندهم حتى أسلموا ، فقدموا به معهم أيام بنى العباس ، كما سيأتى . ولما رجع قتيبة إلى خراسان تلقاه دهّاقين بلغار بهدايا عظمة ، ومفتاح من ذهب .

وفيها : كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ، ويسمى طاعون الفَتَيَات ؛ لأنه أول ما بدأ بالنساء ، فسمى بذلك .

وفيها : غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم ، فقتل وسبى وغنم وسلم ، وافتتح حصن بولق ، وحصن الأخرم - من أرض الروم .

وفيها : عقد عبد الملك لابنه عبد الله على مصر ، وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز ، فدخلها فى جمادى الآخرة ، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة .

وفيها : هلك ملك الروم الأخرم لورى - لا رحمه الله .

وفيها : حبس الحجاج يزيد بن المهلب . وحج بالناس فيها هشام بن إسماعيل المخزومى .

وفى هذه السنة : توفى أبو أمامة الباهلى ، وعبد الله بن أبى أوفى ، وعبد الله بن الحارث

ابن جزء الزبيدى فى قول ، شهد فتح مصر وسكنها ، وهو آخر من مات من الصحابة بمصر .

وفيها : فى شوالها - توفى أمير المؤمنين .

عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين

وهو : عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، أبو الوليد الأموى أميرا لمؤمنين ، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . سمع عثمان بن عفان ، وشهد الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سار بالناس فى بلاد الروم سنة ثنتين وأربعين ، وكان أميراً على أهل المدينة ، وله ست عشرة سنة ، ولاه إياها معاوية . وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء . وروى الحديث عن أبيه ، وجابر ، وأبى سعيد الخدرى ،

وأبي هريرة ، وابن عمر ، ومعاوية ، وأم سلمة ، وبريرة مولاة عائشة . وروى عنه جماعة منهم : خالد بن معدان ، وعروة ، والزهرى ، وعمرو بن الحارث ، ورجاء بن حيوة ، وجرير بن عثمان . ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سماه القاسم ، وكان يكنى بأبي القاسم ، ثم غيَّرَ اسمه فسماه عبد الملك . قال ابن أبي خيثمة من مصعب بن الزبير : وكان أول من سمى فى الإسلام بعبد الملك قال ابن أبي خيثمة : وأول من سمى فى الإسلام بأحمد والد الخليل بن أحمد العروضى

وبويع له بالخلافة فى سنة خمس وستين فى حياة أبيه فى خلافة ابن الزبير ، وبقى على الشام ومصر مدة سبع سنين ، وابن الزبير على باقى البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وذلك فى سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة ، كما ذكرنا ذلك . وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية فى سنة ست وعشرين .

وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء ، الملازمين المسجد التالين للقرآن . وكان رَبعة من الرجال أقرب إلى القصر ، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب ، وكان أفوه مفتوح الفم ، فربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب ، ولهذا كان يقال له : أبو الذباب . وكان أبيض رَبعة — ليس بالنحيف ولا البادن ، مقرون الحاجبين ، أشهل ، كبير العينين ، دقيق الأنف ، مشرق الوجه ، أبيض الرأس واللحية ، حسن الوجه لم يخضب ، ويقال : إنه خضب بعد . وقد قال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ، ولا أفقه ، ولا أقرأ لكتاب الله — من عبد الملك ابن مروان . وقال الأعمش عن أبي الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل فى الإمارة . وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً — يعنى عبد الملك — ورآه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه . وقال عبد الملك : كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لى يوماً : يا عبد الملك ! إن فيك خصالا ، وإنك لجدير أن تلى أمر هذه الأمة ، فاحذر الدماء ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق » . وقد أثنى عليه قبل الولاية : معاوية ، وعمرو بن العاص فى قصة طويلة .

وقال سعيد بن داود الزبيرى ، عن مالك ، عن يحيى بن سعيد بن داود الزبيرى قال : كان أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، فقال سعيد بن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر فى أمر الله والورع عن محارم الله . وقال الشعبى : ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ، فإنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى منه ، ولا شعراً إلا زادنى فيه .

وذكر خليفة بن خياط ، أن معاوية كتب إلى مروان ـ وهو نائبه على المدينة سنة خمسين ـ أن ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة ، إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته فى تلك البلاد شيئاً كثيراً . ولم يزل عبد الملك مقيماً بالمدينة ، حتى كانت وقعة الحرة ، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز ، وأجلى بنى أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه من الشام . ثم لما صارت الإمارة مع أبيه ، وبايعه أهل الشام ـ كما تقدم ـ أقام فى الإمارة تسعة أشهر ، ثم عهد إليه بالإمارة من بعده ، فاستقل عبد الملك بالخلافة فى مستهل رمضان ، أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير ، سنة ثلاث وسبعين فى جمادى الأولى إلى هذه السنة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : لما سلم على عبد الملك بالخلافة ، كان فى حجره مصحف ، فأطبقه وقال : هذا فراق بينى وبينك . وقال أبو الطفيل : صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه ، وقد كان بنى له فيه قبة قبل ذلك ، فدخله وقال : لقد كان أبو حثمة الأحوازى[1] ـ يعنى عمر بن الخطاب ـ يرى أن هذا عليه حرام . وقيل : إنه لما وضع المصحف من حجره قال : هذا آخر العهد منك . وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء ، وكان حازماً فهما فطناً سائساً لأمور الدنيا ، لا يكل أمر دنياه إلى غيره .

وأمه : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، وأبوها معاوية ، هو الذى جدع أنف حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد .

وقال سعيد بن عبد العزيز : لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير ، خرج معه يزيد بن الأسود الجرشى ، فلما التقوا قال : اللهم احجز بين هذين الجبلين ، وول الأمر أحبهما إليك . فظفر عبد الملك ـ وقد كان مصعب من أعز الناس على عبد الملك ـ وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً .

وقال سعيد بن عبد العزيز : لما بويع لعبد الملك بالخلافة ، كتب إليه عبد الله بن عمر ابن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين ! سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك راع وكل راع مسئول عن رعيته (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً)[2] لا أحد والسلام . وبعث به مع سلام ، فوجدوا عليه ، إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا فى كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه .

وقال الواقدى : حدثنى ابن أبى ميسرة ، عن أبى موسى الحناط ، عن أبى كعب قال : سمعت

---

(١) أبو حثمة : رجل من جلساء عمر .

(٢) الآية : ٨٧ من سورة النساء .

عبد الملك بن مروان يقول : يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول ، وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ، ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن ، فالزموا ما في مصحفكم الذي حملكم عليه الإمام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله ، فإنه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ، ونعم المشير كان للإسلام ـ رحمه الله ، فأحكما ما أحكما ، واستقصيا ما شذ عنهما وقال ابن جريج عن أبيه : حج علينا عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطبنا فقال : أما بعد ، فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون ، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ، ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ، ولا الخليفة المأبون ـ يعني يزيد بن معاوية . أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة ، مالم يكن عقد راية ، أو وثوبا على منبر . هذا عمرو بن سعيد حقه حقه، قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا ، فقلنا : بسيفنا هكذا ، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب . وقال الأصمعي : ثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده قال : ركب عبد الملك ابن مروان بكراً ، فأنشأ قائده يقول :

يا أيها البكر الذي أراكا عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا ؟ خليفة الله الذي امتطاكا
* لم يحب بكراً مثل ما حباكا *

فلما سمعه عبد الملك قال : أيها يا هناه ، قد أمرت لك بعشرة آلاف وقال الأصمعي : خطب عبد الملك فحصر فقال : إن اللسان بضعة من الإنسان ، وإنا نسكت حصراً ، ولا ننطق هذراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عيننا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب. قال الأصمعي: قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب ، فقال : وكيف لا ، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟ وقال غيره : قيل لعبد الملك : أسرع إليك الشيب ، فقال : وتفسي ارتقاء المنبر ومخافة اللحن ؟ ولحن رجل عند عبد الملك ـ يعني أسقط من كلامه ألفاً ـ فقال له عبد الملك : زد ألف ، فقال الرجل : وأنت فزد ألفاً . وقال الزهري : سمعت عبد الملك يقول في خطبته : إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ، ولا جاف عنه . وروى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره : إذا رفعت له شجرة ، سبحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى نأتي تلك الشجرة ، ونحو ذلك .

وروى البيهقي ، أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة ، فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ، فقيل له في ذلك فقال : إنه كان عليه اسم الله عز وجل . وقال غير واحد : كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس ، يقوم السيافون على رأسه بالسيف فينشد ، وقال بعضهم : يأمر من ينشد فيقول :

إنا إذا نالت دواعي الهوى ... وأنصت السامع للقائل
واصطرع الناس بألبابهم ... نقضي بحكم عادل فاضل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نلفظ دون الحق مع الجاهل
نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنجهل الحق مع الجاهل

وقال الأعمش : أخبرني محمد بن الزبير ، أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه : لو أن رجلا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه ، تعرفه النصارى ، أو تعرف مكانه ، لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك . ولو أن رجلا خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود ، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا . وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، ورأيته وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضر بي وفعل وفعل ، قال : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير ، ثم قال إلى حامل الكتاب : انطلق بنا إليه نترضاه . وقال أبو بكر بن دريد : كتب عبد الملك إلى الحجاج في أيام ابن الأشعث : إنك أعز ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه ، وأذل ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون إليهم ، وإذا عززت بالله فاعف له ، فإنك به تعز وإليه ترجع . قال بعضهم : سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به ، فأمر من عنده بالانصراف ، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال له عبد الملك : احذر في كلامك ثلاثاً ، إياك أن تمدحني ، فإني أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني ، فإنه لا رأي لكذوب ، أو تسعى إلي بأحد من الرعية ، فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي ، وإن شئت أقلتك . فقال الرجل : أقلني فأقاله . وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق : اعفني من أربع وقل ما شئت ، لا تطرني ، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه ، ولا تكذبني ، ولا تحملني على الرعية ؛ فإنهم إلى رأفتي ومعدلتي أحوج .

وقال الأصمعي عن أبيه قال : أتي عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال : اضربوا عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ما كان هذا جزائي منك ، فقال : وما جزاؤك ؟ فقال : والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك ، وذلك أني رجل مشئوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب

وهزم ، وقد بان لك صحة ما ادعيت ، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تنصحك ، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه ، وكنت مع فلان فقتل ، وكنت مع فلان فهزم - حتى عد جماعة من الأمراء - فضحك وخلى سبيله وقيل لعبد الملك : أى الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة ، وترك النصرة عن قوة وقال أيضاً : لا طمأنينة قبل الخبرة ، فإن الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم وقال : خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذماً ، ولا يقولن أحدكم ابدأ بمن تعول ؛ فإن الخلق كلهم عيال الله ، وينبغى أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث .

وقال المدائنى : قال عبد الملك لمؤدب أولاده - وهو إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر - : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رغبة فى الخير وأقلهم أدباً ، وجنبهم الحشم ، فإنهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضاً ، ويمصوا الماء مصاً ، ولا يعبوا عباً ، وإذا احتجت أن تتناولهم ، فتناولهم بأدب فليكن ذلك فى سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم .

وقال الهيثم بن عدى : أذن عبد الملك للناس فى الدخول عليه إذناً خاصاً ، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدى عبد الملك صحيفة ، وخرج فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الانسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم (بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ . إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[1] (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[2] (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ)[3] ، إن اليوم الذى أنت فيه لو بقى لغيرك ما وصل إليك ، (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا)[4] ، وإنى أحذرك يوم ينادى المنادى (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ)[5] (أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)[6] . قال : فتغير وجه عبد الملك ، فدخل دار حرمه ولم تزل الكآبة فى وجهه بعد ذلك أياماً .

وكتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتابا وفى آخره : ولا يطمعك يا أمير المؤمنين فى طول البقاء ما يظهر لك فى صحتك ، فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون .

---

(١) من الآية : ٢٦ من سورة ص .
(٢) الآيات : ٤ - ٦ من سورة المطففين .
(٣) الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة هود
(٤) من الآية : ٥٢ من سورة النمل .
(٥) من الآية : ٢٢ من سورة الصافات
(٦) من الآية : ١٨٠ من سورة هود

إذا الرجـــال ولدت أولادها ... وبليت من كبر أجســـادها

وجعلت أسقامهـــا تعتادها ... تلك زروع قد دنا حصـــادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زرّ ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق . وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال : أنهى عن ذكر عمر فإنه مرارة للأمراء مفسدة للرعية . وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني ، عن أبيه عن جده قال : كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغني أنك شربت الطلاء[1] بعد العبادة والنسك ، فقال : إي والله ، والدّما أيضاً قد شربتها . ثم جاءه غلام كان قد بعثه في حاجة فقال : ما حبسك لعنك الله ؟ فقالت أم الدرداء : لا تفعل يا أمير المؤمنين ؛ فإني سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة لعّان »[2] . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : ثنا الحسين بن عبد الرحمن قال : قيل لسعيد بن المسيب : إن عبد الملك بن مروان قال : قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها ، ولا أحزن على السيئة أرتكبها ، فقال سعيد : الآن تكامل موت قلبه . وقال الأصمعي عن أبيه عن جده قال : خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ، ثم قطعها وبكى بكاءً شديداً ثم قال : يا رب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي . قال : فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال : لو كان كلام يُكتب بالذهب لكُتِب هذا الكلام . وقد روى من غير واحد نحو ذلك ، أي أنه لما بلغه هذا الكلام قال مثل ما قال الحسن . وقال مسهر الدمشقي : وُضع سماط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه : ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين ، قال : فلأبيه عبد الله بن خالد بن أسيد ، قال : مات ، قال : فلخالد بن يزيد بن معاوية ، قال : مات ، قال : فلفلان وفلان ـ حتى عد أقواماً قد ماتوا وهو يعلم ذلك قبلنا ـ فأمر برفع السماط ، وأنشأ يقول :

ذهبت لذّتي وانقضت أيامهم ... وغبرت بعـــدهم ولست بخالد

وقيل : إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى ، فقال له عبد الملك : ما هذا ؟ أتحنّ حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنامت فشمّر واتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قريشاً . ثم قال له : يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية فصِلْ رَحِمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمد فأمّره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر إلى ابن عمنا ـ علي بن عباس ، فإنه قد انقطع إلينا بمودّته ونصيحته ، وله نسب وحق ، فصل رحمه واعرف

---

(١) الطلاء : الخمر .

(٢) اللعن : الطرد من الخير والإبعاد من الله . ومن الخلق السب والدعاء

حقه . وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه ؛ فإنه هو الذى مهد لك البلاد ، وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتت الخوارج . وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا فى الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ؛ فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب بالمحبة ، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل ، ولله در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنق وبطش مفند

عزت فلم تكسر وإن هى بددت ... فالكسر والتوهين للمتبدد

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك ، فمن أبى فالسيف ، وعليك بالإحسان إلى أخواتك ، فأكرمهن وأحبهن إلى فاطمة ـ وكان قد أعطاها قُرطَى مارية والدُّرة اليتيمة ـ ثم قال : اللهم احفظنى فيها ، فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسالا يغسل الثياب فقال : ما هذا ؟ فقالوا : غسال ، فقال : يا ليتنى كنت غسالا أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ، ولم أل الخلافة . ثم تمثل فقال :

لعمرى لقد عمّرت فى الملك برهة ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر

وأعطيت حمر المال والحكم والنهى ... ولى سلّمت كل الملوك الجبابر

فأضحى الذى قد كان مما يسرنى ... كحلم مضى فى المزمنات الغوابر

فياليتنى لم أعن بالملك ليلة ... ولم أسع فى لذات عيش نواضر

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبى سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك فى مرض موته : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى كما قال الله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)[1] الآية .

وقال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادى فقال : ما هذا ؟ قالوا قصار[2] ، فقال : يا ليتنى كنت قصاراً أعيش من عمل يدى ، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ، ولا نفر إليهم. وقال : لما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول : وددت أنى اكتسبت قوتى يوماً بيوم ، واشتغلت بعبادة ربى عز وجل وطاعته . وقال غيره : لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم ، ثم قال : الحمد لله الذى لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد :

فهل من خالد إما هلكنا ... وهل بالموت للباقين عار

(١) الآية : ٩٤ من سورة الأنعام (٢) القصار : المحور للثياب وحرفته القصارة بكسر القاف .

ويروى أنه قال : ارفعونى ، فرفعوه حتى شم الهواء وقال : يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بك لفى غرور ، ثم تمثل بهذين البيتين :

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسىء ذنوبه كالتراب

قالوا : وكانت وفاته يوم الجمعة ، وقيل : يوم الأربعاء ، وقيل : الخميس - فى النصف من شوال سنة ست وثمانين ، وصلى عليه ابنه الوليد ولىّ عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . قاله أبو معشر ، وصححه الواقدى ، وقيل : ثلاثا وستين سنة قاله المدائنى ، وقيل : ثمانى وخمسين . ودفن بباب الجابية الصغير

قال ابن جرير : [ذكر أولاده وأزواجه] منهم : الوليد ، وسليمان ، ومَرْوان الأكبر - دَرَج[1] ، وعائشة . وأمهم : وَلَّادة بنت العباس بن جَزْء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رَوَاحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيعة بن عَبس بن بَغيض . ويزيد ، ومروان الأصغر ، ومعاوية - دَرَج ، وأم كلثوم . وأمهم : عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . وهشام . وأمه أم هشام عائشة - فيما قاله المدائنى - بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى . وأبو بكر واسمه بكار ، وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عُبَيد الله التيمى . والحكم - دَرَج . وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموى . وفاطمة بنت عبد الملك . وأمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى . وعبد الله ، ومسلمة ، والمنذر ، وعنبسة ، ومحمد ، وسعيد الخير ، والحجاج - لأمهات أولاد شتى . فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإناثاً .

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة ، منها تسع سنين مشاركاً لابن الزبير ، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلا بالخلافة وحده . وكان قاضيه أبو إدريس الخولانى ، وكاتبه روح بن زنباع ، وحاجبه يوسف مولاه ، وصاحب بيت المال ، والخاتم - قبيصة بن ذؤيب ، وعلى شرطته أبو الزعيزعة . وقد ذكرنا عماله فيما مضى . قال المدائنى : وكان له زوجات أخر : شَقراء بنت سَلمة بن حَلْبَس الطائى ، وابنةٌ لعلى بن أبى طالب ، وأم أبيها بنت عبد الله ابن جعفر . وممن يذكر أنه توفى فى هذه السنة تقريباً .

(١) درج : أى مات صغيراً .

أرطاة بن زفر بن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن عقفان بن أبي حارثة بن مرة بن شبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان الوليد المري ، ويعرف بابن سهية ، وهي أمه بنت رامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خديج بن جشم ابن كعب بن عون بن عامر بن عوف - سبية من كلب - وكانت عند ضرار بن الأزور ، ثم صارت إلى زفر ، وهي حامل ، فأتت بأرطاة على فراشه ، وقد عمّر أرطاة دهراً طويلا حتى جاوز المائة بثلاثين سنة ، وقد كان سيداً شريفاً مطاعاً ممدحاً شاعراً مطبقاً .

قال المدائني : ويقال : إن بني عقفان بن حنظلة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث - دخلوا في بني مرة بن شبة ، فقالوا : بنو عقفان بن أبي حارثة بن مرة . وقد وفد أبو الوليد أرطاة ابن زفر هذا على عبد الملك ، فأنشده أبياتاً :

رأيت المرء تأكله الليـــالي ... كأكل الأرض ساقطة الحديد

وما تُبقي المنيـــة حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكرّ حتـــى ... توفي نذرها بأبي الوليد

قال : فارتاع عبد الملك ، وظن أنه عناه بذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي ، فقال عبد الملك : وأنا والله سيمر بي ما الذي يمر بك . وزاد بعضهم في هذه الأبيات :

خلقنا أنفساً وبني نفوس ... ولسنا بالسلام ولا الحديد

لئن أفجعت بالقرناء يوماً ... لقد متعت بالأمل البعيد

وهو القائل :

وإني لقوام لدى الضيف موهناً ... إذا أسبل الستر البخيل المواكل

دعا فأجابته كلاب كثيرة ... على ثقة مني بأني فاعل

وما دون ضيفي من تلاد تحوزه ... لي النفس إلا أن تصان الحلائل

مطرف بن عبد الله بن الشخير : كان من كبار التابعين ، وكان من أصحاب عمران بن حصين ، وكان مجاب الدعوة ، وكان يقول : ما أوتي أحد أفضل من العقل ، وعقول الناس على قدر زمانهم . وقال : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته ، قال الله : هذا عبدي حقاً . وقال : إذا دخلتم على مريض ، فإن استطعتم أن يدعو لكم فإنه قد حرّك - أي قد أوقظ من غفلته بسبب مرضه - فدعاؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه ، وقال : إن أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة .

خلافة الوليد بن عبد الملك – بانى جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير – وكان ذلك فى يوم الخميس ، وقيل : الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة – لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر – منبر المسجد الأعظم بدمشق – فخطب الناس ، فكان مما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا . فكان أول من قام إليه : عبدُ الله بن همّام السلولى ، وهو يقول :

اللهُ أعطاكَ التى لا فوقها ... وقد أراد الملحدون عَوْقَها

عَنكَ ويأبى الله إلا سَوْقَها ... إليك حتى قلّدُوكَ طوْقَها

ثم بايعه ، وبايع الناس بعده . وذكر الواقدى : أنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنه لا مُقدِّمَ لما أخر الله ، ولا مُؤَخِّرَ لما قدم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتبه على أنبيائه وحملة عرشه وملائكته – الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار بما لاقاه فى هذه الأمة – يعنى بالذى يحق لله عليه – من الشدة على المريب ، واللين لأهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه ؛ من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل ، فلم يكن عاجزاً ولا مفرّطاً . أيها الناس ، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة ؛ فإن الشيطان مع الواحد . أيها الناس من أبدى لنا ذاتَ نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه .

ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فحازها . وكان جباراً عنيداً . وقد ورد فى ولاية الوليد حديث غريب ، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، كما سيأتى ، وكما تقدم تقريره فى دلائل النبوة فى باب : [الأخبار عن الغيوب المستقبلة ، فيما يتعلق بدولة بنى أمية] . وأما الوليد ابن عبد الملك هذا فقد كان صيناً فى نفسه حازماً فى رأيه ، يقال : إنه لا تعرف له صَبْوة . ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال : لولا أن الله قصَّ لنا قصة قوم لوط فى كتابه ، ما ظننا أن ذكراً كان يأتى ذكراً كما تؤتى النساء ، كما سيأتى ذلك فى ترجمته عند ذكر وفاته . وهو بانى مسجد جامع دمشق الذى لا يُعرف فى الآفاق أحسنُ بناء منه ، وقد شرع فى بنائه فى ذى القعدة من هذه السنة ، فلم يزل فى بنائه وتحسينه مدة خلافته ، وهى عشر سنين ، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته ، كما سيأتى بيان ذلك مفصلا . وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها : كنيسة يُوحَنَّا ، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة ، فأخذوا منها الجانب الشرقى فحولوه مسجداً ، وبقى الجانب الغربى كنيسة بحاله ، من لدن سنة أربع عشرة ، إلى هذه السنة ، فعزم الوليد على أخذ

بقية الكنيسة معهم ، وعوضهم عنها كنيسة مَرْيَم لدخولها فى جانب السيف . وقيل : عوضهم عنها كنيسة تُوما ، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة ، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة ، لا يَعْرِف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً فى البنيان والزينات والآثار والعمارات ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها : عزل الوليد بن عبد الملك ـ هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة ، وولّى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك ـ عُمَر بن عبد العزيز ، فدخلها على ثلاثين بعيراً فى ربيع الأول منها ، فنزل دار مَرْوَان ، وجاء الناس للسلام عليه ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة : فلما صلى الظهر دعا عشرةً من فقهاء المدينة ، وهم : عُروة بن الزبير ، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة ، وسليمان ابن يَسَار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : إنى إنما دعوتكم لأمر تُؤْجَرُون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إنى لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لى ظُلامة ، فأحرِّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغنى . فخرجوا من عنده يَجزونه خيراً ، وافترقوا على ذلك .

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بأن يقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مَرْوان ـ وكان يسىء الرأى فيه ـ لأنه أساء إلى أهل المدينة فى مدة ولايته عليهم ، وكانت نحواً من أربع سنين ، ولا سيما إلى سعيد بن المسيب ، وعلى بن الحسين .

قال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه : لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل فىّ ، تركت ذلك لله وللرحم ، وأما كلامه فلا أكلمه أبداً . وأما علىّ بن الحسين فإنه مرَّ به وهو موقوف فلم يتعرض له ، وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض أحد منهم له ، فلما اجتاز به وتجاوزه ناداه هشام : الله يعلم حيث يجعل رسالاته .

وفى هذه السنة ، غزا مَسْلَمة بن عبد الملك بلاد الروم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح حصوناً كثيرة ، وغنم غنائم جَمّة ، ويقال : إن الذى غزا بلاد الروم فى هذه السنة هشام بن عبد الملك ،

ففتح حصن بُواق ، وحصن الأخرم ، وبحيرة الفرمسان ، وحصن بُولس ، وقمم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف مقاتل ، وسبى ذراريهم ونساءهم .

وفيها : غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك ، وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل ، وعلى أن يطلق كل من ببلاده من أسارى المسلمين .

وفيها : غزا قتيبة بيكند[1] ، فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير ، وهي من أعمال بخارى ، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصُّغد ، ومن حولهم من الأتراك ، فأتوهم في جمع عظيم ، فأخذوا على قتيبة الطرق والمضايق ، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين ، وهو لا يقدر أن يبعث إليهم رسولا ، ولا يأتيه منهم رسول - وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه ، وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم ، وكان لقُتيبة عَين من العجم يقال له : تنذر ، فأعطاه أهل بخارى مالا جزيلا على أن يأتي قتيبة فيخذله عنهم ، فجاء إليه فقال له : أخلني ، فأخلاه ، فلم يبق عنده سوى رجل يقال له : ضِرار ابن حُصَين ، فقال له تنذر : هذا عامل يقدم عليك سريعاً بعزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مَرْو ، فقال قتيبة لمولاه سِياه : اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك ، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا حتى تنقضي حربنا لألحقنك به ، فاملك علينا لسانك ، فإن انتشار هذا في مثل هذا الحال يفت في أعضاد الناس ونصرة للأعداء .

ثم نهض قتيبة فحرّض الناس على الحرب ، ووقف على أصحاب الرايات يحرّضهم ، فاقتتل الناس قتالا شديداً ، ثم أنزل الله على المسلمين الصبر ، فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر ، فهزمت الترك هزيمة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ما شاءوا ، واعتصم من بَقي منهم بالمدينة ، فأمر قتيبة الفَعَلة بهدمها ، فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم ، وجعل عليهم رجلا من أهله ، وعنده طائفة من الجيش ، ثم سار راجعاً . فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد ، وقتلوا الأمير ، وجدعوا أنوف مَن كان معه ، فرجع إليها وحاصرها شهراً ، وأمر النقابين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب ، وهو يريد أن يضرم النار فيها ، فسقط السور ، فقتل من الفَعَلة أربعين نفساً ، فسألوه الصلح فأبى ، ولم يزل حتى افتتحها ، فقتل المقاتلة ، وسبَى الذرية ، وغنم الأموال . وكان الذي ألَّب على المسلمين رجل أعور منهم ، فأسِر ، فقال : أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف ، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول

(١) هي أدنى مدائن بخارى إلى النهر ويقال لها مدينة التجار على رأس المفازة من بخارى .

ذلك منه ، فقال قتيبة : لا والله لا أروّع بك مُسلماً مرة ثانية ، وأمر به فضربت عنقه ، وهذا من الزهد فى الدنيا .

ثم إن الغنائم سيدخل فيها ما أراد أن يقتدى به نفسه ، فإن المسلمين قد غنموا من بيكند شيئاً كثيراً من آنية الذهب والفضة ، والأصنام من الذهب ، وكان من جملتها صنم سبك ، فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا فى خزائن الملك أموالا كثيرة وسلاحا كثيراً وعدداً متنوعة ، وأخذوا من السبى شيئاً كثيراً ، فكتب قتيبة [إلى الحجاج يسأله] أن يعطى ذلك الجند ، فأذن له ، فتمول المسلمون وتقوّوا على قتال الأعداء ، وصار لكل واحد منهم مالا مستكثراً جداً ، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة ، فقووا بذلك قوة عظيمة ، ولله الحمد والمنة .

وقد حج بالناس فى هذه السنة ـ عمر بن عبد العزيز نائب المدينة ، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم وعلى العراق والمشرق بكماله الحجاج ، ونائبه على البصرة الجرّاح بن عبد الله الحكمى ، وقاضيه بها عبد الله بن أذينة ، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جرير بن عبد الله البجلى ، وقاضيه بها أبو بكر بن أبى موسى الأشعرى ، ونائبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم . وفيها توفى من الأعيان :

عتبة بن عبد السلمى : صحابى جليل ، نزل حمص ، يروى أنه شهد بنى قريظة . وعن العرباض أنه كان يقول : هو خير منى أسلم قبلى بسنة . قال الواقدى وغيره : توفى فى هذه السنة ، وقال غيره : بعد التسعين ، والله أعلم .

وقال أبو سعيد بن الأعرابى : كان عتبة بن عبد السلمى من أهل الصفة وروى بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمى ، أن النبى ﷺ قال : « لو أن رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً فى مرضاة الله لحقره يوم القيامة » . وقال إسماعيل ابن عياش عن عقيل بن مدرك ، عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمى قال : اشتكيت إلى رسول الله ﷺ العرى فكسانى خيشتين ، فلقد رأيتنى وأنا أكسى الصحابة] .

المقدام بن معدى كرب : صحابى جليل ، نزل حمص أيضاً ، له أحاديث ، وروى منه غير واحد من التابعين قال محمد ابن سعد والفلاس وأبو عبيدة : توفى فى هذه السنة ، وقال غيرهم : توفى بعد التسعين فالله أعلم .

أبو أمامة الباهلى : واسمه صُدَىّ بن عجلان ، نزل حمص ، وهو راوى حديث « تلقين الميت بعد الدفن » رواه الطبرانى فى الدعاء ، وقد تقدم له ذكر فى الوفيات .

قبيصة بن ذؤيب ـ أبو سفيان الخزاعى المدنى . ولد عام الفتح ، وأتى به النبى ﷺ ليدعو له ، روى عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وأصيبت عينه يوم الحرة ، وكان من فقهاء المدينة ، وكانت له منزلة عند عبد الملك ، ويدخل عليه بغير إذن . وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ، ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها ، وكان صاحب سره ، وكان له دار بدمشق بباب البريد ، وتوفى بدمشق .

عروة بن المغيرة بن شعبة : ولى إمرة الكوفة للحجاج ، وكان شريفاً لبيباً مطاعاً فى الناس ، وكان أحول . توفى بالكوفة .

يحيى بن يعمر : كان قاضى مَرْو ، وهو أول من نقط المصاحف ، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم ، وله أحوال ومعاملات ، وله روايات ، وكان أحد الفصحاء . أخذ العربية عن أبى الأسود الدؤلى .

شريح بن الحارث بن قيس القاضى : أدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر على الكوفة ، فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة . وكان عالماً عادلا ، كثير الخير ، حسن الأخلاق ، فيه دعابة كثيرة ، وكان كوسجاً[1] لا شعر بوجهه ، وكذلك كان عبد الله بن الزبير ، والأحنف ابن قيس ، وقيس بن سعد بن عبادة . وقد اختلف فى نسبه وسنه وعام وفاته على أقوال ، ورجح ابن خلكان وفاته فى هذه السنة .

[قلت : قد تقدمت ترجمة شريح القاضى فى سنة ثمان وسبعين بما فيها من الزيادة الكثيرة غير ما ذكره المؤلف هنا وهناك][2] .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها : غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طُوَانه فى جمادى الآخرة من هذه السنة ـ وكان حصيناً منيعاً ـ اقتتل الناس عنده قتالا عظيما ، ثم حمل المسلمون على النصارى ، فهزموهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين ، فانهزم المسلمون ، ولم يبق أحد منهم فى موقفه إلا العباس ابن الوليد ، ومعه ابن مُحَيْرِيز الجمحى ، فقال العباس لابن مُحَيْرِيز : أين قراء القرآن الذين يريدون

---

(١) الكوسج : الأحمق ـ والناقص الأسنان (٢) ما بين القوسين زيد فى بعض النسخ .

وجه الله عز وجل ؟ فقال : نادهم يأتوك ، فنادى : يا أهل القرآن ! فتراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم ، ولجأوا إلى الحصن ، فحاصروهم حتى فتحوه .

وذكر ابن جرير : أنه فى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز ، يأمره بهدم المسجد النبوى ، وإضافة حُجَر أزواج رسول الله ﷺ ، وأن يوسّعه من قبلته وسائر نواحيه ، حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، فمن باعك مُلكه فاشتره منه وإلا فقوّمه له قيمة عَدْل ، ثم اهدمه ، وادفع إليهم أثمان بيوتهم ، فإنّ لك فى ذلك سَلَف صِدْق ، عمر وعثمان . فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ـ الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا : هذه حُجَر قصيرة السقوف ، وسقوفها من جريد النخل ، وحيطانها من اللّبن ، وعلى أبوابها المُسوح ، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون ، وإلى بيوت النبى ﷺ فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد فى الدنيا ، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة ، وهو ما يستر ويُكِنّ ، ويعرفون أن هذا البنيان العالى إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة ، وكلّ طويل الأمل راغب فى الدنيا وفى الخلود فيها .

فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة ، المتقدم ذكرهم ، فأرسل إليه يأمره بالخراب ، وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يُعلى سقوفه ، فلم يجد عمر بُدًّا من هدمها . ولما شرعوا فى الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بنى هاشم وغيرهم ، وتباكوا مثل يوم مات النبى ﷺ ، وأجاب من له ملك مُتاخم المسجد للبيع ، فاشترى منهم ، وشرع فى بنائه ، وشمّر عن إزاره ، واجتهد فى ذلك . وأرسل الوليد إليه فعولا كثيرة ، فأدخل فيه الحُجرة النبوية ـ حُجرة عائشة ـ فدخل القبر فى المسجد ، وكانت حدّه من الشرق وسائر حُجر أمهات المؤمنين ، كما أمر الوليد . وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقى من حجرة عائشة ـ بدَت لهم قَدَم ، فخشوا أن تكون قدم النبى ﷺ حتى تحققوا أنها قدم عمر ـ رضى الله عنه ـ ويحكى أنّ سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة فى المسجد ـ كأنه خشى أن يتخذ القبر مسجداً ـ والله أعلم .

وذكر ابن جرير : أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء ، فبعث إليه بمائة صانع ، وفصوص كثيرة(١) من أجل المسجد النبوى . والمشهور أنّ هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق ، فالله أعلم .

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز ، أن يحفر الفوّارة بالمدينة ، وأن يجرى ماءها ـ ففعل ،

(١) فى الطبرى : أنه بعث إلى الوليد كذلك بمائة ألف مثقال من الذهب .

وأمره أن يحفر الآبار ، وأن يسهل الطرق والثنايا ، وساق إلى الفوّارة الماء من ظاهر المدينة ، والفوّارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته .

وفيها : غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك - كور بغانون - ابن أخت ملك الصين ، ومعه مائتا ألف مقاتل ، من أهل الصُّغد ، وفرغانة وغيرهم ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وكان مع قتيبة « نَيزَك » ملك الترك مأسوراً فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً ، وقتل منهم خلقاً وسبى وأسر .

وفيها : حج بالناس عمر بن عبد العزيز ، ومعه جماعات من أشراف قريش ، فلما كان بالتنعيم لقيه طائفة من أهل مكة ، فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر ، فقال لأصحابه : ألا نستمطر ؟ فدعا ودعا الناس ، فما زالوا يدعون حتى سُقوا ، ودخلوا مكة ومعهم المطر ، وجاء سيل عظيم ، حتى خاف أهل مكة من شِدّة المطر ، ومطرت عرَفة - ومُزدلفة - ومِنًى ، وأخصبت الأرض هذه السنة خصباً عظيماً بمكة وما حولها ، وذلك ببركة دعاء عمر ، ومن كان معه من الصالحين . وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها .

وممن توفي فيها من الأعيان :

عبد الله بن بُسر بن أبي بُسر المازني : صحابي كأبيه . سكن حمص ، وروى عنه جماعة من التابعين . قال الواقدي : توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة . زاد غيره : وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام ، وقد جاء في الحديث : أنه يعيش قرناً ، فعاش مائة سنة .

عبد الله بن أبي أوفى ، علقمة بن خالد بن الحارث الخزاعي ، ثم الأسلمي . صحابي جليل ، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة ، وكانت وفاته - فيما قاله البخاري - سنة تسع أو ثمان وثمانين . وقال الواقدي وغير واحد : سنة ست وثمانين ، وقد جاوز المائة ، وقيل : قاربها - رضي الله عنه .

وفيها : توفي هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد المخزوميّ المدني ، وكان حما عبد الملك بن مروان ، ونائبه على المدينة ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب ، كما تقدم ، ثم قدم دمشق فمات بها . وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق ، فمات فيها في السبع .

عمير بن حكيم العنسي الشامي ، له رواية ، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو ، وابن مُحَيريز أبو الأبيض . قتل في غزوة طُوانة من بلاد الروم في هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها : غزا مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس ـ بلاد الروم ، فقتلا خلقاً كثيراً ، وفتحا حصوناً كثيرة ، منها : حصن سُورية ، وعَمُورية ، وهَرقلة ، وقمودية . وغنما شيئاً كثيراً ، وأسرا جماً غفيراً .

وفيها : غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصُّغد ونَسف وكَسّ ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك ، فظفر بهم فقتلهم ، وسار إلى بخارى فلقيه دونها خلق كثير من الترك ، فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خَرْقان ، وظفر بهم ، فقال فى ذلك نهار بن توسعة :

وباتت لهم منا بخَرْقَان ليلة ... وليلتُنا كانت بخَرْقَان أطولا

ثم قصد قتيبة وَرْدَان خذَاه ـ ملك بخارى ، فقاتله وَرْدَان قتالا شديداً ، فلم يظفر به قتيبة ، فرجع عنه إلى مَرْو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد ـ يعنى بخارى ـ فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه : أن ارجع إليها ، وتُب إلى الله من ذنبك ، وائتها من مكان كذا وكذا ، وردْ وَرْدَان خُذَاه ، وإياك والتحويط[1] ، ودعنى وَبُنَيات[2] الطريق .

وفى هذه السنة ولى الوليد بن عبد الملك إمرة مكة ـ خالد بن عبد الله القسرى ، فحفر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طُوى وثنية الحَجون ، فجاءت عذبة الماء طيبة ، وكان يستقى منها الناس . وروى الواقدى : حدثنى عمر بن صالح ، عن نافع مولى بنى مخزوم ، قال : سمعت خالد بن عبد الله القسرى يقول على منبر مكة ، وهو يخطب الناس : أيها الناس ! أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة ، إلا أنّ إبراهيم خليلَ الرحمن استسقى فسقاه مِلحًا أجاجًا ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذبًا فراتًا ـ يعنى البئر التى احتفرها بالثَّنِيَّتين ـ ثنية طُوى ، وثنية الحَجون ـ فكان ينقلُ ماؤها فيوضعُ فى حوض من أدَم إلى جنب زمزم ليُعْرفَ فضله على زمزم . قال : ثم غارت تلك البئر ، فذهب ماؤها فلا يُدْرى أين هى إلى اليوم . وهذا الإسناد غريب ، وهذا الكلام يتضمن كفراً إن صح عن قائله . وعندى أن خالد ابن عبد الله لا يصح عنه هذا الكلام ، وإن صح فهو عدو الله ، وقد قيل عن الحجاج

---

(١) أى : الدوران فى القول ، وكثرة المراجعة فيه .

(٢) أى : الطرق الصغيرة التى تتشعب من الجادة .

ابن يوسف نحو هذا الكلام ، من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول الذى أرسله الله ، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها .

وفى هذه السنة ، غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان ، وفتح حصوناً ومدائن كثيرة هنالك . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز .

قال شيخنا الذهبى : وفى هذه السنة فتحت صقلية وميورقة ، وقيل : ميرقة ، وهما فى البحر بين جزيرة صقلية ، وخدرة ـ من بلاد الأندلس .

وفيها : سَيَّرَ موسى بن نصير ولده إلى النقريس ملك الفرنج ، فافتتح بلاداً كثيرة .

وفيها توفى من الأعيان :

عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير ـ أحد التابعين ، العذرى الشاعر ، وقد قيل : إنه أدرك حياة النبى ﷺ ، ومسح على رأسه ، وكان الزهرى يتعلم منه النسب . والعمال فى هذه السنة هم المذكورون فى التى قبلها .

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها : غزا مَسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد ـ بلاد الروم ، ففتحا حصوناً وقتلا خلقاً من الروم ، وغنما وأسرا خلقاً كثيراً .

وفيها : أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، وذهبوا به إلى ملكهم ، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك .

وفيها : عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر ، وولّى عليها قُرَّة بن شريك .

وفيها : قتل محمد بن القاسم ـ ملك السند «دَاهِر بن صَصَّة» وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج .

وفيها : فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى ، وهزم جميع العدو من الترك بها ، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها ، وقد تقصاها ابن جرير .

وفيها : طلب طَرْخون ملك الصُّغد بعد فتح بخارى ، من قتيبة أن يصالحه على مال يبذله فى كل عام ، فأجابه قتيبة إلى ذلك ، وأخذ منه رهناً عليه .

وفيها : استنجد وَرْدان خذاه بالترك ، فأتوه من جميع النواحى ـ وهو صاحب بُخارى بعد أخذ قتيبة لها ـ وخرج وَرْدان خذاه وحمل على المسلمين فحطموهم ، ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوا

منهم مقتلة عظيمة ، وصالح قتيبة ملك الصُّغد ، وفتح بخارى وحصونها ، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده ، فأذن له الحجاج .

فلما سار إلى بلاده ، بلغه أن صاحب الصُّغد قال لملوك الترك : إن العرب بمنزلة اللصوص ، فإن أُعطوا شيئاً ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فإن أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم ، وإنّ قتيبة ليس بملك ، ولا يطلب ملكا . فبلغ قتيبة قوله ، فرجع إليهم ، فكاتب نيزَكُ ملك الترك ملوك ما وراء النهر ، منهم : ملك الطالقان ، وكان قد صالح قتيبة ، فنقض الصلح الذى كان بينه وبين قتيبة ، واستجاش عليه بالملوك كلها ، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح ، فنقضوا كلهم وصاروا يدا واحدة على قتيبة ، واتّعدوا إلى الربيع ، وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم فى فصل الربيع من السنة الآتية ، فقتل منهم قتيبة فى ذلك الحين مقتلة عظيمة جداً لم يسمع بمثلها ، وصلب منهم سماطين[1] فى مسافة أربعة فراسخ فى نظام واحد ، وذلك مما كسر جموعهم كلهم .

وفى هذه السنة ، هربَ يزيد بن المهلب وأخواه : المفضل ، وعبد الملك ـ من سجن الحجاج ، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك ، فأمنهم من الحجاج ، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك ، وعاقبهم عقوبة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد ابن المهلب ، كان لا يسمع له صوت ، ولو فعلوا به ما فعلوا نكاية لذلك ، وكان ذلك يَغيظ الحجاج . قال قائل للحجاج : إن فى ساقه أثر نُشَّابة بقى نصلها فيه ، وإنه متى أصابها شىء لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعذاب ، فصاح ، فلما سمعت أخته هندُ بنتُ المهلب ـ وكانت تحت الحجاج ـ صوته بكت وناحت عليه ، فطلقها الحجاج ، ثم أودعهم السجن ، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال لينفذ جيشاً إلى الأكراد واستصحبهم معه ، فخندق حولهم ووكّل بهم الحرس ، فلما كان فى بعض الليالى أمر يزيد بن المهلب بطعام كثير ، فصُنع للحرس ، ثم تنكر فى هيئة بعض الطباخين ، وجعل لحيته لحيةً بيضاء وخرج ، فرآه بعض الحرس فقال : ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا ، ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه ، فركبوا السفن وساروا نحو الشام ، فلما بلغ الحجاج هرَبهم انزعج لذلك ، وذهب وهمه أنهم ساروا إلى خُراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يحذّره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم فى كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور والكُوَر بتحصيلهم .

وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهربهم ، وأنه لا يراهم هربوا إلا إلى خُراسان ، وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع ابن الأشعث من الخروج عليه ، وجمع الناس له ، وتحقق عنده قول الراهب .

(١) السماطان ـ من النخل والناس ـ الجانبان ، يقال : مشى بين السماطين .

وأما يزيد بن المهلب فإنه سلك على البطائح ، وجاءته خيول كان قد أعدها أخوه مروان ابن المهلب لهذا اليوم ، فركبها وسلك به دليل من بنى كلب يقال له : عبد الجبّار بن يزيد ، فأخذ بهم على السماوة ، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين ـ أن يزيد قد سلك نحو الشام ، فكتب إلى الوليد يعلمه بذلك ، وسار يزيد حتى نزل الأردُنَّ على وهيب بن عبد الرحمن الأزديّ ـ وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك ـ فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال له : إن يزيد بن المهلب وأخويه فى منزلى ، قد جاءوا مستعيذين بذلك من الحجاج ، قال : فاذهب فأتنى بهم فهم آمنون ما دمت حيا ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمنهم سليمان ، وكتب إلى أخيه الوليد : إن آل المهلب قد أمنتهم ، وإنما بقى للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف ، وهى عندى . فكتب إليه الوليد : لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلىّ . فكتب إليه : لا والله لا أبعثه حتى أجىء معه ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحنى أو تخفرنى فى جوارى . فكتب إليه : لا والله لا تجىء معه ، وابعث به إلىّ فى وثاق . فقال يزيد : ابعث بى إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحرباً ، فابعثنى إليه وابعث معى ابنك ، واكتب إليه بألطف عبارة تقدر عليها ، فبعثه وبعث ابنه أيوب ، وقال لابنه : إذا دخلت فى الدهليز فادخل مع يزيد فى السلسلة ، وادخلا عليه كذلك . فلما رأى الوليد ابن أخيه فى السلسلة قال : والله لقد بلغنا من سليمان . ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين ! نفسى فداؤك ، لا تخفر ذمة أبى وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة فى جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذل من رجا العز فى الانقطاع إلينا لعزنا بك .

ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبد الملك ، فإذا فيه : أما بعد يا أمير المؤمنين ـ فوالله إن كنت لأظن لو استجار بى عدوّ قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته ـ أنك لا تُذلّ جوارى ولا تُخفره ، بل لم أجِرْ إلا سامعاً مطيعاً ، حسَن البلاء والأثر فى الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك ؛ فإن كنت إنما تعد قطيعتى وإخفار ذمّتى والإبلاغ فى مساءتى ، فقد قدرت إن أنت فعلت ، وأنا أعيذك بالله من احتراد[1] قطيعتى وانتهاك حرمتى ، وترك برّى وإجابتى إلى ما سألتك ، ووصلتى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقائى وبقاؤك ، ولا متى يفرّق الموت بينى وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين ـ أدام الله سروره ـ أنَ لا يأتى أجلُ الوفاة علينا إلا وهو لى واصل ، ولحقّى مؤدٍّ ، وعن مَساءتى نازع ـ فليفعل ، ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشىء من أمر الدنيا ـ بعد تقوى الله ـ بأسرّ منى برضاك وسرورك ، وإنّ رضاك

(١) الاحتراد : من الحرد وهو القصد ، وروى : من اختيار .

وسرورك - أحب إلىّ من رضائى وسرورى ، ومما ألتمس به رضوان الله عز وجل ، لصلتى ما بينى وبينك ، وإن كنت يا أمير المؤمنين - يوماً من الدهر - تريد صلتى وكرامتى وإعظام حقى ، فتجاوز لى عن يزيد ، وكل ما طالبته به فهو علىّ .

فلما قرأ الوليد كتابه قال : لقد أشفقنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه ، فأدناه منه ، وتكلم يزيد بن المهلب ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن ينسَ ذلك فلسنا ننساه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام فى المشارق والمغارب ، ما إن المنة فيه علينا عظيمة ، فقال له : اجلس ، فجلس فأمنه وكفّ عنه وردّه إلى سليمان ، فكان عنده حسن الهيئة ، ويصف له ألوان الأطعمة الشهية ، وكان حظياً عنده ، لا يهدى إليه بهدية إلا أرسل له بنصفها ، وتقرّب يزيد بن المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقادم .

وكتب الوليد إلى الحجاج : إنى لم أصل إلى يزيد بن المهلب وأهل بيته مع أخى سليمان ، فاكفف عنهم والهُ عن الكتاب إلىّ فيهم . فكف الحجاج عن آل المهلب وترك ما كان يطالبهم به من الأموال ، حتى ترك لأبى عيينة بن المهلب ألف ألف درهم ، ولم يزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج فى سنة خمس وتسعين ، ثم ولى يزيد بلاد العراق بعد الحجاج ، كما أخبره الراهب . وفيها توفى من الأعيان :

يتاذوق الطبيب ، الحاذق . له مصنفات فى فنه ، وكان حظيا عند الحجاج مات فى حدود سنة تسعين بواسط .

عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، وأبو العالية الرياحى ، وسنان بن سلمة بن المحبّق ، أحد الشجعان المذكورين ، أسلم يوم الفتح ، وتولى غزو الهند ، وطال عمره .

وتوفى فى هذه السنة : محمد بن يوسف الثقفى أخو الحجاج ، وكان أميراً على اليمن ، وكان يلعن عليا على المنابر ، قيل : إنه أمر حجر المنذرى أن يلعن عليا ، فقال : بل لعن الله من يلعن عليا ، ولعنة الله على من لعنه الله ، وقيل : إنه ورى فى لعنه ، فالله أعلم .

خالد بن يزيد بن معاوية ، أبو هاشم الأموى الدمشقى ، وكانت داره بدمشق تلى دار الحجارة ، وكان عالماً شاعراً ، وينسب إليه شىء من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة . روى عن أبيه ، ودحية الكلبى ، وعنه الزهرى وغيره . قال الزهرى : كان خالد يصوم الأعياد كلها ، الجمعة ، والسبت ، والأحد - يعنى يوم الجمعة وهو عيد المسلمين ، ويوم السبت وهو عيد

اليهود ، والأحد للنصارى . وقال أبو زرعة الدمشقي : كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم ، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد ، وكان ولى العهد من بعد مروان ، فلم يلتئم له الأمر ، وكان مروان زوج أمه . ومن كلامه : أقرب شيء الأجل ، وأبعد شيء الأمل ، وأرجى شيء العمل . وقد امتدحه بعض الشعراء فقال :

سألت الندا والجود حرّان أنتما فردّا وقالا : إننـــــــا لعبيد
فقلت: ومن مولا كما ؟ فتطاولا علىّ وقالا : خالد بن يزيد

[قال : فأمر له بمائة ألف . قلت : وقد رأيتهما قد أنشدا في خالد بن الوليد رضى الله عنه ، فقال : وقالا خالد بن وليد ، والله أعلم . وخالد بن يزيد هـذا كان أميراً على حمص ، وهو الذى بنى جامع حمص ، وكان له فيـه أربعمائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه أعتقهم . وكان خالد يبغض الحجاج ، وهو الذى أشار على عبد الملك ـ لما تزوج الحجاج بنت جعفر ـ أن يرسل إليه فيطلقها ، ففعل . ولما مات مشى الوليد في جنازته ، وصلى عليه . وكان قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، فسأله عبد الملك عن هذا ، فلم يخبره . فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة ـ أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك يخطبها لخالد ، فقالت : حتى يطلق نساءه ، فطلقهن وتزوجها ، وأنشد فيها الشعر][1] .

وكانت وفاته هذا العام ، وقيل : في سنة أربع وثمانين ، وقد ذكر هناك ، والصحيح الأول .

عبد الله بن الزبير بن سليم الأسدى الشاعر ـ أبو كثير ، ويقال : أبو سعيد ، وهو مشهور ، وفد على عبد الله بن الزبير فامتدحه ، فلم يعطه شيئاً ، فقال : لعن الله ناقة حملتنى إليك ، فقال ابن الزبير : إنّ وصاحبها . يقال : إنه مات في زمن الحجاج .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

فيها : غزا الصائفة مَسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد .

وفيها : غزا مَسْلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب[2] من ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصوناً كثيرة أيضاً ، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان ، وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك .

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

(٢) الباب : بلد بحلب ، وجبل قرب هجر

وفيها : غزا موسى بن نصير بلاد المغرب ، ففتح مدناً كثيرة ، ودخل فى تلك البلاد ، وولج فيها حتى دخل أراضى غابرة قاصية ؛ فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن ، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد ، ما يلوح على ضماتها أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائغة ، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها .

وفيها : مَهّد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة ، وذلك بعد قتال شديد ، وحرب يشيب لها الوليد ؛ وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتّعدوا فى العام الماضى فى أول الربيع - أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة ، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، فاجتمعوا اجتماعاً هائلا ، لم يجتمعوا مثله فى موقف ، فكسرهم قتيبة ، وقتل منهم أمماً كثيرة ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه ، حتى ذكر أنه صَلب منهم فى بعض المواضع ، من جملة من أخذه منهم - سماطين طولها أربعة فراسخ من هُهنا وهُهنا ، عن يمينه وشماله ، صلب الرجل منهم بجنب الرجل ، وهذا شىء كثير ، وقتل فى الكفار قتلا ذريعاً ، ثم لا يزال يتتبع نِيزَك خان - ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم ، ومن كورة إلى كورة ، ومن رُستاق إلى رُستاق ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه ، حتى حصره فى قلعة هنالك شهرين متتابعين ، حتى نفد ما عند نِيزَك خان من الأطعمة ، وأشرف هو ومن معه على الهلاك ، فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمناً مذموماً مخذولا ، فسجنه عنده .

ثم كتب إلى الحجاج فى أمره ، فجاء الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله ، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه ؛ فقائل يقول : اقتله ، وقائل يقول : لا تقتله ، فقال له بعض الأمراء : إنك أعطيت الله عهداً أنك إن ظفرت به لتقتلنه ، وقد أمكنك الله منه ، فقال قتيبة : والله إن لم يبق من عمرى إلا ما يسع ثلاث كلمات لقتلته ، ثم قال : اقتلوه اقتلوه اقتلوه ، فقتل هو وسبعمائة من أصحابه من أمرائه فى غَداة واحدة ، وأخذ قتيبة من أموالهم وخيولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئاً كثيراً ، وفتح فى هذا العام مدناً كثيرة ، وحرر ممالك كثيرة ، وأخذ حصوناً كثيرة مشحونة بالأموال والنساء ، ومن آنية الذهب والفضة شيئاً كثيراً .

ثم سار قتيبة إلى الطالقان - وهى مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم - فأخذها واستعمل عليها ، ثم سار إلى الفارياب ، وبها مدن ورَساتيق ، فخرج إليه ملكها سامعاً مطيعاً ، فاستعمل عليها رجلا من أصحابه . ثم سار إلى الجُوزجان ، فأخذها من ملكها واستعمل عليها ، ثم أتى بَلْخ فدخلها ، وأقام بها نهاراً واحداً ، ثم خرج منها وقصد نِيزَك خان ببَغْلان ، وقد نزل نِيزَك خان معسكراً على فم الشِّعب الذى منه يدخل إلى بلاده ، وفى فم الشعب قلعة عظيمة تسمى : شمسية ؛

لعلوها وارتفاعها واتساعها . فقدم على قتيبة الرَّوْب خان ـ ملك الرؤب وسِمِنْجان ، فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة ، فأمنه ، وبعث معه رجالا إلى القلعة فأتوها ليلا ، ففتحوها وقتلوا خلقاً من أهلها ، وهرب الباقى . ودخل قتيبة الشِّعب وأتى سِمِنْجان ـ وهى مدينة كبيرة ـ فأقام بها ، وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك المدن والبلاد نِيزَك خان فى جيش هائل ، فسار خلفه إلى بَغْلان فحصره بها ، وأقام بحصاره شهرين حتى نفد ما عنده من الأقوات ، فأرسل قتيبة من عنده ترجماناً يسمى النَّاصح ، فقال له : اذهب فائتنى بنِيزَك خَان ، ولئن عُدتَ إلىَّ وليس هو معك ضربت عنقك . وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة ، فسار الترجمان إلى نِيزَك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة ، فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها ـ وكانوا قد أجهدهم الجوع ـ ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له ، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ، ومن أهل بيته جماعة ، وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم ، وولى على بلادهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الواقدى وغيره : وحجّ بالناس فى هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما قرب من المدينة أمرَ عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه ، فرحَّب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية ، فأخلى له المسجد النبوى ، فلم يبق به أحد سوى سَعيد بن المسيِّب لم يتجاسر أحد أن يُخرجه ، وإنما عليه ثياب لا تساوى خمسة دراهم ، فقالوا له : تنحَّ عن المسجد أيها الشيخ ، فإن أمير المؤمنين قادم ، فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد ، فجعل يدورُ فيه يصلّى هٰهُنا وهٰهُنا ، ويدعو الله عز وجل . قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعْدِل به عن موضع سَعيد خشية أن يراه ، فحانت منه التفاتة ، فقال : من هٰذا ؟ أهو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنكَ قادم لقام إليك وسلّم عليك ، فقال : قد علمت بُغْضَه لنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنّه وإنّه ، وشرعت أثنى عليه ، وشرع الوليد يُثنى عليه بالعلم والدين ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ـ وإنما قلت ذلك لأعتذر له ـ فقال : نحن أحقّ بالسعىِ إليه ، فجاء فوقف عليه فسلّم عليه ، فلم يقم له سعيد ، ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخيرٍ والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس ، فقال : أجل يا أمير المؤمنين .

قالوا : ثم خطب الوليد على منبر رسول الله ﷺ ، فجلس فى الخطبة الأولى ، وانتصب فى الثانية . قال : وقال : هكذا خطب عثمان ، ثم انصرف ، فصرف على الناس من أهل المدينة ذهبًا كثيراً وفضة كثيرة ، ثم كسا المسجد النبوى من كسوة الكعبة التى معه ، وهى من ديباج غليظ .

وتوفى فى هذه السنة :

السائب بن يزيد بن سعد بن ثمامة ، وقد حج به أبوه مع رسول الله ﷺ ، وكان عمر السائب سبع سنين ، رواه البخارى ، فلهذا قال الواقدى : إنه ولد سنة ثلاث من الهجرة ، وتوفى سنة إحدى وتسعين . وقال غيره : سنة ست ، وقيل : ثمان وثمانين ، والله أعلم .

سهل بن سعد الساعدى : صحابى مدنى جليل ، توفى رسول الله ﷺ وله من العمر خمس عشرة سنة ، وكان ممن ختمه الحجاج فى عنقه هو وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله فى يده ، ليذلهم كيلا يسمع الناس من رأيهم . قال الواقدى : توفى سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة ، وهو آخر من مات فى المدينة من الصحابة . قال محمد بن سعد : ليس فى هذا خلاف ، وقد قال البخارى وغيره : توفى سنة ثمان وثمانين ، فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

فيها : غزا مَسْلمة ، وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصوناً كثيرة ، وغنما شيئاً كثيراً ، وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم .

وفيها : غزا طارق بن زياد ـ مولى موسى بن نصير [بلاد الأندلس فى اثنى عشر ألفاً ، فخرج إليه ملكها «أدرينوق» فى جحافله ، وعليه تاجه ، ومعه سرير ملكه ، فقاتله طارق فهزمه ، وغنم ما فى معسكره ، فكان من جملة ذلك السرير ، وتملك بلاد الأندلس بكمالها . قال الذهبى : كان طارق بن زياد أمير طَنجة ، وهى أقصى بلاد المغرب ، وكان نائباً لمولاه موسى بن نصير][1] ، فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه ، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس من زقاق سبتة ، وانتهز الفرصة لكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم ، وأمعن طارق فى بلاد الأندلس ، فافتتح قرطبة ، وقتل ملكها أدرينوق ، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح ، فحسده موسى على الانفراد بهذا الفتح ، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح ، وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده ، لكونه دخل بغير أمره ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، ثم سار إليه مسرعاً بجيوشه ، فدخل الأندلس ومعه حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأقام سنين يفتح فى بلاد الأندلس ، ويأخذ المدن والأموال ، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال ، فغنم شيئاً لا يحد ولا يوصف ولا يعد ، من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ، ومن آنية الذهب والفضة ، والأثاث والخيول والبغال ، وغير ذلك شيئاً كثيراً . وفتح من الأقاليم الكبار

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

والمدن شيئاً كثيراً . وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد من حصون بلاد الروم : حصن سُوسَنة ، وبلغا إلى خليج القسطنطينية .

وفيها : فتح قتيبة بن مسلم شُومان وكَس ونَسَف ، وامتنع عليه أهل فِرياب فأحرقها ، وجهز أخاه عبد الرحمن إلى الصُّغد إلى طرخون خَان ملك تلك البلاد ، فصالحه عبد الرحمن ، وأعطاه طرخون خَان أموالا كثيرة ، وقدم على أخيه وهو ببخارى ، فرجع إلى مَرْو ، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورحل عنه ، اجتمعت الصُّغد وقالوا لطرخون : إنك قد بؤت بالذل ، وأدّيت الجزية ، وأنت شيخ كبير ، فلا حاجة لنا فيك ، ثم عزلوه وولّوا عليهم غوزك خان ـ أخا طرخون خان ـ ثم إنهم عصوا ونقضوا العهد ، وكان من أمرهم ما سيأتى .

وفيها : غزا قتيبة سجستان ، يريد رُتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رُتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة ، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك ، يحمل ذلك إليه ، فصالحه .

وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز نائب المدينة . وتوفى فيها من الأعيان :

مالك بن أوس بن الحدثان النضرى ، أبو سعيد المدنى ، مختلف فى صحبته . قال بعضهم : ركب الخيل فى الجاهلية ، ورأى أبا بكر . وقال محمد بن سعد : رأى رسول الله ﷺ ولم يحفظ منه شيئاً ، وأنكر ذلك ابن معين والبخارى وأبو حاتم ، وقالوا : لا تصح له صحبة ، والله أعلم .

مات فى هذه السنة ، وقيل : فى التى قبلها ، فالله أعلم .

طويس المغنى ، اسمه عيسى بن عبد الله ، أبو عبد المنعم المدنى ، مولى بنى مخزوم . كان بارعاً فى صناعته ، وكان طويلا مضطربا ، أحول العين ، وكان مشئوما ، لأنه ولد يوم مات رسول الله ﷺ ، وفطم يوم توفى الصديق ، واحتلم يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل الحسين بن على . وقيل : ولد له يوم قتل على . حكاه ابن خلكان وغيره . وكانت وفاته فى هذه السنة عن ثنتين وثمانين سنة بالسويدـ وهى على مرحلتين من المدينة .

الأخطل ، كان شاعراً مطبقا ، فاق أقرانه فى الشعر .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

وفيها : افتتح مَسْلمة بن عبد الملك حُصونًا كثيرة من بلاد الروم ، منها : حصن الحديد ، وغَزالة ، وماسّة ، وغير ذلك .

وفيها : غزا العباس بن الوليد ، ففتح سَمَسْطِيَّة .

وفيها : غزا مروان بن الوليد الروم ، حتى بلغ خَنْجَرَة .

وفيها : كتب خُوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح ، وأن يعطيه من بلاده مدائن ، وأن يدفع إليه أموالا ورقيقاً كثيراً على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه ، فإنه قد أفسد فى الأرض ، وبغى على الناس وعسفهم . وكان أخوه هذا لا يسمع بشىء حسن عند أحد إلا بَعث إليه فأخذه منه ، سواء كان مالا أو نساء أو صبياناً أو دوابّ أو غيره ، فأقبل قتيبة ـ نصره الله ـ فى الجيوش ، فسلم إليه خُوارزم شاه ما صالحه عليه ، وبعث قتيبة إلى بلاد أخِى خُوارزم شاه جيشاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأسروا أخاه ، ومعه أربعة آلاف أسير من كبارهم ، فدفع أخاه إليه ، وأمر قتيبة بالأسارى ، فضُربت أعناقهم بحضرته ، قيل : ألفاً بين يديه ، وألفاً عن يمينه ، وألفاً عن شماله ، وألفاً من وراء ظهره ، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم .

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله ، وعزم على الرجوع إلى بلاده ، قال له بعض الأمراء : إن أهل الصُّغد قد أمَّنوك عامك هذا ، فإن رأيت أن تعدل إليهم وهم لا يشعرون ، فإنك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدها يوماً من الدهر ، فقال قتيبة لذلك الأمير : هل قلتَ هذا لأحد ؟ قال : لا ! قال : فلإن يسمعه منك أحد أضرب عنقك . ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن ابن مسلم بين يديه فى عشرين ألفاً ، فسبقه إلى سَمرقند ، ولحقه قتيبة فى بقية الجيش ، فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم انتخبوا من بينهم كلّ شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء ، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة فى الليل ، فيكبسوا جيش المسلمين . وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك ، فجرّد أخاه صالحا فى ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يُطاقون ، وقال : خُذُوا عليهم الطريق ، فساروا فوقفوا لهم فى أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق . فلما اجتازوا بهم بالليل ـ وهم لا يشعرون بهم ـ نادَوا عليهم ، فاقتتل المسلمون هم وإياهم ، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا النفر اليسير ، واحتزوا رءوسهم ، وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المحلاة بالذهب ، والأمتعة ، وقال لهم بعض أولئك : تعلمون أنكم لم تقتلوا فى مقامكم هذا إلا ابن مَلِك ، أو بَطل من الأبطال المعدودين بمائة فارس أو بألف فارس ، فنفلهم قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح ، واقترب من المدينة العظمى التى بالصُّغد ـ وهى سمرقند ـ فنصب عليها المجانيق فرماها بها ، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم ، وناصحه من معه عليها من بُخارى وخُوارزم ، فقاتلوا أهل الصُّغد قتالا شديداً .

فأرسل إليه غَوْزَك ملك الصُّغْد : إنما تقاتلني بإخواني وأهل بيتي ، فاخرج إليَّ في العرب . فغضب عند ذلك قتيبة وميّز العرب من العجم ، وأمر العجم باعتزالهم ، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح ، وانتزعه من أيدي الجبناء ، وزحف بالأبطال على المدينة ، ورماها بالمجانيق فثلم فيها ثُلمة فسدّها الترك بغرائر الدُّخن ، وقام رجل منهم فوقها ، فجعل يشتم قتيبة ، فرماه رجل من المسلمين بسهم ، فقلع عينه حتى خرجت من قفاه ، فلم يلبث أن مات ـ قبحه الله ، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف ، ثم دخل الليل ، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضاً ثُلمةً ، وصعد المسلمون فوقها ، وتراموا هم وأهل البلد بالنُّشّاب ، فقالت الترك لقتيبة : ارجع عنا يومك هذا ، ونحن نصالحك غداً ، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفي ألفٍ ومائة ألف يحملونها إليه في كل عام ، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس مِنَ الرَّقيق ، ليس فيهم صغير ، ولا شيخ ولا عيب . وفي رواية: مائة ألف من رقيق ، وعلى أن يأخذ حِلية الأصنام ، وما في بيوت النيران ، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبنى فيها قتيبة مسجداً ، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه ، ويتغدى ويخرج ، فأجابوه إلى ذلك .

فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال ـ وذلك بعد أن بنى المسجد ، ووضع فيه المنبر ـ فصلى في المسجد وخطب وتغدى ، وأتى بالأصنام التي لهم ، فسُلبت بين يديه ، وألقيت بعضها فوق بعض ، حتى صارت كالقصر العظيم ، ثم أمر بتحريقها ، فتصارخوا وتباكوا ، وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك ، وجاء الملك غَوْزَك فنهى عن ذلك ، وقال لقتيبة إني لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال : أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعاً ، ثم لا تنظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل ، وألقى فيها النار فاحترقت ، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب .

وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السَّبي جاريةٌ من ولد يزدجرد ، فأهداها إلى الوليد ، فولدت له يزيد ، ثم استدعى قُتيبة أهل سمرقند فقال لهم : إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، ولكن لابدَّ من جند يقيمون عندكم من جهتنا . فانتقل عنها ملكها غَوْزَك خان ، فتلا قتيبة (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)[1] الآيات ، ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مَرْو ، واستخلف على سَمرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وقال له : لا تدع مشركا يدخل باب سَمرقند إلا مختوم اليد ، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينة ختمه ، فإن جئت وهو بها فاقتله ، ومن رأيت

---

(١) الآيتان : ٥٠ ، ٥١ من سورة النجم .

منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها ، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً فاقتله ، فقال فى ذلك كعب الأشقرى ـ ويقال هى لرجل من جُعْفىّ :

كلّ يوم يحوى قتيبةُ نَهْبا ويزيد الأموال مالاً جديدا
باهلىٌّ قد ألبس التاج حتى شاب منــه مفارقٌ كنّ سودا
دوّخ الصُّغد بالكتائب حتى ترك الصُّغْدَ بالعراء قعــودا
فوليــدٌ يبكى لفقد أبيه وأبٌ موجَعٌ يُبَكّى الوليدا
كلما حَــلّ بلدةً أو أتاها تركت خيله بها أخــدودا

وفى هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب ـ مولاه طارقاً عن الأندلس ، وكان قد بعثه إلى مدينة طُلَيطلة ، ففتحها فوجد فيها مائدة سليمان بن داود عليهما السّلام ، وفيها من الذهب والجواهر شىء كثير جداً ، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فما وصلت إليه حتى مات وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فوصلت مائدةُ سليمان عليه السلام إلى سليمان ـ على ما سيأتى بيانه فى موضعه ، وكان فيها ما يبهر العقول ، لم يرَ منظر أحسن منها . واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير .

وفيها : بعث موسى بن نصير العساكر وبثها فى بلاد المغرب ، فافتتحوا مدنا كثيرة من جزيرة الأندلس ، منها : قُرطبة وطنجة . ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس ، فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء ، وغيرها من المدن الكبار والأقاليم ، ومن القرى والرساتيق شىء كثير ، وكان لا يأتى مدينة ، فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه ، وجهز البعوث والسرايا غربا وشرقا فجعلوا يفتتحون المغرب بلداً بلداً ، وإقليما إقليما . ويغنمون الأموال ويسْبُون الذرارى والنساء ، ورجع موسى بن نصير بغنائم وأموال وتحف لا تحصى ولا تعد كثرة .

وفيها : قحط أهل إفريقية وأجدبوا جدبا شديداً ، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقى بهم ، فما زال يدعو حتى انتصف النهار ، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له . ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ قال : ليس هذا الموضع موضع ذاك ، فلما قال هذه المقالة ، أرسل الله عليهم الغيث ، فأمطروا مطراً غزيرا وحسن حالهم ، وأخصبت بلادهم .

وفيها : ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له فى ذلك ، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد، فى ماء بارد، فى يوم شتاء بارد ، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله . وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خُبيب شديد الخوف لا يأمن ، وكان إذا بُشّر بشىء من أمر الآخرة يقول : وكيف وخبيب لى بالطريق ؟ وفى رواية يقول :

هذا إذا لم يكن خبيب فى الطريق ، ثم يَصيح صياح المرأة الثكلى . وكان إذا أثنى عليه يقول : خبيب وما خبيب ، إن نجوت منه فأنا بخير. وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ ، وأخذ فى الاجتهاد فى العبادة والبكاء ، فكانت تلك هفوة منه وزلة ، ولكن حصل له بسببها خير كثير ؛ من عبادة وبكاء ، وحزن وخوف ، وإحسان وعدل وصدقة وبر وعتق - وغير ذلك .

وفيها : افتتح محمد بن القاسم - وهو ابن عم الحجاج بن يوسف - مدينة الدَّبيل وغيرها من بلاد الهند، وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة ، فسار فى الجيوش فلقوا الملك دَاهِر - وهو ملك الهند - فى جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلا منتخبة ، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً فاقتتلوا قتالا شديداً ، فقتل الملك داهر وغالب من معه ، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه . ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكبرج وبرها ، ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثرة ؛ من الجواهر والذهب وغير ذلك ، [فكانت سوق الجهاد قائمة فى بنى أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبرّها وبحرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان فى عساكرهم وجيوشهم فى الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ، فى كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه .

فقتيبة ابن مسلم يفتح فى بلاد الترك ؛ يقتل ويسبى ويغنم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى ملكه يدعوه ، فخاف منه ، وأرسل له هدايا وتحفا وأموالا كثيرة هدية ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث إن ملوك تلك النواحى كلها تؤدى إليه الخراج خوفا منه ، ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقى مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر . ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك ، قتله بعض المسلمين .

ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر - يفتحون فى بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، وبنى بها مسلمة جامعا يعبد الله فيه ، وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعبا .

ومحمد بن القاسم ابن أخى الحجاج يجاهد فى بلاد الهند ، ويفتح مدنها فى طائفة من جيش العراق وغيرهم .

وموسى بن نصير يجاهد فى بلاد المغرب ، ويفتح مدنها وأقاليمها فى جيوش الديار المصرية

وغيرهم . وكل هذه النواحى ، إنمـا دخل أهلها فى الإسلام ، وتركوا عبادة الأوثان .

وقبل ذلك قد كان الصحابة فى زمن عمر وعثمان- فتحوا غالبَ هذهالنواحى ، ودخلوا فى مبانيها بعد هذه الأقاليم الـكبار ؛ مثل الشام ، ومصر ، والعراق ، واليمن ، وأوائل بلاد الترك ، ودخلوا إلى ما وراء النهر وأوائل بلاد المغرب ، وأوائل بلاد الهند . فكان سوق الجهاد قائماً فى القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بنى أمية ، وفى أثناء خلافة بنى العباس مثل أيام المنصور وأولاد ، والرشيد وأولاده ؛ فى بلاد الروم والترك والهند .

وقد فتح محمود سُبكتِكين وولده فى أيام ملـكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند ، ولمـا دخل طائفة ممن هرب من بنى أمية إلى بلاد المغرب وتملـكوها ، أقاموا سوق الجهاد فى الفرنج بها . ثم لمـا بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها ، فأخذ منها بلاداً كثيرة ، وضعف الإسلام فيها ، ثم لمـا استوات دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية ، وضعف الإسلام وقلّ ناصروه، وجاء الفرنج ، فأخذوا غالب بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية ، فأقام الله سبحانه بنى أيوب مع نور الدين ، فاستلبوها من أيديهم وطردوهم عنه ، فلله الحمد والمنة ، وسيأتى ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله تعالى][(١)] .

وفيها : عزل الوليدُ عُمَرَ بن عبد العزيز عن إمرة المدينة ، وكان سبب ذلك : أنّ عُمَرَ بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم فى ضيم وضيق مع الحجاج من ظُلمة وغشمه ، فسمع بذلك الحجاج ، فـكتب إلى الوليد : إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة ، وهذا وَهْن وضعف فى الولاية ، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما . فولى على المدينة عثمان بن حَيّان، وعلى مكة - خالد بن عبد الله القسرى ، وفعل ما أمره به الحجاج . فخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة فى شوال فنزل السُّوَيداء ، وقدم عثمان بن حَيّان المدينة لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة وحج بالناس فيها : عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

أنس ابن مالك

ابن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار - أبو حمزة ، ويقال: أبو ثمامة الأنصارى النجارى ، خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، وأمه: أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام - زوجة أبى طلحة زيد بن سهل الأنصارى . روى عن رسول الله ﷺ أحاديث جمة ، وأخبر بعلوم مهمة . وروى عن أبى بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم .

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

وحدث عنه خلق من التابعين قال أنس : قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفى وأنا ابن عشرين سنة . وقال محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن ثمامة قال : قيل لأنس : أشهدت بدراً ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر - لا أمّ لك ؟ قال الأنصارى : شهدها يخدم رسول الله ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى : لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازى ، قلت : الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازى ، والله أعلم .

وقد ثبت أن أمه أتت به - وفى رواية : عمه زوج أمه أبو طلحة - إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، هذا أنس خادم لبيب يخدمك ، فوهبته منه فقبله ، وسألته أن يدعو له ، فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . وثبت عنه أنه قال : كنّانى رسول الله ﷺ ببَقلة كنت أجتنيها .

وقد استعمله أبو بكر ، ثم عمر - على عمالة البحرين ، وشكراه فى ذلك ، وقد انتقل بعد النبى ﷺ ، فسكن البصرة ، وكان له بها أربع دور ، وقد ناله أذى من جهة الحجاج ، وذلك فى فتنة ابن الأشعث ؛ توهّم الحجاج منه أنه له مداخلة فى الأمر ، وأنه أفتى فيه ، فختمه الحجاج فى عنقه ، هذا عُتق الحجاج ، وقد شكاه أنس - كما قدمنا - إلى عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج يعنّفه ، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنسا .

وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك فى أيام ولايته ، قيل : فى سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى جامع دمشق . قال مكحول : رأيت أنساً يمشى فى مسجد دمشق ، فقمت إليه ، فسألته عن الوضوء من الجنازة ، فقال : لا وضوء .

وقال الأوزاعى : حدثنى إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر قال : قدم أنس على الوليد ، فقال له الوليد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنتم والساعة كهاتين » . ورواه عبد الرزاق بن عمر ، عن إسماعيل قال : قدم أنس على الوليد فى سنة ثنتين وتسعين ، فذكره .

وقال الزهرى : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : لا أعرف مما كان رسول الله ﷺ وأصحابه إلا هذه الصلاة ، وقد صنعتم فيها ما صنعتم . وفى رواية : وهذه الصلاة قد ضيعت - يعنى ما كان يفعله خلفاء بنى أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتهـا الموسع - كانوا يواظبون على التأخير ، إلا عمر بن عبد العزيز فى أيام خلافته ، كما سيأتى .

وقال عبد بن حميد ، عن عبد الرزاق ، عن جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس قال :

جاءت بى أمى إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام ، فقالت : يا رسول الله ، خويدمك أنيس فادع الله له ، فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . قال : فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة . وفى رواية : قال أنس : فوالله إن مالى لكثير حتى نخلى وكرمى ليثمر فى السنة مرتين ، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادّون على نحو المائة . وفى رواية : وإن ولدى لصلبى مائة وستة . ولهذا الحديث طرق كثيرة ، وألفاظ منتشرة جداً . وفى رواية : قال أنس : وأخبرتنى بنتى آمنة أنه دفن لصلبى إلى حين مقدم الحجاج ـ عشرون ومائة . وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده ، وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أنس ، وقد أوردنا طرفاً من ذلك فى كتاب «دلائل النبوة » فى أواخر السيرة ، ولله الحمد .

وقال ثابت لأنس : هل مست يدك كف رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فأعطنيها أقبلها . وقال محمد بن سعد ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن المثنى بن سعيد الذراع قال : سمعت أنس ابن مالك يقول : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبى رسول الله ﷺ ، ثم يبكى .

وقال محمد بن سعد ، عن أبى نعيم ، عن يونس بن أبى إسحاق ، عن المنهال بن عمرو قال : كان أنس صاحب نعل رسول الله ﷺ وإداوته .

وقال أبو داود : ثنا الحكم بن عطية ، عن ثابت ، عن أنس قال : إنى لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ فأقول : يا رسول الله خُوَيدمك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، ثنا حرب بن ميمون ، عن النضر بن أنس ، عن أنس قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : « أنا فاعل ، قلت : فأين أطلبك يوم القيامة يا نبى الله ؟ قال : اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط ، قلت : فإذا لم ألقك ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فأنا عند الحوض لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة » . ورواه الترمذى وغيره من حديث حرب بن ميمون أبى الخطاب صاحب الأعمش الأنصارى به وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال شعبة ، عن ثابت قال : قال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم ـ يعنى أنس بن مالك ـ . وقال ابن سيرين : كان أحسن الناس صلاة فى الحضر والسفر . وقال أنس : خذ منى فأنا أخذت من رسول الله ﷺ عن الله عز وجل ، ولست تجد أوثق منى . وقال معتمر بن سليمان ، عن أبيه : سمعت أنساً يقول : ما بقى أحد صلى إلى القبلتين غيرى . وقال محمد بن سعد : حدثنا عفان ، حدثنى شيخ لنا ـ يكنى أبا جناب ـ سمعت الجريرى يقول : أحرم أنس من ذات عرق ، فما سمعناه متكلما إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل ،

فقال لي : يا ابن أخي هكذا الإحرام . وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن في بعض أبيات أزواج النبي ﷺ نتحدث ، فقال : مه ، فلما أقيمت الصلاة قال : إني لأخاف أن أكون قد أبطلت جمعتي بقولي لكم : مه .

وقال ابن أبي الدنيا : ثنا بشار بن موسى الخفاف ، ثنا جعفر بن سليمان ، عن ثابت قال : كنت مع أنس ، فجاءت قهرمانة فقالت : يا أبا حمزة عطشت أرضنا ، قال : فقام أنس فتوضأ ، وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ، ثم دعا فرأيت السحاب يلتئم ، ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شيء ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله ، فقال : انظر أين بلغت السماء ، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيراً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاذ بن معاذ ، ثنا ابن عون ، عن محمد قال : كان أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله ﷺ .

وقال الأنصاري ، عن ابن عوف ، عن محمد قال : بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من الفيء ، فقال : أخمس ؟ قال : لا ، فلم يقبله .

وقال النضر بن شداد ، عن أبيه : مرض أنس ، فقيل له : ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني .

وقال حنبل بن إسحاق : ثنا أبو عبد الله الرقاشي ، ثنا جعفر بن سليمان ، ثنا علي بن يزيد قال : كنت في القصر مع الحجاج ، وهو يعرض على الناس ليالي ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك ، فقال الحجاج : هي يا خبيث ، جوّال في الفتن ؛ مرة مع علي ، ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة[1] ، ولأجردنك كما تجرد الضب . قال : يقول أنس : إياي يعني الأمير ؟ قال : إياك أعني ، أصم الله سمعك ، قال : فاسترجع أنس وشغل الحجاج ، فخرج أنس ، فتبعناه إلى الرحبة ، فقال : لولا أني ذكرت ولدي ـ وفي رواية : لولا أني ذكرت أولادي الصغار ـ وخفته عليهم ما باليت ، أي قتل أقتل ، ولكلمته بكلام في مقامي هذا لا يستخفني بعده أبداً .

وقد ذكر أبو بكر بن عياش ، أن أنساً بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول : والله لو أن اليهود والنصارى رأوا من خدم نبيهم لأكرموه ، وأنا قد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين . فكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً فيه كلام جد ، وفيه : إذا جاءك كتابي هذا

---

(١) الصمغة : القرحة .

فقم إلى أبى حمزة فترضّاه، وقبّل يده ورجله، وإلا حَلّ بك منى ما تستحقه. فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة والشدة، همّ أن ينهض إليه، فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر، الذى قدم بالكتاب - أن لا يذهب إلى أنس، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة - وكان إسماعيل صديق الحجاج - فجاء أنس، فقام إليه الحجاج يتلقاه، وقال: إنما مثلى ومثلك «إياك أعنى واسمعى يا جارة» أردت أن لا يبقى لأحد علىّ منطق.

وقال ابن قتيبة: كتب عبد الملك إلى الحجاج - لما قال لأنس ما قال -: يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، لقد هممت أن أركلك ركلة تهوى بها إلى نار جهنم، قاتلك الله، أخيفش العينين، أفيتل الرجلين، أسود الجاعرتين - ومعنى قوله المستفرمة بعجم الزبيب - أى تضيق فرجها عند الجماع به، ومعنى أركلك، أى أرفسك برجلى، وسيأتى بسط ذلك فى ترجمة الحجاج فى سنة خمس وتسعين. وقال أحمد بن صالح العجلى: لم يبتل أحد من الصحابة إلا رجلين، مُعيقيب كان به الجذام، وأنس بن مالك كان به وضح. وقال الحميدى، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبى جعفر قال: رأيت أنساً يأكل، فرأيته يلقم لقماً عظاماً، ورأيت به وضحاً شديداً. وقال أبو يعلى: ثنا عبد الله بن معاذ بن يزيد، عن أيوب قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع طعاماً ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم. وذكره البخارى تعليقاً. وقال شعبة، عن موسى السنبلاوى، قلت لأنس: أنت آخر من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: قد بقى قوم من الأعراب، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقى. وقيل له فى مرضه: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضنى، وجعل يقول: لقِّنونى لا إلٰه إلا الله، وهو محتضر، فلم يزل يقولها حتى قبض. وكانت عنده عُصيَّة من رسول الله ﷺ، فأمر بها، فدفنت معه.

قال عمر بن شبّة وغير واحد: مات وله مائة وسبع سنين. وقال الإمام أحمد فى مسنده: ثنا معتمر بن سليمان، عن حميد: أن أنساً عمّر مائة سنة غير سنة. قال الواقدى: وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة. وكذا قال على بن المدينى والفلاس وغير واحد.

وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته؛ فقيل: سنة تسعين، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: ثنتين وتسعين، وقيل: ثلاث وتسعين، وهذا هو المشهور، وعليه الجمهور، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنى أبو نعيم قال: توفى أنس بن مالك، وجابر بن زيد فى جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين. وقال قتادة: لما مات أنس قال مورّق العجلى: ذهب اليوم نصف العلم، قيل له: وكيف ذاك يا أبا المعتمر؟ قال: كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا فى الحديث عن رسول الله ﷺ، قلنا لهم: تعالوا إلى من سمعه منه.

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الشاعر المشهور ، يقال : إنه ولد يوم توفى عمر ابن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ، وتزوج يوم مقتل على ، فالله أعلم ، وكان مشهوراً بالتغزل المليح البليغ ، كان يتغزل فى امرأة يقال لها : الثّريا بنت على بن عبد الله الأموية ، وقد تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فقال فى ذلك عمر بن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريَّا سُهيلا ... عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان

هى شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يمان

ومن مستجاد شعره ما أورده ابن خلكان :

حيِّ طيفًا من الأحبة زارا ... بعد ما برح الكرى السُّمَّارا

طارقا فى المنام بعد دُجَى ... الليل خفيا بأن يزور نهارا

قلت ما بالنا جفينا وكنا ... قبل ذاك الأسماع والأبصارا

قال : إنا كما عهدت ولكن ... شغل الحلى أهله أن يعارا

بلال بن أبى الدرداء : ولى إمرة دمشق ، ثم ولى القضاء بها ، ثم عزله عبد الملك بأبى إدريس الخولانى . كان بلال حسن السيرة ، كثير العبادة ، والظاهر أن هذا القبر الذى بباب الصغير الذى يقال له : قبر بلال ، إنما هو قبر بلال بن أبى الدرداء ، لا قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ ، فإن بلالاً المؤذن دفن بداريًا ، والله أعلم .

بشر بن سعيد ، المزنى السيد العابد ، الفقيه ، كان من العباد المنقطعين ، الزهاد المعروفين ، توفى بالمدينة .

زرارة بن أوفى ، بن حاجب العامرى ، قاضى البصرة ، كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها ، له روايات كثيرة ، قرأ مرة فى صلاة الصبح سورة المدثر ، فلما بلغ (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ)[1] خرَّ ميتًا . توفى بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة .

خبيب بن عبد الله ، بن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له فى ذلك فمات ، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة ، فكان يتأسف على ضربه له ويبكى . مات بالمدينة .

حفص بن عاصم ، بن عمر بن الخطاب المدنى ، له روايات كثيرة ، وكان من الصالحين . توفى بالمدينة .

---

(١) الآية : ٨ من سورة المدثر .

سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد الأموي ، أحد الأشراف بالبصرة ، كان جواداً ممدحاً ، وهو أحد الموصوفين بالكرم . قيل : إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين .

فروة بن مجاهد ، قيل : إنه كان من الأبدال ، أسر مرة ـ وهو فى غزوة ـ هو وجماعة معه ، فأتوا بهم الملك ، فأمر بتقييدهم ، وحبسهم فى المكان ، والاحتراز عليهم ، إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه ، فقال لهم فروة : هل لكم فى المضى إلى بلادنا ؟ فقالوا : أو ما ترى ما نحن فيه من الضيق ؟ فلمس قيودهم بيده فزالت عنهم ، ثم أتى باب السجن ، فلمسه بيده فانفتح ، فخرجوا منه ومضوا ، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد .

أبو الشعثاء جابر بن زيد : كان لا يماكس[1] فى ثلاث : فى الكرى إلى مكة ، وفى الرقبة يشتريها لتعتق ، وفى الأضحية . وقال : لا تماكس فى شىء يتقرب به إلى الله .

وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم . قلت : كما قيل :

إنى رأيت فلا تظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين - أحب إلىّ من حجة بعد حجة الإسلام .

كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتى فى البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر ابن عبد الله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟

وقال له جابر بن عبد الله : يا ابن زيد ! إنك من فقهاء البصرة ، وإنك ستستفتى فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت .

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد .

وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان .

وقال قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض .

وقال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار : قال أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدهم ـ أى عمرو ـ فلو أنى ابتليت بشىء منه لركبت راحلتى وهربت من الأرض .

---

(١) أى : لا يساوم ، والمماكسة فى البيع : انتقاص الثمن وانحطاطه .

وقال أبو الشعثاء : نظرت فى أعمال البر ، فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح رماها فى الحائط ، وكان الحائط اقوم قالوا : لو كان كلما مر به أخذ منه قبضة لم يبق منه شىء . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلنى اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من دعاك ، ورغب إليك

وقال سيار : حدثنا حماد بن زيد ، ثنا الحجاج بن أبى عيينة قال : كان جابر بن زيد يأتينا فى مصلانا ، قال . فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان ، فقال : مضى من عمرى ستون سنة ، نعلاى هاتان أحب إلى مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته .

وقال صالح الدهان : كان جابر بن زيد إذا وقع فى يده سَتُّوق كسره ، ورمى بهْ لئلا يغر به مسلم . السَّتُّوق : الدرهم الفاير أو الدغل ، وقيل : هو المغشوش .

وروى الإمام أحمد : حدثنا أبو عبدالصمد العمى ، حدثنا مالك بن دينار قال : دخل علىّ جابر ابن زيد ، وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعة صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به . وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى : (إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)(١) قال : ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) ، وقال سفيان : حدثنى أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهى وما تريد ؟ قال : نظرة إلى الحسن . وفى رواية عن ثابت قال : لما ثقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهى ؟ قال نظرة إلى الحسن . قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته ، فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدونى ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبى عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبى صفرة ـ وكانت من أحسن النساء ـ وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان إباضيًّا(٢) ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إلىّ وإلى أمى ، فما أعلم عنه شيئاً ، وكان لا يعلم شيئاً يقربنى إلى الله عز وجل إلا أمرنى به ، ولا شيئاً يباعدنى من الله إلا نهانى عنه ، وما دعانى إلى الأباضية قط ولا أمرنى بها ، وكان يأمرنى أين أضع الخمار ـ ووضعت يدها على الجبهة . أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

---

(١) الآية : ٧٥ من سورة الإسراء .

(٢) الإباضية : فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن أباض التميمى .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها : غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، فقيل إنه فتح أنطاكية ، وغزا أخوه عبد العزيز ابن الوليد فبلغ غَزَالة ، وبلغ الوليد بن هشام المعيطى أرض بُرْج الحمام ، وبلغ يزيد بن أبى كبشة أرض سُورية وفيها كانت الرجفة بالشام[1] . وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم . وفيها فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة فى دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدى أولاده وأقربائه وأمرائه ، حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ..

وفيها : افتتح القاسم بن محمد الثقفى أرض الهند ، وغنم أموالا لا تعد ولا توصف ، وقد ورد فى غزو الهند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره . وفيها: غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرْغانة حتى بلغ خُجَنْدة وكاشَان - مدينَتى فَرغانة ، وذلك بعد فراغة من الصغد وفتح سمرقند ، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها ، حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها ، وقد لقيه المشركون فى جموع هائلة من الترك ، فقاتلهم قتيبة عند خُجَندة فكسرهم مراراً وظفر بهم ، وأخذ البلاد منهم ، وقتل منهم خلقا وأسر آخرين ، وغنم أموالا كثيرة جداً . قال ابن جرير : وقد قال سحبان وائل ، يذكر قتالهم بخُجَندة التى هى قريبة من بلاد الصين - أبياتاً فى ذلك :

فَسَلِ الفوارس فى خُجَنْـ ... ـدة تحت مُرْهفة العوالى
هل كنتُ أجمعُهم إذا ... هُزمـوا وأقْدِم فى قتـالى
أم كنت أضرب هامَةَ الـ ... ـعاتِى وأصـبر للنزال
هذا وأنت قَرِيع قَيْـ ... ـس كلها ضَخمُ النوال
وفضلْتَ قيساً فى النَّدى ... وأبوك فى الحِجج الخوالى
تمت مروءتُـكم ونا ... غَى عِـزُّكم غُلبَ الجبـال
ولقد تبيّن عدلُ حُـكْـ ... ـمك فيهم فى كلِّ مال

هكذا ذكر ابن جرير هذا من شعر سحبان وائل فى هذه الغزوة ، وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزى فى منتظمه ، أن سحبان وائل مات فى خلافة معاوية بن أبى سفيان بعد الخمسين ، فالله أعلم .

---

(١) فى ابن الأثير : أى كانت الزلازل بالشام ودامت أربعين يوما ، فخربت البلاد ، وكان عظم ذلك فى أنطاكية .

مقتل سعيد بن جبير ـ رحمه الله

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جُبير ، وكان سبب ذلك : أن الحجاج كان قد جعله على نَفَقَات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رُتْبيل ملك الترك ، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير ، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه ، هرب سعيد بن جبير إلى أصبهان ، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه ، فلما سمع بذلك سعيدٌ هرب منها ، ثم كان يعتمر فى كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة ، فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القَسْرى ، فأشار من أشار على سَعيد بالهرب منها ، فقال سعيد : والله لقد استحييت من الله ؛ مما أفِرّ ولا مفرّ من قَدَره . وتولى على المدينة عثمان بن حيَّان بدل عمر بن عبد العزيز ، فجعل يبعث من المدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج فى القيود ، فتعلم منه خالد بن الوليد القَسْرى فعين من عنده من مكة : سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، ومجاهد بن جبر ، وعمرو بن دينار وطلق ابن حبيب ويقال : إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواماً من أهل الشقاق ، فبعث خالد بهؤلاء إليه ، ثم عفا عن عطاء ، وعمرو بن دينار ؛ لأنهما من أهل مكة ، وبعث بأولئك الثلاثة .

فأما طلق فمات فى الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال فى السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد بن جبير ، فلما أوقف بين يدى الحجاج قال له : يا سعيد ! ألم أشركك فى أمانتى ؟ ألم أستعملك ؟ ألم أفعل ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول : نعم ، حتى ظنّ من عنده أنه سيخلى سبيله ، حتى قال له : فما حملك على الخروج علىّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد : إن ابن الأشعث أخذ منى البيعة على ذلك وعزم علىّ ، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً ، وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه ، وقال له : ويحك ! ألم أقدم مكة ، فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق ، فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ! قال : فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسى اضرب عنقه . قال : فضربت عنقه فبذر رأسه عليه لاطئة[1] صغيرة بيضاء . وقد ذكر الواقدى نحو هذا ، وقال له : أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت ؟ أما فعلت ؟

قال ابن جرير : فحدثت عن أبى غسان مالك بن إسماعيل قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر عن رجل قال : لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فَنَدَر[2] رأسُه ، هلّل ثلاثاً ؛ مرّةً يُفصح بها ،

(١) اللاطئة : خراج وجرح يصيب الإنسان ، عسير الشفاء . (٢) أى سقط وانفصل عن جسده .

وفى الشَّفتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها وذكر أبو بكر الباهلى قال : سمعت أنس بن أبى شيخ يقول : لما أُتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : لمن ابن النصرانية - يعنى خالد القسرى ، وكان هو الذى أرسل به من مكة - أما كنتُ أعرف مكانه ! بلى والله ، والبيت الذى هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه ، فقال : يا سعيد ! ما أخرجك علىّ ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، إنما أنا امرؤ من المسلمين يُخطىء مرة ويُصيب أخرى ، فطابت نفس الحجاج وانطلق وجهه ، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره ، ثم عاوده فى شىء ، فقال سعيد : إنما كانت له بيعة فى عنقى ، فغضب عند ذلك الحجاج ، فكان ما كان من قتله .

وذكر عَتّاب بن بشر ، عن سالم الأفطس قال : أتى الحجاج بسعيد بن جبير ، وهو يريد الركوب ، وقد وضع إحدى رجليه فى الغرز ، فقال : والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضُربت عنقه . قال : والتبس الحجاج فى عقله مكانه ، فجعل يقول : قيودُنا قيودُنا ، فظنوا أنه يريد القيود التى على سعيد ، فقطعوا رِجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود .

وقال محمد بن أبى حاتم : ثنا عبد الملك بن عبد الله بن خَبّاب ، قال : جىء بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال : أ كتبتَ إلى مُصعب بن الزبير ؟ فقال : بلى كتبت إلى مصعب ، قال : لا - والله لأقتلنك ، قال : إنى إذاً لسعيد كما سمّتنى أمى . قال : فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً ، وكان إذا نام يراه فى المنام يأخذ بمجامع ثوبه ، ويقول : ياعدوّ الله ! فيم قتلتنى ؟ فيقول الحجاج : مالى ولسعيد بن جبير ؟ مالى ولسعيد بن جبير ؟

قال ابن خلكان : كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدى - مولى بنى والبة ، كوفيا ، أحد الأعلام من التابعين ، وكان أسود اللون ، وكان لا يكتب الفتيا ، فلما عمى ابن عباس كتب ، فغضب ابن عباس من ذلك ، وذكر مقتله كنحو ما تقدم . وذكر أنه كان فى شعبان ، وأن الحجاج مات بعده فى رمضان ، وقيل : قبل بستة أشهر .

وذكر عن الإمام أحمد أنه قال : قتل سعيد بن جبير ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال : مفتقر - إلى علمه . ويقال : إن الحجاج لم يسلط بعده على أحد ، وسيأتى فى ترجمة الحجاج أيضاً شىء من هذا .

قال ابن جرير : وكان يقال لهذه السنة - سَنَةَ الفقهاء ؛ لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ؛ مات فى أولها : علىّ بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عُروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيّب ، وأبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن جبير من أهل مكة ، وقد ذكرنا تراجم هؤلاء فى كتابنا « التكميل » ، وسنذكر طرفاً صالحا ههنا إن شاء الله تعالى .

قال ابن جرير : واستقضى الوليد بن عبد الملك فى هذه السنة على الشام - سُليمان بن صرد . وحج بالناس فيها العباس بن الوليد ، ويقال : مَسلمة بن عبد الملك ، وكان على نيابة مكة خالد القسرى ، وعلى المدينة عثمان بن حيّان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم ، وعلى الكوفة من جهة الحجاج - زياد بن جرير ، وعلى قضائها أبو بكر بن أبى موسى ، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج - الجراح بن عبد الله الحكمى ، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر من توفى فيها من المشاهير والأعيان

سعيد بن جبير الأسدى الوالبى ، مولاهم أبو محمد ، ويقال : أبو عبد الله ، الكوفى المكى ، من أكابر أصحاب ابن عباس ، كان من أئمة الإسلام فى التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح - رحمه الله - وقد رأى خلقاً من الصحابة ، وروى عن جماعة منهم ، وعنه خلق من التابعين . يقال : إنه كان يقرأ القرآن فى الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة ، وكان يقعد فى الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة ، وربما قرأها فى ركعة فى جوف الكعبة . وروى عنه : أنه ختم القرآن مرتين ونصفاً فى الصلاة فى ليلة فى الكعبة .

وقال سفيان الثورى ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه . وكان فى جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، فلما ظفر الحجاج هرب سعيد إلى أصبهان ، ثم كان يتردد فى كل سنة إلى مكة مرتين ؛ مرة للعمرة ، ومرة للحج ، وربما دخل الكوفة فى بعض الأحيان ، فحدّث بها ، وكان بخراسان لا يتحدث ؛ لأنه كان لا يسأله أحد عن شىء من العلم هناك ، وكان يقول : إن مما يهمنى ما عندى من العلم ، وددت أن الناس أخذوه . واستمر فى هذا الحال مختفيا من الحجاج - قريباً من ثنتى عشرة سنة ، ثم أرسله خالد القسرى من مكة إلى الحجاج ، وكان من مخاطبته له ما ذكرناه قريباً .

وقال أبو نعيم فى كتابه الحلية : ثنا أبو حامد بن جبلة ، ثنا محمد بن إسحاق ، ثنا محمد بن أحمد بن أبى خلف ، ثنا شعبان ، عن سالم بن أبى حفصة قال : لما أتى بسعيد بن جبير إلى الحجّاج قال له : أنت الشقى بن كسير ؟ قال : لا ! إنما أنا سعيد بن جبير ، قال : لأقتلنك ، قال : أنا إذاً كما سمتنى أمى سعيداً [قال : شقيت وشقيت أمك ، قال : الأمر ليس إليك ، ثم قال : اضربوا عنقه ، فقال : دعونى أصلى ركعتين ، قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ،

قال : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)(١) ، قال : إنى أستعيذ منك بما استعاذت به مريم ، قال : وما عاذت به ؟ قال : (قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)(٢) . قال سفيان : لم يقتل بعده إلا واحداً . وفى رواية : أنه قال له : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . وفى رواية : أنه لما أراد قتله قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، فقال : (أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) ، فقال : اجلدوا به الأرض ، فقال : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)(٣) ، فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم ، فقال : اللهم لا تسلطه على أحد بعدى . وقد ذكر أبو نعيم هنا كلاماً كثيراً فى مقتل سعيد بن جبير ، أحسنه هذا ، والله أعلم](٤) .

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه ، وقد رويت آثار غريبة فى صفة مقتله ، أكثرها لا يصح ، وقد عوقب الحجاج بعده ، وعوجل بالعقوبة ، فلم يلبث بعده إلا قليلا ، ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما سنذكر وفاته فى السنة الآتية ، فقيل : إنه مكث بعده خمسة عشر يوماً ، وقيل : أربعين يوماً ، وقيل : ستة أشهر ، والله أعلم .

واختلفوا فى عُمُر سعيد بن جبير رحمه الله حين قتل ، فقيل : تسعاً وأربعين سنة ، وقيل : سبعاً وخمسين ، فالله أعلم . قال أبو القاسم اللالكائى : كان مقتله فى سنة خمس وتسعين . وذكر ابن جرير مقتله فى هذه السنة - سنة أربع وتسعين - فالله أعلم .

[قلت : هاهنا كلمات حسان من كلام سعيد بن جبير أحببت أن أذكرها ، قال : إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشيةً تحولُ بينك وبين معصيته ، وتحملك على طاعته ، فتلك هى الخشية النافعة . والذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له ، وإن كثر منه التسبيح ، وتلاوة القرآن . قيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اقترف من الذنوب ، فكلما ذكر ذنبه احتقر عمله . وقال له الحجاج : ويلك ! فقال : الويل لمن زحزح من الجنة وأدخل النار ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال : إنى أشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة ، فأنا خصمك عند الله ، فذبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن ، فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، فما بقى إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك ، فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك علىّ وحلم الله عنك](٥) .

---

(١) من الآية : ١١٥ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ١٨ من سورة مريم .
(٣) من الآية : ٥٥ من سورة طه .
(٤) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

سعيد بن المسيب

ابن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي ، أبو محمد المدنى ، سيد التابعين على الإطلاق ، ولد لسنتين مضتا ، وقيل : بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل : لأربع مضين منها ، وقول الحاكم أبي عبد الله : إنه أدرك العشرة وَهْم منه ، والله أعلم . ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً عن النبي ﷺ ، وروى عن عمر كثيراً ، فقيل : سمع منه ، وعن عثمان ، وعلى ، وسعيد ، وأبي هريرة ، وكان زوج ابنته ، وأعلم الناس بحديثه ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وحدث عن جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم .

قال ابن عمر : كان سعيد أحد المتقنين . وقال الزهرى : جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره . وقال محمد بن إسحاق ، عن مكحول قال : طفت الأرض كلها في طلب العلم ، فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقال الأوزاعى : سئل الزهرى ، ومكحول من أفقه من لقيتما ؟ قالا : سعيد بن المسيب . وقال غيره : كان يقال له فقيه الفقهاء . وقال مالك عن يحيى ابن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : كنت أرحل الأيام والليالى في طلب الحديث الواحد . قال مالك : وبلغنى أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه . وقال الربيع عن الشافعى أنه قال : إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن . وقال الإمام أحمد بن حنبل هى صحاح . قال : وسعيد بن المسيب أفضل التابعين . قال على بن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علما منه ، وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به ، وهو عندى أجل التابعين . وقال أحمد بن عبد الله العجلى : كان سعيد رجلا صالحا فقيها ؛ كان لا يأخذ العطاء ، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار ، وكان يتجر فى الزيت ، وكان أعور . وقال أبو زرعة : كان مدنيا ثقة إماماً . وقال أبو حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة . قال الواقدى : توفى فى سنة الفقهاء ، وهى سنة أربع وتسعين ، عن خمس وسبعين سنة ، رحمه الله .

[وكان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه ، وكان من أزهد الناس فى فضول الدنيا ، والكلام فيما لا يعنى ، ومن أكثر الناس أدباً فى الحديث ؛ جاءه رجل وهو مريض ، فسأله عن حديث ، فجلس فحدثه ، ثم اضطجع ، فقال الرجل : وددت أنك لم تعنَّ ، فقال : إنى كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع . وقال بُرد مولاه : ما نودى للصلاة منذ أربعين إلا وسعيد فى المسجد . وقال ابن إدريس : صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة .

وقال سعيد : لا تملؤا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة وقال : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء . وقال : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى . وقال : كفى بالمرء نصرة من الله أن يرى عدوّه يعمل بمعصية الله . وقال : من استغنى بالله افتقر الناس إليه . وقال : الدنيا نذلة[١] وهى إلى كل نَذْل أميل ، وأنذل منها من أخذها مِن غير وجهها ووضعها فى غير سبيلها . وقال : إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس مَنْ لا ينبغى أن تذكر عيوبه . وقال : من كان فضله أكثر من نقصه وُهِب نقصُه لفضله .

وقد زوّج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبى وداعة ـ وكانت من أحسن النساء ، وأكثرهم أدبًا ، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج ـ وكان فقيراً ، فأرسل إليه بخمسة آلاف ، وقيل : بعشرين ألفًا ، وقال : استنفق هذه . وقصته فى ذلك مشهورة ، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد ، فأبى سعيد أن يزوجه بها ، فاحتال عليه حتى ضربه بالسياط ، كما تقدم ، ولما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة فى أيام عبد الملك ، ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل وأطافه المدينة ، وعرضوه على السيف . فمضى ولم يبايع ، فلما رجعوا به رأته امرأة ، فقالت : ما هذا الخزى يا سعيد ؟ فقال : مِن الخزى فررنا إلى ما ترين ، أى لو أجبناهم وقعنا فى خزى الدنيا والآخرة .

وكان يحمل على ظهره إهاب الشاة ، وكان له مال يتجر فيه ، ويقول : اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصاً عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان ، حتى ألقى الله فيحكم فىّ وفيهم ، وأصل منه رحمى ، وأؤدى منه الحقوق التى فيه ، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار ، والله سبحانه وتعالى أعلم][٢] .

طلق بن حبيب العنزى

تابعى جليل ، روى عن أنس ، وجابر ، وابن الزبير ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم . وعنه حميد الطويل ، والأعمش ، وطاووس ـ وهو من أقرانه ـ وأثنى عليه عمرو بن دينار ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أنه كان

---

(١) النذل : الخسيس من الناس ، والمحتقر فى جميع أعماله .

(٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

يقول بالإرجاء[١] ، وقد كان ممن خرج مع ابن الأشعث ، وكان يقول : تقوّوا بالتقوى ، فقيل له : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى هى العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله . وقال أيضاً : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ، أو يقوم بشكرها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين ، وامسوا تائبين .

وكان طلق لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شىء يتصدق به ، وإن لم يجد إلا بصلا ، ويقول : قال الله تعالى : (يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فقدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً)[٢] ، فتقديم الصدقة بين يدى مناجاة الله أعظم وأعظم .

قال مالك : قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير . وقد ذكر ابن جرير فيما سبق : أن خالد بن عبد الله القسرى بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج ، وهم : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، فمات طلق فى الطريق ، وحبس مجاهد ، وكان من أمر سعيد ما كان ، والله أعلم .

عروة بن الزبير بن العوام

القرشى ، الأسدى ، أبو عبد الله المدنى ، تابعى جليل ، روى عن أبيه ، وعن العبادلة ، ومعاوية ، والمغيرة ، وأبى هريرة . وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وأم سلمة . وعنه جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم .

قال محمد بن سعد : كان عروة ثقة كثير الحديث ، عالماً مأموناً ثبتاً . وقال العجلى : مدنى تابعى ، رجل صالح لم يدخل فى شىء من الفتن . وقال الواقدى : كان فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجّة عالماً بالسير . وهو أول من صنّف المغازى ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين . ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ، وكان أروى الناس للشعر . وقال ابنه هشام : العلم لواحد من ثلاثة : لذى حسب يزين به حسبه ، أو ذى دين يسوس به دينه ، أو مختلط بسلطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم ، فلا يقع فى هلكة ، وقال : ولا أعلم أحداً اشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز .

---

(١) الإرجاء : التأخير ، ومنه المرجئة ، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى ، وأن الإيمان قول بلا عمل .

(٢) من الآية : ١٢ من سورة المجادلة .

وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن ، ويقوم به فى الليل ، وكان أيام الرُّطب يثلم حائطه للناس ، فيدخلون ويأكلون ، فإذا ذهب الرُّطب أعاده .

وقال الزهرى : كان عروة بحراً لا ينزف ، ولا تكدره الدلاء . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أحد أعلم من عروة ، وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله .

وقد ذكره غير واحد فى فقهاء المدينة السبعة الذين ينتهى إلى قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم فى زمن ولايته على المدينة .

وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق ، فلما رجع أصابته فى رجله الأكلة[1] ، فأرادوا قطعها ، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ، ويتمكنوا من قطعها ، فقال : ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلمّوا فاقطعوها ، فقطعوها من ركبته ، وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أنّ .

وروى أنهم قطعوها وهو فى الصلاة ، فلم يشعر لشغله بالصلاة ، فالله أعلم .

ووقع فى هذه الليلة التى قطعت فيها رجله وَلَد له يسمى محمداً — كان أحب أولاده — من سطح فمات ، فدخلوا عليه ، فعزوه فيه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذتَ واحداً وأبقيت ستة ، وكان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت][2] .

قلت : قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ، ليجتمع بالوليد ، وقعت الأكلة فى رجله فى واد قرب المدينة ، وكان مبدؤها هناك ، فظن أنها لا يكون منها ما كان ، فذهب فى وجهه ذلك ، فما وصل إلى دمشق إلا وهى قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد ، فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه ، وربما ترقّت إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها ، وقالوا له : ألا نسقيك مرقداً حتى يذهب عقلك منه ، فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا ! والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شراباً ، أو يأكل شيئاً يذهب عقله ، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين ، فافعلوا ذلك ، وأنا فى الصلاة ، فإنى لا أحس بذلك ، ولا أشعر به .

قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المكان الحى ، احتياطاً أنه لا يبقى منها شىء ، وهو قائم يصلى ، فما تصوّر ولا اختلج . فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد فى رجله ، فقال :

(١) الأكلة — كفرحة — داء فى العضو يأتكل منه . (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

اللهم لك الحمد ، كان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً ، فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت ، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت .

قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد ـ وكان أحبهم إليه ـ فدخل دار الدواب فرفسته فرس فمات ، فأتوه ، فعزوه فيه ، فقال : الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت ، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت . فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة .

قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكا ذلك إلى أحد حتى دخل وادى القرى ، فلما كان فى المكان الذى أصابته الأكلة فيه قال : (لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا)[1] ، فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه ، ويعزونه فى رجله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه . فأنشد عروة فى ذلك ، والأبيات لمعن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة ... وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

وفى رواية : اللهم إنه كان لى بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة . كذا ذكر هذا الحديث فيه هشام .

وقال مسلمة بن محارب : وقعت فى رجل عروة الأكلة ، فقطعت ولم يمسكه أحد ، ولم يدع فى تلك الليلة وِرْدَهُ . وقال الأوزاعى : لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أنى لم أمش بها إلى سوء قط ، وأنشد البيتين المتقدمين .

رأى عروة رجلا يصلى صلاة خفيفة فدعاه ، فقال : يا أخى ! أما كانت لك إلى ربك حاجة فى صلاتك ؟ إنى لأسأل الله فى صلاتى حتى أسأله الملح .

قال عروة : رب كلمة ذل احتملتها أورثتنى عزاً طويلا . وقال لبنيه : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة ، فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة ، فاعلموا أن لها عنده أخوات ، فإن الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها .

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الكهف .

وكان عروة إذا دخل حائطه ردد هذه الآية (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)[1] حتى يخرج منه ، والله سبحانه وتعالى أعلم][2] .

قيل : إنه ولد فى حياة عمر ، والصحيح أنه ولد بعد عمر فى سنة ثلاث وعشرين ، وكانت وفاته فى سنة أربع وتسعين على المشهور ، وقيل : سنة تسعين ، وقيل : سنة مائة ، وقيل : إحدى وتسعين ، وقيل : إحدى ومائة ، وقيل : سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين ، وقيل: تسع وتسعين ، فالله أعلم .

على بن الحسين

ابن على بن أبى طالب القرشى الهاشمى ، المشهور بزين العابدين ، وأمه أم ولد اسمها : سَلَّامة ، وكان له أخ أكبر منه يقال له : على أيضًا ، قتل مع أبيه . روى على هذا الحديث عن أبيه ، وعمه الحسن بن على ، وجابر ، وابن عباس ، والمسور بن مخرمة ، وأبى هريرة ، وصفية ، وعائشة ، وأم سلمة ـ أمهات المؤمنين . وعنه جماعة منهم بنوه : زيد ، وعبد الله ، وعمر ، وأبو جعفر محمد ابن على بن قر ، وزيد بن أسلم ، وطاوس ـ وهو من أقرانه ـ والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأبو سلمة ـ وهو من أقرانه ـ وخلق .

قال ابن خلكان : كانت أم سلمة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وذكر الزمخشرى فى ربيع الأبرار، أن يَزْدَجِرد كان له ثلاث بنات سُبين فى زمن عمر بن الخطاب ، فحصلت واحدة لعبد الله بن عمر ، فأولدها سالما . والأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولدها القاسم . والأخرى للحسين بن على ، فأولدها عليا زين العابدين هذا ، فكلهم بنو خالة قال ابن خلكان : ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز بن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج ، فأخذ إحداهما ، وبعث بالأخرى إلى الوليد ، فأولدها الوليدُ يَزيد الناقص . وذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف : أن زين العابدين هذا كانت أمه سِندية ، يقال لها : سلّامة ، ويقال : غزالة ، وكان مع أبيه بكربلاء ، فاستبقى لصغره ، وقيل : لمرضه ؛ فإنه كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك وقد هَمَّ بقتله عبيد الله بْن زياد ، ثم صرفه الله عنه ، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضًا فمنعه الله منه ، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه ويعظمه ويجلسه معه ، ولا يأكل إلا وهو عنده ، ثم بعثهم إلى المدينة ، وكان على بالمدينة محترمًا معظمًا .

قال ابن عساكر : ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف . قلت : وهو مشهد على بالناحية الشرقية من جامع دمشق .

(١) من الآية : ٣٩ من سورة الكهف . (٢) ما بين القوسين ساقط من المصرية .

وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق ، فاستشاره فى جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه ، من أمر السكة وطراز القراطيس ، قال الزهرى : ما رأيت قرشيا أورع منه ، ولا أفضل . وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض ، فقال عمر ابن سعد : لا تعرضوا لهذا المريض . وقال الواقدى : كان من أروع الناس ، وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل ، وكان إذا مشى لا يخطر بيده ، وكان يعتم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه ، وكان كنيته : أبا الحسن ، وقيل أبا محمد ، وقيل أبا عبد الله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا ، وأمه غزالة ـ خلف عليها بعد الحسين مولاه زبيد ، فولدت له عبد الله ابن زبيد ، وهو على الأصغر ، فأما الأكبر فقتل مع أبيه . وكذا قال غير واحد ، وقال سعيد ابن المسيب ، وزيد بن أسلم ، ومالك ، وأبو حازم : لم يكن فى أهل البيت مثله وقال يحيى بن سعيد الأنصارى : سمعت على ابن الحسين ـ وهو أفضل هاشمى أدركته ـ يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً . وفى رواية : حتى بغضتمونا إلى الناس. وقال الأصمعى : لم يكن للحسين عقب إلا من على بن الحسين ، ولم يكن لعلى بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن ، فقال له مروان بن الحكم : لو اتخذت السرارى يكثر أولادك ، فقال : ليس لى ما أتسرى به ، فأقرضه مائة ألف ، فاشترى له السرارى ، فولدت له وكثر نسله ، ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من على بن الحسين شىء مما كان أقرضه ، فجميع الحسينيين من نسله ـ رحمه الله .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : أصح الأسانيد كلها الزهرى ، عن على بن الحسين عن أبيه عن جده . وذكروا أنه احترق البيت الذى هو فيه وهو قائم يصلى ؛ فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟ فقال : إنى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى ، وكان إذا توضأ يصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفَرَق ، فقيل له فى ذلك فقال : ألا تدرون بين يدى من أقوم؟ ولمن أناجى ؟ ولما حج أراد أن يلبى فارتعد وقال : أخشى لن أقول لبيك اللهم لبيك ، فيقال لى : لا لبيك ، فشجعوه على التلبية ، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة وقال طاوس : سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول: عبدك بفنائك ـ سائلك بفنائك ـ فقيرك بفنائك . قال طاوس : فوالله ما دعوت بها فى كرب قط إلا كشف عنى . وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل ، وكان يقول : صدقة الليل تطفىء غضب الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ، وقاسم الله تعالى ماله مرتين .

وقال محمد بن إسحاق : كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ، فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك ، فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم فى الليل بما يأتيهم به .

ولما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين فى الليل . وقيل : إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ، ولا يدرون بذلك حتى مات . ودخل على بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده فبكى ابن أسامة ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : علىّ دين ، قال : وكم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار ـ وفى رواية سبعة عشر ألف دينار ـ فقال : هى علىّ . وقال على بن الحسين : كان أبو بكر وعمر من رسول الله ﷺ فى حياته بمنزلتهما منه بعد وفاته . ونال منه رجل يوماً ، فجعل يتغافل عنه ـ يريه أنه لم يسمعه ـ فقال له الرجل : إياك أعنى ، فقال له على : ومنك أغضى . وخرج يوماً من المسجد فسبّه رجل ، فانتدب الناس إليه ، فقال : دعوه ، ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خميصة[١] كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجلُ بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

قالوا واختصم على بن الحسين وحسن بن حسن ـ وكان بينهما منافسة ـ فنال منه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب على بن الحسين إلى منزله فقال : يا ابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك والسلام عليك ، ثم رجع فلحقه فصالحه . وقيل له: من أعظم الناس خطراً ؟ فقال: من لم ير الدنيا لنفسه قدراً . وقال أيضاً: الفكرة مرآة ترى المؤمن حسناته وسيئاته . وقال : فقد الأحبة غربة ، وكان يقول : إن قوماً عبدوا الله رَهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكراً ، فتلك عبادة الأحرار الأخيار . وقال لابنه: يابنى لاتصحب فاسقاً؛ فإنه يبيعك بأكلة وأقل منها ، يطمع فيها ثم لا ينالها ولا بخيلا ؛ فإنه يخذلك فى ماله أحوج ما تكون إليه . ولا كذابا ؛ فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ، ويباعد عنك القريب . ولا أحمق ؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . ولا قاطع رحم ؛ فإنه ملعون فى كتاب الله . قال تعالى . (فَهَلْ عَسَيْتُم إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)[٢] .

وكان على بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس فى حلقة زيد بن أسلم ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتى تخطى حلق أهل العلم وقريش ، حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فقال له على بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم يطلب حيث كان وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال : قال لى على بن الحسين : أتستطيع أن

(١) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان . (٢) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد .

تجمع بيني وبين سعيد بن جبير ؟ فقلت : ما تصنع به ؟ قال : أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة ، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء - وأشار بيده إلى العراق .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن زر بن عبيد[١] قال: كنت عند ابن عباس ، فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس : مرحباً بالحبيب ابن الحبيب . وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي: ثنا العلاء ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير قال : كنا عند جابر بن عبد الله ، فدخل عليه علي بن الحسين فقال : كنت عند رسول الله ﷺ فدخل عليه الحسين بن علي ، فضمه إليه وقبله وأقعده إلى جنبه ، ثم قال : « يولد لابني هذا ابن يقال له: علي ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقم سيد العابدين ، فيقوم هو » هذا حديث غريب جداً أورده ابن عساكر . وقال الزهري : كان أكثر مجالستي مع علي ابن الحسين ، وما رأيت أفقه منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك ، وكان يسمى زين العابدين . وقال جويرية بن أسماء : ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهما قط - رحمه الله ورضي عنه . وقال محمد ابن سعد : أنبأ علي بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبري قال : بعث المختار إلى علي بن الحسين بمائة ألف ، فكره أن يقبلها وخاف أن يردها ، فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان : إن المختار بعث إلي بمائة ألف فكرهت أن أقبلها ، وكرهت أن أردها ، فابعث من يقبضها . فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم ! خذها فقد طيبتها لك ، فقبلها .

وقال علي بن الحسين: سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الأتقياء ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء . وقال أيضاً : إني لأستحي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني ، فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي : فإذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل ، وأبخل ، وأبخل . وذكروا أنه كان كثير البكاء ، فقيل له في ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات ، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة ، أفترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً ؟ وقال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ ، فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشجه ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) ، فقال : قد كظمت غيظي ، قالت (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) فقال : عفا الله عنك . قالت : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[٢] قال : أنت حرة لوجه الله تعالى :

(١) لعله : زر بن حبيش التابعي . (٢) من الآية : ١٣٤ من سورة آل عمران

وقال الزبير بن بكار : ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمى ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن على ، عن أبيه قال : جلس قوم من أهل العراق ، فذكروا أبا بكر وعمر ، فنالوا منهما ، ثم ابتدءوا فى عثمان ، فقال لهم : أخبرونى أأنتم من المهاجرين الأولين الذين (أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَه)[١] ؟ قالوا : لا ، قال : فأنتم من الذين (تَبَوَّءوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)[٢] ؟ قالوا : لا ! فقالوا لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم (وَالَّذِينَ جَاءوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا)[٣] الآية ، فقوموا عنّى لا بارك الله فيكم ، ولا قرّب دوركم ، أنتم مستهزئون بالإسلام ، ولستم من أهله . وجاء رجل فسأله متى يبعث علىّ ؟ فقال : يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه . وقال ابن أبى الدنيا : حدثت عن سعيد بن سليمان ، عن على بن هاشم ، عن أبى حمزة الثمالى ، أن علىّ بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إنى أتصدق اليوم ـ أو أهب عِرضى اليوم ـ من استحله .

وروى ابن أبى الدنيا أن غلامًا سقط من يده سفود[٤] ، وهو يشوى شيئًا فى التنور على رأس صبى لعلى بن الحسين فقتله ، فنهض على بن الحسين مسرعًا ، فلما نظر إليه قال الغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حرّ ، ثم شرع فى جهاز ابنه . وقال المدائنى : سمعت سفيان يقول : كان على ابن الحسين يقول : ما يسرنى أن لى بنصيبى من الذل حُمْرَ النعم . ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه . ومات لرجل ولد مسرف على نفسه ، فجزع عليه من أجل إسرافه ، فقال له على بن الحسين : إن من وراء ابنك خلالا ثلاثا : شهادة أن لا إلَهَ إلا الله ، وشفاعة رسول الله ﷺ ، ورحمة الله عز وجل . وقال المدائنى : قارف الزهرى ذنبًا فاستوحش منه ، وهام على وجهه ، وترك أهله وماله . فلما اجتمع بعلى بن الحسين قال له : يا زهرى ، قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء ـ أعظم من ذنبك ، فقال الزهرى : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه)[٥] . وفى رواية : أنه كان أصاب دما حرامًا خطأ ، فأمره علىّ بالتوبة والاستغفار ، وأن يبعث الدية إلى أهله ، ففعل ذلك . وكان الزهرى يقول : علىّ بن الحسين أعظم الناس علىّ مِنّة .

---

(١) من الآية : ٨ من سورة الحشر . (٢) من الآية : ١٩ من سورة الحشر .
(٣) من الآية : ١٠ من سورة الحشر . (٤) السفود : حديدة يشوى بها . وتسفيد اللحم نظمه فيها للاشتواء
(٥) من الآية : ١٢٤ من سورة الانعام

وقال سفيان بن عيينة : كان على بن الحسين يقول : لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم - إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية - إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة . وذكروا أنه زوج أمه من مولى له ، وأعتق أمه . فتزوجها ، فأرسل إليه عبد الملك يلومه فى ذلك ، فكتب إليه (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً)(١) ، وقد أعتق صفية فتزوجها ، وزوج مولاه زيد بن حارثة من بنت عمته زينب بنت جحش . قالوا : وكان يلبس فى الشتاء خميصه من خز بخمسين ديناراً ، فإذا جاء الصيف تصدق بها ، ويلبس فى الصيف الثياب المرقعة ودونها ، ويتلو قوله تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)(٢) .

[وقد روى من طرق ذكرها الصولى والجريرى وغير واحد : أن هشام بن عبد الملك حج فى خلافة أبيه ، وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر ، فاستلم وجلس عليه ، وقام أهل الشام حوله ، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحَّى عنه الناس إجلالاً له ، وهيبة واحتراماً ، وهو فى بزة حسنة ، وشكل مليح . فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ فقال : لا أعرفه - استنقاصاً به واحتقاراً لئلا يرغب فيه أهل الشام ، فقال الفرزدق - وكان حاضراً - : أنا أعرفه ، فقالوا : ومن هو ؟ فأشار الفرزدق يقول :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفه والحِلّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خير عباد الله كلهم ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العلمُ
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكَرَمُ
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عربُ الإسلام والعجمُ
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
يُغضى حياء ويُغضَى من مهابته ... فما يُكلّم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحها عَبِق ... من كفِّ أروع فى عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصرها والخيم والشيم
ينجاب نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها الغيم
حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

(١) من الآية : ٢١ من سورة الأحزاب . (٢) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف .

من جدّه دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت لها الأمم
عمّ البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغواية والإملاق والظلم
كلتا يديه غياثٌ عمّ نفعهما ... يستوكفان ولا يعروهما العدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنتان الحلم والكرم
لا يخلف الوعد ميمون بغيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم
من معشر حبهم دين، وبغضهم ... كفر، وقربهم منجى ومعتصم
يُستدفع السوء والبلوى بحبهم ... ويستزاد به الإحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل حكم ومختوم به الكلم
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم ... خيم كرام وأيد بالندى هضم
لا ينقص العدم بسطا من أكفهم ... سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
أي الخلائق ليست في رقابهم ... لأولية هذا أوله نعم
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

قال: فغضب هشام من ذلك، وأمر بحبس الفرزدق بعسفان، بين مكة والمدينة. فلما بلغ ذلك علىّ بن الحسين بعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم، فلم يقبلها وقال: إنما قلتُ ما قلت لله عزّ وجل، ونُصرة للحق، وقياماً بحق رسول الله ﷺ في ذريته، ولست أعتاض عن ذلك بشيء. فأرسل إليه علىّ بن الحسين يقول: قد علم الله صِدْق نيتك في ذلك، وأقسمت عليك بالله لتقبلنها، فتقبلها منه، ثم جعل يهجو هشاماً، وكان مما قال فيه:

تحبسني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس تهوى منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيد ... وعينين حولاوين باد عيوبها

وقد روينا عن علىّ بن الحسين أنه كان إذا مرت به الجنازة يقول هذين البيتين:

نراعُ إذا الجنائز قابلتنا ... ونَلْهُو حين تمضي ذاهبات
كرَوْعَةِ ثلة لمغار سبع ... فلما غاب عادت راتعات

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقرى : حدثنى سفيان بن عيينة ، عن الزهرى قال : سمعت علىّ بن الحسين، سيد العابدين يحاسب نفسه ، ويناجى ربه :

يا نفس حتام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها رُكونك ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ؟ ومَنْ وارته الأرض من ألافك ؟ ومن فجعت به من إخوانك ؟ ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟ فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها ، محاسنهم فيها بوالٍ دوائر

خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم   وساقتهم نحو المنايا المقادر

وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها   وضمتهم تحت التراب الحفائر

كم خرمت أيدى المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيّرت الأرض ببلائها ، وغيبت فى ترابها ، ممن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس[1] ، ثم رجعت إ عنهم إلى عمل أهل الأفلاس .

وأنت على الدنيا مُكب منافس   لخطّابها فيها حريص مكاثر

على خطر تمشى وتصبح لاهياً   أتدرى بماذا لو عقلت تخاطر ؟

وإن امرأ يسعى لدنياه دائباً   ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

فحتام على الدنيا إقبالك ؟ وبشهواتها اشتغالك ؟ وقد وخطك القتير[2]، وأتاك النذير ، وأنت عما يراد بك ساه ، وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ما حل بهم من المصيبات .

أبعد اقتراب الأربعين تربّص   وشيب قذال منذر للكابر

كأنك معنىّ بما هو ضائر   لنفسك عمداً وعن الرشد حائر

انظر إلى الأمم الماضية ، والملوك الفانية كيف اختطفتهم عقبان الأيام ووافاهم الحمام ، فانمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمماً فى التراب ، إلى يوم الحشر والمآب .

امسحوا رمما فى التراب وعطلت   مجالسهم منهم وأخلى مقاصر

وحلوا بدار لا تزاور بينهم   وأنّى لسكان القبور التزاور

فما أن ترى إلا قبوراً قد ثووا بها   مسطحة تسفى عليها الأعاصر

كم من ذى منعة وسلطان ، وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، ونال فيها ما تمناه ، وبنى فيها القصور والدساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السرارى والحرائر .

---

(١) أى المهالك .   (٢) القتير : الشيب أو أوله .

فما صرفت كف المنية إذ أتت مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التى بنى وحف بها أنهاره والدساكر
ولا قارعت عنه المنيـــة جيلة ولا طمعت فى الذب عنه العساكر

أتاه من الله مالا يرد، ونزل به من قضائه مالا يصد، فتعالى الله الملك الجبار، المتكبر العزيز القهار، قاصم الجبارين، ومبيد المتكبرين، الذى ذل لعزه كل سلطان، وأباد بقوته كل ديان.

مليك عزيز لا يرد قضاؤه حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
عنى كل ذى عز لعزة وجهه فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت لعزة ذى العرش الملوك الجبابر

فالبدار البدار، والحذار الحذار، من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لك من مصايدها، وتحلت لك من زينتها، وأظهرت لك من بهجتها، وأبرزت لك من شهواتها، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها.

وفى دون ما عاينت من فجعاتها إلى دفعها داع وبالزهد آمر
فجد ولا تغفل وكن متيقظا فعما قليل يترك الدار عامر
فشمر ولا تفتر فعمرك زائل وأنت إلى دار الإقامة صائر
ولا تطلب الدنيا فإن نعيمها وإن نلت منها غبه لك ضائر

فهل يحرص عليها لبيب، أو يسر بها أريب؟ وهو على ثقة من فنائها، وغير طامع فى بقائها، أم كيف تنام عينا من يخشى البيات [1]، وتسكن نفس من توقع فى جميع أموره الممات.

ألا لا ولكنا نغر نفوسنا وتشغلنا اللذات عما نحاذر
وكيف يلذ العيش من هو موقف بموقف عدل يوم تبلى السرائر
كأنا نرى أن لا نشور وأننا سدى ما لنا بعد الممات مصادر

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها، ويتمتع به من بهجتها، مع صنوف عجائبها، وقوارع فجائعها، وكثرة عذابه فى مصابها وفى طلبها، وما يكابد من أسقامها وأوصابها [2] وآلامها.

أما قد نرى فى كل يوم وليلة يروح علينا صرفها ويباكر
تعاورنا آفاتها وهمومها وكم قد نرى يبقى لها المتعاور
فلا هو مغبوط بدنياه آمن ولا هو عن تطلابها النفس قاصر

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها، وصرعت من مكب عليها، فلم تنعشه من عثرته، ولم تنقذه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبرئه من سقمه، ولم تخلصه من وصمه.

(١) أى القبر. (٢) أى أمراضها. والوصب: المرض.

بل أوردته بعد عـــز ومنعة ... موارد سوء ما لهن مصادر][(١)]

فلما رأى أن لا نجـاة وأنه ... هو الموت لا ينجيه منه التحاذر

تندم إذ لم تغن عنه ندامة ... عليه وأبكته الذنوب الكبائر

إذا بكى على ما سلف من خطاياه ، وتحسر على ما خلف من دنياه ، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحاطت به أحزانه وهمومه ... وأبلس لما أعجزته المقادر

فليس له من كربة الموت فارج ... وليس له مما يحاذر ناصر

وقد جشأت خوفَ المنية نفسه ... ترددها منه اللها والحناجر

هنالك خف عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، وارتفعت البرية بالعويل ، وقد أيسوا من العليل فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجليه ، وتخلى عنه الصديق ، والصاحب الشفيق .

فكم موجع يبكي عليه مفجع ... ومستنجد صبراً وما هو صابر

ومسترجع داع له الله مخلصا ... يعدد منه كل ما هو ذاكر

وكم شامت مستبشر بوفاته ... وعما قليل للذي صار صائر

فشقت جيوبها نساؤه ، ولطمت خدودها إماؤه ، وأعول لفقده جيرانه ، وتوجع لرزيته إخوانه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه ، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى ، ولا الحبيب المبدى

وحل أحب القوم كان بقربه ... يحث على تجهيزه ويبادر

وشمر من قد أحضروه لغسله ... ووجه لما فاض للقبر حافر

وكفن في ثوبين واجتمعت له ... مشيعة إخـــوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويخشى من الجزع عليه ، وخضبت الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه ، واحرباه !

لعاينت من قبح المنية منظرا ... يهال لمـــرآه ويرتاع ناظر

أكابر أولاد يهيج اكتئابهم ... إذا ما تناساه البنون الأصاغر

ورنة نسوان عليه جوازع ... مدامعهم فوق الخدود غوازر

ثم أخرج من سعة قصره ، إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهيء عليه اللبن ، احتوشته[(٢)] أعماله وأحاطت به خطاياه ، وضاق ذرعا بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهنا بما كسب وطلب .

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ (٢) تجمعت عنده . واحتوش القوم على فلان : جعلوه وسطهم .

فولّوا عليه مُعْولين وكلهم　　لمثل الذى لاقى أخوه محاذر
كشاء رِتاع آمنين بدا لهـا　　بمديته بادى الذراعين حاسر
فريعت ولم ترتع قليلا وأجفلت　　فلما نأى عنها الذى هو جازر

عادت إلى مرعاها ، ونسيت مافى أختها دهاها ، أفبأفعال الأنعام اقتدينا ؟ أم على عادتها جرينا ؟ عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى .

ثوى مفرداً فى لحده وتوزعت　　مواريثـه أولاده والأصـاهر
وأحنو على أمواله يقسمونها　　فلا حامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدنيا ويا ساعياً لهـا　　ويا آمنا من أن تدور الدوائر

كيف أمنت هذه الحالة ؟ وأنت صائر إليها لا محالة ؟ أم كيف ضيعت حياتك ؟ وهى مطيتك إلى مماتك ؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك ؟ أم كيف تهنأ بالشهوات ، وهى مطية الآفات ؟

ولم تتزود للرحيـل وقـد دنا　　وأنت على حال وشيك مسافر
فيـالهف نفسى كم أسوف توبتى　　وعمرىَ فان والردى لىَ ناظر
وكل الذى أسلفت فى الصحف مثبت　　يجازى عليه عادل الحكم قادر

فـكم ترقع بآخرتك دنياك ، وتركب غيك وهواك ، أراك ضعيف اليقين ، يا مؤثر الدنيا على الدين . أبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا نزل القرآن ؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب ، وشر المـآب ؟ أما تذكر حال من جمع وثمر ؟ ورفع البنـاء وزخرف وعمر ؟ أما صار جمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا !

تخرب ما يبقى وتعمـر فانيا　　فلا ذاك موفور ولا ذاك عامر
وهل لك ـ إن وافاك حتفك بغتة　　ولم تـكتسب خيراً ـ لدى الله عاذر
أترضى بأن تفنى الحياة وتنقضى　　ودينك منقوص ومالك وافر

وقد اختلف أهل التاريخ فى السنة التى توفى فيها على بن الحسين ، زين العابدين ؛ فالمشهور عن الجمهور ، أنه توفى فى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وتسعين ـ فى أولها ـ عن ثمان وخمسين سنة ، وصلّى عليه بالبقيع ، ودفن به ، قال الفلاس : مات على بن الحسين ، وسعيد بن المسيب ، وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن ـ سنة أربع وتسعين ، وقال بعضهم : توفى سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين ، وأغرب المدائنى فى قوله : إنه توفى سنة تسع وتسعين ، والله أعلم . انتهى ما ذكره المؤلف [من ترجمة على

(١) الرتاع بالكسر : التى تأكل وتشرب ما تشاء فى خصب وسعة وبشره .

ابن الحسين ، وقد رأيت له كلاما متفرقا ، وهو من جيد الحكمة ؛ فأحببت أن أذكره لعل الله أن ينفع به من وقف عليه .

قال حفص بن غياث ، عن حجاج عن أبى جعفر عن على بن الحسين قال : إن الجسد إذا لم يمرض أشِر وبَطِر ، ولا خير فى جسد يأشر ويبطر وقال أبو بكر بن الأنبارى : حدثنا أحمد ابن الصلت ، حدثنا قاسم بن إبراهيم العلوى ، حدثنا أبى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال على بن الحسين : فقد الأحبة غربة . وكان يقول : اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لوامع العيون علانيتى ، وتقبح فى خفيات الغيوب سريرتى ، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلىّ ، فإذا عُدتُ فعد إلى اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت علىّ من فضلك . وقال لابنه : يا بُنىّ اتخذ ثوبا للغائط ، فإنى رأيت الذباب يقع على الشىء ، ثم يقع على الثوب . ثم انتبه فقال : وما كان لرسول الله ﷺ وأصحابه إلا ثوب واحد ، فرفضه وعن أبى حمزة الثمالى قال : أتيت باب علىّ ابن الحسين فكرهت أن أصوت ، فقعدت على الباب حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له ، فرد علىّ السلام ودعا لى ، ثم انتهى إلى حائط فقال : يا حمزة ! ترى هذا الحائط ؟ قلت : نعم ! قال : فإنى اتكأت عليه يوماً وأنا حزين ، فإذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى ، ثم قال : يا على بن الحسين ! مالى أراك كئيباً حزيناً على الدنيا ! فهى رزق حاضر يأخذ منها البر والفاجر فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول : فقال على الآخرة ؟ فهى وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر ؛ فقلت : ما على هذا أحزن لأنه كما تقول . فقال : فعلام حزنك ؟ فقلت : ما أتخوف من الفتنة ـ يعنى فتنة ابن الزبير ـ فقال لى : يا على ! هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا قال : ويخاف الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! ثم غاب عنى فقيل لى : يا على ! إن هذا الخضر الذى جاءك « لفظ الخضر مزاد فيه من بعض الرواة » .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عمر بن حارث قال : لما مات على بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد فى ظهره . فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جُرُب الدقيق ليلا على ظهره يعطيه فقراء المدينة وقال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات على بن الحسين .

وروى عبد الله بن حنبل عن ابن إشكاب عن محمد بن بشر عن أبى المنهال الطائى ، أن على ابن الحسين كان إذا ناول المسكين الصدقة قبّله ثم ناوله . وقال الطبرى : حدثنا يحيى بن زكريا الغلابى ، حدثنا العتبى حدثنى أبى قال : قال على بن الحسين ـ وكان من أفضل بنى هاشم الأربعة ـ يا بنى اصبر على النوائب ، ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيب أخاك إلا فى الأمر الذى مضرته

عليك أكثر من منفعته لك. وروى الطبرانى بإسناده عنه ، أنه كان جالساً فى جماعة، فسمع داعية فى بيته ، فنهض فدخل منزله ، ثم رجع إلى مجلسه ، فقيل له : أمِنْ حدث كانت الداعية ؟ قال : نعم ! فعزوه وتعجبوا من صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحبه ، ونحمده على ما نكره . وروى الطبرانى عنه قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ليقم أهل الفضل ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم! قالوا ومن أنتم؟ قالوا: نحن أهل الفضل، قالوا : وما كان فضلكم؟ قالوا: كنا إذا جهل علينا حلمنا ، وإذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسىء إلينا غفرنا ، قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : نحنُ أهل الصبر ، قالوا : فما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى المنادى : ليقم جيران الله فى داره ! فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : بم استحققتم مجاورة الله عز وجل فى داره ؟ فيقولون : كنا نتزاور فى الله ، ونتجالس فى الله ، ونتباذل فى الله عز وجل . فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقال على بن الحسين : إن الله يحب المؤمن المذنب التواب . وقال : التارك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلا أن يتقى منهم تقاة . قالوا : وما تقاه ؟ قال: يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى . وقال رجل لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحداً أورع من فلان فقال له سعيد : هل رأيت على بن الحسين ؟ قال : لا ! قال : ما رأيت أورع منه.

وروى سفيان بن عيينة عن الزهرى قال : دخلت على علىّ بن الحسين فقال : يا زهرى فيم كنتم ؟ قلت : كنا نتذاكر الصوم ، فأجمع رأيي ورأى أصحابى على أنه ليس من الصوم شىء واجب ، إلا شهر رمضان ، فقال : يا زهرى ليس كما قلتم . الصوم على أربعين وجها ؛ عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة منها صاحبها بالخيار ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب قال الزهرى : قلت : فسِّرهن يا ابن رسول الله ﷺ ، قال :

أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين فى قتل الخطأ لمن لم يجد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجد الإطعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى ، وصوم جزاء الصيد ، يقوّم الصيد قيمته ثم يقسم ذلك الثمن على الحنطة .

وأما الذي صاحبه بالخيار ؛ فصوم الاثنين والخميس ، وستة أيام من شوال بعد رمضان ، وصوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار .

فأما صوم الإذن ، فالمرأة لا تصوم تطوعاً إلا بإذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة .

وأما صوم الحرام فصوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك ، نهينا أن نصومه لرمضان ، وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر ، وصوم الضيف لا يصوم تطوعاً إلا بإذن صاحبه ، قال رسول الله ﷺ: « من نزل على قوم فلا يصومن تطوعاً إلا بإذنهم » :

وأما صوم الإباحة فمن أكل أو شرب ناسياً أجزأه صومه ، وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم : إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وأما نحن فنقول : يفطر في الحالين ، فإن صام في السفر والمرض فعليه القضاء][1] .

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المدني ، أحد الفقهاء السبعة ، قيل : اسمه محمد ، وقيل : اسمه أبو بكر ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، والصحيح أن اسمه وكنيته واحد ، وله من الأولاد والإخوة كثير ، وهو تابعي جليل . روى عن عمار وأبي هريرة وأسماء بنت أبي بكر ، وعائشة وأم سلمة وغيرهم ، وعنه جماعة منهم : بنوه ـ سلمة ، وعبدالله ، وعبدالملك ، وعمر ، ومولاه سمي ، وعامر الشعبي ، وعمر بن عبد العزيز ، وعمرو بن دينار ، ومجاهد ، والزهري . ولد في خلافة عمر ، وكان يقال له : راهب قريش ؛ لكثرة صلاته ، وكان مكفوفاً ، وكان يصوم الدهر ، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم . قال أبو داود : وكان قد كف ، وكان إذا سجد يضع يده في طست الملة كان يجدها . والصحيح أنه مات في هذه السنة ، وقيل : في التي قبلها ، وقيل: في التي بعدها ، والله أعلم .

[قلت : ونظم بعض الشعراء بيتين ذكر فيهما الفقهاء السبعة فقال :

ألا كل من لا يقتدي بأئمة ... فقسمته جبراً عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجه

وفيها : توفي الفضل بن زياد الرقاشي ـ أحد زهاد أهل البصرة ، وله مناقب وفضائل كثيرة

(١) ما بين القوسين مثبت في بعض النسخ .

جداً ؛ قال : لا يلهينك الناس عن ذات نفسك ؛ فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقطع نهارك بكيت وكيت ، فإنه محفوظ عليك ما قلت وقال : لم أر شيئاً أحسن طلبا ، ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

أبو سلمة أبو عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، كان أحد فقهاء المدينة ، وكان إماماً عالماً ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان واسع العلم - توفى بالمدينة .

عبد الرحمن بن عائذ الأزدى ، له روايات كثيرة ، وكان عالماً ، وخلف كتباً كثيرة من علمه ، روى عن جماعة من الصحابة ، وأسر يوم وقعة ابن الأشعث فأطلقه الحجاج .

عبد الرحمن بن معاوية بن خزيمة ، قاضى مصر لعمر بن عبد العزيز بن مروان وصاحب شرطته ، كان عالماً فاضلا روى الحديث وعنه جماعة][1] .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها: غزا العباس بن الوليد بلاد الروم ، وافتتح حصونا كثيرة . وفيها: فتح مسلمة بن عبدالملك مدينة فى بلاد الروم ، ثم حرقها ثم بناها بعد ذلك بعشر سنين . وفيها : افتتح محمد بن القاسم مدينة المولينا[2] من بلاد الهند ، وأخذ منها أموالا جزيلة . وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل تحمل من كثرتها ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى ، وفيها: غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش ، ففتح مدناً وأقاليم كثيرة ، فلما كان هناك جاءه الخبر بموت الحجاج بن يوسف فقمعه ذلك ، ورجع بالناس إلى مدينة مَرْو ، وتمثل بقول بعض الشعراء[3] :

لَعَمْرِى لنعم المرء من آل جعفر ... بحَوْران أمسى أَعلقَتْه الحبائل
فإن تَحْىَ لا أمَل حياتى وإن تَمُتْ ... فما فى حياةٍ بعد موتِكَ طائل

وفيها : كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء ، ويعده على ذلك ويجزيه خيراً ، ويثنى عليه بما صنع من الجهاد ، وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد وقد كان الحجاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله ، فولّى الوليد الصلاة والحرب بالمصرين - الكوفة والبصرة - يزيدَ بن أبى كبشة ، وولّى خراجهما يزيد بن أبى مسلم ، وقيل كان الحجاج يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد ، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه . وكانت وفاة الحجاج لخمس ، وقيل : لثلاث - بقين من رمضان ، وقيل مات فى شوال من هذه السنة .

(١) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ (٢) قيل : لعلها - اللتان .

(٣) الشعر للحطيئة ، من أبيات قالها حين خرج يريد علقمة بن علاثة بحوران ، فمات علقمة قبل أن يصل إليه الحطيئة

وحج بالناس فيها ـ بشر بن الوليد بن عبد الملك ، قاله أبو معشر والواقدى . وفيها : قتل الوضّاحى بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه وفى هذه السنة كان مولد أبى جعفر المنصور ـ عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وذكر وفاته

هو الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو ابن سعد بن عوف بن ثقيف ، وهو قسىّ بن منبه بن بكر بن هوازن ـ أبو محمد الثقفى ، سمع ابن عباس ، وروى عن أنس وسمرة بن جندب ، وعبد الملك بن مروان وأبى بردة بن أبى موسى ، وروى عنه أنس بن مالك ، وثابت البنانى ، وحميد الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن مجالد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبى عروبة . قاله ابن عساكر ، قال : وكانت له بدمشق دور منها دار الراوية بقرب قصر ابن أبى الحديد وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير ، ثم عزله عنها وولاه العراق . وقدم دمشق وافداً على عبد الملك ، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم ، سمعت أبى يقول: خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله ، ثم قال : سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول : سمعت مروان يقول فى خطبته : خطبنا عثمان بن عفان فقال فى خطبته : « ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبر أو ذكره إلا بكى » وهذا الحديث له شاهد فى سنن أبى داود وغيره ، وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار : ثنا يسار عن جعفر عن مالك بن دينار قال : دخلت يوماً على الحجاج فقال لى : يا أبا يحيى ! ألا أحدثك بحديث حسن عن رسول الله ﷺ ؟ فقلت : بلى ! فقال : حدثنى أبو بردة عن أبى موسى . قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له إلى الله حاجة فليدعُ بها فى دُبر صلاة مفروضة » . وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره فى السنن والمسانيد ، والله أعلم .

قال الشافعى : سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبة دخل على امرأته وهى تتخلّل ـ أى تخلل أسنانها لتخرج ما بينها من أذى ـ وكان ذلك فى أول النهار ، فقال : والله لئن كنت باكرت الغذاء إنك لرعينة[1] دنية ، وإن كان الذى تخللين منه شىء بقى فى فيك من البارحة ، إنك لقذرة فطلقها فقالت : والله ما كان شىء مما ذكرت ، ولكننى باكرت ما تباكره الحرة من السواك ، فبقيت شظية فى فمى منه فحاولتها لأخرجها . فقال المغيرة ليوسف أبى الحجاج : تزوجها ، فإنها لخليقة بأن تأتى برجل يسود ، فتزوجها يوسف أبو الحجاج . قال الشافعى : فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له فى النوم : ما أسرع ما ألقحت بالمُبِير .

(١) الأرعن : الأهوج والأحمق .

قال ابن خلكان : واسم أمه : الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى ، وكان زوجها الحارث ابن كلدة الثقفى ـ طبيب العرب ، وذكر عنه هذه الحكاية فى السواك . وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ، ثم قدم دمشق ، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك ، فشكا عبد الملك إلى روح أن الجيش لاينزلون لنزوله ، ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح : عندى رجل توليه ذلك ، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش ، فكان لا يتأخر أحد فى النزول والرحيل ، حتى اجتاز إلى فسطاط رُوح بن زنباع ، وهم يأكلون فضربهم وطوّف بهم وأحرق الفسطاط ، فشكا رُوح ذلك إلى عبد الملك ، فقال للحجاج : لم صنعت هذا ؟ فقال : لم أفعله إنما فعله أنت ؛ فإن يدى يدك ، وسوطى سوطك ، وما ضرّك إذا أعطيت رُوحاً فسطاطين بدل فسطاطه ، وبدل الغلام غلامين ، ولا تكسرنى فى الذى وليتنى ؟ ففعل ذلك ، وتقدم الحجاج عنده .

قال : وبنى واسط فى سنة أربع وثمانين ، وفرغ منها فى سنة ست وثمانين(١) ، وقيل : قبل ذلك . قال : وفى أيامه نقطت المصاحف ، وذكر فى حكايته ما يدل أنه كان أولا يسمى كُلَيباً ، ثم سمى الحجاج . وذكر أنه ولد ولا مَخْرَج(٢) له حتى فتق له مخرج ، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جَدْى ، ثم دم سالخ(٣) ولطخ وجهه بدمه فارتضع . وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء ، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم لطخ به وجهه . ويقال : إن أمه هى المتمنِّية لنصْر بن حجاج بن علاط(٤) ، وقيل : إنها أم أبيه والله أعلم . وكانت فيه شهامة عظيمة ، وفى سيفه رهق ، وكان كثير قتل النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة ، وكان يغضب غضب الملوك ، وكان ـ فيما يزعم ـ يتشبه بزياد ابن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ، ولا سواء ولا قريب . وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة سليم بن عنز التجيبى قاضى مصر ، وكان من كبار التابعين ، وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن فى كل ليلة ثلاث ختمات فى الصلاة وغيرها .

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه فى جامعها ، فاجتاز بهما سليم بن عنز هذا ، فنهض إليه أبو الحجاج فسلم عليه ، وقال له : إنى ذاهب إلى أمير المؤمنين ، فهل من حاجة لك عنده ؟

---

(١) أسماها واسط ، لأنها بين البصرة والكوفة .   (٢) أى لا دبر له .
(٣) السالخ : الأسود من الحيات .
(٤) وقد سمعها سيدنا عمر وهى تنشد فى خدرها أثناء طوافه بالمدينة :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

قال : نعم ! تسأله أن يعزلنى عن القضاء . فقال : سبحان الله ! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك . ثم رجع إلى ابنه الحجاج ، فقال له ابنه : يا أبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى ؟ فقال له : يا بنى ، والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله . فقال : والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، فقال : ولم يا بنى ؟ قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر ، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ، ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلص لى من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله . فقال له أبوه : يا بنى ، والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً . وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عند الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، فإنه تفرس فى ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك .

قالوا : وكان مولد الحجاج فى سنة تسع وثلاثين ، وقيل : فى سنة أربعين ، وقيل : فى سنة إحدى وأربعين ، ثم نشأ شاباً لبيباً ، فصيحاً بليغاً ، حافظاً للقرآن . قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ، ومن الحسن البصرى . وكان الحسن أفصح منه .

وقال الدارقطنى : ذكر سليمان بن أبى منيح ، عن صالح بن سليمان قال : قال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا الحجاج ، وإياس بن معاوية ؛ فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس .

وتقدم أن عبد الملك — لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين — بعث الحجاج إلى أخيه عبد الله بمكة ، فحاصره بها ، وأقام للناس الحج عامئذ ، ولم يتمكن ومن معه من الطواف بالبيت ، ولا تمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف ، ولم يزل محاصره ؛ حتى ظفر به فى جمادى سنة ثلاث وسبعين ، ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن ، ثم نقله إلى العراق بعد موت أخيه بشر ، فدخل الكوفة كما ذكرنا ، وقال لهم ، وفعل بهم ما تقدم إيراده مفصلا ، فأقام بين ظهرانيهم عشرين سنة كاملة ، وفتح فيها فتوحات كثيرة ، هائلة منتشرة ، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند ، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم ، ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب من بلاد الصين ، وجرت له فصول قد ذكرناها .

ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الأمور والجراءة والإقدام ، والتهاون فى الأمور العظام ، مما يمدح على مثله ، ومما يذم بقوله وفعله ، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره .

فروى أبو بكر بن أبى خيثمة ، عن يحيى بن أيوب ، عن عبد الله بن كثير ابن أخى إسماعيل ابن جعفر المدينى ، ما معناه : أن الحجاج بن يوسف صلّى مرة بجنب سعيد بن المسيب ـ وذلك قبل أن يلى شيئًا ـ فجعل يرفع قبل الإمام ، ويقع قبله فى السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه ـ وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة ـ فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد ، فقال له : يا سارق يا خائن ، تصلّى هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه ، ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائبًا على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير كرّ راجعًا إلى المدينة نائبًا عليها ، فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب ، فقصده الحجاج ، فخشى الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه ، فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال : نعم ! قال : فجزاك الله من مُعلّم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك ، ثم قام ومضى

وروى الرياشى عن الأصمعى ، وأبى زيد ، عن معاذ بن العلاء ـ أخى أبى عمرو بن العلاء ـ قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فأمر الناس ، فجمعوا فى المسجد ، ثم صعد المنبر ، فقال ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ : يا أهل مكة ! بلغنى إكبارکم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها أهلها ، فنزع طاعة الله ، واستكن بحرم الله ، ولو كان شىء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأباح له كرامته ، وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، اذكروا الله يذكركم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ، ثنا عون ، عن أبى الصديق الناجى ، أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبى بكر ـ بعد ما قتل ابنها عبد الله ـ فقال : إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت ، كان برًّا بوالديه ، صوامًا قوامًا ، والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ « أنه يخرج من ثقيف كذابان : الآخر منهما شر من الأول ، وهو مُبير » .

ورواه أبو يعلى ، عن وهب بن بقية ، عن خالد ، عن عون ، عن أبى الصديق ، قال : بلغنى أن الحجاج دخل على أسماء ، فذكر مثله .

وقال أبو يعلى : ثنا زهير ، ثنا جرير ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن قيس بن الأحنف ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ نهى عن المُثلة . وسمعته يقول :

« يخرج من ثقيف رجلان : كذاب ، ومُبير » قالت : فقلت للحجاج : أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو يا حجاج .

وقال عبيد بن حميد : أنبأ يزيد بن هارون ، أنبأ العوام بن حوشب ، حدثنى من سمع أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول للحجاج - حين دخل عليها يعزيها فى ابنها - : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من ثقيف رجلان : مُبير ، وكذّاب » . فأما الكذاب فابن أبى عبيد - تعنى المختار - ، وأما المبير فأنت وتقدم فى صحيح مسلم من وجه آخر أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله ، وقد رواه غير أسماء عن النبى ﷺ ، فقال أبو يعلى : ثنا أحمد بن عمر الوكيعى ، ثنا وكيع ، حدثتنا أم عراب ، عن امرأة يقال لها : عقيلة ، عن سلامة بنت الحر قالت : قال رسول الله ﷺ : « فى ثقيف كذاب ومُبير » . تفرد به أبو يعلى .

وقد روى الإمام أحمد ، عن وكيع ، عن أم عراب - واسمها طلحة - عن عقيلة ، عن سلامة حديثاً آخر فى الصلاة ، وأخرجه أبو داود ، وابن ماجة . وروى من حديث ابن عمر ، فقال أبو يعلى : ثنا أمية بن بسطام ، ثنا يزيد بن ربيع ، ثنا إسرائيل ، ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت ابن عمر « أنبأنا رسول الله ﷺ أن فى ثقيف : مبيراً وكذاباً » . وأخرجه الترمذى من حديث شريك ، عن عبد الله بن عاصم ، ويقال : عصمة ، وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

وقال الشافعى : ثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج ، عن نافع ، أن ابن عمر اعتزل ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، فكان لا يصلى مع الحجاج . وقال الثورى عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ، ولم يكن يصلى وراءه . وقال إسحاق بن راهويه : أنبأ جرير ، عن القعقاع بن الصلت قال : خطب الحجاج فقال : إنّ ابن الزبير غيّر كتاب الله ، فقال ابن عمر : ما سلطه الله على ذلك ، ولا أنت معه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعلت . وروى عن شهر بن حوشب وغيره ، أن الحجاج أطال الخطبة ، فجعل ابن عمر يقول : الصلاة ، الصلاة - مراراً ، ثم قام ، فأقام الصلاة ، فقام الناس ، فصلى الحجاج بالناس ، فلما انصرف قال لابن عمر : ما حملك على ذلك ؟ فقال : إنما نجىء للصلاة فصلّ الصلاة لوقتها ، ثم تفتق[1] ما شئت بعد ذلك من تفتقه .

(١) أى : تفتح الكلام وقل ما تشاء . ورجل فتيق اللسان : فصيحه حديده . ونصل فتيق : حديد الشفرتين .

وقال الأصمعي : سمعت عمى يقول : بلغنى أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير ، وقدم المدينة لقى شيخاً خارجاً من المدينة ، فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال : بشرّ حال ، قتل ابن حوارىّ رسول الله ﷺ ، فقال الحجاج : ومن قتله ؟ فقال : الفاجر اللعين الحجاج ، عليه لعائن الله وتهلكته ، من قليل المراقبة لله . فغضب الحجاج غضباً شديداً ، ثم قال : أيها الشيخ ! أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال : نعم ! فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضراً . فكشف الحجاج عن لثامه وقال : ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة . فلما تحقق الشيخ الجد قال : والله إن هذا لهو العجب يا حجاج ، لو كنت تعرفنى ما قلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبى داود ، أصرع كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، ثنا حماد بن سلمة ، عن ابن أبى رافع ، عن عبيد الله ابن جعفر ، قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك : أتمكنه من ذلك ؟ فقال : وما بأس من ذلك . قال : أشد الناس والله ، قال : كيف ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما فى صدرى على آل الزبير منذ تزوجت[1] رملة بنت الزبير . قال : وكأنه كان نائماً فأيقظه ، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها ، فطلقها .

وقال سعيد بن أبى عروبة : حج الحجاج مرة ، فمر بين مكة والمدينة ، فأتى بغدائه ، فقال لحاجبه : انظر من يأكل معى ، فذهب فإذا أعرابى نائم ، فضربه برجله وقال : أجب الأمير ، فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تغدّ معى ، فقال : إنه دعانى من هو خير منك ، قال : ومن ؟ قال : الله دعانى إلى الصوم فأجبته ، قال : فى هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه ، قال : فأفطر وصم غداً ، قال : إن ضمنت لى البقاء إلى غد ، قال : ليس ذلك لى ، قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل لا تقدر عليه ؟ قال : إن طعامنا طعام طيب ، قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، إنما طيبته العافية .

فصل

قد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة فى سنة خمس وسبعين ، وخطبته إياهم بغتة ، وتهديده ووعيده إياهم ، وأنهم خافوه مخافة شديدة ، وأنه قتل عمير بن ضابىء ، وكذلك قتل كميل بن زياد صبراً . ثم كان من أمره فى قتال ابن الأشعث ما قدمنا ، ثم تسلط على من كان معه من الرؤساء والأمراء والعباد والقراء ، حتى كان آخر من قتل منهم ـ سعيد بن جبير .

(١) كذا بالأصول ، والظاهر أن فى مواضع من هذا الخبر تحريفاً وحذفاً ولم نعثر له على مرجع .

قال القاضي المعافى زكريا : ثنا أحمد بن محمد بن سعد الكلبي ، ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا محمد - يعني ابن عبيد الله بن عباس - عن عطاء - يعني ابن مصعب - عن عاصم قال : خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم ، فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم[١] فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع ، والأطراف ، ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ ، والأشباح والأرواح ، ثم رتع فعشش ، ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشا كم نفاقا ، وشقاقا ، وأشعركم خلافا ، اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائداً تطيعونه ، ومؤتمنا تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر ، واتفقتم على الكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا ، وتنهزمون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ، مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، ونكوص قلوبكم إذ وليتم كالإبل الشاردة عن أوطانها النوازع ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حين عضكم السلاح ، ونخعتكم[٢] الرماح ويوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ، بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله .

يا أهل العراق ! يا أهل الكفران بعد الفجران ، والغدران بعد الخذلان ، والنزوة بعد النزوات ، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون نعمة ، ولا تشكرون معروفا ، ما استخفكم ناكث ، ولا استغواكم غاو ، ولا استنقذكم عاص ، ولا استنصركم ظالم ، ولا استعضدكم خالع - إلا لبيتم دعوته ، وأجبتم صيحته ، ونفرتم إليه خفافاً وثقالا ، وفرساناً ورجالا . يا أهل العراق ! هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر - إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يا أهل العراق ! ألم تنفعكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته ، ويذقكم حر سيفه ، وأليم بأسه ومثلاته ؟ . ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها القذر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب . يا أهل الشام ! أنتم الجُنة والبُرد ، وأنتم الملاءة والجلد ، أنتم الأولياء والأنصار ، والشعار والدثار ، بكم يذب عن البيضة والحوزة ، وبكم ترمى كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولى .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين ، حدثنا عبيد الله بن محمد التيمي ، سمعت شيخاً من قريش - يكنى أبا بكر التيمي قال : كان الحجاج يقول في خطبته - وكان لسناً - إن الله خلق آدم

(١) استبطن الأمر : وقف على دخائله (٢) أي أصابت منكم النخاع

وذريته من الأرض ، وأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحى [(١)] والمرور ، ثم أدال الله الأرض منهم ، فردهم إليها ، فأكلت لحومهم ، كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم ، كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم فى جوفها وفرقت أوصالهم ، كما هتكوها بالمساحى والمرور .

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال فى خطبته فى المواعظ : الرجل وكلكم ذاك الرجل ، رجل خطم نفسه وزمها ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وكفها بزمامها عن معاصى الله ، رحم الله امرأ رد نفسه ، امرأ اتهم نفسه ، امرأ اتخذ نفسه عدوة ، امرأ حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره ، امرأ نظر إلى ميزانه ، امرأ نظر إلى حسابه ، امرأ وزن عمله ، امرأ فكر فيما يقرأ غداً فى صحيفته ويراه فى ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً ، وعند همه آمراً . امرأ أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله ؛ فإن قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كف ، امرأ عقل عن الله أمره ، امرأ فاق واستفاق ، وأبغض المعاصى والنفاق ، وكان إلى ما عند الله بالأشواق . فما زال يقول : امرأ ـ امرأ ، حتى بكى مالك بن دينار .

[وقال المدائنى عن عوانة بن الحكم قال : قال الشعبى : سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد ، يقول : أما بعد ! فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل] [(٢)] .

وقال المدائنى ، عن أبى عبد الله الثقفى ، عن عمه ، قال : سمعت الحسن البصرى يقول : وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له ـ لحرى أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة .

وقال شريك القاضى ، عن عبد الملك بن عمير قال : قال الحجاج يوماً : من كان له بلاء أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال : اعطنى فإنى قتلت الحسين ، فقال : وكيف قتلته ؟ قال : دسرته [(٣)] بالرمح دسراً ، وهبرته بالسيف هبراً ، وما أشركت معى فى قتله أحداً . فقال : اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد ، ولم يعطه شيئاً .

---

(١) المساحى : جمع مسحاة ، وهى ما يسحى ويجرف به ، والسحى : قشر الشىء وجرفه .

(٢) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

(٣) الدسر : الطعن والدفع . والهبر : القطع . والهبرة : القطعة من اللحم لا عظم فيها .

وقال الهيثم بن عدى : جاء رجل إلى الحجاج فقال : إن أخى خرج مع ابن الأشعث ، فضرب على اسمى فى الديوان ومنعت العطاء وقد هُدِمت دارى ، فقال الحجاج : أما سمعت قول الشاعر :

جنانيك من تجنى عليك وقد تعدى الصحاحَ مباركُ الجرب
ولربّ مأخوذ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب !

فقال الرجل : أيها الأمير ! إنى سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الله أصدق من هذا ، قال : وما قال ؟ قال : (قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ)[1] ، قال : يا غلام ، أعد اسمه فى الديوان ، وابن داره ، وأعطه عطاءه ، ومُر منادياً ينادى : صدق الله وكذب الشاعر .

وقال الهيثم بن عدى ، عن ابن عباس : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلىّ برأس أسلم بن عبد البكرى ؛ لما بلغنى عنه ، فأحضره الحجاج ، فقال : أيها الأمير ! أنت الشاهد ، وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[2] ، وما بلغه باطل ، وإنى أعول أربعةً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى ، وهن بالباب ، فأمر الحجاج بإحضارهن ، فلما حضرنَ جعلت هذه تقول : أنا خالته ، وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا ابنته ، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة ، فقال لها الحجاج : من أنت ؟ فقالت : أنا ابنته ، ثم قالت : أصلح الله الأمير ، وجثت على ركبتيها وقالت :

أحجاج لم تشهد مقام بناته وعماته يندُبنه الليل أجمعا
أحجاج كم تقتل به إن قتلته ثمانا وعشراً واثنتين وأربعا
أحجاج من هذا يقوم مقامه علينا ، فمهلا إن تزدنا تضعضعا
أحجاج إما أن تجود بنعمة علينا وإما أن تقتلنا معا

قال : فبكى الحجاج وقال : والله لا أعنت عليكن ولا أزيدكن تضعضعا ، ثم كتب إلى عبدالملك بما قال الرجل ، وبما قالت ابنته هذه ، فكتب عبدالملك إلى الحجاج بأمره بإطلاقه وحسن صلته ، وبالإحسان إلى هذه الجارية ، وتفقدها فى كل وقت .

وقيل : إن الحجاج خطب يوماً فقال : أيها الناس ! الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على

---

(١) الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ من سورة يوسف .   (٢) من الآية : ٦ من سورة الحجرات .

عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ! ما أصفق وجهك وأقل حياءك ! تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبثت وضل سعيك ، فقال للحرس : خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذى جرّأك علىّ ؟ فقال : ويحك يا حجاج ! أنت تجترىء على الله ، ولا أجترىء أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترىء عليك ، وأنت تجترىء على الله رب العالمين ؟ فقال : خلوا سبيله ، فأطلق .

وقال المدائنى : أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث ، فأمر بقتلهما ، فقال أحدهما : إن لى عندك يداً ، قال : وما هى ؟ قال : ذكر ابن الأشعث يوماً أمك ، فرددت عليه ، فقال : ومن يشهد لك ؟ قال : صاحبى هذا ! فسأله ، فقال : نعم ! فقال : ما منعك أن تفعل كما فعل ؟ قال : بغضك ، قال : أطلقوا هذا لصدقه ، وهذا لفعله ، فأطلقوهما .

وذكر محمد بن زياد ، عن ابن الأعرابى – فيما بلغه ، أنه كان رجل من بنى حنيفة يقال له : جحدر بن مالك ، وكان فاتكا بأرض اليمامة ، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه ، فما زال نائبها فى طلبه حتى أسره ، وبعث به إلى الحجاج ، فقال له الحجاج : ما حملك على ما كنت تصنعه ؟ فقال : جراءة الجنان ، وجفاء السلطان ، وكَلَب الزمان ، ولو اختبرنى الأمير لوجدنى من صالح الأعوان ، وشهم الفرسان ، ولوجدنى من أصلح رعيته ؛ وذلك أنى ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه فى نفسى مقتدراً ، فقال له الحجاج : إنا قاذفوك فى حائر[1] فيه أسد عاقر ، فإن قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خلينا سبيلك . ثم أودعه السجن مقيداً ، مغلولة يده اليمنى إلى عنقه ، وكتب الحجاج إلى نائبه بكَسْكَر – أن يبعث له بأسد عظيم ضار ، وقد قال جحدر هذا فى محبسه هذا أشعاراً يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمر ، ويقول فى بعضها :

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تدانى
بلى وترى الهلال كما نراه ... ويعلوها النهار إذا علانى
إذا جاوزتما نخلات نجد ... وأودية اليمامة فانعيانى
وقولا جحدر أمسى رهينا ... يحاذر وقع مصقول يمانى

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به ، فجوّع ثلاثة أيام ، ثم أبرز إلى حائر – وهو البستان – وأمر بجحدر ، فأخرج فى قيوده ويده اليمنى مغلولة بحالها ، وأعطى سيفاً فى يده اليسرى وخلى بينه وبين الأسد ، وجلس الحجاج وأصحابه فى منظرة ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

(١) الحائر : البستان ، والمكان المطمئن من الأرض .

ليث وليث فى مجال ضنك كلاهما ذو أنف ومحك
وشدة فى نفسه وفتك إن يكشف الله قناع الشك
* فهو أحق منزل بترك *

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة ، وتمطى وأقبل نحوه ، فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة ، فتلقاه جحدر بالسيف ، فضربه ضربة خالط ذباب السيف لهواته ، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح من شدة الضربة ، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد ، وشدة موضع القيود عليه ، فكبر الحجاج ، وكبر أصحابه ، وأشار جحدر يقول :

يا جمل إنك لو رأيت كريهتى فى يوم هول مسدف وعجاج
وتقدمى لليث أرسف موثقاً كيما أساوره على الإخراج
شثن براثنه كأن نيوبه زرق المعاول أو شباة زجاج
يسمو بناظرتين تحسب فيهما لهباً أحدهما شعاع سراج
وكأنما خيطت عليه عباءة برقاء أو خرقاً من الديباج
لعلمت أنى ذو حفاظ ماجد من نسل أقوام ذوى أبراج

فعند ذلك خيّره الحجاج إن شاء أقام عنده ، وإن شاء انطلق إلى بلاده ، فاختار المقام عند الحجاج ، فأحسن جائزته ، وأعطاه أموالا . وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ ، لأنه ابن بنته ، فقال له يحيى بن يعمر : كذبت ! فقال الحجاج : لتأتينى على ما قلت ببينة من كتاب الله ، أو لأضربن عنقك ، فقال : قال الله : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) إلى قوله : (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى)[1] ، فعيسى من ذرية إبراهيم ، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم ، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ . فقال الحجاج : صدقت ، ونفاه إلى خراسان .

وقد كان الحجاج مع فصاحته وبلاغته يلحن فى حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر ؛ منها : أنه كان يبدل إنّ المكسورة بأنّ المفتوحة وعكسه ، وكان يقرأ (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ) إلى قوله : (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ)[2] ، فيقرأها برفع أحب .

وقال الأصمعى وغيره : كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد ، فقال للرسول : أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده ؟ قال : نعم ! فكتب الحجاج إلى عبد الملك : أما أمس فأجل ، وأما اليوم فعمل ، وأما غداً فأمل .

وقال ابن دريد ، عن أبى حاتم السجستانى ، عن أبى عبيدة معمر بن المثنى قال : لما قتل

(١) من الآيتين : ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنعام . (٢) من الآية : ٢٤ من سورة التوبة .

الحجاج ابن الأشعث وَصَفَت له العراق - وسّع على الناس فى العطاء ، فكتب إليه عبد الملك : أما بعد ؛ فقد بلغ أمير المؤمنين ، أنك تنفق فى اليوم مالا ينفقه أمير المؤمنين فى الأسبوع ، وتنفق فى الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين فى الشهر ، ثم قال منشداً :

عليك بتقوى الله فى الأمر كلّه وكن يا عبيد الله تخشى وتضرع
ووفّر خراجَ المسلمين وفيأهم وكن لهمُ حِصناً تجير وتمنع

فكتب إليه الحجاج :

لعمرى لقد جاء الرسول بكتبكم قراطيس تملا ثم تطوى فتطبع
كتاب أتانى فيه لين وغلظة وذكرت والذكرى لذى اللب تنفع
وكانت أمور تعترينى كثيرة فأرضخ أو أعتل حيناً فأمنع
إذا كنت سوطا من عذاب عليهم ولم يك عندى بالمنافع مطمع
أيرضى بذاك الناس أو يسخطونه أم احمد فيهم أم ألام فأقذع
وكان بلاد جئتها حين جئتها بها كل نيران العداوة تلمع
فقاسيت منها ما علمت ولم أزل أصارع حتى كدت بالموت أصرع
وكم أرجفوا من رجفة قد سمعتها ولو كان غيرى طار مما يروّع
وكنت إذا هموا بإحدى نهاتهم حسرت لهم رأسى ولا أتقنع
فلو لم يذد عنى صناديد منهم تقسم أعضائى ذئاب وأضبع

قال : فكتب إليه عبد الملك : أن اعمل برأيك . وقال الثورى عن محمد بن المستورد الجُمَحى قال : أتى الحجاج بسارق ، فقال له : لقد كنت غنياً أن تكسب جناية ، فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك . فقال الرجل : إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف . قال : صدقت ؛ والله لو كان حسن أعتذار يبطل حداً لكنتَ له موضعاً ، يا غلام ! سيف صارم ورجل قاطع ، فقطع يده .

وقال أبو بكر بن مجاهد ، عن محمد بن الجهم ، عن الفرّاء قال : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبد الملك . فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ[1] ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ الحلال

(١) ما يسمى فى هذا العصر نبيذاً هو الخمر المحض ، وهو غير ما كان يسميه سلفنا نبيذاً . والنبيذ عندهم هو التمر أو الزبيب يترك عليه الماء ، ويسمونه بعد ذلك نبيذاً ، سواء أسكر أو لم يسكر ، وفى كلتا الحالتين فإنه أشبه بعصير القصب اليوم إن لم يكن دونه .

ما أحللت ، ولكنى أنهى عنه أهل العراق وأهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)[1] . وقال عمر بن شبة عن أشياخه : كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب عليه فى إسرافه فى صرف الأموال ، وسفك الدماء ، ويقول : إنما المال مال الله ونحن خزانه ، وسيان منع حق أو إعطاء باطل ، وكتب فى أسفل الكتاب هذه الأبيات :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلبْ رضائى فى الذى أنا طالبه

وتخشى الذى يخشاه مثلك هارباً ... إلى الله منه ضيع الدرّ حالبه

فإن تر منى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غُصّ بالماء شاربه

وإن تر منى وثبة أموية ... فهذا وهذا كله أنا صاحبه

فلا تعدُ ما يأتيك منى فإن تعدْ ... تقم فاعلمن يوماً عليك نوادبه

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد ، فقد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الأموال ، والدماء ، فوالله ما بالغت فى عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فإن كان ذلك سرفاً فليحدّ لى أمير المؤمنين حداً أنتهى إليه ، ولا أتجاوزه . وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا أنا لم أطلب رضاك وأتقى ... أذاك فيومى لا توارت كواكبه

إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... فقامت عليه فى الصباح نوادبه

أسالم من سالمت من ذى هوادة ... ومن لا تسالمه فإنى محاربه

فمن يتقى يومى ويرجو إذا غدى ... على ما أرى والدهر جمٌّ عجائبه

وعن الشافعى أنه قال : قال الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة ، أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه : هل يجد فى نفسه مما أصاب من الدنيا شيئاً ؟ فسأله كما أمره ، فقال : والله ما أحب أن لى لبنان أو سبير ذهباً أنفقه فى سبيل الله ، مكان ما أبلانى الله من الطاعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

«فصل» فيما روى عنه من الكلمات النافعة والجرأة البالغة

قال أبو داود : ثنا محمد بن العلاء ، ثنا أبو بكر عن عاصم قال : سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول : اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك ، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد ، فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم ، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالا ، وما عَذِيرى من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله ، والله ما هى إلا رجز من رجز الأعراب

(١) من الآية : ٨٨ من سورة هود . والسيد الصالح هو : سيدنا شعيب عليه السلام.

ما أنزلها الله على نبيه ﷺ وعذيرى من هذه الحمراء ، يزعم أحدهم يرمى بالحجر فيقول لى : إن يقع الحجر حدث أمر ، فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر . قال : فذكرته للأعمش فقال : وأنا والله سمعته منه ورواه أبو بكر بن أبى خيثمة عن محمد بن يزيد ، عن أبى بكر بن عياش عن عاصم ابن أبى النجود والأعمش ، أنهما سمعا الحجاج ـ قبحه الله ـ يقول ذلك ، وفيه : والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لى دماؤكم ، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه ، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير . ورواه غير واحد عن أبى بكر بن عياش بنحوه ، وفى بعض الروايات : والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه . وهذا من جرأة الحجاج ـ قبحه الله ـ وإقدامه على الكلام السيء ، والدماء الحرام . وإنما نقم على قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ، لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذى جمع الناس عليه عثمان ، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه ، والله أعلم .

وقال على بن عبد الله بن مبشر ، عن عباس الدورى عن مسلم بن إبراهيم : ثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج على منبر واسط يقول : عبد الله بن مسعود رأس المنافقين ، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه . قال : وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية (وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ من بَعْدِي)[1] قال : والله إن كان سليمان لحسوداً . وهذه جرأة عظيمة تفضى به إلى الكفر ـ قبحه الله وأخزاه ، وأبعده وأقصاه .

[قال أبو نعيم : حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى جئتك من عند رجل يملى المصاحف عن ظهر قلب ، ففزع عمر وغضب وقال : ويحك ! انظر ما تقول ، قال : ما جئتك إلا بالحق ، قال : من هو ؟ قال : عبد الله بن مسعود . قال : ما أعلم أحداً أحق بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك « إنا سَمرنا ليلة فى بيت عند أبى بكر فى بعض ما يكون من حاجة النبى ﷺ ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشى بينى وبين أبى بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ ، فقام النبى ﷺ يستمع إليه ، فقلت : يا رسول الله أعتمت ، فغمزنى بيده ـ يعنى اسكت ـ قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر ، فقال النبى ﷺ : سل تُعطه[2] ، ثم قال : من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل ، فليقرأ قراءة ابن أم عبد ، فعلمت أنا وصاحبى ـ أنه عبد الله بن مسعود فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره فقال : سبقك بها أبو بكر ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقنى إليه .

---

(١) من الآية : ٣٥ من سورة ص (٢) النفط : دهن ، وكسر النون أفصح من فتحها .

وهذا الحديث قد روى من طرق ؛ فرواه حبيب بن حسان ، عن زيد بن وهب عن عمر مثله ورواه شعبة وزهير وخديج عن أبى إسحاق ، عن أبى عبيدة عن عبيد الله ، ورواه عاصم عن عبد الله . ورواه الثورى وزائدة عن الأعمش نحوه . وقال أبو داود : حدثنا عمر بن ثابت عن أبى إسحاق عن حمير بن مالك قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول: « أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لصبى مع الصبيان ، فأنا لا أدع ما أخذت من فى رسول الله ﷺ » وقد رواه الثورى وإسرائيل عن أبى إسحاق به . وفى رواية ذكرها الطبرانى عنه قال : « لقد تلقيت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد ابن ثابت ، وله ذؤابة يلعب مع الغلمان » وقد روى أبو داود عنه ، وذكر قصة رعيه الغنم لعقبة ابن أبى معيط، وأنه قال: قال لى رسول الله ﷺ : « إنك غلام معلم ، قال: فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » . ورواه أبو أيوب الأفريقى ، وأبو عوانة عن عاصم عن زر عنه نحوه . وقال له النبى ﷺ : « إذنك أن ترفع الحجاب ، وأن تسمع سوادى [1] حتى أنهاك » وقد روى هذا عنه من طرق .

وروى الطبرانى عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، أن عبد الله كان صاحب الوساد والسواد والسواك والنعلين ، وروى غيره عن علقمة قال : قدمت الشام ، فجلست إلى أبى الدرداء فقال لى : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : أليس فيكم صاحب الوساد والسواك ؟ وقال الحارث ابن أبى أسامة : حدثنا عبد العزيز بن أبان ، حدثنا قطر بن خليفة ، حدثنا أبو وائل قال : سمعت حذيفة يقول ، وابن مسعود قائم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ ، من أقربهم وسيلة يوم القيامة . وقد روى هذا عن حذيفة من طرق ؛ فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن أبى وائل عن حذيفة ، ورواه عن أبى وائل - فاضل الأحدب، وجامع بن أبى راشد ، وعبيدة ، وأبو سنان الشيبانى وحكيم بن جبير . ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن حذيفة .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول : قلنا لحذيفة : أخبرنا برجل قريب الهدى والسمت من رسول الله ﷺ حتى نلزمه ، فقال: ما أعلم أحداً أقرب هديا وسمتاً من رسول الله ﷺ حتى يواريه جدار بيته - من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب النبى ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة . قلت : فهذا حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ ، وهذا قوله فى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه ، فكذب الحجاج وفجر ، ولقم النار والحجر قماً بقوله فيه ، وفى رميه له بالنفاق ، وفى قوله عن

---

(١) أى شخصى : والسواد : الشخص - ومن القلب حبته .

قراءته : إنها شعر من شعر هذيل ، وإنه لابد أن يحكّها من المصحف ولو بضلع خنزير ، وأنه لو أدركه لضرب عنقه ، لحصل على إثم ذلك كله بنيته الخبيثة . وقال عفان : حدثنا حماد حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله قال : كنت أجتنى لرسول الله ﷺ سواكا من أراك ، فكانت الريح تكفؤه ، وكان فى ساقه دقة ، فضحك القوم ، فقال النبى ﷺ : « ما يضحككم ؟ قالوا : من دقة ساقيه ، فقال النبى ﷺ : والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد » ورواه جرير وعلى بن عاصم عن مغيرة عن أم موسى عن على بن أبى طالب . وروى سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تمسكوا بعهد عبد الله بن أم مسعود » ورواه الترمذى والطبرانى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال : سمعت أبا الأحوص قال : شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين توفى ابن مسعود ، وأحدهما يقول لصاحبه : أتراه ترك بعده مثله ؟ قال : إن قال ذاك إنه كان ليؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا وقال الأعمش : يعنى عبد الله بن مسعود وقال أبو معاوية : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب قال : أقبل عبد الله بن مسعود ذات يوم وعمر جالس ، فقال : كيف ملىء فقها . وقال عمر بن حفص : حدثنا عاصم بن على ، حدثنا المسعودى عن أبى حصين عن أبى عطية ، أن أبا موسى الأشعرى قال : لا تسألونا عن شىء ما دام هذا الحبر بين أظهرنا من أصحاب محمد ﷺ - يعنى ابن مسعود - وروى جرير عن الأعمش عن عمرو بن عروة ، عن أبى البختري قال : قالوا لعلى : حدثنا عن أصحاب محمد ﷺ ، قال : عن أيهم ؟ قالوا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما . وفى رواية عن على قال : علم القرآن ، ثم وقف عنده وكفى به . فهداتنا الصحابة العالمون به ، العارفون بما كان عليه ، فهم أولى بالاتباع وأصدق أقوالا من أصحاب الأهواء الحائدين عن الحق ؛ بل أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء - هذيانات وكذب وافتراء ، وبعضها كفر وزندقة ، فإن الحجاج كان عثمانيا أمويا ، يميل إليهم ميلا عظيما . ويرى أن خلافهم كفر ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم][(١)] .

ومن الطامات أيضاً ما رواه أبو داود ، ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى، ثنا جرير وحدثنا زهير بن حرب ثنا جرير عن المغيرة عن ربيع بن خالد الضبى قال : سمعت الحجاج يخطب فقال فى خطبته : رسول أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته فى أهله ؟ فقلت فى نفسى : لله على أن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من بعض النسخ .

لا أصلي خلفك صلاة أبداً ، وإن وجدت قوما يجاهدونك لأجاهدنك معهم . زاد إسحاق : فقاتل في الجماجم حتى قتل. فإن صح هذا عنه ، فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة ، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول وقال الأصمعي : ثنا أبو عاصم النبيل ، ثنا أبو حفص الثقفي قال : خطب الحجاج يوما ، فأقبل عن يمينه فقال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال : ألا إن الحجاج كافر ، فعل ذلك مراراً ، ثم قال : كافر يا أهل العراق باللات والعزى . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون ابن معروف ، ثنا ضمرة ثنا ابن شوذب عن مالك بن دينار قال بينما الحجاج يخطبنا يوماً إذ قال : الحجاج كافر ، قلنا ماله ؟ أي شيء يريد ؟ قال الحجاج: كافر بيوم الأربعاء والبغلة والشهباء . وقال الأصمعي : قال عبد الملك يوماً للحجاج : ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فأبى ، فقال : أنا لجوج حقود حسود ، فقال عبد الملك : ما في الشيطان شر مما ذكرت . وفي رواية أنه قال : إذاً بينك وبين إبليس نسب .

وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق ، بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم ، وعصيانهم ، ومخالفتهم ، والافتيات عليهم . قال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عمن حدثه قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ، فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم ، فخرج غضبان ، فصلّى لنا صلاة فسها فيها ، حتى جعل الناس يقولون : سبحان الله ! سبحان الله ! فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام ؟ فقام رجل ، ثم قام آخر ، ثم قمت أنا ثالثاً أو رابعاً ، فقال يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق ، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، اللهم إنهم قد لبّسوا عليهم ، فألبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقفي ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم وقد رويناه في كتاب مسند عمر بن الخطاب، من طريق أبي عذبة الحمصي ، عن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : ثنا جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار عن الحسن ، قال علي بن أبي طالب : اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ، ونصحتُ لهم فغشوني ـ فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضرتها، ويلبس فروتها، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال : يقول الحسن وما خلق الحجاج يومئذ . ورواه معتمر بن سليمان ، عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان ، عن علي أنه قال : الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ، ويقتل أشراف أهلها ، يشتد منه الفرق ، ويكثر منه الأرق ، ويسلطه الله على شيعته .

وقال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، ثنا أبو العباس محمد

ابن أحمد الجبوبى ، ثنا سعيد بن مسعود ، ثنا يزيد بن هارون ، أنبأ العوام بن حوشب ، حدثنى حبيب بن أبى ثابت قال : قال على لرجل : لا متّ حتى تدرك فتى ثقيف ، قال : وما فتى ثقيف ؟ قال : ليقالن له يوم القيامة : اكفنا زاوية من زوايا جهنم ، رجل يملك عشرين سنة ، أو بضعاً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها ؛ حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ، وكان بينه وبينها باب مغلق ، لكسره حتى يرتكبها ، يقتل بمن أطاعه من عصاه . وقال الطبرانى : حدثنا القاسم بن زكريا ، ثنا إسماعيل بن موسى السدوسى ، ثنا على بن مسهر عن الأجلح ، عن الشعبى عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت : استأذن الأشعث بن قيس على على فرده قنبر ، فأدمى أنفه ، فخرج على فقال : مالك وله يا أشعث ؟ أما والله لو بعبد ثقيف تمرشت لاقشعرت شعيرات استك . قيل له : يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف ؟ قال : غلام يليهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلا ، قيل : كم يملك ؟ قال : عشرين إن بلغ

وقال البيهقى : أنبأنا الحاكم ، أنبأ الحسن بن الحسن بن أيوب ، ثنا أبو حاتم الرازى ، ثنا عبد الله بن يوسف التنيسى ، ثنا ابن يحيى الغسانى قال : قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم . وقال أبو بكر بن عياش : عن عاصم بن أبى النجود أنه قال : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج .

وقد تقدم الحديث « إن فى ثقيف كذابا ومبيرا » وكان المختار هو الكذاب المذكور فى هذا الحديث ، وقد كان يظهر الرفض أولا ويبطن الكفر المحض . وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف هذا ، وقد كان ناصبيا يبغض علياً وشيعته فى هوى آل مروان بنى أمية ، وكان جباراً عنيداً ، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة . وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر ، كما قدمنا فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها ، وإلا فهو باق فى عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه ، وربما حرفوا عليه بعض الكلم . وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، ويتجنب المحارم ، ولم يشتهر عنه شىء من التلطخ بالفروج ، وإن كان متسرعا فى سفك الدماء ، فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها ، وخفيات الصدور وضمائرها .

[قلت : الحجاج أعظم ما نقم عليه ، وصح من أفعاله ـ سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصا على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن ، فكان يعطى على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم ، والله أعلم][1] .

(١) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ .

وقال المعافى بن زكريا الجريري - المعروف بابن طرار البغدادي : ثنا محمد بن القاسم الأنباري ، ثنا أبي ، ثنا أحمد بن عبيد ، ثنا هشام أبو محمد بن السائب الكلبي ، ثنا عوانة بن الحكم الكلبي قال : دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف ، فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أنيس يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة . فقال أنس : إياي يعني الأمير - أصلحه الله ؟ قال : إياك أعني- صك الله سمعك قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أيّ قتلة قتلت ، ولا أيّ ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج ، فكتب إلى عبد الملك ابن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وشفق عجبا ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، من أنس بن مالك أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجراً ، وأسمعني نكراً ، ولم أكن لذلك أهلا ، فخذ لي على يديه ، فإني أمتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقاً للحجاج - فقال له : دونك كتابيّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ ، فارفع كتابي إليه ، وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة ! قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك ، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج ، وما سلطته عليك ، ولا أمرته بالإساءة إليك ، فإن عاد لمثلها اكتب إليّ بذلك ؛ أنزل به عقوبتي . وتحسن لك معونتي ، والسلام فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين : وأخبر برسالته ، قال : جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً ، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة ، فهذا كان ظني به والرجاء منه . فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس : يا أبا حمزة ! إن الحجاج عامل أمير المؤمنين ، وليس بك عنه غنى ، ولا بأهل بيتك ، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك ، فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام . فقال أنس : أفعل إن شاء الله . ثم خرج إسماعيل من عند أنس ، فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاه . فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغير لون الحجاج ، وخاف وقال : ما أتيتني به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين ، وهو أشد الناس غضباً عليك ، ومنك بعداً . قال : فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً ، فرمى إليه إسماعيل

بالطومار ، فجعل الحجاج ينظر فيه مرّة ويعرق ، وينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة ؟ وكان في الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد ! فإنك عبد طمت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدًّا ، وأردت أن تبدو لي ، فإن سوغتكها مضيت قدماً ، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى ، فلعنك الله من عبد أخفش العينين ، منقوص الجاعرتين[1] . أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل ، يا ابن المستفرمة[2] بعجم الزبيب ، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب ، والصقر الأرنب . وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافاً منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلا خدم عزير بن عزرى ، وعيسى ابن مريم - لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته ، بل لو رأوا من خدم حمار العزير ، أو خدم حوارى المسيح - لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سره ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاض ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . وقد تكلم ابن طرار على ما وقع في هذا الكتاب من الغريب ، وكذلك ابن قتيبة وغيرهما من أئمة اللغة ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : ثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن الزبير - يعني ابن عدي - قال : أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم - إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبيكم ﷺ » وهذا رواه البخاري ، عن محمد بن يوسف ، عن سفيان - وهو الثوري - عن الزبير ابن عدي ، عن أنس قال : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » الحديث .

قلت : ومن الناس من يروى هذا الحديث بالمعنى فيقول : كل عام ترذلون[3] . وهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث ، والله أعلم .

---

(١) الجاعرة : الإست - أو حلقة الدبر . (٢) سبق شرحه في ص ١٠٣ من هذا الجزء

(٣) الأرذل : الدون الخسيس ، أو الرديء من كل شيء ، وأرذل العمر : أسوأه .

قلت : قد مرّ بي مرة من كلام عائشة مرفوعاً وموقوفاً : كل يوم تُرْذَلُون . ورأيت الإمام أحمد كلاماً قال فيه : وروى في الحديث كل يوم تُرْذَلُون نسما خبيثا . فيحتمل هذا أنه وقع للإمام أحمد مرفوعاً . ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل ، وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم . فدل على أن له أصلا ؛ إما مرفوعا ، وإما من كلام السلف ، لم يزل يتناوله الناس قرناً بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، حتى وصل إلى هذه الأزمان ، وهو موجود في كل يوم ، بل في كل ساعة تفوح رائحته ، ولا سيما من بعد فتنة تيمورلنك ، وإلى الآن نجد الرذالة في كل شيء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد قال سفيان الثوري ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي قال : يأتي على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج .

وقال أبو نعيم ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السفر ، قال : قال الشعبي : والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج .

وقال الأصمعي : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شر من الأول ، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج . فقال الحسن : لا بد للناس من تنفيسات .

وقال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن ، وقد همَّ به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج ! كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا ، قال : فنكس الحجاج رأسه ، وخرج الحسن .

وقال أيوب السختياني : إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً ، فعصمه الله منه ، وذكر له معه مناظرات . على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرهاً ، كما قدمنا . وكان الحسن يقول : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع .

وقال ابن دريد ، عن الحسن بن الخضر ، عن ابن عائشة قال : أتى الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج ، فقيل له : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قال : فعثمان ؟ فأثنى خيراً ، قيل له : فما تقول في علي ؟ فأثنى خيراً ، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد ، فيثني على كل بما يناسبه ، حتى قيل له : فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ فقال : الآن جاءت المسألة ، ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه ؟][1] .

---

(١) ما بين القوسين مثبت في بعض النسخ .

وقال الأصمعى ، عن على بن مسلم الباهلى قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فجعل يكلمها ـ وهى لا تنظر إليه ، ولا ترد عليه كلاماً ، فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟ فقالت : إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها فقتلت . وقد ذكرنا فى سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير ، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة .

وقد قال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا أبو ظفر ، ثنا جعفر بن سليمان ، عن بسطام بن مسلم ، عن قتادة قال : قيل لسعيذ بن جبير : أخرجت على الحجاج ؟ قال : إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ويقال : إنه لم يقتل بعده إلا رجلا واحداً اسمه ماهان ، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً ، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث .

وقال أبو عيسى الترمذى : ثنا أبو داود ـ سليمان بن مسلم البلخى ، ثنا النضر بن شميل ، عن هشام بن حسان قال : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً[1] ، فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً .

قال الأصمعى : ثنا أبو عصم ، عن عباد بن كثير ، عن قحذم قال : أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة ـ أحداً وثمانين ألف أسير كانوا فى سجن الحجاج ، وقيل : إنه لبث فى سجنه ثمانون ألفاً ، منهم ثلاثون ألف امرأة ، وعرضت السجون بعد الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب ، وكان فيمن حبس أعرابى وجد يبول فى أصل رَبَض[2] مدينة واسط ، وكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط   خرينا وصلينا بغير حساب

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد ـ لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر .

قال ابن أبى الدنيا ، وإبراهيم الحربى : ثنا سليمان بن أبى سنج ، ثنا صالح بن سليمان قال : قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم ، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة ، لقد ولى العراق وهو أوفر ما يكون فى العمارة ، فأخس به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، ولقد أدى إلىّ عمالى فى عامى هذا ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إلى ما أدى إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف .

وقال أبو بكر بن المقرى : ثنا أبو عروبة ، ثنا عمرو بن عثمان ، ثنا أبى ، سمعت جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة : بلغنى أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه ،

(١) أى : حبسا . وصبره : حبسه . (٢) ربض المدينة ـ بفتحتين ـ ما حولها

فإنه كان يصلى الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة من غير حقها ، وكان لما سوى ذلك أضيع .
وقال يعقوب بن سفيان ثنا سعيد بن أسد ، ثنا ضمرة ، عن الريان بن مسلم قال : بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبى عقيل - أهل بيت الحجاج - إلى صاحب اليمن ، وكتب إليه : أما بعد ؛ فإنى قد بعثت بآل أبى عقيل ، وهم شر بيت فى العمل ، ففرقهم فى العمل على قدر هوانهم على الله ، وعلينا ، وعليك السلام . وإنما نفاهم .

وقال الأوزاعى : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول : كان الحجاج ينقض عرى الإسلام ، وذكر حكاية .. وقال أبو بكر بن عياش ، عن عاصم : لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج ابن يوسف . وقال يحيى بن عيسى الرملى ، عن الأعمش : اختلفوا فى الحجاج ، فسألوا مجاهداً ، فقال : تسألون عن الشيخ الكافر .

وروى ابن عساكر ، عن الشعبى أنه قال : الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت ، كافر بالله العظيم . كذا قال ، والله أعلم .

وقال الثورى ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً .

وقال الثورى ، عن ابن عوف : سمعت أبا وائل يسأل عن الحجاج : أتشهد أنه من أهل النار ؟ قال : أتأمرونى أن أشهد على الله العظيم .

وقال الثورى ، عن منصور : سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة ، فقال : أليس الله يقول : (أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)[1] وبه قال إبراهيم ، وكفى بالرجل عمى أن يعمى عن أمر الحجاج

وقال سلام بن أبى مطيع : لأنا بالحجاج أرجى منى لعمرو بن عبيد ؛ لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا ، وعمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة شنعاء ، قتل الناس بعضهم بعضاً .

وقال الزبير : سببت الحجاج يوماً عند أبى وائل فقال : لا تسبه لعله قال يوماً : اللهم ارحمنى فيرحمه ، إياك ومجالسة من يقول : أرأيت أرأيت .

وقال عوف : ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد ، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه ، وإن يغفر له فهنيئاً له ، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه . فقيل له : ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان ، وأن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور .

---

(١) الآية : ١٨ من سورة هود .

وقال أبو قاسم البغوى : ثنا أبو سعيد ، ثنا أبو أسامة قال : قال رجل لسفيان الثورى : أتشهد على الحجاج وعلى أبى مسلم الخراسانى أنهما فى النار ؟ قال : لا ! إن أقرا بالتوحيد . وقال الرياشى : حدثنا عباس الأزرق عن السرى بن يحيى قال : مر الحجاج فى يوم جمعة ، فسمع استغاثة فقال : ما هذا ؟ فقيل : أهل السجون يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون قال : فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار . وقال بعضهم : رأيته وهو يأتى الجمعة ، وقد كاد يهلك من العلة . وقال الأصمعى : لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته فقال فى خطبته : إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ومات الحجاج فمه ! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه - إبليس ، قال الله له (إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ)[١] ، فأنظره إلى يوم الدين ، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال : (هَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)[٢] ، فأعطاه الله ذلك إلا البقاء ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن أتم له أمره ، فقال : (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[٣] فما عسى أن يكون أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حى منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، ثم نقل فى أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولا فى ذراع عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون ، يعقلون ما أقول . ثم نزل .

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ما حسدت الحجاج عدو الله على شىء حسدى إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لى ، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا على بن الجعد ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون ، عن محمد بن المنكدر قال : كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج ، فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت : اللهم اغفر لى فإنهم يزعمون أنك لا تفعل . قال : وحدثنى بعض أهل العلم قال : قيل للحسن : إن الحجاج قال عند الموت كذا وكذا ، قال : قالها ؟ قالوا : نعم ! قال : فما عسى . وقال أبو العباس المرى عن الرياشى عن الأصمعى قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا ... «بأننى رجل من ساكنى النار»[٤]

---

(١) من الآية : ١٥ من سورة الأعراف ... (٢) من الآية : ٣٥ من سورة ص

(٣) من الآية : ١٠١ من سورة يوسف ... (٤) فى نسخة : أيمانهم أنى من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء ويحهم ما علمهم بعظيم العفو غفار

قال : فأخبر بذلك الحسن فقال : بالله إن نجا لينجون بهما . وزاد بعضهم فى ذلك :

إن الموالى إذا شابت عبيدهم فى رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقى أولى بذا كرماً قد شبت فى الرق فاعتقنى من النار

وقال ابن أبى الدنيا : ثنا أحمد بن عبد الله التيمى قال : لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتى أشرفت جرية فبكت ، فقالت : ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، ومرمل النساء ، ومفلق الهام ، وسيد أهل الشام ـ قد مات ، ثم أنشأت تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا واليوم يأمننا من كان يخشانا

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، أنه أخبر بموت الحجاج مراراً ، فلما تحقق وفاته قال : (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[١] .

وروى غير واحد : أن الحسن لما بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى ، وكان مختفياً فظهر ، وقال : اللهم أمته فأذهب عنه سنته .

وقال حماد بن أبى سليمان : لما أخبرت إبراهيم النخعى بموت الحجاج بكى من الفرح .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا سليمان بن أبى شيخ ، ثنا صالح بن سليمان قال : قال زياد ابن الربيع بن الحارث لأهل السجن : يموت الحجاج فى مرضه هذا فى ليلة كذا وكذا ، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحاً ، جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان . وقيل : كان ذلك لخمس بقين من رمضان . وقيل : فى شوال من هذه السنة ، وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين سنة ؛ لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين ، وقيل : بعدها بسنة . وقيل : قبلها بسنة . مات بواسط ، وعفى قبره ، وأجرى عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق ، والله أعلم .

وقال الأصمعى : ما كان أعجب حال الحجاج ! ما ترك إلا ثلاثمائة درهم . وقال الواقدى : ثنا عبد الله بن محمد بن عبيد ، حدثنى عبد الرحمن بن عبيد الله بن فرق ، ثنا عمى قال : زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلا ومائة درع موقوفة .

وقال شهاب بن خراش : حدثنى عمى يزيد بن حوشب قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور فقال : حدثنى بوصية الحجاج بن يوسف ، فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : حدثنى بها ،

(١) من الآية : ٤٥ من سورة الانعام .

فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف ، أنه يشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى ، وعليها يموت ، وعليها يبعث . وأوصى بتسعمائة درع حديد ؛ ستمائة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك . قال : فرفع أبو جعفر رأسه إلى أبي العباس الطوسي - وكان قائماً على رأسه - فقال : هذه والله الشيعة لا شيعتكم .

وقال الأصمعي ، عن أبيه قال : رأيت الحجاج في المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلني بكل قتلة قتلت بها إنساناً . قال : ثم رأيته بعد الحول ، فقلت : يا أبا محمد ! ماصنع الله بك ؟ فقال : يا ماصّ بظر أمه ، أما سألت عن هذا عام أول .

وقال القاضي أبو يوسف : كنت عند الرشيد ، فدخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ! رأيت الحجاج البارحة في النوم . قال : في أي زي رأيته ؟ قال : في زي قبيح . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما أنت وذاك يا ماصّ بظر أمه ! فقال هارون : صدق والله ، أنت رأيت الحجاج حقا ، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حياً وميتاً .

وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ، ثنا ضمرة بن أبي شوذب ، عن أشعث الحراز قال : رأيت الحجاج في المنام في حالة سيئة ، فقلت : يا أبا محمد ! ما صنع بك ربك ؟ قال : ما قتلت أحداً قتلة إلا قتلني بها . قال : ثم أمر بي إلى النار . قلت : ثم مه . قال : ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله قال : وكان ابن سيرين يقول : إني لأرجو له ، فبلغ ذلك الحسن ، فقال : أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج ، فدعا عليه . قال : فرآه في منامه ، فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين . قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه ، والله أعلم .

[وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس ، حدثنا عبد الله بن عثمان ، أنبأ ابن المبارك ، أ . أنا سفيان قال : قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافداً ، ومعه معاوية بن قرة ، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج فقال : إن صدقناكم قتلتمونا ، وإن كذبناكم خشينا الله عز وجل ، فنظر إليه الحجاج ، فقال له عبد الملك : لا تعرض له ، فنفاه إلى السند ، فكان له بها مواقف][1] .

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

ومن توفى فيها من الأعيان: إبراهيم بن يزيد النخعى [قال : كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً ؛ لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة ، أو إلى النار ، وإنكم تتحدثون فى جنائزكم بأحاديث دنياكم . وقال : لا يستقيم رأى إلا برواية ، ولا رواية إلا برأى . وقال : إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك من فلاحه[1] وقال : إنى لأرى الشىء مما يعاب ، فلا يمنعنى من عيبه إلا مخافة أن أبتلى به . وبكى عند موته ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : انتظار ملك الموت ، ما أدرى يبشرنى بجنة أو بنار][2] .

الحسن بن محمد بن الحنفية . كنيته أبو محمد ، كان المقدم على إخوته ، وكان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه ، قال أيوب السختيانى وغيره : كان أول من تكلم فى الإرجاء ، وكتب فى ذلك رسالة ثم ندم عليها . وقال غيرهم : كان يتوقف فى عثمان وعلى وطلحة والزبير ، فلا يتولاهم ولا يذمهم ، فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ـ ضربه فشجه وقال : ويحك ! ألا تتولى أباك علياً ؟ وقال أبو عبيد : توفى سنة خمس وتسعين ، وقال خليفة : توفى فى أيام عمر بن عبد العزيز ، والله أعلم .

حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وهى أخت عثمان بن عفان لأمه ، وكان حميد فقيهاً نبيلا عالماً ، له روايات كثيرة .

مطرف بن عبد الله بن الشخير . تقدمت ترجمته ، وهؤلاء كلهم لهم تراجم فى كتاب « التكميل » .

وفيها كان موت الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطا مستقصى ولله الحمد . وفيها كان مقتل سعيد بن جبير ـ فى قول على بن المدائنى وجماعة ، والمشهور أنه كان فى سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها : فتح قتيبة بن مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ كاشغر من أرض الصين ، وبعث إلى ملك الصين رسلا يتهدده ويتوعده ، ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم ، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا فى الإسلام . فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم ، وهو فى مدينة عظيمة ، يقال إن عليها تسعين باباً فى سورها المحيط بها ، يقال لها خان بالق ، من أعظم المدن وأكثرها ريعاً ومعاملات وأموالا ، حتى قيل : إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة فى ملك الصين ، والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا فى ملك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم ، وغيرهم محتاج

(١) أى رابحه . (٢) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

إليهم ؛ لما عندهم من المتاع والدنيا المقسمة ، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدى إلى ملك الصين الخراج لقهره وكثرة جنده وعدده . والمقصود أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظمة حصينة [ذات أنهار وأسواق وحسن وبهاء ، فدخلوا عليه فى قلعة عظيمة حصينة][١] بقدر مدينة كبيرة ، فقال لهم ملك الصين : ما أنتم ؟ - وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة - فقال الملك لترجمانه قل لهم : ما أنتم وماتريدون ؟ فقالوا : نحن رسل قتيبة بن مسلم ، وهو يدعوك إلى الإسلام ، فإن لم تفعل فالجزية ، فإن لم تفعل فالحرب . فغضب الملك ، وأمر بهم إلى دار . فلما كان الغد دعاهم فقال لهم : كيف تكونون فى عبادة إلهكم ؟ فصلوا الصلاة على عادتهم ، فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم ، فقال : كيف تكونون فى بيوتكم ؟ فلبسوا ثياب مهنهم ، فأمرهم بالانصراف ، فلما كان من الغد أرسل إليهم فقال : كيف تدخلون على ملوككم ؟ فلبسوا الوَشْى والعمائم والمطارف ، ودخلوا على الملك ، فقال لهم : ارجعوا فرجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى ، وهم أولئك .

فلما كان اليوم الثالث : أرسل إليهم فقال لهم : كيف تلقون عدوكم ؟ فشدُّوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبَيْض ، وتقلدوا السيوف وتنكّبوا القسى وأخذوا الرماح ، وركبوا خيولهم ومضوا . فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مُقبلة ، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوه مشمّرين ، فقيل لهم : ارجعوا - وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم - فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلَجُوا رماحهم ، ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا : ما رأينا كهؤلاء قط . فلما أمسوا بعث إليهم الملك ، ان ابعثوا إلىّ زعيمكم وأمثلكم ، فبعثوا إليه هُبيرة ، فقال له الملك حين دخل عليه : قد رأيتم عِظَم ملكى ، وليس أحد يمنعكم منّى ، وأنتم بمنزلة البيضة فى كفّى ، وأنا سائلك عن أمر ، فإن تصدقنى وإلا قتلتك ، فقال : سل ! فقال الملك : لِمَ صنعتم ما صنعتم من زىّ أول يوم والثانى والثالث ؟ فقال : أما زيُّنا أول يوم فهو لباسنا فى أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم ، وأما ما فعلنا ثانى يوم فهو زيُّنا إذا دخلنا على ملوكنا ، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم فانصرفوا إلى صاحبكم - يعنى قتيبة - وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادى ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم .

فقال له هُبيرة : تقول لقتيبة هذا ؟ ! فكيف يكون قليل الأصحاب مَن أوّلُ خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها ، وغزاك فى بلادك ؟

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ .

وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فإنا نعلم أن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها عندنا القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه . فقال الملك : فما الذى يُرضى صاحبكم ؟ فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك ويختم ملوكك ويجبى الجزية من بلادك ، فقال : أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضى ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثيابا صينية لا تقوّم ولا يدرى قدرها ، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة ، ثم اتفق الحال على أن بعث صحافا من ذهب منسمة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة ، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم ، وبعث بمال جزيل ليبر بيمين قتيبة ، وقيل : إنه بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك .

فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قَبِل ذلك منه ، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، فانكسرت همته لذلك ، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلى ، على ترك مبايعة سليمان بن عبد الملك ، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر . ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك ، ثم قتل فى آخر هذه السنة رحمه الله تعالى ، فإنه يقال : إنه ما كسرت له راية ، وكان من المجاهدين فى سبيل الله ، واجتمع له من العساكر مالم يجتمع لغيره . وفيها : غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة ، وغزا العباس بن الوليد الروم ، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم .

وفيها : تكامل بناء الجامع الأموى بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ابن مروان ـ رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ، وكان أصل موقع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق ، وهم الذين وضعوها وعمروها أولا ، فهم أول من بناها وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، وهى القمر فى السماء الدنيا ، وعطارد فى السماء الثانية ، والزهرة فى السماء الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة وزحل فى السابعة . وقد كانوا صوروا على كل باب من أبواب دمشق ـ هيكلا لكوكب من هذه الكواكب السبعة ، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، فنصبوا هيا كل سبعة لكل كوكب هيكل ، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد فى السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد ، وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها ، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وصرفوه أنهاراً تجرى إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة ، وسلكوا الماء فى أفناء أبنية الدور بدمشق .

فكانت دمشق فى أيامهم من أحسن المدن ، بل هى أحسنها ، لما فيها من التصاريف العجيبة ، وبنوا هذا المعبد ـ وهو الجامع اليوم ـ فى جهة القطب ، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالى ، وكانت محاريبهم إلى جهته ، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة ، خلف المحراب اليوم ، كما شاهدنا ذلك عياناً ، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب ، ورأينا الباب ـ وهو باب حسن ـ مبنى بحجارة منقوشة ، وعليه كتاب بخطهم ، وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه ، وكان غربى المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الأعمدة التى بباب البريد ، وشرقى المعبد قصر جيرون الملك ، الذى كان ملكهم ـ وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يتملك دمشق قديماً منهم ، ويقال : إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة للملوك ، ويحوط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف ، بحجارة كبار منحوتة ، وهن : دار المطبق ، ودار الخيل ، ودار كانت تكون مكان الخضراء التى بناها معاوية .

قال ابن عساكر ـ فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل : إن اليونان مكثوا يأخذون الطالع لبناء دمشق ، وهذه الأماكن ثمانى عشرة سنة ، وقد حفروا أساس الجدران حتى واتاهم الوقت الذى طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لا يخرب أبداً ، ولا تخلو منه العبادة ، وأن هذه الدار إذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة . قلت : أما المعبد فلم يخل من العبادة . قال كعب الأحبار : لا يخلو منها حتى تقوم الساعة ، وأما دار الملك التى هى الخضراء ، فقد جدد بناءها معاوية ، ثم أحرقت فى سنة إحدى وستين وأربعين ، كما سنذكره ، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم فى الغالب إلى زماننا هذا .

والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التى ذكرناها بدمشق مدداً طويلة ، تزيد على أربعة آلاف سنة ، حتى إنه يقال : إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة ـ هود عليه الصلاة والسلام ، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شماليها عند بَرْزه ، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم ، ونصره الله عليهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند بَرْزة ، فهذا المكان المنسوب إليه بها ـ منصوص عليه فى الكتب المتقدمة ، يأثرونه كابراً عن كابر ، وإلى زماننا ، والله أعلم .

وكانت ـ دمشق إذ ذاك ـ عامرة آهلة بمن فيها من اليونان ، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، وهم خصماء الخليل ، وقد ناظرهم الخليل فى عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها فى غير موضع ، كما قررنا ذلك فى التفسير ، وفى قصة الخليل من كتابنا هذا « البداية والنهاية » ، ولله الحمد ، وبالله المستعان.

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ، ويبنون فيها ، وفى معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبعلبك وغيرها ـ البنايات الهائلة الغريبة العجيبة ، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة، تنصر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين ، الذى بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم ، وهى القسطنطينية وهو الذى وضع لهم القوانين ، وقد كان أولا هو وقومه ، وغالب أهل الأرض يونانا ، ووضعت له بطاركته النصارى ديناً مخترعاً مركباً من أصل دين النصرانية ، ممزوجاً بشىء من عبادة الأوثان ، وصلوا به إلى الشرق ، وزادوا فى الصيام ، وأحلوا الخنزير ، وعلّموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون ، وإنما هى فى الحقيقة خيانة كبيرة ، وجناية كثيرة حقيرة ، وهى مع ذلك فى الحجم صغيرة . وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه . فبنى لهم هذا الملك الذى ينتسب إليه الطائفة الملكية من النصارى ، كنائس كبيرة فى دمشق وفى غيرها ، حتى يقال : إنه بنى اثنتى عشرة ألف كنيسة ، وأوقف عليها أوقافاً دارّة ؛ من ذلك: كنيسة بيت لحم ، وقمامة فى القدس ، بنتها أم هيلانة الفندقانية ، وغير ذلك .

والمقصود : أنهم ـ يعنى النصارى ـ حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظماً عند اليونان، فجعلوه كنيسة يوحنا ، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة ، واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة ، حتى بعث الله محمداً ﷺ ؛ فكان من شأنه ما تقدم بعضه فى كتاب السيرة من هذا الكتاب وقد بعث إلى ملك الروم فى زمانه ـ وهو قيصر ذلك الوقت ـ واسمه هرقل ، يدعوه إلى الله عز وجل ، وكان من مراجعته ومخاطبته إلى أبى سفيان ما تقدم ، ثم بعث أمراءه الثلاثة : زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ـ إلى البلقاء من تخوم الشام ، فبعث الروم إليهم جيشاً كبيراً ، فقتلوا هؤلاء الأمراء ، وجماعة ممن معهم من الجيش ، فعزم النبى ﷺ على قتال الروم ، ودخول الشام عام تبوك ، ثم رجع عام ذلك لشدة الحر وضعف الحال ، وضيقه على الناس .

ثم لما توفى بعث الصديق الجيوشَ إلى الشام بكمالها ، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها ، وقد بسطنا القول فى ذلك عند ذكر فتحها .

فلما استقرت اليد الإسلامية عليها ، وأنزل الله رحمته فيها ، وساق برّه إليها ، وكتب أمير الحرب أبو عبيدة إذ ذاك ـ وقيل : خالد بن الوليد ـ لأهل دمشق كتاب أمان ، أقروا أيدى النصارى على أربع عشرة كنيسة ، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة مريحنا ، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقى بالسيف ، وأخذت النصارى الأمان من أبى عبيدة ، وكان على باب الجابية الصلح ، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد

صلحاً ونصفه عنوة ؛ فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي ، فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلي فيه المسلمون ، وكان أول من صلى في هذا المسجد ـ أبو عبيدة ، ثم الصحابة بعده في البقعة الشرقية منه ، التي يقال لها محراب الصحابة . ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محنى ، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة والظاهر أن الوليد هو الذي فتق المحاريب في الجدار القبلي .

[قلت : هذه المحاريب متعددة ليست من فتق الوليد ، وإنما فتق الوليد محراباً واحداً ، إن كان قد فعل ، ولعله لم يفعل شيئاً منها ، فكان يصلي فيه الخليفة ، وبقيتها اتفقت قريباً ، لكل إمام محراب ؛ شافعي ، وحنفي ، ومالكي ، وحنبلي ، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان][1] .

وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحاريب ، وجعلوه من البدع المحدثة ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد ، وهو باب المعبد الأصلي من جهة القبلة ، مكان المحراب الكبير الذي في المقصورة اليوم ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم ، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم ، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربوا بناقوسهم ؛ إجلالا للصحابة ومهابة وخوفاً .

وقد بنى معاوية في ولايته على الشام ـ دار الإمارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة ، وبنى فيها قبة خضراء ، فعرفت الدار بكمالها بها ، فسكنها معاوية أربعين سنة ، كما قدمنا . ثم لم يزل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة ـ شطرين بين المسلمين والنصارى ، من سنة أربع عشرة ، إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبدالملك في شوال منها ، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة ، وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها ، وجعل الجميع مسجداً واحداً ؛ وذلك لأن بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى للإنجيل ، ورفع أصواتهم في صلواتهم ، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين ، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا ، فيصير كله معبداً للمسلمين ، ويتسع المسجد لكثرة المسلمين ، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان ، ويعوضهم إقطاعات كثيرة ، وعرضها عليهم ، وأن يبقى بأيديهم أربع كنائس لم تدخل في العهد ، وهي : كنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة داخل باب شرقي ، وكنيسة تل الجبن ، وكنيسة حميد بن درة التي بدرب الصقل ، فأبوا ذلك أشد الإباء ، فقال : ائتوني بعهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة ، فأتوا بها ، فقرئت بحضرة الوليد ، فإذا كنيسة توما ـ التي كانت خارج باب توما على حافة النهر ـ لم تدخل في العهد ، وكانت

---

(١) ما بين القوسين زيادة في بعض النسخ .

فيما يقال — أكبر من كنيسة مريحنا، فقال الوليد : أنا أهدمها وأجعلها مسجداً ، فقالوا : بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ، ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة ، فأقرهم على تلك الكنائس ، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة . هذا قول .

ويقال : إن الوليد لما أهمه ذلك ، وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله ، دخل عليه بعض الناس ، فأرشده إلى أن يقيس من باب شرقي ومن باب الجابية ، فوجدوا أن الكنيسة قد دخلت في العنوة ، وذلك أنهم قاسوا من باب شرقي ، ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عند سوق الريحان تقريباً ، فإذا الكنيسة قد دخلت في العنوة ، فأخذها .

وحكى عن المغيرة — مولى الوليد — قال : دخلت على الوليد فوجدته مهموماً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين مهموماً ؟ فقال : إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد ، فأحضرت النصارى وبذلت لهم الأموال في بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين ! عندي ما يزيل همك ، قال . وما هو ؟ قلت : الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب شرقي بالسيف ، فلما سمع أهل البلد بذلك فزعوا إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان فأمنهم ، وفتحوا له باب الجابية ، فدخل منه أبو عبيدة بالصلح ، فنحن نماسحهم إلى أي موضع بلغ السيف أخذناه ، وما بالصلح تركناه بأيديهم ، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها في العنوة ، فتدخل في المسجد فقال الوليد : فرجت عني ، فتول أنت ذلك بنفسك ، فتولاه المغيرة ومسح من الباب الشرقي إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان ، فوجد السيف لم يزل عمالا حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربع أذرع وكسر ، فدخلت الكنيسة في المسجد ، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال : إن هذه الكنيسة كلها دخلت في العنوة فهي لنا دونكم ، فقالوا : إنك أولا دفعت إلينا الأموال وأقطعتنا الإقطاعات فأبينا ، فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصالحنا ، فيبقى لنا هذه الكنائس الأربع بأيدينا ، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة ، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس ، والله أعلم .

وقيل : إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخله ، فسموها مريحنا باسم تلك الكنيسة التي أخذت منهم ، وأخذوا شاهدها ، فوضعوه فوق التي أخذوها بدلها ، فالله أعلم .

ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء ، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن ، فقال الوليد : أنا أحب أن أجن في الله ، ووالله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي ، ثم صعد المنارة

الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنزول منها ، فأكبر الراهب ذلك ، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صعد الوليد على أعلى مكان فى الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها ، الذى يسمونه الشاهد ، وهو تمثال فى أعلى الكنيسة ، فقال له الرهبان : احذر الشاهد ، فقال: أنا أول ما أضع فأسى فى رأس الشاهد، ثم كبر وضربه فهدمه ، وكان على الوليد قباء أصفر لونه سفرجلىٌّ قد غرز أذياله فى المنطقة ، ثم أخذ فأساً بيده فضرب بها فى أعلى حجر فألقاه ، فتبادر الأمراء إلى الهدم ، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون، وكانوا قد اجتمعوا هنالك ، فأمر الوليد أمير الشرطة ـ وهو أبو نائل رياح الغسانى ـ أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك ، ففعل ذلك ، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى فى تربيع هذا المعبد من المذابح والأبنية والحنايا ، حتى بقى المكان صرحة مربعة ، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة ، التى لم يشتهر مثلها قبلها ـ كما سنذكره .

وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة ، وكان المستحث على عمارته أخوه وولىّ عهده من بعده ـ سليمان بن عبد الملك ، ويقال : إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعاً فى الرخام وغير ذلك ؛ ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخربن كل كنيسة فى بلاده ، حتى كنيسة القدس ، وهى قُمامة ، وكنيسة الرّها ، وسائر آثار الروم ، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جداً ؛ مائتى صانع ، وكتب إليه يقول : إن كان أبوك فهم هذا الذى تصنعه وتركه فإنه لوصْمة عليك ، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه . فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك ، واجتمع الناس عنده لذلك فكان فيهم الفرزدق الشاعر ، فقال : أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله . قال الوليد : وما هو ؟ ويحك ! فقال : قال الله تعالى : (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)(١) ، وسليمان هو ابن داود ، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه . فأعجب ذلك الوليد ، فأرسل به جواباً إلى ملك الروم . وقد قال الفرزدق فى ذلك :

فرقت بين النصارى فى كنائسهم ... والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم جميعاً إذا صلّوا وأوجههم ... شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه ... أهل الصليب مع القرّاء لم تنم
فهمت تحويلها عنهم كما فهما ... إذا يحكمان لهم فى الحرث والغنم

---

(١) من الآية : ٧٩ من سورة الأنبياء .

داود والملك المهدى إذا جزآ ولادها واجتزاز الصوف بالجلم
فهمك الله تحـــويلا لبيعتهم عن مسجد فيه يتلى طيب الكلم
ما من أب حملته الأرض نعلمه خيرٌ بنين ولا خيرٌ من الحكم

قال الحافظ ـ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقى : بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد فى سمك الحيطان . وقال الحسن بن يحيى الخشنى : إن هوداً عليه السلام هو الذى بنى الحائط القبلى من مسجد دمشق . وقال غيره : لما أراد الوليد بناء القبة التى وسط الرواقات ـ وهى قبة النسر وهو اسم حادث لها ، وكأنهم شبهوها بالنسر فى شكله ، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها ـ حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذباً زلالا ، ثم إنهم وضعوا فيه زبادة الكرم ، وبنوا فوقها بالحجارة ، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت ، فقال الوليد لبعض المهندسين : أريد أن تبنى لى أنت هذه القبة ، فقال : على أن تعطينى عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيها أحد غيرى ، ففعل . فبنى الأركان ثم غلفها بالبوارى ، وغاب عنها سنة كاملة لا يدرى الوليد أين ذهب ، فلما كان بعد السنة حضر ، فهمّ به الوليد فأخذه ومعه رءوس الناس ، فكشف البوارى عن الأركان فإذا هى قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض ، فقال له : من هذا أتيت ، ثم بناها فانعقدت .

وقال بعضهم : أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له المعمار : إنك لا تقدر على ذلك ، فضربه خمسين سوطاً ، وقال له : ويلك ! أنا لا أقدر على ذلك وتزعم أنى أعجز عنه ؟ وخراج الأرض وأموالها تجبى إلى ؟ قال : نعم ، أنا أبين لك ذلك ، قال : فبين ذلك ، قال : اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك ، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما ضرب منه لبنة ، فإذا هى قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألف لبنة ، فإن كان عندك ما يكفى من ذلك عملناه ، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً ، وقال : إنى لا أعجز عما قلت ، ولكن فيه إسراف وضياع مال فى غير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة فى سبيل الله ، ورداً على ضعفاء المسلمين ـ خير من ذلك . ثم عقدها على ما أشار به المعمار .

ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات ، وباطنها مسطحا مقرنصاً بالذهب ، فقال له بعض أهله : أتعبت الناس بعدك فى طين أسطحتهم ، لما يريد هذا المسجد فى كل عام من الطين الكثير ـ يشير إلى أن التراب يغلو والفعلة تقل لأجل العمل فى هذا المسجد فى كل عام ـ فأمر الوليد أن يجمع ما فى بلاده من الرصاص ليجعله عوض الطين ، ويكون أخف على السقوف . فجمع

من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم ، فمازوا فإذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة ، فساوموها فيه ، فقالت : لا أبيعه إلا بوزنه فضة ، فكتبوا إلى الوليد ، فقال : اشتروه منها ولو بوزنه فضة ، فلما بذلوا لها ذلك قالت : أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله يكون فى سقف هذا المسجد ، فكتبوا على ألواحها بطابع « لله » . ويقال : إنها كانت إسرائيلية ، وإنه كتب على الألواح التى أخذت منها : هذا ما أعطته الإسرائيلية .

وقال محمد بن عائذ : سمعت المشايخ يقولون : ما تم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة ، لقد كان يفضل عند الرجل من القوم ، أو الفلقة الفَلس ورأس المسمار ، فيأتى به حتى يضعه فى الخزانة .

وقال بعض مشايخ الدماشقة : ليس فى الجامع من الرخام شىء إلا الرخامتان اللتان فى المقام من عرش بلقيس ، والباقى كله مَرْمَر .

وقال بعضهم : اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر ، من حرب ابن خالد ابن يزيد بن معاوية ـ بألف وخمسمائة دينار .

وقال دُحَيم ، عن الوليد بن مسلم : ثنا مروان بن جناح ، عن أبيه قال : كان فى مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم .

وقال أبو قصى ، عن دُحَيم ، عن الوليد بن مسلم ، عن عمرو بن مهاجر الأنصارى : إنهم حسبوا ما أنفقه الوليد على الكرمة[1] التى فى قبلى المسجد ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق فى مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب ، فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار . وفى رواية : فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار .

قلت : فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف ألف دينار ، وستمائة ألف دينار . وعلى الثانى يكون المصروف فى عمارة الجامع الأموى أحد عشر ألف ألف دينار ، ومائتى ألف دينار . وقيل : إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ، والله أعلم .

قال أبو قصى : وأتى الحرسى إلى الوليد فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يقولون : أنفق أمير المؤمنين بيوت الأموال فى غير حقها . فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد الوليد المنبر وقال : إنه بلغنى عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال فى غير حقها ، ثم قال :

---

(١) هى فسيفساء على هيئة الكرم مؤلفة من قطع صغيرة من الزجاج المربع ، مبطن بالذهب أو الألوان ، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١٠ هـ ، ويوجد قريب منها فى قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم .

يا عمرو بن مُهاجر ! قم فأحضر أموال بيت المـال ، فحملت على البغال إلى الجامع ، ثم بسط لها الأنطاع تحت قُبّة النسر ، ثم أفرغ عليها المـال ذهباً صبيباً ، وفضة خالصة ، حتى صارت كوماً ، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، وهذا شيء كثير ، ثم جيء بالقبانين ، فوزنت الأموال ، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة . وفي رواية : ست عشرة سنة مستقبلة ، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المـال ، وإنما هذا كله من مالي . ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين . فقال لهم الوليد : يا أهل دمشق ! والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد شيئاً من بيوت المـال ، وإنما هذا كله من مالي ، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً .

ثم قال الوليد : يا أهل دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع : بهوائكم ، ومائكم ، وفاكهتكم ، وحماماتكم ! فأحببت أن أزيدكم خامسة ، وهي هذا الجامع .

وقال بعضهم : كان في قبلة جامع دمشق ـ ثلاث صفائح مُذهبة بلازورد ، في كل منها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُـذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ) ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الإسلام ، ونبينا محمد ﷺ . أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه ـ عبدالله أمير المؤمنين الوليد ، في ذي القعدة سنة ست وثمانين . وفي صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفائح : الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم ـ إلى آخر الفاتحة ، ثم عبس ، ثم إذا الشمس كورت ، قالوا : ثم محيت بعد مجيء المأمون إلى دمشق . وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات ، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، قد صوروا بها سائر البلدان المشهورة ؛ الكعبة فوق المحراب ، وسائر الأقاليم يمنة ويسرة . وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة ، وغير ذلك ، وسقفه مقرنص[1] بالذهب ، والسلاسل المعلقة فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع في أماكنه مفرقة .

قال : وكان في محراب الصحابة برنية[2] حجر من بلور ، ويقال : بل كانت حجراً من جوهر ، وهي الدرة ، وكانت تسمى القليلة ، وكانت إذا طفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها ،

---

(١) مصنوع على هيئة السلم . (٢) البرنية : إناء من خزف .

فلما كان زمن الأمين بن الرشيد ـ وكان يحب البلور ، وقيل : الجوهر ـ بعث إلى سليمان والى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه ، فسرقها الوالى خوفاً من الناس وأرسلها إليه ، فلما ولى المأمون ردّها إلى دمشق ليشنع بذلك على الأمين . قال ابن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها بَرْنيَّة من زجاج . قال : وقد رأيت تلك البَرْنيَّة ، ثم انكسرت بعد ذلك ، فلم يجعل مكانها شيء . قالوا : وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مُرْخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التى فوقها الفصوص المذهبة ، ورءوس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به ، وبنى الوليد المنارة الشمالية التى يقال لها : مأذنة العروس . فأما الشرقية والغربية فكانتا فيه قبل ذلك بدهور متطاولة .

وقد كان فى كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً ، بنتها اليوناز للرصد ، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان ، وبقيت القبليتان إلى الآن ، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة ، فنقضت وجدّد بناؤها من أموال النصارى ، حيث اتهموا بحريقها ، فقامت على أحسن الأشكال ، بيضاء بذاتها ، وهى ـ والله أعلم ـ الشرقية التى ينزل عليها عيسى بن مريم فى آخر الزمان بعد خروج الدجال ، كما ثبت ذلك فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان .

[قلت : ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجدّدت ، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها فى آخر السبعين وسبعمائة ، فصارت كلها مبنية بالحجارة](١) .

والمقصود أن الجامع الأموى لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ، ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه ، أو إلى جهة منه ، أو إلى بقعة ، أو مكان منه ـ تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره ، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان ، فلا يدخل هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية ؛ لا من الحيات ، ولا من العقارب ، ولا الخنافس ، ولا العناكيب ، ويقال : ولا العصافير أيضاً تعشش فيه ، ولا الحمام ، ولا شيء مما يتأذى به الناس . وأكثر هذه الطلسمات أو كلها ـ كانت مودعة فى سقف هذا المعبد ، مما يلى السبع ، فأحرقت لما أحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فى دولة الفاطميين ، كما سيأتى ذلك فى موضعه . وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا ، والله أعلم .

(١) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

فمن ذلك : العمود الذى فى رأسه مثل الكرة فى سوق الشعير عند قنطرة أم حكيم ، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبيين ؛ ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسر بول الحيوان ، فإذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال ، وذلك مجرب من عهد اليونان.

[قال ابن تيمية عن هذا العمود : إن تحته مدفون جبار عنيد ، كافر يعذب ، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراث وبال من الخوف ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار ، فإذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها . والعمود المشار إليه ليس له سر ، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة ، فقد أخطأ خطأ فاحشا . وقيل: إن تحته كنزا وصاحبه عنده مدفون ، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى: (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)[1] والله سبحانه وتعالى أعلم][2] .

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل فى تكملة الجامع الأموى بعد موت أخيه مدة ولايته ، وجددت له فيه المقصورة ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرده مما فيه من الذهب ، ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء ، ويرد ذلك كله إلى بيت المال ، ويجعل مكان ذلك كله طينا ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه ، وقال خالد بن عبد الله القسرى : أنا أكلمه لكم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! بلغنا عنك كذا وكذا ، قال : نعم ! فقال خالد : ليس ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ولم يا ابن الكافرة ؟ - وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد - فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة ، فقد ولدت رجلا مؤمنا ، فقال : صدقت ، واستحيا عمر ، ثم قال له : فلم قلت ذلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم ، وليس هو لبيت المال ، فأطرق عمر .

قالوا : واتفق فى ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلا من عند ملكهم ، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذى تحت النسر ، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر ، والزخرفة التى لم يسمع بمثلها - صعق كبيرهم وخر مغشيا عليه ، فحملوه إلى منزلهم ، فبقى أياما مدنفا ، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت أظن أن يبنى المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : أو إن الغيظ أهلك الكفار ، دعوه . وسألت النصارى فى أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلسا فى شأن ما كان أخذه الوليد منهم ، وكان عمر عادلا ، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه

(١) من الآية : ٣٧ من سورة المؤمنون . (٢) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ .

الوليد منهم ، فأدخله فى الجامع ، ثم حقق عمر القضية ، ثم نظر ، فإذا الكنائس التى هى خارج البلد لم تدخل فى الصلح الذى كتبه لهم الصحابة ، مثل كنيسة دير مران بسفح قاسيون ، وهى بقرية المعظمية ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما خارج باب توما ، وسائر الكنائس التى بقرى الحواجز . فخيرهم بين رد ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها ، أو تبقى تلك الكنائس ، ويطيبوا نفساً للمسلمين بهذه البقعة ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس ، ويكتب لهم كتاب أمان بها ، ويطيبوا لنا نفساً بهذه البقعة ، فكتب لهم أمان بها .

والمقصود أن الجامع الأموى كان حين تكامل بناؤه ــ ليس له فى الدنيا مثيل فى حسنه وبهجته ، قال الفرزدق : أهل دمشق فى بلادهم فى قصر من قصور الجنة ــ يعنى الجامع . وقال أحمد بن أبى الحوارى ، عن الوليد بن مسلم ، عن ابن ثوبان : ما ينبغى لأحد من أهل الأرض أن يكون أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ؛ لما يرون من حسن مسجدها . قالوا : ولما دخل أمير المؤمنين المهدى دمشق ــ يريد زيارة القدس ــ نظر إلى جامع دمشق ، فقال لكاتبه أبى عبيد الله الأشعرى : سبقنا بنو أمية بثلاث : بهذا المسجد الذى لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبنبل الموالى ، وبعمر بن عبد العزيز ؛ لا يكون والله فينا مثله أبداً . ثم لما أتى بيت المقدس ، فنظر إلى الصخرة ــ وكان عبد الملك بن مروان هو الذى بناها ــ قال لكاتبه : وهذه رابعة . ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها ، وكان معه أخوه المعتصم ، وقاضيه يحيى بن أكثم ، قال : ما أعجب ما فيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهاب التى فيه ، وقال يحيى بن أكثم : الرخام وهذه العقد ، فقال المأمون : إنى إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم ثم قال المأمون لقاسم التمار : أخبرنى باسم حسن أسمى به جاريتى هذه ، فقال : سمها مسجد دمشق ، فإنه أحسن شىء . وقال عبد الرحمن عن ابن عبد الحكم عن الشافعى قال : عجائب الدنيا خمسة : إحداها منارتكم هذه ــ يعنى منارة ذى القرنين باسكندرية ، والثانية أصحاب الرقيم ــ وهم بالروم اثنا عشر رجلا ، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها ، يجلس الرجل تحتها ، فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ ، وقيل ينظر من بالقسطنطينية ، والرابعة مسجد دمشق ، وما يوصف من الإنفاق عليه . والخامسة الرخام والفسيفساء ، فإنه لا يدرى لها موضع ، ويقال : إن الرخام معجون ، والدليل على ذلك أنه يذوب على النار .

قال ابن عساكر : وذكر إبراهيم بن أبى الليث الكاتب ــ وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ــ فى رسالة له ، قال : ثم أمرنا بالانتقال ، فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين سعيت

رأيت منظراً عجيباً ، وإن أفضيت إلى جامعه شاهدت منه ما ليس فى استطاعة الوصف أن يصفه ، ولا الرائى أن يعرفه . وجملته أنه كنز الدهر ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الأوقات ، ولقد أثبت الله عز وجل به ذِكراً يدرس ، وخلف به أمراً لا يخفى ولا يدرس قال ابن عساكر : وأنشدنى بعض المحدثين فى جامع دمشق ـ عمره الله بذكره ـ وفى دمشق فقال :

دمشق قد شاع حسن جامعها وما حوته رُبى مرابعها
بديعة الحسن فى الكمال لما يدركه الطرف من بدائعها
طيبة أرضها مباركة باليمن والسعد أخذ طالعها
جامعها جامع المحاسن قد فاقت به المدن فى جوامعها
بنية بالاتقان قد وضعت لا ضيع الله سعى واضعها
تذكر فى فضله ورفعته آثار صدق راقت لسامعها
قد كان قبل الحريق مدهشة فغيرت ناره بلاقعها
فأذهبت بالحريق بهجته فليس يرجى إياب راجعها
إذا تفكرت فى الفصوص وما فيها تيقنت حذق راصعها
أشجارها لا تزال مثمرة لا ترهب الريح من مدافعها
كأنها من زمرد غرست فى أرض تبر تغشى بنافعها
فيها ثمار تخالها ينعت وليس يخشى فساد يانعها
تقطف باللحظ لا بجارحة الا أيدى ولا تجتنى لبايعها
وتحتها من رخامة قطع لا قطع الله كف قاطعها
أحكم ترخيمها الرخم قد بان عليها إحكام صانعها
وإن تفكرت فى قناطره وسقفه بان حذق رافعها
وإن تبينت حسن قبته تحير اللب فى أضالعها
تخترق الريح فى منافذها عصفا فتلتوى على زعازعها
وأرضه بالرخام قد فرشت ينفسح الطرف فى مواضعها
مجالس العلم فيه مؤنقة ينشرح الصدر فى مجامعها
وكل باب عليه مطهرة قد أمن الناس دفع مانعها
يرتفق الناس من مرافقها ولا يصدون عن منافعها
ولا تزال المياه جارية فيها لما شق من مشارعها

وسوقها لا تزال أهلة يزدحم الناس فى شوارعها
لما يشاءون من فواكهها وما يريدون من بضائعها
كأنها جنـــة معجلة فى الأرض لولا مسرى لجائعها
دامت برغم العدى مسلمة وحاطها الله من قوارعها

فصل

فيما روى فى جامع دمشق من الآثار ، وما ورد فى فضله من الأخبار
عن جماعة من السادة الأخيار

روى عن قتادة أنه قال فى قوله تعالى (وَالتِّينِ)[1] قال : هو مسجد دمشق (والزَّيْتُونِ) قال : هو مسجد بيت المقدس (وَطُورِ سِينِينَ) : حيث كلم الله موسى (وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ)[1] : وهو مكة . رواه ابن عساكر .

وقال صفوان بن صالح ، عن عبد الخالق بن زيد بن واقد ، عن أبيه ، عن عطية بن قيس الكلابى قال : قال كعب الأحبار : ليبنين فى دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً .

وقال الوليد بن مسلم ، عن عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن زيد ، عن القاسم أبى عبد الرحمن قال : أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون ، أن هَب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس ، قال : ففعل ، فأوحى الله إليه : أما إذا فعلت فإنى سأبنى لى فى خطتك بيتاً أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ، ولا تذهب الأيام والليالى حتى أرد عليك ظلك وبركتك . قال : فهو عند الله بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع .

وقال دُحَيم : حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلى فوق ، فهو من بناء الوليد بن عبد الملك ـ يعنى أنه رفع الجدار فعلاه من حد الرخام والكرمة إلى فوق ـ . وقال غيره : إنما بنى هود الجدار القبلى فقط . ونقل عثمان بن أبى العاتكة ، عن أهل العلم ، أنهم قالوا فى قوله تعالى (وَالتِّينِ) قالوا : هو مسجد دمشق .

وقال أبو بكر ، أحمد بن عبد الله بن الفرج ـ المعروف بابن البرامى ، الدمشقى : ثنا إبراهيم بن مروان ، سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول : سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القُربان ، فما تقبل منه

---

(١) الآيات : ١ ـ ٣ من سورة التين

جاءت نار فأكلته ، ومالم يتقبل منه بقى على حاله . قلت : وهذه الصخرة نقلت إلى داخل باب الساعات ، وهى موجودة إلى الآن ، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التى وضع عليها ابنا آدم قربانهما ، فتُقُبِّل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، فالله أعلم .

وقال هشام بن عمار : ثنا الحسن بن يحيى الحسنى ، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به « صلى فى موضع مسجد دمشق » قال ابن عساكر : وهذا منقطع ومنكر جداً ، ولا يثبت أيضاً لا من هذا الوجه ، ولا من غيره .

وقال أبو بكر البرامى : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقرى ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوّام ليلة من الليالى فقال : إنى أريد أن أصلى الليلة فى المسجد ، فلا تتركوا أحداً يصلى الليلة ، فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين ! هذا الخضر يصلى فى المسجد فى كل ليلة . وفى رواية ، أنه قال لهم : لا تتركوا أحداً يدخله . ثم إن الوليد أتى باب الساعات ، فاستفتح الباب ، ففتح له ، فإذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذى يلى المقصورة ـ يصلى ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال الوليد للقوّام: ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلى فى المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين ! هذا الخضر يصلى كل ليلة فى المسجد » . فى إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر ، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالحكاية ، ولا صلاته فى المكان المذكور ، والله أعلم .

وقد اشتهر فى الأعصار المتأخرة ، أن الزاوية القبلية عند باب المأذنة الغربية ـ تسمى زاوية الخضر ، وما أدرى ما سبب ذلك . والذى ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه ، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التى صلوا فيها ، وأول من صلى فيه إماماً ـ أبو عبيدة بن الجراح . وهو أمير الأمراء بالشام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمين هذه الأمة . وصلى فيه خلق من الصحابة مثل : معاذ بن جبل وغيره ، لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة ، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل ، فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ؛ فإنه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى فيه الوليد ، فصلى فيه أنس ورأى الوليد ، وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها ، كما قدمنا ذلك فى ترجمة أنس ، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين .

وسيصلى فيه عيسى بن مريم إذا نزل فى آخر الزمان ، إذا خرج الدجال وعمّت البلوى به ، وانحصر الناس منه بدمشق ، فينزل مَسيحُ الهدى فيقتل مَسيح الضلالة ، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر ، فيأتى وقد أقيمت الصلاة ، فيقول له إمام الناس : تقدم يا روحَ الله ، فيقول : إنما أقيمت لك ، فيصلى عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة ، يقال : إنه المهدى ، فالله أعلم .

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدّجال عند عقبة أفيق ، وقيل بباب لُدّ ـ فيقتله بيده هنالك .

وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ)(١) ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام » .

والمقصود : أن عيسى ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، والبلد محصور محصن من الدّجال ، فينزل على المنارة ـ وهى هذه المنارة المبنية فى زماننا من أموال النصارى ـ ثم يكون نزول عيسى حتفاً لهم وهلاكاً ودماراً عليهم ، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما ، وعليه مَهْرُودَتَان ، وفى رواية مُمَصَّرتان(٢) يقطر رأسه ماء كأنما خرج من ديماس(٣) ، وذلك وقت الفجر ، فينزل على المنارة ، وقد أقيمت الصلاة ، وهذا إنما يكون فى المسجد الأعظم بدمشق ، وهو هذا الجامع . وما وقع فى صحيح مسلم من رواية النواس بن سمعان الكلابى : فينزل على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، كأنه ـ والله أعلم ـ مروى بالمعنى بحسب ما فهمه الراوى ، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، وقد أخبرت ـ ولم أقف عليه إلى الآن ـ أنه كذلك ، فى بعض ألفاظ هذا الحديث ، فى بعض المصنفات ، والله المسئول المأمول أن يوقفنى على هذه اللفظة ، وليس فى البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه ، وهى بيضاء بنفسها ، ولا يعرف فى بلاد الشام منارة أحسن منها ، ولا أبهى ولا أعلى منها ، ولله الحمد والمنة .

[قلت : نزول عيسى على المنارة التى بالجامع الأموى غير مستنكر ، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم فينحصر الناس داخل البلد ، ويحصرهم الدجال بها ، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعاً للدّجال ، أو مأسوراً معه ، فإن دمشق فى آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدّجال ، فإذا كان الأمر كذلك ، فمن يصلى خارج البلد ، والمسلمون كلهم داخل البلد ، وعيسى إنما ينزل ، وقد أقيمت الصلاة فيصلى مع المسلمين ، ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقتله ؟ وبعض العوام يقول : إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق ، منارة مسجد بلاشو ، خارج باب شرقى . وبعضهم يقول : إنها المنارة التى على نفس باب شرقى ، فالله أعلم بمراد رسول الله ﷺ ، وهو سبحانه العالم بكل شىء ، المحيط بكل شىء ، القادر على كل شىء ، القاهر فوق كل شىء ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض](٤) .

---

(١) من الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٢) المصرة من الثياب : التى فيها صفرة خفيفة . (٣) الديماس : الحمام .

(٤) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ .

الكلام على ما يتعلق برأس يحي بن زكريا عليهما السلام

وروى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال : وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك ، فلما كان الليل وافانا وبين يديه الشمع ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتح الصندوق فإذا فيه سَفط ، وفي السَفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام . مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكريا ، فأمر به الوليد فرد إلى مكانه ، وقال : اجعلوا العمود الذى فوقه مغيراً من بين الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسفّط[1] الرأس ، وفي رواية عن زيد بن واقد ، أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبة ـ يعني قبل أن تبنى ـ قال : وكان على الرأس شعر وبشر . وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : حضرت رأس يحيى بن زكريا ، وقد أخرج من اللّيطة[2] القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة ، فوضع تحت عمود الكاسة ، قال الأوزاعى والوليد بن مسلم : هو العمود الرابع المسفط .

وروى أبو بكر بن البرامى عن أحمد بن أنس بن مالك ، عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعبانيين ، عن سفيان الثورى أنه قال : صلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا غريب جداً . وروى ابن عساكر من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع ـ مولى أم عمرو بنت مروان ، عن أبيه ـ وفي رواية عن رجل قد سماه ـ أن واثلة ابن الأسقع ، خرج من باب المسجد الذى يلي باب جيرون ، فلقيه كعب الأحبار فقال : أين تريد ؟ قال واثلة : أريد بيت المقدس ، فقال : تعال أريك موضعاً في المسجد من صلى فيه ، فكأنما صلى في بيت المقدس ، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصغر الذى يخرج منه الوالي ـ يعني الخليفة ، إلى الحنية ـ يعني القنطرة الغربية ـ فقال : من صلى فيما بين هذين فكأنما صلى في بيت المقدس ، فقال واثلة : إنه لمجلسي ومجلس قومي . قال كعب : هو ذاك . وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ، ولا يعتمد على مثله .

وعن الوليد بن مسلم قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحا من حجر فيه كتاب نقش ، فبعثوا به إلى الوليد ، فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأسبان فلم يستخرجوه ، فدل على وهب ابن مَنَبِّه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح ، فوجدوه في ذلك الحائط ـ ويقال ذلك الحائط بناه هود عليه السلام ، فلما نظر إليه وهب حرك رأسه وقرأه فإذا هو :

---

(١) أي رأسه كالسفط . (٢) الليطة : القناة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك ، لزهدت في طول ما ترجو من أملك ، وإنما تلقى ندمك لو قد زل بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب ، وأسلمك الصاحب والقريب ، ثم صرت تُدعَى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا إلى عملك زائد ، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة ، وقبل الحسرة والندامة ، قبل أن يحل بك أجلك ، وتنزع منك روحك ، فلا ينفعك مال جمعته ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ الثرى ، ومجاورة الموتى ، فاغتنم الحياة قبل الممات ، والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ بالكظام ، ويحال بينك وبين العمل ، وكتب في زمن سليمان بن داود عليهما السلام .

وقال ابن عساكر : قرأت على أبي محمد السلمي ، عن عبد العزيز التميمي ، أنبأ تمام الرازي ثنا ابن البرامي ، سمعت أبا مروان ـ عبد الرحمن بن عمر المازني يقول : لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد ، احتفروا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقا ، فلم يفتحوه وأعلموا به الوليد ، فخرج حتى وقف عليه وفُتح بين يديه ، فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة ، على فرس من حجارة ، في يد التمثال الواحدة الدرة التي كانت في المحراب ، ويده الأخرى مقبوضة ، فأمر بها فكسرت ، فإذا فيها حبتان : حبة قمح ، وحبة شعير ، فسأل عن ذلك ، فقيل له : لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير . وقال الحافظ أبو حمدان الوراق ـ وكان قد عمر مائة سنة ـ سمعت بعض الشيوخ يقول : لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على المقلاط ـ على السفود الحديد الذي في أعلاه ـ صنما ماداً يده بكف مطبقة ، فكسروه ، فإذا في يده حبة قمح ، فسألوا عن ذلك ، فقيل لهم : هذه الحبة القمح جعلها حكماء اليونان في كف هذا الصنم طلسما ، حتى لا يسوس القمح في هذه البلاد ، ولو أقام سنين كثيرة

قال ابن عساكر : وقد رأيت أنا في هذا السفود على قناطر كنيسة المقلاط كانت مبنية فوق القناطر في السوق الكبير ، عند الصابونيين والعطارين اليوم ، وعندها اجتمعت جيوش الإسلام يوم فتح دمشق ، أبو عبيدة من باب الجابية ، وخالد من باب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير وقال عبدالعزيز التميمي ، عن أبي نصر عبدالوهاب بن عبد الله المري : سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون : إن في سقف الجامع طلاسم عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي : فيها طلاسم للصنونيات ، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها ، ولا يدخله غراب وطلسم للفأر والحيات والعقارب ، فما رأى الناس من هذا شيئاً إلا الفأر ، ويشك أن يكون قد عدم طلسمها وطلسم للعنكبوت حتى لا ينسج فيه ، وفي رواية فيركبه الغبار والوسخ .

قال الحافظ ابن عساكر : وسمعت جدى أبا الفضل يحيى بن على يذكر أنه أدرك فى الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر الحشرات ، معلقة فى السقف فوق البطائن مما يلى السبع ، وأنه لم يكن يوجد فى الجامع شىء من الحشرات قبل الحريق ، فلما احترقت الطلسمات حين أحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وقد كانت بدمشق طلسمات كثيرة ، ولم يبق منها سوى العمود الذى بسوق العلبيين الذى فى أعلاه مثل الكرة العظيمة ، وهى لعسر بول الدواب ، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها وقد كان شيخنا ابن تيمية - رحمه الله يقول : إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك يعذب ، فإذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا مغلت[1] ، فتنطلق طباعها وتروث ، وما ذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون ، والله أعلم .

ذكر الساعات التى على بابه

قال القاضى عبد الله بن أحمد بن زبر : إنما سمى باب الجامع القبلى باب الساعات ؛ لأنه عمل هنالك بالمكار الساعات ، كان يعمل بها كل ساعة تمضى من النهار . عليها عصافير من نحاس ، وحية من نحاس وغراب ، فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب ، وسقطت حصاة فى الطست ، فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة ، وكذلك سائرها . قلت : هذا يحتمل أحد شيئين ؛ إما أن تكون الساعات كانت فى الباب القبلى من الجامع - وهو الذى يسمى باب الزيادة ، ولكن قد قيل : إنه محدث بعد بناء الجامع ، ولا ينفى ذلك أن الساعات كانت عنده فى زمن القاضى ابن زبر . وإما أنه قد كان فى الجامع فى الجانب الشرقى منه فى الحائط القبلى باب آخر فى محاكاة باب الزيادة ، وعنده الساعات ، ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم - وهو باب الجامع من الشرق ، والله أعلم .

[قلت : باب الوراقين قبلى أيضاً ، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع والله أعلم ، أو لمجاورته للجامع ولبابه][2] .

قلت : فأما القبة فى التى وسط صحن الجامع التى فيها الماء الجارى - ويقول العامة لها قبة أبى نواس - فكان بناؤها فى سنة تسع وستين وثلاثمائة ، أرخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة .

---

(١) مغلت الدابة : أكلت التراب مع البقل فأخذها وجع فى بطنها ، والاسم : المغلة .

(٢) ما بين القوسين مثبت فى بعض النسخ .

وأما القبة الغربية العالية التى فى صحن الجامع - التى يقال لها قبة عائشة - فسمعت شيخنا الذهبى يقول : إنها إنما بنيت فى حدود سنة ستين ومائة فى أيام المهدى بن منصور العباسى ، وجعلوها لحواصل الجامع ، وكتب أوقافه .

وأما القبة الشرقية التى على باب مسجد على ، فيقال : إنها بنيت فى زمن الحاكم العبيدى فى حدود سنة أربع ومائة .

وأما الفوارة التى تحت درج جيرون ، فعملها الشريف فخر الدولة أبو على حمزة بن الحسن ابن العباس الحسنى ، وكأنه كان ناظراً بالجامع ، وجر إليها قطعة من حجر كبير من قصر حجاج ، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة ، وعملت حولها قناطر ، وعقد عليها قبة ، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكت عندها وازدحمت ، وذلك فى صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبادين والحجارة فى شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة . ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر .

قلت : وأما القصعة التى كانت فى الفوارة ، فما زالت وسطها ، وقد أدركتها كذلك ، ثم رفعت بعد ذلك وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها ، فلم تزل بها إلى أن تهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما كانت ، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر ، ثم عمل الشاذروان الذى شرق فوارة جيرون ، بعد الخمسمائة - أظنه - سنة أربع عشرة وخمسمائة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ابتداء أمر السبع فى الجامع الاموى

قال أبو بكر بن أبى داود : ثنا أبو عباس موسى بن عامر المرى ، ثنا الوليد - هو ابن مسلم - قال : قال أبو عمر الأوزاعى ، عن حسان بن عطية قال : الدراسة محدثة أحدثها هشام ابن إسماعيل المخزومى ، فى قدمة قدمها على عبد الملك ، فحجبه عبد الملك ، فجلس بعد الصبح فى مسجد دمشق ، فسمع قراءة ، فقال : ما هذا ؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ فى الخضراء ، فقرأ هشام بن إسماعيل ، فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد ، فقرأوا بقراءته .

وقال هشام بن عمار خطيب دمشق : ثنا أيوب بن حسان ، ثنا الأوزاعى ، ثنا خالد بن دهقان قال : أول من أحدث القراءة فى مسجد دمشق - هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومى ، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشى .

قلت : هشام بن إسماعيل كان نائباً على المدينة النبوية ، وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب ، لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك ، قبل أن يموت أبوه ، ثم عزله عنها الوليد ، وولى عليها عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا .

وقد حضر هذا السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق ، منهم : هشام بن إسماعيل ، ومولاه رافع ، وإسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ، وكان مكتبا[1] لأولاد عبد الملك ابن مروان ، وقد ولى إمرة إفريقية لهشام بن عبد الملك ، وابنيه : عبد الرحمن ، ومروان .

وحضره من القضاة : أبو إدريس الخولانى ، ونمير بن أوس الأشعرى ، ويزيد بن أبى الهمدانى ، وسالم بن عبد الله المحاربى ، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدى .

ومن الفقهاء والمحدثين ، والحفاظ المقرئين : أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن - مولى معاوية ، ومكحول ، وسليمان بن موسى الأشدق ، وعبد الله بن العلاء بن زبر ، وأبو إدريس الأصغر - عبد الرحمن بن عراك ، وعبد الرحمن بن عامر اليحصبى - أخو عبد الله بن عامر ، ويحيى ابن الحارث الذمارى ، وعبد الملك بن نعمان المرى ، وأنس بن أنس العذرى ، وسليمان بن بذيع القارى ، وسليمان بن داود الخشنى ، وعمران - أو هران - بن حكيم القرشى ، ومحمد بن خالد بن أبى ظبيان الأزدى ، ويزيد بن عبيدة بن أبى المهاجر ، وعباس بن دينار ، وغيرهم . هكذا أوردهم ابن عساكر . قال : وقد روى عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره ، ولا وجه لإنكاره .

ثم ساق من طريق أبى بكر بن أبى داود : ثنا عمرو بن عثمان ، ثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الله بن العلاء ، قال : سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة ويقول : ما رأيت ولا سمعت ، وقد أدركت أصحاب النبى ﷺ .

قال ابن عساكر : وكان الضحاك بن عبد الرحمن أميراً على دمشق فى أواخر سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

فصل

كان ابتداء عمارة جامع دمشق فى أواخر سنة ست وثمانين ، هدمت الكنيسة التى كانت موضعه فى ذى القعدة منها ، فلما فرغوا من الهدم شرعوا فى البناء ، وتكامل فى عشر سنين ، فكان الفراغ منه فى هذه السنة - أعنى سنة ست وتسعين - وفيها توفى بانيه الوليد بن عبد الملك ، وقد بقيت فيه بقايا ، فكملها أخوه سليمان ، كما ذكرنا . فأما قول يعقوب بن سفيان : سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد دمشق وهدم الكنيسة ، قال : كان الوليد قال للنصارى : ما شئتم

(١) المكتب - كمقعد - موضع التعليم .

إنا أخذنا كنيسة توما عنوة ، وكنيسة الداخلة صلحاً ، فأنا أهدم كنيسة توما — قال هشام وتلك أكبر من هذه الداخلة — قال : فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة ، وأدخلها في المسجد ، قال : وكان بابها قبلة المسجد اليوم ، وهو المحراب الذي يصلى فيه ، قال : وهدم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، ومكثوا في بنائها سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتم بناءه ، فأتمه هشام من بعده — ففيه فوائد وفيه غلط ، وهو قوله : إنهم مكثوا في بنائه سبع سنين ، والصواب عشر سنين ، فإنه لا خلاف أن الوليد بن عبد الملك توفي في هذه السنة — أعني سنة ست وتسعين — وقد حكى أبو جعفر بن جرير على ذلك إجماع أهل السير ، والذي أتم ما بقي من بنائه أخوه سليمان لا هشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

[قلت : نقل من خط ابن عساكر وقد تقدم ، وقد جددت فيه بعد ذلك أشياء ، منها القباب الثلاث التي في صحنه وقد تقدم ذكرها . وقيل : إن القبة الشرقية عمرت في أيام المستنصر العبيدي في سنة خمسين وأربعمائة ، وكتب عليه اسمه واسم الاثنى عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمتهم ، وأما العمودان الموضوعان في صحنه ، فجعلا للتنوير ليالي الجمع ، وصنعا في رمضان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، بأمر قاضي البلد أبي محمد](١)

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

وذكر وفاته في هذا العام

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف — أبو العباس الأموي ، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه في شوال سنة ست وثمانين ، وكان أكبر ولده ، والولي من بعده ، وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسي ، وكان مولده سنة خمسين ، وكان أبواه يترفانه(٢) ، فشب بلا أدب ، وكان لا يحسن العربية ، وكان طويلا أسمر به أثر جدري خفي ، أفطس الأنف سائله ، وكان إذا مشى يتوكف في المشية — أي يتبختر — وكان جميلا وقيل : دميما ، قد شاب في مقدم لحيته ، وقد رأى سهل بن سعد ، وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه ، سأله ما سمع في أشراط الساعة ، كما تقدم في ترجمة أنس ، وسمع سعيد بن المسيب ، وحكى عن الزهري وغيره .

وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ، ثم توقف لأنه لا يحسن العربية ، فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده ، فأقاموا سنة ، وقيل : ستة أشهر ، فخرج يوم خرج — أجهل مما كان ،

---

(١) ما بين القوسين سقط من بعض النسخ . (٢) الترفة : النعمة ، وترف — كفرح — تنعم ، وأترفته النعمة : أطغته . والترف : المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع ، والمتنعم لا يمنع من تنعمه .

فقال عبد الملك : قد أجهد وأعذر ، وقيل: إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له : لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك ، وتحن حنين الأمة ، ولكن شمر واتزر ، ودلّني في حفرتي ، وخلّني وشأني ، وادع الناس إلى البيعة ، فمن قال برأسه هكذا — فقل بسيفك هكذا . وقال الليث : وفي سنة أربع وتسعين غزا الوليد بلاد الروم ، وفيها حج بالناس أيضاً وقال غيره : غزا في التي قبلها وفي التي بعدها بلاد ملطية وغيرها ، وكان نقش خاتمه : أو من بالله مخلصاً . وقيل : كان نقشه يا وليد إنك ميت ، ويقال : إن آخر ما تكلم به — سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وقال إبراهيم بن أبي عبلة ، قال لي الوليد بن عبد الملك يوماً : في كم تختم القرآن ؟ قلت في كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث ، وقيل في كل سبع ، قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة . قال إبراهيم رحمه الله : الوليد وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة ، فأقسمها على قراء بيت المقدس .

وروى ابن عساكر بإسناد رجاله كلهم ثقات ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال : خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر ، فرأى رجلا عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً ، فأتاه فوقف عليه ، فإذا هو يأكل خبزاً وتراباً ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : القنوع يا أمير المؤمنين ، فذهب إلى مجلسه ، ثم استدعى به فقال : إن لك لشأناً فأخبرني به ، وإلا ضربت الذي فيه عيناك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلا جمّالا ، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصداً إلى الكسوة ، إذ زرمني[1] البول ، فعدلت إلى خربة لأبول ، فإذا سرب فحفرته ، فإذا مال صبيب ، فملأت منه غرائري ، ثم انطلقت أقود برواحلي ، وإذا بمخلاة معي فيها طعام ، فألقيته منها ، وقلت : إني سآتي الكسوة ، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخلاة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد في الطلب ، فلما أيست رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام ، فآليت على نفسي أني لا آكل إلا خبزاً وتراباً . قال : فهل لك عيال ؟ قال: نعم ، ففرض له في بيت المال .

قال ابن جرير : وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال ، فتسلمها حارسه فوضعها في بيت المال ، وقيل: إن الوليد قال له : ذلك المال وصل إلينا ، واذهب إلى إبلك فخذها ، وقيل: إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يُقيته وعياله. وقال نمير بن عبد الله الشعناني عن أبيه قال : قال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يفعل هذا بذكر [قلت: فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة ، والفاحشة المذمومة ، التي عذب الله أهلها

(١) زرم البول : انقطع . وأزرمه : قطع عليه بوله .

بأنواع العقوبات ، وأحل بهم أنواعا من المثلات ، التى لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات ؛ وهى فاحشة اللواط التى قد ابتلى بها غالب الملوك والأمراء ، والتجار والعوام والكتاب ، والفقهاء والقضاة ونحوهم - إلا من عصم الله منهم ، فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه ، ولأن يقتل المفعول به خير من أن يؤتى فى دبره ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، إلا أن يشاء الله ، ويذهب خير المفعول به . فعلى الرجل حفظ ولده فى حال صغره وبعد بلوغه ، وأن يجنبه مخالطة هؤلاء الملاعين ، الذين لعنهم رسول الله ﷺ .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ - على قولين ، والصحيح فى المسألة أن يقال إن المفعول به إذا تاب توبة صحيحة نصوحاً ، ورزق إنابة إلى الله وصلاحا ، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عنه ذلك بأنواع الطاعات ، وغض بصره وحفظ فرجه ، وأخلص معاملته لربه - فهذا إن شاء الله مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب للتائبين إليه (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] (فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2] . وأما مفعول به صار فى كبره شراً منه فى صغره ، فهذا توبته متعذرة ، وبعيد أن يؤهل لتوبة صحيحة، أو لعمل صالح يمحو به ما قد سلف ، ويخشى عليه من سوء الخاتمة ، كما قد وقع ذلك لخلق كثير ماتوا بأدرانهم وأوساخهم ، لم يتطهروا منها قبل الخروج من الدنيا ، وبعضهم ختم له بشر خاتمة ، حتى أوقعه عشق الصور فى الشرك الذى لا يغفره الله وفى هذا الباب حكايات كثيرة وقعت للوطية وغيرهم من أصحاب الشهوات ، يطول هذا الفصل بذكرها .

والمقصود : أن الذنوب والمعاصى والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له ، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان ، فيقع فى سوء الخاتمة . قال الله تعالى : (وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإِنْسَانِ خَذُولاً)[3] بل وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشة اللواط ، وقد كانوا متلبسين بذنوب أهون منها . وسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا يقع فيها من صَلح ظاهره وباطنه مع الله ، وصدق فى أقواله وأعماله ؛ فإن هذا لم يسمع به كما ذكره عبد الحق الأشبيلى ، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً ، وظاهره عملا ، ولمن له جرأة على الكبائر ، وإقدام على الجرائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة .

والمقصود : أن مفسدة اللواط من أعظم المفاسد ، وكانت لا تعرف بين العرب قديما كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم ؛ فلهذا قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة

---

(١) من الآية : ١١ من سورة الحجرات . (٢) الآية : ٣٩ من سورة المائدة .

(٣) من الآية : ٢٩ من سورة الفرقان .

يوم لوط فى القرآن ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً . وفى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول فيه » . رواه أهل السنن ، وصححه ابن حبان وغيره . وقد لعن النبى ﷺ مَن عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات ولم يلعن على ذنب ثلاث مرات إلا عليه . وإنما أمر بقتل الفاعل والمفعول به ، لأنه لا خير فى بقائهما بين الناس ، لفساد طويتهما ، وخبث بواطنهما ، فمن كان بهذه المثابة ، فلا خير للخلق فى بقائه ، فإذا أراح الله الخلق منهما ـ صلح لهم أمر معاشهم ودينهم . وأما اللعنة فهى الطرد والبعد ، ومن كان مطروداً مبعداً عن الله وعن رسوله ، وعن كتابه ، وعن صالح عباده ـ فلا خير فيه ولا فى قربه ، ومن رزقه الله تعالى توسماً وفراسة ، ونوراً وفرقاناً ـ عرف من سحن الناس ووجوههم أعمالهم ؛ فإن أعمال العمال بائنة ولائحة على وجوههم ، وفى أعينهم وكلامهم .

وقد ذكر الله اللوطية ، وجعل ذلك آيات للمتوسمين فقال تعالى : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)(١) وما بعدها . وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)(٢) ونحو ذلك من الآيات والأحاديث . فاللوطى قد عكس الفطرة ، وقلب الأمر ، فأتى ذكراً فقلب الله قلبه ، وعكس عليه أمره ، بعد صلاحه وفلاحه ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

وخصال التائب قد ذكرها الله فى آخر سورة براءة ، فقال : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ) فلابد للتائب من العبادة والاشتغال بالعمل للآخرة ، وإلا فالنفس همّامة متحركة ، إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل ، فلا بد للتائب من أن يبدل تلك الأوقات التى مرت له فى المعاصى بأوقات الطاعات ، وأن يتدارك ما فرط فيها ، وأن يبدل تلك الخطوات بخطوات إلى الخير ، ويحفظ لحظاته وخطواته ، ولفظاته وخطراته . قال رجل للجنيد : أوصنى ، قال : توبة تحل الإصرار ، وخوف يزيل الغرة ، ورجاء مزعج إلى طرق الخيرات ، ومراقبة الله فى خواطر القلب . فهذه صفات التائب . ثم قال الله تعالى : (الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) الآية ، فهذه خصال التائب كما قال تعالى : (التَّائِبُونَ) فكأن قائلا يقول : من هم ؟ قيل : هم العابدون السائحون إلى آخر الآية ، وإلا فكل تائب لم يتلبس بعد توبته بما يُقرِّبه إلى من تاب إليه - فهو فى بعد وإدبار ، لافى قرب وإقبال ؛ كما يفعل من اغتر بالله من المعاصى المحظورات ، ويدع الطاعات ، فإن ترك الطاعات وفعل المعاصى ـ أشد وأعظم من ارتكاب المحرمات بالشهوة النفسية .

(١) الآيات : ٧٣ - ٧٥ من سورة الحجرات (٢) من الآيات : ٢٩ - ٣١ من سورة محمد

فالتائب : هو من اتقى المحذورات ، وفعل المأمورات ، وصبر على المقدورات ، والله سبحانه وتعالى هو المعين الموفق ، وهو عليم بذات الصدور][١] .

قالوا : وكان الوليد لحاناً ؛ كما جاء من غير وجه ، أن الوليد خطب يوماً : فقرأ فى خطبته : (يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَة)[٢] ، فضم التاء من ليتها ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك ، وكان يقول : يا أهلُ المدينة . وقال عبد الملك يوماً لرجل من قريش : إنك لرجل لولا أنك تلحن ، فقال : وهذا ابنك الوليد يلحن ، فقال : لكن ابنى سليمان لا يلحن ، فقال الرجل : وأخى أبو فلان لا يلحن .

وقال ابن جرير : حدثنى عمر ، ثنا على - يعنى ابن محمد المدائنى - قال : كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ؛ بنى المساجد بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وفتح فى ولايته فتوحات كثيرة عظاماً ، وكان يرسل بنيه فى كل غزوة إلى بلاد الروم ؛ ففتح الهند والسند ، والأندلس ، وأقاليم بلاد العجم ، حتى دخلت جيوشه إلى الصين ، وغير ذلك .

قال : وكان مع هذا يمر بالبقال ، فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول : بكم تبيع هذه ؟ فيقول : بفلس ، فيقول : زد فيها فإنك تربح . وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضى عنهم ديونهم . قالوا : وكانت همة الوليد فى البناء ، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همة أخيه سليمان فى النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجل الرجل فيقول : كم تزوجت ؟ ماذا عندك من السرارى ؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز فى قراءة القرآن ، وفى الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجل الرجل فيقول : كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟

[والناس يقولون : الناس على دين مليكهم ، إن كان خماراً كثر الخمر ، وإن كان لوطيا فكذلك ، وإن كان شحيحاً حريصاً كان الناس كذلك ، وإن كان جواداً كريماً شجاعاً كان الناس كذلك ، وإن كان طماعاً ظلوماً غشوماً فكذلك ، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك . وهذا يوجد فى بعض الأزمان وبعض الأشخاص ، والله أعلم][٣] .

وقال الواقد : كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب ، لجوجاً ، كثير

(١) ما بين القوسين زيادة فى بعض النسخ . (٢) من الآية : ٢٧ من سورة الحاقة .

(٣) ما بين القوسين زيد فى بعض النسخ .

الأكل والجماع مطلاقاً ، يقال : إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الإماء . قلت : يراد بهذا - الوليد ابن يزيد الفاسق - لا الوليد بن عبد الملك بانى الجامع ، والله أعلم .

قلت : بنى الوليد الجامع على الوجه الذى ذكرنا ، فلم يكن له فى الدنيا نظير ، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة ، وبنى مسجد النبى ﷺ ، ووسعه حتى دخلت الحجرة التى فيها القبر فيه ، وله آثار حسان كثيرة جداً . ثم كانت وفاته فى يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة . قال ابن جرير : هذا قول جميع أهل السير .

وقال عمر بن على الفلاس وجماعة : كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة - عن ست ، وقيل : ثلاث ، وقيل : تسع ، وقيل : أربع وأربعين سنة ، وكانت وفاته بدير مُرّان ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير ، وقيل : بمقابر باب الفراديس ، حكاه ابن عساكر . وكان الذى صلى عليه عمر بن عبد العزيز [لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف ، وقيل : صلى عليه ابنه عبد العزيز][(١)] ، وقيل : بل صلى عليه أخوه سليمان . والصحيح عمر بن عبد العزيز ، والله أعلم . وهو الذى أنزله إلى قبره ، وقال حين أنزله : لننزلنه غير موسّد ولا ممهد ، قد خلفت الأسلاب ، وفارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقيراً إلى ما قدمت ، غنيا عما أخرت . وجاء من غير وجه عن عمر ، أنه أخبره أنه لما وضعه - يعنى الوليد - فى لحده ارتكض فى أكفانه ، وجمعت رجلاه إلى عنقه . وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور ، والله أعلم .

قال المدائنى : وكان له من الولد تسعة عشر ولداً ذكراً ، وهم : عبد العزيز ، ومحمد ، والعباس ، وإبراهيم ، وتمام ، وخالد ، وعَبد الرحمن ، ومبشّر ، ومسرور ، وأبو عُبيدة ، وصَدَقَه ، ومنصور ، ومروان ، وعَنْبسة ، وعَمْرو ، ورَوح ، وبشر ، ويزيد ، ويحيى . فأم عبد العزيز ، ومحمد ، وأم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان ، وأم أبى عبيدة فزارية ، وسائرهم من أمهات أولاد شتى . قال المدائنى : وقد رثاه جرير فقال :

يا عينُ جُودِى بدمع هاجَه الذِّكَر ... فما لدَمعك بعد اليوم مُدَّخر
إنَّ الخليفة قد وارت شمائله ... غبراء مُلْحَدَة فى جُولها زَوَر[(٢)]
أضحى بنوه وقد جلّت مصيبتهم ... مثل النجوم هوى مِنْ بَينها القمر
كانوا جميعاً فلم يَدْفع مَنِيَّتَهُ ... عبدُ العزيز ولا رَوْح ولا عُمَرُ

(١) زيد فى بعض النسخ . (٢) أجوال البئر : نواحيها ، والزور : الاعوجاج .

ومن هلك أيام الوليد بن عبد الملك :

زياد بن حارثة التميمي ، الدمشقي ، كانت داره غربي قصر الثقفيين . روى عن حبيب بن مسلمة الفهري ، في النهي عن المسألة لمن له ما يغديه ويعشيه ، وفي النفل ، ومنهم من زعم أن له صحبة ، والصحيح أنه تابعي . روى عنه عطية بن قيس ، ومكحول ، ويونس بن ميسرة بن حابس ، ومع هذا قال فيه أبو حاتم : شيخ مجهول ، ووثقه النسائي ، وابن حبان .

روى ابن عساكر ، أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق ، وقد أخرت الصلاة ، فقال : والله ما بعث الله نبيا بعد محمد ﷺ أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت ، قال : فأخذ فأدخل الخضراء ، فقطع رأسه ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك .

عبد الله بن عمر بن عثمان : أبو محمد ، كان قاضي المدينة ، وكان شريفاً ، كثير المعروف ، جواداً ممدحاً ، والله أعلم .

خلافة سليمان بن عبد الملك

بُويع له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد ، يوم مات ، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكان سليمان بالرَّملة ، وكان ولي العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك .

وقد كان الوليد قد عزم قبل موته - على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد ، وقد كان الحجاج طاوَعه على ذلك وأمره به ، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة . وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد ، فلم ينتظم ذلك له حتى مات ، وانعقدت البيعة إلى سليمان ، فخافه قتيبة بن مسلم ، وعَزم على أن لا يبايعه ، فعزله سليمان وولّى على إمرة العراق ، ثم خراسان - يزيد بن المهلب ، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين ، وأمره بمعاقبة آل الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج هو الذي عَزل يزيد عن خراسان . ولسبع بقين من رمضان من هذه السنة - عزل سليمان عن إمرة المدينة عُثمان بن حَيّان وولّى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم ، وكان أحد العلماء .

وقد كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة ، كتب إليه كتاباً يعزّيه في أخيه ، ويهنئه بولايته ، ويذكر فيه بلاءه وعناءه ، وقتاله وهيبته في صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه ، وأنه على مثل ما كان للوليد من الطاعة والنصيحة ، وإن لم يعزله من خُراسان ، ونال في هذا الكتاب من يَزيد بن المهلّب .

ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر ما فعل من القتال والفتوحات وهيبته فى صدور الملوك والأعاجم ، ويذم يزيد بن المهلب أيضاً ، ويقسم فيه لئن عزله وولى يزيد ، ليخلعن سليمان عن الخلافة .

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعُ سليمان بالكلية ، وبعث بها مع البريد ، وقال له : ادفع إليه الكتاب الأول ، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب ، فادفع إليه الثانى ، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب ، فادفع إليه الثالث ، فلما قرأ سليمان الكتاب الأول ـ واتفق حضور يزيد عند سليمان ـ دفعه إلى يزيد فقرأه ، فناوله البريد الكتاب الثانى ، فقرأه ودفعه إلى يزيد ، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه ، فإذا فيه التصريح بعزله وخلعه ، فتغير وجهه ، ثم ختمه وأمسكه بيده ، ولم يدفعه إلى يزيد ، وأمر بإنزال البريد فى دار الضيافة . فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ، ودفع إليه ذهبًا ، وكتابًا فيه ولاية قتيبة على خراسان ، وأرسل مع ذلك البريد ـ بريداً آخر من جهته ليقرره عليها ، فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخليفة ، فدفع بريدُ سليمان ـ الكتاب الذى معه إلى بريد قتيبة ، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع بريد سليمان .

ذكر سبب مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش ، وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة ، وترك طاعته ، وذكر لهم همَّته وفتوحه وعدله فيهم ، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم . فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته ، فشرع فى تأنيبهم وذمّهم ، قبيلة قبيلة ، وطائفة طائفة ، فغضبوا عند ذالك ونفروا عنه وتفرقوا ، وعملوا على مخالفته ، وسَعَوْا فى قتله . وكان القائم بأعباء ذالك رجل يقال له : وكيع بن أبى سود ، فجمع جموعًا كثيرة ، ثم ناهضه ، فلم يزل به حتى قتله فى ذى الحجة من هذه السنة ، وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته ، ولم يبق منهم سوى ضِرَار ابن مسلم ، وكانت أمه الغرّاء بنت ضِرَار بن القعقاع بن مَعبد بن سعد بن زُرارة ، فحمته أخواله ؛ وعمرو بن مسلم كان عامل الجوزجان . وقتل قتيبة ، وعبد الرحمن ، وعبد الله ، وعبيد الله ، وصالح ، ، ويسار ، وهؤلاء أبناء مسلم ، وأربعة من أبنائهم ، فقتلهم كلهم وَكيع بن أبى سُود .

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة ـ أبو حفص الباهلى ـ من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الكبراء ، والشجعان ، وذوى الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار ، والمدن العظام شيئًا كثيراً ، كما تقدم ذالك مفصلا مبينًا ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ، ولا يخيب تعبه وجهاده

ولكن زلَّ زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة ، فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة ، فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان ، في ذي الحجة من هذه السنة ، وله من العمر ثمان وأربعون سنة ، وكان أبوه أبو صالح مسلم ، فيمن قتل مع مصعب بن الزبير ، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين ، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً ، وقد رثاه عبد الرحمن ابن جمانة الباهلي فقال :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش إلى جيش ولم يعلُ منبرا

ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا

دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلى الجنات عفا مُطهرا

فما رزىء الإسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فبكّيه عَبْهَرَا

ولقد بالغ هذا الشاعر في بيته الأخير وعبهر ولد له . وقال الطرماح في هذه الوقعة التي قتل فيها على يد وكيع بن أبي سود :

لولا فوارس مَذْحِج ابنة مذحِج ... والأزد زُعزِع واستبيح العسكرْ

وتقطّعت بهم البلاد ولم يؤب ... منهم إلى أهل العراق مُخبِّرُ

وَاستضلَعت عُقد الجماعة وازدرى ... أمرُ الخليفة واستُحِلَّ المنكر

قوم هُمُو قتلوا قتيبة عَنوة ... والخيل جانحة عليها المِغْفَرُ

بالمرج مرج الصين حيث تبيَّنت ... مُضَرُ العراق مَن الأعزُّ الأكبرُ

إذ حالفت جزعًا ربيعة كلها ... وتفرّقت مُضَرٌ ومن يتمضّرُ

وتقدمت أزْدُ العراق ومَذحِج ... للموت يجمعُها أبوها الأكبرُ .

قحطانُ تضربُ رأسَ كل مدجّج ... تحمى بصائرَهن إذ لا تُبصر

والأزدُ تعلم أنَّ تحت لوائها ... مُلكاً قُرَاسِيَة وموت أحمرُ

فبعزِّنا نُصِرَ النبيُّ محمد ... وبنا تثبَّت في دِمشقَ المنبر

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطًا كثيراً ، وذكر أشعاراً كثيرة جداً . وقال ابن خلكان : وقال جرير يرثي قتيبة بن مسلم ـ رحمه الله وسامحه ، وأكرم مثواه وعفا عنه :

ندمتم على قتل الأمير ابن مسلم ... وأنتم إذا لاقيتم الله أندمُ

لقد كنتم من غزوه في غنيمة ... وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم

على أنه أفضى إلى حُـــور جنة ونطبق بالبـــلوى عليكم جهنم

قال : وقد ولى من أولاده وذريته جماعة الأمرة فى البلدان ، فمنهم : عمر بن سعيد بن قتيبة بن مسلم ، وكان جواداً ممدحاً ، رثاه حين مات ـ أبو عمرو أشجع بن عمرو السلمى المرى ، نزيل البصرة يقول :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيـــه مادح
وما كنت أدرى ما فواضل كفه على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح فى لحد من الأرض ضيق وكانت به حيًّا تضيق الضحاضح
سأبكيك ما فاضت دموعى فإن تغض فحسبك منى ما تجن الجوانح
فما أنا من رزئى وإن جلّ جازع ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حىّ سواك ولم تقم على أحـــد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثى وذكرها لقد حسنت من قبل فيك المدائح

قال ابن خلكان : وهى من أحسن المراثى ، وهى فى الحماسة ، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مرذولة عند العرب . قال : وقد رأيت فى بعض المجاميع، أن الأشعث بن قيس قال : يارسول الله ، أتتكافأ دماؤنا ؟ قال : « نعم ! ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك » .

وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلىّ ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلا : ممن أنت ؟ فقال : من باهلة ، فجعل يرثى له ، قال : وأزيدك أنى لست من الصميم ، وإنما أنا من مواليهم . فجعل يقبل يديه ورجليه ، فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية فى الدنيا إلا ليعوضك الجنة فى الآخرة .

ثم قال ابن جرير : وفى هذه السنة تُوفى قُرّة بن شريك العبسى ـ أمير مصر وحاكمها .

قلت : هو قُرّة بن شريك أمير مصر من جهة الوليد ، وهو الذى بنى جامع الفيوم .

وفيها : حجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وكان هو الأمير على المدينة ، وكان على مكة عبدُ العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العراق وصلاتها ـ يزيد بن المهلب ، وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمن ، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب ـ سُفيان بن عبد الله الكندىّ ، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبى موسى ، وعلى حرب خُراسان وكيع بن أبى سُود ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها : جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية . وفيها : أمّر ابنه داود على الصائفة ، ففتح حصن المرأة .

قال الواقدى : وفيها : غزا مَسلمة بن عبد الملك أرض الوضّاحية ؛ ففتح الحصن الذى بناه الوضّاح صاحب الوضّاحيّة .

وفيها : غزا مسلمة أيضاً برجة ، ففتح حصُوناً ، وبرجة ، وحصن الحديد ، وسررا ، وشتى بأرض الروم .

وفيها : غزا عُمَر بن هُبَيرة الفزارى فى البحر - أرض الروم وشتى بها .

وفيها : قُتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وقدِم برأسه على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، مع حبيب بن أبى عبيد الفهرى .

وفيها : ولّى سليمان نيابة خُراسان ليزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق .

وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبى سُود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريّته ، بعث برأس قتيبة إلى سليمان ، فحظى عنده ، وكتب له بإمرة خراسان ، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن بن الأهتم إلى سليمان بن عبد الملك ليحسن عنده أمر يزيد بن المهلب فى إمرة خراسان ، وينتقص عند وكيع ابن أبى سُود ، فسار ابن الأهتم - وكان ذا دهاء ومكر - إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم يزل به حتى عَزل وكيعاً عن خُراسان ، وولى عليها يزيد مع إمرة العراق ، وبعث بعهده مع ابن الأهتم ، فسار فى سَبْع حتى جاء يزيد ، فأعطاه عهد خراسان مع العراق ، وكان يزيد وعده بمائة ألف ، فلم يف بها ، وبعث يزيد ابنه مَخلَداً بين يديه إلى خُراسان ، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه : أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خَلَع الطاعة ، فإن كان وكيع قد تعرّض له ، وثار عليه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع ، فقيّده وابعث به إلىّ ، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً ، فعاقبه وحبسه قبل أن يجىء أبوه ، فكانت إمرة وكيع بن أبى سُود الذى قتل قتيبة تسعة أشهر ، أو عشرة أشهر ، ثم قدم يزيد بن المهلّب فتسلم خراسان وأقام بها ، واستناب فى البلاد نواباً ذكرهم ابن جرير .

قال : ثم سار يزيد بن المهلب فغزا جُرجان ، ولم يكن يومئذ مدينة بأبواب وصور ، وإنما هى جبال وأودية ، وكان ملكها يقال له : صُول ، فتحول عنها إلى قلعة هناك ، وقيل : إلى جزيرة فى بحيرة هناك ، ثم أخذوه من البحيرة ، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً ، وأسروا وغنموا .

قال : وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الملك ، ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها ، غير أن خراسان عزل عنها وكيع بن أبى سُود ، ووليها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة مع العراق .

وممن توفى فيها من الأعيان :

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أبو محمد القرشي الهاشمي ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً : « من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر الله له ذنوبه » . وعن عبد الله بن جعفر عن علي في دعاء الكرب ، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين ، وعنه ابنه عبد الله وجماعة . وفد على عبد الملك بن مروان ، فأكرمه ونصره على الحجاج ، وأقره وحده على ولاية صدقة علي ، وقد ترجمه ابن عساكر فأحسن ، وذكر عنه آثاراً تدل على سيادته . قيل : إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن ابن الحسن كاتب أهل العراق ، فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة ، وقفه للناس ، ولا تراني إلا قاتله . فأرسل خلفه فعلمه علي بن الحسين[1] كلمات الكرب ، فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم ، وهي: لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش العظيم . توفي بالمدينة ، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزاري وقال يوماً لرجل من الرافضة : والله إن قتلك لقربة إلى الله عز وجل ، فقال له الرجل : إنك تمزح ، فقال : والله ما هذا مني بمزح ، ولكنه الجد . وقال له آخر منهم : ألم يقل رسول الله ﷺ : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ؟ فقال : بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس ! فقال : أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ، ثم تركه علي - لكان أول من ترك أمر الله ورسوله، وقال لهم أيضاً : والله لئن وُلينا من الأمر شيئاً لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لا نقبل لكم توبة ، ويلكم ! غررتمونا من أنفسنا ، ويلكم ! لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤنا إذ لم يعلمونا بذلك - قد ظلمونا وكتموا عنا أفضل الأمور ، والله إني لأخشى أن يضاعف العذاب للعاصي منا ضعفين ، كما أني لأرجو للمحسن منا أن يكون له الأجر مرتين ، ويلكم ! أحبونا إن أطعنا الله على طاعته ، وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته .

موسى بن نصير - أبو عبد الرحمن اللخمي - رحمه الله

مولاهم ، كان مولى لامرأة منهم ، وقيل : كان مولى لبني أمية . افتتح بلاد المغرب ، وغنم منها أموالاً لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة ، ويقال : إنه كان أعرج ، ويقال : إنه ولد في سنة تسع عشرة ، وأصله من عين التمر ، وقيل : إنه من أراشة من بلي ، سبي أبوه من

(١) كذا بالأصول وقد تقدمت وفاة علي بن الحسن قبل هذا .

جبل الخليل من الشام فى أيام الصديق ، وكان اسم أبيه - نصراً فصغر ، روى عن تميم الدارى ، وروى عنه ابنه عبد العزيز ، ويزيد بن مسروق اليحصبى ، وولى غزو البحر لمعاوية ، فغزا قبرص ، وبنى هنالك حصوناً ، كالماغوصة ، وحصن بانس ، وغير ذلك من الحصون التى بناها بقبرص ، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية فى سنة سبع وعشرين ، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان ، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه ، فتركه عند ابنه عبد العزيز . ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان .

وكان موسى بن نصير هذا - ذا رأى وتدبير وحزم وخبرة بالحرب ، قال البغوى[1] . ولى موسى ابن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين ، فافتتح بلاداً كثيرة جداً مدناً وأقاليم ، وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس ، وهى بلاد ذات مدن وقرى وريف ، فسبى منها ومن غيرها خلقاً كثيراً . وغنم أموالا كثيرة جزيلة ، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئاً لا يحصى ولا يعد ، وأما الآلات والمتاع والدواب ، فشىء لا يدرى ما هو ، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً ، حتى قيل : إنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء . وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبث فيهم الدين والقرآن ، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العجل لكثرتها ، وعجز الدواب عنها .

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح فى بلاد المغرب ، وقتيبة يفتح فى بلاد المشرق ، فجزاهما الله خيراً . فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً ، ولكن موسى بن نصير حظى بأشياء لم يحظ بها قتيبة ، حتى قيل إنه لما فتح الأندلس جاءه رجل فقال له : ابعث معى رجالا حتى أدلك على كنز عظيم ، فبعث معه رجالا فأتى بهم إلى مكان فقال احفروا ، فحفروا ، فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين[2] حسنة ، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم ، وأما الذهب فشىء لا يعبر عنه ، ووجدوا فى ذلك الموضع الطنافس ، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب ، منظومة باللؤلؤ الغالى المفتخر ، والطنفسة منظومة بالجواهر المثمن ، واليواقيت التى ليس لها نظير فى شكلها وحسنها وصفاتها ، ولقد سمع يومئذ مناد ينادى لا يرون شخصه : أيها الناس ، إنه فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذركم . وقيل : إنهم وجدوا فى هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التى كان يأكل عليها . وقد جمع أخباره ، وما جرى له فى حروبه وغزواته - رجل من ذريته يقال له : أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير النصيرى .

(١) فى نسخة : الفسوى . (٢) أى منعرجين . واللوى : كل ما التوى من الرمل .

وروى الحافظ ابن عساكر ، أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شيء رأيت في البحر ، فقال : انتهينا مرة إلى جزيرة فيها ست عشرة جرّة مختومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، قال : فأمرت بأربعة منها فأخرجت ، وأمرت بواحدة منها فنقبت ، فإذا قد خرج منها شيطان ينفض رأسه ويقول : والذي أكرمك بالنبوة لا أعود بعدها أفسد في الأرض ، قال : ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال : إني لا أرى بهاء سليمان وملكه ، فانساخ في الأرض فذهب ، قال : فأمرت بالثلاث البواقي فرددن إلى مكانهن .

وقد ذكر السمعاني وغيره عنه ، أنه سار إلى مدينة النّحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر ، في أقصى بلاد المغرب ، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بَريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة ، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها ، ثم أرسل رجلا من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال ، وأمره أن يدور حول سورها ، لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها ؟ فقيل : إنه سار يوماً وليلة حول سورها ، ثم رجع إليه ، فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها ؟ فأمرهم فجمعوا ما معهم من المتاع بعضه على بعض ، فلم يبلغوا أعلى سورها ، فأمر فعمل سلالم فصعدوا عليها ، وقيل : إنه أمر رجلا فصعد على سورها ، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن ألقاها في داخلها ، فكان آخر العهد به . ثم آخر فكذلك ، ثم امتنع الناس من الصعود إليها ، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علماً . ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها ، فقيل : إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها ، ووجد عليها رجلا قائماً ، فقال له : ما أنت ؟ قال : رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان ، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره فقال له : هل رأيت أحداً خارجا من هذه المدينة أو داخلا إليها ؟ قال : لا ، إلا أن رجلا يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياما ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها ، والله أعلم ما هو . ثم رجع إلى إفريقية ، والله أعلم بصحة ذلك ، والعهدة على من ذكر ذلك أولا .

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس في سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا بأفريقية ، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء ، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة عن المسلمين ، وفرق بين البهائم وأولادها ، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء ، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوت لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عز وجل ، فسقاهم عز وجل لما قال ذلك .

وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه ، فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر ، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة ، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من

أبناء الملوك الذين أسرهم ، والأسبان ، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم ، والأبهة العظيمة ، فلما نظر إليهم الوليد ، وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق ، بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ، وجاء موسى بن نصير ، فسلم على الوليد ، وهو على المنبر ، وأمر أولئك ، فرقفوا عن يمين المنبر وشماله ، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيده به ، ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلى بالناس ، ثم استدعى بموسى بن نصير ، فأحسن جائزته وأعطاه شيئاً كثيراً .

وكذلك موسى بن نصير قدم معه بشيء كثير ، من ذلك : مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، التي كان يأكل عليها ، وكانت من خليطين : ذهب وفضة ، وعليها ثلاثة أطواق ؛ لؤلؤ وجوهر لم ير مثله ، وجدها في مدينة طليطلة من بلاد الأندلس ، مع أموال كثيرة .

وقيل : إنه بعث ابنه مروان على جيش ، فأصاب من السبي مائة ألف رأس ، وبعث ابن أخيه في جيش ، فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضاً من البربر . فلما جاء كتابه إلى الوليد ، وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس ، قال الناس : إن هذا أحمق ، من أين له أربعون ألف رأس خمس الغنائم ؟ فبلغه ذلك ، فأرسل أربعين ألف رأس - وهي خمس ما غنم ، ولم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب .

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال : ولو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رُومية - وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج - ثم ليفتحها الله على يدي ، إن شاء الله تعالى . ولما قدم على الوليد قدم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا ، وذلك خمس ما كان غنمه في آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب ، وقدم معه من الأموال والتحف واللآلئ والجواهر مالا يحد ولا يوصف . ولم يزل مقيماً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان ، وكان سليمان عاتباً على موسى فحبسه عنده ، وطالبه بأموال عظيمة ، ولم يزل في يده حتى حج بالناس سليمان في هذه السنة ، وأخذه معه ، فمات بالمدينة ، وقيل : بوادي القرى ، وقد قارب الثمانين . وقيل : توفي في سنة تسع وتسعين ، فالله أعلم ، ورحمه الله وعفا عنه بمنه وفضله آمين .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففي هذه السنة : جهز سليمان بن عبد الملك - أمير المؤمنين - أخاه مَسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية ، ووراء الجيش الذين هم بها ، فسار إليها ، ومعه جيش عظيم ، ثم التفّ عليه ذلك الجيش الذين هم هناك ، وقد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه على ظهر فرسه

مُدْيَين[١] من طعام ، فلما وصل إليها جمعوا ذلك ، فإذا هو أمثال الجبال ، فقال لهم مَسلمة : أتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه فى بلادهم ، وازرعوا فى أماكن الزرع واستغلوه ، وابنوا لكم بيوتاً من خشب ، فإنا لا نرجع من هذا البلد إلا أن نفتحها ، إن شاء الله .

ثم إن مَسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له : إليُون ، وواطأه فى الباطن ليأخذ له بلاد الروم ، فظهر منه نصح فى بادىء الأمر ، ثم إنه توفى ملك القسطنطينية ، فدخل إليُون فى رسالة من مَسلمة ـ وقد خافته الروم خوفاً شديداً ـ فلما دخل إليهم إليُون قالوا له : رُدّه عنا ونحن نملّكك علينا ، فخرج فأعمل الحيلة فى الغَدر والمكر ، ولم يزل ـ قبحه الله ـ حتى أحرق ذلك الطعام الذى للمسلمين

وذلك أنه قال لمسلمة : إنهم ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تُطَاوِلهم فى القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً ، فأمر مَسلمة بالطعام فأحرق ، ثم انشمَر إليُون فى السفن ، وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش فى الليل ، وأصبح وهو فى البلد محارباً للمسلمين ، وأظهر المداوة الأكيدة ، وتحصّن واجتمعت عليه الروم ، وضاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كلَّ شىء إلا التراب ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك ، وتولية عمر بن عبد العزيز ، فكروا راجعين إلى الشام ، وقد جهدوا جهداً شديداً ، لكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية ، شديد البناء محكما ، رَحب الفناء شاهقاً فى السماء .

وقال الواقدى : لما ولى سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس ، ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية ، وأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرَّساتيق والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هُدمت حصونها ، ووهنت قوتها ، وإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا ما بأيديهم ويسلموا لك البلد . ثم استشار أخاه مَسلمة ، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة ، فتى ما فتحت فإن باقى ما دونها من البلاد والحصون بيدك ، فقال سليمان : هذا هو الرأى ، ثم أخذ فى تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة ، فجهز فى البر مائة وعشرين ألفا ، وفى البحر مائة وعشرين ألفا من المقاتلة ، وأخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية ، والإقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من بيت المقدس ، فدخل دمشق ، وقد اجتمعت له العساكر ، فأمّر عليهم أخاه مَسلمة ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله ، والصبر ، والتناصح ، والتناصف .

(١) المدى : مكيال ضخم لأهل مصر والشام .

ثم سار سليمان حتى نزل مرج دابق ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم ير مثله . ثم أمر مَسلمة أن يرحل بالجيوش ، وأخذ معه إليُون الرومي المرعشي ، ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية ، فحاصرها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مَسلمة ، فأبى إلا أن يفتحها عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليُون نشاوره ، فأرسله إليهم ، فقالوا له : رُدَّ هذه العساكر عنا ، ونحن نعطيك ونملكك علينا ، فرجع إلى مَسلمة ، فقال : قد أجابوا إلى فتحها ، غير أنهم لا يفتحونها حتى تتنحى عنهم ؛ فقال مَسلمة : إني أخشى غدرك ، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها ، فلما تنحى عنهم أخذوا فى ترميم ما تهدم من أسوارها ، واستعدوا للحصار ، وغدر إليُون بالمسلمين - قبحه الله .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة : أخذ سليمان بن عبد الملك العهد لولده أيّوب أنه الخليفة من بعده ، وذلك بعد موت أخيه مَروان بن عبد الملك ، فعَدل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولاية ولده أيّوب ، وتربص بأخيه الدوائر ، فمات أيّوب فى حياة أبيه ، فبايع سُليمان إلى ابن عمه - عمر بن عبد العزيز - أن يكون الخليفة من بعده ، ونعم ما فَعل .

وفيها : فتحت مدينة الصقالبة . قال الواقدى : وقد أغارت البُرجان[1] على جيش مَسلمة ، وهو فى قلة من الناس فى هذه السنة ، فبعث إليه سليمان جيشاً ، فقاتل البُرجان حتى هزمهم الله عز وجل .

وفيها : غزا يزيد بن المهلب - قُهستان من أرض الصين ، فحاصرها وقاتل عندها قتالا شديداً ، ولم يزل حتى تسلمها ، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً ، وأخذ منها ، من الأموال والأثاث والأمتعة مالا يحد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً ، ثم سار منها إلى جُرجان ، فاستجاش صاحبها بالدَّيلم ، فقدموا لنجدته ، فقاتلهم يزيد بن المهلب وقاتلوه ، فحمل محمد ابن عبد الرحمن بن أبى سَبرة الجُعْفى - وكان فارساً شجاعاً باهراً - على مَلك الدَّيلم فقتله ، وهزمهم الله .

ولقد بارز ابن أبى سَبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك ، فضربه التركى بالسيف على البيضة فنَشب فيها ، وضربه ابن أبى سَبرة فقتله ، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دما وسيف التركى ناشب فى خودته ، فنظر إليه يزيد بن المهلب فقال : ما رأيت منظراً أحسن من هذا ، مَن هذا الرجل ؟ قالوا : ابن أبى سَبرة . فقال : نعم الرجل لولا انهماكه فى الشراب .

---

(١) يرجح البعض أنهم أمة البلغار ، وهم أقرب الأمم النصرانية إلى القسطنطينية .

ثم صمم يزيد على محاصرة جُرجان ، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم ، وأربعمائة ألف دينار ، ومائتي ألف ثوب ، وأربعمائة حمار موقرة زعفراناً ، وأربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس ، على الترس طيلسان وجام من فضة وسرقة من حرير . وهذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها ، فتحها صلحاً على أن يحملوا الخراج في كل سنة مائة ألف ، وفي سنة مائتي ألف ، وفي بعض السنين ثلاثمائة ألف ، ويمنعون ذلك في بعض السنين ، ثم امتنعوا جملة وكفروا ، فغزاهم يزيد بن المهلب ، وردها صلحاً على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العاص .

قالوا : وأصاب يزيد بن المهلب من غيرها أموالا كثيرة جداً ، فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحداً يزهد في هذا ؟ قالوا : لا نعلمه ، فقال : والله إني لأعلم رجلا لو عُرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ، ثم دعا بمحمد بن واسع — وكان في الجيش مغازياً — فعرض عليه أخذ التاج ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج به من عنده ، فأمر يزيد رجلا أن يتبعه ، فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمرّ بسائل فطلب منه شيئاً ، فأعطاه التاج بكماله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل ، فأخذ منه التاج وعوضه عنه مالا كثيراً .

وقال علي بن محمد المدائني : قال أبو بكر الهذلي : كان شَهر بن حَوشب على خزائن يزيد ابن المهلب ، فرفعوا إليه أنه أخذ خريطةً فيها مائة دينار ، فسأله عنها ، فقال : نعم وأحضرها ؛ فقال له يزيد : هي لك ، ثم استدعى الذي وَشى به فشتمه ، فقال في ذلك القُطامي الكلابي ، ويقال : إنها لسنان بن مكمّل النميريّ :

لقد باع شَهر دينَه بخريطة ... فمن يأمن القراء بعد يا شَهرُ
أخذتَ به شيئاً طفيفاً وَبِعْتَه ... من ابن جُونبوذ إنّ هذا هو الغَدر

وقال مرة بن النَّخَعي لشهر :

يا ابنَ المهلّب ما أردتَ إلى امرىء ... لولاك كان كصالحِ القُرّاء

قال ابن جرير : ويقال : إن يزيد بن المهلب كان في غَزوة جُرجان في مائة ألف وعشرين ألفا ، منهم ستون ألفا من جيش الشام أثابهم الله ، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جُرجان ، وسلكت الطرق ، وكانت قبل ذلك مخوفة جداً . ثم عزم يزيد على المسير إلى خُوزستان ، وقدّم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس ، فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة آلاف ، إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم إن يزيد عزم على فتح البلاد لا محالة ، وما زال حتى صالحه صاحبها — وهو الإصْبَهْبَذ — بمال كثير ، سبعمائة ألف في كل عام ، وغير ذلك من المتاع والرقيق .

وممن توفى فيها من الأعيان :

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان إماماً حجة ، وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز ، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة .

أبو الحفص النخعي . عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقد ذكرنا تراجم فى التكميل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها : كانت وفاةُ سليمان بن عبد الملك ـ أمير المؤمنين ـ يوم الجمعة لعشر مضين ، وقيل : بقين من صفر منها ، عن خمس وأربعين سنة ، وقيل : عن ثلاث وأربعين ، وقيل : إنه لم يجاوز الأربعين وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر .

وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفى يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان منها ، وأنه استكمل فى خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، وله من العمر تسع وثلاثون سنة . والصحيح قول الجمهور ـ وهو الأول ، والله أعلم .

وهو : سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى ـ أبو أيوب كان مولده بالمدينة فى بنى جديلة ، ونشأ بالشام عند أبيه ، وروى الحديث عن أبيه ، عن جده ، عن عائشة أم المؤمنين ـ فى قصة الإفك . رواه ابن عساكر من طريق ابنه عبد الواحد بن سليمان عنه .

وروى عن عبد الرحمن بن هنيدة ، أنه صحب عبد الله بن عمر إلى الغابة ، قال : فسكت ، فقال لى ابن عمر : مالك ؟ فقال : إنى كنت أتمنى فقال ابن عمر : فما تتمنى يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال لى : لو أن لى أحداً من هذا ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ـ ما كرهت ذلك ، أو قال : ما خشيت أن يضرّ بى رواه محمد بن يحيى الذهلى ، عن أبى صالح ، عن عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر ، عن الزهرى عنه .

قال ابن عساكر : وكانت داره بدمشق موضع مَيضأة جيرون الآن ـ فى تلك المساحة جميعها ، وبنى داراً كبيرة مما يلى باب الصغير ـ موضع الدرب المعروف بدرب محرز ، وجعلها دار الإمارة ، وعمل فيها قبة صفراء تشبيهاً بالقبة الخضراء . قال : وكان فصيحاً مؤثراً للعدل ، محباً للغزو ، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحوهم على بناء الجامع بها .

قد روى أبو بكر الصولى : أن عبد الملك جمع بنيه : الوليد ، وسليمان ، ومَسلمة ـ بين يديه

فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة . ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى ، فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدنى كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب ولا يفحش ، هات يا وليد ، فقال الوليد :

مامرْكَب وركوب الخيل يعجبنى   كمركب بين دُملوج وخلخال

فقال عبد الملك : وهل يكون من الشعر أرق من هذا ؟ هات يا سليمان ، فقال :

حَبَّـــذا رَجْعُها يديها إليها   فى يَدَى درعها تحل الإزارا

فقال : لم تصب ، هات يا مَسلمة ، فأنشده قول امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قَلب مقتَّل

فقال : كذب امرؤ القيس ولم يصب ، إذا ذرفت عيناها بالوجد فما بقى إلا اللقاء ، وإنما ينبغى للعاشق أن يقتضى[1] منها الجفاء ويكسوها المودة ، ثم قال : أنا مؤجلكم فى هذا البيت ثلاثة أيام ، فمن أتانى به فله حكمه . أى مهما طلب أعطيته ، فنهضوا من عنده ، فبينما سليمان فى موكب إذا هو بأعرابى يسوق إبله ، وهو يقول :

لو ضربوا بالسيف رأسى فى مودّتها   لمال يهوى سريعاً نحوها راسى

فأمر سليمان بالأعرابى فاعتقل ، ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتك بما سألت ، فقال : هات ، وأنشده البيت ، فقال : أحسنت ، وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابى ، فقال : سل حاجتك ، ولا تنس صاحبك . فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك عهدت بالأمر من بعدك للوليد ، وإنى أحب أن أكون ولىّ العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك ، وبعثه على الحج فى إحدى وثمانين ، وأطلق له مائة ألف درهم ، فأعطاها سليمان لذلك الأعرابى الذى قال ذلك البيت من الشعر . فلما مات أبوه سنة ست وثمانين ، وصارت الخلافة إلى أخيه الوليد ، كان بين يديه كالوزير والمشير ، وكان هو المستحث على عمارة جامع دمشق . فلما توفى أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، كان سليمان بالرملة ، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس . وقيل : إنهم ساروا إليه إلى بيت المقدس ، فبايعوه هناك ، وعزم على الإقامة بالقدس ، وأتته الوفود إلى بيت المقدس ؛ فلم يروا وفادة هناك . وكان يجلس فى قبة فى صحن المسجد مما يلى الصخرة من جهة الشمال ، وتجلس أكابر الناس على الكراسى ، وتقسم فيهم الأموال ، ثم عزم على المجىء إلى دمشق ، فدخلها وكمل عمارة الجامع .

(١) يقتضى الجفاء : أى ينفى عنه ، ولعله « ينتضى » بمعنى يخلع ، فى مقابل قوله « ويكسوها » .

وفى أيامه جددت المقصورة ، واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ، وقال له : إنا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج ، وإخراج أهل السجون منها ، وإطلاق الأسرى ، وبذل الأعطية بالعراق ، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول ، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ؛ مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز وأمر بغزو القسطنطينية ، فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل ـ فى البر ـ نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب فى البحر ، عليهم عُمَر بن هُبَيرة ، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة ، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك فى جماعة من أهل بيته ؛ وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير ، حين قدم عليه من بلاد المغرب . والصحيح أنه قدم فى أيام أخيه الوليد ، والله أعلم .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الكوفى ، عن جابر بن عون الأسدى قال : أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك ـ حين ولى الخلافة ـ أن قال : الحمد لله الذى ما شاء صنع وما شاء رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع ، إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة تقلب ، تضحك باكياً وتبكى ضاحكاً ، وتخيف آمناً وتؤمن خائفاً ، تفقر مثريها ، وتثرى فقيرها ، ميالة لاعبة بأهلها . يا عباد الله ! اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارضوا به حكماً ، واجعلوه لكم قائداً ؛ فإنه ناسخ لما قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده . اعلموا ـ عباد الله ـ أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه ، كما يجلو ضوء الصبح ـ إذا تنفس ـ أدبار الليل إذا عسعس .

وقال يحيى بن معين ، عن حجاج بن محمد ، عن أبى معشر ، عن محمد بن قيس قال : سمعت سليمان بن عبد الملك يقول فى خطبته : فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه .

وقال حماد بن زيد ، عن يزيد بن حازم قال : كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة ، لا يدع أن يقول فى خطبته : وإنما أهل الدنيا على رحيل ، لم تمض لهم نية ، ولا تطمئن بهم حتى يأتى أمر الله ووعده ، وهم على ذلك . كذلك لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجائعها ، ولا تبقى من شر أهلها ، ثم يتلو (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)(١) .

وروى الأصمعى ، أن نقش خاتم سليمان كان : آمنت بالله مخلصاً .

وقال أبو مسهر ، عن أبى مسلم سلمة بن العيار الفزارى قال : كان محمد بن سيرين يترحم على

---

(١) الآيات : ٢٠٥ ـ ٢٠٧ من سورة الشعراء .

سليمان بن عبد الملك ، ويقول : افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

وقد أجمع علماء الناس والتواريخ ، أنه حج بالناس فى سنة سبع وتسعين ، وهو خليفة . قال الهيثم بن عدى : قال الشعبى : حج سليمان بن عبد الملك ، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره ! فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غداً خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، ثم قال : بالله أستعين .

وقال ابن أبى الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ، ثنا جرير ، عن عطاء بن السائب قال : كان عمر بن عبد العزيز فى سفر مع سليمان بن عبد الملك ، فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة ، حتى فزعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك ، فقال له سليمان : ما يضحكك يا عمر ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ! هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟

ومن كلامه الحسن ـ رحمه الله ـ قوله : الصمت منام العقل والنطق يقظته ، ولا يتم هذا إلا بهذا . ودخل عليه رجل فكلمه ، فأعجبه منطقه ، ثم فتشه ، فلم يحمد عقله ، فقال : فضل منطق الرجل على عقله خدعة ، وفضل عقله على منطقه هجنة ، وخير ذلك ما أشبه بعضه بعضاً . وقال : العاقل أحرص على إقامة لسانه منه على طلب معاشه . وقال أيضاً : إن من تكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن ، وليس كل من سكت فأحسن ـ قادراً على أن يتكلم فيحسن . ومن شعره يتسلى عن صديق له مات فقال :

وهوّن وجدى فى شراحيل أننى ... متى شئت لاقيت امرءاً مات صاحبه

ومن شعره أيضاً :

ومن شيمى ألاّ أفارق صاحبى ... وإن ملّنى إلا سألت له رشدا
وإن دام لى بالود دمت ولم أكن ... كآخر لا يرعى ذماماً ولا عهدا

وسمع سليمان ليلة صوت غناء فى معسكره ، فلم يزل يفحص حتى أتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس ليصهل فتستودق له الرَّمَكة[1] ، وإن الجمل ليهدر فتضبع له الناقة ، وإن التيس لينب[2] فتستخذى له العنز ، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة . ثم أمر بهم فقال : اخصوهم ،

---

(١) أى تخضع له وتريده ، واستودقت : أرادت الفحل ، والرمكة : الفرس (٢) نب : صاح عند الهياج.

فيقال : إن عمر بن عبد العزيز قال : يا أمير المؤمنين ! إنها مُثلة ، ولكن انفهم ، فنفام .
وفي رواية : أنه خصى أحدهم ، ثم سأل عن أصل الغناء ، فقيل : إنه بالمدينة فكتب إلى عامله بها ـ وهو أبو بكر بن محمد بن حزم ـ يأمره أن يخصى من عنده من المغنين المخنثين .

وقال الشافعي : دخل أعرابي على سليمان ، فدعاه إلى أكل الفالوذج ، وقال له : إن أكلها يزيد في الدماغ ، فقال : لو كان هذا صحيحاً لكان ينبغي أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل رأس البغل .

وذكروا أن سليمان كان نهماً في الأكل ، وقد نقلوا عنه أشياء في ذلك غريبة ؛ فمن ذلك : أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية وأربع وثمانين كُلوَة بشحمها ، وثمانين جَرْدَقة[1] ، ثم أكل مع الناس على العادة في السماط العام[2] .

ودخل ذات يوم بستاناً له ، وكان قد أمر قيمه أن يجنى ثماره ، فدخله ومعه أصحابه ، فأكل القوم حتى ملوا ، واستمر هو يأكل أكلا ذريعاً من تلك الفواكه ، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها ، ثم أقبل على أكل الفاكهة ، ثم أتى بدجاجتين فأكلهما ، ثم عاد إلى الفاكهة فأكل منها ، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل ـ مملوءاً سويقاً وسمناً وسكراً فأكله ، ثم عاد إلى دار الخلافة ، وأتى بالسماط فما فقدوا من أكله شيئاً[3] . وقد روى أنه عرضت له حمى عقب هذا الأكل أدته إلى الموت ، وقد قيل : إن سبب مرضه كان من أكل أربعمائة بيضة وسلتين تيناً ، فالله أعلم .

وذكر الفضل بن أبي المهلب وأنه لبس في يوم جمعة حلة صفراء ، ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء ، واعتم بعمامة خضراء ، وجلس على فراش أخضر ، وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر في المرآة ، فأعجبه حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال : أنا الخليفة الشاب . وقيل : إنه كان ينظر في المرآة من فرقه إلى قدمه ويقول : أنا الملك الشاب . وفي رواية : أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً ، وكان عمر فاروقاً ، وكان عثمان حييا ، وكان على شجاعاً ، وكان معاوية حليما ، وكان يزيد صبوراً ، وكان عبد الملك سائسا ، وكان الوليد جباراً ، وأنا الملك الشاب قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر ـ وفي رواية : جمعة ـ حتى مات . قالوا : ولما حُمّ شرع يتوضأ ، فدعا بجارية ، فصبت عليه ماء الوضوء ، ثم أنشدته :

أنت نعم المتاعُ لو كنت تبقَى غيرَ أنْ لا بقاء للإنسان
أنت خلو من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فان

---

(١) الجردقة : الرغيف . (٢) هذا وأمثاله مبالغات ، كان يتقرب بها الأعاجم إلى الخلفاء .
(٣) وهذا أيضاً من مبالغات الأعاجم ، فقد كان سليمان نحيفاً جميلا ، وهي صفة لا تتفق مع ما ذكر

قالوا : فصاح بها وقال : عزتنى فى نفسى ، ثم أمر خاله الوليد بن المهاص القعقاع العبسى أن يصب عليه وقال :

قرب وضوءك يا وليد فإنما دنياك هذى بلغة ومتاع
فاعمل لنفسك فى حياتك صالحا فالدهر فيه فرقة وجماع

ويروى أن الجارية لما جاءته بالطست جعلت تضطرب من الحمى ، فقال : أين فلانة ؟ فقالت : محمومة ، قال : ففلانة ؟ قالت : محمومة ، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين ، فأمر خاله فوضأه ، ثم خرج يصلى بالناس ، فأخذته بحة[1] فى الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحمى ، فمات فى الجمعة المقبلة . ويقال : إنه أصابته ذات الجنب ، فمات بها ــ رحمه الله .

وكان قد أقسم أنه لا يبرح بمرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية ، أو يموت قبل ذلك ، فمات قبل ذلك ــ رحمه الله وأكرم مثواه . قالوا : وجعل يلهج فى مرضه ويقول :

إن بنىّ صغار أفلح من كان له كبار

فيقول له عمر بن عبد العزيز : قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين ، ثم يقول :

إن بنىّ صبية صيفيون قد أفلح من كان له ربعيون

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به . والصحيح أن آخر ما تكلم به أن قال : أسألك منقلبا كريما ، ثم قضى .

وروى ابن جرير ، عن رجاء بن حيوة ــ وكان وزير صدق لبنى أمية ــ قال : استشارنى سليمان بن عبد الملك ــ وهو مريض ــ أن يولى له ابنا صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقلت : إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين الرجل الصالح ، ثم شاورنى فى ولاية ابنه داود ، فقلت : إنه غائب عنك بقسطنطينية ، ولا تدرى أحىّ هو أو ميت ؟ فقال : من ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه والله خيراً فاضلا مسلما يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك . فقال : هو والله على ذلك ، وأشار رجاء[2] أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ، ليرضى بذلك بنو مروان ، فكتب :

---

(١) البحة : خشونة وغلظ فى الصوت . (٢) هو : رجاء بن حيوة ، كما سيأتى قريباً .

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله - سليمان بن عبد الملك - لعمر بن عبد العزيز ، إنى قد وليته الخلافة من بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسى صاحب الشرطة ، فقال له : اجمع أهل بيتى فرهم فليبايعوا على ما فى هذا الكتاب مختوما ، فمن أبى منهم ضرب عنقه . فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين ، فقال لهم : هذا الكتاب عهدى إليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من وليت فيه ، فبايعوا لذلك رجلا رجلا . قال رجاء : فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال : أنشدك الله وحرمتى ومودتى إلا أعلمتنى ؛ إن كان كتب لى ذلك حتى أستعفيه الآن، قبل أن تأتى حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة ، فقلت: والله لا أخبرك حرفا واحدا . قال : ولقيه هشام بن عبد الملك فقال : يا رجاء ! إن لى بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرنى هذا الأمر إن كان إلىّ علمتُ ، وإن كان لغيرى فما مثلى قصّر به عن هذا. فقلت : والله لا أخبرك حرفا واحدا مما أسرّه إلىّ أمير المؤمنين . قال رجاء : ودخلت على سليمان فإذا هو يموت ، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة ، فإذا أفاق يقول : لم يأن لذلك بعد يا رجاء ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يا رجاء ، إن كنت تريد شيئا ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قال : فحرفته إلى القبلة فمات - رحمه الله .

قال : فغطيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه ، وأرسلت إلى كعب بن حامد ، فجمع الناس فى مسجد دابق ، فقلت : بايعوا لمن فى هذا الكتاب ، فقالوا : قد بايعنا ، فقلت : بايعوا ثانية ، ففعلوا ، ثم قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، وقرأت الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز - تغيرت وجوه بنى مروان ، فلما قرأت: وإن يزيد بن عبدالملك بعده ، تراجعوا بعض الشىء . ونادى هشام : لا نبايعه أبدا ، فقلت : أضرب عنقك والله ، قم فبايع ، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو فى مؤخر المسجد ، فلما تحقق ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون. ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه ، فأصعدوه على المنبر ، فسكت حينا ، فقال : رجاء بن حَيْوَة : ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه ! فنهض القوم فبايعوه ، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال عمر : نعم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ، الذى صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر .

ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبايعوه ، فكان مما قال فى خطبته : أيها الناس ! إنى لست بمبتدع ، ولكنى متبع ، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم،وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل. فأخذوا فى جهاز سليمان ، قال الأوزاعى: فلم يفرغوا منه حتى دخل

وقت المغرب ، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب ، ثم صلى على سليمان ، ودفن بعد المغرب ، فلما انصرف عمر أتى بمراكب الخلافة ، فأبى أن يركبها ، وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق ، فمالوا به نحو دار الخلافة فقال : لا أنزل إلا فى منزلى[1] حتى تفرغ دار أبى أيوب ، فاستحسنوا ذلك منه ، ثم استدعى بالكاتب ، فجعل يملى عليه نسخة الكتاب الذى يبايع عليه الأمصار . قال رجاء : فما رأيت أفصح منه .

قال محمد بن إسحاق : وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين — يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين ، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد ، وكذا قال الجمهور فى تاريخ وفاته ؛ ومنهم من يقول : لعشر بقين من صفر ، وقالوا : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، زاد بعضهم إلا خمسة أيام ، والله أعلم .

وقول الحاكم أبى أحمد : إنه توفى يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من رمضان سنة تسع وتسعين ، حكاه ابن عساكر ، وهو غريب جداً . وقد خالفه الجمهور فى كل ما قاله ، وعندهم أنه جاوز الأربعين ؛ فقيل : بثلاث ، وقيل : بخمس ، والله أعلم .

قالوا : وكان طويلا جميلا أبيض نحيفاً ، حسن الوجه ، مقرون الحاجبين ، وكان فصيحاً بليغاً ، يحسن العربية ، ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية — رحمه الله . وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق — ودابق قريبة من بلاد حلب ، لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية — أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت ، فمات هنالك كما ذكرنا ، فحصل له بهذه النية أجر الرباط فى سبيل الله ، فهو — إن شاء الله — ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة — رحمه الله .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلى ما مضمونه : أن مسلمة بن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية ، وتتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من الممالك ، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان يستنصره على مسلمة ، ويقول له : ليس لهم همة إلا فى الدعوة إلى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، وإنهم متى فرغوا منى خلصوا إليك ، فمهما كنت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن . فعند ذلك شرع — لعنه الله — فى المكر والخديعة ، فكتب

---

(١) كان منزله فى موضع مدرسة السميساطية الآن مما يلى باب مسجد بنى أمية الشمالى . أما قصر الخلافة الذى يسمى « الدار الخضراء » ، فكان وراء الجدار القبلى من مسجد بنى أمية . ويسمى موضعه الآن : « الصبغة الخضراء » .

إلى مسلمة يقول له : إن إليون كتب إلىّ يستنصرني عليك ، وأنا معك فمرني بما شئت . فكتب إليه مسلمة : إني لا أريد منك رجالا ولا عدداً ، ولكن ارسل إلينا بالميرة ، فقد قل ما عندنا من الأزواد . فكتب إليه : إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا ، فأرسل من يتسلمها ويشترى منها . فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك ، فيشترى له ما يحتاج إليه ، فذهب خلق كثير ، فوجدوا هنالك سوقا هائلة ، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة ، فأقبلوا يشترون ، واشتغلوا بذلك ، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من الكمائن بين تلك الجبال التي هنالك ، فخرجوا عليهم بغتة واحدة ، فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، وأسروا آخرين ، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك ، فأرسل جيشاً كثيفاً صحبة شراحيل بن عبيدة هذا ، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولا ؛ فيقاتلوا ملك البُرجان ، ثم يعودوا إلى مسلمة ، فذهبوا إلى بلاد البُرجان وقطعوا إليهم تلك الخلجان ، فاقتتلوا معهم قتالا شديداً ، فهزمهم المسلمون بإذن الله ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وخلصوا أسرى المسلمين ، ثم تحيزوا إلى مسلمة ، فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر ابن عبد العزيز ؛ خوفاً عليهم من غائلة الروم والبلاد ، ومن ضيق العيش ، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أثابهم الله .

وهذه خلافة عمر بن عبد العزيز - أشج بنى مروان
رضي الله عنه وأكرمه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين - وقد قيل : بقين - من صفر من هذه السنة - أعنى سنة تسع وتسعين - يوم مات سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه إليه من غير علم من عمر كما قدمنا . وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة ، من أول حركة بدت منه ؛ حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها ، والاجتزاء بمركوبه الذى كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة . ويقال : إنه خطب الناس ، فقال في خطبته : أيها الناس ، إن لي نفساً تواقة لا تعطى شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه ، وإني لما أعطيت الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها يرحمكم الله ، وستأتي ترجمته عند وفاته إن شاء الله . وكان مما بادر إليه عمر في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين ، وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال ، وضاق عليهم المجال ، لأنهم عسكر كثير ؛ فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى

الشام إلى منازلهم . وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عتاق ، يقال : خمسمائة فرس ، ففرح الناس بذلك .

وفيها أغارت الترك على أذربيجان ، فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، فوجه إليهم عمر حاتم ابن النعمان الباهلي ، فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وبعث منهم أسارى إلى عمر وهو بخُناصرة . وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم . باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله ، لكثرة الأشغال ، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك والله أعلم . فروى ابن عساكر في ترجمة جرير بن عثمان الرحبي الحمصي قال : رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حيّ على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة قد قاربت .

وفي هذه السنة عزل عُمر يزيد بن المهلب عن إمرة العراق ، وبعث عَدِيّ بن أرطاة الفَزاري على إمرة البصرة ، فاستقضى عليها الحسن البصري ، ثم استعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس ابن معاوية الذكي المشهور ، وبعث على إمرة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب ، وضم إليه أبا الزّناد كاتباً بين يديه ، واستقضى عليها عامراً الشعبي . قال الواقدي : فلم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز . وجعل على إمرة خراسان الجرّاح بن عبد الله الحكمي ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمرة المدينة أبو بكر ابن محمد بن عمرو بن حَزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة . وعزل عن إمرة مصر عبد الملك ابن أبي وداعة ، وولى عليها أيوب بن شُرحبيل ، وجعل الفُتيا إلى جعفر بن ربيعة ، ويزيد بن أبي حبيب ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، فهؤلاء الذين كانوا يفتون الناس . واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله المخزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن محمد بن الحنفية : تابعي جليل ، يقال : إنه أول من تكلم في الأرجاء ، وقد تقدم أن أبا عبيد قال : توفي في سنة خمس وتسعين ، وذكر خليفة ، أنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذكر شيخنا الذهبي في الأعلام أنه توفي هذا العام ، والله أعلم .

عبد الله بن محيريز بن جنادة بن عبيد القرشي الجمحي المكي ، نزيل بيت المقدس . تابعي جليل روى عن زوج أم أبي محذورة المؤذن ، وعبادة بن الصامت ، وأبي سعيد ، ومعاوية ، وغيرهم . وعنه خالد بن معدان ، ومكحول ، وحسان بن عطية ، والزهري ، وآخرون . وقد وثقه غير واحد وأثنى عليه جماعة من الأئمة ، حتى قال رجاء بن حيوة : إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز .

وقال بعض ولده : كان يختم القرآن كل جمعة ، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه .
قالوا : وكان صموتا معتزلا للفتن ، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يذكر شيئا من خصاله المحمودة . ورأى على بعض الأمراء حلة من حرير ، فأنكر عليه ، فقال : إنما ألبسها من أجل هؤلاء — وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين — فقال له ابن محيريز : لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين . وقال الأوزاعي : من كان مقتديا فليقتد بمثله ، فإن الله لا يضل أمة فيها مثله . قال بعضهم : توفى أيام الوليد . وقال خليفة بن خياط : توفى أيام عمر بن عبد العزيز . وذكر الذهبي في الأعلام ، أنه توفى في هذا العام ، والله سبحانه أعلم .
دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشترى منه ثوبا ، فرفع في السوم ، فقال له جاره : ويحك ! هذا ابن محيريز ضع له ، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال : اذهب بنا ، إنما جئت لنشترى بأموالنا لا بأدياننا ، فذهب وتركه .

نافع بن جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل القرشي النوفلي المدني . روى عن أبيه ، وعثمان ، وعلى ، والعباس ، وأبي هريرة ، وعائشة ، وغيرهم . وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم . وكان ثقة عابداً يحج ماشياً ومركوبه يقاد معه . قال غير واحد : توفى سنة تسع وتسعين بالمدينة .

كريب بن مسلم : مولى ابن عباس . روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان عنده حمل كتب ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة .

محمود بن لبيد بن عقبة ، أبو نعيم الأنصاري الأشهلي . ولد في حياة النبي ﷺ . وروى عنه أحاديث ، لكن حكمها حكم الإرسال وقال البخاري : له صحبة وقال ابن عبد البر : هو أحسن من محمود بن الربيع . قيل : إنه توفى سنة ست ، وقيل : سبع وتسعين . وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفى في هذا العام ، والله أعلم باليقين .

محمد بن جبير بن مطعم : كان من علماء قريش وأشرافها ، وله روايات كثيرة ، وكان يعقل مجة مجها النبي ﷺ في وجهه وعمره أربع سنين ، توفى وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة .

مسلم بن يسار : أبو عبد الله البصري ، الفقيه ، الزاهد . له روايات كثيرة ، كان لا يفضل عليه أحد في زمانه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع . وقيل : إنه وقع في داره حريق ، فأطفأوه وهو في الصلاة لم يشعر به . وله مناقب كثيرة — رحمه الله .
قلت : وانهدمت مرة ناحية من المسجد ، ففزع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفي المسجد في صلاته فما التفت . وقال ابنه : رأيته ساجداً وهو يقول : متى ألقاك وأنت عنى راض ، ثم يذهب في الدعاء ، ثم يقول : متى ألقاك وأنت عنى راض ، وكان إذا كان في غير صلاة كأنه في الصلاة ، وقد تقدمت ترجمته .

حنش بن عمرو الصنعانى : كان والى إفريقية وبلاد المغرب ، وبإفريقية توفى غازياً . وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة .

خارجة بن زيد بن الضحاك ، الأنصارى ، المدنى ، الفقيه . كان يفتى بالمدينة ، وكان من فقهائها المعدودين ، كان عالماً بالفرائض وتقسيم المواريث ، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم .

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن حفص ، أنبأ ورقاء ، عن منصور ، عن المنهال بن عمرو ، عن نعيم بن دجاجة قال : دخل ابن مسعود على علىّ فقال : أنت القائل : قال رسول الله ﷺ : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة[1] » ؟ إنما قال رسول الله ﷺ : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة ممن هو حىّ ، وإن رخاء هذه الأمة بعد المائة » . تفرد به أحمد . وفى رواية لابنه عبد الله : أن علياً قال له : يا فرّوخ أنت القائل : لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ممن هو حىّ اليوم ، وإنما رخاء هذه الأمة وفرحها بعد المائة ؟ إنما قال رسول الله ﷺ : « لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ، أخطأت أستك الحفرة ، وإنما أراد ممن هو اليوم حىّ » . تفرد به عبد الله بن أحمد. وهكذا جاء فى الصحيحين عن ابن عمر ، فوهل[2] الناس فى مقالة رسول الله ﷺ تلك ، وإنما أراد انخرام قرنه .

وفيها : خرجت خارجة من الحرورية[3] بالعراق ، فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة ، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق ، ويتلطف بهم ، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا فى الأرض ، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً ، فكسرهم الحَرُورية ، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه ، وأرسل عُمَر ـ ابن عمه مَسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم ، فأظفره الله بهم ، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج ـ وكان يقال له : بسطام ـ يقول له : ما أخرجك علىّ ؟ فإن كنت خرجت غضباً لله ، فأنا أحق بذلك منك ، ولست أولى بذلك منى ، وهلمّ أناظرك ، فإن رأيت حقاً اتبعته ، وإن أبديت حقا نظرنا فيه . فبعث طائفة من أصحابه إليه ، فاختار منهم عُمَر رجلين ، فسألهما : ماذا تنقمون ؟ فقالا : جَعْلك يزيد بن عبد الملك من بعدك ، فقال :

---

(١) أى : راغبة فى الحياة ، والمنفوس : الذى يتنافس فيه ويرغب . (٢) أى فزع .

(٣) نسبة إلى حروراء ، موضع بظاهر الكوفة تنسب إليه الحرورية من الخوارج ؛ لأنه كان أول اجتماعهم بها وتحكيمهم حين خالفوا عليا . وهذه النسبة من النوادر ، وكان القياس أن يقال : حروراوى .

إني لم أجعله أبداً ، وإنما جعله غيري . قالا : فكيف ترضى به أميناً للأمة من بعدك ؟ فقال : أنظراني ثلاثة ، فيقال : إن بني أمية دست إليه سمًّا فقتلوه خشية أن يخرج الأمر من أيديهم ويغنمهم الأموال ، والله أعلم .

وفيها : غزا عمر بن الوليد بن هشام المُعَيْطي ، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص - الصائفة . وفيها ولّى عمر بن عبد العزيز عمر بن هُبيرة الجزيرة فسار إليها . وفيها : حمل يزيد بن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز من العراق ، وأرسله عَدي بن أرطاة نائب البصرة مع موسى بن وجيه[1] ، وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، فلما دخل على عمر طالبه بما قبله من الأموال التي كان قد كتب إلى سليمان أنها حاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت ذلك لأرهب الأعداء بذلك ، ولم يكن بيني وبين سليمان شيء ، وقد عرفت مكانتي عنده . فقال له عمر : لا أسمع منك هذا ، واست أطلقك حتى تؤدي أموال المسلمين ، وأمر بسجنه . وكان عمر قد بعث على إمرة خراسان الجَرّاح بن عبد الله الحَكَمي عوضه ، وقدم ولد يزيد بن المهلب ، مَخْلد بن يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قد منّ على هذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكونن نحن أشقى الناس بك ، فعلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم له ؟ أتصالحني عنه ؟ فقال عمر : لا أصالحك عنه إلا أن تقوم بجميع ما يطلب منه ، ولا آخذ منه إلا جميع ما عنده من مال المسلمين . فقال : يا أمير المؤمنين ! إن كانت لك بينة عليه بما تقول ، وإلا فاقبل يمينه أو فصالحني عنه ، فقال : لا آخذ منه إلا جميع ما عنده . فخرج مخلد بن يزيد من عند عمر ، فلم يلبث أن مات مخلد . وكان عمر يقول : هُو خيرٌ من أبيه . ثم إن عمر أمر أن يلبس يزيد بن المهلب جُبَّةَ صوف ، ويركب على بعير إلى جزيرة دَهْلَك[2] التي كان ينفى إليها الفساق ، فشفعوا فيه فردَّه إلى السجن ، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه ، فهرب من السجن وهو مريض ، وعلم أنه يموت في مرضه ذلك ، وبذلك كتب إليه كما سيأتي[3] ، وأظنه كان عالماً أنّ عمر قد سقي سمًّا .

وفيها - في رمضان منها - عزل عمر بن عبد العزيز الجَرّاح بن عبد الله الحكمي ، عن إمرة خُراسان ، بعد سنة وخمسة أشهر ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ، ويقول : أنتم إنما تسلمون فراراً منها فامتنعوا من الإسلام ، وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ، ولم يبعثه جابياً . وعزله وولّى بدله عبد الرحمن ابن نعيم القُشَيري على الحرب ، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج . وفيها : كتب عمر إلى عُماله

---

(١) في الطبري : الوجيه الحيري (٢) جزيرة بين بر اليمن وبر الحبشة . (٣) انظر صفحة : ٢١٣

بأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، ويبين لهم الحق ، ويوضحه لهم ويعظهم فيما بينه وبينهم، ويخوفهم بأس الله وانتقامه . وكان فيما كتب إلى عبد الرحمن بن نُعيم القشيرى :

أما بعد : فكن عبداً لله ناصحاً لله فى عباده ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، ولا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم . وأداء الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه . وكتب مثل ذلك مواعظ كثيرة إلى العمال . وقال البخارى فى صحيحه : وكتب عمر إلى عدىّ بن عدى : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص .

وفيها كان بدوّ دعوة بنى العباس

وذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس - وكان مقيما بأرض الشّراة - بعث من جهته رجلا يقال له : مَيْسرة ، إلى العراق ، وأرسل طائفة أخرى وهم : محمد بن خُنَيس ، وأبو عكرمة السرّاج - وهو أبو محمد الصادق ، وحيان العطار - خال إبراهيم بن سلمة - إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمى قبل أن يعزل فى رمضان . وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لَقوا ثم انصرفوا بكُتُب من استجاب منهم - إلى ميسرة الذى بالعراق ، فبعث بها إلى محمد بن على ، ففرح بها واستبشر ، وسره أن ذلك أول مبادىء أمر قد كتب الله إتمامه ، وأول رأى قد أحكم الله إبرامه ، أن دولة بنى أمية قد بان عليها مخايل الوَهَن والضعف ، ولا سيما بعد موت عمر بن عبد العزيز ، كما سيأتى بيانه .

وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على - اثنى عشر نقيباً ، وهم : سليمان بن كثير الخزاعى ولاهز بن قريظ التميمى ، وقحطبة بن شبيب الطائىّ ، وموسى بن كعب التميمى ، وخالد بن إبراهيم أبو داود - من بنى عمرو بن شيبان بن ذُهْل ، والقاسم بن مجاشع التميمى ، وعمران ابن إسماعيل أبو النجم - مولى لآل أبى مُعَيط ، ومالك بن الهيثم الخزاعى ، وطلحة بن رُزَيق الخزاعى ، وعمرو بن أعين أبو حمزة - مولى لخزاعة ، وشِبْل بن طهمان أبو على الهروى - مولى لبنى حنيفة ، وعيسى بن أعين - مولى لخزاعة أيضاً . واختار سبعين رجلا أيضاً . وكتب إليهم محمد بن على كتاباً يكون لهم مثالا وسيرة يقتدون بها ويسيرون بها .

وقد حج بالناس فى هذه السنة : أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم - نائب المدينة . والنواب

على الأمصار هم المذكورون في التي قبلها ، سوى من ذكرنا ممن عزل وتولى غيره ، والله أعلم .
ولم يحج عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته لشغله بالأمور ، ولكنه كان يبرد البريد إلى المدينة فيقول له : سلم على رسول الله ﷺ عني . وسيأتي بإسناده إن شاء الله. وممن توفي فيها من الأعيان:

سالم بن أبي الجعد الأشجعي ، مولاهم الكوفي - أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران ومسلم ، وهو تابعي جليل . روى عن ثوبان[1] وجابر وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، والنعمان بن بشير وغيرهم . وعنه: قتادة والأعمش وآخرون ، وكان ثقة نبيلا جليلا .

أبو أمامة سهل بن حنيف الأنصاري الأوسي المدني ولد في حياة النبي ﷺ ، ورآه وحدث عن أبيه، وعمر ، وعثمان وزيد بن ثابت ، ومعاوية وابن عباس، وعنه الزهري ، وأبو حازم وجماعة قال الزهري : كان من علية الأنصار وعلمائهم ، ومن أبناء الذين شهدوا بدراً . وقال يوسف ابن الماجشون عن عتبة بن مسلم ، قال : آخر خرجة خرجها عثمان بن عفان إلى الجمعة - حصبه الناس ، وحالوا بينه وبين الصلاة ، فصلى بالناس يومئذ أبو أمامة سهل بن حنيف . قالوا : توفي سنة مائة ، والله أعلم .

أبو الزاهرية حدير بن كريب الحمصي، تابعي جليل ، سمع أبا أمامة - صُدَيّ بن عجلان ، وعبد الله ابن بسر ، ويقال إنه أدرك أبا الدرداء والصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسلة ، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده ، وقد وثقه ابن معين وغيره . ومن أغرب ما روى عنه قول قتيبة : ثنا شهاب بن خراش عن حميد عن أبي الزاهرية قال : أغفيت في صخرة بيت المقدس ، فجاءت السدنة[2] فأغلقوا عليّ الباب ، فما انتبهت إلا بتسبيح الملائكة ، فوثبت مذعوراً ، فإذا الملائكة صفوف ؛ فدخلت معهم في الصف . قال أبو عبيدة وغيره : مات سنة مائة .

أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني . صحابي ، وهو آخر من رأى النبي ﷺ وفاة بالإجماع قال : رأيت النبي ﷺ يستلم الركن بمحجنه ، وذكر صفة النبي ﷺ ، وروى عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود ، وحدث عنه الزهري وقتادة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين ، وكان من أنصار علي بن أبي طالب ، شهد معه حروبه كلها ، لكن نقم بعضهم عليه كونه كان مع المختار بن أبي عبيد ، ويقال إنه كان حامل رايته . وقد روى أنه دخل على معاوية فقال : ما أبقى لك الدهر من ثكلك علياً ؟ فقال : ثكل العجوز المقلاة[3] والشيخ الرقوب[4] . فقال : كيف حبك له ؟ قال حب أم موسى لموسى ، وإلى الله أشكو التقصير .

---

(١) قيل : لم يلق ثوبان ، ولم يسمع منه . (٢) السدنة : جمع سادن ، وهو خادم الكعبة أو بيت الصنم .
(٣) المقلاة : ما يقلي عليه . (٤) الرقوب : خلف الرجل من ولده وعشيرته .

قيل إنه أدرك من حياة النبي ﷺ ثمان سنين ، ومات سنة مائة ، وقيل : سنة سبع ومائة ، فالله أعلم . قال مسلمة بن الحجاج : وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً ، ومات سنة مائة

أبو عثمان النهدي : واسمه عبد الرحمن بن مُل البصري ، أدرك الجاهلية ، وحج في زمن الجاهلية مرتين ، وأسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره ، وأدى في زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي ﷺ ، ومثل هذا يسميه أئمة الحديث مخضرماً ، وهاجر إلى المدينة في زمان عمر بن الخطاب فسمع منه ، ومن علي وابن مسعود وخلق من الصحابة ، وصحب سلمان الفارسي ثنتي عشرة سنة حتى دفنه . وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، منهم : أيوب – وحميد الطويل – وسليمان بن طرخان التيمي وقال عاصم الأحول : سمعته يقول : أدركت في الجاهلية يغوث – صنما من رصاص يحمل على جمل أجرد ، فإذا بلغ واديا برك فيه فيقولون : قد رضي ربكم لكم هذا الوادي فينزلون فيه . قال : وسمعته وقد قيل له : أدركت النبي ﷺ ؟ فقال : نعم ! أسلمت على عهده ، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات ، ولم ألقه ، وشهدت اليرموك ، والقادسية ، وجلولاء ، ونهاوند .

كان أبو عثمان صواماً قواماً ، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه ، وكان يصلي حتى يغشى عليه ، وحج ستين مرة ما بين حجة وعمرة

قال سليمان التيمي : إني لأحسبه لا يصيب ذنباً ؛ لأنه ليله قائماً ونهاره صائماً ، وقال بعضهم : سمعت أبا عثمان النهدي يقول : أتت علي ثلاثون ومائة سنة وما مني شيء إلا وقد أنكرته ، خلا أملي ، فإني أجده كما هو . وقال ثابت البناني عن أبي عثمان قال : إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل ، قال : فيقول : من أين تعلم ذلك ؟ فيقول : قال الله تعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(١) ، فإذا ذكرت الله ذكرني . قال : وكنا إذا دعونا الله قال : والله لقد استجاب الله لنا ، قال الله تعالى (وقال رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم)(٢) ، قالوا : وعاش مائة وثلاثين سنة ، قاله هشيم وغيره قال المدائني وغيره : توفي سنة مائة ، وقال الفلاس : توفي سنة خمس وتسعين ، والصحيح سنة مائة ، والله أعلم .

وفيها : توفي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، وكان يفضل على والده في العبادة والانقطاع عن الناس ، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه .

---

(١) من الآية : ١٥٢ من سورة البقرة . (٢) من الآية : ٦٠ من سورة غافر .

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها : كان هرب يزيد بن المهلب من السجن - حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز - فواعد غلمانه يلقونه بالخيل فى بعض الأماكن ، وقيل : بإبل له ، ثم نزل من محبسه ، ومعه جماعة ، وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية ، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز : إنى والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغنى مرضك ، ولو رجوتُ حياتك ما خرجت ، ولكنى خشيت من يزيد بن عبد الملك ، فإنه يتوعدنى بالقتل . وكان يزيد يقول : لئن وَلِيتُ لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة ؛ وذلك أنه لما ولى العراق عاقب أصهاره آل عقيل ، وهم : بيت الحجاج بن يوسف الثقفى . وكان يزيد بن عبد الملك متزوجاً ببنت محمد بن يوسف ، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول ، كما سيأتى .

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال : اللهم إن كان يريد بهذه الأمة سوءاً ، فاكفهم شره ، واردد كيده فى نحره ، ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات ، وهو بخناصرة ، من دير سمعان بين حماه وحلب - فى يوم الجمعة ، وقيل : فى يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة - أعنى سنة إحدى ومائة - عن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل : إنه جاوز الأربعين بأشهر ، فالله أعلم .

وكانت خلافته - فيما ذكر غير واحد - سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وكان حكماً مقسطا ، وإماماً عادلا ، وورعاً ديناً ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، رحمه الله تعالى .

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز الأموى ، الإمام المعروف المشهور
رحمه الله وأكرم مثواه

هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف - أبو حفص القرشى ، الأموى ، المعروف - أمير المؤمنين . وأمه : أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما ؛ ويقال له : أشَجّ بنى مروان ، وكان يقال : الأشَجّ والناقصُ - أعدلاَ بنى مروان فهذا هو الأشج ، وسيأتى ذكر الناقص .

كان عمر تابعيا جليلا ، روى عن أنس بن مالك ، والسائب بن يزيد ، ويوسف بن عبد الله ابن سلام - ويوسف صحابى صغير . وروى عن خلق من التابعين وعنه جماعة من التابعين وغيرهم .

قال الإمام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة - إلا قول عمر بن عبد العزيز .

بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه له بذلك ، كما تقدم .

ويقال : كان مولده فى سنة إحدى وستين ، وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على بمصر . قاله غير واحد . وقال محمد بن سعد : ولد سنة ثلاث وستين ، وقيل : سنة تسع وخمسين ، فالله أعلم .

وكان له جماعة من الأخوة ، ولكن الذين هم من أبويه : أبو بكر ، وعاصم ، ومحمد . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة ، عن يحيى بن معين ، عن يحيى بن بكير ، عن الليث قال : بلغنى أن عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة ، كان يحدث : أن رجلا رأى فى المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولى الخلافة شك أبو بكر - أن منادياً بين السماء والأرض ينادى : أتاكم اللين والدين وإظهار العمل الصالح فى المصلين ، فقلت : ومن هو ؟ فنزل فكتب فى الأرض : « ع م ر » .

وقال آدم بن إياس : ثنا أبو على ثروان - مولى عمر بن عبد العزيز - قال : دخل عمر بن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه ، فضربه فرس فشجَّه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشجَّ بنى أمية ، إنك إذاً لسعيد . رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف ، عن ضمرة .

وقال نعيم بن حماد : ثنا ضمام بن إسماعيل ، عن أبى قبيل ، أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فبلغ أمه ، فأرسلت إليه فقالت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمه . وكان قد جمع القرآن وهو صغير .

وقال الضحاك بن عثمان الحزامى : كان أبوه قد جعله عند صالح بن كيسان يؤدبه ، فلما حج أبوه اجتاز به فى المدينة ، فسأله عنه ، فقال : ما خبرت أحداً الله أعظم فى صدره من هذا الغلام .

وروى يعقوب بن سفيان : أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً ، فقال صالح بن كيسان : ما شغلك ؟ فقال : كانت مُرَجِّلتى تسكن شعرى ، فقال له : قدَّمت ذلك على الصلاة ؟ وكتب إلى أبيه - وهو على مصر - يعلمه بذلك ؛ فبعث أبوه رسولا ، فلم يكلمه حتى حلق رأسه .

وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص علياً ، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلى ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلَّم أقبل على عمر مغضباً ، وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ قال : ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود . قال : فما سمع بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا أبى ، ثنا المفضل بن عبد الله ، عن داود بن أبى هند ، قال : دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب ـ وأشار إلى باب من أبواب مسجد النبى ﷺ ـ فقال رجل من القوم : بعث الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن ، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة ، ويسير سيرة عمر بن الخطاب . قال داود : والله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وقال الزبير بن بكار : حدثنى العتبى قال : إن أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ، ورغبته فى الأدب ، إن أباه ولى مصر ، وهو حديث السن يشك فى بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبة أو غير ذلك ، لعله يكون أنفع لى ولك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترحّلنى إلى المدينة ، فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم . فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدام ، فقعد مع مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهى التى يقول الشاعر فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدّها أخت الخلائف والخليفة زوجها

قال : ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها .

قال العتبى : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى متابعته فى النعمة ، والاختيال فى المشية ، وقد قال الأحنف بن قيس : الكامل من عُدت هفواته ، ولا تعدّ إلا من قلة . وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته ـ ما لم يرثه غيره فيما نعلم ، كما تقدم ذلك . ودخل يوماً على عمه عبد الملك ، وهو يتجانف[1] فى مشيته ، فقال : يا عمر ! مالك تمشى غير مشيتك ؟ قال : إن فىّ جُرحاً ، فقال : وأين هو من جسدك ؟ قال : بين الرانفة والصفْن ـ يعنى بين طرف الإلية وجلدة الخصية ـ فقال عبد الملك لروح بن زنباع : بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل هذا الجواب .

قالوا : ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوماً ، ولما ولى الوليد عامله بما كان أبوه يعامله به ، وولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين ، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين ، وسنة تسعين ، وحج الوليد بالناس سنة إحدى وتسعين ، ثم حج بالناس عمر سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين .

---

(١) أى : يتمايل ويختال .

وبنى فى مدة ولايته هذه مسجد النبى ﷺ، ووسعه عن أمر الوليد له بذلك ، فدخل فيه قبر النبى ﷺ ، وقد كان فى هذه المدة من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، كان إذا وقع له أمر مُشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم ، وكان لا يقطع أمراً بدونهم ، أو من حضر منهم ، وهم : عروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسالم ابن عبد الله ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب ، وقد كان سعيد بن المسيب لا يأتى أحداً من الخلفاء ، وكان يأتى إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة . وقال إبراهيم بن عَبلة : قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره ، وقد ندبهم عمر يوماً إلى رأى .

وقال ابن وهب : حدثنى الليث ، حدثنى قادم البربرى ، أنه ذاكر ربيعة بن أبى عبد الرحمن يوماً شيئاً من قضايا عمر بن عبد العزيز ، إذ كان بالمدينة ، فقال له الربيع : كأنك تقول . أخطأ ، والذى نفسى بيده ما أخطأ قط .

وثبت من غير وجه ، عن أنس بن مالك قال : ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى ــ يعنى عمر بن عبد العزيز ــ حين كان على المدينة . قالوا : وكان يتم الركوع والسجود ، ويخفف القيام والقعود . وفى رواية صحيحة : أنه كان يسبّح فى الركوع والسجود عشراً عشراً .

وقال ابن وهب : حدثنى الليث ، عن أبى النضر المدينى قال : رأيت سليمان بن يسار[1] خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز ، فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ! قلت تعلّمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم .

وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلّمنا منه .

وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة . وفى رواية : قال ميمون : كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء .

وقال الليث : حدثنى رجل كان قد صحب ابن عمر وابن عباس ، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة ، قال : ما التمسنا علم شىء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة .

---

(١) فى نسخة : سيار .

وقال عبد الله بن طاوس : رأيت أبى توافق هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا ، فلما افترقا قلت : يا أبة ! من هذا الرجل ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحى هذا البيت ـ يعنى بنى أمية ـ .

وقال عبد الله بن كثير : قلت لعمر بن عبد العزيز : ما كان بدء إنابتك ؟ قال : أردت ضرب غلام لى ، فقال لى : اذكر ليلة صبحتها يوم القيامة .

وقال الإمام مالك : لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة ـ يعنى فى سنة ثلاث وتسعين ـ وخرج منها ، التفت إليها وبكى ، وقال لمولاه : يا مزاحم ، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة ـ يعنى أن المدينة تنفى خبثها ، كما ينفى الكير خبث الحديد ـ وينصع طيبها[1] . قال : خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له : السويداء حيناً[2] ، ثم قدم دمشق على بنى عمه .

قال محمد بن إسحاق ، عن إسماعيل بن أبى حكيم قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : خرجت من المدينة وما من رجل أعلم منى ، فلما قدمت الشام نسيت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، ثنا حماد بن زيد ، عن معمر ، عن الزهرى قال : سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته ، فقال : كل ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيت .

وقال ابن وهب ، عن الليث ، عن عقيل ، عن الزهرى قال : قال عمر بن عبد العزيز : بعث إلىّ الوليد ذات ساعة من الظهيرة ، فدخلت عليه ، فإذا هو عابس ، فأشار إلىّ أن اجلس ، فجلست فقال : ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ أيقتل ؟ فسكت ، ثم عاد فسكت ، ثم عاد فقلت : أقتل يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكن سب ، فقلت : ينكل به ، فغضب وانصرف إلى أهله . وقال لى ابن الريان السياف : اذهب . قال : فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه .

وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك ـ وهو أمير المؤمنين ـ ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ما تقول يا عمر فى هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسئول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا

---

(١) أى يخلص ويصفو : والناصع : الخالص من كل شىء ، ونصع الأمر : وضح .

(٢) السويداء : أرض كان يملكها عمر بن عبد العزيز ، واستنبط فيها من عطائه عين ماء ، وله فيها قصر مبنى . ولما تنازل لبيت المال عن جميع ما ورثه عن آبائه ـ أبقى السويداء وخير ؛ لأنه اطمأن إلى أنهما حلال خالص ليس فيه أية شبهة . وكان ـ وهو خليفة ـ يأكل من غلتها ، وينفق ما يزيد عن الضرورة .

من العسكر إذا غراب قد أخذ اقمة فى فيه من فسطاط سليمان ، وهو طائر بها ، وصاح نعبة ، فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : ما ظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبك ؟ فقال عمر : أعجب ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها .

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعرفة ، ورأى سليمان كثرة الناس ، فقال له عمر : هؤلاء رعيتك اليوم ، وأنت مسئول عنهم غداً . وفى رواية : وهم خصماؤك يوم القيامة . فبكى سليمان وقال : بالله نستعين . وتقدم أنهم لما أصابهم ذلك المطر والرعد ، فزع سليمان وضحك عمر ، فقال له : أتضحك ؟ فقال : نعم هذه آثار رحمته ونحن فى هذه الحالة ، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن فى تلك الحال ؟

وذكر الإمام مالك : أن سليمان وعمر تقاولا مرة ، فقال له سليمان فى جملة الكلام : كذبت ، فقال : تقول كذبت ! والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله . ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال له : ما عرض لى أمر يهمنى إلا خطرتَ على بالى . وقد ذكرنا أنه لما حضرته الوفاة أوصى بالأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز ، فانتظم الأمر على ذلك ، ولله الحمد .

(فصل) وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون ، ثنا عبد الله ابن دينار قال : قال ابن عمر : يا عجبا ! ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضى حتى يلى رجل من آل عمر ، يعمل بمثل عمل عمر . قال : وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر . قال : وكان بوجهه أثر ، فلم يكن هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه : ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وقال البيهقى : أنبأ الحاكم ، أنبأ أبو حامد بن على المقرى ، ثنا أبو عيسى الترمذى ، ثنا أحمد بن إبراهيم ، ثنا عفان ، ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق ، عن جُوَيرية بن أسماء ، عن نافع قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب قال : إن من ولدى رجلا بوجهه شجّان يلى فيملأ الأرض عدلا . قال نافع من قبله : ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز . ورواه مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله ، عن نافع ، وقال : كان ابن عمر يقول : ليت شعرى ! مَن هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الأرض عدلا ؟

قال وهيب بن الوَرد : بينما أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب بنى شيبة وهو يقول : يا أيها الناس ! ولى عليكم كتاب الله فقلت : مَن؟ فأشار إلى ظُفره ، فإذا مكتوب عليه: ع م ر . قال : فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز .

وقال بقية ، عن عيسى بن أبى رزين ، حدثنى الخزاعى ، عن عمر بن عبد العزيز ، أنه رأى رسول الله ﷺ فى روضة خضراء ، فقال له : « إنك ستلى أمر أمتى ـ فزِع عن الدم ، فزِع عن الدم[1] ، فإن اسمك فى الناس ـ عمر بن عبد العزيز ، واسمك عند الله ـ جابر » .

وقال أبو بكر بن المقرى : ثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحرانى ، ثنا أيوب بن محمد الوزان ، ثنا ضمرة بن ربيعة ، ثنا السرى بن يحيى ، عن رياح بن عبيدة قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكىء على يده ، فقلت فى نفسى : إن هذا الشيخ جاف ، فلما صلّى ودخل لحقته ، فقلت : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ الذى أتكأته يدك ؟ فقال : يا رياح رأيته ؟ قلت : نعم ! قال : ما أحسبك يا رياح إلا رجلا صالحاً ، ذاك أخى الخضر ، أتانى فأعلمنى أنى سألى أمر هذه الأمة ، وأنى سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو عمير ، ثنا ضمرة ، عن على بن خولة ، عن أبى عنبس قال : كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية ، فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد ، فقال : هل علينا من عين ؟ فقال أبو عنبس : فقلت : عليكما من الله عين بصيرة ، وأذن سميعة . قال : فترقرقت عينا الفتى ، فأرسل يده من يد خالد وولّى . فقلت : مَن هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخى أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى .

قلت : قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شىء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم ، وكان ينظر فى النجوم والطب . وقد ذكرنا فى ترجمة سليمان بن عبد الملك ، أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده ، فصرفه وزيره الصالح ـ رَجاء بن حيوة عن ذلك ، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده ، وصوّب ذلك رجاء ، فكتب سليمان العهد فى صحيفة وختمها ، ولم يشعر بذلك عمر ، ولا أحد من بنى مروان سوى سليمان ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ، ورءوس الناس من بنى مروان وغيرهم ، فبايعوا سليمان على ما فى الصحيفة المختومة ، ثم انصرفوا ، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رَجاء بن حَيْوَة ، فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه ، فانعقدت له البيعة .

---

(١) أى كف عنه ، والوزعة : جمع وازع ، وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى مثل هذا الصنيع ، فى الرجل يُوصى الوصية فى كتاب ، ويشهد على ما فيه من غير أن يقرأ على الشهود ، ثم يشهدون على ما فيه فينفذ ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم . قال القاضى أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى : أجاز ذلك وأمضاه ، وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز ، وروى ذلك عن سالم بن عبد الله ـ وهو مذهب مالك ، ومحمد بن مسلمة المخزومى ، ومكحول ، ونمير بن أوس ، وزرعة بن إبراهيم ، والأوزاعى، وسعيد بن عبد العزيز ، ومن وافقهم من فقهاء الشام وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه وقضاة جنده ، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب ، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم . وروى عن قتادة وعن سوار بن عبد الله ، وعبيد الله بن الحسن ، ومعاذ بن معاذ العنبرى فيمن سلك سبيلهم ، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث ، منهم : أبو عبيد ـ وإسحاق بن راهويه قلت : وقد اعتنى به البخارى فى صحيحه . قال المعافى : وأبى ذلك جماعة من فقهاء العراق ، منهم : إبراهيم ـ وحماد ـ والحسن ، وهو مذهب الشافعى وأبى ثور ، قال : وهو قول شيخنا أبى جعفر . وكان بعض أصحاب الشافعى بالعراق يذهب إلى القول الأول ، قال الجريرى : وإلى القول الأول نذهب ، وتقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان أتى بمراكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول :

فلولا التقى ثم النهى خشية الردى   لعاصيت فى حب الصِّبا كل زاجر
قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى   له صبوة أخرى الليالى الغوابر

ثم قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . قدِّموا إلىّ بغلتى ، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية فيمن يزيد، وكانت من الخيول الجياد الثمينة ، فباعها وجعل أثمانها فى بيت المال . قالوا : ولما رجع من الجنازة ، وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا مغتما مهموماً ، وليس هذا بوقت هذا ؟ فقال : ويحك ! ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه ، كتب إلى فى ذلك أو لم يكتب ، طلبه منى أو لم يطلب . قالوا : ثم إنه خير امرأته فاطمة ، بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فسمعت ضجة فى داره ،ثم اختارت مقامها معه على كل حال ـ رحمها الله . وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين ، فأنشأ يقول:

قد جاء شغل شاغل   وعدلت عن طرق السلامه
ذهب الفراغ فلا فرا   غ لنا إلى يوم القيامة

وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال : لما ولى عمر بن عبد العزيز

صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فليفارقنا ؛ يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مالا نهتدى إليه ولا يغتابن عندنا أحداً ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه . فانقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله . وقال سفيان بن عيينة : لما وَلِى عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ، ورجاء ابن حيوة ، وسالم بن عبد الله فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به ، وما قد نزل بى ، فما عندكم ؟ فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولداً ، وبر أباك وصل أخاك ، وتعطف على ولدك . وقال رجاء : ارض للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم واعلم أنك أول خليفة تموت وقال سالم : اجعل الأمر واحداً وصُم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت . فكأن قد . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال غيره : خطب عمر بن عبد العزيز يوماً الناس فقال ــ وقد خنقته العبرة ــ : أيها الناس ! أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، وأصلحوا أسراركم يصلح لكم علانيتكم ، والله إن عبداً ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات ، إنه لَمُعرق[1] له فى الموت . وقال فى بعض خطبه : كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم فى الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بسهم حتفه ، فسلبه آثارة دنياه ، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه . إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلا وتحزن طويلا . وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد عليه السلام ، وإنى لست بقاض ، ولكنى منفذ ، وإنى لست بمبتدع ، ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم . ألا إن الإمام الظالم هو العاصى ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق عز وجل وفى رواية أنه قال فيها : وإنى لست بخير من أحد منكم ، ولكنى أثقلكم حملا ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، ألا هل أسمعت .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أحمد بن يحيى الحلوانى ، ثنا محمد بن عبيد ، ثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان ، حدثنى ابن السعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر ابن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سُدًى وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ،

(١) أى صار فيه عريقا وله به صلة .

وحُرِمَ جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بباق ، ونافداً بما لا نفاد له ، وقليلا بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم للباقين ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع ، قد قضى نحبه حتى تغيبوه فى صدع من الأرض فى بطن صدع غير مُوسّد ولا ممهّد ، قد فارق الأحباب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مُرتهن بعمله ، غنى عما ترك ، فقير لما قدم فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم ، أما إنى أقول هذا ، ثم وضع طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله . وفى رواية : وأيم الله إنى لأقول قولى هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ، ولكنها سنن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، وأستغفر الله ، ووضع كمّه على وجهه فبكى حتى بلّ لحيته ، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله[1]

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز ، أنه رأى رسول الله ﷺ فى النوم وهو يقول : « ادن يا عمر ، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه ، فقال : إذا وليت فاعمل نحواً من عمل هذين ؛ فإذا كهلان قد اكتنفاه ، فقلت : ومن هذان ؟ قال : هذا أبو بكر وهذا عمر » . وروينا أنه قال لسالم بن عبد الله بن عمر : اكتب لى سيرة عمر حتى أعمل بها ، فقال له سالم : إنك لا تستطيع ذلك ، قال : ولم ؟ قال : إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجد على الخير أعوانا ، وأنت لا تجد من يعينك على الخير وقد روى أنه كان نقش خاتمه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وفى رواية : آمنت بالله ، وفى رواية : الوفاء عزيز . وقد جمع يوماً رءوس الناس فخطبهم فقال : إن فدك كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله ، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ، قال الأصمعى : وما أدرى ما قال فى عثمان ، قال : ثم إن مروان أقطعها ، فحصل لى منها نصيب ، ووهبنى الوليد وسليمان نصيبهما ، ولم يكن من مالى شىء أرده أغلى منها ، وقد رددتها فى بيت المال على ما كانت عليه فى زمان رسول الله ﷺ . قال : فيئس الناس عند ذلك من المظالم ، ثم أمر بأموال جماعة من بنى أمية ، فردها إلى بيت المال ، وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا إليه بالناس ، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان ، فلم ينجع فيه شىء ، وقال لهم : لتدعنى وإلا ذهبت إلى مكة ، فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به ، وقال : والله لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل ، وإنى لأريد الأمر ، فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم .

(١) فى هذه الخطبة تفسير لبعض الألفاظ والجمل ، ذكرها ابن جرير ، ولكنها لا تخرج عن صميم الموضوع .

وقال الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : إن كان فى هذه الأمة مهدىّ ـ فهو عمر بن عبد العزيز ، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد . وقال طاوس : هو مهدى وليس به ، إنه لم يستكمل العدل كله ، إذا كان المهدى ثبت على المسىء من إساءته ، وزيد المحسن فى إحسانه ، سمح بالمال ، شديد على العمال ، رحيم بالمساكين .

وقال مالك، عن الرحمن بن حرملة ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخلفاء أبو بكر والعمران ، فقيل له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما ، فمن عمر الآخر ؟ قال : يوشك إن عشت أن تعرفه ، يريد عمر ابن عبد العزيز ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال : هو أشج بنى مروان .

وقال عباد السماك ـ وكان يجالس سفيان الثورى ـ : سمعت الثورى يقول : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز وهكذا روى عن أبى بكر بن عياش والشافعى وغير واحد . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل ، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وذكره غير واحد فى الأئمة الاثنى عشر ، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : « لا يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » .

وقد اجتهد رحمه الله فى مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذى حق حقه ، وكان مناديه فى كل يوم ينادى : أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء . وقد اختلف العلماء أيهم أفضل ؟ هو أو معاوية بن أبى سفيان ؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدلته ، وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته وذكر ابن عساكر فى تاريخه ، أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فكان سألها إياها إما بيعاً أو هبة ، فكانت تأبى عليه ذلك فلما ولى الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ، ووهبتها منه ، فلما أخلتها به أعرض عنها ، فتعرضت له فصدف عنها ، فقالت له : يا سيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى ؟ فقال : والله إن محبتك لباقية كما هى ، ولكن لا حاجة لى فى النساء ، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك . ثم سألها عن أصلها ، ومن أين جلبوها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! إن أبى أصاب جناية ببلاد المغرب ، فصادره موسى بن نصير ، فأخذت فى الجناية ، وبعث بى إلى الوليد ، فوهبنى الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك ، فأهدتنى إليك فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها .

وقالت زوجته فاطمة : دخلت يوماً عليه ـ وهو جالس فى مصلاه ، واضعاً خده على يده ، ودموعه تسيل على خديه ـ فقلت : مالك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ! قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته ، فرحمت نفسى فبكيت .

وقال ميمون بن مهران : ولانى عمر بن عبد العزيز عمالة ، ثم قال لى : إذا جاءك كتاب منى على غير الحق فاضرب به الأرض .

وكتب إلى بعض عماله : إذا دعتك قدرتك على الناس إلى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ، ونفاد ما تأتى إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك .

وقال عبد الرحمن بن مهدى ، عن جرير بن حازم ، عن عيسى بن عاصم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن عدى : إن للإسلام سنناً وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش أبينها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص . وذكره البخارى فى صحيحه تعليقا مجزوما به .

وذكر الصولى ، أن عمر كتب إلى بعض عماله : عليك بتقوى الله فإنها هى التى لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . وقال : من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه وينفعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . وقال : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه . ومَن عَبَد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه .

وكلمه رجل يوماً حتى أغضبه ، فهمَّ به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل : أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله منى غداً ؟ قم ـ عافاك الله ـ لا حاجة لنا فى مقاولتك .

وكان يقول : إن أحب الأمور إلى الله القصد فى الجد ، والعفو فى المقدرة ، والرفق فى الولاية ، وما رفق عبد بعبد فى الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة .

وخرج ابن له ـ وهو صغير ـ يلعب مع الغلمان ، فشجه صبى منهم ، فاحتملوا الصبى الذى شجّ ابنه ، وجاءوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم ، فإذا مُرَيئة تقول : إنه ابنى وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هونى عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء فى الديوان ؟ قالت : لا ! قال : فاكتبوه

فى الدرية . فقالت زوجته فاطمة : أنفعل هذا به وقد شج ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية . فقال : ويحك ! إنه يتيم وقد أفزعتموه .

وقال مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد ، أى زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة .

قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد ، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس ، وقد وقف مرة على راهب فقال له : ويحك ! عظنى ، فقال له : عليك بقول الشاعر :

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

قال : وكان يعجبه ويكرره ، وعمل به حق العمل . قالوا : ودخل على امرأته يوماً ، فسألها أن تقرضه درهما أو فلوسا يشترى له بها عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس فى خزانتك ما تشترى به عنباً ؟ فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً فى نار جهنم . قالوا : وكان سراج بيته على ثلاث قصبات فى رأسهن طين . قالوا : وبعث يوماً غلاماً ليشوى له لحمة ، فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : فى المطبخ ، فقال : فى مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم . فقال : كلها فإنى لم أرزقها ، وهى رزقك . وسخنوا له الماء فى المطبخ العام ، فرد بدل ذلك بدرهم حطباً . وقالت زوجته : ما جامع ولا احتلم وهو خليفة .

قالوا : وبلغ عمر بن عبد العزيز عن أبى سلام الأسود ، أنه يحدث عن ثوبان بحديث الحوض ، فبعث إليه ، وأحضره على البريد وقال له ، كالمتوجع له : يا أبا سلام ! ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافهنى بالحديث مشافهة ، فقال : سمعت ثوبان يقول : قال رسول الله ﷺ : « حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس وروداً عليه ــ فقراء المهاجرين ؛ الشعث رءوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد » . فقال عمر : لكنى نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، فلا جرم ، لا أغسل رأسى حتى يشعث ، ولا ألقى ثوبى حتى يتسخ .

قالوا : وكان له سراج يكتب عليه حوائجه ، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين ، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً . وكان يقرأ فى المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يطيل القراءة ، وكان له ثلاثمائة شرطى ، وثلاثمائة حرسى . وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً فاشتمه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قد بلغت محلها ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ! إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك ، فقال : إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية ،

وأما نحن فهي لنا رشوة . قالوا : وكان يوسع على عماله في النفقة ؛ يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار ، ومائتي دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ؟ فقال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم . وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم ، فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً من قبل ذلك .

وقال يوماً لرجل من ولد علي : إني لأستحي من الله أن تقف ببابي ، ولا يؤذن لك .

وقال لآخر منهم : إني لأستحي من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به .

وقال أيضاً : كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم ، مرة لنا ومرة علينا ، نلجأ إليهم ويلجئون إلينا ، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق ، وأخرست كل منافق ، وأسكتت كل ناطق .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أبو بكر ابن أخي خطاب ، ثنا خالد بن خداش ، ثنا حماد بن زيد ، عن موسى بن أعين الراعي ـ وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة ـ قال : كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد ، فعرض ذات يوم لشاة منها ذئب ، فقلت : إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال : فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة . ورواه غيره عن حماد ، فقال : كان يرعى الشاة بكرمان ، فذكر نحوه . وله شاهد من وجه آخر .

ومن دعائه : اللهم إن رجالا أطاعوك فيما أمرتهم ، وانتهوا عما نهيتهم ، اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني .

ومنه : اللهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر .

وقال له رجل : أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك ، فقال : هذا شيء قد فرغ منه ، ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار .

وقال له رجل : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئاً بطيناً ، متلوثاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل .

ودخل عليه رجل[1] ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر[2] :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

قال : فأعرض عنه عمر . وقال رجاء بن حيوة : سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فعشي السراج فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟ فقال : لا ! دعه ينام ،

---

(١) هو بلال بن أبي بردة حفيد ابن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . (٢) هو مالك بن أسماء .

لا أحب أن أجمع عليه عملين فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ! ليس من المروءة استخدام الضيف ، ثم قام بنفسه فأصلحه ، وصب فيه زيتاً ، ثم جاء وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز . وقال : أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها . وقال : إنه ليمنعني من كثرة ذكرها مخافة المباهاة . وبلغه أن رجلا من أصحابه توفي ، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه ، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه ، فقال : مه ، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، وإن الذي يرزقكم حيّ لا يموت ، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حفركم ، وإنما سد حفرة نفسه ، ألا وإن لكل امرىء منكم حفرة لا بد والله أن يسدّها ، إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم ، كل الناس يصيرون إليه غداً .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر إلى القبور ، فقال لي : يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات ؟ واستحكم فيهم البلاء ؟ ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله . وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة ، فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتي قبور الأحبة ، فأتاهم فجعل يبكي ويدعو ، إذ هتف به التراب فقال : يا عمر ! ألا تسألني ما فعلت في الأحبة ؟ قال : قلت : وما فعلت بهم ؟ قال : مزقت الأكفان ، وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدقتين ، ونزعت الكفين من الساعدين ، والساعدين من العضدين ، والعضدين من المنكبين ، والمنكبين من الصلب ، والقدمين من الساقين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الورك ، والورك من الصلب . فلما أراد أن يذهب قال له : يا عمر ! أدلك على أكفان لا تبلى ؟ قال : وما هي ؟ قال : تقوى الله ، والعمل الصالح .

وقال مرة لرجل من جلسائه : لقد أرقت الليلة مفكراً ، قال : وفيم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره ، وما صار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ، وتخترق فيه الديدان ، ويجري فيه الصديد ، مع تغير الريح ، وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خرّ مغشياً عليه .

وقال مقاتل بن حيان : صليت وراء عمر بن عبد العزيز ، فقرأ : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ

مَسْئُولُونَ)[1]، فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها . وقالت امرأته فاطمة : ما رأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحداً أشد فرَقاً من ربه منه ؛ كان يصلى العشاء ، ثم يجلس يبكى حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكى حتى تغلبه عيناه . قالت : ولقد كان يكون معى فى الفراش فيذكر الشىء من أمر الآخرة ، فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ، ويجلس يبكى ، فأطرح عليه اللحاف رحمة له ، وأنا أقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وقال على بن زيد : ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما - مثل الحسن ، وعمر بن عبد العزيز . وقال بعضهم : رأيته يبكى حتى بكى دماً . قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ)[2] الآية ، ويقرأ : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ)[3]، ونحو هذه الآيات ، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة .

وقال أبو بكر الصولى : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فما تزوَّدَ مما كان يجمعه ... سوى حَنوط غداة البين فى خرق
وغير نفحة أعـــــواد تشبُّ له ... وقلَّ ذلك من زاد لمنطلق
بأيِّما بلد كانت منيتـــــه ... إن لا يسر طائعاً فى قصدها يُسَق

ونظر عمر بن عبد العزيز - وهو فى جنازة - إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل ، فبكى وأنشد :

من كان حين تُصيب الشمس جبهتَه ... أو الغبار يخاف الشَّين والشعثا
ويألفُ الظلَّ كى تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً راغما جدثا
فى قعر مظلمة غبراء موحشـــــة ... يطيل فى قعرها تحت الثرى اللبثا
تجهزى بجهاز تبلغـــين به ... يا نفسُ قبل الرَّدى لم تخلقى عبثا

[هذه الأبيات ذكرها الآجرى فى أدب النفوس بزيادة فيها ، فقال : أخبرنا أبو بكر ، أنبأنا أبو حفص عمر بن سعد القراطيسى ، حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى الدنيا ، حدثنى محمد بن صالح القرشى ، أخبرنى عمر بن الخطاب الأزدى ، حدثنى ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبى عمرة

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الصافات (٢) من الآية : ٥٤ من سورة الأعراف
(٣) من الآية : ٩٧ من السورة نفسها .

قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى إليون - طاغية الروم - يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ! ائذن لى فى بعض بنىّ يخرج معى - وكان عبد الأعلى له عشرة من الذكور - فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك . فقال : عبد الله . فقال له عمر : إنى رأيت ابنك عبد الله يمشى مشية كرهتها منه ، ومقته عليها ، وبلغنى أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : أما مشيته تلك فغريزة فيه ، وأما الشعر فإنما هو نوّاحة ينوح بها على نفسه ، فقال له : مر عبد الله يأتينى وخذ معك غيره ، فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشده ، فأنشده ذلك الشعر المتقدم :

تجهزى بجهاز تبلغين به | يا نفس قبل الردى لم تخلقى عبثا
ولا تكدّى لمن يبقى وتفتقرى | إن الردى وارث الباقى وما ورثا
واخشى حوادث صرف الدهر فى مهل | واستيقظى لا تكونى كالذى بحثا
عن مدية كان فيها قطع مدّته | فوافت الحرث موفوراً كما حرثا
لا تأمنى فجع دهرٍ مترف ختل | قد استوى عنده من طاب أو خبثا
يا رُبّ ذى أمل فيه على وجل | أضحى به آمناً أمسى وقد حدثا
من كان حين تصيب الشمس جبهته | أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كى تبقى بشاشته | فكيف يسكن يوماً راغما جدثا
قفراء موحشة غبراء مظلمة | يطيل تحت الثرى من قعرها اللبثا

وقد ذكرها ابن أبى الدنيا ، فعمر أنشدها عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان عمر يتمثل بها كثيراً ويبكى (١)

وقال الفضل بن عباس الحلبى : كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت :

ولا خير فى عيش امرىء لم يكن له | من الله فى دار القرار نصيب

وزاد غيره معه بيتاً حسناً ، وهو قوله :

فإن تُعجب الدنيا أناسًا فإنها | متاع قليل والزوال قريب

ومن شعره الذى أنشده ابن الجوزى :

أنا ميت وعزّ من لا يموت | قد تيقنت أننى سأموت
ليس ملك يزيله الموت ملكا | إنما الملك ملك من لا يموت

(١) ما بين القوسين سقط فى بعض النسخ .

وقال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول[1] :

تُسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى كما اغتر باللذات فى النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والرّدى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم ؟ وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرّقت محاجرَ عينيك الدموعُ السواجم
بل اصبحت فى النوم الطويل وقد دنت إليك أمور مفظعات عظائم
وتكدح فيما سوف تكره غِبّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
فلا أنت فى النوام يومًا بسالم ولا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم

وروى ابن أبى الدنيا بسنده ، عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول : لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة ، فقلت : أخبرنى بها ، فقال : حتى نصبح ، فلما صلى بالمسلمين دخل فسألته ، فقال : رأيت كأنى دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر ، وإذا فيها قصر كأنه الفضة ، فخرج منه خارج ، فنادى : أين محمد بن عبد الله ؟ أين رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ ، حتى دخل ذلك القصر . ثم خرج آخر ، فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر ، فنادى : أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر ، فنادى . أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر ، فنادى : أين على بن أبى طالب ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر ، فنادى : أين عمر بن عبد العزيز ؟ فقمت فدخلت ، فجلست إلى جانب أبى عمر بن الخطاب ، وهو من يسار رسول الله ﷺ ، وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله ﷺ رجل ، فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم سمعت هاتفًا يهتف بينى وبينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز ! تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه ، ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت ، فالتفت فإذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر ، وهو يقول : الحمد لله الذى نصرنى ربى ، وإذا علىّ فى إثره وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى ربى .

(١) وهى من نظم عبد الله بن عبد الأعلى .

فصل

وقد ذكرنا فى دلائل النبوة ، الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها أمر دينها » . فقال جماعة من أهل العلم ، منهم : أحمد بن حنبل – فيما ذكره ابن الجوزى وغيره – : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، وإن كان هو أولى من دخل فى ذلك وأحق ؛ لإمامته وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده فى تنفيذ الحق ؛ فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به . وقد جمع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى سيرة لعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب فى مجلد على حدة ، ومسنده فى مجلد ضخم وأما سيرة عمر بن عبد العزيز ، فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا ، يستدل به على مالم نذكره .

وقد كان عمر – رحمه الله – يعطى من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها ، للفقه ونشر العلم ، وتلاوة القرآن ، فى كل عام من بيت المال مائة دينار ، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ، ويقول : إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله . وكتب إلى سائر البلاد : أن لا يركب ذمى من اليهود والنصارى وغيرهم على سَرْج ، ولا يلبس قباء ، ولا طيلساناً ، ولا السراويل ، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنّار من جلد[1] ، وهو مقرون[2] الناصية ، ومن وجد منهم فى منزله سلاح أخذ منه . وكتب أيضاً أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن ، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عنده خير . وكان يكتب إلى عماله : اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة ، فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً . وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة ، وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه ، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ .

وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة . وقد كتب إليه الحسن البصرى بمواعظ حسان ، ولو تقصينا ذلك لطال هذا الفصل ، ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك . وكتب إلى بعض عماله : اذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيالها من ليلة وياله من صباح ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً . وكتب إلى آخر : أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك . قالوا : نخلع هذا العامل نفسه من العمالة ، وقدم على عمر فقال له : مالك ؟ فقال : خلعت قلبى بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

---

(١) الزنار : ما يشده النصارى والمجوس على الوسط كالحزام (٢) أى له ذؤابتان يضفرها فى قرنى رأسه .

فصـــل

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا ، حتى إنه رد فص خاتم كان فى يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع ، حتى إنه ترك التمتع بزوجته الحسناء ؛ فاطمة بنت عبد الملك ، يقال كانت من أحسن النساء ، ويقال إنه ردّ جهازها إلى بيت المال ، والله أعلم . وقد كان دخله فى كل سنة قبل أن يلى الخلافة أربعين ألف دينار ، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار فى كل سنة ، وكان حاصله فى خلافته ثلاثمائة درهم ، وكان له من الأولاد جماعة ، وكان ابنه عبد الملك أجلهم ، فمات فى حياته فى زمن خلافته ، حتى يقال : إنه كان خيراً من أبيه ، فلما مات لم يظهر عليه حزن ، وقال : أمر رضيه الله فلا أكرهه ، وكان قبل الخلافة ، يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما ولى الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ، ولا يغسله حتى يتسخ جداً ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه . وكان يلبس الفروة الغليظة ، وكان سراجه على ثلاث قصبات فى رأسهن طين ، ولم يبن شيئاً فى أيام خلافته ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، وقال : ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوضنى الله ما هو خير منه ، وكان يأكل الغليظ ، ولا يبالى بشىء من النعيم ، ولا يتبعه نفسه ولا يوده . حتى قال أبو سليمان الدارانى : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرنى ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ولا ندرى حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب . وتقدم قول مالك بن دينار : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز .

وقال عبد الله بن دينار : لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً ، وذكروا أنه أمر جارية حتى ينام فروحته تروحه ، فنامت هى ، فأخذ المروحة من يدها ، وجعل يروحها ويقول : أصابك من الحر ما أصابنى . وقال له رجل : جزاك الله عن الإسلام خيراً ، فقال : بل جزى الله الإسلام عنى خيراً ويقال إنه كان يلبس تحت ثيابه مِسْحاً[1] غليظاً من شعر ، ويضع فى رقبته غلاً إذا قام يصلى من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه فى مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنونه مالاً أو جوهراً من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك المكان ، فإذا فيه غلّ ومِسْح .

وكان يبكى حتى يبكى الدم مع الدموع ، ويقال : إنه بكى فوق سطح حتى سال دمعه من الميزاب وكان يأكل من العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته ، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله ، وقرأ رجل عنده (وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ)[2] الآية ؛ فبكى بكاء شديداً ، ثم قام

---

(١) المسح : الكساء الغليظ من الشعر (٢) من الآية : ١٣ من سورة الفرقان .

فدخل منزله وتفرق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول : اللهم سلم سلم ، وكان يقول : اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح لأمة محمد ﷺ ، وأهلك من كان فى هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ .
وقال: أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم وقال : لو أن المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، ولذهب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة . وقال : الدنيا عدوة أولياء الله ، وولية أعداء الله ، أما الأولياء فغمتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء فغرتهم وشغلتهم وأبعدتهم عن الله . وقال : قد أفلح من عُصم من المراء والغضب والطمع وقال لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله وقال : أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب .

وقال : لقد بورك لعبد فى حاجة أكثر فيها سؤال ربه ، أعطى أو منع . وقال : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال لرجل : علم ولدك الفقه الأكبر ؛ القناعة وكف الأذى . وتكلم رجل عنده فأحسن فقال : هذا هو السحر الحلال . وقصته مع أبى حازم مطولة حين رآه خليفة ، وقد شحب وجهه من التقشف ، وتغير حاله ، فقال له : ألم يكن ثوبك نقيا ؟ ووجهك وضيأ ؟ وطعامك شهيا ؟ ومركبك وطيا ؟ فقال له : ألم تخبرنى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن من ورائكم عقبة كئوداً لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فذكر أنه لقى فى غشيته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعى بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم إلى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم ، ثم دعى هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلنى ربى بكل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ما ينتظره الموحدون . وفضائله ومآثره كثيرة جداً ، وفيما ذكرنا كفاية ، ولله الحمد والمنة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به.

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل ، وقيل : سببها أن مولى له سمه فى طعام أو شراب ، وأعطى على ذلك ألف دينار ، فحصل له بسبب ذلك مرض ، فأخبر أنه مسموم ، فقال : لقد علمت يوم سُقيت السم ، ثم استدعى مولاه الذى سقاه ، فقال له : ويحك !! ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ألف دينار أعطيتها . فقال : هاتها ، فأحضرها فوضعها فى بيت المال ، ثم قال له : اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك . ثم قيل لعمر : تدارك نفسك ، فقال : والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى أو أوتى بطيب فأشمه ما فعلت ، فقيل له : هؤلاء بنوك ـ وكانوا اثنى عشر ـ ألا توصى لهم بشىء فإنهم

فقراء ؟ فقال : (إنَّ وليِّيَ اللهُ الذي نزَّلَ الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين)[1] والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . وفي رواية : فلا أبالي في أي واد هلك . وفي رواية : أفأدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت ؟ ما كنت لأفعل . ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا ، وأوصاهم بهذا الكلام ، ثم قال : انصرفوا عصمكم الله ، وأحسن الخلافة عليكم . قال : فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسا في سبيل الله .

وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ؛ لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم ، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم .

وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ، عن أيوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ! لو أتيت المدينة ، فإن قضى الله موتاً دفنت في القبر الرابع مع رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ؛ فقال : والله لأن يعذبني الله بكل عذاب - إلا النار فإنه لا صبر لي عليها - أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل . قالوا : وكان مرضه بدير سمعان من قرى حمص ، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً . ولما احتضر قال : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت ، ونهيتني فعصيت - ثلاثا ، ولكن لا إله إلا الله . ثم رفع رأسه ، فأحد النظر ، فقالوا : إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين ، فقال : إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جان ، ثم قبض من ساعته . وفي رواية : أنه قال لأهله : اخرجوا عني ، فخرجوا ، وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك ، وأخته فاطمة ، فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ، ثم قرأ : (تلكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلُها للذينَ لا يُريدونَ عُلوّاً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتَّقينَ)[2] ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه ، فوجدوه قد غمض وسوى القبلة وقبض .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : ثنا عبد الملك بن عبد العزيز ، عن الدراوردي ، عن عبد العزيز ابن أبي سلمة ، أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره - هبت ريح شديدة ، فسقطت صحيفة بأحسن كتاب ، فقرأوها فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . فأدخلوها بين أكفانه ودفنوها معه .

---

(١) من الآية : ١٩٦ من سورة الأعراف . (٢) من الآية : ٨٣ من سورة القصص .

وروى نحو هذا من وجه آخر ابن عساكر ، فى ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده ، عن عمير بن حبيب السلمى قال : أسرت أنا وثمانية فى زمن بنى أمية ، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا ، فقتل أصحابى ، وشفّع فىّ بطريق من بطارقة الملك ، فأطلقنى له ، فأخذنى إلى منزله ، وإذا له ابنة مثل الشمس ، فعرضها علىّ على أن يقاسمنى نعمته وأدخل معه فى دينه فأبيت ، وخلَتْ بى ابنته فعرضت نفسها علىّ فامتنعت ، فقالت : ما يمنعك من ذلك ؟ فقلت : يمنعنى دينى ، فلا أترك دينى لامرأة ولا لشىء . فقالت : تريد الذهاب إلى بلادك ؟ قلت : نعم ، فقالت : سِرْ على هذا النجم بالليل واكمن بالنهار ، فإنه يلقيك إلى بلادك . قال : فسرت كذلك . قال : فبينا أنا فى اليوم الرابع مكمن إذا بخيل مقبلة ، فخشيت أن تكون فى طلبى ، فإذا أنا بأصحابى الذين قتلوا ، ومعهم آخرون على دوابّ شهب ، فقالوا : عمير ؟ فقلت عمير . فقلت لهم : أوليس قد قتلتم ؟ قالوا : بلى ، ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز . قال : ثم قال لى بعضهم : ناولنى يدك يا عُمَير ، فأردفنى فسرنا يسيراً ، ثم قذف بى قَذفة وقعت قرب منزلى بالجزيرة ، من غير أن يكون لحقنى شر .

وقال رجاء بن حَيوة : كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلىّ أن أغسله وأكفنه ، فإذا حللت عقدة الكفن أن أنظر فى وجهه فأدلى ، ففعلت فإذا وجهه مثل القراطيس بياضاً ، وكان قد أخبرنى أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء ـ وكان يحلّ عن وجوههم ـ فإذا هى مسودة .

وروى ابن عساكر فى ترجمة يوسف بن ماهك قال : بينما نحن نسوّى التراب على قبر عمر ابن عبد العزيز ، إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . ساقه من طريق إبراهيم بن بشار ، عن عباد بن عمرو ، عن محمد بن يزيد البصرى ، عن يوسف بن ماهك فذكره ، وفيه غرابة شديدة ، والله أعلم .

وقد رئيت له منامات صالحة ، وتأسف عليه الخاصة والعامة ، لا سيما العلماء والزهاد والعباد . ورثاه الشعراء ؛ فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيبانى لكثيّر عزة ـ يرثى عمر :

عمت صنائعه فعمّ هلاكه فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد فى كل دار رَنّة وزفير
يثنى عليك لسان من لم توله خيراً لأنك بالثناء جدير
ردّت صنائعه عليه حياته فكأنه من نشرها منشور

وقال جرير يرثى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ياخير من حج بيت الله واعتمرا

حمّلت أمراً عظيما فاصطبرت به ... وسرت فيه بأمر الله يا عمرا

الشمس كاسفة ليست بطالعة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

وقال محارب بن دثار - رحمه الله ، يرثى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى :

لو أعظم الموت خلقا أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر

كم من شريعة عدل قد بعثت لهم ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر

يا لهف نفسى ولهف الواجدين معى ... على العدول التى تغتالها الحُفَر

ثلاثة ما رأت عينى لهم شبها ... تضم أعظمهم فى المسجد الحفَرَ

وأنت تتبعهم لم تأل مجتهدا ... سقيا لها سنن بالحق تفتقر

لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتى رواحا وتبيانا وتبتكر

صرفت عن عمر الخيرات مصرعه ... بدير سمعان لكن يغلب القدر

قالوا : وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص ، يوم الخميس ، وقيل : الجمعة - لخمس مضين ، وقيل : بقين من رجب . وقيل : لعشر بقين منه ، سنة إحدى - وقيل : ثنتين ومائة ، وصلى عليه ابن عمه مسلمة بن عبدالملك . وقيل: صلى عليه يزيد بن عبد الملك ، وقيل : ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وكان عمره يوم مات تسعا وثلاثين سنة وأشهراً ، وقيل : إنه جاوز الأربعين بأشهر ، وقيل : بسنة ، وقيل: بأكثر ، وقيل : إنه عاش ثلاثا وستين سنة ، وقيل : ستا وثلاثين ، وقيل : سبعا وثلاثين ، وقيل : ثمانيا وثلاثين سنة ، وقيل : مابين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها. وقال أحمد ، عن عبد الرزاق ، عن معمر : مات على رأس خمس وأربعين سنة . قال ابن عساكر : وهذا وَهْم ، والصحيح الأول تسعا وثلاثين سنة وأشهراً. وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وقيل : أربعة عشر يوماً ، وقيل : سنتان ونصف .

وكان - رحمه الله - أسمر ، دقيق الوجه حسنه ، نحيف الجسم ، حسن اللحية ، غائر العينين ، بجبهته أثر شجّة ، وكان قد شاب وخضب - رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

فصل

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحَرْبة على عادته مع الخلفاء قبله ، فقال له عمر : مالى ولك ؟ تنحّ عنى ، إنما أنا رجل من المسلمين . ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه ، فقال : أيها الناس ! إنى قد ابتليتُ بهذا الأمر عن غير رَأى كان منّى فيه ، ولا طِلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى : فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون . فصاح المسلمون صيحة واحدة :

قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم ، حمد الله ، وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ، ولا في كتابها ، ولا في نبيها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم . وإني والله لا أعطي أحداً باطلا ، ولا أمنع أحداً حقا . ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . ثم نزل فدخل ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء أمَرَ بها فبيعت ، وأدخل أثمانها في بيت المال ، ثم ذهب يتبوأ مَقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ! ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟ فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادنُ مني أي بني ، فدنا منه ، فقبّل بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صُلبي من يعينني على ديني .

ثم قام وخرج وترك القائلة ، وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذميّ من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين ! أسألك كتاب الله ، قال : ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي - والعباس جالس - فقال له عمر : ياعباس ما تقول؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلا ، فقال عمر : ما تقول يا ذميّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! أسألك كتاب الله تعالى ، فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قمْ فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه . ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردّها ، سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما كان في أيديهم بغير استحقاق ، فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يفدهم ذلك شيئاً ، فأتوا عمّتهم فاطمة بنت مروان - وكانت عمّته - فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ويُستنقصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأساً ، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء ، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت إليه ، فلما دخلت عليه عَظّمها وأكرمها ؛ لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرع يحادثها ، فرآها غضبى وهي على غير العادة ، فقال لها عمر : يا عمّة مالك ؟ فقالت : بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبّون عندك فلا تنكر ؟ فضحك عمر ، وعلم أنها متحملة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يحادثها والغضب لا يتحيّز عنها ، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد ، فقال : يا عمه ! اعلمي أن النبي ﷺ

مات وترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقى حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه ، وأيم الله لئن أبقانى الله لأردنه إلى مجراه الأول ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالى ، والوالى لا يزيل ذلك - فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناء عنه فى غيرهم ؟ فقالت : أفلا يسبوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته ، فآخذ له بها . ذكر ذلك ابن أبى الدنيا ، وأبو نعيم وغيرهما ، وقد أشار إليه المؤلف إشارة خفية .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر فى مرضه ، فإذا عليه قميص وسخ ، فقلت لفاطمة : ألا تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ما له قميص غيره ، وبكى ، فبكت فاطمة فبكى أهل الدار ، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما انجلت عنهم العبرة ، قالت فاطمة : ما أبكاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنى ذكرت منصرف الخلائق من بين يدى الله ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ثم صرخ وغشى عليه .

وعرض عليه مرة مسك من بيت المال ، فسدّ أنفه حتى وضع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : وهل ينتفع من المسك إلا بريحه ؟ ولما احتضر دعا بأولاده ، وكانوا بضعة عشر ذكراً ، فنظر إليهم فذرفت عيناه ، ثم قال: بنفسى الفتية . وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل كثيراً بهذه الأبيات :

يرى مستكيناً وهو للقول ماقت ... به عن حديث القوم ما هو شاغله
وأزعجه علم عن الجهـــــل كله ... وما عالم شيئاً كمن هو جاهله
عبوس عن الجهّال حين يرام ... فليس له منهم خدين يهازله
تذكر ما يبقى من العيش فارعوى ... فأشغله عن عاجل العيش آجله

وروى ابن أبى الدنيا ، عن ميمون بن مِهْران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربرى ، وهو ينشده شعراً ، فانتهى فى شعره إلى هذه الأبيات :

فكم من صحيح بات للموت آمنا ... أتته المنايا بغتـــــة بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فراراً ولا منه بقوّته امتنع
فأصبح تبكيه النســـــاء مقنعاً ... ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع
وقرّب من لحد فصار مقيله ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموتُ الغنيّ لماله ... ولا معدماً فى المال ذا حاجة يدع

وقال رجاء بن حيوة : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك ، فقال ليزيد : يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرائي - يعني عمر بن عبد العزيز - قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ، ودرّ ثمين ، في بيتين في داره مملوءين ، وهما مقفولان على ذلك الدر والجواهر . فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغني أن عمر خلف جوهراً ودراً في بيتين مقفولين . فأرسلت إليه : يا أخي ما ترك عمر من سَبَد ولا لَبَد(١) ، إلا ما في هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فحله فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً ، ورداء قشباً ، وجبة محشوة غليظة واهية البطانة . فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هذا أريد ، إنما أسأل عما في البيتين . فأرسلت تقول له : والذى فجعني بأمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولى الخلافة ، لعلمي بكراهته لذلك ، وهذه مفاتيحهما فتعال ، فحول ما فيهما لبيت مالك .

فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ، ففتح أحد البيتين ، فإذا فيه كرسي من أدم وأربع آجرّات مبسوطات عند الكرسي ، وقمقم . فقال عمر بن الوليد : أستغفر الله - ثم فتح البيت الثاني ، فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصا ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبته ، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام ، ووجدوا صندوقاً مقفلا ففتح ، فوجدوا فيه سفطاً ففتحه ، فإذا فيه دُرّاعة وتُبّان(٢) ، كل ذلك من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال : يرحمك الله يا أخي ، إن كنت لنقي السريرة ، نقي العلانية . وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قلت ما قيل لي .

وقال رجاء : لما احتضر جعل يقول : اللهم رضّني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيراً ، ولا لما أخرت تعجيلا . فلا زال يقول ذلك حتى مات . وكان يقول : لقد أصبحت ومالي في الأمور هوى إلا في مواضع قضاء الله فيها .

وقال شعيب بن صفوان : كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة : أما بعد يا عمر ، فإنه قد ولى الخلافة والملك قبلك أقوام ، فماتوا على ما قد رأيت ، ولقوا الله فرادى بعد الجموع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون ، فانفقأت أعينهم التي كانت لا تفتأ تنظر لذاتها ، واندفنت رقابهم غير موسدين بعد لين الوسائد ،

---

(١) أي لا قليل ولا كثير . والسبد : الوبر أو الشعر . واللبد : الصوف يكنى بهما عن الإبل والغنم
(٢) التبان : سراويل صغيرة يستر العورة المغلظة .

وتظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وانشقت بطونهم التى كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال والأطعمة ، وصاروا جيفا بعد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا إلى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهم ، ولنفر منهم ، بعد إنفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والثياب الفاخرة اللينة ، كانوا ينفقون الأموال إسرافا فى أغراضهم وأهوائهم ، ويقترون فى حق الله وأمره ، فإن استطعت أن تلقاهم يوم القيامة وهم محبوسون بما عليهم ، وأنت غير محبوس ولا مرتهن بشيء - فافعل ، واستعن بالله ولا قوة إلا بالله سبحانه .

وما ملك عما قليل بسالم ... ولو كثرت أحراسه ومواكبه
ومن كان ذا باب شديد وحاجب ... فعما قليل يهجر الباب حاجبه
وما كان غير الموت حتى تفرقت ... إلى غيره أعوانه وحبائبه
فأصبح مسروراً به كل حاسد ... وأسلمه أصحابه وحبائبه

وقيل : إن هذه الأبيات لغيره . وقال ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص : حدثنا عاصم ابن عامر ، حدثنا أبى عن عبد ربه بن أبى هلال ، عن ميمون بن مهران قال : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهط من إخوانه ، ففتح له منطق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه ، وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين امض فى موعظتك، فإنى أرجو أن يمن الله به على من سمعه أو بلغه ، فقال: إليك عنى يا أبا أيوب فإن فى القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ، والفعال أولى بالمؤمن من المقال . وروى ابن أبى الدنيا عنه أنه قال : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور ! ! .

وروى عبد الرزاق قال : سمعت معمراً يذكر قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى ابن أرطاة - وبلغه عنه بعض ما يكره - : أما بعد ، فإنه غرنى بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت العلانية فأحسنا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون .

وروى الطبرانى والدارقطنى وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم- إلى عمر بن عبدالعزيز ، أنه كتب إلى عامل له : أما بعد ؛ فإنى أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد فى أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ؛ ممن قد جارب سنته ، وكفوا مؤنته ، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها - أو قال : دليل عليها - فعليك لزوم السنة ، فإنه إنما سنها من قد علم ما فى خلافها من الزيغ والزلل ، والحمق والخطأ والتعمق ، ولهم كانوا على كشف

الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وإنما كان عملهم على الأسد ، ولو كان فيما تحملون أنفسكم فضل لكانوا فيه أحرى ، وإليه أجرى ، لأنهم السابقون إلى كل خير ، فإن قلت : قد حدث بعدهم خير ، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وحاد عن طريقهم ، ورغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فأين لا أين ، فمن دونهم مقصر ومن فوقهم غير محسن ، ولقد قصر أقوام دونهم فجفوا ، وطمح عنهم آخرون فغلوا ، فرحم الله ابن عبد العزيز ، ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ، ومحبة ما كان عليه الصحابة ، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء وغيرهم ؟ فرحمه الله وعفا عنه .

وروى الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ ، عن سعيد بن أبي مريم عن رشيد بن سعيد قال : حدثني عقيل عن شهاب عن عمر بن عبد العزيز قال : سن رسول الله ﷺ وخلفاؤه بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في رأي من خالفها ، فمن اقتدى بما سبق هُدى ، ومن استبصر بها أبصر ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ــ ولاه الله ما تولّى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

وأمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم فقال في خطبته : إني لم أجمعكم إلا أن المصدق منكم بما بين يديه ؛ من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له ــ أحمق ، والمكذب له كافر . ثم تلا قوله تعالى : (أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ)(١) ، وقوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ)(٢) .

وروى ابن أبي الدنيا عنه ، أنه أرسل أولاده مع مؤدب لهم إلى الطائف يعلمهم هنالك ، فكتب إليه عمر : بئس ما علّمت ، إذ قدّمت أمام المسلمين صبياً لم يعرف النية ــ أو لم تدخله النية ــ ذكره في كتاب النية له . وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الرقة والبكاء ، عن مولى لعمر ابن عبد العزيز أنه قال له : يا بني ليس الخير أن يسمع لك وتطاع ، وإنما الخير أن تكونَ قد غفلت عن ربك عز وجل ثم أطعته ، يا بني لا تأذن اليوم لأحد عليّ حتى أصبح ويرتفع النهار ، فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ، ولا يفهمون عنّي ، فقال له مولاه : رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله ، قال : فبكى ثم قال : يا بني ! إني والله ذكرت الوقوف بين يدي الله عزوجل . قال : ثم غشي عليه ، فلم يفق حتى علا النهار ، قال : فما رأيته بعد ذلك متبسما حتى مات .

وقرأ ذات يوم (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

(١) من الآية : ٥٤ آخر سورة فصلت .
(٢) من الآية : ١٠٦ من سورة يوسف .

إلاّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)[1] الآية ، فبكى بكاءاً شديداً حتى سمعه أهل الدار ، فجاءت فاطمة فجلست تبكى لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما ، فجاء ابنه عبد الملك ، فدخل عليهم وهم على تلك الحال ، فقال له : يا أبة ما يبكيك ؟ فقال : يا بنى خير ، ودّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يا بنى لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار .

وروى ابن أبى الدنيا عن عبد الأعلى بن أبى عبد الله العنبرى قال : رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة فى ثياب دسمة ، ووراءه حبشى يمشى ، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشى ، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال : هكذا رحمكما الله ، حتى صعد المنبر فخطب فقرأ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[2] فقال : وما شأن الشمس (وإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ)[3]، فبكى وبكى أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكى معه . ودخل عليه أعرابى فقال : يا أمير المؤمنين جاءت بى إليك الحاجة ، وانتهيت إلى الغاية ، والله سائلك عنى . فبكى عمر وقال له : كم أنتم ؟ فقال : أنا وثلاث بنات . ففرض له على ثلثمائة ، وفرض لبناته مائة مائة ، وأعطاه مائة درهم من ماله ، وقال له : اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم .

وجاءه رجل من أهل أذربيجان ، فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! اذكر بمقامى هذا بين يديك ـ مقامك غداً بين يدى الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، من يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى عمر بكاء شديدا ، ثم قال له : ما حاجتك ؟ فقال : إن عاملك بأذربيجان عدا علىّ ، فأخذ منى اثنى عشر ألف درهم ، فجعلها فى بيت المال . فقال عمر : اكتبوا له الساعة إلى عاملها ، فليرد عليه ، ثم أرسله مع البريد .

وعن زياد مولى ابن عياش قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز فى ليلة باردة شاتية ، فجعلت أصطلى على كانون هناك ، فجاء عمر ـ وهو أمير المؤمنين ـ فجعل يصطلى معى على ذلك الكانون ، فقال لى : يا زياد ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قصّ علىّ ، قلت : ما أنا بقاصّ ، فقال : تكلم . فقلت : زياد ، فقال : ماله ؟ فقلت : لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة ، فقال : صدقت ، ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذى فى الكانون .

وقال له زياد العبدى : يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك فى الوصف وأعملها فى المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره ، والثناء عليه ـ ما بلغت كنه ما أنت فيه ، ثم قال له زياد : يا أمير المؤمنين ! أخبرنى عن رجل له خصم ألدّ ما حاله ؟ قال : سوء الحال ، قال :

---

(١) من الآية : ٦١ من سورة يونس . (٢) أول سورة التكوير . (٣) الآية ١٢ من السورة نفسها .

فإن كانا خصمين ألدين ؟ قال : فهو أسوأ حالا ، قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حيث لا يهنئه عيش . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك . قال : فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة وأهل البصرة : أما بعد ! فإن من الناس من شاب في هذا الشراب ، ويغشون عنده أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وسفه أحلامهم ، فسفكوا له الدم الحرام ، وارتكبوا فيه الفروج الحرام ، والمال الحرام ، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال ، فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم ، واستغنوا بما أحل الله عما حرم ، فإنا من وجدناه شرب شيئاً مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه ـ جعلنا له عقوبة شديدة ، ومن استخف بما حرم الله عليه ، فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلا][1] .

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك ـ أن يكون ولى الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، فلما توفى عمر في رجب من هذه السنة ـ أعنى سنة إحدى ومائة ـ بايعه الناس البيعة العامة ، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة . فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة ـ أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، فجرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات وضغائن ، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحدّه حدّين فيها .

وفيها : كانت وقعة بين الخوارج ـ وهم أصحاب بسطام الخارجي ـ وبين جُند الكوفة ، وكانت الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس ، وكادت الخوارج أن تكسرهم ، فتذامروا بينهم ، فطحنوا الخوارج طَحْناً عظيما ، وقتلوهم عن آخرهم ، فلم يبقوا منهم ثائرة .

وفيها : خرج يزيد بن المهلب ، فخلع يزيد بن عبد الملك ، واستحوذ على البصرة ، وذلك بعد محاصرة طويلة ، وقتال طويل ، فلما ظهر عليها بسط العَدل في أهلها ، وبذل الأموال ، وحبس عاملها عدى بن أرطاة ؛ لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة ، حين هرب يزيد بن المهلب من محبس عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا . ولما ظهر على قصر الإمارة أتى بعدىّ بن أرطاة ، فدخل عليه وهو يضحك ، فقال يزيد بن المهلب : إني لأعجب من ضحكك ،

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة في بعض النسخ .

لأنك هربت من القتال ، كما تهرب النساء ، وإنك جئتني وأنت تُتَل[1] كما يُتَل العبد . فقال عدى : إني لأضحك لأن بقائي بقاء لك ، وأن من ورائي طالباً لا يتركني . قال : ومن هو ؟ قال : جنود بني أمية بالشام ، ولا يتركونك ، فتدارك نفسك قبل أن يرمى إليك البحر بأمواجه ، فتطلب الإقالة فلا تقال .

فرد عليه يزيد جواب ما قال ، ثم سجنه كما سجن أهله ، واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة ، وبعث نوابه في النواحي والجهات ، واستناب في الأهواز ، وأرسل أخاه مُدرك بن المهلب على نيابة خراسان ، ومعه جماعة من المقاتلة فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك ــ جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف ، مقدمة بين يدى عمه مَسلمة بن عبد الملك ، وهو في جنود الشام ، قاصدين البصرة لقتاله . ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه ، خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مَروان بن المهلب ، وجاء حتى نزل واسط ، واستشار من معه من الأمراء فيما ذا يعتمده ؟ فاختلفوا عليه في الرأى ، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن في رءوس الجبال ، فقال : إنما تريدون أن تجعلوني طائراً في رأس جبل ! وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها بأحصن حصن فيها ، ويجتمع عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام وانسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط وجيش الشام قاصده .

وحج بالناس في هذه السنة ــ عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة ، وعلى مكة عبد العزيز ابن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعلى قضائها عامر الشَّعبى ، وعلى البصرة يزيد بن المهلّب قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد ابن عبد الملك .

وفيها : توفى عمر بن عبد العزيز ، ورِبْعِىّ بن حراش ، وأبو صالح السمان ــ وكان عابداً صادقاً ثبتا ــ وقد ترجمناه في كتابنا التكميل ، والله أعلم

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

فيها : كان اجتماع مَسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب ، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من واسط ، واستخلف عليها ابنه معاوية ، وسار هو في جيش ، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب ، حتى بلغ مكاناً يقال له : العَقر ، وانتهى إليه مَسلمة بن عبد الملك في جنود لا قِبَل ليزيد بها ، وقد التقت المقدمتان أولا فاقتتلوا قتالا شديداً ، فهزم أهل البصرة أهل الشام ، ثم تذامر

---

(١) أى : نصرع ، يقال : تله ــ صرعه ، أو ألقاه على عنقه وخده .

أهل الشام ، فحملوا على أهل البصرة ، فهزموهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان ، منهم: المنتوف ، وكان شجاعاً مشهوراً ، وكان من موالى بكر بن وائل ، فقال فى ذلك الفرزدق :

تُبَكِّى على المنتوف بكرُ بن وائل ... وَتَنْهَى عن ابنَىْ مِسْمَع مَنْ بَكاهما

فأجابه الجعد بن درهم — مولى الثوريين من همدان ، وهذا الرجل هو أول الجهمية ، وهو الذى ذبحه خالد بن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى ، فقال الجعد :

نُبَكِّى على المنتوف فى نصر قومه ... ولسنا نُبَكِّى الشائِدَين أباهما
أراد فناء الحىِّ بكرِ بن وائلٍ ... فعِــزُّ تميم لو أصيب فناهما
فلا لَقِيا رَوحا من الله ساعة ... ولا رقأت عَيْنا شَجِىٍّ بكاهما
أفى الغِشّ نبكى إن بكينا عليهما ... وقد لَقِيا بالغِشِّ فينا رَدَاهما

ولما اقترب مَسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب ، خطب يزيد بن المهلب الناس ، وحرضهم على القتال — يعنى قتال أهل الشام — وكان مع يزيد نحو من مائة ألف ، وعشرين ألفا ، وقد بايعوه على السمع والطاعة ، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعلى أن لا يطأ الجنود بلادهم ، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج ، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومن خالفنا قاتلناه .

وكان الحسن البصرى — فى هذه الأيام — يحرض الناس على الكف وترك الدخول فى الفتنة ، وينهاهم أشد النهى ، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض فى أيام ابن الأشعث ، وما قتل بسبب ذلك من النفوس العديدة ؛ وجعل الحسن يخطب الناس ويعظهم فى ذلك ، ويأمرهم بالكفّ . فبلغ ذلك نائب البصرة عبد الملك بن المهلب ، فقام فى الناس خطيباً ، فأمرهم بالجدّ والجهاد ، والنفر إلى القتال ، ثم قال : ولقد بلغنى أن هذا الشيخ الضالّ المرائى — ولم يسمه — يثبط الناس ، وأما والله ليكفنّ عن ذلك أو لأفعلنّ ولأفعلنّ وتوعد الحسن . فلما بلغ الحسن قوله قال : أما والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه ، فسلمه الله منه حتى زالت دولتهم ، وذلك أن الجيوش لما تواجهت تبارز الناس قليلا ، ولم ينشب الحرب شديداً حتى فرّ أهل العراق سريعاً ، وبلغهم أن الجسر الذى جاءوا عليه حُرق فانهزموا ، فقال يزيد بن المهلب : ما بال الناس ؟ ولم يكن من الأمر ما يُفرّ من مثله ، فقيل له : إنه بلغهم أن الجسر الذى جاءوا عليه قد حرق ، فقال : قبحهم الله .

ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ، فثبت فى عصابة من أصحابه ، وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقى فى شرذمة قليلة ، وهو مع ذلك يسير قُدُمًا لا يمر بخيل إلا هزمهم ، وأهل الشام

يتجاوزون عنه يميناً وشمالا ، وقد قتل أخوه حَبيب بن المهلب ، فازداد حنقاً وغيظاً ، وهو على فرس له أشهب . ثم قصد نحو مَسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما واجهه حملت عليه خيول الشام فقتلوه ، وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب ، وقتلوا السَّمَيدَع - وكان من الشجعان - وكان الذى قتل يزيد بن المهلب رجل يقال له : القَحْل بن عيّاش ، فقتل إلى جانب يزيد بن المهلب ، وجاءوا برأس يزيد إلى مسلمة بن عبد الملك ، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط - إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، واستحوذ مسلمة على ما فى معسكر يزيد بن المهلب ، وأسر منهم نحواً من ثلاثمائة ، فبعث بهم إلى الكوفة ، وبعث إلى أخيه فيهم ، فجاء كتابه بقتلهم ، فسار مَسلمة ، فنزل الحيرة .

ولما انتهت هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية - وهو بواسط - عمد إلى نحو منْ ثلاثين أسيراً فى يده فقتلهم ، منهم : نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، عدِىّ بن أرطاة - رحمه الله ، وابنه ، ومالك ، وعبد الملك - ابنا مسمع ، وجماعة من الأشراف ، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال ، وجاء معه عمّه المفضل بن المهلب إليه ، فاجتمع آل المهلب بالبصرة ، فأعدوا السفن ، وتجهزوا أتم الجهاز ، واستعدوا للهرَب ، فساروا بعيالهم وأثقالهم حتى أتوا جبال كرْمان فنزلوها ، واجتمع عليهم جماعة ممن فلّ من الجيش الذى كان مع يزيد بن المهلب ، وقد أمّروا عليهم المفضل بن المهلب ، فأرسل مَسلمة جيشاً عليهم هلال بن ماجُور المحاربى[1] فى طلب آل المهلب ، ويقال : إنهم أمّروا عليهم رجلا يقال له : مُدرك بن ضَبّ الكلبى ، فلحقهم بجبال كرْمان ، فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً ، فقتل جماعة من أصحاب المفضل ، وأسر جماعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم ، ثم لحقوا المفضّل فقتلوه ، وحمل رأسه إلى مَسلمة بن عبد الملك ، وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أماناً من أمير الشام ، منهم : مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعى ، ثم أرسلوا بالأثقال والأموال والنساء والذرية ، فوردت على مَسلمة بن عبد الملك ، ومعهم رأس المفضّل ، ورأس عبد الملك بن المهلب ، فبعث مَسلمة بالرءوس وتسعة من الصبيان الحسان إلى أخيه يزيد ، فأمر بضرب أعناق أولئك ، ونصبت رءوسهم بدمشق ، ثم أرسلها إلى حَلب فنصبت بها ، وحلف مَسلمة بن عبد الملك ليبيعن ذَرارى آل المهلب ، فاشتراهم بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف ، فأعتقهم وخلّى سبيلهم ، ولم يأخذ مَسلمة من ذلك الأمير شيئاً .

وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ، ذكرها ابن جرير .

---

(١) فى ابن جرير : هلال بن أحوز التميمى .

ولاية مسلمة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب ، كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان فى هذه السنة ، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة ، وبعث إلى خراسان ختنه - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص ، الملقب بخُذَينة[1] فسار إليها فحرض أهلها على الصبر والشجاعة ، وعاقب عمالا ممن كان ينوب لآل المهلب ، وأخذ منهم أموالا جزيلة ، ومات بعضهم تحت العقوبة .

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك ، بعث جيشاً إلى الصُّغد لقتال المسلمين ، عليهم رجل منهم يقال له « كورصول » ، فأقبل حتى نزل على قصر الباهلى ، فحصره وفيه خلق من المسلمين ، فصالحهم نائب سمرقند - وهو عثمان بن عبد الله بن مطرف - على أربعين ألفاً ، ودفع إليهم سبعة عشر دَهْقاناً رهائن عندهم ، ثم ندب عثمان الناس ، فانتدب رجل يقال له المسيّب بن بشر الرياحى فى أربعة آلاف ، فساروا نحو الترك ، فلما كان فى بعض الطريق خطبهم ، فحثهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة ، فرجع عنه أكثر من ألف ، ثم لم يزل فى كل منزل يخطبهم ، ويرجع عنه بعضهم ، حتى بقى فى سبعمائة مقاتل ، فسار بهم حتى غالق[2] جيش الأتراك ، وهم محاصرو ذلك القصر ، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه عَلَى قتل نسائهم ، وذبح أولادهم أمامهم ، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم ، فبعث إليهم المسيب يثبتهم يومهم ذلك ، فثبتوا .

ومكث المسيب ، حتى إذا كان وقت السحر فكبّر وكبر أصحابه ، وقد جعلوا شعارهم : يا محمد ! ثم حملوا على الترك حملة صادقة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعقروا دواب كثيرة ، ونهض إليهم الترك فقاتلوهم قتالا شديداً ، حتى فر أكثر المسلمين ، وضربت دابة المسيب فى عجزها فترجل وترجل معه الشجعان ، فقاتلوا وهم كذلك قتالا عظيما ، والتف الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم ، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لا يلوون على شىء ، وقد كان الأتراك فى غاية الكثرة ، فنادى منادى المسيب : أن لا تتبعوا أحداً ، وعليكم بالقصر وأهله ، فاحتملوهم

---

(١) يلقب بذلك : لأنه كان رجلا ليناً سهلا منعما ، وخذينة : هى الدهقانة ربة البيت .

(٢) أى راهن . والمغالقة : المراهنة .

وحازوا ما فى معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة ، وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين ، وجاءت الترك من الغد فلم يجدوا به داعياً ولا مجيباً، فقالوا فى أنفسهم : هؤلاء الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنساً ، إنما كانوا جناً .

وممن توفى فيها من الأعيان والسادة :

الضحاك بن مزاحم الهلالى : أبو القاسم ، ويقال : أبو محمد ، الخراسانى ، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسابور ، وهو تابعى جليل ، روى عن أنس وابن عمر وأبى هريرة ، وجماعة من التابعين . وقيل: إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس سماع ، وإن كان قد روى عنه أنه جاوره سبع سنين وكان الضحاك ، إماماً فى التفسير ، قال الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : مجاهد ـ وعكرمة ـ وسعيد بن جبير ـ والضحاك ، وقال الإمام أحمد : هو ثقة ، وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس ، وقال : إنما أخذ عن سعيد عنه . وقال ابن سعيد القطان : كان ضعيفاً . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : لم يشافه أحداً من الصحابة ، ومن قال : إنه لقى ابن عباس ـ فقد وهم ، وحملت به أمه سنتين ، ووضعته وله أسنان ، وكان يعلم الصبيان حسبة ، وقيل : إنه مات سنة خمس ، وقيل : سنة ست ومائة ، والله أعلم .

أبو المتوكل الناجى : اسمه على بن البصرى ، تابعى جليل ، ثقة ، رفيع القدر ، مات وقد بلغ الثمانين ـ رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة .

فيها: عزل أمير العراق وهو عُمر بن هبيرة ـ سعيد الملقب خُذَينة ـ عن نيابة خراسان ، وولى عليها سَعيد بن عمرو الحَرَشى ، بإذن أمير المؤمنين ، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين ، انزعج له الترك وخافوه خوفا شديداً ، وتقهقروا من بلاد الصُّغد إلى ما وراء ذلك ، من بلاد الصين وغيرها وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ـ بين إمرة المدينة وإمرة مكة ، وولى عبد الرحمن الواحد بن عبد الله النضرى نيابة الطائف . وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم وممن توفى فيها من الأعيان .

يزيد بن أبى مسلم : أبو العلاء المدنى ؛ عطاء بن يسار الهلالى ، أبو محمد القاص المدنى ـ مولى ميمونة ، وهو أخو سليمان ، وعبد الله ، وعبد الملك ، وكلهم تابعى . وروى هذا عن جماعة من الصحابة ، ووثقه غير واحد من الأئمة ، وقيل : إنه توفى سنة ثلاث أو أربع ومائة ، وقيل : توفى قبل المائة بالإسكندرية ، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم .

مجاهد بن جبير المكى : أبو الحجاج القرشى المخزومى - مولى السائب المخزومى ، أحد أئمة التابعين والمفسرين. كان من أخصاء أصحاب ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، حتى قيل: إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله - إلا مجاهد وطاوس وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابى وقال : وددت أن ابنى سالما ، وغلامى نافعاً يحفظان حفظك . وقيل : إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقيل: مرتين ، أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة ، وقيل إحدى ، وقيل ثنتين ، وقيل ثلاث ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقد جاوز الثمانين ، والله أعلم

فصل

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم ؛ عن ابن عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة ، وابن عمرو وأبى سعيد ، ورافع بن خديج - وعنه خلق من التابعين . قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا عبد الرزاق عن أبى بكر بن عياش قال : أخبرنى أبو يحيى ، أنه سمع مجاهداً يقول : قال لى ابن عباس : لا تنامن إلا على وضوء ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

وروى الطبرانى عنه أنه قال فى قوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)[1] قال : يسلم عليه إذا لقيه، وقيل هى المصافحة . وروى عمرو بن مرة عنه أنه قال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتق لا يأخذك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك ، فتلقاه حين تلقاه ، وليست لك حاجة. وروى ابن أبى شيبة عن أبى أسامة عن الأعمش عن مجاهد قال: كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة عندهم رأس شاة ، فأصابوا شيئاً ، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا ا فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولا . وروى ابن أبى شيبة عن أبى الأحوص ، عن منصور عن مجاهد قال : ما من مؤمن يموت إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحا وقال : (فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)[2] قال : فى القبر . وروى الأوزاعى عن عبدة بن أبى لبانة ، عن مجاهد قال : كان يحج من بنى إسرائيل مائة ألف ، فإذا بلغوا أرصاف الحرم خلعوا نعالهم ، ثم دخلوا الحرم حفاة . وقال يحيى بن سعد القطان ، قال مجاهد فى قوله تعالى : (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ)[3] قال : اطلى الركود . وفى قوله تعالى : (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)[4] قال المزامير وقال فى قوله تعالى : (أَنْكَالاً وَجَحِيماً)[5] قال : قيودا وقال فى قوله : (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)[6] قال: لا خصومة . وقال : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَن

(١) من الآية : ٣٤ من سورة فصلت (٢) من الآية : ٤٤ من سورة الروم
(٣) من الآية : ٤٣ من سورة آل عمران. (٤) من الآية : ٦٤ من سورة الإسراء .
(٥) من الآية: ١٢ من سورة المزمل (٦) من الآية : ١٥ من سورة الشورى

النَّعِيمِ)[١] قال : عن كل لذة في الدنيا . وروى أبو الربيع عن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن مجاهد قال : رنّ إبليس أربع رنات ، حين لعن ، وحين أهبط ، وحين بعث النبي ﷺ ، وحين أنزلت (الحمدُ للهِ ربِّ العالمين) وأنزلت بالمدينة وكان يقال : الرنة والنَّخرة من الشيطان ، فالعن من رنّ أو نخر[٢] . وروى ابن نجيح عنه في قوله تعالى (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)[٣] قال : بروج الحمام . وقال في قوله تعالى (أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ)[٤] قال : التجارة . وروى ليث عن مجاهد قال (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)[٥] قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن ابن أبجر عن طلحة بن مصرف عن مجاهد (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد) قال : صاحبة وقال ليث عن مجاهد قال : النملة التي كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم

وروى الطبراني عن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة وقال : (سَأَلَ سَائِلٌ) دعا داع . وفي قوله (مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)[٦] حتى يرجعوا إلى علمي فيه (لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)[٧] قال لا يحبون غيري . (الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ)[٨] قال : هم المراؤن وفي قوله تعالى (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ)[٩] قال : هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم . ثم قرأ (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ)[١٠] قال : أيامه نعمه ونقمه (فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)[١١] فردوه إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حياً ، فإذا مات فإلى سنته (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[١٢] قال : أما الظاهرة فالإسلام والقرآن والرسول والرزق ، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب وروى الحكم عن مجاهد قال : لما قدمت مكة نساء على سليمان عليه السلام رأت حطباً جزلا ، فقالت لغلام سليمان هل يعرف مولاك كم وزن دخان هذا الحطب ؟ فقال : الغلام : دعي مولاي ، أنا أعرف كم وزن دخانه ، فكيف مولاي ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق الحطب ويوزن رماده فما نقص فهو دخانه وقال في قوله تعالى (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[١٣] قال : من لم يتب إذا أصبح ، وإذا أمسى فهو من الظالمين . وقال ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال

(١) من الآية : ٨ من سورة التكاثر (٢) رن : صاح ، والرنة : الصوت ، ونخر : مد الصوت في خياشيمه
(٣) من الآية : ١٢٨ من سورة الشعراء
(٤) من الآية : ٢٦٧ من سورة البقرة
(٥) من الآية : ٣٠ من سورة فصلت
(٦) من الآيتين : ١٦ - ١٧ من سورة الجن
(٧) من الآية : ٢٥ من سورة النور
(٧) من الآية : ١٠ من سورة فاطر
(٩) من الآية : ١٤ من سورة الجاثية
(١٠) من الآية : ٥ من سورة إبراهيم
(١١) من الآية : ٥٩ من سورة النساء
(١٢) من الآية : ٢٠ من سورة لقمان
(١٣) من الآية : ١١ من سورة الحجرات

ذلك اليوم : الحمد لله الذى أراحنى من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذى يفض خاتمه. وقال فى قوله تعالى (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ)[١] قال : العلم والفقه . وقال : إنما ولى الأمر منكم الفقهاء . وفى قوله تعالى : (وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)[٢] قال : البدع والشبهات ، وقال : أفضل العبادة الرأى الحسن ـ يعنى اتباع السنة . وقال : ما أدرى أى النعمتين أفضل ! أن هدانى للإسلام ، أو عافانى من الأهواء ؟ . وقال فى رواية : أولو الأمر منكم ، أصحاب محمد ، وربما قال : أولو العقل والفضل فى دين الله عز وجل (بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ)[٣] ، قال : السرية . (وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ)[٤]، قال : السوس فى الثياب . (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى)[٥] ، قال : الأضراس . (حَفِيًّا)[٦]، قال : رحيما

وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : وجدت فى كتاب محمد بن أبى حاتم بخط يده : حدثنا بشر بن الحارث ، حدثنا يحيى بن يمان ، عن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد ، قال : لو أن رجلا أنفق مثل أحد فى طاعة الله عز وجل لم يكن من المسرفين . وفى قوله تعالى : (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)[٧]، قال : العداوة . (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ)[٨]، قال : بينهما حاجز من الله ، فلا يبغى الحلو على المالح ، ولا المالح على الحلو .

وقال ابن منده : ذكر محمد بن حميد : حدثنا عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، قال : كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها . قال : وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت قال : وذهب إلى بابل ، قال : وعليها وال صديق لمجاهد ، فقال مجاهد : تعرض على هاروت وماروت ، قال : فدعا رجلا من السحرة ، فقال : اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت ، فقال اليهودى : بشرط أن لا تدعو الله عندهما ، قال مجاهد : فذهب بى إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال : خذ برجلى ، فهوى بى حتى انتهى إلى جُوبة[٩]، فإذا هما معلقين منكسين كالجبلين العظيمين ، فلما رأيتهما قلت : سبحان الله خالقكما ! قال : فاضطربا فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت ، قال : فغشى علىّ وعلى اليهودى ، ثم أفاق اليهودى قبلى ، فقال : قم ! كدت أن تهلك نفسك وتهلكنى .

وروى ابن فضيل ، عن ليث ، عن مجاهد قال : يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر : بالغنى ،

(١) من الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة الرعد
(٤) من الآية : ٨ من سورة النحل .
(٥) من الآية : ٤ من سورة مريم .
(٦) من الآية : ٤٧ من سورة مريم .
(٧) من الآية : ١٣ من سورة الرعد .
(٨) من الآية : ٢٠ من سورة الرحمن .
(٩) أى : مكان سئ .

والمريض ، والعبد المملوك قال : فيقول الله عز وجل للغنى : ما شغلك عن عبادتى التى إنما خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب أكثرت لى من المال فطغيت . فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه فيقول له : أنت كنت أكثر مالا وأشد شغلا أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يا رب ، فيقول الله له : فإن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى . قال : ويؤتى بالمريض فيقول : ما منعك من عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب شغلنى عن هذا مرض جسدى ، فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضُرّه وبلائه ، فيقول له : أأنت كنت أشدّ ضرًا ومرضًا أم هذا ؟ فيقول : بل هذا ، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى . ثم يؤتى بالمملوك ، فيقول الله له : ما منعك من عبادتى التى خلقتك لها ؟ فيقول : ربّ فضلت علىّ أربابًا فملكونى وشغلونى عن عبادتك . فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقّه وعبوديته ، فيقول الله له : أأنت كنت أشدّ فى رقك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يا رب ، فيقول الله : فإنّ هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى .

وروى حميد ، عن الأعرج ، عن مجاهد قال : كنت أصحب ابن عمر فى السفر ، فإذا أردت أن أركب مسك ركابى ، فإذا ركبت سوى علىّ ثيابى ، فرآنى مرة كأنى كرهت ذلك فىّ ، فقال : يا مجاهد إنك لضيق الخلق . وفى رواية : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا الثورى ، عن رجل ، عن مجاهد قال : جعلت الأرض لملك الموت مثل الطّست يتناول منها حيث شاء ، وجعل له أعوان يتوفّون الأنفس ، ثم يقبضها منهم . وقال : لما هبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولِدْ للفناء .

وروى قتيبة ، عن جرير ، عن منصور ، عن مجاهد : (وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ)(١) ، قال : تلعن عصاة بنى آدم دواب الأرض ، وما شاء الله حتى الحيات والعقارب ، يقولون : منعنا القطر بذنوب بنى آدم . وقال غيره : تسلط الحشرات على العصاة فى قبورهم ، لما كان ينالهم من الشدة بسبب ذنوبهم ، فتلك الحشرات من العقارب والحيات هى السيئات التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويستلذونها ، صارت عذابًا عليهم . نسأل الله العافية . وقال : (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود)(٢) - لكفور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمر بن سليمان ، حدثنى مسلم أبو عبد الله ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : من لم يستحى من الحلال خفّت مؤنته وأراح نفسه . وقال عمرو بن زروق : حدثنا شعبة ،

---

(١) من الآية : ١٥٩ من سورة البقرة . (٢) من الآية : ٦ من سورة العاديات .

عن الحكم ، عن مجاهد قال : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقدِرَ عَلَيْهِ)[1] : أن لن نعاقبه بذنبه . وبهذا الإسناد قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى سمعتها فى قراءة عبد الله بيتاً من ذهب .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا خلف بن خليفة ، عن الليث ، عن مجاهد : إن الله عز وجل ليصلح بصلاح العبد ولده . قال : وبلغنى أن عيسى عليه السلام كان يقول : طوبى للمؤمن كيف يخلفه الله فيمن ترك بخير . وقال الفضيل بن عياض ، عن عبيد المكتب ، عن مجاهد فى قوله تعالى : (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمِ الأَسْبَابُ)[2] : الأوصال التى كانت بينهم فى الدنيا .

وروى سفيان بن عيينة ، عن سفيان الثورى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : (لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً)[3] ، قال : الإلُّ ـ الله عز وجل . وقال فى قوله تعالى : (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ)[4] : طاعة الله عز وجل . وفى قوله تعالى : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[5] ، قال : هو الذى يذكر الله عند الهمّ بالمعاصى .

وقال الفضيل بن عياض ، عن منصور ، عن مجاهد : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ)[6] : الخشوع . وفى قوله تعالى : (وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ)[7] قال : القنوت : الركود والخشوع ، وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله . وكان العلماء إذا قام أحدهم فى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره ، أو يلتفت ، أو يقلب الحصا ، أو يعبث بشىء ، أو يحدث نفسه بشىء من الدنيا ، إلا خاشعاً ما دام فى صلاته .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عمرو ، حدثنا ابن إدريس ، حدثنى عقبة بن إسحاق ـ وأثنى عليه خيراً ـ حدثنا ليث ، عن مجاهد قال : كنت إذا رأيت العرب استخفيتها وجدتها من وراء دينها ، فإذا دخلوا فى الصلاة فكأنما أجساد ليست فيها أرواح .

وروى الأعمش عنه قال : إنما القلب بمنزلة الكف ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا ـ وضم الخنصر حتى ضم أصابعه كلها اصبعاً اصبعاً ـ قال : ثم يطبع ، فكانوا يرون ذلك الران قال الله تعالى : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[8] .

وروى قبيصة ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

---

(١) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ١٦٦ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٠ من سورة التوبة .
(٤) من الآية : ٨٦ من سورة هود .
(٥) من الآية : ٤٦ من سورة الرحمن .
(٦) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح .
(٧) من الآية : ٢٣٨ من سورة البقرة .
(٨) من الآية : ١٤ من سورة المطففين .

وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)[1] قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبنى على الشىء المحيط ، كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب حتى تكون هكذا ـ ثم قبض يده ـ ثم قال : هو الران . وفى قوله : (بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)[2] قال : أول عمل العبد وآخره (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)[3] قال : إذا فرغت من أمر الدنيا ، فقمت إلى الصلاة ، فاجعل رغبتك إليه ، ونيتك له .

وعن منصور ، عن مجاهد (النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)[4] قال : هى النفس التى قد أيقنت أن الله ربها ، وضربت ـ جاشا لأمره وطاعته وروى عبد الله بن المبارك ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه ، إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر ، وإن كان من أهل اللهو فهو من أهل اللهو . وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن زبيد ، عن مجاهد ، قال : قال إبليس : إن يعجزنى ابن آدم ، فلن يعجزنى من ثلاث خصال : أخذ مال بغير حق ، وإنفاقه فى غير حقه[5] .

وقال أحمد : حدثنا ابن نمير قال : قال الأعمش : كنت إذا رأيت مجاهداً ظننت أنه حر مندح[6] قد ضل حماره فهو مهتم . وعن ليث ، عن مجاهد قال : من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه . وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد قال : قال لى : يا أبا الغازى ! كم لبث نوح فى الأرض ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزدادوا فى أعمارهم وأجسادهم وأخلاقهم إلا نقصا .

وروى أبو بكر بن أبى شيبة ، عن أبى عاية ، عن ليث ، عن مجاهد ، قال : ذهبت العلماء فما بقى إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم .

وروى ابن أبى شيبة أيضاً ، عن ابن إدريس ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصى ـ لكان فى ذلك خير وقال : الفقيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه . وقال : إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه . وقال فى قوله تعالى : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)[7] قال : عملك فأصلح . (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)[8] قال : ليس من عرض الدنيا . (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)[9]

---

(١) من الآية : ٨١ من سورة البقرة . (٢) من الآية : ١٣ من سورة القيامة .
(٣) سورة ألم نشرح لك صدرك . (٤) من الآية : ٢٧ من سوره الفجر .
(٥) كذا بالأصل ، وفيه نقص ظاهر ولم نعثر على باقيه .
(٦) المندح : الذى عظم بطنه وتدلى من السمن . والمهتم : الحزين . (٧) من الآية : ٤ من سورة المدثر .
(٨) من الآية : ٣٢ من سوره النساء . (٩) من الآية : ٣٣ من سورة الزمر .

قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . وقال : يقول القرآن للعبد إلى معك ما اتبعتنى ، فإذا لم تعمل بى اتبعتك (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[1] قال : خذ من دنياك لآخرتك ، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل .

وقال داود بن المحبر ، عن عباد بن كثير ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه مجاهد بن جبير قال : قلت لابن عمر : أى حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجراً ؟ قال : من جمع ثلاث خصال : نية صادقة ، وعقلا وافراً ، ونفقة من حلال ، فذكرت ذلك لابن عباس ، فقال : صدق ، فقلت : إذا صدقت نيته ، وكانت نفقته من حلال ، فماذا يضره قلة عقله ؟ فقال : يا أبا حجاج ! سألتنى عما سألت عنه رسول الله ﷺ ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أطاع العبد الله بشىء أفضل من حسن العقل ، ولا يقبل الله صوم عبد ولا صلاته ، ولا شيئاً مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل ، ولو أن جاهلا فاق المجتهدين فى العبادة ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح » . قلت : ذكر العقل فى هذا الحديث ورفعه إلى النبى ﷺ من المنكرات والموضوعات ، والثلاث الخصال موقوفة على ابن عمر ، من قوله : من جمع ثلاث خصال ، إلى قوله : قال ابن عباس صدق ، والباقى لا يصح رفعه ولا وقفه ، وداود بن المحبر ـ كنيته : أبو سليمان .

قال الحاكم : حدث ببغداد عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة ، حدث بها عنه الحارث ابن أبى أسامة . وله كتاب العقل ، وأكثر ما أودع ذلك الكتاب موضوع على رسول الله ﷺ وذكر العقل مرفوعاً فى هذه الرواية له من جملتها ، والله أعلم . وقد كذبه أحمد بن حنبل][2] .

مصعب بن سعد بن أبى وقاص : تابعى جليل القدر .

موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمى : كان يلقب بالمهدى لصلاحه ، كان تابعيا جليل القدر ، من سادات المسلمين ـ رحمه الله .

ثم دخلت سنة أربع ومائة

فيها : قاتل سعيد بن عمرو الحرشى ـ نائب خراسان ـ أهل الصغد ، وحاصر أهل خجندة ، وقتل خلقاً كثيراً ، وأخذ أموالا جزيلة ، وأسر رقيقاً كثيراً جداً . وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك ، لأنه هو الذى ولاه .

---

(١) من الآية : ٧٧ من سورة القصص .

(٢) من أول الفصل إلى هنا زيادة من المصرية .

وفي ربيع الأول منها : عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك ابن قيس ، وكان سببه : أنه خطب فاطمة بنت الحسين ، فامتنعت من قبول ذلك ، فألح عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري - نائب الطائف - فولاه المدينة ، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين ، وهو متكىء على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار . فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق ، واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال : إن لي إليك حاجة ، فقال : كل حاجة تقولها فهي لك - إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال : هو والله حاجتي ، فقال : والله لا أقبلها ولا أعفو عنه ، فرده إلى المدينة ، فتسلمه عبد الواحد فضربه ، وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأل الناس بالمدينة ، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهراً . وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر ، فلم يقبل ، ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء ، ثم كان هذا آخر أمره .

وفيها : عزل عمر بن هبيرة - سعيد بن عمرو الحرشي عن خراسان ، وذلك أنه كان يستخف بأمر ابن هبيرة ، فلما عزله أحضره بين يديه وعاقبه ، وأخذ منه أموالا كثيرة ، وأمر بقتله ، ثم عفا عنه ، وولى على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي ، فسار إليها فاستخلص أموالا كانت منكسرة في أيام سعيد بن عمرو الحرشي .

وفيها : غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان ، أرض الترك ، ففتح بلنجر[1] ، وهزم الترك ، وغرقهم وذراريهم في الماء ، وسبى منهم خلقاً كثيراً ، وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر ، وأجلى عامة أهلها ، والتقى هو والخاقان الملك ، فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير لا يحصون .

وحج بالناس في هذه السنة : عبد الواحد بن عبد الله النضري - أمير الحرمين والطائف ، وعلى نيابة العراق وخراسان عمر ، ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ .

وفي هذه السنة : ولد السفاح - وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح - أول خلفاء بني العباس ، وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق .

وفيها : توفي من الأعيان :

---

(١) بلد بالخزر .

خالد بن سعدان الكلاعي : [له روايات عن جماعة من الصحابة ، وكان تابعيا جليلا ، وكان من العلماء ، وأئمة الدين المعدودين المشهورين ، وكان يسبّح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم ، وكان إمام أهل حمص ، وكان يصلى التراويح فى شهر رمضان ، فكان يقرأ فيها فى كل ليلة ثلث القرآن . وروى الجوزجانى عنه أنه قال : من اجترأ على اللاوم[١] فى مُراد الحق، قلب الله تلك المحامد عليه ذما . وروى ابن أبى الدنيا عنه قال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان فى وجهه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر آخرته ، فإذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين فى قلبه فأبصر بهما أمر آخرته ، وهما غيب ، فأمن الغيب بالغيب ، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه ، فتراه ينظر فلا ينتفع ، فإذا نظر بقلبه نفع ، وقال : بصر القلب من الآخرة ، وبصر العينين من الدنيا ، وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى][٢] .

عامر بن سعد بن أبى وقاص الليثى : له روايات كثيرة من أبيه وغيره ، وهو تابعى جليل ، ثقة مشهور .

عامر بن شراحيل الشعبى : توفى فيها فى قول [كان الشعبى من شعب همدان ، كنيته أبو عمرو ، وكان علامة أهل الكوفة ، كان إماماً حافظاً ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين . وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين . قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبى . وقال مكحول : ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه . وقال داود الأودى : قال لى الشعبى : قم معى هاهنا حتى أفيدك علما ، بل هو رأس العلم . قلت : أى شىء تفيدنى ؟ قال : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، فإنه علم حسن . وقال : لو أن رجلا سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعاً ، ولو سافر فى طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد ، لرأيت سفره عقوبة وضياعاً . وقال : العلم أكثر من عدد الشعر ، فخذ من كل شىء أحسنه][٣] .

أبو بردة بن أبى موسى الأشعرى : تولى قضاء الكوفة قبل الشعبى ، فإن الشعبى تولى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، واستمر إلى أن مات . وأما أبو بردة فإنه كان قاضياً فى زمن الحجاج ، ثم عزله الحجاج ، وولى أخاه أبا بكر . وكان أبو بردة فقيهاً حافظاً عالماً ، وله روايات كثيرة .

---

(١) اللاوم: جمع اللامة ــ وهى اللائمة ــ أى اللوم والعذل (٢) (٣) ما بين القوسين زيادة فى المصرية .

أبو قلابة الجرمى [عبد الله بن يزيد البصرى ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان من كبار الأئمة والفقهاء ، وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب ، قدم الشام فنزل داريًّا ، وبها مات ـ رحمه الله قال أبو قلابة : إذا أحدث الله لك علما فأحدث له عبادة ، ولم يكن همك ما تحدث به الناس ، فلعل غيرك ينتفع ويستغنى وأنت فى الظلمة تتعثر ، وإنى لأرى هذه المجالس إنما هى مناخ البطالين وقال : إذا بلغك عن أخيك شىء تكرهه ، فالتمس له عذراً جهدك فإن لم تجد عذراً فقل : لعل لأخى عذراً لا أعلمه][1] .

ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها : غزا الجراح بن عبد الله الحكمى بلاد اللاّن[2] ، وفتح حصونا كثيرة ، وبلاداً متسعة الأكناف من وراء بَلَنْجر ، وأصاب غنائم جمة ، وسبى خلقاً كثيراً من أولاد الأتراك .

وفيها : غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك ، وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصُّغد ، فصالحه ملكها على مال كثير يحمله إليه .

وفيها : غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم ، فبعث بين يديه سرية فى نحو ألف فارس ، فأصيبوا جميعاً .

وفيها : لخمس بقين من شعبان منها ـ توفى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بأربد ، من أرض البلقاء[3] ، يوم الجمعة ، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين ، وهذه ترجمته :

هو : يزيد بن عبد الملك بن مروان ، أبو خالد القرشى ، الأموى ـ أمير المؤمنين ، وأمه : عاتكة بنت يزيد بن معاوية . قيل : إنها دفنت بقبر عاتكة ، فنسبت المحلة إليها[4] ، والله أعلم . بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فى رجب من سنة إحدى ومائة بعهد من أخيه سليمان ، أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز ، لخمس بقين من رجب .

قال محمد بن يحيى الذهلى : حدثنا كثير بن هشام ، ثنا جعفر بن برقان ، حدثنى الزهرى قال : كان لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم فى عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . فلما ولى الخلافة معاوية ورّث المسلم من الكافر ، ولم يورّث الكافر من المسلم ، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده . فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى ، وتبعه فى ذلك يزيد ابن عبد الملك ، فلما قام هشام أخذ بسنة الخلفاء ـ يعنى أنه ورّث المسلم من الكافر ـ .

(١) ما بين القوسين زيادة فى بعض النسخ . (٢) اللان : بلاد وأمة فى طرف أرمينية .
(٣) البلقاء : من أرض دمشق . (٤) قبر عاتكة : محلة من محلات دمشق معروفة بهذا الاسم إلى اليوم .

وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : بينما نحن عند مكحول ، إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسع له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ، يتعلم التواضع .

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولي عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال : سيروا بسيرة عمر ، فمكث كذلك أربعين ليلة ، فأتى بأربعين شيخاً ، فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب . وقد اتهمه بعضهم في الدين ، وليس بصحيح ، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي ، أما هذا فما كان به بأس ، وقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز : أما بعد ! فإني لا أراني إلا ملماً(١) بي ، وما أرى الأمر إلا سيفضي إليك ، فالله الله في أمة محمد ، فإنك عما قليل ميت ، فتدع الدنيا إلى من لا يعذرك ، والسلام .

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة ، وكتب في آخره :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لستُ فيها بأوحد
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم متى مت ما الباغي عليّ بمخلد
منيته تجرى لوقت وحتفهُ يصادفه يوما على غير موعد
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها وكأن قدِ

فكتب إليه هشام : جعل الله يومي قبل يومك ، وولدي قبل ولدك ، فلا خير في العيش بعدك .

وقد كان يزيد هذا يحب حظية من حظاياه يقال لها : حبّابة - بتشديد الباء الأولى - والصحيح تخفيفها - واسمها : العالية ، وكانت جميلة جداً ، وكان قد اشتراها في زمن أخيه بأربعة آلاف دينار ، من عثمان بن سهل بن حنيف ، فقال له أخوه سليمان : لقد هممت أحجر على يديك ، فباعها ، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سُعدة يوما : يا أمير المؤمنين ! هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، حبابة ، فبعثت امرأته فاشترتها له ، ولبستها وصنعتها وأجلستها من وراء الستارة وقالت له أيضاً : يا أمير المؤمنين ! هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : أو ما أخبرتك ؟ فقالت : هذه حبابة - وأبرزتها له وأخلته بها وتركته وإياها - فحظيت الجارية عنده ، وكذلك زوجته أيضاً(٢) ، فقال يوماً : أشتهي أن أخلو بحبابة في قصر مدة من الدهر ، لا يكون عندنا أحد ،

(١) الملم : الجمع الكثير . يريد : تجمع الناس حوله عند وفاته
(٢) سعدة : زوجته من آل عثمان بن عفان .

ففعل ذلك ، وجمع إليه فى قصره ذلك - حبابة ، وليس عنده فيه أحد ، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط الهائلة ، والنعمة الكثيرة السابغة ، فبينما هو معها فى ذلك القصر على أسرّ حال وأنعم بال ، وبين يديهما عنب يأكلان منه ، إذ رماها بحبة عنب وهى تضحك فشرقت بها فماتت ، فمكث أياما يقبلها ويرشفها وهى ميتة حتى أنتنت وجيفت ، فأمر بدفنها ، فلما دفنها أقام أياما عندها على قبرها هائما ، ثم رجع إلى المنزل ، ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول :

فإن تسلُ عنك النفس أو تدع الصبا ... فاليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارنى فهو قائل ... من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه ، وكان مرضه بالسل . وذلك بالسواد - سواد الأردن - يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعنى سنة خمس ومائة .

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل : أقل من ذلك ، وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة ، وقيل : خمساً ، وقيل : ستاً ، وقيل : ثمانياً ، وقيل : تسعاً وثلاثين . وقيل : إنه بلغ الأربعين ، فالله أعلم .

وكان طويلا جسيما أبيض مدور الوجه أفقم[1] الفم لم يشب ، وقيل : إنه مات بالجولان ، وقيل : بحوران ، وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد . وعمره خمس عشرة سنة ، وقيل : بل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك ، وهو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ، ومن بعده لولده الوليد ابن يزيد ، فبايع الناس من بعده هشاما .

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه ، لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعنى سنة خمس ومائة - وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر ؛ لأنه ولد لما قتل أبوه عبد الملك - مصعب ابن الزبير فى سنة ثنتين وسبعين ، فسماه منصور تفاؤلا ، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام ، فأقره . قال الواقدى : أتته الخلافة وهو بالزيتونة فى منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق ، فقام بأمر الخلافة أتم القيام ، فعزل فى شوال منها عن إمرة العراق وخراسان - عُمر بن هبيرة ، وولى عليها خالد بن عبد الله القسرى ،

---

(١) الفقم : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى .

وقيل : إنه استعمله على العراق فى سنة ست ومائة ، والمشهور الأول .

وحج بالناس فيها : إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى ـ خال أمير المؤمنين ، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل ، ولم تلد من عبد الملك سواه حتى طلقها ، لأنها كانت حمقاء .

وفيها : قوى أمر دعوة بنى العباس فى السر بأرض العراق ، وحصل لدعاتهم أموال جزيلة يستعينون بها على أمرهم ، وما هم بصدده . وفيها : توفى من الأعيان :

أبان بن عثمان بن عفان : تقدم ذكر وفاته سنة خمس وثمانين ، كان من فقهاء التابعين وعلمائهم . قال عمرو بن شعيب: ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه . وقال يحيى بن سعيد القطان : فقهاء المدينة عشرة ، فذكر أبان بن عثمان أحدهم ، وخارجة بن زيد ، وسالم بن عبد الله ، وسعيد ابن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة ، والقاسم ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن . قال محمد بن سعد : كان به صمم ووضح[1] ، وأصابه الفالج[2] قبل أن يموت بسنة ، وتوفى سنة خمس ومائة .

أبو رجاء العطاردى . عامر الشعبى ، فى قول وقد تقدم ، وكثير عزة فى قول . وقيل : فى التى بعدها ، كما سيأتى .

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها : عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف ـ عبد الواحد بن عبد الله النضرى ، وولى على ذلك كله خاله ـ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى .

وفيها : غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة . وفيها : غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها ، فلقيه عندها الترك ، وكانت بينهم وقعة هائلة ، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك .

وفيها : أوغل الجراح الحكمى فى أرض الخزر ، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج .

وفيها : غزا الحجاج بن عبد الملك اللان ، فقتل خلقاً كثيراً ، وغنم ، وسلم .

وفيها : عزل خالد بن عبد الله القسرى عن إمرة خراسان ـ مسلم بن سعيد ، وولى عليها أخاه أسد بن عبد الله القسرى .

وحج بالناس فى هذه السنة : أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، وكتب إلى أبى الزناد قبل

---

(١) أى : برص . (٢) الفالج : استرخاء لأحد شق البدن .

دخوله المدينة ليتلقاه ، ويكتب له مناسك الحج ، ففعل ، فتلقاه الناس من المدينة إلى أثناء الطريق ، وفيهم أبو الزناد ، قد امتثل ما أمر به . وتلقاه - فيمن تلقاه - سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان ابن عفان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن أهل بيتك فى مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب ، فالعنه أنت أيضاً . قال أبو الزناد : فشق ذلك على هشام واستثقله ، وقال : ما قدمت لشتم أحد ، ولا لعنة أحد ، إنما قدمنا حاجاً . ثم أعرض عنه وقطع كلامه ، وأقبل على أبى الزناد يحادثه ، ولما انتهى إلى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة ، فتظلم إليه فى أرض ، فقال له : أين كنت عن عبد الملك ؟ قال : ظلمنى ، قال : فالوليد ؟ قال : ظلمنى ، قال : فسليمان ؟ قال : ظلمنى ، قال : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ردها علىّ ، قال : فيزيد ؟ قال : انتزعها من يدى ، وهى الآن فى يدك ، فقال له هشام : أما لو كان فيك مضرب لضربتك ، قال : بلى ، فىّ مضرب بالسوط والسيف ، فانصرف عنه هشام ، وهو يقول لمن معه : ما رأيت أفصح من هذا .

وفيها : كان العامل على مكة والمدينة والطائف - إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وعلى العراق وخراسان خالد القسرى ، والله سبحانه أعلم . وممن توفى فيها :

سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أبو عمرو الفقيه ، أحد الفقهاء ، وأحد العلماء .

[وله روايات عن أبيه وغيره ، وكان من العباد الزهاد ، ولما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة ، فإذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : يا سالم ! سلنى حاجة ، فقال : إنى لأستحى من الله أن أسأل فى بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام فى أثره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسلنى حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال : من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إنى ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ وكان سالم خشن العيش ، يلبس الصوف الخشن ، وكان يعالج بيده أرضاً له وغيرها من الأعمال ، ولا يقبل من الخلفاء ، وكان متواضعاً ، وكان شديد الأدمة ، وله من الزهد والورع شىء كثير .

طاوس بن كيسان اليمانى ، من أكبر أصحاب ابن عباس ، وقد ترجمناه فى كتابنا « التكميل » ولله الحمد انتهى ، وقد زدنا هنا فى ترجمة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب - زيادة حسنة .

فأما طاوس فهو : أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان اليمانى ، فهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن .

أدرك طاوس جماعة من الصحابة ، وروى عنهم ، وكان أحد الأئمة الأعلام ، قد جمع العبادة والزهادة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وقد أدرك خمسين من الصحابة ، وأكثر روايته عن

ابن عباس ، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم ، منهم : مجاهد ، وعطاء ، وعمرو بن دينار ، وإبراهيم بن ميسرة ، وأبو الزبير ، ومحمد بن المنكدر ، والزهرى ، وحبيب بن أبى ثابت ، وليث بن أبى سليم ، والضحاك بن مزاحم ، وعبد الملك بن ميسرة ، وعبد الكريم بن المخارق ، ووهب بن منبه ، والمغيرة بن حكيم الصنعانى ، وعبد الله بن طاوس ، وغير هؤلاء .

توفى طاوس بمكة حاجا ، وصلى عليه الخليفة ـ هشام بن عبد الملك ، ودفن بها ـ رحمه الله تعالى. قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال : قال أبى : مات طاوس بمكة ، فلم يصلوا عليه حتى بعث هشام ابنه بالحرس . قال : فلقد رأيت عبد الله بن الحسن واضعاً السرير على كاهله . قال : ولقد سقطت قلنسوة كانت عليه ، ومزق رداؤه من خلفه ـ يعنى من كثرة الزحام ـ فكيف لا ، وقد قال النبى ﷺ : « الإيمان يمان » . وقد خرج من اليمن خلق من هؤلاء المشار إليهم فى هذا وغيره ، منهم : أبو مسلم ، وأبو إدريس ، ووهب ، وكعب ، وطاوس ، وغير هؤلاء كثير .

وروى ضمرة ، عن ابن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة خمس ومائة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعين حجة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا أبى قال : توفى طاوس بالمزدلفة ـ أو بمنى ـ حاجاً ، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن على بقائمة سريره ، فما زايله حتى بلغ القبر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال : قدم طاوس بمكة ، فقدم أمير المؤمنين ، فقيل لطاوس : إن من فضله ، ومن ، ومن ، فلو أتيته ! قال : مالى إليه حاجة ، فقالوا : إنا نخاف عليك ، قال : فما هو إذا كما تقولون .

وقال ابن جرير : قال لى عطاء : جاءنى طاوس فقال لى : يا عطاء ! إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجابه ، وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ، ووعدك الإجابة . وقال ابن جريج ، عن مجاهد ، عن طاوس (أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)(١) قال : بعيد من قلوبهم .

وروى الأحجرى ، عن سفيان ، عن ليث قال : قال لى طاوس : ما تعلمت من العلم فتعلمه لنفسك ، فإن الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس .

وقال عبد الرحمن بن مهدى ، عن حماد بن زيد ، عن الصلت بن راشد ، قال : كنا عند طاوس ، فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم ـ صاحب خراسان ، فسأله عن شىء ، فانتهره طاوس ،

---

(١) من الآية : ٤٤ من سورة فصلت .

فقلت : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم ـ صاحب خرسان ، قال : ذاك أهون له علىّ . وقال لطاوس : إن منزلك قد استرم(١) ، فقال : أمسينا .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس فى قوله تعالى (وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً)(٢) قال : فى أمور النساء ، ليس يكون فى شىء أضعف منه فى النساء .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : لقى عيسى بن مريم عليه السلام إبليس ، فقال إبليس لعيسى : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم ، قال إبليس : فأوف بذروة هذا الجبل فتردَّ منه ، فانظر أتعيش أم لا ؟ قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يجربنى عبدى ، فإنى أفعل ما شئت . وفى رواية عن الزهرى عنه قال : قال عيسى : إن العبد لا يختبر ربه ، ولكن الرب يختبر عبده . وفى رواية أخرى : إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الرب يبتلى عبده . قال : فخصمه عيسى عليه السلام . وقال فضيل بن عياض ، عن ليث ، عن طاوس قال : حج الأبرار على الرحال . رواه عبد الله بن أحمد عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو تميلة ، عن ابن أبى داود قال : رأيت طاوساً وأصحاباً له إذا صلوا العصر استقبلوا القبلة ، ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا إلى الله تعالى فى الدعاء . وقال : من لم يبخل ولم يل مال يتيم ـ لم ينله جهد البلاء . روى عنه أبو داود الطيالسى ، وقد رواه الطبرانى ، عن محمد بن يحيى بن المنذر ، عن موسى بن إسماعيل ، عن أبى داود فذكره . وقال لابنه : يا بنى ! صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، واعلم أن لكل شىء غاية ، وغاية المرء حسن عقله .

وسأله رجل عن مسألة فانتهره ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ! إنى أخوك ، قال : أخى من دون الناس ؟ . وفى رواية : أن رجلا من الخوارج سأله فانتهره ، فقال : إنى أخوك ، قال : أمن بين المسلمين كلهم ؟ .

وقال عفان ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب قال : سأل رجل طاوساً عن شىء فانتهره ، ثم قال : تريد أن تجعل فى عنقى حبلا ثم يطاف بى ؟ . ورأى طاوس رجلا مسكيناً فى عينه عمش وفى ثوبه وسخ ، فقال له : عدَّ ! إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟

---

(١) استرم الحائط : دعا إلى إصلاحه وترميمه لقدمه .

(٢) من الآية : ٢٨ من سورة النساء .

وروى الطبرانى عنه قال : إقرار ببعض الظلم خير من القيام فيه . وعن عبد الرزاق ، عن داود بن إبراهيم ، أن الأسد حبس الناس ليلة فى طريق الحج ، فدق الناس بعضهم بعضاً ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد ، فنزل الناس يميناً وشمالا ، فألقوا أنفسهم ، وقام طاوس يصلى ، فقال له رجل ـ وفى رواية : فقال ابنه ـ : ألا تنام ؟ فإنك قد سهرت ونصبت هذه الليلة ؟ فقال : وهل ينام السحر أحد ؟ وفى رواية : ما كنت أظن أحداً ينام السحر . وروى الطبرانى من طريق عبد الرزاق ، عن أبى جريج ، وابن عيينة قالا : حدثنا ابن طاوس قال : قلت لأبى : ما أفضل ما يقال على الميت ؟ قال : الاستغفار .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الرزاق قال : سمعت النعمان بن الزبير الصنعانى يحدث أن محمد بن يوسف ـ أو أيوب بن يحيى ـ بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار ، وقال للرسول : إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ، ويحسن إليك . قال : فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ! نفقة بعث بها الأمير إليك ، فقال : مالى بها من حاجة . فأراده على أخذها بكل طريق ، فأبى أن يقبلها ، فغفل طاوس ، فرمى بها الرجل من كوة فى البيت ، ثم ذهب راجعاً إلى الأمير ، وقال : قد أخذها ، فمكثوا حيناً ، ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون ـ أو شىء يكرهونه ـ فقالوا : ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا ، فجاءه الرسول فقال : المال الذى بعثه إليك الأمير ردّه إلينا ، فقال : ما قبضت منه شيئاً ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذى ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال : المال الذى جئتك به يا أبا عبد الرحمن . قال : هل قبضت منك شيئاً ؟ قال : لا ! قال : فقام إلى المكان الذى رمى به فيه فوجدها كما هى ، وقد بنت عليها العنكبوت ، فأخذها ، فذهب بها إليهم .

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال : انظروا إلىّ فقيهاً أسأله عن بعض المناسك . قال : فخرج الحاجب يلتمس له ، فمرّ طاوس ، فقالوا : هذا طاوس اليمانى ، فأخذه الحاجب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : اعفنى ، فأبى ، فأدخله عليه . قال طاوس : فلما وقفت بين يديه قلت : إن هذا المقام يسألنى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفاً حتى استقرت فى قرارها ، أتدرى لمن أعدها الله ؟ قال : لا ! ! ويلك لمن أعدها الله ؟ قال : لمن أشركه الله فى حكمه فجار . وفى رواية ذكرها الزهرى : أن سليمان رأى رجلا يطوف بالبيت ، له جمال وكمال ، فقال : من هذا يا زهرى ؟ فقلت : هذا طاوس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل إليه سليمان فأتاه ، فقال : لو ما حدثتنا ! فقال : حدثنى أبو موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولى من أمور المسلمين

شيئاً فلم يعدل فيهم » فتغير وجه سليمان ، فأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثنى رجل من أصحاب النبى ﷺ - قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد عليا - قال : دعانى رسول الله ﷺ إلى طعام فى مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم على قريش حقا ، ولهم على الناس حق ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا ائتمنوا أدوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » . قال : فتغير وجه سليمان ، وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه إليه وقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثنى ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثم تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)(١) .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنى أبو معمر ، عن ابن عيينة ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال عمر بن عبد العزيز لطاوس : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعنى سليمان - فقال طاوس : مالى إليه من حاجة ، فكأنه عجب من هذا . قال سفيان : وحلف لنا إبراهيم ، وهو مستقبل الكعبة : ورب هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة - إلا طاوس . قال : وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك ، فجلس إلى جنب طاوس ، فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ، قال : أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عباداً يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم .

وقد روى عبد الله بن أحمد ، عن ابن طاوس قال : خرجنا حجاجا ، فنزلنا فى بعض القرى ، وكنت أخاف أبى من الحكام لشدته وغلظه عليهم . قال : وكان فى تلك القرية عامل لمحمد بن يوسف - أخى الحجاج بن يوسف - يقال له : أيوب بن يحيى . وقيل : يقال له : ابن نجيح ، وكان من أخبث عالمهم كبراً وتجبراً . قال : فشهدنا صلاة الصبح فى المسجد ، فإذا ابن نجيح قد أخبر بطاوس ، فجاء فقعد بين يدى طاوس ، فسلم عليه ، فلم يجبه ، ثم كلمه فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر ، فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قمت إليه وأخذت بيده ، ثم قلت له : إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، فقال طاوس : بلى ! إنى به لعارف ، فقال الأمير : إنه بى لعارف ، ومعرفته بى فعلت بى ما رأيت . ثم مضى وهو ساكت لا يقول شيئاً ، فلما دخلت المنزل قال لى أبى : يا لكع ! بينما أنت تقول : أريد أخرج عليهم بالسيف - لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

وقال أبو عبد الله الشامى : أتيت طاوساً فاستأذنت عليه ، فخرج إلى ابنه شيخ كبير ، فقلت :

---

(١) من الآية : ٢٨١ من سورة البقرة .

أنت طاوس ؟ فقال : لا ! أنا ابنه ، فقلت : إن كنت أنت ابنه ، فإن الشيخ قد خرف[1] ، فقال : إن العالم لا يخرف ، فدخلت عليه ، فقال طاوس : سل فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أوجزت لك ، فقال : تريد أن أجمع لك فى مجلسى هذا التوراة والإنجيل والفرقان ؟ قال : قلت : نعم ! قال : خف الله مخافة لا يكون عندك شىء أخوف منه ، وارجُه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك .

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : يجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيتحاجّان ، فيقول صاحب المال المال : جمعتك فى يوم كذا فى شهر كذا فى سنة كذا ، فيقول المال : ألم أقض لك الحوائج ؟ أنا الذى حلت بينك وبين أن تصنع فيما أمرك الله عز وجل من حبّك إياى ؟ فيقول صاحب المال : إن هذا الذى نفد على حبال أوثق بها وأقيد .

وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن الضريس ، عن أبى سنان ، عن حبيب بن أبى ثابت قال : اجتمع عندى خمسة ، لا يجتمع عندى مثلهم قط : عطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة .

وقال سفيان : قلت لعبيد الله بن أبى يزيد : مع من كنت تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والعامة ، وكان طاوس يدخل مع الخاصة . وقال حبيب : قال لى طاوس : إذا حدثتك حديثاً قد أثبته فلا تسأل عنه أحداً ـ وفى رواية ـ فلا تسأل عنه غيرى .

وقال أبو أسامة : حدثنا الأعمش ، عن عبد الملك بن ميسرة ، عن طاوس قال : أدركت خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، أخبرنى ابن طاوس قال : قلت لأبى : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها . قال : فذهبت ، فلبست من صالح ثيابى ، وغسلت رأسى ، وادهنت ، فلما رآنى فى تلك الحال قال : اجلس فلا تذهب .

وقال عبد الله بن طاوس : كان أبى إذا سار إلى مكة سار شهراً ، وإذا رجع رجع فى شهر ، فقلت له فى ذلك ، فقال : بلغنى أن الرجل إذا خرج فى طاعة لا يزال فى سبيل الله حتى يرجع إلى أهله . وقال حمزة ، عن هلال بن كعب قال : كان طاوس إذا خرج من اليمن لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية ، وقال له رجل : ادع الله لى ، فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

(١) خرف ـ كنصر وفرح وكرم ـ فسد عقله .

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : كان رجل فيما خلا من الزمان ، وكان عاقلا لبيباً ، فكبر فقعد فى البيت ، فقال لابنه يوماً : إنى قد اغتممت فى البيت ، فلو أدخلت على رجالا يكلمونى ! فذهب ابنه ، فجمع نفراً فقال : ادخلوا على أبى فحدثوه ، فإن سمعتم منه منكراً فاعذروه فإنه قد كبر ، وإن سمعتم منه خيراً فاقبلوه . قال : فدخلوا عليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح ، فإذا اطلعتم على فجرة رجل فاحذروه ، فإن لها أخوات .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا أحمد بن نصر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن عمر بن مسلم الجيرى ، عن أبيه قال : قال طاوس لابنه : إذا قبرتنى فانظر فى قبرى ، فإن لم تجدنى فاحمد الله تعالى ، وإن وجدتنى فإنا لله وإنا إليه راجعون . قال عبد الله : فأخبرنى بعض ولده أنه نظر فلم يره ، ولم يجد فى قبره شيئاً ، ورؤى فى وجهه السرور .

وقال قبيصة : حدثنا سفيان ، عن سعيد بن محمد قال : كان من دعاء طاوس يدعو : اللهم احرمنى كثرة المال والولد ، وارزقنى الإيمان والعمل . وقال سفيان ، عن معمر : حدثنا الزهرى قال : لو رأيت طاوس بن كيسان علمت أنه لا يكذب .

وقال عون بن سلام : حدثنا جابر بن منصور - أخو إسحاق بن منصور - السلولى ، عن عمران بن خالد الخزاعى قال : كنت جالساً عند عطاء ، فجاء رجل فقال : أبا محمد ! إن طاوساً يزعم أن من صلى العشاء ، ثم صلى بعدها ركعتين يقرأ فى الأولى : (الم تنزيل) السجدة ، وفى الثانية : (تبارك الذى بيده الملك)[1] ، كتب له مثل وقوف عرفة وليلة القدر . فقال عطاء : صدق طاوس ما تركتهما . وقال ابن أبى السرى : حدثنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : كان رجل من بنى إسرائيل ، وكان ربما داوى المجانين ، وكانت امرأة جميلة ، فأخذها الجنون ، فجىء بها إليه ، فنزلت عنده فأعجبته ، فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : إن علم بها افتضحت ، فاقتلها وادفنها فى بيتك ، فقتلها ودفنها ، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها ، فقال : ماتت ، فلم يتهموه لصلاحه ومنزلته ، فجاءهم الشيطان فقال : إنها لم تمت ، ولكن قد وقع عليها فحملت ، فقتلها ودفنها فى بيته ، فى مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ما نتهمك ، ولكن أخبرنا أين دفنتها ؟ ومن كان معك ؟ فنبشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذوه فحبسوه وسجنوه ، فجاءه الشيطان فقال : أنا صاحبك ، فإن كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله ، فأطاع الشيطان فكفر بالله عز وجل ، فقتل ، فتبرأ منه الشيطان حينئذ . وقال طاوس : ولا أعلم

(١) أول سورة تبارك .

أن هذه الآية نزلت إلا فيه ، وفي مثله (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)(١) .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : كان رجل من بني إسرائيل له أربعة بنين ، فرض ، فقال أحدهم : إما أن تمرضوا أبانا وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء ، فرضه حتى مات ودفنه ، ولم يأخذ من ميراثه شيئاً ، وكان فقيراً وله عيال ، فأتى في النوم ، فقيل له : إيت مكان كذا وكذا ، فاحفره تجد فيه مائة دينار فخذها ، فقال للآتي في المنام : ببركة أو بلا بركة ؟ فقال : بلا بركة فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته ، فقالت : اذهب فخذها ، فإن من بركتها أن تكسوني منها ونعيش منها ، فأبى ، وقال : لا آخذ شيئاً ليس فيه بركة . فلما أمسى أتى في منامه ، فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته ، فقالت له مثل ذلك ، فأبى أن يأخذها ، ثم أتى في الليلة الثالثة فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : ببركة ، قال : نعم إذاً .

فلما أصبح ذهب إلى ذلك المكان الذي أشير إليه في المنام ، فوجد الدينار فأخذه ، فوجد صياداً يحمل حُوتين ، فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار ، فأخذهما منه بذلك الدينار ، ثم انطلق بهما إلى امرأته ، فقامت تصلحهما ، فشقت بطن أحدهما فوجدت فيه درة لا يقوم بها شيء ، ولم ير الناس مثلها ، ثم شقت بطن الآخر فإذا فيه درة مثلها . قال : فاحتاج ملك ذلك الزمان درة ، فبعث يطلبها حيث كانت ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فقال الملك : إيت بها ، فأتاه بها ، فلما رآها حلاّها الله عز وجل في عينيه ، فقال : بعنيها ، فقال : لا أنقصها عن وقر ثلاثين بغلا ذهباً ، فقال الملك : ارضوه ، فخرجوا به يوقروا له ثلاثين بغلا ذهباً . ثم نظر إليها الملك فأعجبته إعجاباً عظيما ، فقال : ما تصلح هذه إلا بأختها ، اطلبوا لي أختها . قال : فأتوه ، فقالوا له : هل عندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم ، فأتى الملك بها ، فلما رآها أخذت بقلبه فقال : أرضوه ، فأضعفوا له ضعف أختها ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا وهيب بن الورد ، حدثنا عبد الجبار بن الورد قال : حدثني داود بن سابور قال : قلنا لطاوس : ادع بدعوات ، فقال : لا أجد لذلك حسبة(٢) .

---

(١) من الآية : ١٦ من سورة الحشر . (٢) الحسبة : الأجر .

وقال ابن جرير ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يحب أن له ما في أيدي الناس بالحرام لا يقنع . وقيل : الشح هو ترك القناعة ، وقيل : هو أن يشح بما في يد غيره ، وهو مرض من أمراض القلب ينبغي للعبد أن يعزله عن نفسه وينفيه ما استطاع ، وهو يأمرنا بالبخل ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال : « اتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم [أمرهم] بالبخل فبخلوا ، وبالقطيعة فقطعوا ، وهذا هو الحرص على الدنيا وحبها » .

وقال ابن أبي شيبة : حدثنا المحاربي ، عن ليث ، عن طاوس قال : ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة ، أو أكثر من ذلك ، ومن زاد زيد في ثوابه .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام بن حجير ، عن طاوس قال : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج . وعن سفيان ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال لي طاوس : لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور .

وقال طاوس : لا يحرز دين المؤمن إلا حفرته . وقال عبد الرزاق ، عن معمر بن طاوس وغيره : إن رجلا كان يسير مع طاوس ، فسمع الرجل غراباً ينعب ، فقال : خير ، فقال طاوس : أي خير عند هذا أو شر ؟ لا تصحبني ، ولا تمش معي .

وقال بشر بن موسى : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : إذا غدا الإنسان اتبعه الشيطان ، فإذا أتى المنزل فسلم نكص الشيطان وقال : لا مقيل ، فإذا أتى بغدائه فذكر اسم الله قال : ولا غداء ولا مقيل ، فإذا دخل ولم يسلم قال الشيطان : أدركنا المقيل ، فإذا أتى بغدائه ولم يذكر اسم الله عليه قال الشيطان : مقيل وغداء ، وفي العشاء مثل ذلك.

وقال : إن الملائكة ليكتبون صلاة بني آدم ؛ فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص فيها كذا وكذا ، وذلك في الركوع والخشوع والسجود .

وقال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة ، فلما خلق آدم سكنت ، وكان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبحت له .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح قال : قال مجاهد لطاوس : يا أبا عبد الرحمن ! رأيتك تصلي في الكعبة والنبي ﷺ على بابها يقول لك : اكشف قناعك ، وبين قراءتك . فقال له : اسكت ، لا يسمع هذا منك أحد . ثم تخيل إلي أن انبسط في الحديث .

وقال أحمد أيضاً بهذا الإسناد : إن طاوساً قال لأبي نجيح : يا أبا نجيح ! من قال واتقى الله خير ممن صمت واتقى.

وقال معمر ، عن رجل : إن طاوساً أتى رجلا فى السحر ، فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحداً ينام فى السحر . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا ابن يمان ، عن مسعود ، فذكره . قال الثورى : كان طاوس يجلس فى بيته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : حيف الأئمة وفساد الناس .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنى أبى قال : كان طاوس يصلى فى غداة باردة معتمة ، فمرّ به محمد بن يوسف صاحب اليمن وحاجبها ـ وهو أخو الحجاج بن يوسف ـ وطاوس ساجد ، والأمير راكب فى مركبه ، فأمر بساج[1] أو طيلسان مرتفع القيمة ، فطارح على طاوس وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته ، فلم سلم نظر فإذا الساج عليه ، فانتفض فألقاه عنه ، ولم ينظر إليه ، ومضى إلى منزله وتركه ملقى على الأرض .

وقال نعيم بن حماد : حدثنا حماد بن عيينة ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن طاوس ، عن ابن عباس : ما من شىء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أنينه فى مرضه ، فلما مرض الإمام أحمد أنّ ، فقيل له : إن طاوسا كان يكره أنين المرض ، فتركه .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن داود ابن شابور قال : قال رجل لطاوس : ادع الله لنا ، فقال : ما أجد بقلبى خشية فأدعو لك .

وقال ابن طالوت : حدثنا عبد السلام بن هاشم ، عن الحسن بن أبى الحصين العنبرى قال : مرّ طاوس برَآس[2] قد أخرج رءوسًا ، فغشى عليه . وفى رواية : كان إذا رأى الرءوس المشوية لم يتعش تلك الليلة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الأشجعى ، عن سفيان الثورى قال : قال طاوس : إن الموتى يفتنون فى قبورهم سغبا[3] ، وكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام .

وقال ابن إدريس : سمعت ليثا يذكر عن طاوس ، وذكر النساء ، فقال : فيهن كفر من مضى وكفر من بقى . وقال أبو عاصم ، عن بقية ، عن سلمة بن وهرام ، عن طاوس قال : كان يقال : اسجد للقرد فى زمانه ، أى أطعه فى المعروف .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أسامة ، حدثنا نافع بن عمر ، عن بشر بن عاصم قال : قال طاوس : ما رأيت مثلى أحداً آمن على نفسه ، ولقد رأيت رجلا لو قيل لى : من أفضل من تعرف ؟ لقلت : فلان ذلك الرجل ، فمكثت على ذلك حينًا ، ثم أخذه وجع فى بطنه ، فأصاب

(١) الساج : الطيلسان الأخضر ، وجمعه سيجان . (٢) الرآس ـ كشداد ـ بائع الرءوس .
(٣) السغب : الجوع .

منه شيئاً استفضح بطنه عليه ، فاشتهاه ، فرأيته فى نطع[1] ما أدرى ، أى طرفيه أسرع حتى مات عرقا وروى أحمد ، حدثنا هشيم قال : أخبرنا أبو بشر عن طاوس ، أنه رأى فتية من قريش يرفلون فى مشيتهم ، فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباؤكم تلبسها ، وتمشون مشية ما يحسن الزفافون[2] أن يمشوها . وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر ، أن طاوساً قام على رفيق له مرض حتى فاته الحج - لعله هو الرجل المتقدم قبل هذا ، استفضح بطنه - وقال مسعر بن كدام عن عبد الكبير المعلم قال طاوس : قال ابن عباس : سئل النبى ﷺ : من أحسن قراءة ؟ قال « من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل » . وقد روى هذا أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار ، عن طاوس قال : قال ابن عباس : إن النبى ﷺ قال : « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به[3] » . وعنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : رآنى رسول الله ﷺ وعلىّ ثوبان معصفران فقال : « أمك أمرتك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : بل أحذهما » رواه مسلم فى صحيحه ، عن داود بن راشد ، عن عمر بن أيوب ، عن إبراهيم بن نافع عن سليمان الأحول عن طاوس به .

وروى محمد بن مسلمة ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجلاوذة والشُرَط[4] وأعوان الظلمة كلاب النار » . انفرد به محمد بن مسلم الطائفى .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسن الأنماطى البغدادى ، حدثنا عبد المنعم بن إدريس حدثنا أبى عن وهب بن منبه عن طاوس عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى بن أبى طالب : « يا على استكثر من المعارف من المؤمنين ، فكم من معرفة فى الدنيا بركة فى الآخرة » . فمضى على ، فأقام حيناً لا يلقى أحداً إلا اتخذه للآخرة ، ثم جاء من بعد ذلك فقال له رسول الله ﷺ : « ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قال : قد فعلت يا رسول الله » ، فقال له النبى ﷺ : اذهب فابلُ أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبى ﷺ وهو منكس رأسه ، فقال له النبى ﷺ : اذهب فابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبى ﷺ تبسم [فقال] : ما أحسب يا على ثبت معك إلا أبناء الآخرة ! فقال له على : لا والذى بعثك بالحق ، فقال النبى ﷺ (الأخلاَّء يَومئذٍ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ المُتَّقِينَ * يا عِبادى لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُم)[5] يا على ! أقبل على شأنك ، واملك لسانك ،

(١) النطع بساط من الأديم . (٢) الزفافون: الذين يزفون العروس إلى زوجها .
(٣) أى يتوجع ويرقق صوته . (٤) الجلاوذة : الغلاظ الشداد . والشرط - جمع شرطة وهم الطائفة المعروفة، وسموا بذلك لأن لهم علامات يعرفون بها . (٥) من الآية ٦٧ من سورة الزخرف

وأغفل من تعاشر من أهل زمانك تسكن غانما » . لم يرو إلا من هذا الوجه فيما نعلم ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع ومائة

فيها : خرج باليمن رجل يقال له : عباد الرعيني ، فدعا إلى مذهب الخوارج ، واتبعه فرقة من الناس وحلموا ، فقاتلهم يوسف بن عمر فقتله وقتل أصحابه ، وكانوا ثلاثمائة وفيها : وقع بالشام طاعون شديد ، وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وعلى جيش أهل الشام ميمون بن مهران ، فقطعوا البحر إلى قبرص ، وغزا مسلمة فى البر فى جيش آخر . وفيها : ظفر أسد بن عبد الله القسرى بجماعة من دعاة بنى العباس بخراسان ، فصلبهم وأشهرهم . وفيها : غزا أسد القسرى جبال نمروذ ، ملك الغرقيسيان(١) ، مما يلى جبال الطالقان ، فصالحه نمروذ وأسلم على يديه . وفيها: غزا أسد الغور - وهى جبال هراة - فعمد أهلها إلى حواصلهم وأثقالهم وأموالهم، فجعلوا ذلك كله فى كهف منيع ،لا سبيل لأحد عليه ، وهو مستعل جداً ، فأمر أسد بالرجال فحملوا فى توابيت ودلاهم إليه ، وأمر بوضع ما هنالك فى التوابيت ورفعوه ، فسلموا وغنموا ، وهذا رأى سديد . وفيها أمر أسد بجمع ما حول بلخ إليها . واستناب عليها برمك والد خالد بن برمك وبناها بناء جيداً جديداً محكما ، وحصنها وجعلها معقداً للمسلمين . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

وممن توفى فيها من الأعيان :

سليمان بن يسار أحد التابعين : [وهو أخو عطاء بن يسار ، له روايات كثيرة ، وكان من المجتهدين فى العبادة ، وكان من أحسن الناس وجهاً . توفى بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة ، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس وجها ، فأرادته على نفسها فأبى وتركها فى منزله ، وخرج هارباً منها ، فرأى يوسف عليه السلام فى المنام . فقال له : أنت يوسف ؟ فقال : نعم أنا يوسف الذى هممت ، وأنا سليمان الذى لم تهم . وقيل : إن هذه الحكاية إنما وقعت فى بعض منازل الحجاج ، وكان معه صاحب له ، فبعثه إلى سوق الحجاج ليشترى شيئاً ، فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له : هيت لك ، فبكى واشتد بكاؤه ، فلما رأت ذلك منه ارتفعت فى الجبل وجاء صديقه فوجده يبكى فقال له : مالك تبكى ؟ فقال : خير ، فقال . لعلك ذكرت بعض ولدك أو بعض أهلك ! فقال : لا، فقال : والله لتخبرنى ما أبكاك أنت. قال : أبكانى خزنى على نفسى، لو كنت مكانك لم أصبر عنها ، ثم ذكر أنه نام فرأى يوسف فى منامه كما تقدم ، والله أعلم](٢).

---

(١) فى الطبرى : جبال نمرون ملك الغرشتان (٢) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

عكرمة مولى ابن عباس : أحد التابعين ، والمفسرين المكثرين والعلماء الربانيين ، والرحالين الجوالين . [وهو أبو عبد الله ، وقد روى عن خلق كثير من الصحابة ، وكان أحد أوعية العلم . وقد أفتى في حياة مولاه ابن عباس ، قال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة ، وقد طاف عكرمة البلاد ، ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان ، وبث علمه هنالك ، وأخذ الصلات وجوائز الأمراء وقد روى ابن أبي شيبة عنه قال : كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل[1] يعلمني القرآن والسنن ، وقال حبيب بن أبي ثابت . اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً ؛ عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير ، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما ، فلما نفد ما عندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا في كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلا .

قال جابر بن زيد : عكرمة أعلم الناس ، وقال الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وروى الإمام أحمد عن عبد الصمد عن سلام بن مسكين ، سمعت قتادة يقول : أعلمهم بالتفسير عكرمة وقال سعيد بن جبير نحوه . وقال عكرمة : لقد فسرت ما بين اللوحين . وقال ابن علية عن أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل - وأشار إلى سَلْع[2] وقال عبد الرزاق عن أبيه : لما قدم عكرمة الجند ، حمله طاوس على نجيب فقال : ابتعت علم هذا الرجل ، وفي رواية : أن طاوساً حمله على نجيب ثمنه ستون ديناراً وقال : ألا نشتري علم هذا العبد بستين ديناراً !

ومات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد ، فأخرجت جنازتهما ، فقال الناس : مات أفقه الناس وأشعر الناس . وقال عكرمة : قال لي ابن عباس : انطلق فأفت الناس ، فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته ، فإنك تطرح عني ثلثي مؤنة الناس . وقال سفيان عن عمرو قال : كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ، ينظر كيف يصنعون ويقتتلون . وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال: سمعت معمراً يقول : سمعت أيوب يقول : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق ، قال : فإني لفي سوق البصرة ، فإذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، قال : واجتمع الناس إليه ، فما قدرت أنا على شيء أسأله عنه ذهبت مني المسائل ، وشردت عني ، فقمت إلى جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه . وقال شعبة عن خالد الحذاء قال : قال عكرمة لرجل وهو يسأله : مالك أجبلت ؟ أي فنيت . وقال

(١) الكبل : القيد . (٢) سلع : جبل بالمدينة

زياد بن أبي أيوب : حدثنا أبو نميلة ، حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد قال : قلت لعكرمة بنيسابور : الرجل يريد الخلاء وفي إصبعه خاتم فيه اسم الله ، قال : يجعل فصه في باطن يده ثم يقبض عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال : سمعت شعبة يقول : قال خالد الحذاء : كل شيء قال فيه محمد بن سيرين : ثبت عن ابن عباس ، إنما سمعه من عكرمة ، لقيه أيام المختار بالكوفة . وقال سفيان الثوري : خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة . وقال أيضاً : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال عكرمة : أدركت مئتين من أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المسجد . وقال محمد بن يوسف الفريابي : حدثنا إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن عكرمة قال : كانت الخيل التي شغلت سليمان بن داود عليه السلام - عشرين ألفاً فعقرها . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة : (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ)(١) ، قال : الدنيا كلها قريب وكلها جهالة . وفي قوله : (لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ)(٢) قال : عند سلاطينها وملوكها . (وَلَا فَسَاداً) لا يعملون بمعاصي الله عز وجل . (وَالْعَاقِبَةُ) هي الجنة . وقال في قوله تعالى : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)(٣) ، أي تركوا ما وعظوا (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) أي شديد (فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ) أي تمادوا وأصروا . (خَاسِئِينَ) صاغرين . (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا) أي من الأمم الماضية (وَمَا خَلْفَهَا) من الأمم الآتية ، من أهل زمانهم وغيرهم (وَمَوْعِظَةً) تقي مَن اتعظ بها الشركَ والمعاصي .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة بعث الله الذين اعتدوا ، ويحاسب الذين تركوا الأمر والنهي ، كان للمسخ لهم عقوبة في الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال عكرمة قال ابن عباس : هلك والله القوم جميعاً ، قال ابن عباس : فالذين أمروا ونهوا نجوا ، والذين لم يأمروا ولم ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل المعاصي . قال : وذلك أهل أيلة - وهي قرية على شاطىء البحر - وكان الله قد أمر بني إسرائيل أن يتفرغوا ليوم الجمعة ، فقالوا : بل نتفرغ ليوم السبت ، لأن الله فرغ من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الأشياء مسبوتة . وذكروا قصة أصحاب السبت ؛ وتحريم الصيد عليهم ، وأن الحيتان كانت تأتيهم يوم السبت ولا تأتيهم في غيره من الأيام ، وذكروا احتيالهم على صيدها في يوم السبت ؛ فقال قوم : لا ندعكم تصيدون في يوم السبت

(١) من الآية : ١٧ من سورة النساء (٢) من الآية : ٨٣ من سورة القصص
(٣) من الآية : ١٦٥ من سورة الأعراف .

ووعظوهم ، فجاء قوم آخرون مداهنون فقالوا : (لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً)(١) قال الناهون : (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ، أى ينتهون عن الصيد فى يوم السبت . وقد ذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس : إن المداهنين هلكوا مع الغافلين ، كساه ثوبين .

وقال حوثرة عن مغيرة عن عكرمة قال : كانت القضاة ثلاثة - يعنى فى بنى إسرائيل - فمات واحد فجعل الآخر مكانه ، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا ، فبعث الله ملكا على فرس ، فمر على رجل يسقى بقرة معها عجل ، فدعا الملك العجل فتبع الرجل الفرس ، فجاء صاحبه ابرده فقال : يا عبد الله ! عجلى وابن بقرتى ، فقال الملك : بل هو عجلى وابن فرسى ، فخاصمه حتى أعيا ، فقال : القاضى بينى وبينك ، قال : لقد رضيت ، فارتفعا إلى أحد القضاة ، فتكلم صاحب العجل فقال له : مر بى على فرس فدعا عجلى فتبعه ، فأبى أن يرده ، قال : ومع الملك ثلاث درات لم ير الناس مثلها ، فأعطى القاضى درة وقال : اقض لى ، فقال : كيف يسوغ هذا ؟ فقال : نرسل العجل خلف الفرس والبقرة فأيهما تبعها فهو ابنها ، ففعل ذلك فتبع الفرس فقضى له . فقال صاحب العجل : لا أرضى ، بينى وبينك القاضى الآخر ، ففعلا مثل ذلك . ثم أتيا الثالث فقصا عليه قصتهما ، وناوله الملك الدرة الثالثة فلم يأخذها ، وقال لا أقضى بينكما اليوم ، فقالا : ولم لا تقضى بيننا ؟ فقال : لأنى حائض ، فقال الملك : سبحان الله !! رجل يحيض ! ؟ . فقال القاضى : سبحان الله ! وهل تنتج الفرس عجلا ؟ فقضى لصاحب البقرة . فقال الملك : إنكم إنما ابتليتم ، وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك .

وقال أبو بكر بن عياش عن حمزة الثمالى عن عكرمة ، أن ملكا من الملوك نادى فى مملكته : إنى إن وجدت أحداً يتصدق بصدقة قطعت يده ، فجاء سائل إلى امرأة فقال : تصدقى على بشىء فقالت : كيف أتصدق عليك والملك يقطع يد من يتصدق ؟ قال : أسألك بوجه الله إلا تصدقت على بشىء ، فتصدقت عليه برغيفين ، فبلغ ذلك الملك ، فأرسل إليها فقطع يديها . ثم إن الملك قال لأمه : دلينى على امرأة جميلة لأتزوجها ، فقالت : إن ههنا امرأة ما رأيت مثلها ، لولا عيب بها قال : أى عيب هو ؟ قالت : مقطوعة اليدين ، قال : فأرسلى إليها ، فلما رآها أعجبته - وكان لها جمال - فقالت : إن الملك يريد أن يتزوجك ، قالت : نعم إن شاء الله ، فتزوجها وأكرمها ، فنهد إلى الملك عدو فخرج إليهم ، ثم كتب إلى أمه : انظرى فلانة فاستوصى بها خيراً وافعلى وافعلى معها ، فجاء الرسول فنزل على بعض ضرائرها ، فحسدنها فأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه : انظرى فلانة ، فقد بلغنى أن رجالا يأتونها فأخرجيها من البيت وافعلى وافعلى ، فكتبت إليه الأم : إنك

(١) من الآية : ١٦٤ من سورة الأعراف .

قد كذبت ، وإنها لامرأة صدق ، فذهب الرسول إليهن فنزل بهن ، فأخبرن الكتاب فغيرنه فكتبن إليه : إنها فاجرة وقد ولدت غلاماً من الزنا ، فكتب إلى أمه : انظرى فلانة فاجعلى ولدها على رقبتها واضربى على جيبها واخرجيها . قال : فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها: أخرجى ، فجعلت الصبى على رقبتها وذهبت ، فمرت بنهر وهى عطشانة ، فنزلت لتشرب والصبى على رقبتها فوقع فى الماء فغرق ، فجلست تبكى على شاطىء النهر ، فمر بها رجلان فقالا: ما يبكيك؟ فقالت : ابنى كان على رقبتى وليس لى يدان ، فسقط فى الماء فغرق . فقالا لها : أتحبين أن يرد الله عليك يديك كما كانتا ؟ قالت : نعم ! فدعوا الله ربهما لها فاستوت يداها ، ثم قالا لها : أتدرين من نحن ؟ قالت : لا قالا : نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما .

وقال فى قوله : (طَيْراً أَبَابِيل)[1] قال : طير خرجت من البحر لها رءوس كرءوس السباع ، فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم ، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ ، وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعد . وفى قوله تعالى : (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)[2] قال : لا يقولون لا إلهَ إلا الله ، وفى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)[3] قال : من يقول لا إلهَ إلا الله ، وفى قوله : (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى)[4] إلى أن تقول لا إله إلا الله ، وفى قوله : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)[5] على شهادة أن لا إله إلا الله . وفى قوله : (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)[6] أليس منكم من يقول : لا إلهَ إلا الله ، وفى قوله : (وَقَالَ صَوَاباً)[7] قال : لا إلهَ إلا الله . وفى قوله : (إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)[8] لمن قال : لا إلهَ إلا الله . وفى قوله: (فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)[9] على من لا يقول : لا إلهَ إلا الله . وفى قوله : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)[10] قال : إذا غضبت (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ)[11] قال : السهر .

وقال : إن الشيطان ليزين للعبد الذنب ، فإذا عمله تبرأ منه ، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسكن له ، ويبكى حتى يغفر الله له ذلك وما قبله وقال : قال جبريل عليه السلام : إن ربى ليبعثنى إلى الشىء لأمضيه ، فأجد الكون قد سبقنى إليه وسئل عن (الماعون)[12] قال : العارية . قلت: فإن منع الرجل غربالا أو قدراً أو قصعة أو شيئاً من متاع البيت فله الويل ؟ قال : لا ! ولكن

---

(١) الآية : ٣ من سورة الفيل . (٢) من الآية : ٦ من سورة فصلت .
(٣) من الآية : ١٤ من سورة الأعلى (٤) ١٨ – سورة النازعات
(٥) من الآية ٣٠ من سورة فصلت (٦) من الآية : ٧٨ – سورة هود (٧) ٣٨ – سورة النبأ
(٨) ١٩٤ – سورة آل عمران (٩) ١٩٣ – سورة البقرة
(١٠) ٢٤ – سورة الكهف (١١) آخر سورة الفتح (١٢) آخر سورة الماعون

إذا نهى عن الصلاة ومنع الماعون فله الويل . وقال . البضاعة المزجاة التي فيها تجوّز . وقال . السائحون ، هم طلبة العلم . وقال (كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ)(١) . قال . إذا دخل الكفار القبور وعاينوا ما أعد الله لهم من الخزى ، يئسوا من نعمة الله . وقال غيره : (يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ) ، أى من حياتهم ، وبعثهم بعد موتهم . وقال : كان إبراهيم عليه السلام يدعى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ، وقال : (أنكالا) أى قيوداً . وقال فى كاهن سبأ : إنه قال لقومه لما دنا منهم العذاب : من أراد سفراً بعيداً وحملا شديداً ، فعليه بعمان . ومن أراد الخمر والخمير ، وكذا وكذا والعصير ، فعليه ببصرى - يعنى الشام ، ومن أراد الراسخات فى الوحل ، والمقيمات فى المحل - فعليه بيثرب ذات النخل .

فخرج قوم إلى عمان ، وقوم إلى الشام - وهم غسان ، وخرج الأوس والخزرج - وهم : بنو كعب بن عمرو - وخزاعة ، حتى نزلوا بيثرب - ذات النخل ، فلما كانوا ببطن مر قالت خزاعة : هذا موضع صالح لا نريد به بدلا ، فنزلوا ، فمن ثم سميت خزاعة ؛ لأنهم تخزعوا من أصحابهم . وتقدمت الأوس والخزرج حتى نزلوا بيثرب ، فقال الله عز وجل ليوسف عليه السلام ، يا يوسف! بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك مع الذاكرين . وقال : قال لقمان لابنه : قد ذقت المرار ، فلم أذق شيئاً أمر من الفقر . وحملت كل حمل ثقيل ، فلم أحمل أثقل من جار السوء . ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . رواه وكيع بن الجراح ، عن سفيان عن أبيه عن عكرمة : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى)(٢) قال : ما وقع شيء منها إلا فى عين رجل منهم . وقال : فى قوله تعالى : (زَنِيم)(٣) هو اللئيم الذى يعرف اللؤمة كما يعرف الشاة بذنمتها . وقال فى قوله تعالى : (الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ)(٤) قال : هم أصحاب التصاوير ، (وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ)(٥) قال : لو أن القلوب تحركت أو زالت لخرجت نفسه ، وإنما هو الخوف والفزع (فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ)(٦) أى بالشهوات (وَتَرَبَّصْتُمْ) بالتوبة (وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) أى التسويف (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ) الموت (وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ) الشيطان . وقال : من قرأ (يس والقرآن الحكيم) لم يزل ذلك اليوم فى سرور حتى يمسى .

قال سلمة بن شعيب : حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبان عن أبيه . قال : كنت جالساً مع عكرمة عند البحر ، فذكروا الذين يغرقون فى البحر . فقال عكرمة : الذين يغرقون فى البحار

(١) ١٨ : سورة الممتحنة (٢) ١٧ : سورة الأنفال (٣) ١٣ : سورة القلم
(٤) ٥٧ : سورة الأحزاب (٥) ١٠ : سورة الأحزاب (٦) ١٤ : سورة الحديد

تقتسم لحومهم الحيتان ، فلا يبقى منهم شيء إلا العظام ، حتى تصير حائلا[1] نخرة ، فتمر بها الإبل فتأكلها ، ثم تسير الإبل فتبعرها ، ثم يجيء بعدهم قوم ، فينزلون ذلك المنزل ، فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ، ثم يصير رماداً ، فتجيء الريح فتأخذه فتذريه فى كل مكان من الأرض ، حيث يشاء الله من بره وبحره ؛ فإذا جاءت النفخة - نفخة البعث - فيخرج أولئك ، وأهل القبور المجموعين سواء . وبهذا الإسناد عنه قال : إن الله أخرج رجلين : رجلا من الجنة ، ورجلا من النار ، فقال لصاحب الجنة : عبدى ! كيف وجدت مقيلك ؟ قال : خير مقيل . ثم قال لصاحب النار : عبدى ! كيف وجدت مقيلك ؟ فقال: شرَّ مقيل قاله القائلون . ثم ذكر من عقاربها وحياتها وزنابيرها ، ومن أنواع ما فيها من العذاب وألوانه ، فيقول الله تعالى لصاحب النار : عبدى ! ماذا تعطينى إن أنا أعفيتك من النار ؟ فيقول العبد : إلهى ، وماذا عندى ما أعطيك ، فقال له الرب تعالى : لوكان لك جبل من ذهب أ كنت تعطينى فأعفيك من النار ؟ فقال نعم ، فقال له الرب: كذبت ، لقد سألتك فى الدنيا ما هو أيسر من ذلك ! تدعونى فأستجيب لك ، وتستغفرنى فأغفر لك ، وتسألنى فأعطيك ، فكنت تتولى ذاهباً .

وبهذا الإسناد قال : ما من عبد يقربه الله عز وجل يوم القيامة للحساب إلا قام من عند الله بعفوه . وبه عنه : لكل شيء أساس ، وأساس الإسلام الخلق الحسن . وبه عنه قال : شكا نبى من الأنبياء إلى ربه عز وجل الجوع والعُرى ، فأوحى الله إليه : أما ترضى أنى سددت عنك باب الشر الناشيء عنها ؟ وبه عنه قال : إن فى السماء ملكا يقال له : إسماعيل ، لو أذن الله له بفتح أذن من آذانه يسبح الرحمن -عز وجل- لمات من فى السموات والأرض. وبه عنه قال : سعة الشمس سعة الأرض وزيادة ثلاث مرات . وسعة القمر سعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت دخلت بحراً تحت العرش ، تسبح الله حتى إذا أصبحت استعفت ربها تعالى من الطلوع ، فيقول لها : ولم ذاك - وهو أعلم - فتقول : لئلا أعبد من دونك ، فيقول لها : اطلعى فليس عليك شيء من ذلك ، حسبهم جهنم أبعثها إليهم مع ثلاث عشرة ألف ملك تقودها حتى يدخلوهم : وهذا خلاف ما ثبت فى الحديث الصحيح « إن جهنم يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » وقال مندل عن أسد بن عطاء ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يقفن أحدكم على رجل يضرب ظلما ، فإن اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه » . ولا يقفن أحدكم على رجل يقتل ظلماً ، فإن اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه » . لم يرفعه إلا مندل هذا .

---

(١) الحائل : المتغير اللون .

وروى شعبة عن عمارة بن حفصة ، عن عكرمة عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ « كان إذا عطس غطى وجهه بثوبه ، ووضع يديه على حاجبيه » ، هذا حديث عال من حديث شعبة. وروى بقية عن إسحاق بن مالك الحضرى ، عن عكرمة عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « من حلف على أحد يميناً ، وهو يرى أنه سيبره فلم يفعل ، فإنما إثمه على الذى لم يبره » تفرد به بقية بن الوليد مرفوعا وقال عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه : حدثنا عبيد بن عمر القواريرى حدثنا يزيد بن ربيع ، حدثنا عمارة بن أبي حفصة ، حدثنا عكرمة ، حدثتنا عائشة ، أن النبي ﷺ كان عليه بردان قطريان خشنان غليظان ، فقالت عائشة : يا رسول الله ! إن ثوبيك هذين غليظان خشنان ، ترشح فيهما فيثقلان عليك ، فأرسل إلى فلان ، فقد أتاه برد من الشام ، فاشتر منه ثوبين إلى مَيسرة ، فأرسل إليه فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله ﷺ بعث إليك لتبيعه ثوبين إلى ميسرة ، فقال : قد علمت ، والله ما يريد نبي الله إلا أن يذهب بثوبيّ ويمطلني بثمنهما ، فرجع الرسول إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال ﷺ : كذب ! قد علموا أني أتقاهم لله ، وآداهم للأمانة » . وفى هذا اليوم قال النبي ﷺ : « لأن يلبس أحدكم من رقاع شتى خير له من أن يستدين ما ليس عنده » والله سبحانه أعلم .

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : كان أحد الفقهاء المشهورين . له روايات كثيرة عن الصحابة وغيرهم ، وكان من أفضل أهل المدينة ، وأعلم أهل زمانه ، قتل أبوه بمصر وهو صغير ، فأخذته خالته ، فنشأ عندها وساد ، وله مناقب كثيرة . أبو رجاء العطاردى .

وفيها توفى كثيّر عزة الشاعر المشهور . وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، أبو صخر الخزاعى الحجازى ، المعروف بابن أبي جُمْعة ، وعَزّة هذه المشهور بها المنسوب إليها ، لتغزله فيها - هي أم عمرو - وعَزة بالعين المهملة ، بنت جميل بن حفص ، من بنى حاجب بن غفار . وإنما صُغر اسمه فقيل كُثَيّر ؛ لأنه كان دميم الخلق قصيراً ، طوله ثلاثة أشبار . قال ابن خلكان : كان يقال له : « رب الذباب » ، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له : طأطىء رأسك لئلا يؤذيك السقف ، وكان يضحك إليه ، وكان يفد على عبد الملك ، ووفد على عبد الملك بن مروان مرات ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان يقال : إنه أشعر الإسلاميين ، على أنه كان فيه تشيع ، وربما نسبه بعضهم إلى مذهب التناسخية ، وكان يحتج على ذلك من جهله ، وقلة عقله إن صح النقل عنه ، فى قوله تعالى : (فى أيِّ صُورَة مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)[1] ، وقد استأذن يوماً على عبد الملك ، فلما دخل عليه قال عبد الملك : لأن

(١) ٨ : سورة الانفطار .

تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فقال : حَيَّهلا يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان ، وأنا الذى أقول :

وجرّبت الأمور وجربتنى ... وقد أبدت عريكتى الأمور
وما تخفى الرجال علىّ إنى ... بهم لأخو مثاقفة خبـــير
ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفى أثوابه أســـد زئير
ويعجبك الطّرير فتختـــبره ... فيخلف ظنك الرجل الطرير
وما عظم الرجال لهـا بزين ... ولكن زينها دين وخـــير
بغاث الطير أطولهـا جسوما ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعـــير
فيُركب ثم يُضرب بالهراوى ... ولا عُرف لديه ولا نكير
وعود النبـــع ينبت مستمرا ... وليس يطول والعضباء خور

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل ، قالوا : ودخل كثير عزة يوماً على عبد الملك بن مروان فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

على ابن أبى العاصى دروع حصينة ... أجاد المسدى سردها وأذالهـا

قال له عبد الملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معديكرب :

وإذا تجىء كتيبة ملمـومة ... شهباء يخشى الذائدون صيالها
كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف يضرب معلما أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ، ووصفتك بالحزم . ودخل يوماً على عبد الملك وهو يتجهز للخروج إلى مصعب بن الزبير فقال : ويحك يا كثير ! ذكرتك الآن بشعرك ، فإن أصبته أعطيتك حكمك ، فقال : يا أمير المؤمنين! كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك ، فبكى لبكائها حشمها ، فذكرت قولى :

إذا ما أراد الغزو لم تثن عزمه ... حصان عليها نظـــم درّ يزينها
نهته فلمّا لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى ممـا عراها قطينُها

قال : أصبت فاحتكم ، قال : مائة ناقة من نوقك المختارة ، قال : هى لك ، فلما سار عبد الملك إلى العراق نظر يوماً إلى كثير عزة وهو مفكر فى أمره فقال : علىّ به ، فلما جىء به قال له : أرأيت إن أخبرتك بما كنت تفكر به تعطينى حكمى ؟ قال : نعم ، قال : والله ؟ قال : والله ،

قال له عبد الملك إنك تقول فى نفسك : هذا رجل ليس هو على مذهبى : وهو ذاهب إلى قتال رجل ليس هو على مذهبى ، فإن أصابنى سهم غرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة ، فقال : إى والله يا أمير المؤمنين ! فاحتكم ، قال : أحتكم حكمى أن أردك إلى أهلك وأحسن جائزتك ، فأعطاه مالا وأذن له بالانصراف

وقال حماد الراوية عن كثير عزة : وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة ، ونحن نمتُّ بصحبتنا إياه ومعاشرتنا له لما كان بالمدينة ، وكل منا يظن أنه سيشركه فى الخلافة ، فنحن نسير ونختال فى رحالنا ، فلما انتهينا إلى خُناصرة ولاحت لنا أعلامها ، تلقانا مسلمة بن عبد الملك فقال : ما أقدمكم ؟ أو ما علمتم أن صاحبكم لا يحب الشعر ولا الشعراء ؟ قال : فوجمنا لذلك ، فأنزلنا مسلمة عنده ، وأجرى علينا النفقات وعلف دوابنا ، وأقمنا عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر ، فلما كان فى بعض الجمع دنوت منه لأسمع خطبته ، فأسلم عليه بعد الصلاة ، فسمعته يقول فى خطبته : لكل سفر زاد ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من عذابه ، فتراغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يمسى بعد إصباحه ولا يصبح بعد إمسائه . وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا ، وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة ، فأما من لا يداوى من الدنيا كلما إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يطمئن ، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتبدو مسكنتى فى يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق .

ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل ، قال : فانصرفت إلى صاحبى فقلت : خذ سرجاً من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه ، فإنه رجل أخرى ليس برجل دنيا ، قال : ثم استأذن لنا مسلمة عليه يوم الجمعة ، فلما دخلنا عليه سلمت عليه ، ثم قلت : يا أمير المؤمنين ! طال الثواء وقلت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب . فقال : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)[1] وقرأ الآية ، فإن كنتم من هؤلاء أعطيتم ، وإلا فلا حق لكم فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنى مسكين وعابر سبيل ومنقطع به ، فقال : ألستم عند أبى سعيد ؟ ــ يعنى مسلمة بن عبد الملك ــ فقلنا : بلى ! فقال : إنه لا ثواب على من هو عند أبى سعيد ، فقلت : ائذن لى يا أمير المؤمنين بالإنشاد ، قال : نعم ، ولا تقل إلا حقاً ، فأنشدته قصيدة فيه :

---

(١) ٦٠ : سورة التوبة .

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ... برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدّقت بالفعل المقال مع الذى ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم
وقد لبست تسعى إليك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحيانا بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مذوقاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أحبالها فى ممنع ... ومن بحرها فى مزبد الموج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية ... بلغت بها أعلى البناء المقدم
فلما أتاك الملك عفوا ولم تكن ... لطالب دنيا بعده فى تكلم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقا ... وآثرت ما يبقى برأى مصمم
وأضررت بالفانى وشمّرت للذى ... أمامك فى يوم من الشر مظلم
وما لك إذ كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رعيت ولادم
سما لك هم فى الفؤاد مؤرق ... بلغت به أعلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول : أمير المؤمنين ظلمتنى ... بأخذك دينارى وأخذك درهمى
ولا بسط كف لامرىء غير مجرم ... ولا السفك منه ظالما ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندّم
فعشت بها ما حج لله راكب ... ملبّ مطيف بالمقام وزمزم
فاربح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال : فأقبل علىّ عمر بن عبد العزيز وقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة ، ثم استأذنه الأحوص ، فأنشده قصيدة أخرى فقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة . ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له ، وأمر لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهما ، وأغزى نصيباً إلى مَرْج دابق وقد وفد كثير عزة بعد ذلك على يزيد بن عبد الملك فامتدحه بقصائد ، فأعطاه سبعمائة دينار . وقال الزبير بن بكار : كان كثير عزة شيعياً خبيثاً يرى الرجعة ، وكان يرى التناسخ ويحتج بقوله تعالى (فى أىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)[1] وقال موسى بن عقبة : هوّل كثير عزة ليلة فى منامه، فأصبح يمتدح آل الزبير ، ويرثى عبد الله بن الزبير ، وكان يسيء الرأى فيه :

---

(١) ٨ : سورة الانفطار .

بمفتضح البطحا تأول أنه ... أقام بها مالم ترمها الأخاشب
سرحنا سروباً آمنين ومن يخف ... بوائق ما يخشى تنبه النوائب
تبرأت من عيب ابن أسماء إننى ... إلى الله من عيب ابن أسماء تائب
هو المرء لا ترزى به أمهـاته ... وآباؤه فيها الكرام الأطايب

وقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : قالت عائشة بنت طلحة لكثير عزة : ما الذى يدعوك إلى ما تقول من الشعر فى عزة ، وليست على نصف من الحسن والجمال ؟ فلو قلت ذلك فىّ وفى أمثالى ، فإنا أشرف وأفضل وأحسن منها — وكانت عائشة بنت طلحة قد فاقت النساء حسناً وجمالاً وأصالة — وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه ، فقال :

ضحى قلبه يا عز أو كاد يذهل ... وأضحى يريد الصوم أو يتبدل
وكيف يريد الصوم من هو وامق ... لعـزة لا قال ولا متبذلُ
إذا واصلتنا خـلة كى تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبيـة أول
سنوليك عرفاً إن أردت وصالنا ... ونحن لتيك الحاجبية أوصل
وحدثها الواشون أنى هجرتها ... فحملهـا غيظاً علىّ المحمل

فقالت له عائشة : قد جعلتنى خلة ولست لك بخلة ، وهلا قلت كما قال جميل ، فهو والله أشعر منك حيث يقول :

يا رب عارضـة علينا وصلها ... بالجد تخلطه بقـول الهازل
فأجبتها بالقول بعـد تستر ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى بقـدر قلامة ... فضل وصلتك أو أتتك رسائلى

فقال : والله ما أنكر فضل جميل ، وما أنا إلا حسنة من حسناته ، واستحيا . ومما أنشده ابن الأنبارى لكثير عزة :

بأبى وأمى أنت من معشوقة ... ظفر العـدو لها فغير حالها
ومشى إلىّ بعيب عزّة نسوة ... جعل الإله خدودهن نعالها
الله يعـلم لو جمعن ومثلت ... لأخذت قبل تأمل تمثالها
ولو ان عزة خاصمت شمس الضحى ... فى الحسن عند موفق لقضى لها

وأنشد غيره لكثير عزة :

فما أحدث النأى الذى كان بيننا ... سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
وما زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا

غيره له :

فقلت لها : يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

وقال كثير عزة أيضاً ، وفيه حكمة أيضاً :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص ، أحد بنى حاجب بن عبد الله بن غفار ، أم عمرو الضمرية - وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامة ، فقال : لا أقضيها لك حتى تنشدينى شيئاً من شعره ، فقالت : لا أحفظ لكثير شعراً ، لكنى سمعتهم يحكون عنه أنه قال فىَّ هذه الأبيات :

قضى كل ذى دين علمت[1] غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

فقال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن أنشدينى قوله :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير
تغير جسمى والخليقة[2] كالذى عهدت ولم يخبر بذاك مخبر

قال . فاستحيت وقالت : أما هذا فلا أحفظه ، ولكن سمعتهم يحكونه عنه ، ولكن أحفظ له قوله :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الظلم لو تمشى بها العُصم[3] زلت
صفوح[4] فما تلقاك إلا بخيلة ومن مل منها ذلك الوصل ملت

قال : فقضى لها حاجتها وردها ، ورد عليها ظلامتها وقال : أدخلوها الحرم ليتعلموا من أدبها .

وروى عن بعض نساء العرب قالت : اجتازت بنا عزة ، فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حسنها ، فإذا هى حميراء حلوة لطيفة ، فلم تقع من النساء بذلك الموقع حتى تكلمت ، فإذا هى أبرع النساء وأحلاهن حديثاً ، فما بقى فى أعيننا امرأة تفوقها حسنا وجمالا وحلاوة .

---

(١) فى رواية : قضى كل ذى دين فوفى غريمه . (٢) فى نسخة : والخليقة كالتى .
(٣) العصم من الظباء : التى فى أذرعتها بياض ، وسائر جسمها أسود أو أحمر .
(٤) صادة : معرضة .

وذكر الأصمعى ، عن سفيان بن عيينة قال : دخلت عزة على سكينة بنت الحسين فقالت لها : إنى أسألك عن شىء فاصدقينى ، ما الذى أراد كثير فى قوله لك :

قضى كل ذى دَين فوفى غريمه   وعزة ممطول معنى غريمها

فقالت : كنت وعدته قبلة ، فطلته بها ، فقالت : أنجزيها له وإثمها علىّ ، وقد كانت سكينة بنت الحسين من أحسن النساء ، حتى كان يضرب بحسنها المثل .

وروى أن عبد الملك بن مروان ، أراد أن يزوج كثيراً من عزة ، فأبت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين ! أبعد ما فضحنى بين الناس وشهرنى فى العرب ؟ وامتنعت من ذلك كل الامتناع . ذكره ابن عساكر . وروى أنها اجتازت مرة بكثير — وهو لا يعرفها — فتنكرت عليه ، وأرادت أن تختبر ما عنده ، فتعرض لها ، فقالت : فأين حبك عزة ؟ فقال : أنا لك الفداء لو أن عزة أمة لى لوهبتها لك ، فقالت : ويحك ! لا تفعل ، ألست القائل :

إذا وصلتنا خــلة كى تزيلنا   أبينا وقلنا الحاجبية أول ؟

فقال : بأبى أنت وأمى ، أقصرى عن ذكرها واسمعى ما أقول :

هل وصل عزة إلا وصل غانية   فى وصل غانية من وصلها بدل

قالت : فهل لك فى المجالسة ؟ قال : ومن لى بذلك ؟ قالت : فكيف بما قلت فى عزة ؟ قال : أقلبه فيتحول لك . قال : فسفرت عن وجهها وقالت : أغدراً ونقضاً يا فاسق ، وإنك لهاهنا يا عدو الله ، فبهت وأبلس ، ولم ينطق وتحير وخجل ، ثم قالت : قاتل الله جميلا حيث يقول :

محا الله من لا ينفع الود عنده   ومَن حبله إن مد غير متين

ومن هو ذو وجهين ليس بدائم   على العهد حلافاً بكل يمين

ثم شرع كثير يعتذر ، ويتنصل مما وقع منه ، ويقول فى ذلك الأشعار ، ذاكراً وآثراً . وقد ماتت عزة بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان ، وزار كثير قبرها ، ورثاها ، وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل : ما بال شعرك تغير وقد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة ولا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال .

وكانت وفاته ووفاة عكرمة فى يوم واحد ، ولكن فى سنة خمس ومائة على المشهور . وإنما ذكره شيخنا الذهبى فى هذه السنة — أعنى سنة سبع ومائة — والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

[ففيها : افتتح مسلمة بن عبد الملك قَيسارية من بلاد الروم ، وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك حصناً من حصون الروم أيضاً . وفيها : غزا أسيد بن عبد الله القسرى أمير خراسان فكسر الأتراك كسرة فاضحة . وفيها : زحف خاقان إلى أذربيجان ، وحاصر مدينة وارثان ، ورماها بالمناجيق ، فسار إليه أمير تلك الناحية ـ الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك ، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه ، وقتل من جيشه خلق كثير ، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل فى جملة من قتل من جيشه ، وقتل الحارث بن عمرو شهيداً ، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقاً كثيراً . وفيها : غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك ـ أرض الروم ، وبعث البطال على جيش كثيف ، فافتتح جنجرة ، وغنم منها شيئاً كثيراً][١] .

وفيها : توفى من الأعيان :

بكر بن عبد الله المزنى ، البصرى : [كان عالماً عابداً ، زاهداً متواضعاً ، قليل الكلام ، وله روايات كثيرة عن خلق من الصحابة والتابعين . قال بكر بن عبد الله : إذا رأيت من هو أكبر منك من المسلمين ـ فقل : سبقته إلى المعاصى فهو خير منى ، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك ـ فقل : هذا من فضل ربى ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : هذا بذنب أحدثته . وقال : من مثلك يا ابن آدم ؟ خلى بينك وبين الماء والمحراب ، متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب . وقال : لا يكون العبد تقيًا حتى يكون تقى الطمع تقى الغضب . وقال : إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه ، فاعلموا أنه قد مُكِر به . وقال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا بلغ المبلغ الصالح من العمل، فمشى فى الناس تظله غمامة ، قال : فمرّ رجل قد أظلته غمامة على رجل ، فأعظمه لما رآه مما آتاه الله ، فاحتقره صاحب الغمامة ، فأمرها الله أن تتحول عن رأسه إلى رأس الذى احتقره ، وهو الذى عظم أمر الله عز وجل . وقال : ما سبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشىء قرّ فى صدره . وله كلام حسن كثير يطول ذكره][٢] .

راشد بن سعد المقرائى الحمصى : عمّر دهراً ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وقد كان عابداً صالحًا زاهداً ـ رحمه الله تعالى ـ وله ترجمة طويلة .

(١و٢) ما بين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

محمد بن كعب القرظي : توفي فيها في قول ، وهو أبو حمزة ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان عالماً بتفسير القرآن ، صالحاً ، عابداً . قال الأصمعي : حدثنا أبو المقدام ـ هشام ابن زياد ـ عن محمد بن كعب القرظي أنه سئل : ما علامة الخذلان ؟ قال : أن يقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان قبيحاً . وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن موهب قال : سمعت ابن كعب يقول : لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح ، (إذا زلزلت ـ والقارعة) ، لا أزيد عليهما ، وأردد فيهما الفكر ـ أحب إلي من أن أهذ القرآن هذاً ـ أو قال : أنثره نثراً ـ . وقال : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام ، قال تعالى : (آيَتُكَ أَنْ لاَ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)[(١)] فلو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص له ، ولرخص للذين يقاتلون في سبيل الله ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[(٢)] ، وقال في قوله تعالى : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا)[(٣)] ، قال : اصبروا على دينكم ، وصابروا لوعدكم الذي وعدتم ، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن ، واتقوا الله فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني . وقال في قوله تعالى : (لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)[(٤)] : علم ما أحل القرآن مما حرم (مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)[(٥)] ، قال : القائم ما كان من بنائهم قائماً ، والحصيد ما حصد فهدم . (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً)[(٦)] ، قال : غرموا ما نعموا به من النعم في الدنيا ، وفي رواية : سألهم ثمن نعمة فلم يقدروا عليها ولم يؤدوها ، فأغرمهم ثمنها ، فأدخلهم النار .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي قال : سمعت محمد بن كعب في هذه الآية : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ)[(٧)] ، قال : هو الرجل يعطي الآخر من ماله ليكافئه به أو يزداد ، فهذا الذي لا يربو عند الله ، والمضعفون هم الذين يعطون لوجه الله ، لا يبتغي مكافأة أحد . وفي قوله تعالى : (أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)[(٨)] ، قال : اجعل سريرتي وعلانيتي حسنة . وقيل : أدخلني مدخل صدق في العمل الصالح ـ أي الإخلاص ، وأخرجني مخرج صدق ـ أي سالماً . (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ

(١) من الآية : ٤١ من سورة آل عمران . (٢) من الآية : ٤٥ من سورة الأنفال .
(٣) من الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران . (٤) من الآية : ٢٤ من سورة يوسف .
(٥) من الآية : ١٠٠ من سورة هود . (٦) من الآية : ٦٥ من سورة الفرقان .
(٧) من الآية : ٣٩ من سورة الروم . (٨) من الآية : ٨٠ من سورة الإسراء .

وَهُوَ شَهِيدٌ)[١] ، أى يسمع القرآن وقلبه ليس معه فى مكان آخر (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ)[٢] ، قال : السعى العمل ليس بالشد . وقال : الكبائر ثلاثة : أن تأمن مكر الله ، وأن تقنط من رحمة الله ، وأن تيأس من روح الله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، قال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال : فقهاً فى الدين ، وزهادة فى الدنيا ، وبصراً بعيوب نفسه . وقال : الدنيا دار قلق ، رغب عنها السعداء ، وانتزعت من أيدى الأشقياء ، فأشقى الناس بها أرغبُ الناس فيها ، وأزهد الناس فيها أسعدُ الناس بها ، هى الغاوية لمن أضاعها . المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها . علمها جهل ، وغناؤها فقر ، وزيادتها نقصان ، وأيامها دول .

وروى ابن المبارك ، عن داود بن قيس قال : سمعت محمد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكى من رجل وتبكى على رجل ؛ تبكى على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكى ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ)[٣] ، وقال فى قوله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[٤] : من يعمل مثقال ذرة خيراً — من كافر — يرى ثوابها فى نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له خير . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره — من مؤمن — يرى عقوبتها فى نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس معه شر . وقال : ما يؤمننى أن يكون الله قد اطلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتنى ، وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن تردنى على أمور حتى أنه لينقضى الليل ولم أفرغ من حاجتى

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالماً — وكان عابداً خيّراً زاهداً — فكتب إليه : إنى قد دبّرته[٥] ، قال : فازدد فيه ، فأتاه سالم ، فقال له عمر : إنى قد ابتليت بما ترى ، وأنا والله أتخوف أن لا أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول فهذا نجاته ، وإلا فهو الأمر الذى يخاف . قال : يا سالم عظنى ، قال : آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة ، وأنتم مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة ، ثم سكت .

قلت : والأمر كما قيل فى بعض كتب الله : تزرعون السيئات وترجون الحسنات ، لا يجتنى من الشوك العنب .

---

(١) من الآية : ٣٧ من سورة قٓ .
(٢) من الآية : ٩ من سورة الجمعة .
(٣) من الآية : ٢٩ من سورة الدخان .
(٤) آخر سورة الزلزلة .
(٥) أى : أعتقته ، والتدبير : عتق العبد .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان وطيب عيش العابد
ونسيت أن الله أخرج آدما منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقال : من قرأ القرآن متع بعقله ، وإن بلغ من العمر مائتى سنة . وقال له رجل : ما تقول في التوبة ؟ قال : لا أحسنها ، قال : أفرأيت إن أعطيت الله عهداً أن لا تعصيه أبداً ؟ قال : فمن أعظم جرماً منك ، تتألى[1] على الله أن لا ينفذ فيك أمره .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى : حدثنا ابن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام ، حدثنا عباد بن عباد ، عن هشام بن زياد أبى المقدام ، قالوا كلهم : حدثنا محمد بن كعب القرظى قال : حدثنا ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق مما فى يده . ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله : قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده . أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ! قال : من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنباً . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ! قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى بن مريم قام فى بنى إسرائيل خطيباً فقال : يا بنى إسرائيل ! لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها ـ وقال مرة فتظلموهم ـ ولا تظلموا ظالماً ، ولا تطاولوا ظالماً ، فيبطل فضلكم عند ربكم . يا بنى إسرائيل ! الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله » .

وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبى ﷺ بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب ، عن ابن عباس ، وقد روى أول الحديث إلى ذكر عيسى من غير طريقه . وسيأتى أن هذا الحديث تفرد به الطبرانى بطوله ، والله سبحانه وتعالى أعلم] .

وفيها : توفى أبو نضرة المنذر بن مالك بن قطعة العبدى ، وقد ذكرنا تراجمهم فى كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها : عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القسرى عن إمرة خراسان ، وأمره أن يقدم إلى الحج ، فأقبل منها فى رمضان ، واستخلف على خراسان ـ الحكم بن عوانة الكلبى ، واستناب

(١) أى : تقسم ، والألى ـ كغنى ـ الكثير الأيمان .

هشام على خراسان – أشرس بن عبد الله السلمى ، وأمره أن يكاتب خالد بن عبد الله القسرى ، وكان أشرس فاضلا خيراً ، وكان يُسمّى الكامل لذلك ، وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان ، واستعمل المرابطة عبد الملك بن زياد الباهلى ، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها ، ففرح بها أهلها .

وفيها : حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها : قاتل مسلمة بن عبد الملك ، ملك الترك الأعظم – خاقان ، فزحف إلى مسلمة فى جموع عظيمة ، فتواقفوا نحواً من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلمة سالماً غانماً ، فسلك على مسلك[1] ذى القرنين فى رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزاة « غزاة الطين » ، وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع ، غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحل فيها خلق كثير ، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالا صعاباً ، وشدائد عظاماً .

وفيها : دعا أشرس بن عبد الله السلمى – نائب خراسان – أهل الذمة بسمرقند ، ومن وراء النهر إلى الدخول فى الإسلام ، ويضع عنهم الجزية ، فأجابوه إلى ذلك ، وأسلم غالبهم ، ثم طالبهم بالجزية ، فنصبوا له الحرب وقاتلوه . ثم كانت بينه وبين الترك حروب ، أطال ابن جرير بسطها ، وشرحها فوق الحاجة .

وفيها : أرسل أمير المؤمنين – هشام بن عبيدة إلى إفريقية متولياً عليها ، فلما وصل جهز ابنه وأخاه فى جيش ، فالتقوا مع المشركين ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأسروا بطريقهم[2] ، وانهزم باقيهم ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً .

وفيها : افتتح معاوية بن هشام – حصنين من بلاد الروم ، وغنم غنائم جمة .

وفيها : حج بالناس إبراهيم بن هشام ، وعلى العراق خالد القسرى ، وعلى خراسان أشرس السلمى

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

جرير الشاعر : وهو جرير بن الخطفى ، ويقال : ابن عطية بن الخَطَفى واسم الخطفى : حُذيفة ابن بدر بن سَلَمة بن عَوف بن كُليب بن يربوع بن حَنظلة بن مالك بن زَيد مناة بن تميم بن مُرّ ابن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزارٌ . ويكنى : أبا حَزْرة الشاعر البصرى ، قدم دمشق

---

(١) فى الطبرى : فسلك على مسجد ذى القرنين .

(٢) البطريق : القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل .

مراراً ، وامتدح يزيد بن معاوية ، والخلفاء من بعده ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان في عصره من الشعراء الذين يقارنونه : الفرزدق ، والأخطل ، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم . قال غير واحد : هو أشعر الثلاثة . قال ابن دريد : ثنا الأشناندانى ، ثنا الثورى عن أبى عبيدة ، عن عثمان البتّى قال : رأيت جريراً وما تضم شفتاه من التسبيح ، فقلت : وما ينفعك هذا ؟ فقال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلَه إلا الله ، والله أكبر ولله الحمد ، (إنّ الحسنات يُذهِبْنَ السَّيئات)[1] ، وَعْد من الله حق . وقال هشام بن محمد الكلبى ، عن أبيه قال : دخل رجل من بنى عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة ، وعنده الشعراء الثلاثة : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابى . فقال عبد الملك للأعرابى : هل تعرف أهجى بيت قالته العرب فى الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

فغُضّ الطرفَ إنك من نُمَير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فقال : أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت قيل فى الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقال : أصبت وأحسنت ، فهل تعرف أرق بيت قيل فى الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض[2] قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يَصْرَعْن ذا اللب حتى لا حَراك به وهُنّ أضعف خلق الله أركانا[3]

فقال : أحسنت ، فهل تعرف جريراً ؟ قال : لا والله ، وإنى إلى رؤيته لمشتاق ، قال : فهذا جرير ، وهذا الفرزدق ، وهذا الأخطل ، فأنشأ الأعرابى يقول :

فحيّا الإله أبا حزرة وأرغم أنفكَ يا أخطل
وجدُّ الفرزدق اتعس به ورق خياشيمه الجندل

فأنشأ الفرزدق يقول :

يا أرغم الله أنفا أنتَ حامله يا ذا الخنا ومقال الزور والخَطَل
ما أنتَ بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجَدَل

ثم أنشأ الأخطل يقول :

يا شَرّ من حملت ساق على قدم ما مثل قولك فى الأقوام يُحتمل
إنّ الحكومة ليست فى أبيك ولا فى معشر أنت منهم إنهم سفل

(١) من الآية : ١١٤ من سورة هود . (٢) المشهور : حور (٣) فى رواية : إنسانا .

فقام جرير مغضباً وقال :

أتشتمان سفاهاً خيرَكم حسباً ففيكما - وإلهى - الزُّور والخطل

شتمتماه على رفعى ووضعكما لا زلتما فى سِفال أيها السفل

ثم وثب جرير فقبل رأس الأعرابى وقال : يا أمير المؤمنين ، جائزتى له - وكانت خمسة آلاف - فقال عبد الملك : وله مثلها من مالى . فقبض الأعرابى ذلك كله وخرج .

وحكى يعقوب بن السكيت : أن جريراً دخل على عبد الملك مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج ، فأنشده مديحه الذى يقول فيه :

ألستُمْ خيرَ مَن ركب المطايا وأندَى العالمين بطون راح

فأطلق له مائة ناقة ، وثمانية من الرعاء ؛ أربعة من النوبة ، وأربعة من السبى الذين قدم بهم من الصُّغد . قال جرير : وبين يدى عبد الملك جامان من فضة قد أهديت له ، وهو لا يعبأ بها شيئاً ، فهو يقرعها بقضيب فى يده ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! المحلب[1] ، فألقى إلىَّ واحداً من تلك الجامات ، ولما رجع إلى الحجاج أعجبه إكرام أمير المؤمنين له ، فأطلق الحجاج له خمسين ناقة تحمل طعاماً لأهله .

وحكى نفطويه : أن جريراً دخل يوماً على بشر بن مروان ، وعنده الأخطل ، فقال بشر لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ومن هذا أيها الأمير ؟ فقال : هذا الأخطل ، فقال الأخطل : أنا الذى قذفت عِرضك ، وأسهرت ليلك ، وآذيت قومك ، فقال جرير : أما قولك شتمت عرضك ، فما ضرّ البحر أن يشتمه من غرق فيه ، وأما قولك : وأسهرت ليلك ، فلو تركتنى أنام لكان خيراً لك ، وأما قولك : وآذيت قومك ، فكيف تؤذى قوماً أنت تؤدِّى الجزية إليهم ؟ وكان الأخطل من نصارى العرب المتنصرة - قبحه الله وأبعد مثواه - وهو الذى أنشد بشر بن مروان قصيدته التى يقول فيها :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف وَدَمٍ مُهرَاق

وهذا البيت تستدل به الجهمية[2] على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه . وليس فى بيت هذا النصرانى حجة ، ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عزَّ وجل باستوائه على عرشه استيلائه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علوّاً

(١) المحلب : إناء يحلب فيه . (٢) الجهمية : فرقة من الخوارج .

كبيراً ، فإنه إنما يقال : استوى على الشيء - إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه ، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً ، حتى يقال : استوى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء . ولا تجد أضعف من حجج الجهمية ، حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح ، وليس فيه حجة ، والله أعلم .

وقال الهيثم بن عدى ، عن عوانة بن الحكم قال : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء ، فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ، ولا يلتفت إليهم ، فساءهم ذلك ، وهموا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة ، فقال له جرير :

يا أيها الرَّجل المُرْخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ، ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئاً ، فمرّ بهم عدى بن أرطاة[1]، فقال له جرير منشداً :

يا أيها الراكب المُرْخى مطيَّته هذا زمانك إنى قد مضى زَمَنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود فى قَرَن
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وَطَنى

فدخل عدى على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، وسهامهم مسمومة ، وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك يا عدى ، مالى وللشعراء ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ قد كان يسمع الشعر ، ويجزى عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحه ، فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروى منها شيئاً ؟ قال : نعم ، فأنشده :

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحقّ مُعلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جَورنا عن الحقّ لما أصبحَ الحق مُظلما
ونوّرت بالبرهان أمراً مُدلساً وأطفأت بالقرآن ناراً تضرما
فمن مبلغ عنّى النبى محمداً وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وكان قديماً ركنه قد تهدما
تعالَى عُلوّاً فوق عرش إلهنا وكان مكان الله أعلاَ وأعظما

فقال عمر : من بالباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبى ربيعة ، فقال : أليس هو الذى يقول :

ثم نبهتهــا فهبت كعابا طفلة ما تبين رَجعَ الكلام

(١) فى الأغانى : إن الذى مر بهم : عون بن عبد الله بن عتبة ، وقيل : آخر .

ساعة ثم إنها بعدُ قالت ... ويلَنَا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى ... تتخطى إلى رءوس النِّيام
ما تجشمت ما تريد من الأمر ... ولا جيئت طارقاً لخصام

فلو كان عدوّ الله إذ فجر كتم وستر على نفسه ، لا يدخل والله أبداً . فمن بالباب سواه ؟ قال : همام بن غالب ـ يعنى الفرزدق ـ فقال عمر : أوليس هو الذى يقول فى شعره :

هما دلّيانى من ثمانين قامة ... كما انقض باز أقتمُ الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا ... أحىٌّ يرجَّى أم قتيل نحاذره ؟

لا يطأ والله بساطى وهو كاذب ، فمن سواه بالباب ؟ قال : الأخطل ، قال : أوليس هو الذى يقول :

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيساً بكور ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتاً بعيداً ... بمكة أبتغى فيه صلاحى
ولست بقائم كالعير أدعو ... قبيل الصبح حىَّ على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا ... وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل علىّ وهو كافر أبداً ، فهل بالباب سوى من ذكرت ؟ قال : نعم ـ الأحوص ، قال : أليسَ هو الذى يقول :

الله بينى وبين سيدها ... يَفِرُّ منِّى بها وأتبعه

فما هو دون من ذكرت ، فمن هٰهنا غيره ؟ قال : جميل بن معمر ، قال : الذى يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت ... يوافق فى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوى عليها صفيحها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بذلك صالحا ويتوب ، والله لا يدخل علىّ أبداً ، فهل بالباب أحد سوى ذلك ؟ قلت : جرير ، قال : أما إنه الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان لا بد فأذن لجرير ، فأذن له ، فدخل على عمر وهو يقول :

إنّ الذى بعث النبى محمداً ... جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاؤه ... حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلا ... والنفس مولعة بحب العاجل

فقال له : ويحك ياجرير! اتق الله فيما تقول . ثم إن جريراً استأذن عمر في الإنشاد فلم يأذن له ، ولم ينهه ، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير ! لا أرى لك فيما هٰهنا حقًّا ، فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم : أخذت أم عبد الله مائة ، وابنها مائة ، وقد بقيت مائة ، فأمر له بها . فخرج على الشعراء ، فقالوا : ما وراءك يا جرير ؟ فقال : ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين ، وهو يعطي الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رُقى الشيطان لا تستفزُّه   وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وقال بعضهم فيما حكاه المعافى بن زكريا الجريري : قالت جارية للحجاج بن يوسف : إنك تدخل هذا علينا ، فقال : إنه ما علمتُ عفيفا ، فقالت : أما إنك لو أخليتني وإياه سترى ما يصنع ، فأمر بإخلائها مع جرير في مكان يراهما الحجاج ، ولا يريانه ، ولا يشعر جرير بشيء من ذلك ، فقالت له : يا جرير ! فأطرق رأسه ، وقال : هأنذا ، فقالت : أنشدني من قولك كذا وكذا — الشعر فيه رقة — فقال : لست أحفظه ، ولكن أحفظ كذا وكذا — ويعرض عن ذاك وينشدها شعراً في مدح الحجاج — فقالت : لست أريد هذا ، إنما أريد كذا وكذا — فيعرض عن ذاك ، وينشدها في الحجاج — حتى انقضى المجلس ، فقال الحجاج : لله درك ، أبيت إلا كرماً وتكرماً .

وقال عكرمة : أنشدت أعرابيا بيتاً لجرير الخطفي :

أبدّل الليل لا تجري كواكبه   أو طال حتى حسبت النجم حيرانا؟

فقال الأعرابي : إن هذا حسن في معناه ، وأعوذ بالله من مثله ، ولكني أنشدك في ضده من قولي :

وليـــل لم يقصّره رقاد   وقصّره لنا وصل الحبيب

نعيم الحب أورق فيه حتى   تناولنا جناه من قريب

بمجلس لذة لم نقف فيه   على شكوَى ولا عيب الذنوب

خشينا أن نقطعه بلفظ   فترجمت العيون عن القلوب

فقلت له : زدني ، قال : أما من هذا فحسبك ، ولكن أنشدك غيره ، فأنشدني :

وكنت إذا عقدت حبال قوم   صحبتهم وشـــيمتي الوفاء

فأحسن حين يحسن محسنوهم   وأجتنب الإساءة إن أساءوا

أشاء سوى مشيئتهم فآتي   مشيئتهم وأترك ما أشاء

قال ابن خلكان : كان جرير أشعر من الفرزدق عند الجمهور ، وأفخر بيت قاله جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

قال وقد سأله رجل : من أشعر الناس ؟ فأخذ بيده وأدخله على أبيه ، وإذا هو يرتضع من ثدى عنز ، فاستدعاه ، فنهض واللبن يسيل على لحيته ، فقال جرير للذى سأله : أتبصر هذا ؟ قال : نعم ، قال : أتعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا أبى ، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلا يحلبها ، فيسمع جيرانه حس الحلب فيطلبوا منه لبناً ، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعراً فغلبهم .

وقد كان بين جرير والفرزدق مقاولات ومهاجاة كثيرة جداً ، يطول ذكرها ، وقد مات فى سنة عشر ومائة ، قاله خليفة بن خياط ، وغير واحد . قال خليفة : مات الفرزدق ، وجرير بعده بأشهر . وقال الصولى : ماتا فى سنة إحدى عشرة ومائة ، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً . وقال الكريمى ، عن الأصمعى ، عن أبيه قال : رأى رجل جريراً فى المنام بعد موته ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، فقيل : بماذا ؟ قال : بتكبيرة كبرتها بالبادية ، قيل له : فما فعل الفرزدق ؟ قال : أيهات ! أهلكه قذف المحصنات . قال الأصمعى : لم يدعه فى الحياة ولا فى الممات .

وأما الفرزدق ، واسمه : همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مُجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة — أبو فراس بن أبى خطل ، التميمى ، البصرى ، الشاعر — المعروف بالفرزدق ، وجده : صعصعة بن ناجية — صحابى ، وفد إلى رسول الله ﷺ ، وكان يحيى الموءودة فى الجاهلية . حدث الفرزدق عن على : أنه ورد مع أبيه عليه ، فقال : من هذا ؟ قال : ابنى وهو شاعر ، قال : علمه القراءة فهو خير له من الشعر . وسمع الفرزدق الحسين بن على ، ورآه وهو ذاهب إلى العراق ، وأبا هريرة ، وأبا سعيد الخدرى ، وعرفجة بن أسعد ، وزرارة بن كرب ، والطرماح بن عدى الشاعر . وروى عنه خالد الحذاء ، ومروان الأصفر ، وحجاج بن حجاج الأحول ، وجماعة . وقد وفد على معاوية يطلب ميراث عمه الحباب ، وعلى الوليد بن عبد الملك ، وعلى أخيه ، ولم يصح ذلك . وقال أشعث بن عبد الله ، عن الفرزدق ، قال : نظر أبو هريرة إلى قدمى فقال : يا فرزدق ! إنى أرى قدميك صغيرتين فاطلب لهما موضعاً فى الجنة ، فقلت : إن ذنوبى كثيرة ، فقال : لا بأس ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وقال معاوية بن عبد الكريم عن أبيه قال : دخلت على الفرزدق فتحرك ، فإذا فى رجله قيد ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : حلفت أن لا أنزعه حتى أحفظ القرآن . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت بدوياً أقام بالحضر إلا فسد لسانه — إلا رؤبة بن العجاج والفرزدق ؛ فإنهما زادا على طول الإقامة جدة وحدة . وقال راويته أبو شفقل : طلق الفرزدق امرأته النوار ثلاثاً ، ثم جاء فأشهد على ذلك الحسن البصرى ، ثم ندم على طلاقها ، وإشهاده الحسن على ذلك ، فأنشأ يقول :

فلو أنى ملكت يدى وقلبى لكان علىّ للقدر الخيار
ندمت ندامة الكُسَعىّ لما غدت منى مُطلّقة نوار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

وقال الأصمعى وغير واحد : لما ماتت النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعى ، امرأة الفرزدق ـ وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى ـ فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسن على بغلته ، والفرزدق على بعيره ، فسارا فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس ـ يعنونك ، وشر الناس ـ يعنونى ، فقال له : يا أبا فراس ! لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول :

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى أشدّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارم مَن مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مُسَربلا سرابيل قطران لباساً محرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم يذوبون من حر الصديد تمزقا

قال : فبكى الحسن حتى بل الثرى ، ثم التزم الفرزدق وقال : لقد كنت من أبغض الناس إلى ، وإنك اليوم من أحب الناس إلى . وقال له بعض الناس : ألا تخاف من الله فى قذف المحصنات ، فقال : والله ، لله أحب إلى من عينىّ اللتين أبصر بهما ، فكيف يعذبنى ؟ وقد قدمنا أنه مات سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما ، وقيل بأشهر ، فالله أعلم .

وأما الحسن ، وابن سيرين ـ فقد ذكرنا ترجمة كل منهما فى كتابنا « التكميل » مبسوطة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فأما الحسن بن أبى الحسن : فاسم أبيه يسار ، وأبو هو أبو سعيد البصرى مولى زيد بن ثابت ، ويقال : مولى جابر بن عبد الله ، وقيل : غير ذلك ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها ، وربما أرسلتها فى الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاغله أم سلمة بثدييها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التى أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدى المنسوب إلى رسول الله ﷺ . ثم كان ـ وهو صغير ـ تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان فى جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ، قال : اللهم فقهه فى الدين ،

وحببه إلى الناس . وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا . وقال أنس مرة : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين : الحسن ، وابن سيرين .

وقال قتادة : ما جالست رجلا فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه ، وقال أيضاً : ما رأت عيناى أفقهَ من الحسن . وقال أيوب : كان الرجل يجالس الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن مسألة هَيبةً له . وقال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة : إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن ، فأقرئه مني السلام . وقال يونس بن عبيد : كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه . وقال الأعمش : ما زال الحسن يعى الحكمة حتى نطق بها . وكان أبو جعفر إذ ذكره يقول : ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء .

وقال محمد بن سعد : قالوا كان الحسن جامعا للعلم والعمل ، عالما رفيعا ـ فقيها ـ ثقة مأمونا عابداً زاهداً ـ ناسكا كثير العلم والعمل ـ فصيحا جميلا وَسيما ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، وجلس العلماء حوله ، واجتمع الناس إليه فحدثهم . قال أهل التاريخ : مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة ، عام عشر ومائة فى رجب منها ، بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم .

وأما ابن سيرين : فهو محمد بن سيرين ، أبو بكر بن أبى عمرو الأنصارى ، مولى أنس بن مالك النضرى . كان أبو محمد من سَبى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فى جملة السبى ، فاشتراه أنس ثم كاتبه ، ثم ولد له من الأولاد الأخيار جماعة : محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبدٌ ويحيى وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء ـ رحمهم الله .

قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا عاليا رفيعا فقيها إماما كثير العلم ورعا ، وكان به صمم . وقال مُوَرِّق العِجلى : ما رأيت رجلا أفقه فى ورعه ، وأورع فى فقهه منه ، قال ابن عون : كان محمد بن سيرين أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشد الناس إزرا على نفسه ، وأشدهم خوفا عليها . قال ابن عَون : ما بكى فى الدنيا مثل ثلاثة ، محمد بن سيرين فى العراق ، والقاسم بن محمد فى الحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام . وكانوا يأتون بالحديث على حروفه ، وكان الشعبي يقول : عليكم بذاك الأصم ـ يعنى محمد بن سيرين . وقال ابن شَوْذب : ما رأيت أحداً أجرأ على تعبير الرؤيا منه ، وقال عثمان البَتّى : لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه . قالوا ومات تاسع شوال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم .

فصل

كان اللائق ، بالمؤلف أن يذكر تراجم هؤلاء العلماء الأخيار قبل تراجم الشعراء المتقدم ذكرهم؛ فيبدأ بهم ثم يأتى بتراجم الشعراء ، وأيضاً فإنه أطال القول فى تراجم الشعراء واختصر تراجم العلماء ، ولو كان فيها حسن وحكم جمة ينتفع بها من وقف عليها ، ولعلها أفيد من مدحهم والثناء عليهم ، ولا سيما كلام الحسن وابن سيرين ووهب بن منبّه ـ كما ذكره بعد وكما سيأتى ذكر ترجمته فى هذه الزيادة ـ فإنه قد اختصرها جداً : وإن المؤلف أقدر وأوسع علما ، فما ينبغى أن يخل ببعض كلامهم وحكمهم ؛ فإن النفوس مستشرفة إلى معرفة ذلك والنظر فيه ؛ فإن أقوال السلف لها موقع من القلوب ، والمؤلف غالباً فى التراجم يحيل على ما ذكره فى « التكميل » الذى صنفه فى أسماء الرجال ، وهذا الكتاب لم نقف عليه نحن ولا من سألناه عنه من العلماء ، فإنا قد سألنا عنه جماعة من أهل الفن فلم يذكر غير واحد أنه اطلع عليه فكيف حال غيرهم ؟.

وقد ذكرت فى غالب التراجم زيادات على ما ذكره المؤلف مما وصلت إليه معرفتى واطلاعنا عليه ، ولو كان عندى كتب لأشبعت القول فى ذلك ؛ إذ الحكمة هى ضالة المؤمن .

ولعل أن يقف على هذا راغب فى الآخرة ، طالب ما عند الله عز وجل فينتفع به ـ أعظم مما ينتفع به من تراجم الخلف والملوك والأمراء ، وإن كانت تلك أيضاً نافعة لمعتبر ومزدجر ؛ فإن ذكر أئمة العدل والجور بعد موتهم ـ فيها فضل أولئك ، وغمّ هؤلاء ، ليعلم الظالم أنه وإن مات لم يمت ما كان متلبسا به من الفساد والظلم ، بل هو مدوّن فى الكتب عند العلماء . وكذلك أهل العدل والصلاح والخير ، فإن الله قص فى القرآن أخبار الملوك والفراعنة والكفار والمفسدين ، تحذيراً من أحوالهم وما كانوا يعملون . وقص أيضاً أخبار الأتقياء والمحسنين والأبرار والأخيار والمؤمنين ، للاقتداء والتأسى بهم ، والله سبحانه أعلم فنقول وبالله التوفيق :

أما الحسن : فهو أبو سعيد البصرى الإمام الفقيه المشهور ، أحد التابعين الكبار الأجلاء علما وعملا وإخلاصا ، فروى ابن أبى الدنيا عنه قال : كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره ، وأحدهم يصلى ليلة أو بعض ليلة فيصبح وقد استطال على جاره . وإن كان القوم ليجتمعون فيتذاكرون ، فتجىء الرجل عَبرته فيردها ما استطاع ، فإن غلب قام عنهم . وقال الحسن : تنفس رجل عند عمر بن عبد العزيز فكرهه عمر ـ أو قال : لكنه ـ وقال : إن فى هذا لفتنة . وقد ذكره ابن أبى الدنيا عن الحسن عن عمر بن الخطاب ، وروى الطبرانى عنه أنه قال : إن

قوماً ألهتهم أماني المغفرة ورجاء الرحمة ، حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة ، يقول أحدهم : إني لَحَسَنُ الظن بالله ، وأرجو رحمة الله ، وكذب ؛ لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة ، يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك . وروى ابن أبي الدنيا عنه ، قال : حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور [١] ، واقدعوا [٢] هذه الأنفس فإنها تنزع إلى شر غاية .

وقال مالك بن دينار : قلت للحسن : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟ قال : موت القلب ، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه . وروى العتبي عن أبيه قال : عاد الحسن عليلا فوجده قد شفي من علته ، فقال : أيها الرجل ! إن الله قد ذكرك فاذكره ، وقد أقالك فاشكره . ثم قال الحسن : إنما المرض ضربة سَوط من ملك كريم ، فإما أن يكون العليل بعد المرض فرسا جواداً ، وإما أن يكون حماراً عَثورا معقوراً .

وروى العتبي عن أبيه أيضا قال : كتب الحسن إلى فرقد . أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسِر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الجاهلين ، وشمِّر الساق ؛ فإن الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية الجنة أو النار ، فإن لي ولك من الله مقاماً يسألني وإياك فيه عن الحقير والدقيق ، والجليل والخافي ، ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإياك عنه ـ وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، وإصغاء الأسماع ، وما أعجز عنه .

وروى ابن قتيبة ، عنه أنه مر على باب ابن هُبَيرة فرأى القراء ـ وكانوا هم الفقهاء ـ جلوسا على باب ابن هبيرة فقال : طفحتم نعالكم ، وبيضتم ثيابكم ، ثم أتيتم إلى أبوابهم تسعون . ثم قال لأصحابه : ما ظنكم بهؤلاء الحذاء ؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء ، وإنما مجالسهم مجالس الشرط . وروى الخرائطي عن الحسن ، أنه كان إذا اشترى شيئاً وكان في ثمنه كسر جبره لصاحبه ، ومر الحسن بقوم يقولون : نقص دانق ـ أي عن الدرهم الكامل والدينار الكامل ـ إما أن يكون درهما ينقص نصفا أو ربعاً ، والعشرة تسعة ونصف ، وقس على هذا ، فكان الحسن يستحب جَبران هذه الأشياء ، وإن كان اشترى السلعة بدرهم ينقص دانقا — كمله درهما ، أو بتسعة ونصف كملها عشرة ، مروءة وكرما . وقال عبد الأعلى السمسار : قال الحسن : يا عبد الأعلى ! أما يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينقص درهمين أو ثلاثة ؟ قلت لا والله ولا دانق واحد ،

---

(١) الدثور للقلوب : إمحاء الذكر منها (٢) أي نهروها وأبعدوها عن الفحش .

فقال الحسن : إن هذه الأخلاق فما بقى من المروءة إذاً ؟ . قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلا بمروءة ، وباع بغلة له فقال له المشترى : أما تحط لى شيئاً يا أبا سعيد ؟ قال: لك خمسون درهما ، أزيدك ؟ قال : لا رضيت ، قال : بارك الله لك .

روى ابن أبى الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبت بى أمى إلى الحسن فقالت : يا أباسعيد : ابنى هذا قد أحببت أن يلزمك فلعل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لى يوما: يا بنى أدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ،وابك فى ساعات الليل والنهار فى الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عَبرتك فتكون من الفائزين . قال : وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكى ، وربما جئت إليه وهو يصلى فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوما : إنك تكثر البكاء ، فقال : يا بنى ! ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك ؟ يا بنى إن البكاء داع إلى الرحمة ، فإن استطعت أن تكون عمرك باكيا فافعل، لعله تعالى أن يرحمك ، فإذا أنت نجوت من النار . وقال : ما هو إلا حلول الدار إما الجنة وإما النار، ما هناك منزل ثالث . وقال : بلغنا أن الباكى من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار . وقال : لو أن باكيا بكى فى ملأ من خشية الله ـ لرحموا جميعا ، وليس شىء من الأعمال إلا له وزن، إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقوّم الله بالدمعة منه شيئاً وقال : ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب .

وروى ابن أبى الدنيا عنه فى كتاب اليقين ، قال : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحكم فى علم ، وحَبس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتحمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورّع فى رغبة ، وتعفف وصبر فى شدّة ، لا ترديه رغبته ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بَصره ، ولا يغلبه فرجُه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته كذا ذكر هذه الألفاظ عنه[1] . قال : حدثنا عبد الرحمن بن صالح عن الحكم بن ظهير ، عن يحيى بن المختار عن الحسن فذكره . وقال فيه أيضا عنه : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يدى الله عز وجل .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا على بن إبراهيم اليشكرى ، حدثنا موسى بن إسماعيل الجبلى ، حدثنا حفص بن سليمان أبو مقاتل ، عن عون بن أبى شداد، عن الحسن قال : قال لقمان لابنه : يا بنى ! العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه يضعف عمله . وقال : يا بنى ! إذا جاءك

(١) لم يبين بالأصل اسم الذاكر

الشيطان من قبل الشك والريب ـ فاغلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة ـ فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة ـ فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة . وقال الحسن : ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما ـ إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت . وقال : باليقين طلبتُ الجنة ، وباليقين هربتُ من النار ، وباليقين أديت الفرائض على أكمل وجوهها ، وباليقين أصبر على الحق، وفي معافاة الله خير كثير ؛ قد والله رأيناهم يتعاونون في العافية ، فإذا نزل البلاء تفارقوا . وقال : الناس في العافية سواء ، فإذا نزل البلاء تبين عنده الرجال . وفي رواية : فإذا نزل البلاء تبين من يعبد الله وغيره . وفي رواية فإذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه .

وقال الفريابي في فضائل القرآن : حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، لم يأتوا الأمر من قبل أوله ، قال الله عز وجل : (كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب)[1] وما تدبر آياته إلا أتباعه . أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا واحدا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل ، حتى إن أحدهم ليقول : والله إني لأقرأ السورة في نفس ، لا والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة ، ومتى كانت القراءة هكذا ؟ أو يقول مثل هذا ، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء . ثم روى الحسن عن جندب قال : قال لنا حذيفة : هل تخافون من شيء ؟ قال : قلت والله إنك وأصحابك لأهون الناس عندنا ، فقال : أما والذي نفسي بيده لا تؤتون إلا من قبلنا ، ومع ذلك شيء آخر يقرؤن القرآن يكونون في آخر هذه الأمة ينثرونه نثر الدقل[2] ، لا يجاوز تراقيهم ، تسبق قراءتهم إيمانهم .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في ذم الغيبة له قال : والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة[3] في جسده . وكان يقول : ابن آدم ! إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان ذلك شغلك في طاعة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال الحسن : ليس بينك وبين الفاسق حرمة . وقال : ليس لمبتدع غيبة . وقال أصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل

(١) من الآية : ٢٩ ـ سورة ص (٢) الدقل : أردأ التمر
(٣) الأكلة ـ بكسر الكاف ـ داء يصيب العضو فيأتكل منه .

الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ، ولا كرامة . وقال : إذا ظهر فجوره فلا غيبة له . وقال : ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم : المجاهر بالفسق ، والإمام الجائر ، والمبتدع .

وقال له رجل : إن قوماً يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلا ، فقال : هوّن عليك يا هذا . فإنى أطمعت نفسى فى الجنان فطمعت ، وأطمعتها فى النجاة من النار فطمعت ، وأطمعتها فى السلامة من الناس ، فلم أجد إلى ذلك سبيلا ؛ فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم ، فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم ؟ وقال : كانوا يقولون : من رمى أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب . وقال الحسن : قال لقمان لابنه : يا بنى ، إياك والكذب ، فإنه شهىّ كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال الحسن : اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم ، فإن الله عز وجل لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه ، فإن سمعت قولا حسناً فرويداً بصاحبه ، فإن وافق قول عملا فنعم ونعمت عين أخته وأخيه . وإذا خالف قول عملا فماذا يشبه عليك منه ؟ أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إياك وإياه لا يخدعنك كما خدع ابن آدم ، إن لك قولا وعملا ، فعملك أحق بك من قولك ، وإن لك سريرة وعلانية ، فسريرتك أحق بك من علانيتك ، وإن لك عاجلة وعاقبة ، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس ، أنبأ عبدان بن عثمان ، أنبأ معمر ، عن يحيى ابن المختار ، عن الحسن قال : إذا شئتَ لقيت الرجل أبيض ، حديد اللسان ، حديد النظر ، ميّت القلب والعمل ، أنت أبصر به من نفسه ، ترى أبداناً ولا قلوباً ، وتسمع الصوت ولا أنيس ، أخصب ألسنةً وأجدب قلوباً ، يأكل أحدهم من غير ماله ، ويبكى على عماله ، فإذا كظته البطنة[1] ، قال : يا جارية أو يا غلام ، ايتنى بهاضم ، وهل هضمت يا مسكين إلا دينك ؟ وقال : من رق ثوبه رق دينه ، ومن سمن جسده هزل دينه ، ومن طاب طعامه أنتن كسبه . وقال فيما رواه عنه الآجرى : رأس مال المؤمن دين حيث ما زال زال معه ، لا يخلفه فى الرحال ، ولا يأتمن عليه الرجال وقال فى قوله تعالى : (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)[2] ، قال : لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمة كذا ، ما أردت بأكلة كذا ، ما أردت بمجلس كذا . وأما الفاجر فيمضى قُدُماً قُدُماً لا يلوم نفسه . وقال : تصبروا وتشددوا ، فإنما هى ليال تعدّ ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم ، فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم ،

(١) البطنة : امتلاء البطن بالطعام حتى لا يطيق النفس . (٢) من الآية : ٢ من سورة القيامة .

إن هذا الحقّ أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما يصبر على هذا الحق من عَرف فضله وعاقبته . وقال : لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

وقال ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس : حدثنا عبد الله ، حدثنا إسماعيل بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن يحيى بن المختار ، عن الحسن قال : المؤمن قَوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه فيقول : والله إنك لمن حاجتى وإنى لأشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبداً إن شاء الله ، إن المؤمنين قوم قد أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه ، وفى جوارحه كلها . وقال : لرضا صعب شديد ، وإنما معول المؤمن الصبر . وقال : ابن آدم عن نفسك فكايس[1] ، فإنك إن دخلت النار لم تجبر بعدها أبداً .

وقال ابن أبى الدنيا : أنبأ إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت حماد بن زيد يذكر عن الحسن قال : المؤمن فى الدنيا كالغريب ، لا ينافس فى غيرها ، ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله حال ، الناس منه فى راحة ، ونفسه منه فى شغل . وقال : لولا البلاء ما كان فى أيام قلائل ما يهلك المرء نفسه . وقال : أدركت صدر هذه الأمة وخيارها ، وطال عمرى فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحل الله لهم - أزهد منكم فيما حرم الله عليكم ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم ، ما طوى أحدهم ثوباً ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر أهله بصنع طعام . كان أحدهم يدخل منزله ، فإن قُرِّب إليه شيء أكل وإلا سكت ، فلا يتكلم فى ذلك . وقال : إن المنافق إذا صلى صلّى رياء ، أو حياء من الناس ، أو خوفاً وإذا صلى صلّى فقرأم الدنيا ، وإن فاتته الصلاة لم يندم عليها ، ولم يحزنه فواتها .

وقال الحسن فيما رواه عنه صاحب كتاب النكت : من جعل الحمد لله على النعم حصناً وحارساً ، وجعل أداء الزكاة على المال سياجاً وحارساً ، وجعل العلم له دليلا وسائساً - أمن العطب ، وبلغ أعلى الرتب . ومن كان المال قانصاً ، وله عن الحقوق حابساً ، وشغله وألهاه عن

---

(١) أى غالب بالكيس - وهو العقل وعلم الحق .

طاعة الله ـ كان لنفسه ظالماً ، ولغلبة بما جنت يداه كاليا[1] ، وساط الله على ماله سالباً وخالساً ، ولم يأمن العطب فى سائر وجوه الطلب وقيل : إن هذا لغيره ، والله أعلم .

وقال الحسن : أربع من كنّ فيه ألقى الله عليه محبته ، ونشر عليه رحمته : من رق لوالديه ، ورق لمملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضعيف وسئل الحسن عن النفاق ، فقال : هو اختلاف السر والعلانية ، والمَدخل والمخرج وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمِنه إلا منافق ـ يعنى النفاق . وحلف الحسن : ما مضى مؤمن ولا بقى إلا وهو يخاف النفاق وفى رواية : إلا وهو من النفاق مشفِق ، ولا مضى منافق ولا بقى إلا وهو من النفاق آمن .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : كيف حبّك الدينار والدرهم ؟ قال : لا أحبهما ، فكتب إليه : تولّ فإنك تعدل . وقال إبراهيم بن عيسى : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته حديثَ عهد بمصيبة . وقال مسمع : لو رأيت الحسن لقلت : قد بثّ عليه حزن الخلائق . وقال يزيد بن حَوشب : ما رأيت أحزن من الحسن ، وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما . وقال ابن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح . وقال: ماسمع الخلائق بعورة بادية ، وعين باكية ـ مثل يوم القيامة . وقال: ابن آدم ! إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ؛ فإنك إذا رأيته غداً فى ميزانك[2] سرك مكانه . وقال : ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم قلائد فى أعناقكم . وقال : ابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً . ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وهذا مأثور عن لقمان أنه قاله لولده .

قال الحسن : تجد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض وقال : هلموا فانظروا إلىّ . قال الحسن : قد رأيناك يا أفسق الفاسقين ، فلا أهلا بك ولا سهلا ؛ وأما أهل الدنيا فقد اكتسبوا بنظرهم إليك مزيدَ حرص على دنياهم ، وجُرأة على شهوات الغِى فى بطونهم وظهورهم . وأما أهل الآخرة فقد كرهوك ومقتوك . وقال : إنهم وإن هَملجت[3] بهم البراذين ، وزفرت[4] بهم البغال ، ووطئت أعقابهم الرجال ، إنّ ذل المعاصى لا يفارق رقابهم ، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال فرقد : دخلنا على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد ! ألا يعجبك من محمد بن الأهتم ؟ فقال : ماله ؟ فقلنا : دخلنا عليه آنفاً وهو يجود بنفسه ، فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق ـ وأومأ إلى صندوق فى جانب بيته ـ فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار ـ أو قال : درهم ـ

---

(١) أى : جارحاً ومؤذياً ، والكلم : الجرح . (٢) كذا بالأصل ، وفيه نقص يظهر بالتأمل .
(٣) أى انقادت . (٤) أى تنفست ، والزفير : أول الصوت والشهيق آخره .

لم أؤد منها زكاة ، ولم أصل منها رحما ، ولم يأكل منها محتاج . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟ قال : لروعة الزمان ، ومكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان . فقال : انظروا من أين أتاه شيطانه فخوّفه روعة زمانه ، ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه ! ؟ ثم قال : أيها الوارث ! لا تخدعن كما خُدع صويحبك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جَموعا مَنوعا ؛ من باطل جمعه ، من حق منعه ثم قال الحسن : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره ، فيرزقه الله فيه الصلاح والإنفاق في وجوه البر ، فيجد ماله في ميزان غيره . وكان الحسن يتمثل بهذا البيت في أول النهار يقول :

وما الدنيا بباقيـــــة لحيّ . ولا حيٌّ على الدنيا بباق

وبهذا البيت في آخر النهار :

يسر الفتى ما كان قدّم من تُقى   إذا عرف الداء الذى هو قاتله

ولد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب ، وأتى به إليه ، فدعا له وحنّكه . ومات بالبصرة في سنة عشر ومائة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد بن سيرين : أبو بكر بن عمرو الأنصارى ، مولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبوه من سَبْى عَين التمر[1] ، أسره في جملة السبي ـ خالد بن الوليد ، فاشتراه أنس ، ثم كاتبه . وقد ولد له من الأخيار جماعة ؛ محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ، ويحيى ، وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ، ثقات أجلاء ، رحمهم الله تعالى .

قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر . وقد تقدم هذا كله فيما ذكره المؤلف .

كان ابن سيرين إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم . وقال خلف بن هشام : كان محمد بن سيرين قد أعطى هدياً وسمتاً وخشوعاً ، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله . ولما مات أنس بن مالك أوصى أن يغسله محمد بن سيرين ـ وكان محمد محبوساً ـ فقالوا له في ذلك ، فقال : أنا محبوس ! فقالوا : قد استأذنا الأمير في إخراجك ، قال : إن الأمير لم يحبسنى ، إنما حبسنى من له الحق ، فأذن له صاحب الحق فغسّله . وقال يونس : ما عرض لمحمد بن سيرين

---

(١) وقيل : من سبي ميسان ـ وهى بليدة بأسفل أرض البصرة .

أمران إلا أخذ بأوثقهما فى دينه ، وقال : إنى لأعلم الذنب الذى حملت بسببه ، إنى قلت يوماً لرجل : يا مُفلس ! فذكر هذا لأبى سليمان الدارانى ، فقال : قلّت ذنوبهم فعرفوا من أين أُتوا ، ومثلنا قد كثرت ذنوبنا ، فلم ندر من أين نُؤتى ، ولا بأى ذنب نؤخذ وكان إذا دعى إلى وليمة يدخل منزله فيقول : ايتونى بشربة سويق ، فيشربها ويقول : إنى أكره أن أحمل جوعى إلى موائدهم وطعامهم . وكان يدخل السوق نصف النهار فيكبر الله ويسبحه ويذكره ويقول : إنها ساعة غفلة الناس . وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه . وقال : ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه ، وتكتم خيره .

وقال : العُزلة عبادة ، وكان إذا ذكر الموت مات منه كل عضو على حدته . وفى رواية : كان يتغير لونه ، ويتنكر حاله ، حتى كأنه ليس بالذى كان . وكان إذا سئل عن الرؤيا قال للسائل : اتق الله فى اليقظة ، ولا يضرك ما رأيت فى المنام . وقال له رجل : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون ، فقال : فتش على امرأتك فإنها أمك ، ففتش فإذا هى أمه . وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيراً سبياً ، ثم مكث فى بلاد الإسلام إلى أن كبر ، ثم سبيت أمه ، فاشتراها جاهلا أنها أمه ، فلما رأى هذه الرؤيا وذكرها لابن سيرين ، فأمره أن يفتش على ذلك ، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره .

وقال له آخر : رأيت كأنى دست — أو قال : وطئت — تمرة ، فخرجت منها فأرة ، فقال له : تتزوج امرأة — أو قال : تطأ امرأة — صالحة ، تلد بنتاً فاسقة ، فكان كما قال .

وقال له آخر : رأيت كأن على سطح بيتى حبات شعير ، فجاء ديك فلقطها ، فقال له : إن سرق لك شىء فى هذه الأيام فأتنى ، فوضعوا بساطاً على سطحهم فسرق ، فجاء إليه فأخبره ، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك تخذه منه ، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه .

وقال له رجل : رأيت الحمام تلقط الياسمين ، فقال : مات علماء البصرة . وأتاه رجل فقال : رأيت رجلا عرياناً واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به ، فقال له ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤيا فى زماننا هذا إلا للحسن البصرى ، فقال : الحسن هو والله الذى رأيت ، فقال : نعم ؛ لأن المزبلة الدنيا ، وقد جعلها تحت رجليه ، وعُريه تجرده عنها ، والطنبور يضرب به هى المواعظ التى يقرع بها آذان الناس . وقال له آخر : رأيت كأنى أستاك والدم يسيل ، فقال له : أنت رجل تقع فى أعراض الناس وتأكل لحومهم وتخرج فى بابه وتأتيه[1] .

---

(١) كذا بالأصل ، وفيه تحريف لم نقف على الصواب فيه .

وقال له آخر : رأيت كأنى أرى اللؤلؤ فى الحمأة، فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعلم عند غير أهله ومن لا ينتفع به وجاءته امرأة فقالت : رأيت كأن سنوراً أدخل رأسه فى بطن زوجى فأخذ منه قطعة، فقال لها ابن سيرين : سرق لزوجك ثلاثمائة درهم ، وستة عشر درهما، فقالت : صدقت من أين أخذته ؟ فقال : من هجاء حروفه وهى الحساب الجمل ، فالسين ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة ، والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر ، وذكرت السنور أسود فقال : هو عبد فى جواركم ، فألزموا عبداً أسود كان فى جوارهم وضرب فأقر بالمال المذكور وقال له رجل : رأيت لحيتى قد طالت وأنا أنظر إليها . فقال له : أمؤذن أنت ؟ قال : نعم ! قال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران .

وقال له آخر : رأيت كأن لحيتى قد طالت حتى جززتها ونسجتها كساء وبعته فى السوق . فقال له : اتق الله فإنك شاهد زور . وقال له آخر : رأيت كأنى آكل أصابعى ، فقال له : تأكل من عمل يدك . وقال لرجل : انظر هل ترى فى المسجد أحداً من الأمراء ؟ فذهب فنظر ثم رجع إليه فقال : ليس فى المسجد أحد، فقال : أليس أمرتك أن تنظر هل ترى أحداً قد يكون فى المسجد من الأمراء؟ وقال عن رجل ذكر له : ذلك الأسود ، ثم قال : أستغفر الله ما أرانى إلا قد اغتبت الرجل — وكان الرجل أسود — وقال : اشترك سبعة فى قتل امرأة فقتلهم عمر ، فقال : لو أن أهل صنعاء اشتركوا فى قتلها لأبدت خضراءهم .

وهب بن منبه اليمانى : تابعى جليل ، وله معرفة بكتب الأوائل ، وهو يشبه كعب الأخبار ، وله صلاح وعبادة ، ويروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ ، وقد بسطنا ترجمته فى كتابنا « التكميل » ولله الحمد قال الواقدى : توفى بصنعاء سنة عشر ومائة ، وقال غيره : بعدها بسنة ، وقيل بأكثر ، والله أعلم وزعم بعض الناس أن قبره غربى بصرى بقرية يقال لها : « غصم » ، ولم أجد لذلك أصلا ، والله أعلم انتهى ما ذكره المؤلف .

« فصل »

أدرك وهب بن منبه عدة من الصحابة ، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير . وروى عن معاذ بن جبل وأبى هريرة ، وعن طاوس . وعنه من التابعين عدة . وقال وهب : مثل من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به . وعن منير مولى الفضل ابن أبى عياش قال : كنت جالساً مع وهب بن منبه فأتاه رجل فقال له : إنى مررت بفلان وهو يشتمك ، فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولا غيرك ؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم علىَّ وهب ، فرد عليه السلام ، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه .

(١) الحمأة : الطين الأسود المنتن .

وقال ابن طاوس : سمعت وهبا يقول : ابن آدم احتل لدينك فإن رزقك سيأتيك . وقال وهب : كُسى أهل النار والعرى كان خيراً لهم ، وطعموا والجوع كان خيراً لهم ، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم . وقال : قال داود عليه السلام : اللهم أيما فقير سأل غنياً فتصامّ عنه ، فأسألك إذا دعاك فلا تجبه ، وإذا سألك فلا تعطه . وقال : قرأت فى بعض كتب الله : ابن آدم ، لا خير لك فى أن تعلَم ما لم تعلم ، ولم تعمل بما قد علمت ، فإن مثلك كمثل رجل احتطب حطبا لحزم حزمة فذهب يحملها فعجزعنها ، فضم إليها أخرى . وقال : إن لله ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمارة فى الخراب إلا كفسطاط فى الصحراء .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد فى نصحك وعملك لله ، فإن العمل لا يقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل طاعة الله ، النصح ريحها ، والعمل طعمها . ثم زين طاعتك بالحلم والعقل ، والفقه والعمل ، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبّدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعوّدها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وألزمها سيرة الأتقياء ، واعزبها عن سبل الخبثاء وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ، فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر فى نقائص من دونه فيقويها ويرجيها حتى يبلغه ؛ إن كان فقيهاً حمل من لا فقه له ، إذا رأى أنه يريد صحابته ومعونته ، وإذا كان له مال أعطى من منه لا مال له ، وإذا كان مصلحاً استغفر المذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسناً أحسن إلى من أساء إليه ، واستوجب بذلك أجره ولا يغتر بالقول حتى يحسن منه الفعل ؛ فإذا أحسن الفعل نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغاً حمد الله على ما بلغ منها ، ثم طلب ما لم يبلغ منها . وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس ، واستغفر الله الذى هو قادر على أن يغفرها . وإذا علم من الحكمة شيئاً لم يشبعه ، بل يطلب ما لم يبلغ منها .

ثم لا يستعين بشىء من الكذب ؛ فإن الكذب كالأكلة[1] فى الجسد تكاد تأكله ، أو كالأكلة فى الخشب ، يرى ظاهرها حسناً وجوفها نخر ، تغر من يراها حتى تتكسر على ما فيها وتهلك من اغتر بها . وكذلك الكذب فى الحديث لا يزال صاحبه يغتر به ؛ يظن أنه معينه على حاجته ورائده فى رغبته ، حتى يعرف ذلك منه ، ويتبين لذوى العقول غروره ، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفى به عنه ، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ـ وكذبوا خبره ، وأباروا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأبغضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسرائرهم ،

(١) الأكلة ـ كفرحة ـ داء فى العضو يأتكل منه .

وكتموه حديثهم ، وصرفوا عنه أماناتهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم ومعيشتهم ، ولم يحضروه شيئاً من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرهم ولم يحكموه فيما شجر بينهم .

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال لقمان لابنه : إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة . وقال : قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه عز وجل ، ومن أسف على ما فاته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضعضع لغنى ذهب ثلث دينه . وقال وهب : قرأت في التوراة : أيما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها إلى الخراب ، وأيما مال جمع من غير حله أسرع الفقر إلى أهله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا معمر عن محمد بن عمر وقال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب : يقول الله تعالى : إذا أطاعني عبدي استجبت له من قبل أن يدعوني وأعطيته من قبل أن يسألني ، وإن عبدي إذا أطاعني لو أن أهل السموات وأهل الأرض أجلبوا[1] عليه جعلت له المخرج من ذلك ، وإن عبدي إذا عصاني قطعت يديه من أبواب السماء ، وجعلته في الهواء فلا يمتنع من شيء أراده من خلق .

وقال ابن المبارك أيضاً : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتخفون نفس الذئاب ، وتنقون القذاء من شرابكم ، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، ثم لا تعينونهم برفع الخناصر ، تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب ، تنتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة ؛ فبعزتي ـ حلفت ـ لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم .

وقال الطبراني : حدثنا عبدالله بن محمد الصنعاني ، حدثنا همام بن مسلمة ، حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله ليس يحمد أحداً على طاعة ، ولا ينال أحد من الله خيراً إلا برحمته ، وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرهم ، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم ، إن مكروا به أباد مكرهم ، وإن خادعوه ردّ عليهم خداعهم ، وإن كاذبوه كذب بهم ، وإن أدبر واقطع دابرهم ؛ وإن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئاً من حيلة ، ولا مكر ، ولا خداع ، ولا سخط ولا مشادة ، وإنما يأتي بالخير من الله تعالى رحمته ، ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد باباً غير ذلك يدخل منه ؛ فإن الله تعالى لا ينال الخير منه

(١) أي اجتمعوا وتألبوا عليه : والجلب ـ محركة ـ ماجلب من خيل أو غيرها .

إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شيء إلا تعبدهم له ، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ، فإذا رحمهم استخرجت رحمته منه حاجتهم ، وليس ينال الخير من الله من وجه غير ذلك .

وليس إلى رحمة الله سبيل تؤتى من قبله إلا تعبُّد العباد له وتضرعهم إليه ، فإن رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له ، فمن ترك المفتاح لم يفتح له ، ومن جاء بالمفتاح فتح له به ، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح ؟ ولله خزائن الخير كله ، وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله ، فمن حفظ ذلك المفتاح فتحت له الخزائن ودخل ، فله فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها ما تشاءون وما تدعون في مقام أمين ، لا يحولون عنه ولا يخافون ، ولا ينصبون ، ولا يهرمون ، ولا يفتقرون ، ولا يموتون ، في نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم ، نزلا من غفور رحيم .

وقال سفيان بن عيينة : قال وهب : أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا ، وأسرعها رداً اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم ، ومن انتهاك المحارم يغضب الرب ، وغضب الله ليس له دواء . وقال : يقول الله تعالى في بعض كتبه يعقب به بني إسرائيل : إني إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، وإن اللعنة مني تبلغ السابع من الولد .

وقال : كان في بني إسرائيل رجل عصى الله عز وجل مائتي سنة ، ثم مات فأخذوا برجله فألقوه على مزبلة ، فأوحى الله إلى موسى : أن صلِّ عليه ، فقال : يا رب ! إن بني إسرائيل شهدوا أنه قد عصاك مائتي سنة ، قال الله له : نعم هكذا كان ؛ إلا أنه كان كلما نشر التوراة ورأى اسم محمد ﷺ قبَّله ووضعه على عينيه وصلى عليه ، فشكرت ذلك له فغفرت له ذنوبه وزوجته سبعين حوراء . كذا روى ، وفيه علل ، ولا يصح مثله ، وفي إسناده غرابة ، وفي متنه نكارة شديدة .

وروى ابن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال موسى : يا رب احبس عني كلام الناس ، فقال الله له : يا موسى ما فعلت هذا بنفسي . وقال : لما دعي يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، حسبي ربي من خلقه ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، ثم دخل على الملك ، فلما نظر إليه الملك نزل من سريره وخر له ساجداً ، ثم أقعده الملك معه على السرير ، وقال : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)[(١)] فقال : (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[(٢)] حفيظ بهذه السنين وما استودعتني فيها ، عليم بلغة من يأتيني .

---

(١) من الآية : ٥٤ من سورة يوسف . (٢) من الآية : ٥٥ من سورة يوسف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا منذر بن النعمان الأفطس ، أنه سمع وهبا يقول : لما أمر الله الحوت أن لا يضره ولا يكلمه - يعنى يونس - قال : (فلولا أنه كان من المسبحون للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون)[1] قال : من العابدين قبل ذلك ، فذكره الله بعبادته المتقدمة ، فلما خرج من البحر نام فأنبت الله شجرة من يقطين - وهو الدباء - فلما رآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ فإذا هى قد يبست ، فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : أنت لم تخلق ولم تسق ولم تنبت وتحزن عليها ؟ وأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق ذلك عليك ؟

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد الصنعانى، حدثنا رباح ، حدثنى عبد الملك بن عبد المجيد بن خشك عن وهب قال : لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : يارب كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق[2] والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يارب ، قال : فإنى أؤلف بينهم حتى لا يتضررون .

وقال وهب لعطاء الخراسانى : ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟ ويحك يا عطاء ! أتأتى من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ، وتترك باب من يقول : (ادعونى أستجب لكم)[3]؟ ويحك يا عطاء ! إن كان يغنيك ما يكفيك فأدنى ما فى الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس فى الدنيا شىء يكفيك ، ويحك يا عطاء)! إنما بطنك بحر من البحور ، وواد من الأودية ، لا يملؤه شىء إلا التراب . وسئل وهب عن رجلين يصليان . أحدهما أطول قنوتا وصمتا ، والآخر أطول سجودا ، فأيهما أفضل ؟ فقال : أنصحهما لله عز وجل . وقال : من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره الذم : أى يحب أن يحمد على ما لم يفعل ، ويكره أن يذم بما فيه . قال : وقال لقمان لابنه : يا بنى! اعقل عن الله؛ فإن أعقل الناس من عقل عن الله ، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده . وقال لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طبا لا يتعايا فيه[4] . الأطباء ، وفقها لا يتعايا فيه الفقهاء ، وحلما لا يتعايا فيه الحلماء ، قال : بلى يا أبا عبد الله ، قال : أما الطب فلا تأكل طعاما إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره وأما الفقه فإن سئلت عن شىء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل : لا أدرى . وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تسأل عن شىء . وقال : إذا كان فى الصبى خلقان ، الحياء والرهبة - طمع فى رشده .

---

(١) من الآية ١٤٣ - سورة الصافات (٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز

(٣) من الآية : ٦٠ - سورة غافر (٤) عيى وتعايا بالأمر : عجز عنه ولم يهتد لوجه الصواب فيه .

وقال : لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له مَلَك هناك : صف لى الناس ، فقال : محادثتك من لا يعقل كمن يغني الموتى ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبل الصخر الأصم كي يلين ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ، ونقل الحجارة من رءوس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل . وقال : قرأت فى بعض الكتب ، أن مناديا ينادى من السماء الرابعة كل صباح : أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين ماذا قدمتم ؟ أبناء الستين لا عذر لكم ، ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم . وقال : قال دانيال : يالهفى على زمن يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد ، إلا كالسُّنبلة فى أثر الحاصد ، أو كالخصلة فى أثر القاطف ، يوشك نوائح أولئك وبواكيهم أن تبكيهم .

وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهبا يقول فى قوله تعالى : (ونضعُ الموازينَ القسطَ ليوم القيامة)[1] قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ختم له بخير عمله ، وإذا أراد الله بعبد شراً ختم له بشر عمله ، وقال وهب : إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال : أنا الله لا إله إلا أنا الذى خلقتكم وأفنيكم بحكمى حق قضائى ونافذ أمرى ، أنا أعيدكم كما خلقتكم ، وأفنيكم حتى أبقى وحدى ، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لى ، أدعو خلقى وأجمعهم بقضائى ، يوم أحشر أعدائى ، وتجل القلوب من هيبتى ، وتتبرأ الآلهة ممن عبدها دونى .

قال : وذكر وهب ، أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة ، أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله ، وذكر عظمته وجبروته وكبرياءه ، وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته . فأنصت كل شئ وأطرق له ، فقال : أنا الملك لا إله إلا أنا ، ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى ، أنا الله لا إله إلا أنا ، ذو العرش المجيد والأمثال العلا ، أنا الله لا إله إلا أنا ؛ ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء ، أنا الله لا إله إلا أنا ، بديع السموات والأرض ، ملأت كل شئ عظمتى وقهر كل شئ ملكى ، وأحاطت بكل شئ قدرتى ، وأحصى كل شئ علمى ، ووسعت كل شئ رحمتى ، وبلغ كل شئ لطفى ، فأنا الله يا معشر الخلائق فاعرفوا مكانى ، فليس شئ فى السموات والأرضين إلا أنا ، وخلقى كلهم لا يقوم ولا يدوم إلا بى ،

---

(١) من الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

ويتقلب فى قبضتى ، ويعيش برزقى ، وحياته وموته وبقاؤه وفناؤه بيدى ، فليس له محيص ولا ملجأ غيرى ، لو تخليت عنه طرفة عين لدمر كله ، وكنت أنا على حالى لا ينقصنى ذلك شيئا ، ولا ينقص ذلك ملكى شيئاً ، وأنا مستغن بالعز كله فى جبروتى وملكى ، وبرهان نورى ، وشديد بطشى ، وعلو مكانى ، وعظمة شأنى ، فلا شىء مثلى ، ولا إله غيرى ، وليس ينبغى لشىء خلقته أن يعدل بى ولا ينكرنى .

وكيف ينكرنى من خلقته يوم خلقته على معرفتى ؟ أم كيف يكابرنى من قهر قهره ملكى ؟ أم كيف يعجزنى من ناصيته بيدى ؟ أم كيف يعدل بى من أمره وأسقم جسمه وأنقص عقله وأتو فى نفسه ، وأخلقه وأهرمه فلا يمتنع منى ؟ أم كيف يستنكف عن عبادتى عبدى وابن عبدى وابن أمتى ، ومن لا ينسب إلى خالق ولا وارث غيرى ؟ أم كيف يعبد دونى من تخلقه الأيام ، ويفنى أجله اختلاف الليل والنهار ؟ وهما شعبة يسيرة من سلطانى ؟ فالىّ إلىّ يا أهل الموت والفناء ، لا إلى غيرى ؛ فإنى كتبت الرحمة على نفسى ، وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرنى ، أغفر الذنوب جميعا ، صغيرها وكبيرها لمن استغفرنى ، ولا يكبر ذلك على ولا يتعاظمنى ، فلا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولا تقنطوا من رحمتى فإن رحمتى سبقت غضبى ، وخزائن الخير كلها بيدى ، ولم أخلق شيئاً مما خلقت لحاجة كانت منى إليه ، ولكن لأبين به قدرتى ، ولينظر الناظرون فى ملكى ، ويتدبروا حكمتى ، وليسبحوا بحمدى ويعبدونى لا يشركوا بى شيئا ، ولتعنو الوجوه كلها إلى .

وقال أشرس عن وهب قال : قال داود : إلهى أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من مخافتى . وقال : كان رجل من بنى إسرائيل صام سبعين أسبوعا يفطر فى كل أسبوع يوماً وهو يسأل الله أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس ؟ فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب ، قال فى نفسه : لو أقبلت على خطيئتى وعلى ذنوبى وما بينى وبين ربى ألكان خيراً من هذا الأمر الذى أطلب ، ثم أقبل على نفسه فقال : يانفس ! من قبلك اتيت ، لو علم الله فيك خيراً لقضى حاجتك . فأرسل الله ملكا إلى نبيهم : أن قل لفلان العابد : إزراؤك[1] على نفسك وكلامك الذى تكلمت به ، اعجب الى مما مضى من عبادتك ، وقد اجاب الله سؤالك ، وفتح بصرك . فانظر الان ، فنظر فإذا أحبولة لإبليس قد احاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من بنى آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : إى رب . ومن ينجو من هؤلاء ؟ قال : صاحب القلب الوادع اللين .

(١) زرى عليه : عابه وعاتبه ـ كأزرى .

وقال وهب : كان رجل من السائحين فأتى على أرض فيها قثاء ، فدعته نفسه إلى أخذ شيء منه، فعاقبها، فقام مكانه يصلى ثلاثة أيام ، فمرّ به رجل وقد لوّحته الشمس والريح ، فلما نظر إليه قال : سبحان الله ! ! لـكأنما أحرق هذا الإنسان بالنار ، فقال السائح : هكذا بلغ منى ما ترى خوف النار ـ فـكيف بى لو قد دخلتها ؟ !

وقال : كان رجل من الأولين أصاب ذنبا فقال : لله علىّ أن لا يظلنى سقف بيت أبداً حتى تأتينى براءة من النار ، فـكان بالصحراء فى الحر والقر ، فمر به رجل فرأى شدة حاله فقال : يا عبد الله ! مابلغ بك ما أرى ؟ فقال : بلغ ما ترى ذكر جهنم ، فـكيف بى إذا أنا وقعت فيها!؟. وقال : لا يكون البطال من الحـكماء أبداً ، ولا يرث الزناة من ملـكوت السماء . وقال وهب فى فى موعظته : اليوم يعظ السعيد ، ويستـكثر من منافعه اللبيب ، يا ابن آدم ! إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإنما أوقدت فيه مصابيح الهدى لتقبه لحزبك ، فلم أر كاليوم ضل مع نوره متحير داع لمداواة سليم . يا ابن آدم ! إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أقدر ممن طلبته فى يده ، ولا أضعف ممن هو فى يد طالبه . يا ابن آدم ! إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة فى بقاء ما سيذهب ؟

يا ابن آدم ! اقصر عن طلب ما لا تدرك ، وعن تناول ما لا تناله ، وعن ابتغاء ما لا يوجد ، واقطع الرجاء عنك كما قعدت به عنك الأشياء واعلم أنه ربّ مطلوب هو شر لطالبه . يا ابن آدم! إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها ، يا ابن آدم ! أى أيام الدهر ترتجى ؟ يوم يجىء فى عتم ، أو يوم تستأخر عاقبته عن أوان مجيئه ؟ فانظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام : يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بد منه ، ويوم يجىء لا تأمنه ، فأمس شاهد عليك مقبول ، وأمين مؤد ، وحكيم مؤدب ، قد فجعك بنفسه ، وخلف فيك حكمته . واليوم صديق مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظعن إياك ولم يأته ، وقد مضى قبله شاهد عدل ، فإن كان ما فيه لك فاشفعه بمثله، أوثق لك باجتماع شهادتهما عليك . يا ابن آدم ! إنما أهل الدنيا سفر لا يحلون عقد رحالهم إلا فى غيرها ، وإنما يتبلغون بالعوارى فما أحسنه ـ يعنى الشكر ـ المنعم والتسليم المعاد ، يا ابن آدم ! إنما الشيء من مثله وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله ؟ ! إنما يقل الفرع بعد الأصل . يا ابن آدم ! إنه لا أعظم رذية فى عقله ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل .

أيها الناس! إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، وسنبلى ثم نعود ، ألا وإنما العوارى[1]

---

(١) العوارى : جمع عارية بتشديد الياء وتخفيفها . وهى مايتداوله الناس بينهم . والهنات : الداهية.

اليوم والممات غداً ، ألا وإنه قد تقارب منا سلب فاحش ، أو عطاء جزيل ، فأصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه . أيها الناس !! إنما أنتم في هذه الدنيا عرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنيا كم نهب المصائب ، لا تنالون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتجدد له زيادة في ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحيى له أثر إلا مات له أثر . نسأل الله أن يبارك لنا ولكم فيما مضى من هذه العظة .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام ، حدثنا جعفر بن مروان ، عن وهب بن منبه ، عن الطريق ولم تستقم لسائقها ، وإن فتر سائقها حزنت ، ولم تتبع قائدها : فإذا اجتمعا استقامت طوعاً أو كرهاً ، ولا تستطيع الدين إلا بالطوع والكره ، وإن كان كلما كره الإنسان شيئاً من دينه تركه ، أو شك أن لا يبقى معه من دينه شيء . وقال وهب : إن من حكمة الله عز وجل أنه خلق الخلق مختلفاً خلقه ومقاديره ؛ فمنه خلق يدوم ما دامت الدنيا ، لا تنقصه الأيام ولا تهرمه وتبليه ويموت ، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق ، ومنه خلق يطعم ويرزق ؛ خلقه الله وخلق معه رزقه ، ثم خلق الله من ذلك خلقاً في البر وخلقاً في البحر ، ثم جعل رزق ما خلق في البحر وفي البر ، ولا ينفع رزق دواب البر دواب البحر ، ولا رزق دواب البحر دواب البر ، لو خرج ما في البحر إلى البر هلك ، ولو دخل ما في البر إلى البحر هلك . ففي ذلك — مما خلق الله في البر والبحر — عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق ؛ فإنه لا يكون فيها شيء إلا كما قسمه سبحانه بين خلقه ، لا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها ، كما لا تستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر ، ولا دواب البحر بأرزاق دواب البر ، ولو اضطرت إليه هلكت كلها ، فإذا استقرت كل دابة منها فيما رزقت — أصلحها ذلك وأحياها . وكذلك ابن آدم ؛ إذا استقر وقنع بما قسم الله له من رزقه — أحياه ذلك وأصلحه ، فإذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضره وفضحه .

وقال عطاء الخراساني : كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى ما في أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم ؛ لما رأوا من سوء موضعه عندهم ، فإياك يا عطاء وأبواب السلطان ؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله

وقال إبراهيم الجنيد : حدثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عمر ابن عبد الرحمن الصنعاني قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم . فقال : كيف صلاتك ؟ فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يصلي فيها . قال :

فكيف ذكرك للموت ؟ قال: ما أرفع قدما ولا أضع أخرى إلا رأيت أنى ميت فقال : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ فقال : إنى لأصلى وأبكى حتى ينبت العشب من دموعى ، فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك ـ خير لك من أن تبكى وأنت مدل بعملك . فإن المدل لا يرفع له عمل . فقال : أوصنى فإنى أراك حكيما ، فقال : أزهد فى الدنيا ولا تنازع أهلها فيها ، وكن فيها كالنحلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود لم تكسره ، وانصح لله نصح الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ، وينصح لهم . فكان وهب إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك يا ابن آدم لله عز وجل . وفى رواية أنه قال : إنى لأصلى حتى ترم قدماى ، فقال له : إنك إن تبت تائبا ، وتصبح نادما ـ خير لك من أن تبيت قائما وتصبح معجبا ، إلى آخره . وروى سفيان عن رجل من أهل صنعاء عن وهب ، فذكر الحديث كما تقدم .

وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى ، حدثنا الصلت بن عاصم المرادى عن أبيه عن وهب قال : لما أهبط آدم من الجنة استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط عليه جبريل فقال : يا آدم! ألا أعلمك شيئا تنتفع به فى الدنيا والآخرة؟ قال : بلى قال: قل : اللهم تمم لى النعمة حتى تهنئنى المعيشة ، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى ، اللهم اكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة فى عافية .

وقال عبد الرزاق : حدثنى بكار بن عبد الله عن وهب قال : قرأت فى بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول : يا ابن آدم ! ما أنصفتنى ، تذكر بى وتنسانى ، وتدعو إلى وتفر منى ، خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم قد نزل إليك من أجلك ، يا ابن آدم ! إن أحب ما تكون إلى وأقرب ما تكون منى ـ إذا رضيت بما قسمت لك ، وأبغض ما تكون إلى ، وأبعد ما تكون منى إذا سخطت بما قسمت لك . يا ابن آدم ! أطعنى فيما أمرتك ، ولا تعلمنى بما يصلحك ، إنى عالم بخلقى ، وأنا أعلم بحاجتك التى ترفعك من نفسك . إنى إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى ، لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر العبد فى حقى .

وقال وهب : قرأت نيفا وتسعين كتابا من كتب الله تعالى فوجدت فى جميعها : أن من وكل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وقال : لا يسكن ابن آدم ، إن الله هو الذى قسم الأرزاق متفاضلة ومختلفة ، فإن تقلل ابن آدم شيئا من رزقه فليزدد إلى الله رغبة ، ولا يقولن : لو اطلع الله

على هذا من حالى ، أو شعر به غيره ؟ فكيف لا يطلع على شيء الذى خالقه وقدره ؟ أو يعتبر ابن آدم فى غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس ؟ كأن الله فاضل بينهم فى الأجسام والأموال ، والألوان والعقول والأحلام ، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل عليه فى الرزق والمعيشة ، ولا يكبر عليه أن يفضل عليه فى الحلم والعلم ، والعقل والدين . أو لا يعلم ابن آدم أن الذى رزقه فى ثلاثة أزمان من عمره ، لم يكن له فى واحد منها كسب ولا حيلة – أنه سوف يرزقه فى الزمن الرابع .

أول زمان من أزمانه حين كان فى بطن أمه ، يخلق فيه ويرزق من غير مال كسبه ، وهو فى قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حر ولا برد ، ولا شيء ولا هم ولا حزن ، وليس له هناك يد تبطش ، ولا رجل تسعى ، ولا لسان ينطق . فساق الله عز وجل إليه رزقه هناك على أتم الوجوه وأهناها وأمراها . ثم إن الله عز وجل أراد أن يحوله من تلك المنزلة إلى غيرها . ويحدث له فى الزمن الثانى رزقا من أمه يكفيه ويغنيه ، من غير حول منه ولا قوة ، ولا بطش ولا سعى ، بل تفضلا من الله وجوداً ، ورزقا أجراه وساقه إليه .

ثم أراد الله سبحانه أن ينقله من الزمن الثانى إلى الزمن الثالث ، من ذلك اللبن إلى رزق يحدثه له من كسب أبويه ؛ بأن يجعل له الرحمة فى قلوبهما حتى يؤثراه على نفسهما بكسبهما ، ويغنياه ، ويغذياه بأطيب ما يقدران عليه من الأغذية ، وهو لا يعينهما على شيء من ذلك بكسب ولا حولة ، حتى إذا عقل حدثت نفسه بأنه إنما يرزق بحيلته ومكسبه وسعيه .

ثم يدخل عليه فى الزمن الرابع إساءة الظن بربه عز وجل ، فيضيع أوامر الله فى طلب المعاش وزيادة المال وكثرته ، وينظر إلى أبناء الجنس وما عليه من التنافس فى طلب الدنيا ، فيكسب بذلك ضعف اليقين والإيمان ، ويمتلىء قلبه فقراً وخوفا منه مع المتاع ، ويبتلى بموت القلب وعدم العقل .

ولو نظر ابن آدم نظر معرفة وعقل . لعلم أنه لن يغنيه فى الزمن الرابع إلا من أغناه ورزقه فى الأزمان الثلاثة قبل ، فلا مقال له ولا معذرة مما ساط عليه فى الزمان الرابع إلا برحمة الله ، فإن ابن آدم كثير الشك ، يقصر به حكمه وعلمه عن علم الله والتفكر فى أمره ، ولو تفكر حتى يفهم ، وتفهم حتى يعلم ، لعلم أن علامة الله التى بها يعرف ، خالقه الذى خلق ، ثم رزقه لما خلق ، وقدره لما قدر .

وقال عطاء الخراسانى : لقيت وهبا فى الطريق فقلت : حدثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز . فقال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : يا داود ! أما وعزتى وعظمتى لا ينتصر بى عبد من عبادى دون خلقى – أعلم ذلك من نيته – فتكيده السموات السبع

ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً . أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيته ـ إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالي في أي واد هلك .

وقال أبو بلال الأشعري ، عن أبي هشام الصنعاني قال : حدثني عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : كفاني للعبد مآلا ، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له من قبل أن يدعوني ، فإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه وقال : قرأت في بعض الكتب ، أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل ؛ لأنه إذا كان مؤمناً عاقلا ذا بصيرة ـ فهو أثقل على الشيطان من الجبال الصم ، إنه ليزاول[1] المؤمن العاقل فلا يستطيعه ، فيتحول عنه إلى الجاهل فيستأمره ويتمكن من قياده وقال : قام موسى عليه السلام فلما رآه بنو إسرائيل قاموا ، فقال : على مكانكم ، ثم ذهب إلى الطور فإذا هو بنهر أبيض فيه مثل رءوس الكثبان[2] ، كافور محفوف بالرياحين ، فلما رآه أعجبه فدخل عليه فاغتسل وغسل ثوبه . ثم خرج وجفف ثوبه ، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه ، فلبسه ثم أخذ نحو الكثيب الآخر الذي فوق الطور ، فإذا هو برجلين يحفران قبراً ، فقام عليهما فقال : ألا أعينكما ؟ قالا : بلى ، فنزل لحفر ، فقال لهما : لتحدثاني مثل من الرجل ؟ فقالا : على طولك وهيئتك ، فاضطجع فيه لينظروا فالتأمت عليه الأرض ، فلم ينظر إلى قبر موسى عليه السلام إلا الرخم[3] ، فأصمها الله وأبكمها وقال : يقول الله عز وجل : لولا أني كتبت النتن على الميت لحبسه الناس في بيوتهم ، ولولا أني كتبت الفساد على الطعام لخزنه الأغنياء على الفقراء .

وقال : مرّ عابد براهب فقال له : منذ كم أنت في هذه الصومعة ؟ قال : منذ ستين سنة ، قال : وكيف صبرت فيها ستين سنة ؟ قال : مرّ فإن الزمان يمر . وإن للدنيا تمر ، ثم قال له : يا راهب ! كيف ذكرك الموت ؟ قال : ما أحسب عبداً يعرف الله تأتي عليه ساعة إلا يذكر الموت فيها ، وما أرفع قدماً إلا وأنا أظن أن لا أضعها حتى أموت ، وما أضع قدما إلا وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت ، فجعل العابد يبكي ، فقال له الراهب : هذا بكاؤك إذا خلوت ؟ ـ أو قال : كيف أنت إذا خلوت ؟ ـ فقال العابد : إني لأبكي عند إفطاري فأشرب شرابي بدموعي ، ويصرعني

---

(١) أي يحاول أن يجره ليزلق في منطق أو نحوه . (٢) الكثبان . جمع كثيب وهو التل من الرمل.
(٣) الرخم : طائر معروف موصوف بالغدر .

النوم فأبل متاعى بدموعى فقال له الراهب : إنك إن تضحك وأنت معترف بذنبك ـ خير لك من أن تبكى وأنت مُدلّ على الله بعملك فقال : أوصنى بوصية ، قال : كن فى الدنيا بمنزلة النخلة، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن سقطت على شىء لم تضره ولا تكن فى الدنيا بمنزلة الحمار ، إنما همته أن يشبع ثم يرمى بنفسه فى التراب وانصح لله نصح الكلاب لأهله ؛ فإنهم يجيعونه ويطردونه ، وهو يأبى إلا أن يحرسهم ويحفظهم . قال أبو عبد الرحمن أشرس : وكان طاوس إذا ذكر هذا الحديث بكى ، وقال : عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها ـ منا لمولانا عز وجل . وقد تقدم نحو هذا المتن .

وقال وهب : تخلى راهب فى صومعته فى زمن المسيح : فأراد إبليس أن يكيده فلم يقدر عليه ، فأتاه بكل مراد فلم يقدر عليه ، فأتاه متشبهاً بالمسيح فناداه : أيها الراهب ! أشرف علىّ أكلمك فأنا المسيح ، فقال : إن كنت المسيح فمالى إليك من حاجة ، أليس قد أمرتنا بالعبادة ؟ ووعدتنا القيامة ؟ انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك . قال : فذهب عنه الشيطان خاسئاً وهو حسير ، فلم يعد إليه . ومن طريق أخرى عنه قال : أتى إبليس راهباً فى صومعته فاستفتح عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا المسيح ، فقال الراهب : والله لئن كنت إبليس لأخلون بك ، ولئن كنت المسيح فما عسى أن أصنع بك اليوم شيئاً ، لقد بلغتنا رسالة ربك عز وجل فقبلناها عنك ، وشرعت لنا الدين فنحن عليه ؛ فاذهب فلست بفاتح لك ، فقال : صدقت ، أنا إبليس ولا أريد إضلالك بعد اليوم أبداً ، فسلنى عما بدا لك أخبرك به قال : وأنت صادق ؟ قال : لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك فيه . قال : فأخبرنى أى أخلاق بنى آدم أوثق فى أنفسكم أن تضلوهم به ؟ قال ثلاثة أشياء : « الحدّة[1] ، والشح ، والسكر »

وقال وهب : قال موسى : يا رب أى عبادك[2] ، قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرنى إذا خلا ، قال : إلهى ! فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى ! أظله يوم القيامة بظل عرشى ، وأجعله فى كنفى .

وقال وهب : لقى عالم عالماً هو فوقه فى العلم ، فقال له : رحمك الله ! ما هذا البناء الذى لا إسراف فيه ؟ قال : ما سترك من الشمس ، وأكنك من الغيث ، قال : فما هذا الطعام الذى لا إسراف فيه ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع من غير تكلف ، قال : فما هذا اللباس الذى لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما ستر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوع ولا تلوّن ، قال :

(١) سيشرح المصنف هذه الأشياء قريبا ـ فى صفحة : ٣٢٦ .

(٢) كذا بالأصل ، وهنا نقص واضح يفهم من المقام.

فما هذا الضحك الذى لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما أسفر وجهك ولا يسمع صوتك ، قال : فما هذا البكاء الذى لا إسراف فيه ؟ قال : لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولا تبك على شىء من الدنيا . قال : كم أخفى من عملى ؟ قال : ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة ، قال : ما أعلن من عملى ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يأتم بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس . وقال : لكل شىء طرفان ووسط ، فإذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا ، فعليكم بالوسط من الأشياء . وقال : أربعة أحرف فى التوراة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر ، وكما تدين تدان ، ومن تجر فجر .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله : أنه سمع وهب بن منبه يقول : كان رجل من أفضل أهل زمانه ، وكان يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال : إنا قد خرجنا عن الدنيا ، وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفنا أن يكون قد دخل علينا فى حالنا هذه من الطغيان ـ أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال فى أموالهم ، وعلى الملوك فى ملكهم ، أرانا يحب أحدنا أن تقضى له الحاجة ، وإذا اشترى شيئاً أن يحابى لمكان دينه ، وأن يعظم إذا اتى الناس لمكان دينه ، وجعل يعدد آفات العلماء والعباد الذين يدخل عليهم فى دينهم من حب الشرف والتعظيم . قال : فشاع ذلك الكلام عنه حتى بلغ ملك تلك البلاد ، فعجب منه الملك ، وقال لرءوس دولته : ينبغى لهذا أن يزار ، ثم اتعدوا لزيارته يوماً ، فركب إليه الملك ليسلم عليه ، فأشرف العابد ـ وكان عالماً جيد العلم بآفات العلوم والأعمال ودسائس النفوس ـ فرأى الأرض التى تحت مكانه قد سدت بالخيل والفرسان ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : هذا الملك قاصد إليك يسلم عليك لما بلغه من حسن كلامك ، فقال : إنا لله ، وما أصنع به ؟ هلكنا والله ، إن لم نلق الحجة من عند الله مع هذا الرجل ، وينصرف عنا وهو ماقت لنا .

ثم سأل خادمه : هل عندك طعام ؟ قال : نعم ! قال : فأت به فضعه بين أيدينا ، قال : هو شىء من ثمر الشجر ، وهو شىء من بقل وزيتون ، قال : فأت به ، فأتى به . ثم أمر بجماعته ، فاجتمعوا حول ذلك الطعام ، فقال : إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد منكم إليه ، ولا يقم له أحد ، وأقبلوا على الأكل العنيف ، ولا يرفع أحد منكم رأسه ، لعل الله أن يصرفه عنا وهو كاره لنا ، فإنى أخاف الفتنة والشهرة وامتلاء القلب منهما ، فلا نخلص إلا بقار جهنم . قال : فبكى والقوم ، بكى ذلك الرجل العالم ، فلما اقترب الملك من جبلهم الذى هم فيه ، ترجل الملك ومن معه من أعيان دولته وصعد فى الجبل ، فلما وصل إلى قرب مكانهم أخذوا فى الأكل

المنيف ، فدخل عليهم الملك وهم يأكلون فلم يرفعوا رءوسهم إليه ، وجعل ذلك العالم الفاضل يلف البقل مع الزيتون مع الكسرة الكبيرة من الخبز ويدخلها فى فمه ، فسلم عليهم الملك وقال : أيكم العابد ؟ فأشاروا إليه ، فقال له الملك : كيف أنت أيها الرجل ؟ فقال له : كالناس ـ وهو يأكل ذلك الأكل المنيف ، فقال الملك : ليس عند هذا خير ، ثم أدبر الملك خارجا عنه ، وقال : ما عند هذا من علم . فلما نزل الملك من الجبل نظر إليه العابد من كوة وقال : أيها الملك ! الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى كاره ـ أو قال : الحمد لله الذى صرفك عنى بما صرفك به . وفى رواية ذكر ابن المبارك أنه قال : الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم .

وفى رواية أن هذا العابد كان مَلِكاً ، وكان قد زهد فى الدنيا وتركها ؛ لأنه كان قد دخل عليه رجل من بقايا أهل الجنة والعمل الصالح فوعظه ، فاتعد معه أن يصحبه ، وأن يخرج عن الملك طلباً لما عنده فى الدار الآخرة ، وأنه وافقه جماعة من بنيه وأهله ورءوس دولته ، فخرجوا برمّتهم لا يدرى أحد أين ذهبوا . وكان هذا الملك من أهل العدل والخير والخوف من الله عز وجلّ ، وكان متسع الملك والمملكة ، كثير الأموال والرجال ، فساروا حتى أتوا جبلا فى أطراف مملكته ، كثير الشجر والمياه ، فأقاموا به حيناً ، فقال الملك : إن نحن طال أمرنا ومقامنا فى هذا الجبل ـ سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدعونا ، وإنى أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فننزل مكاناً بعيداً عن الناس ، لعل أن نسلم منهم ويسلموا منا ، فساروا من ذلك الجبل طالبين بلاداً لا يعرفون ، فوجدوا بها جبلا نائياً عن الناس ، كثير الأشجار والمياه ، قليل الطوارق ، وإذا فى ذروته عين ماء جارية وأرض متسعة ، تزرع لمن أراد الزرع بها ، فنزلوا به وبنوا به أماكن للعبادة والسكنى ، وزرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدمون بها ، وأشجار زيتون ، وجعلوا يزرعون بأيديهم ويأكلون . ثم شاع أمرهم فى بعض تلك البلاد القريبة من جبلهم ، فجعلوا يأتونهم ويزورونهم ، إلى أن شاع ذلك الكلام المتقدم عن ذلك العالم ، فبلغ ملك تلك البلاد فقصدهم للزيارة ، فذكر القصة كما تقدم والله أعلم .

وقال وهب : أزهد الناس فى الدنيا ـ وإن كان عليها حريصاً ـ من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب ، مع حفظ الأمانات . وأرغب الناس فيها ـ وإن كان عنها مُعرضاً ـ مَنْ لم يبال مِنْ أين كسبه منها حلالاً أو حراماً . وإنّ أجود الناس فى الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، وإن رآه الناس بخيلا فيما سوى ذلك . وإن أبخل الناس فى الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل ، وإن رآه الناس جواداً فيما سوى ذلك .

وقال الطبرانى : حدثنا مُعاذ بن المثنى ، حدثنا على بن المدينى ، حدثنا محمد بن عمرو بن مقسم قال :

سمعت عطاء بن مسلم يقول : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام فى ألف مقام ، وكان إذا كلمه رؤى النور على وجه موسى ثلاثة أيام ، ولم يمس موسى امرأة منذ كلمه ربه عز وجل . وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله بن عامر بن زرارة ، حدثنا عبد الله بن الأجلح ، عن محمد بن إسحاق قال : حدثنى ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال : سمعت ابن منبه اليمانى يقول: إن للنبوة أثقالا ومؤنة لا يحملها إلا القوى ، وإن يونس بن متى كان عبداً صالحاً ، وكان فى خلقه ضيق ، فلما حملت عليه النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع[1] تحت الحمل ، فرفضها من يده وخرج هاربا ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : (فاصبر كما صَبَرَ أُولو الْعَزمِ مِنَ الرُّسُلِ)[2] وقال : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصاحِبِ الحوت إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُوم)[3] الآية ، وقال يونس بن بكير ، عن أبى اسحاق بن وهب بن منبه ، عن أبيه قال : أمر الله الريح أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء فى الأرض ، إلا ألقته فى أذن سليمان ، فلذلك سمع كلام النملة .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار ، عن وهب قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا ساح أربعين سنة أرى شيئاً ، كأن يرى علامة القبول ، قال : فساح رجل من ولد ربيعة أربعين سنة فلم ير شيئاً ، فقال: يا رب! إذا أحسنت وأساء والداى فما ذنبى ؟ قال : فأرى ما كان يرى غيره . وفى رواية أنه قال : يارب! إذا كان والداى قد أكلا أضرس أنا ؟ وفى رواية عنه أنه قال : يا رب! إذا كان والداى قد أساءا ، أحرم أنا إحسانك وبرك ؟ فأظلته غمامة .

وروى عبد الله بن المبارك ، عن رباح بن زيد ، عن عبد العزيز بن مروان . قال : سمعت وهب بن منبه يقول : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . وقال : إن أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك بالله السحر . وروى عبد الرزاق قال : أخبرنى أبى عن وهب قال : إذا صام الإنسان زاغ بصره ، فإذا أفطر على حلاوة عاد بصره . وقال ابن المبارك عن بكر بن عبد الله قال : سمعت وهبا يقول : مر رجل على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا . فقال : لا تعجب ممن مال كيف مال ، ولكن اعجب ممن استقام كيف استقام .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : حدثنى أبى ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا بكار بن

---

(١) الربع : المدد الكبير فى النمش وإشالة الحجر ورفعه لإظهار القوة .

(٢) من الآية : ٣٥ من سورة الأحقاف . (٣) من الآية : ٤٨ من سورة القلم .

عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن بنى إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدة ، فقال النبى ﷺ : وددنا أن نعلم ما الذى يرضى ربنا فنتبعه ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن قومك يقولون : إذا أرضوهم رضيت ، وإذا أسخطوهم أسخطت . وقال عبد الله بن أحمد أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا ابراهيم بن خالد . حدثنى عمر بن عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن عيسى عليه السلام كان واقفاً على قبر ومعه الحواريون ـ أو نفر من أصحابه ـ قال : وصاحب القبر يُدلى فيه ، قال : فذكروا من ظلمة القبر وضيقه ، فقال عيسى : قد كنتم فيما هو أضيق من ذلك ، فى أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع ، أو كما قال .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : كان رجل عابد من السياح أراده الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يستطع منه شيئاً من ذلك ، فتمثل له حية وهو يصلى ، فمضى ولم يلتفت إليه ، فالتوى على قدميه فلم يلتفت إليه ، فدخل ثيابه وأخرج رأسه من عند رأسه فلم يلتفت ولم يستأخر ، فلما أراد أن يسجد التوى فى موضع سجوده ، فلما وضع رأسه ليسجد فتح فاه ليلتقم رأسه ، فوضع رأسه فجعل يعركه حتى استمكن من السجود على الأرض . ثم جاءه على صورة رجل فقال له : أنا صاحبك الذى أخوفك أتيتك من قبل الشهوة والغضب والرغبة ، وأنا الذى كنت أتمثل لك بالسباع والحيات فلم أستطع منك شيئاً ، وقد بدا لى أن أصادقك ولا آتيك فى صلاتك بعد اليوم .

فقال له العابد : لا يوم خوفتنى خفتك ، ولا اليوم لى حاجة فى مصادقتك . قال : سلنى عما شئت أخبرك . قال : فما عسيت أن أسألك ؟ قال : ألا تسألنى عن مالك ما فعل به بعدك ؟ قال : لو أردت ذلك ما فارقته . قال : أفلا تسألنى عن أهلك من مات منهم ومن بقى ؟ قال : أنا مت قبلهم . قال : أفلا تسألنى عما أضل به الناس ؟ قال : أنت أضلهم . فأخبرنى عن أوثق ما فى نفسك تضل به بنى آدم . قال: ثلاثة أخلاق، «الشح، والحدة ، والسكر»[1]؛ فإن الرجل إذا كان شحيحاً قللنا ماله فى عينه ، ورغبناه فى أموال الناس ، وإذا كان حديداً تداولناه بيننا كما يتداول الصبيان الكرة ، ولو كان يحيى الموتى بدعوته لم نيأس منه ، وكل ما يبنيه نهدمه ، لنا كلمة واحدة . وإذا سكر قدناه إلى كل شر وفضيحة ، وخزى وهوان ، كما تقاد القط إذا أخذ بأذنها كيف شئنا .

وقال وهب : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ، ومسخ بختنصر فى السباع سبع سنين ، وسئل وهب عن الدنانير والدراهم فقال : هى خواتيم رب العالمين ، فالأرض لمعايش بنى آدم لا تؤكل ولا تشرب ، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك ،

(١) انظر صفحة ٣٢٢ .

وهي أزمة المنافقين بها يقادون إلى الشهوات . وروى داود بن عمر الضبي عن ابن المبارك عن معمر عن سماك بن الفضل عن وهب قال : مثل الذي يدعو بغير عمل مثل الذي يرمي بغير وتر .

وقال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن بن مهرب قال : سمعت وهباً يقول : قال حكيم من الحكماء : إني لأستحي من الله عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أعطى عمل وإن لم يعط لم يعمل ؛ وإني لأستحي من الله أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن رهب عمل ، وإن ترك لم يعمل . وإني ليستخرج مني حب الله مالا يستخرج مني غيره .

وقال السري بن يحيى : كتب وهب إلى مكحول : إنك قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس – محبة وشرفا ، فاطلب بما بطن من علم الإنسان عند الله – محبة وزلفى واعلم أن إحدى المحبتين تمنع الأخرى – أو قال : سوف تمنعك الأخرى وقال زافر بن سليمان عن أبي سنان الشيباني قال : بلغنا أن وهب بن منبه قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! اتخذ طاعة الله تجارة تريد بها ربح الدنيا والآخرة ، والإيمان سفينتك التي تحمل عليها ، والتوكل على الله شراعها ، والدنيا بحرك ، والأيام موجك ، والأعمال الصالحة تجارتك التي ترجو ربحها ، والنافلة هي هديتك التي ترجو بها كرامتك ، والحرص عليها يسيرها ويزجيها ، ورد النفس عن هواها مراسيها ، والموت ساحلها ، والله مليكها وإليه مصيرها . وأحب التجار إلى الله وأفضلهم وأقربهم منه – أكثرهم بضاعة وأصفاهم نية ، وأخلصهم هدية . وأبغضهم إليه أقلهم بضاعة ، وأردؤهم هدية ، وأخبثهم طوية ، فكلما حسنت تجارتك ازداد ربحك ، وكلما خلصت هديتك تكرم .

وفي رواية عنه أنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! اتخذ طاعة الله بضاعة تأتك الأرباح من كل مكان ، واجعل سفينتك تقوى الله ، وحشوها التوكل على الله ، وشراعها الإيمان بالله ، وبحرك العلم النافع والعمل الصالح ، لعلك أن تنجو ، وما أراك بناج . وقال عبد الله بن المبارك عن رباح ابن زيد ، عن رجل قال : إن للعلم طغيانا كطغيان المال .

وقال الطبراني : حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني ، حدثنا أبو قدامة همام بن مسلمة بن عقبة ، حدثنا غوث ابن جابر ، حدثنا عقيل بن منبه قال : سمعت عمي وهب بن منبه يقول : الأجر من الله عز وجل معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لا ينظر إليه . وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحبها لا يجدها . لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها . وطاعة الله تشرف من أكرمها ، وتهين من أضاعها ، وكتاب الله يدل عليها ، والإيمان بالله يحض عليها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابراهيم بن خالد ، حدثنا عمر بن عبد الرحمن ، سمعت وهب بن منبه يقول : قال داود عليه السلام : يا رب! أى عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة حسن العمل . قال : يا رب! أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر حسن الصورة كفر أو شكر، هذان . وفى رواية ذكرها أحمد بن حنبل : أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر فخرت له فلم يرض به .

وقال ابراهيم بن الجنيد : حدثنى ابراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس ، حدثنا عبدالصمد ابن معقل عن وهب بن منبه قال : كان سائح يعبد الله تعالى ، فجاءه إبليس أو شيطان فتمثل بإنسان فجعل يريه أنه يعبد الله تعالى ، وجعل يزيد عليه فى العبادة ، فأحبه ذلك السائح لما رأى من اجتهاده وعبادته ، فقال له الشيطان ـ والسائح فى مصلاه ـ : لو دخلنا إلى المدينة فخالطنا الناس وصبرنا على أذاهم وأمرنا ونهينا ـ كان أعظم لأجرنا ، فأجابه السائح إلى ذلك ، فلما أخرج السائح إحدى رجليه من باب مكانه لينطلق معه ، هتف به هاتف فقال : إن هذا شيطان أراد أن يفتنك . فقال السائح : رجل خرجت فى معصية الله ، وطاعة الشيطان ، لا تدخل معى ، فما حولها من موضعها ذلك حتى فارق الدنيا ، فأنزل الله تعالى ذكره فى بعض كتبه فقال : وذو الرِّجل .

وقال وَهب : أتى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظم الناس مكانه ، وهالهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك ـ سراً بينه وبينه ـ : أيها العالم ! اذبح جدياً مما يحل لك أكله ، ثم ادفعه إلى حتى أصنعه لك على حدته ، فإذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك . فتأكل منه حلالاً ، ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذبح ذلك العالم جدياً ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم إلى هذا العالم لحم الخنزير [أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدى واجتمع الناس] لينظروا أمر هذا العالم فيه ،أيأكل أم لا ؟ وَقالوا : إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنازير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدى ذلك العالم لحم ذلك الجدى الحلال المذكى ، فألهم الله ذلك العالم فألقى فى روعه وَفكره ، فقال : هب أنى أكلت لحم الجدى الذى أعلم حله أنا ، فماذا أصنع بمن لا يعلمَ ؟ والناس إنما ينتظرون أكلى ليقتدوا بى ، وَهم لا يعلمون إلا أنى إنما أكلت لحم الخنزير ، فيأكلون اقتداء بى ، فأكون ممن يحمل أوزارهم يوم القيامة . لا أفعل والله وإن قتلت وَحرقت بالنار ، وَأبى أن يأكل .

فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومىء إليه ويأمره بأكله ، أى إنما هو لحمُ الجدى ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى ، فألحوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله ، فلما ذهبوا به ليقتلوه ، قال له صاحب الشرطة : ما منعك أن تأكل من اللحم الذى ذكيته أنت ودفعته إلى ؟ أظننت أنى أتيتك بغيره ، وخنتك فيما ائتمنتنى عليه ؟ ما كنت لأفعل والله . فقال له العالم : قد علمت أنه هو ، ولكن خفت أن يتأسى الناس بى ، وهم إنما ينتظرون أكلى منه ، ولا يعلمون إلا أنى أكلت لحم الخنزير ، وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتى من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله . فينبغى للعالم أن يحذر المعايب ، ويجتنب المحذورات ، فإن زلته ونقائصه ـ منظورة يقتدى بها الجاهل .

وقال مُعاذ بن جبل : اتقوا زيغة الحكيم . وقال غيره : اتقوا زلة العالم ، فإنه إذا زل زل بزلته عالم كبير ولا ينبغى له أن يستهين بالزلة وإن صغرت ، ولا يفعل الرخص التى اختلف فيها العلماء ، فإن العالم هو عصاة كل أعمى من العوام ، بها يصول على الحق ليدحضه ، ويقول : رأيت فلانا العالم ، وفلانا وفلانا ـ يفعلون ويفعلون . وليجتنب العوائد النفسية ، فإنه قد يفعل أشياء على حكم العادة ، فيظنها الجاهل جائزة أو سنة أو واجبة ، كما قيل : سل العالم يصدقك ولا تقتد بفعله الغريب ، ولكن سله عنه يصدقك إن كان ذا دِين ، وكم أفسد النظر إلى غالب علماء زمانك هذا من خلق ، فما الظن بمخالطتهم ومجالستهم ولكن (مَنْ يَهدِى اللهُ فَهوُ الْمهتَدى ، ومَنْ يُضْلِل فلن تجدَ لهُ وَلِيّاً مُرشدا)[1] .

وقال محمد بن عبد الملك بن زنجويه : حدثنا عبد الرزاق عن أبيه قال : قلت لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها كما رأيتها ؟ قال : ذهب ذلك عنى منذ وليت القضاء . قال عبد الرزاق : فحدثت به معمراً فقال : والحسن بعد ما ولى القضاء لم يحمدوا فهمه ، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر ؟ فكيف حال من قد غرق فى قاذورات الدنيا من علماء زمانك هذا ، ولاسيما من بعد فتنة « تيمرلنك » ؟ فإن القلوب قد امتلأت بحب الدنيا ، فلا يجد العلم فيها موضعاً ، فجالس من شئت منهم لتنظر مبادىء مجالستهم وغاياتها ، ولا تستخفك البدوات ، فإنما الأمور بعواقبها وخواتيمها ، ونتائجها ، وغاياتها . (وَمَنْ يتَّقِ اللهَ يَجعلْ لَهُ مَخرَجاً وَيرزُقْهُ مِنْ حيثُ لاَ يحتسب)[2] ، وقال وهب : البلاء للمؤمن كالشكال للدابة . وقال أبو بلال الأشعرى عن أبى شهاب الصنعانى ، عن عبد الصمد عن وهب قال : من أصيب بشىء من البلاء فقد سلك به

(١) من الآية : ١٧ من سورة الكهف . (٢) من الآية : ٣ من سورة الطلاق .

طريق الأنبياء . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا منذر قال : سمعت وهبا يقول : قرأت فى كتاب رَجُل من الحواريين : إذا سلك بك طريق ــ أو قال سبيل ــ أهل البلاء فطب نفساً ، فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن جعفر ، حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنى أمية بن شبل ، عن عثمان بن بزدويه قال : كنت مع وهب وسعيد بن جبير يوم عرفة تحت نخيل ابن عامر ، فقال وهب لسعيد : يا أبا عبد الله ! كم لك منذ خفت من الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتى وهى حامل فجاءنى الذى فى بطنها وقد خرج [شعر] وجهه ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصابه بلاء عده رجاء ، وإذا أصابه رجاء عده بلاء . وروى عبد الله بن أحمد بسنده عن وهب قال : قرأت فى بعض الكتب : « ا ر من عبادى من سحر أو سحر له ، أو تَكَهَّن أو تُكُهِّن له ، أو تطير أو تُطيِّر له ، فمن كان كذلك فليدع غيرى ، فإنما هو أنا وخلقى كلهمُ لى » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا رباح عن جعفر بن محمد عن التيمى عن وهب أنه قال : دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة . قلت : هذا إنما هو لشدة الحساب وطول وقوف الأغنياء فى الكرب ، كما قد ضربت الأمثال للشدائد . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار قال : سمعت وَهباً يقول : ترك المكافأة من التطفيف . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحجاج وأبو النصر قالا : حدثنا محمد بن طلحة عن محمد ابن جحادة عن وهب قال : من يتعبد يزدد قوة ، ومن يتكسل يزدد فترة . وقد قال غيره : إن ـ وراء جاءته فى المنام ليلة باردة فقالت له : قم إلى صلاتك فهى خير لك من نومة توهن بدنك . ورأيت فى ذلك حديثاً لم يحضرنى الآن وهذا أمر مجرب أن العبادة تنشط البدن وتلينه ، وأن النوم يكسل البدن فيقسيه ؛ وقد قال بعض السلف لما تبع صِلة بن أشيم[1] حين دخل الغيضة ، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح ، قال : فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت ولى من الكسل والفتور مالا يعلمه إلا الله عز وجل .

وقد قيل للحسن : ما بال المتعبدين أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالجليل فألبسهم نوراً من نوره . وقال يحيى بن أبى كثير : والله ما رجل يخلو بأهله عروساً أقر ما كانت نفسه وآنس ، بأشد سروراً منهم بمناجاة ربهم تعالى إذا خلوا به . وقال عطاء الخراسانى : قيام الليل

(١) صلة بن أشيم : تابعى .

محياة للبدن ، ونور فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البصر والأعضاء كلها ، وإن الرجل إذا قام بالليل أصبح فرحا مسروراً ، وإذا نام عن حزبه أصبح حزيناً مكسور القلب كأنه قد فقد شيئاً ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو جعفر أحمد بن منيع ، حدثنا هاشم بن القاسم أبو النضر ، حدثنا بكر بن حبيش ، عن محمد القرشى ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير عن السيئات ، ومطردة للشيطان عن الجسد » . وقد رواه غيره من طرق : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » ، ويكفى فى هذا الباب ما رواه أهل الصحيح والمسانيد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ـ ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإذا استيقظ وذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » وهذا باب واسع . وقد قال هود فيما أخبر الله عنه : (اعبدُوا اللهَ ما لكم من إله غيْره)[1] ، ثم قال : (وَيَزدكم قوة إلى قوتِكم)[2] ، وهذه القوة تشمل جميع القوى ؛ فيزيد الله عابديه قوة فى إيمانهم ، ويقينهم ، ودينهم ، وتوكلهم ، وغير ذلك مما هو من جنس ذلك . ويزدهم قوة فى أسماعهم ، وأبصارهم ، وأجسادهم وأموالهم ، وأولادهم وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنى عبد الصمد ، أنه سمع وهباً يقول : تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدّم بين يديه ماله ، وما خلف مال غيره .

قلت : وهذا كما فى الحديث : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ فقالوا : كلنا ماله أحب إليه من مال وارثه ، فقال : إن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » . قال : وسمعت وهباً على المنبر يقول : احفظوا عنى ثلاثا ؛ إياكم وهوى متبعاً ، وقرين سوء ، وإعجاب المرء بنفسه . وقد رويت هذه الألفاظ فى حديث وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن عبد الصمد بن معقل ، حدثنا إبراهيم بن الحجاج قال : سمعت وهباً يقول : أحب بنى آدم إلى الشيطان النؤوم الأكول .

وقال الإمام أحمد : حدثنا غوث بن جابر ، حدثنا عمران بن عبد الرحمن ـ أبو الهذيل ، أنه سمع

---

(١) من الآية : ٦٥ ـ سورة الأعراف . (٢) من الآية : ٥٢ سورة هود .

وهباً يقول . إن الله عز وجل يحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس . وقال أحمد أيضاً : حدثنا إبراهيم بن عقيل، حدثنا عمران أبو الهذيل من الأنبياء، عن وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكّل به . فأما الكافر فيأكل معه ويشرب معه، وينام معه على فراشه . وأما المؤمن فهو مجانب له ينتظر متى يصيب منه غفلة أو غرة . وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم . وقال محمد بن غالب : حدثنا أبو المعتمر ابن أخي بشر بن منصور ، عن داود ابن أبي هند ، عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب التي أنزلت من السماء على بعض الأنبياء : أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدري لم اتخذتك خليلا ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذل مقامك بين يدي في الصلاة .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن أيوب ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن إدريس بن وهب بن منبه قال : حدثني أبي قال : كان لسليمان بن داود ألف بيت ، أعلاه قوارير وأسفله حديد ، فركب الريح يوما فمر بحرّاث، فنظر إليه الحراث فاستعظم ما أوتي سليمان من الملك ، فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيما ، فحملت الريح كلام الحرّاث فألقته في أذن سليمان ، قال : فأمر الريح فوقفت ، ثم نزل يمشي حتى أتى الحرّاث فقال له : إني قد سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه مما أقدرني الله عليه تفضلا وإحساناً منه عليّ ؛ لأنه هو الذي أقامني لهذا وأعانني . ثم قال : والله لتسبيحة واحدة يقبلها الله عز وجل منك أو من مؤمن خير مما أوتي آل داود من الملك ؛ لأن ما أوتي آل داود من ملك الدنيا يفنى ، والتسبيحة تبقى ، وما يبقى خير مما يفنى فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همي

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن عقيل بن معقل ، حدثني أبي عن وهب بن منبه قال : إن الله عز وجل أعطى موسى عليه السلام نوراً ، فقال له هارون : هَبه لي يا أخي ، فوهبه له ، فأعطاه هارون ابنه . وكان في بيت المقدس آنية تعظمها الأنبياء والملوك ، فكان ابنا هارون يسقيان في تلك الآنية الخمر ، فنزلت نار من السماء فاختطفت ابني هارون فصعدت بهما ، فنزع هارون لذلك فقام مستغيثاً متوجها بوجهه إلى السماء بالدعاء والتضرع ، فأوحى الله إليه : يا هارون هكذا أفعل بمن عصاني من أهل طاعتي ، فكيف فعلي بمن عصاني من أهل معصيتي ؟. وقال الحكم بن أبان : نزل بي ضيف من أهل صنعاء فقال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن لله عز وجل في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء ، يجمع فيها أرواح المؤمنين ، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح؛ فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم وقال : من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله ، فمن غلب علمه هواه فذلك العالم الغلاب .

وقال فضيل بن عياض . أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ، وما يكابدون فى طلب مرضاتى ، فكيف بهم إذا صاروا إلى دارى ، وتبحبحوا فى رياض نعمتى ؟ هنالك فليبشر المضمفون لله أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، أترانى أنسى لهم عملا ؟ وكيف وأنا ذو الفضل العظيم ، أجود على المولين المعرضين عنى ، فكيف بالمقبلين علىّ ؟ وما غضبت على شىء كغضبى على من أخطأ خطيئة فاستعظمها فى جنب عفوى ، ولو تعاجلت بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأنى ــ لعاجلت القانطين من رحمتى . ولو رآنى عبادى المؤمنين كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم ــ اتهموا فضلى وكرمى ، أنا الديان الذى لا تحل معصيتى ، والذى أطاعنى أطاعنى برحمتى ، ولا حاجة لى بهوان من خاف مقامى . ولو رآنى عبادى يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار فيسألونى : لمن ذا ؟ فأقول : لمن وهب لى ذنباً ما لم يوجب على نفسه معصيتى والقنوط من رحمتى ، وإنى مكافىء على المدح فامدحونى .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا سلمة بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقبة ، حدثنا عبد الرحمن أبو طالوت، حدثنى مهاجر الأسدى عن وهب قال : مر عيسى بن مريم ومعه الحواريون بقرية قد مات أهلها ؛ إنسها وجنها ، وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام عليها ينظر إليها ساعة ، ثم أقبل على أصحابه فقال : إنما مات هؤلاء بعذاب من عند الله ، ولولا ذلك لماتوا متفرقين . ثم ناداهم عيسى : يا أهل القرية ! فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، فقال : ما كانت جنايتكم وسبب هلاككم ؟ قال : عبادة الطاغوت وحب الدنيا . قال : وما كانت عبادتكم للطاغوت ؟ قال : طاعة أهل المعاصى هى عبادة الطاغوت . قال : وما كان حبكم للدنيا ؟ قال : كحب الصبىّ لأمه ، كنا إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنّا ؛ مع أمل بعيد ، وإدبار عن طاعة الله ، وإقبال على مساخطه . قال : فكيف كان هلاككم ؟ قال : بتنا ليلة فى عافية وأصبحنا فى هاوية . قال : وما الهاوية ؟ قال : سجين ، قال : وما السجين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها دفنت أرواحنا فيها . قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : هم ملجمون بلجم من نار قال : وكيف كلمتنى أنت من بينهم ؟ قال : كنت فيهم لما أصابهم العذاب ولم أكن منهم ولا على أعمالهم ، فلما جاء البلاء عمنى معهم ، وأنا معلق بشعرة فى الهاوية لا أدرى أكردس فيها أم أنجو . فقال عيسى عليه السلام عند ذلك لأصحابه : بحق أقول لكم : لخبز الشعير ، وشرب الماء القراح ، والنوم على المزابل ــ كثير مع عافية الدنيا والآخرة .

(١) الكردسة : الوثاق . وكردس : جمعت يداه ورجلاه .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : لا يكون المرء حكيما حتى يطيع الله عز وجل ، وما عصى الله حكيم . ولا يعصى الله إلا أحمق ، وكما لا يكمل النهار إلا بالشمس ، ولا يعرف الليل إلا بالظلام ، كذلك لا تكمل الحكمة إلا بطاعة الله عز وجل . ولا يعصى الله حكيم ، كما لا يطير الطير إلا بجناحين ، ولا يستطيع من لا جناح له أن يطير ، كذلك لا يطيع الله من لا يعمل له ، ولا يطيق عمل الله من لا يطيعه . وكما لا مكث للنار فى الماء حتى تطفأ ، كذلك لا مكث لعمل الرياء حتى يبور . وكما يبدى سر الزانية وفضيحتها فعلها ، كذلك يفتضح بالفعل السىء من كان يقرأ لجليسه بالقول الحسن ولم يعمل به . وكما تكذب معذرة السارق بالسرقة إذا ظهر عليها عنده ، كذلك تكذب معصية القارئ لله قراءته إذا كان يقرؤها لغير الله تعالى .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن النضر ، حدثنا على بن بحر بن برى ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهبا يقول : فى مزامير آل داود : طوبى لمن يسلك سبيل الخاطئين ولا يجالس البطالين ، وطوبى لمن يسلك طريق الأئمة ويستقيم على عبادة ربه ، فمثله كمثل شجرة نابتة على ساقية لا تزال فيها الحياة ، ولا تزال خضراء . وروى الطبرانى أيضاً عنه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العضاه دما . وروى عنه أيضاً أنه قال : ما من شىء إلا يبدو صغيراً ثم يكبر ؛ إلا المصيبة ، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر . وروى عنه أيضاً أنه قال : وقف سائل على باب داود عليه السلام فقال : يا أهل بيت النبوة ! تصدقوا علينا بشىء رزقكم الله رزق التاجر المقيم فى أهله . فقال داود : أعطوه ، فوالذى نفسى بيده إنها لفى الزبور . وقال : من عرف بالكذب لم يجز صدقه ، ومن عرف بالصدق ائتمن على حديثه ، ومن أكثر الغيبة والبغضاء لم يوثق منه بالنصيحة ، ومن عرف بالفجور والخديعة لم يؤمن إليه فى المحبة ، ومن انتحل فوق قدره جحد قدره ، ولا تستحسن فيك ما تستقبح فى غيرك . هذه الآثار رواها الطبرانى عنه من طرق .

وروى داود بن عمرو عن اسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خيثم قال : قدم علينا وهب مكة فطفق لا يشرب ولا يتوضأ إلا من زمزم ، فقيل له : مالك فى الماء العذب ؟ فقال : ما أنا بالذى أشرب وأتوضأ إلا من زمزم حتى أخرج منها ، إنكم لا تدرون ما ماء زمزم ، والذى نفسى بيده ، إنها لفى كتاب الله طعام طعم وشفاء سقم ، ولا يعمد أحد إليها يتضلع منها ريا ، ابتغاء بركتها ، إلا نزعت منه داء وأحدثت له شفاء . وقال : النظر فى زمزم عبادة . وقال : النظر فيها يحط الخطايا حطا . وقال وهب : مسخ بختنصر أسداً فكان ملك السباع ، ثم مسخ نسراً فكان ملك الطيور ، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب ، وهو فى كل ذلك يعقل عقل الإنسان ،

وكان ملكه قائما يدبر ، ثم رد الله عليه روحه إلى حالة الإنسان ، فدعا إلى توحيد الله وقال : كل إله باطل إلا إله السماء . فقيل له : أمات مؤمنا ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : آمن قبل أن يموت ، وقال بعضهم : قتل الأنبياء ، وحرق الكتب ، وحرق بيت المقدس ، فلم يقبل منه التوبة . هكذا رواه الطبراني عن محمد بن أحمد بن الفرج عن عباس بن يزيد عن عبد الرزاق ، عن بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول ، فذكره .

وقال وهب : كان رجل بمصر فسألهم ثلاثة أيام أن يطعموه فلم يطعموه ، فمات في اليوم الرابع فكفنوه ودفنوه ، فأصبحوا فوجدوا الكفن في محرابهم مكتوب عليه : قتلتموه حيا وبررتموه ميتا ؟ قال يحيى : فأنا رأيت القرية التي مات فيها ذلك الرجل ، وما بها أحد إلا وله بيت ضيافة ، لا غني ولا فقير . هكذا رواه يحيى بن عبد الباقي ، عن علي بن الحسن ، عن عبد الله بن أخي وهب ، قال : حدثني عمي وهب بن منبه فذكره . قال : وأهل القرية يعترفون بذلك ؛ فمن ثم اتخذوا بيوتا للضيفان والفقراء خوفا من ذلك . وقال عبد الرزاق عن بكار بن وهب قال : إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنا إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس ، عن عبد الصمد ، عن وهب بن منبه قال : مر نبي من الأنبياء على عابد في كهف جبل ، فمال إليه فسلم عليه وقال له : يا عبد الله منذ كم أنت هاهنا ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قال : من أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر ، قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون . قال : فأين تكون في الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل ، قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : وكيف لا أصبر وإنما هو يومي إلى الليل ، وأما أمس فقد مضى بما فيه ، وأما غد فلم يأت بعد . قال : فعجب النبي من قوله : إنما هو يومي إلى الليل . وبهذا الإسناد ، أن رجلا من العباد قال لمعلمه : قطعت الهوى فلست أهوى من الدنيا شيئا . فقال له معلمه : أتفرق بين النساء والدواب إذا رأيتهن معا ؟ قال : نعم ، قال : أتفرق بين الدنانير والدراهم والحصا ؟ قال : نعم ، قال : يا بني إنك لم تقطع الهوى عنك ولكنك قد أوثقته فاحذر انفلاته وانقلابه .

وقال غوث بن جابر بن غيلان بن منبه : حدثني عقيل بن معقل ، عن وهب قال : اعمل في نواحي الدين الثلاث ، فإن للدين نواحي ثلاثا ، هن جماع الأعمال الصالحة لمن أراد جمع الصالحات .

« أولاهن » تعمل شكراً لله على الأنعم الكثيرات الغاديات الرائحات ، الظاهرات الباطنات ، الحادثات القديمات ، يعمل المؤمن شكراً لهن ورجاء تمامهن .

« والناحية الثانية من الدين » مرغبة فى الجنة التى ليس لها ثمن وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها ، وفى العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر .

« والناحية الثالثة من الدين » أن يعمل المؤمن فراراً من النار التى ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وليست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ، نبؤها عظيم ، وشأنها شديد ، والآخرة وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعوذ بالله منها إلا سفيه أحمق خاسر ، قد (خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسرانُ المُبين)(١) .

وقال إسحاق بن راهَويه : حدثنا عبد الملك بن محمد الدمادى قال : أخبرنى محمد بن سعيد بن رمانة قال : أخبرنى أبى قال : قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتح له ، ومن لم يأت الباب بمفتاح بأسنانه لم يفتح له وقال محمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهبا يقول : ركب ابن ملك فى جند من قومه وهو شاب ، فصرع عن فرسه فدق عنقه فمات فى أرض قريبة من القرى ، فغضب أبوه وحلف أن يقتل أهل القرية عن آخرهم ، وأن يطأهم بالأفيال ، فما أبقت الأفيال وطئته الخيل ، فما أبقت الخيل وطئته الرجال ، فتوجه إليهم بعد أن سقى الأفيال والخيل الخمر وقال : طأوهم بالأفيال ، وإلا فما أبقت الأفيال فلتطأه الخيل ، فما أخطأته الخيل فلتطأه الرجال ، فلما سمع بذلك أهل تلك القرية وعرفوا أنه قد قصدهم لذلك ، خرجوا بأجمعهم فجأروا إلى الله سبحانه وعجوا إليه وابتهلوا يدعونه تعالى ليكشف عنهم شر هذا الملك الظالم ، وما قصده من هلاكهم فبينما الملك وجيشه سائرون على ذلك ، وأهل القرية فى الابتهال والدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، إذ نزل فارس من السماء فوقع بينهم ، فنفرت الأفيال فطفت على الخيل ، وطفت الخيل على الرجال ، فقتل الملك ومن معه وطأ بالأفيال والخيل ، ونجى الله أهل تلك القرية من بأسهم وشرهم .

وروى عبد الرزاق عن المنذر بن النعمان أنه سمع وهبا يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس : لأضعن عليك عرشى ، ولأحشرن عليك خلقى ، وليأتينك داود يومئذ راكبا وروى سماك بن المفضل عن وهب قال : إنى لأتفقد أخلاقى وما فيها شىء يعجبنى . وروى عبد الرزاق عن أبيه قال : قال وهب : ربما صليت الصبح بوضوء العتمة . وقال بقية بن الوليد : حدثنا زيد ابن خالد عن خالد بن معدان عن وهب قال : كان نوح عليه السلام من أجمل أهل زمانه ،

---

(١) من الآية : ١١ من سورة الحج .

وكان يلبس البرقع ؛ فأصابهم مجاعة في السفينة . فكان نوح إذا تجلى لهم شبعوا . وقال : قال عيسى : الحق أقول لكم : إن أشدكم جزعاً على المصيبة ، أشدكم حباً للدنيا .

وقال جعفر بن برقان : بلغنا أن وهبا كان يقول : طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره، وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وتصدق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ، ووسعته السنة ولم يتعدها إلى البدعة . وروى سيار ، عن جعفر ، عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب قال : وجدت في زبور داود : يا داود ! هل تدرى من أسرع الناس مرًّا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى ، وألسنتهم رطبة بذكرى .

وقيل : إن عابداً عبدَ الله تعالى خمسين سنة ؛ فأوحى الله إلى نبيهم : إنى قد غفرت له ، فأخبره ذلك النبي ، فقال : أي رب ! وأى ذنب تغفرلى ؟ فأمر عِرْقاً في عنقه ، فضرب عليه ، فلم ينم ولم يهدأ ولم يصلِّ ليلته ، ثم سكن العِرْق ، فشكا ذلك إلى النبي ، فقال : ما لاقيت من عِرْق ضرب عليَّ في عنقى ثم سكن ، فقال له النبي : إن الله يقول : إن عبادتك خمسين سنة ما تعدل سكون هذا العِرْق .

وقال وهب : رءوس النعم ثلاثة : « إحداها » : نعمة الإسلام التى لا تتم نعمة إلا بها . « والثانية » : نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها . « والثالثة » : نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها . ومرَّ وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان ، به وضح ، وهو يقول : الحمد لله على نعمه ، فقال له رجل - كان مع وهب : أى شيء بقى عليك من النعمة تحمد الله عليه ؟ فقال المبتلى : أدم بصرك إلى أهل المدينة ، وانظر إلى كثرة أهلها ، أولا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى ؟

وقال وهب : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليسلم ، ويتكلم ليفقههم ، ويخلو ليقيم . وقال : المؤمن مفكر مذكر مدخر ، تذكر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصار حرا ، ألقى عنه الحسد فظهرت له المحبة ، زهد في كل فان فاستكمل العقل ، رغب في كل باق فعقل المعرفة ، قلبه متعلق بهمه ، وهمه موكل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحه إذا نامت العيون يتلو كتاب الله ، ويردده على قلبه ؛ فمرة يفزع قلبه ومرة تدمع عينه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة والعزلة ، مفكراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله وقال وهب : فهذا ينادى يوم القيامة في ذلك الجمع العظيم على رءوس الخلائق : قم أيها الكريم فادخل الجنة .

وقال إبراهيم بن سعيد ، عن عبد الرحمن بن مسعود ، عن ثور بن يزيد قال : قال وهب بن منبه : الويل لكم إذا سماكم الناس صالحين ، وأكرموكم على ذلك .

وقال الطبرانى : حدثنا عبيد بن محمد الكشورى ، حدثنا همام بن سلمة بن عقبة ، حدثنا غوث ابن جابر ، حدثنا عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت عمى وهب بن منبه يقول : يا بنى أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة ، يصدق بها فعلك فى العلانية ؛ فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله ، فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضعه عند حافظه . وإن من أسر عملا صالحا لم يطلع عليه إلا الله ، فقد أطلع عليه من هو حسبه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره ، فلا تخافن يا بنى على من عمل صالحا أسره إلى الله عز وجل ضياعاً ، ولا تخافن ظلمة ولا هضمة ، ولا تظنن أن العلانية هى أنجح من السريرة ؛ فإن مثل العلانية مع السريرة – كمثل ورق الشجرة مع عِرْقها ، العلانية ورقها والسريرة أصلها ، إن يحرق العِرْق هلكت الشجرة كلها ، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة – ثمرها وورقها ، والورق يأتى عليه حين يجف ويصير هباء تذروه الرياح ، بخلاف العِرْق ؛ فإنه لا يزال ما ظهر من الشجرة فى خير وعافية ما كان عِرْقها مستخفياً لا يرى منه شىء . كذلك الدين والعلم والعمل ، لا يزال صالحا ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانية العبد ؛ فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، ولا تنفع العلانية مع السريرة الفاسدة ، كما ينفع عِرْق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياته من قِبل عِرْقها ، فإن فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هى ملاك الدِّين، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله ، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل .

وقال الهيثم بن جميل : حدثنا صالح المرى ، عن أبان ، عن وهب قال : قرأت فى الحكمة : الكفر أربعة أركان: ركن منه الغضبة ، وركن منه الشهوة، وركن منه الطمع، وركن منه الخوف.

وقال : أوحى الله تعالى إلى موسى : إذا دعوتنى فكن خائفاً مشفقاً وجلا ، وعفّر خدك بالتراب ، واسجد لى بمكارم وجهك ويديك ، وسلنى حين تسألنى بخشية من قلبك ووجل ، واخشنى أيام الحياة ، وعلِّم الجهال آلائى ، وقل لعبادى : لا يتمادوا فى غىّ ما هم فيه ، فإن أخذى أليم شديد .

وقال وهب : إذا هم الوالى بالجور ، أو عمل به – دخل النقص على أهل مملكته ، وقلّت البركات فى التجارات والزراعات والضروع والمواشى ، ودخل المحق فى ذلك ، وأدخل الله عليه الذل فى ذاته وفى ملكه . وإذا همّ بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخير ونمو البركات .

وقال وهب : كان فى مصحف إبراهيم عليه السلام : أيها الملك المبتلى ، إنى لم أبعثك

لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا لتبنى البنيان . وإنما بعثتك لترفع لى دعوة المظلوم ؛ فإنى لا أردها ولو كانت من كافر .

وروى ابن أبى الدنيا عن محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه : أن ذا القرنين قال لبعض الملوك : ما بال ملتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ قال : من قبل أنا لا نخادع ، ولا يغتاب بعضنا بعضاً وروى ابن أبى الدنيا عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه أصاب البر ؛ سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سلمة بن شبيب ، حدثنا سهل بن عاصم ، عن سلمة بن ميمون ، عن المعافى بن عمران ، عن إدريس قال : سمعت وهباً يقول : كان فى بنى إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أنهما مشيا على الماء فبينما هما يمشيان على البحر إذا هما برجل يمشى فى الهواء ، فقالا له : يا عبد الله ! بأى شىء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من البر فعلته ، ويسير من الشر تركته ، فطمت نفسى عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لا يعنينى ، ورغبت فيما دعانى إليه خالقى ، ولزمت الصمت ؛ فإن أقسمت على الله عز وجل أبر قسمى ، وإن سألته أعطانى .
وقال : حدثنى أبو العباس البصرى الأزدى ، عن شيخ من الأزد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علمنى شيئاً ينفعنى الله به . قال : أكثر من ذكر الموت ، واقصر أملك ، وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى . قال : وما هى ؟ قال : التوكل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

سليمان بن سعد : كان جميلا فصيحاً ، عالماً بالعربية ، وكان يعلمها الناس هو وصالح بن عبد الرحمن الكاتب . وتوفى صالح بعده بقليل . وكان صالح فصيحاً جميلا ، عارفاً بكتابة الديوان ، وبه يخرج أهل العراق من كتابة الديوان . وقد ولاه سليمان بن عبد الملك خراج العراق .

أم الهذيل : لها روايات كثيرة ، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة ، وكانت فقيهة عالمة ، من خيار النساء . عاشت سبعين سنة .

عائشة بنت طلحة بن عبد الله التيمى : أمها أم كلثوم بنت أبى بكر ، تزوجت بابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، ثم تزوجت بعده بمصعب بن الزبير ، وأصدقها مائة ألف دينار . وكانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن لم يكن فى زمانها أجمل منها . توفيت بالمدينة .

عبد الله بن سعيد بن جبير : له روايات كثيرة ، وكان من أفضل أهل زمانه .

عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان : له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة][1] .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائة

فيها : غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى[2] ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى[3] ، حتى بلغ قيسارية ، من بلاد الروم .

وفيها : عزل هشام بن عبد الملك ، أشرس بن عبد الله السلمى عن إمرة خراسان ، وولى عليها الجنيد بن عبد الرحمن ، فلما قدم خراسان تلقته خيول الأتراك منهزمين من المسلمين ، وهو فى سبعة آلاف ، فتصافوا واقتتلوا قتالا شديداً ، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم ، ومعهم ملكهم خاقان . وكاد الجنيد أن يهلك ، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة ، وأسر ابن أخى ملكهم ، وبعث به إلى الخليفة .

وحج بالناس فيها : إبراهيم بن هشام المخزومى - وهو أمير الحرمين والطائف - وأمير العراق خالد بن عبد الله القسرى ، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المرى .

ثم دخلت سنة ثنتى عشرة ومائة

فيها : غزا معاوية بن هشام الصائفة ، فافتتح حصوناً من ناحية مَلَطية .

وفيها : سارت الترك من اللاّن ، فلقيهم الجرّاح بن عبد الله الحكمى فيمن معه من أهل الشام وآذربيجان ، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه ، فاستشهد الجرّاح - رحمه الله - وجماعة معه بمرج أردبيل وأخذ العدو أردبيل . فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، بعث سعيد بن عمرو الحرشى بجيش ، وأمره بالإسراع إليهم ، فلحق الترك وهم يسيرون بأسارى المسلمين نحو ملكهم خاقان ، فاستنقذ منهم الأسارى ، ومن كان معهم من نساء المسلمين ، ومن أهل الذمة أيضاً . وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً ، وأسر منهم خلقاً كثيراً ، فقتلهم صبراً ، وشفى ما كان تغلث من القلوب ، ولم يكتف الخليفة بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك فى أثر الترك ، فسار إليهم فى برد شديد وشتاء عظيم ، فوصل إلى باب الأبواب ، واستخلف عنه أميراً ، وسار هو بمن معه فى طلب الأتراك وملكهم خاقان بمن كان من أمره معهم ما سنذكره .

---

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة - من المصرية .

(٢) أى : البلاد الواقعة فى ساحل بلاد الأناضول . (٣) أى : بر الأناضول من جهة البلاد الداخلية .

ونهض أمير خراسان فى طلب الأتراك أيضاً فى جيش كثيف ، فوصل إلى نهر بلخ ، ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفا ، وأخرى عشرة آلاف يمنة ويسرة ، وجاشت الترك وجيشت ، فأتوا سمرقند ، فكتب أميرها إليه يعلمه بهم ، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم ، ومعهم ملكهم الأعظم خاقان ، فالغوث الغوث . فسار الجنيد مسرعاً فى جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقى بينه وبينها أربعة فراسخ ، فصبحه خاقان فى جمع عظيم ، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فانحازوا إلى العسكر ، والترك تتبعهم من كل جانب ، فتراءى الجمعان والمسلمون يتغدّون ولا يشعرون بانهزام مقدمتهم وانحيازها إليهم ، فنهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم ، وذلك فى مجال واسع ، ومكان بارز ، فالتقوا ، وحملت الترك على ميمنة المسلمين ، وفيها بنو تميم والأزد ، فقتل منهم ومن غيرهم خلق كثير ، ممن أراد كرامته بالشهادة .

وقد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادى خاقان : إن صرت إلينا جعلناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك . فقال : ويحكم ! إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله . ثم تناخى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان ، وصبروا وصابروا وحملوا على الترك حملة رجل واحد فهزمهم الله عز وجل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة ، فحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وهذه الواقعة يقال لها وقعة الشعب . وقد بسطها ابن جرير جداً ومن توفى فيها من الأعيان :

رَجاء بن حَيوة الكندى : أبو المقدام ، ويقال : أبو نصر ، وهو تابعى جليل ، كبير القدر ، ثقة فاضل عادل ، وزير صدق لخلفاء بنى أمية ، وكان مكحول إذا سئل يقول : سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ، ووثقوه فى الرواية ، وله روايات وكلام حسن ـ رحمه الله .

شهر بن حوشب الأشعرى الحمصى : ويقال إنه دمشقى ، تابعى جليل ، روى عن مولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرها ، وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم . وكان عالماً عابداً ناسكاً . لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بغير إذن ولى الأمر ، فعابوه وتركوه عرضة ، وتركوا حديثه وأنشدوا فيه الشعر ؛ منهم : شعبة وغيره . ويقال : إنه سرق غيرها ، فالله أعلم . وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثنوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده ، وقالوا : لا يقدح فى روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه ، وقد كان والياً عليه متصرفاً فيه فالله أعلم .

قال الواقدى : توفى شهر فى هذه السنة ـ أعنى سنة اثنتى عشرة ومائة . وقيل : قبلها بسنة ، وقيل : سنة مائة ، فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها : غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش . وفيها : صار جماعة من دعاة بنى العباس إلى خراسان وانتشروا فيها ، وقد أخذ أميرهم رجلا منهم فقتله ، وتوعد غيره بمثل ذلك . وفيها : وغل مسلمة بن عبد الملك فى بلاد الترك فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها . وفيها : حج بالناس إبراهيم بن هشام المخزومى[1] . فالله أعلم . ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها .

وممن توفى فيها من الأعيان ، قال ابن جرير : فيها كان مهلك .

الأمير عبد الوهاب بن بخت ، وهو مع البطال عبد الله بأرض الروم ، قتل شهيداً وهذه ترجمته .

هو عبد الوهاب بن بخت ـ أبو عبيدة ، ويقال : أبو بكر ، مولى آل مروان مكى ، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة ، روى عن ابن عمر وأنس وأبى هريرة وجماعة من التابعين . وعنه خلق منهم : أيوب ومالك بن أنس ويحيى بن سعيد الأنصارى وعبيد الله العمرى ، حديثه عن أنس مرفوعا « نضر الله امرأ سمع مقالتى هذه فوعاها ثم بلغها غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أولى الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، كأن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

وروى عن أبى الزناد ، عن أبى الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فإن حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه » وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعات من أئمة العلماء . وقال مالك : كان كثير الحج والعمرة والغزو ، حتى استشهد ولم يكن أحق بما فى رحله من رفقائه ، وكان سمحاً جواداً ، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبى محمد عبد الله البطال ، ودفن هناك ـ رحمه الله ـ توفى فى هذه السنة ، قاله خليفة وغيره ؛ وذلك أنه لقى العدو ففر بعض المسلمين ، فجعل ينادى ويركض فرسه نحو العدو : أن هلموا إلى الجنة ، ويحكم ! أفراراً من الجنة ؟ أتفرون من الجنة ؟ إلى أين ؟ ويحكم ؟ لا مقام لكم فى الدنيا ولا بقاء . ثم قاتل حتى قتل رحمه الله .

(١) وقيل : إن الذى حج بالناس فى هذه السنة : سليمان بن هشام بن عبد الملك .

مكحول الشامي : تابعي جليل القدر ، إمام أهل الشام في زمانه ، وكان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل : مولى امرأة من آل سعيد بن العاص ، وكان نوبياً ، وقيل : من سبي كابل ، وقيل : كان من الأبناء من سلالة الأكاسرة وقد ذكر نسبه في كتابنا «التكميل» وقال محمد بن إسحاق: سمعته يقول : طفت الأرض كلها في طلب العلم . وقال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن البصري بالبصرة ، والشعبي بالكوفة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : كان لا يستطيع أن يقول : قل ، وإنما كان يقول : كل . وكان له وجاهة عند الناس ، مهما أمر به من شيء يفعل . وقال سعيد بن عبد العزيز : كان أفقه أهل الشام ، وكان أفقه من الزهري . وقال غير واحد : توفي في هذه السنة ، وقيل: بعدها ، فالله أعلم .

[مكحول الشامي ، هو ابن أبي مسلم ، واسم أبي مسلم : شهزاب بن شاذل . كذا نقلته من خط عبد الهادي . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طلب ريحه زيد في عقله . وقال مكحول في قوله تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)[1] ، قال : بارد الشراب ، وظلال المساكن ، وشبع البطون ، واعتدال الخلق ، ولذاذة النوم .

وقال : إذا وضع المجاهدون أثقالهم عن دوابهم أتتها الملائكة ، فمسحت ظهورها ودعت لها بالبركة ، إلا دابة في عنقها جرس][2] .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها : غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وعلى اليمنى سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما: ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها : التقى عبد الله البطال وملك الروم المسمى فيهم «قسطنطين» ، وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي ﷺ فأسره البطال ، فأرسله إلى سليمان بن هشام ، فسار به إلى أبيه وفيها : عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف - إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وولى عليها أخاه محمد بن هشام فحج بالناس في هذه السنة في قول . وقال الواقدي وأبو معشر : إنما حج بالناس خالد بن عبد الملك بن مروان ، والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان

عطاء بن أبي رباح - الفهري ، مولاهم أبو محمد المكي ، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء ، يقال إنه أدرك مائتي صحابي ، وقال ابن سعد : سمعت بعض أهل العلم يقول : كان عطاء أسود أعور أفطس أشل أعرج ، ثم عمي بعد ذلك ، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث . وقال أبو جعفر

---

(١) آخر سورة الهاكم التكاثر . (٢) مابين هذين القوسين زيادة في بعض النسخ .

الباقر وغير واحد : ما بقى أحد فى زمانه أعلم بالمناسك منه . وزاد بعضهم : وكان قد حج سبعين حجة ، وعمر مائة سنة ، وكان فى آخر عمره يفطر فى رمضان من الكبر والضعف ويفدى عن إفطاره ، ويتأول الآية (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)[1] ، وكان ينادى منادى بنى أمية فى أيام منى : لا يفتى الناس فى الحج إلا عطاء بن أبى رباح . وقال أبو جعفر الباقر : ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه . وقال الأوزاعى : مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم . وقال ابن جريج : كان فى المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس به صلاة . وقال قتادة : كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء ـ هؤلاء أئمة الأمصار . وقال عطاء : إن الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كأنى لم أكن سمعته ـ وقد سمعته قبل أن يولد ـ فأريه أنى إنما سمعته الآن منه . وفى رواية : أنا أحفظ منه له فأريه أنى لم أسمعه . الجمهور على أنه مات فى هذه السنة ـ رحمه الله تعالى ، والله أعلم .

فصل

أسند أبو محمد بن عطاء بن أبى رباح ـ واسم أبى رباح أسلم ـ عن عدد كثير من الصحابة ، منهم : ابن عمر ، وابن عمرو ، وعبدالله بن الزبير ، وأبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهنى ، وأبو سعيد. وسمع من ابن عباس التفسير وغيره . وروى عنه من التابعين عدة ، منهم : الزهرى ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير ، وقتادة ، ويحيى بن كثير ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن أبى ثابت ، والأعمش ، وأيوب السختيانى ، وغيرهم من الأئمة والأعلام كثير . قال أبو هزان : سمعت عطاء ابن أبى رباح يقول : من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل . قال أبو هزان : قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلى؟ كيف نصوم ؟ كيف تنكح ، وتطلق ، وتبيع ، وتشترى ؟

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة الصنعانى . قال : سمعت عطاء بن أبى رباح يقول فى قوله تعالى : (وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)[2] ، قال : كانوا يقرضون الدراهم ، قيل : كانوا يقصون منها ويقطعونها . وقال الثورى عن عبد الله بن الوليد ـ يعنى الوصافى ـ قال : قلت لعطاء : ما ترى فى صاحب قلم إن هو كتب به عاش هو وعياله فى سعة ، وإن هو تركه افتقر ؟ قال : من الرأس ؟ قلت القسرى لخالد . قال عطاء : قال العبد الصالح : (رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

---

(١) من الآية : ١٨٤ من سورة البقرة. (٢) من الآية : ٤٨ من سورة النمل .

المجرمين)[١] . وقال : أفضل ما أوتى العباد ـ العقل عن الله وهو الدين . وقال عطاء : ما قال العبد : يا رب ؟ يا رب ؟ ثلاث مرات ـ إلا نظر الله إليه ، قال : فذكرت ذلك للحسن فقال : أما تقرءون القرآن (رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي للإيمانِ أن آمِنُوا بِربِّكم فآمنَّا ، ربَّنا فاغفِر لنا ذُنوبَنا وكفِّرْ عنَّا سيئاتِنا) إلى قوله : (فاستجاب لهم ربُّهم) الآيات[٢]

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عبد الله السلمى ، حدثنا ضمرة عن عمر بن الورد قال : قال عطاء : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة فافعل وقال سعيد بن سلام البصرى: سمعت أبا حنيفة النعمان يقول : لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة . قال : أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً ؟ قلت : نعم ! قال : فمن أى الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، فقال عطاء : عرفت فالزم . وقال عطاء : ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من الإسناد . وقيل لعطاء : إن هاهنا قوما يقولون : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فقال : (والذين اهتدوا زادَهم هُدًى)[٣] ، فما هذا الهدى الذى زادهم ؟ فقلت : ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله ، فقال : قال تعالى : (وَما أُمِروا إلاّ ليَعْبُدُوا اللهَ مُخلِصين لهُ الدين حُنفاء ويُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذلكَ دِينُ القَيِّمة)[٤] فجعل ذلك دينا .

وقال يعلى بن عبيد : دخلنا على محمد بن سوقة فقال : ألا أحدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ؟ فإنه نفعني ، قال لى عطاء بن أبى رباح : يا ابن أخى إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ـ إنما ، ما عدا كتاب الله أن يقرأ ، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو ينطق العبد بحاجته فى معيشته التى لابد له منها ، أتنكرون : (وإنَّ عَليكم لحافظين* كِراماً كاتبين)[٥] و(عن اليمين وعن الشِّمال قَعيد* ما يَلفِظُ مِن قَوْلٍ إلاّ لَديْه رقيبٌ عَتيد)[٦] أما يستحى أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره ، فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ وقال : إذا أنت خفت الحر من الليل فاقرأ :(بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وروى الطبرانى وغيره ، أن الحلقة فى المسجد الحرام كانت لابن عباس ، فلما مات ابن عباس

(١) من الآية : ١٧ من سورة القصص . (٢) الآيتان: ١٩٣، ١٩٤ من سورة آل عمران
(٣) من الآية ١٧ من سورة محمد. (٤) من الآية : ٥ من سورة البينة .
(٥) من الآية : ١٠، ١١ من سورة الانفطار . (٦) الآيتان : ١٧، ١٨ من سورة ق .

كانت لعطاء بن أبى رباح . وروى عثمان بن أبى شيبة ، عن أبيه ، عن الفضل بن دُكين ، عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحداً يطلب بعمله ماعند الله تعالى- إلا ثلاثة : عطاء ، وطاوس ، ومجاهد وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا عمر بن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قيصاً قط ، ولا رأيت عليه ثوباً يساوى خمسة دراهم .

وقال أبو بلال الأشعرى : حدثنا قيس ، عن عبد الملك بن جريج ، عن عطاء : أن يَعلى بن أمية كانت له صحبة ، وكان يقعد فى المسجد ساعة ينوى فيها الاعتكاف . وروى الأوزاعى عن عطاء قال : إن كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ لتعجن ، وإن كانت قصتها لتضرب بالجفنة . وعن الأوزاعى عنه قال : (ولاَ تَأْخُذْكُم بِهِماَ رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ)[1] ، قال : ذلك فى إقامة الحد عليهما .

وقال الأوزاعى : كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، إنه منافق ، وما هو بمؤمن ، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق ـ أن يسمى المسىء منافقاً ، وما يسميه مؤمناً ، فأطاعوه على ذلك وجعلوه له . قال : فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك فقال : ما أرى بذلك بأساً ، يقول الله تعالى : (إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً)[2] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يطيل الصمت ، فإذا تكلم تخيل إلينا أنه يؤيَّد . وقال فى قوله تعالى : (لاَ تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ)[3] ، قال : لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التى افترضها عليهم أن يؤدوها فى أوقاتها وأوائلها . وقال ابن جرير : رأيت عطاء يطوف بالبيت ، فقال لقائده : امسكوا احفظوا عنى خمساً : القدر خيره وشره ، حلوه ومره ـ من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض وأهل قبلتنا مؤمنون ، حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . وقتال الفئة الباغية بالأيدى والنعال والسلاح . والشهادة على الخوارج بالضلالة . وقال ابن عمر : تجمعون لى المسائل وفيكم عطاء بن أبى رباح .

قال معاذ بن سعد : كنت جالساً عند عطاء ، فحدث بحديث ، فعرض رجل له فى حديثه ، فغضب عطاء وقال : ما هذه الأخلاق ؟ وما هذه الطبائع ؟ والله إنى لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه ، فأريه أنى لا أحسن شيئاً منه . وكان عطاء يقول : لأن أرى فى بيتى شيطاناً خير من أن أرى فيه وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم . وروى عثمان بن أبى شيبة ، عن على بن

(١) من الآية : ٢ من سورة النور . (٢) من الآية : ٢٨ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية : ٣٧ من سورة النور .

المديني ، عن يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج قال : كان عطاء بعد ما كبر وضعف ـ يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة ، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك .

وقال ابن عيينة : قلت لابن جريج : ما رأيت مصليا مثلك . فقال : لو رأيت عطاء !

وقال عطاء : إن الله لا يحب الفتى يلبس الثوب المشهور ، فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب . وكان يقال : ينبغي للعبد أن يكون كالمريض لا بد له من قوت ، وليس كل الطعام يوافقه . وكان يقال : الدعوة تعمى عين الحكيم فكيف بالجاهل ؟ ولا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه ؛ فإنك لا تدرى إلى ماذا يصير بعد الموت ![1] .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها : وقع طاعون بالشام . وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل ـ وهو نائب الحرمين والطائف . والنواب في سائر البلاد هم المذكورون في التي قبلها ، والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان :

أبو جعفر الباقر : وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي ، الهاشمي ـ أبو جعفر الباقر ، وأمه : أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر كثيراً ، أحد أعلام هذه الأمة علما وعملا ، وسيادة وشرفاً ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثنى عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ، ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ؛ بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح في الأثر . وقال أيضاً : ما أدركت أحداً من أهل بيتي ـ إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما وقد روى عن غير واحد من الصحابة . وحدث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم . فمن روى عنه : ابنه جعفر الصادق ، والحكم بن عتيبة ، وربيعة ، والأعمش ، وأبو إسحاق السبيعي ، والأوزاعي ، والأعرج ـ وهو أسن منه ـ وابن جريج ، وعطاء ، وعمرو بن دينار ، والزهري . وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال : حدثني أبي ـ وكان خير محمدي على وجه الأرض . وقال العجلي : هو مدني تابعي ثقة . وقال محمد بن سعد : كان ثقة ، كثير الحديث وكانت وفاته في هذه السنة في قول ، وقيل : في التي قبلها ، وقيل : في التي بعدها ، أو في التي هي بعدها ، وبعد بعدها ، والله أعلم . وقد جاوز السبعين ، وقيل : لم يجاوز الستين ، فالله أعلم .

---

(١) من أول «فصل» إلى هنا زيادة في بعض النسخ .

فصل

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . كان أبوه علي زين العابدين ، وجده الحسين قتلا شهيدين بالعراق ، وسمى الباقر ؛ لبقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذاكراً خاشعا صابرا وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالى الحسب ، وكان عارفا بالخطرات ، كثير البكاء والعبرات، معرضا عن الجدال والخصومات .

قال أبو بلال الأشعرى : حدثنا محمد بن مروان عن ثابت ، عن محمد بن علي بن الحسين في قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا)(١) قال : الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر في الدنيا . وقال عبد السلام بن حرب عن زيد بن خيثمة عن أبي جعفر ، قال : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر قلت : وقد روى نحو هذا عن ابن عباس قال : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر . وقال جابر الجعفى : قال لى محمد بن علي : يا جابر! إنى لمحزون ، وإنى لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وشغلُ قلبك ؟ قال : يا جابر ! إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل ـ شغله عما سواه ، يا جابر! ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون؟ هل هى إلا مركبا ركبته ؟ أو ثوبا لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر ! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصممهم عن ذكر الله ـ ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ـ ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم ؛ كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته فى منامك فلما استيقظت إذا ليس فى يدك منه شىء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن علي يقول قال عمر بن الخطاب . إذا رأيتم القارىء يحب الأغنياء فهو صاحب الدنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص . وكان أبو جعفر يصلي كل يوم وليلة بالمكتوبة وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : سلاح اللئام قبيح الكلام . وروى أبو الأحوص عن منصور عنه قال : لكل شىء آفة ، وآفة العلم النسيان . وقال لابنه : إياك

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة الفرقان .

والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل خبيثة ؛ إنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق . وقال . أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال .

وقال خلف بن حوشب : قال أبو جعفر : الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زُبر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر - إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه .

وقال لجابر الجُعْفِيّ : ما يقول فقهاء العراق في قوله تعالى : (لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)(١) ؟ قال : رأى يعقوب عاضاً على إبهامه ، فقال : لا - حدثني أبي عن جدي علي بن أبي طالب ، أن البرهان الذي رآه - أنها حين همت به وهم بها - أي طمع فيها ، قامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها ، أو استحياء منه . فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت: إلهي أستحي منه أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف : تستحين من صنم لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : والله لا تنالين مني أبدا . فهو البرهان . وقال بشر بن الحارث الحافي : سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول : سمعت محمد بن علي يقول : الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه . وقال : إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مدينا - كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف . وقال : شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه . وقال : إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب ، وتورث النفاق . وقال : (الذين يخوضون في آياتنا(٢)) هم أصحاب الخصومات .

وقال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال : لا بأس به ، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر ! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ، ويزعمون أني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده - يعني نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم ؛ لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ؛ فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال : من لم

(١) من الآية: ٤٢ من سورة يوسف (٢) من الآية : ٦٨ من سورة الأنعام

لم يعرف فضل أبي بكر وعمر ، فقد جهل السنة . وقال في قوله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا)[1] الآية ، قال : هم أصحاب محمد ﷺ قال : قلت : يقولون : هو علي . قال : علي من أصحاب محمد ﷺ .

وقال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد ـ أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي ، قال : رأيت الحكم عنده كأنه متعلم . وقال : كان لي أخ في عيني عظيم ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه .

وقال جعفر بن محمد : ذهبت بغلة أبي ، فقال : لئن ردها الله عليّ لأحمدنه بمحامد يرضاها ، فما كان بأسرع من أن أتى بها بسرجها لم يفقد منها شيء ، فقام فركبها ، فلما استوى عليها ، وجمع إليه ثيابه ـ رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، لم يزد على ذلك . فقيل له في ذلك فقال : فهل تركت أو أبقيت شيئاً ؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل .

وقال عبد الله بن المبارك : قال محمد بن علي : من أعطى الخُلق والرفق ، فقد أعطى الخير والراحة ، وحسن حاله في دنياه وآخرته ، ومن حرمهما كان ذلك سبيلا إلى كل شر وبلية ، إلا من عصمه الله وقال : أيدخل أحدكم يده في كمّ صاحبه ، فيأخذ ما يريد تاما إلا قال : فلستم إخوانا كما تَزْعُمُونَ . وقال : اعرف مودة أخيك لك ـ بما له في قلبك من المودة ، فإن القلوب تتكافأ . وسمع عصافير يصحْن ، فقال : أتدري ماذا يقلن ؟ قلت : لا ! قال : يسبحن الله ويسألنه رزقهن يوماً بيوم وقال : تدعو الله بما تحب ، وإذا وقع الذي تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب .

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله عز وجل من أن يسأل وما يدفع القضاء إلا الدعاء . وإنّ أسرع الخير ثواباً البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي ، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، وينهى الناس عما لا يستطيع أن يتحول عنه . وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه . هذه كلمات جوامع موانع ، لا ينبغي لعاقل أن يغفلها . وقال : القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق .

وقال أبو جعفر محمد : صحب عمر بن الخطاب رجل إلى مكة ، فمات في الطريق ، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه ، فقل يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

وبالغ أمر كان يأمل دونه ومختلج من دون ما كان يأمل

---

(١) من الآية : ٥٥ من سورة المائدة .

وقال أبو جعفر: والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد وقال: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار، فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة. وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة؛ فإن الله يكفر بها بحور الخطايا، ولو أن باكيا بكى من خشية الله في أمة رحم الله تلك الأمة وقال بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً قلت: البيت الذى كان يتمثل به قبله بيتان وهو ثالثهما. وهذه الأبيات تتضمن حكما وزهداً فى الدنيا قال:

لقد غرت الدنيا رجالا فأصبحوا ... بمنزلة ما بعدها متحول

فساخط أمر لا يبدل غيره ... وراض بأمر غيره سيبدل

وبالغ أمر كان يأمل دونه ... ومختلج من دون ما كان يأمل[1]

ثم دخلت سنة ست عشر ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة، وفيها وقع طاعون عظيم بالشام والعراق، وكان معظم ذلك فى واسط وفى المحرم منها توفى الجنيد بن عبد الرحمن المرى أمير خراسان من مرض أصابه فى بطنه، وكان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فعزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان، وقال له: إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه. فما قدم عاصم بن عبد الله خراسان، حتى مات الجنيد فى المحرم منها بمرو، وقال فيه أبو الجرير[2] عيسى بن عصمة يرثيه:

هلك الجود والجنيد جميعا ... فعلى الجود والجنيد السلام

أصبحا ثاويين فى بطن مرو ... ما تغنت على الغصون الحمام

كنتما نزهة الكرام فلما ... مت مات الندى ومات الكرام

ولما قدم عاصم خراسان، أخذ نواب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات، وعسفهم فى المصادرات والجنايات، فخرج عن طاعته الحارث بن سريج، فبارزوه بالحرب، وجرت بينهما أمور يطول ذكرها. ثم آل الأمر إلى أن انكسر الحارث بن سريج، وظهر عاصم عليه. قال الواقدى: وفيها حج بالناس، الوليد بن يزيد، وهو ولى الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

(١) من أول «فصل» إلى هنا مثبت فى بعض النسخ. (٢) فى الطبرى: أبو الجويرية.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها بعث مروان بن محمد ـ وهو مروان الحمار ـ وهو على أرمينية ، بعثين ففتح حصونا من بلاد اللآن ، ونزل كثير منهم على الإيمان(١) . وفيها عزل هشام ـ عاصم ابن عبد الله الهلالى ، الذى ولاه فى السنة قبلها خراسان مكان الجنيد ، فعزله عنها وضمها إلى عبد الله ابن خالد القسرى ، مع العراق معادة إليه جريا على ما سبق له من العادة ، وكان ذلك من كتاب عاصم بن عبد الله الهلالى المعزول عنها ؛ وذلك لأنه كتب إلى أمير المؤمنين هشام : إن ولاية خراسان لا تصلح إلا مع ولاية العراق ، رجاء أن يضيفها إليه ؛ فانعكس الأمر عليه ، فأجاب هشام إلى ذلك قبولا إلى نصيحته ، وأضافها إلى خالد القسرى . وفيها توفى .

قتادة بن دعامة السدوسى : أبو الخطاب البصرى الأعمى ، أحد علماء التابعين ، والأئمة العاملين . روى عن أنس بن مالك ، وجماعة من التابعين ، منهم : سعيد بن المسيب ، والبصرى ، وأبو العالية ، وزرارة بن أوفى ، وعطاء ومجاهد ، ومحمد بن سيرين ، ومسروق ، وأبو مجلز وغيرهم وحدث عنه جماعات من الكبار ؛ كأيوب وحماد بن مسلمة ، وحميد الطويل ، وسعيد بن أبى عروبة والأعمش ، وشعبة ، والأوزاعى ، ومسعر ، ومعمر ، وهمام . قال ابن المسيب : ما جاءنى عراق أفضل منه . وقال بكر المزنى : ما رأيت أحفظ منه . وقال محمد بن سيرين : هو من أحفظ الناس ، وقال مطر : كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل(٢) والزويل حتى يحفظه . وقال الزهرى : هو أعلم من مكحول وقال معمر : ما رأيت أفقه من الزهرى وحماد وقتادة . وقال قتادة : ما سمعت شيئاً إلا وعاه قلبى . وقال أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئاً إلا حفظه . وقرىء عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . وذكر يوما ، فأثنى على علمه ، وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك . وقال أبو حاتم : كانت وفاته بواسطة فى الطاعون ـ يعنى فى هذه السنة ـ وعمره ست أو سبع وخمسون سنة .

[قال قتادة : من وثق بالله كان الله معه ، ومن يكن الله معه تكن معه الفئة التى لا تغلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ، والعالم الذى لا ينسى . وقال : فى الجنة كوة إلى النار فيقولون : ما بال الأشقياء دخلوا النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم ، فقالوا : إنا كنا نأمركم ولا نأتمر ، وننهاكم ولا ننتهى . وقال : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه

(١) فى الطبرى : على ثمن منشاة . (٢) أى : البكاء والحركة .

وصلاح دينه ، وصلاح الناس - أفضل من عبادة حول كامل . وقال قتادة : لو كان يكتفى من العلم بشيء لا كتفى موسى عليه السلام بما عنده ، ولكنه طلب الزيادة](١) .

وفيها : توفى أبو الحباب - سعيد بن يسار ، والأعرج وابن أبى مليكة وعبد الله بن أبى زكريا الخزاعى . وميمون بن مهران بن موسى بن وردان .

فصل

فأما سعيد بن يسار ، فكان من العباد الزهاد ، روى عن جماعة من الصحابة . وكذلك الأعرج وابن أبى مليكة .

وأما ميمون بن مهران ، فهو من أجلاء علماء التابعين ، وزهادهم وعبادهم وأئمتهم . كان ميمون إمام أهل الجزيرة . روى الطبرانى عنه أنه قيل له : مالك لا يفارقك أخ لك من قِلًى ؟ قال : لأنى لا أماريه ، ولا أشاريه : قال عمر بن ميمون : ما كان أبى يكثر الصلاة ، ولا الصيام ، ولكن كان يكره أن يعصى الله عز وجل . وروى ابن أبى عدى ، عن يونس عنه قال : لا تمارين عالماً ولا جاهلا ، فإنك إن ما ربت عالما خزن عنك علمه ، وإن ما ربت جاهلا خشّن صدرك . وقال عمر بن ميمون : خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة ، فمررنا بجدول ؟ فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له ، فمر على ظهرى ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن ، فطرقت الباب ، فخرجت إلينا جارية سداسية(٢) ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون ابن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ! قالت : يا شقى ! ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟ قال : فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه فاعتنقا ، ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ! إنى قد أنست من قلبى غلظة ، فاستكن لى منه ، فقرأ الحسن : (أفرأيتَ إنْ متّعناهُمْ سنين * ثمّ جاءهُم ما كانُوا يُوعَدُون * ما أغنَى عنهُم ما كانُوا يُمتّعُون)(٣) فسقط الشيخ مغشيا عليه ، فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلا ، ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ، فأخذت بيد أبى فخرجت فقلت : يا أبتا أهذا هو الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب فى نفسى أنه أكبر من هذا ، قال . فوكز فى صدرى وكزة ، ثم قال : يا بنى ! لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوماً .

---

(١) ما بين هذين القوسين زيادة فى بعض النسخ . (٢) أى فى سن السادسة من عمرها .

(٣) الآيات : ٢٠٥ - ٢٠٧ من سورة الشعراء .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : ما أحب أنى أعطيت درهما فى لهو ، وأن لى مكانه مائة ألف ، أخشى أن تصيبنى هذه الآية : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ)[1] الآية . وقال جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران قال : كنت عند عمر بن عبد العزيز فلما قمت قال عمر : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس مُجاجة[2] .

وروى الإمام أحمد عن معمر بن سليمان الرقى، عن فرات بن سليمان، عن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهن : لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تدخل على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك إلى ذى هَوى ، فإنك لا تدرى ما يعلق بقلبك من هواه .

وروى عبد الله بن أحمد عنه فى قوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً)[3] و (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[4] ، فقال : التمسوا لهذين المرصادين جوازاً . وفى قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)[5] فيها وعيدشديد للظالم ، وتعزية للمظلوم . وقال : لو أن أهل القرآن صلحوا لصلح الناس . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا عيسى بن سالم الشاشى ، حدثنا أبو المليح قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : لا خير فى الدنيا إلا رجلين ، رجل تائب ـ أو قال : يتوب ـ من الخطيئات ، ورجل يعمل فى الدرجات ، فلا خير فى العيش والبقاء فى الدنيا إلا لهذين الرجلين ؛ رجل يعمل فى الكفارات ، ورجل يعمل فى الدرجات ، وبقاء ما سواهما وبال عليه . وقال جعفر بن برقان : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن هذا القرآن قد خلق فى صدور كثير من الناس ، فالتمسوا ما سواه من الأحاديث ، وإن فيمن يتبع هذا العلم قوما يتخذون بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يمارى به ، وخيرهم من يتعلمه ، ويطيع الله عز وجل به . وقال : من اتبع القرآن قاده القرآن حتى يحل به الجنة ، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن يتبعه حتى يقذفه فى النار .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خالد بن حيان ، حدثنا جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران قال : لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال . وقال ميمون : من كان يريد أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر فى عمله فإنه قادم عليه كائناً ما كان وقال عبد الله بن أحمد

---

(١) من الآية : ٦ من سورة لقمان .

(٢) المجاجة : الريق ترميه من فيك .

(٣) من الآية : ٢١ من سورة النبأ .

(٤) من الآية ١٤ـ من سورة الفجر .

(٥) من الآية ٤٢ـ من سورة ابراهيم .

ابن حنبل : حدثنا يحيى بن عثمان الحربى ، حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران . قال : نظر رجل من المهاجرين الى رجل يصلى فأخفى الصلاة فعاتبه ، فقال : إنى ذكرت ضيعة لى . فقال : أكبر الضيعة أضعته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا جعفر بن محمد الدسمنى ، حدثنا أبو جعفر النفيلى ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن طلحة بن زيد قال : قال ميمون : لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه . وروى عبد الله بن أحمد عنه أيضاً قال : لأن أوتمن على بيت مال أحب إلى من أن أوتمن على امرأة . وقال أبو يعلى الموصلى : حدثنا هاشم بن الحارث ، حدثنا أبو المليح الرقى، عن حبيب بن أبى مرزوق قال : قال ميمون : وددت أن إحدى عينى ذهبت وبقيت الأخرى أتمتع بها ، وأنى لم أل عملا قط . قلت : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر ابن عبد العزيز ، لا خير فى العمل لا لعمر ولا لغيره .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا سفيان ، حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : ما عرضت قولى على عملى إلا وجدت من نفسى اعتراضاً . وقال الطبرانى : حدثنا المقدام بن داود ، حدثنا على بن معبد ، حدثنا خالد بن حيان ، حدثنا جعفر عن ميمون قال : قال لى ميمون : قل لى فى وجهى ما أكره ؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره . وروى عبد الله بن أحمد عنه فى قوله تعالى : (خافضة رافعة)[1] قال : تخفض أقواماً وترفع آخرين . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنى عيسى بن سالم ، حدثنا أبو المليح ، حدثنا بعض أصحابى قال : كنت أمشى مع ميمون؛ فنظر فرأى علىّ ثوب كتّان فقال : أما بلغك أنه لا يلبس الكتان إلا غنى أو غاو ؟ وبهذا الإسناد سمعت ميمون بن مهران يقول : أول من مشت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس الكندى ، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب ورجل يحضر معه ، قالوا : قاتله جبار .

وقال عبد الله بن أحمد : بلغنى عن عبد الله بن كريم بن حيان ــ وقد رأيته ــ حدثنا أبو المليح قال : قال ميمون: ما أحب أن لى ما بين الرُّها إلى حُوران بـ خمسة دراهم . وقال ميمون : يقول أحدهم : اجلس فى بيتك واغلق عليك بابك، وانظر هل يأتيك رزقك؟ نعم والله ، لو كان له مثل يقين مريم وإبراهيم عليهما السلام ، وأغلق عليه بابه ، وأرخى عليه ستره ، لجاءه رزقه . وقال : لو أن كل إنسان منا يتعاهد كسبه فلم يكسب إلا طيباً ، فأخرج ما عليه ــ ما احتيج إلى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء . وقال أبو المليح عن ميمون قال : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط ــ إلا كان

(١) من الآية: ٣ ــ من سورة الواقعة .

إسقاط المكروه عنه ـ أحب إلى من تخفيفه عليه ، فإن قال : لم أقل ، كان قوله لم أقل ـ أحب إلى من ثمانية يشهدون عليه ، فإن قال: قلت ولم يعتذر ـ أبغضته من حيث أحببته . وقال : سمعت ابن عباس يقول : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط ـ إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل ؛ إن كان فوق عرفت له قدره ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه ، وإن كان دونى لم أحفل به . هذه سيرتى فى نفسى ، فمن رغب عنها فإن أرض الله واسعة .

وقال أبان بن أبى راشد القشيرى : كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مهران أودعه ، فلا يزيدنى على كلمتين ؛ اتق الله ولا يغرنك طمع ولا غضب . وقال أبو المليح عن ميمون قال : العلماء هم ضالتى فى كل بلدة ، وهم أحبتى فى كل مصر ، ووجدت صلاح قلبى فى مجالسة العلماء . وقال فى قوله تعالى : (إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب)[1] قال عَزْقاً[2] . وقال : لأن أتصدق بدرهم فى حياتى ـ أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم بعد موتى وقال : كان يقال : الذكر ذِكران ؛ ذِكر الله باللسان ، وأفضل من ذلك أن تذكره عند ما أحل وأحرم ، وعند المعصية فتكف عنها وقد أشرفت بها. وقال : ثلاث ؛ الكافر والمؤمن فيهن سواء ، الأمانة تؤديها إلى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تفى به للمؤمن والكافر . وقال صفوان، عن خلف بن حوشب عن ميمون قال : أدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء ـ فَرَقاً من ربه عز وجل .

وقال أحمد بن يزيع : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا هارون أبو محمد البربرى ، أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حيناً ثم كتب إلى عمر يستعفيه عن ذلك ، وقال : كلفتنى ما لا أطيق ، أقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق ، فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب ، واقض بما استبان لك ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلىّ ، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ـ ما قام لهم دين ولا دنيا .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام ، حدثنا جعفر بن برقان قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلياً مثل المرآة ، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره . وأما الذى يتتابع فى الذنوب؛ فإنه كلما أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ؛ فلا يبصر الشيطان من

---

(١) من الآية ١٠ ـ من سورة الزمر . (٢) أى : سريعا . وعزق : أسرع فى العدو .

أين يأتيه وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن ثابت ، حدثنا جعفر عن ميمون قال : ما أقل أكياس الناس : ألا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أدوا به ، وإلى ما قد أكبوا عليه من الدنيا ، فيقول : ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر ، لا هم لها إلا ما تجعل في أجوافها ، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال : والله إني لأراني من شرهم بعيراً واحداً . وبهذا الإسناد عنه : ما من صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر وقال : لا تعذب المملوك ولا تضربه على كل ذنب ؛ ولكن احفظ ذلك له ، فإذا عصى الله عز وجل فعاقبه على معصية الله وذكّره الذنوب التي أذنب بينك وبينه . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن برقان ، سمعت ميمون بن مهران يقول : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم من حرام ؟

وقال أبو زرعة الدارمي : حدثنا سعيد بن حفص النفيلي ، حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : الفاسق بمنزلة السبع ، فإذا كانت فيه تخليت سبيله ـ فقد خليت سبعاً على المسلمين . وقال جعفر بن برقان : قلت لميمون بن مهران : إن فلانا يستبطىء نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة في القلوب فلا بأس وإن طال المكث وقال أحمد : حدثنا ميمون الرقي ، حدثنا الحسن ـ أبو المليح عن ميمون قال : لا تجد غرما أهون عليك من بطنك أو ظهرك وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن ميمون ، حدثنا الحسن ، عن حبيب بن أبي مرزوق قال : رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له : ما هذا ؟ قال : نعم ! فلا تخبر به أحداً . وقال عبد الله بن أحمد : حدثني يحيى بن عثمان ، حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : من أساء سراً فليتب سراً ، ومن أساء علانية فليتب علانية ، فإن الله يغفر ولا يعير ، وإن الناس يعيرون ولا يغفرون .

وقال جعفر : قال ميمون : في المال ثلاث آفات : إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين كان قمينا أن لا ينجو من الثالثة ؛ ينبغي أن يكون حلالا طيبا ، فأيكم الذي يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيباً ؟ فإن سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ، فإن سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . وقال : سمعت ميمونا يقول : أهون الصوم ترك الطعام والشراب . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا يحيى بن عثمان الحربي ، حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران قال : ما نال رجل من جسيم الخير ـ نبي أو غيره ـ إلا بالصبر . وبهذا الإسناد قال : الدنيا حلوة خضرة قد حفت بالشهوات ، والشيطان عدو حاضر ، فيظن أن أمر الآخرة آجل ، وأمر الدنيا عاجل .

وقال يونس بن عبيدة . كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران ، فكتبت إليه أسأله عن أهله ، فكتب إليّ : بلغني كتابك تسألني عن أهلي ، وإنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً ، وإني أكره البلاء إذا أقبل ، فإذا أدبر لم يسرني أنه لم يكن . وأما أنت فعليك بكتاب الله ؛ فإن الناس قد بهتوا عنه ـ يعني أيسوا ـ واختاروا الأحاديث ـ أحاديث الرجال . وإياك والمرائي في الدين . قال أبو عبيد في الغريب : بهئوا به ـ مهموزاً ـ ومعناه : أنسوا به .

وقال عمر بن ميمون : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبة ، فلقي أبي شيخ فعانقه ، ومع الشيخ فتى نحو مني ، فقال له أبي : من هذا ؟ قال : ابني . فقال : كيف رضاك عنه ؟ فقال : ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه ، إلا واحدة . قال : وما هي ؟ قال : أن يموت فأوجر فيه ـ أو قال : فأحتسبه ، ثم فارقه أبي ، فقلت : من هذا الشيخ ؟ فقال : مكحول . وقال : شر الناس العيابون ، ولا يلبس الكتان إلا غني أو غويّ .

وروى الإمام أحمد عنه قال : يا ابن آدم ! خفف عن ظهرك ، فإن ظهرك لا يطيق كل هذا الذي يحمل ؛ من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وغشم هذا ، وكل هذا على ظهرك تحمله ، فخفف عن ظهرك . وقال : إن أعمالكم قليلة، فأخلصوا هذا القليل . وقال : ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم .

وروى عبد الله بن أحمد عنه أنه قرأ : (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)[1] . ثم فارق حتى بكى ، ثم قال : ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه . وقال أبو عوانة : حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا خالد ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن ميمون قال : أربع لا تكلم فيهم : علي ، وعثمان ، والقدر ، والنجوم . وقال : احذروا كل هوى يسمى بغير الإسلام .

وروى شبابة ، عن فرات بن السائب قال : سألت ميمون ؛ أعلي أفضل عندك أم أبو بكر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ، ثم قال : ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهما غيرهما ، إنهما كانا رداءي الإسلام ، ورأس الإسلام ، ورأس الجماعة . فقلت : فأبو بكر كان أول إسلاماً أم علي ؟ فقال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرا الراهب حين مرّ به . وكان أبو بكر هو الذي يختلف بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه ، وذلك كله قبل أن يولد عليّ ، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك . وروى ميمون بن مهران ، عن ابن عمر قال : قال

(١) من الآية : ٥٩ من سورة يس .

رسول الله ﷺ : « قلّ ما يوجد فى آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به » .
وروى عن ابن عمر أيضاً ، عن النبى ﷺ قال : « شر المال فى آخر الزمان المماليك » .
وروى ابن أبى الدنيا عنه قال : من طلب مرضاة الإخوان بلا شىء ـ فليصادق أهل القبور .
وقال : من ظلم أحداً ففاته أن يخرج من مظلمته ، فاستغفرَ له دُبُر كل صلاة ـ خرج من مظلمته وهذا إن شاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم . وقال ميمون : القاتل والآمر والمأمور والظالم والراضى ، كلهم فى الوزر سواء . وقال : أفضل الصبر الصبر على ما تكره نفسك ، من طاعة الله عز وجل .

روى ميمون عن جماعة من الصحابة ، وكان يسكن الرقة ـ رحمه الله تعالى .

[نافع مولى ابن عمر : أبو عبد الله المدنى ، أصله من بلاد المغرب ، وقيل : من نيسابور ، وقيل : من كابل ، وقيل : غير ذلك . روى عن مولاه عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة ، مثل : رافع بن خديج ، وأبى سعيد ، وأبى هريرة ، وعائشة ، وأم سلمة ، وغيرهم . وروى عنه خلق كثير من التابعين وغيرهم . وكان من الثقات النبلاء ، والأئمة الأجلاء ، قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال غيره : كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن . وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ، ووثقوه . ومات فى هذه السنة على المشهور](1) .

ذو الرمة الشاعر : واسمه غيلان بن عقبة بن بهيس ، من بنى عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، أبو الحارث أحد فحول الشعراء وله ديوان مشهور ، وكان يتغزل فى مَىّ بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، وكانت جميلة ، وكان هو دميم الخلق أسود اللون ، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ، ولم يكن رآها قط ولا رأته ، وإنما كانت تسمع به ويسمع بها ، ويقال : إنها كانت تنذر إن هى رأته أن تذبح جذوراً ، فلما رأته قالت : واسوأتاه واسوأتاه، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة ، فأنشأ يقول :

على وَجْه مَىّ لمحة من حلاوة وتحت الثياب العار لو كان باديا

قال : فانسلخت من ثيابها ، فقال :

ألم ترَ أنّ الماء يخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا ؟

---

(١) مابين هذين القوسين غير مثبت فى بعض النسخ .

فقالت : تريد أن تذوق طعمه ؟ فقال : إى والله . فقالت : تذوق الموت قبل أن تذوقه فأنشأ يقول :

فواضَيعة الشعر الذى راحَ وانقضى بمىّ ولم أملك ضـلال فؤاديا

قال ابن خلكان : ومن شعره السائر بين الناس ما أنشده :

إذا هبّت الأرياح من نحو جانب به أهل مىّ هاج شوق هبوبها

هوًى تذرف العينان منـه وإنما هوى كل نفس أين حل حبيبها ؟

وأنشد عند الموت :

ياقابض الأرواح فى جسمى إذا احتضرت وغافر الذنب زحزحنى عن النار

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة ومائة

فيها : غزا معاوية ، وسليمان - ابنـا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك - بلاد الروم ، وفيها : قصد شخص يقال له : عمّار بن يزيد - ثم سمّى بخداش - إلى بلاد خراسان ، ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، فاستجاب له خلق كثير ، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخُرّمية(١) الزنادقة ، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً وزعم لهم أن محمد بن علىّ يقول ذلك ، وقد كذب عليه ، فأظهر الله عليه الدولة ، فأخذ ، فجىء به إلى خالد بن عبد الله القسرى - أمير العراق وخراسان ، فأمر به ، فقطعت يده وسُلّ لسانه ، ثم صلب بعد ذلك .

وفيها : حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل - أمير المدينة . وقيل : إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك بن مروان والصحيح أنه كان قد عزل ، وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل ، وكان أمير العراق القسرى . وفيها كانت وفاة :

علىّ بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب القرشى ، الهاشمى - أبو الحسن ، ويقال : أبو محمد

وأمه : زرعة بنت مشرح بن معديكرب الكندى ، أحد الملوك الأربعة الأقيال المذكورين فى الحديث الذى رواه أحمد ، وهم : مشرح ، وحمل ، ومخوس ، وأبضعة . وأختهم : العمرّدة . وكان مولد علىّ هذا يوم قتل على بن أبى طالب ، فسماه أبوه باسمه ، وكناه بكنيته . وقيل : إنه ولد فى حياة على ، وهو الذى سماه وكناه ولقبه بأبى الأملاك ، فلما وفد على عبد الملك بن مروان أجلسه معه على السرير ، وسأله عن اسمه وكنيته ، فأخبره . فقال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ، ولد لى ولد سميته محمداً . فقال له : أنت أبو محمد ، وأجزل عطيته ، وأحسن إليه .

---

(١) فئة من الخوارج تقول بالتناسخ والإباحة .

وقد كان على هذا فى غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والمدالة والثقة ، كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركمة ، قال عمرو بن على الفلاس : كان من خيار الناس ، وكانت وفاته بالجهمة من أرض البلقاء فى هذه السنة ، وقد قارب الثمانين وقد ذكر ابن خلكان أنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر ، التى كانت تحت عبد الملك بن مروان - فطلقها . وكان سبب طلاقه إياها، أنه عض تفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت السكين فحزت من التفاحة ماءس فه منها ، فقال : ولم تفعلين هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها - وذلك لأن عبد الملك كان أبخر - فطلقها عبد الملك ، فلما تزوجها على بن عبد الله بن عباس هذا، نقم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك ، فضربه بالسياط ، وقال، إنما أردت أن تذل بنيها من الخلفاء . وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : الخلافة صائرة إلى بيته ، فوقع الأمر كذلك . وذكر المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناه : السفاح والمنصور وهما صغيران ، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه ، وأطلق له مائة وثلاثين ألفا ، وجعل على بن عبد الله يوصيه بابنيه خيرا ، ويقول : إنهما سيليان الأمر ، فجعل هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه فى ذلك إلى الحق ، فوقع الأمر كما قال .

قالوا : وقد كان على فى غاية الجمال وتمام القامة ، كان بين الناس كأنه راكب ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب . وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن يموت على هذا - قبل هذه السنة بسنوات ، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده عبد الله أبو العباس السفاح ، وكان ظهوره فى سنة اثنتين وثلاثين كما سيأتى إن شاء الله تعالى :

عمرو بن شعيب . وعبادة بن نُسىّ . وأبو صخرة جامع بن شداد . وأبو عياش المعافرى

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ففيها: غزا الوليد بن القعقاع بلاد الروم وفيها قتل أسد بن عبد الله القسرى - ملك الترك الأعظم خاقان . وكان سبب ذلك : أن أسد بن عبد الله أمير خراسان، عمل نيابة عن أخيه خالد ابن عبد الله على العراق ، ثم سار بجيوشه إلى مدينة خُتّل فافتتحها ، وتفرقت فى أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون ، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان : أن جيش أسد قد تفرق فى بلاد خُتّل ، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره فى جنوده قاصداً إلى أسد ، وتزود خاقان وأصحابه سلاحا كثيراً ، وقديداً وملحا ، وساروا فى حنق عظيم ، وجاء إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له فى جيش عظيم كثيف ، فتجهز لذلك وأخذ أهبته ، فأرسل من فوره إلى أطراف

جيشه فلما ، وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه ؛ ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعون إليه ، فرد الله كيدهم فى نحورهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ؛ وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقا على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالثأر ، فقصدوا الموضع الذى فيه أسد ، فإذا هو حى قد اجتمعت عليه العساكر من كل جانب .

وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد ، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر ، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم فى خيل دهم ، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة. فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا، وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر ، فتشاور الأتراك فيما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة — وكانوا خمسين ألفا — فيقتحمون النهر ، فضربوا بكؤساتهم ضربا شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم فى عسكرهم ، ثم رموا بأنفسهم فى النهر رمية واحدة ، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير ، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون فى معسكرهم ، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تتراءى نارهما ، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذى للمسلمين ، فقتل منهم خلقاً وأسر أمما وإبلا موقرة .

ثم إن الجيشين تواجهوا فى يوم عيد الفطر ، حتى خاف جيش أسد أن لا يصلوا صلاة العيد ، فما صلوها إلا على وَجل ، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مَرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم فى الذهاب إلى مرو أو فى لقاء خاقان ، أو فى التحصن ببلخ ؛ فنهم من أشار بالتحصن ، ومنهم من أشار بلقائه والتوكل على الله ، فوافق ذلك رأى أسد الأسد ، فقصد بجيشه نحو خاقان ، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله ، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان ، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه ، ثم ساق أسد فانتهى إلى أغنامهم فاستاقها ، فإذا هى مائة ألف وخمسون ألف شاة ، ثم التقى معهم وكان خاقان إنما معه أربعة آلاف أو نحوها ، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه[1] ، يقال له الحارث بن شريح[2] ، فهو يدلهم على عورات المسلمين ، فلما أقبل الناس هربت الأتراك فى كل جانب ، وانهزم خاقان ومعه الحارث ابن شريح يحميه ويتبعه ، فتبعهم أسد .

(١) أى انضم إليه ونفر عما كان عليه (٢) فى الطبرى : الحارث بن سريج .

فلما كان عند الظهيرة انخذل خاقان في أربعمائة من أصحابه ، عليهم الخز ومعهم الكوسات ، فلما أدركه المسلمون أمر بالكوسات ، فضربت ضرباً شديداً ، ضرب الانصراف ثلاث مرات ، فلم يستطيعوا الانصراف ، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم ، فاحتازوه بما فيه من الأمتعة العظيمة ، والأواني من الذهب والفضة ، والنساء والصبيان ، من الأتراك ، ومن معهم من الأسارى من المسلمات وغيرهم ، مما لا يحد ولا يوصف ؛ لكثرته وعظمته وقيمته وحسنه . غير أن خاقان لما أحس بالهلاك ضرب امرأته بخنجر فقتلها فوصل المسلمون إلى المعسكر ، وهي في آخر رمق تتحرك ، ووجدوا قدورهم تغلي بأطعماتهم ، وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن ، فتحصن بها ، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض الأمراء فغلبه الأمير ، فتوعده خاقان بقطع اليد ، فحنق عليه ذلك الأمير ، ثم عمل على قتله فقتله ، وتفرقت الأتراك يعدو بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضاً . وبعث أسد إلى أخيه خالد يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان ، وبعث إليه بطبول خاقان - وكانت كباراً لها أصوات كالرعد - وبشيء كثير من حواصله وأمتعته ، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأطلق للرسل أموالا جزيلة كثيرة من بيت المال . وقد قال بعض الشعراء في أسد يمدحه على ذلك[1] :

لو سرت في الأرض تقيس الأرضا   تقيسُ منها طُولها وَالعَرْضا

لم تلق خيراً مِرَّةً وَنَقْضا   من الأمير أسدٍ وأمضى

أفضى إلينا الخيرُ حتى أفضى   وَجمع الشمل وكان ارفضا

ما فاتهُ خاقان إلا رَكضا   قد فُضَّ من جُموعِهِ ما فُضّا

يا ابن سُرَيج قد لقيت حَمْضاً   حَمضا به يَشْفي صُدَاعُ المرضى

وفيها : قتل خالد بن عبد الله القسري - المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابعوه على باطله ، وكان هذا الرجل ساحراً فاجراً شيعياً خبيثاً قال ابن جرير : ثنا ابن حميد ، ثنا جرير ، عن الأعمش قال : سمعت المغيرة بن سعيد يقول : لو أردت أن أحيي عاداً أو ثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم . قال الأعمش : وكان المغيرة هذا يخرج إلى المقبرة فيتكلم ، فيرى مثل الجراد على القبور ، أو نحو هذا من الكلام . وذكر ابن جرير له غير ذلك من الأشياء التي تدل على سحره وفجوره . ولما بلغ خالداً أمْرُه أمَرَ بإحضاره ، فجيء به في ستة نفر أو سبعة نفر ، فأمر خالد فأبرز سريره إلى المسجد ، وأمر بإحضار أطناب القصب والنفط فصب فوقها ، وأمر المغيرة أن يحتضن طنبا منها ، فامتنع ، فضرب حتى احتضن منها طنبا واحداً ، وصب فوق رأسه النفط ، ثم أضرم بالنار ، وكذلك فعل ببقية أصحابه .

(١) القائل هو : ابن السجف الهاشمي ، كما في الطبري .

وفى هذه السنة ، خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ، ويلقب بكثارة ، واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة ، وقصدوا قتل خالد القسرى ، فبعث إليهم البعوث ، فكسروا الجيوش ، واستفحل أمرهم جداً لشجاعتهم وجلدهم ، وقلة نصح من يقاتلهم من الجيوش ، فردوا العساكر من الألوف المؤلفة ، ذوات الأسلحة والخيل المسومة ، هذا وهم لم يبلغوا المائة ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة هشام ، فقصدوا نحوها ، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة ، فاقتتلوا معهم قتالا عظيما ، فقتلوا عامة أصحاب بهلول الخارجى . ثم إن رجلا من جديلة يكنى أبا الموت ، ضرب بهلولا ضربة فصرعه ، وتفرقت عنه بقية أصحابه . وكانوا جميعهم سبعين رجلا ، وقد رثاهم بعض أصحابهم (١) فقال :

بُدِّلْتَ بعد أبى بِشْر وصحبته ... قوما علىَّ مع الأحزاب أعوانا

بانوا كأن لم يكونوا من صحابتنا ... ولم يكونوا لنا بالأمس خُلاَّنا

ياعينُ أذرى دموعاً منك تَهتانا ... وابكى لنـا صحبـة بانُوا وإخوانا

خَلَوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها ... وأصبحوا فى جنان الخلد جيرانا

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم ، فقاتلوا وقتلوا وقتلوا ، وجهزت إليهم العساكر من عند خالد القسرى ، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ، ولم يبق لهم باقية .

وفيها : غزا أسد القسرى بلاد الترك ، فعرض عليه ملكهم طرخان خان ألف ألف ، فلم يقبل منه شيئاً ، وأخذه قهراً فقتله صبراً بين يديه ، وأخذ مدينته وقامته وحواصله ونساءه وأمواله . وفيها : خرج الصحارىّ بن شَبيب الخارجى ، واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلا ، فبعث إليهم خالد القسرى جنداً ، فقتلوه وجميع أصحابه ، فلم يتركوا منهم رجلا واحداً . وحج بالناس فى هذه السنة : أبو شاكر ــ مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وحج معه ابن شهاب الزهرى ليعلّمه مناسك الحج ، وكان أمير مكة والمدينة والطائف ــ محمد بن هشام بن إسماعيل ، وأمير العراق والمشرق وخراسان ــ خالد القسرى ، ونائبه على خراسان بكمالها ــ أخوه أسد بن عبد الله القسرى ، وقد قيل : إنه توفى فى هذه السنة ، وقيل : فى سنة عشرين ، فالله أعلم ونائب أرمينية وأزربيجان مروان الحمار ، والله أعلم .

---

(١) هو الضحاك بن قيس كما فى الطبرى .

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمان بن هشام بلاد الروم ، وافتتح فيها حصونا وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلي تومانشاه ، وافتتحها وخرب أرضها وفيها غزا مروان بن محمد بلاد الترك وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان ، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له دُبَيلة[1] في جوفه فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين - وهم أمراء المدن الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد ، وكان فيمن قدم نائب هراة ودهقانها ، واسم دهقانها : خراسان شاه ، فقدم بهدايا عظيمة ، وتحف عزيزة ، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب وقصر من فضة ، وأباريق من ذهب وصحاف من ذهب وفضة ، وتفاصيل من حرير تلك البلاد ألوان ملونة ، فوضع ذلك كله بين يدى أسد حتى امتلأ المجلس ، ثم قام الدهقان ، لبيباً ، فامتدح أسداً بخصال حسنة ، على عقله ورياسته وعدله ومنعه أهله وخاصته - أن يظلموا أحداً من الرعايا بشيء قل أو كثر ، وأنه قهر الخاقان الأعظم ، وكان في مائة ألف ، فكسره وقتله ؛ وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال ؛ وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سروراً ؛ فأثنى عليه أسد وأجلسه ، ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال ، وما هنالك أجمع على الأمراء والأكابر بين يديه ، حتى لم يبق منه شيء ، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدُّبيلة ، ثم أفاق إفاقة ، وجيء بهدية كمثرى فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة ، فألقى إلى دهقان خراسان واحدة ، فانفجرت دُبَيلته ، وكان فيها حتفه ، واستخلف على عمله جعفر ابن حنظلة البهراني . فمكث أميراً أربعة أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار في رجب منها ، فعلى هذا تكون وفاة أسد في صفر من هذه السنة ، وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه :

نَعَى أسدَ بن عبد الله ناعٍ ... فريعَ القلبُ للملك المُطاع
ببلخٍ وافق المقدارُ يَسرى ... وما لقضاء ربك من دفاع
فجودي عينُ بالعبرات سَحًّا ... ألم يحزنْكِ تفريقُ الجماع
أتاه حمامه في جوف صيغ ... وكم بالصيغ من بطل شجاع
أتاه حمامه في جوف صِيَغٍ ... وكم بالصيغ من بطل شجاع
كتائبَ قد يُجيبون المنادي ... على جُرْدٍ مسوّمة سِراع
سُقيتَ الغيثَ إنك كنت غيثاً ... مَريعاً عند مُرتاد النِّجاع

---

(1) الدبيلة : خراج ودمل كبير يظهر في الجوف يقضي على صاحبه غالباً .

وفيها : عزل هشام ـ خالد بن عبد الله القسرى عن نيابة العراق ، وذلك أنه انحصر[1] منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه ، وأنه كان يقول عنه ابن الحمقاء ، وكتب إليه كتابا فيه غلظة ، فرد عليه هشام رداً عنيفاً ، ويقال: إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات ، حتى قيل إنه كان دخله فى كل سنة ـ ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وقيل : درهم ، ولولده يزيد بن خالد ـ عشرة آلاف ألف . وقيل : إنه وفد إليه رجل من ألزام أمير المؤمنين من قريش يقال له : ابن عمرو ، فلم يرحب به ولم يعبأ به ، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك ، وأنه حال وصول هذا الكتاب إليه يقوم من فوره بمن حوله من أهل مجلسه ، فينطلق على قدميه حتى يأتى باب ابن عمر وصاغراً ذليلا مستأذناً عليه ، متنصلا إليه مما وقع ، فإن أذن لك وإلا فقف على بابه حولا غير متحلل من مكانك ولا زائل ، ثم أمرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقاك ، وإن شاء انتصر ، وإن شاء عفا . وكتب إلى ابن عمرو يعلمه بما كتب إلى خالد ، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطاً على رأسه ، إن رأى ذلك مصلحة .

ثم إن هشاما عزل خالداً وأخفى ذلك ، وبعث البريد إلى نائبه على اليمن وهو : يوسف بن عمر ، فولاه إمرة العراق ، وأمره بالمسير إليها والقدوم عليها فى ثلاثين راكبا ، فقدموا الكوفة وقت السحر ، فدخلوها ، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالإقامة ، فقال : إلى أن يأتى الإمام ـ يعنى خالداً ـ فانتهره وأمره بالإقامة، وتقدم يوسف فصلى وقرأ (إذا وَقَعَتِ الواقِعة)[2] و(سأل سائِلٌ)[3] ثم انصرف فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما ، فاحضروا فأخذ منهم أموالا كثيرة ، صادر خالداً بمائة ألف ألف درهم ، وكانت ولاية خالد فى شوال سنة خمس ومائة ، وعزل عنها فى جمادى الأولى من هذه السنة ـ أعنى سنة عشرين ومائة ـ .

وفى هذا الشهر ـ قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد الله القسرى ، واستناب على خراسان جديع بن على الكرمانى ، وعزل جعفر بن حنظلة الذى كان استنابه أسد ، ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعا فى هذه السنة عن خراسان ، وولى عليها نصر بن سيار ، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأملاك ـ وهلة واحدة ، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه ـ لما بلغهم عتب هشام عليه ـ أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه ، فما أحب منها أخذه وما شاء ترك ، وقالوا له : لأن يذهب البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والإخراق فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل ، ففجأه العزل ، وذهب

---

(١) أى : تضايق وتألم . (٢) أول سورة الواقعة (٣) أول سورة سأل

ما كان حصله وجمعه ومنعه ، واستقرت ولاية يوسف بن عمر على العراق وخراسان ، واستقرت نيابة نصر بن سيار على خراسان ، فتمهدت البلاد ، وأمن العباد ، ولله الحمد والمنة . وقد قال سوار ابن الأشعر فى ذلك :

أضحت خُراسان بعد الخوف آمنة * من ظُلم كل غشوم الحكم جبّار
لما أتى يُوسفاً أخبارُها اقيت * اختار نصراً لها نصرَ بنَ سيّار

وفى هذه السنة: استبطأت شيعة آل العباس كتاب محمد بن على إليهم ، وقد كان عتب عليهم فى أتباعهم ذلك الزنديق الملقب بخداش ، وكان خُرّمياً. وهو الذى أحل لهم المنكرات ودنّس المحارم والمصاهرات ، فقتله خالد القسرى كما تقدم ، فعتب عليهم محمد بن على فى تصديقهم له واتباعهم إياه على الباطل ، فلما استبطأوا كتابه بعث إليهم رسولا يخبرهم أمره ، وبعثوا هم أيضاً رسولا ، فلما جاء رسولهم أعلمه محمد بماذا عتب عليهم بسبب الخُرّمى ، ثم أرسل مع الرسول كتابا مختوما ، فلما فتحوه لم يجدوا فيه سوى : بسم الله الرحمن الرحيم ، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخُرّمى . ثم أرسل رسولا إليهم فلم يصدقه كثير منهم وهموا به ، ثم جاءت من جهته عصى ملويا عليها حديد ونحاس ، فعلموا أن هذه إشارة لهم إلى أنهم عصاة ، وأنهم يختلفون كاختلاف ألوان النحاس والحديد .

قال ابن جرير : وحج بالناس فيها ـ محمد بن هشام المخزومى فيما قاله أبو معشر ، قال : وقد قيل : إن الذى حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل : ابنه يزيد بن هشام ، فالله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها : غزا مسلمة بن هشام الروم ، فافتتح مطامير ـ وهو حصن ، وافتتح مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب ، وأخذ قلاعه وخرّب أرضه ، فأذعن له بالجزية فى كل سنة بألف رأس يؤديها إليه ، وأعطاه رهناً على ذلك . وفيها : ـ فى صفر ـ قتل زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى تنسب إليه الطائفة الزيدية ، فى قول الواقدى ، وقال هشام الكلبى : إنما قتل فى صفر من سنة ثنتين وعشرين ومائة ، فالله أعلم .

وقد ساق محمد بن جرير سبب مقتله فى هذه السنة تبعاً للواقدى ، وهو : أن زيداً هذا وفد على يوسف بن عمر فسأله : هل أودع خالد القسرى عندك مالا ؟ فقال له زيد بن على : كيف

يودعني مالا وهو يشتم آبائي على منبره في كل جمعة ؟ فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئاً ، فأمر يوسف بن عمر بإحضار خالد من السجن فجيء به في عباءة ، فقال : أنت أودعت هذا شيئاً نستخلصه منه ؟ قال : لا ، وكيف وأنا أشتم أباه كل جمعه ؟ فتركه عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فعفا عن ذلك ، ويقال : بل استحضرهم فحلفوا بما حلفوا .

ثم إن طائفة من الشيعة التفت على زيد بن علي ، وكانوا نحواً من أربعين ألفاً ، فنهاه النصحاء عن الخروج ـ وهو محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ـ وقال له : إن جدك خير منك ، وقد التفت على بيعته من أهل العراق ثمانون ألفاً ، ثم خانوه أحوج ما كان إليهم ، وإني أحذرك من أهل العراق . فلم يقبل بل استمر يبايع الناس في الباطن في الكوفة ـ على كتاب الله وسنة رسوله، حتى استفحل أمره بها في الباطن ، وهو يتحول من منزل إلى منزل ، وما زال كذلك حتى دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة ، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً .

وفيها: غزا نصر بن سيار ـ أمير خراسان ـ غزوات متعددة في الترك ، وأسر ملكهم كورصول في بعض تلك الحروب وهو لا يعرفه ، فلما تيقنه وتحققه ، سأل منه كورصول أن يطلقه على أن يرسل له ألف بعير من إبل الترك ـ وهي البخاتي ـ وألف برذون ، وهو مع ذلك شيخ كبير جداً . فشاور نصر من بحضرته من الأمراء في ذلك ؛ فمنهم من أشار بإطلاقه ، ومنهم من أشار بقتله . ثم سأله نصر بن سيار: كم غزوت من غزوة ؟ فقال : ثنتين وسبعين غزوة ، فقال له نصر : ما مثلك يطلق ، وقد شهدت هذا كله ، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه ، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يجعرون ويبكون عليه ، وجذّوا لحاهم وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياماً كثيرة ، وقتلوا أنعاما كثيرة . فلما أصبح أمر نصر بإحراقه لئلا يأخذوا جثته ، فكان حريقه أشد عليهم من قتله ، وانصرفوا خائبين صاغرين خاسرين .

ثم كر نصر على بلادهم فقتل منهم خلقاً وأسر أمما لا يحصون كثرة ، وكان فيمن حضر بين يديه عجوز كبير جداً من الأعاجم أو الأتراك ، وهي من بيت مملكة ، فقالت لنصر بن سيار : كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك ؛ وزير صادق يفصل خصومات الناس ويشاوره ويناصحه ، وطباخ يصنع له ما يشتهيه ، وزوجة حسناء إذا دخل عليها مغتما فنظر إليها سرته وذهب غمه ، وحصن منيع إذا فزع رعاياه لجأوا إليه فيه ، وسيف إذا قارع به الأقران لم يخش خيانته ، وذخيرة إذا حملها فأين ما وقع من الأرض عاش بها .

وحج بالناس فيها: محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف ، ونائب العراق يوسف بن عمر ، ونائب خراسان نصر بن سيار ، وعلى أرمينية مروان بن محمد .

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب : والمشهور أنه قتل فى التى بعدها ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، القرشى ، الأموى — أبو سعيد ، وأبو الأصبغ الدمشقى .

قال ابن عساكر : وداره بدمشق فى محلة القباب عند باب الجامع القبلى . ولى الموسم أيام أخيه الوليد ، وغزا الروم غزوات ، وحاصر القسطنطينية ، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ، ثم عزله ، وتولى أرمينية . وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز وعنه عبد الملك بن أبى عثمان ، وعبيد الله بن قزعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة ، وابن أبى عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغسانى .

قال الزبير بن بكار : كان مسلمة من رجال بنى أمية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء ، وله آثار كثيرة ، وحروب ونكاية فى العدو من الروم وغيرهم . قلت : وقد فتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم . ولما ولى أرمينية غزا الترك ، فبلغ باب الأبواب ، فهدم المدينة التى عنده ، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين . وفى سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية لحاصرها ، وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . قال الأوزاعى : فأخذه وهو يغازيهم صداع عظيم فى رأسه . فبعث ملك الروم إليه بقلنسوة وقال : ضعها على رأسك يذهب صداعك ، فخشى أن تكون مكيدة ، فوضعها على رأس بهيمة ، فلم ير إلا خيراً ، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه ، فلم ير إلا خيراً ، فوضعها على رأسه ، فذهب صداعه ، ففتقها فإذا فيها سبعون سطراً هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ ﴾[1] الآية مكررة لا غير ، رواه ابن عساكر .

وقد لقى مسلمة فى حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام . فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ؛ فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلى فيه المسلمون الجمعة والجماعة . قلت : وهى آخر ما يفتحه المسلمون قبل خروج الدجال فى آخر الزمان ، كما سنورده فى الملاحم والفتن من كتابنا هذا إن شاء الله . ونذكر الأحاديث الواردة فى ذلك هناك . وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساعى مشكورة ، وغزوات متتالية

(١) من الآية : ٤١ من سورة فاطر .

منثورة . وقد افتتح حصوناً وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً . وكان فى زمانه فى الغزوات نظيرَ خالد بن الوليد فى أيامه ؛ فى كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه فى نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة وقال يوماً لنصيب الشاعر : سلنى . قال : لا . قال : ولِمَ ؟ قال : لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتى باللسان . فأعطاه ألف دينار . وقال أيضاً : « الأنبياء لا يتفانون كما يتفانى الناس[1] ما نات نبى قط » ، وقد أوصى بثلث ماله لأهل الأدب وقال : إنها صنعة جُحِفَ[2] أهلها وقال الوليد بن مسلم وغيره : توفى يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة . وقيل : فى سنة عشرين ومائة . وكانت وفاته بموضع يقال له : الحانوت . وقد رثاه بعضهم ـ وهو ابن أخيه الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ـ فقال :

أقول وما البعد إلا الردى أَمَسلم لا تبعــــدن مسلمه
فقد كنت نوراً لنا فى البلاد مضيئاً فقد أصبحت مظلمه
وَنَكْتُم موتك نخشى اليقين فأبدى اليقينَ لنا الْجَمْجَمَه

نمير بن قيس الأشعرى ـ قاضى دمشق ، تابعى جليل . روى عن حذيفة مرسلا ، وأبى موسى مرسلا ، وأبى الدرداء ، وعن معاوية مرسلا ، وغير واحد من التابعين . وحدث عنه جماعة كثيرون ؛ منهم : الأوزاعى ، وسعيد بن عبد العزيز ، ويحيى بن الحارث الذمارى . ولاه هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن بن الخشخاش العذرى ، ثم استعفى هشاماً ، فعفاه وولى مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبى مالك .

وكان نمير هذا لا يحكم باليمين مع الشاهد ، وكان يقول : الأدب من الآباء ، والصلاح من الله . قال غير واحد : توفى سنة إحدى وعشرين ومائة . وقيل : سنة ثنتين وعشرين ومائة وقيل : سنة خمس عشرة ومائة ، وهو غريب ، والله سبحانه أعلم

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة

فيها : كان مقتل زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وكان سبب ذلك : أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة ، أمرهم فى أول هذه السنة بالخروج والتأهب له ،

(١) أى : لا يعدون أنفسهم أفضل من غيرهم وسادة عليهم . (٢) أى أهملوا وأبعدوا عن المجتمع .

فشرعوا فى أخذ الأهبة لذلك فانطلق رجل يقال له : سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق ، فأخبره ـ وهو بالحيرة يومئذ ـ خبر زيد بن على هذا ، ومن معه من أهل الكوفة ؛ فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح فى طلبه ، فلما علمت الشيعة ذلك ، اجتمعوا عند زيد بن على فقالوا له : ما قولك ـ يرحمك الله ـ فى أبى بكر وعمر؟ فقال غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتى تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا : فلم تطلب إذا بدم أهل البيت ؟ فقال : إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا فعدلوا ، وعملوا بالكتاب والسنة . قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذاً ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ؛ إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم ، وإنى أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وإحياء السنن ، وإماتة البدع ، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولى ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا عنه ، ونقضوا بيعته وتركوه ، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس على قوله ـ سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة ، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية ، وفى مذهبهم حق ، وهو : تعديل الشيخين ، وباطل وهو : اعتقاد تقديم علىّ عليهما ؛ وليس علىّ مقدما عليهما ، بل ولا عثمان على أصح قولى أهل السنة الثابتة ، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك فى سيرة أبى بكر وعمر فيما تقدم .

ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقى معه من أصحابه ، فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر من هذه السنة[1] ، فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فكتب إلى نائبه على الكوفة ـ وهو الحكم ابن الصلت ـ يأمره بجمع الناس كلهم فى المسجد الجامع .

فجمع الناس لذلك فى يوم الثلاثاء سلخ المحرم ، قبل خروج زيد بيوم ، وخرج زيد ليلة الأربعاء فى برد شديد ، ورفع أصحابه النيران ، وجعلوا ينادون يا منصور[2] يا منصور ، فلما طلع الفجر ، إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلا . فجعل زيد يقول : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقيل : هم فى المسجد محصورون . وكتب الحكم إلى يوسف يعلمه بخروج زيد بن على ، فبعث إليه سرية إلى الكوفة ، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة ، وجاء يوسف بن عمر أيضاً فى طائفة كبيرة من الناس ، فالتقى بمن معه جرثومة منهم ، فيهن خمسمائة فارس ، ثم أتى الكناسة فحمل على جمع من أهل الشام فهزمهم ، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل ، وزيد فى مائتى فارس ، ولو قصد يوسف بن عمر لقتله ، ولكن أخذ ذات اليمين ، وكلما لقى طائفة هزمهم ، وجعل أصحابه ينادون : يا أهل الكوفة! اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا ، فإنكم لستم فى دين ولا عز ولا دنيا .

ثم لما أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة ، وقد قتل بعض أصحابه فى أول يوم ،

(١) أى : سنة ١٢٢ .

(٢) فى الطبرى : يا منصور أمت ـ أمت يا منصور .

فلما كان اليوم الثانى اقتتل هو وطائفة من أهل الشام ، فقتل منهم سبعين رجلا ، وانصرفوا عنه بشر حال ، وأمسوا ، فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً ، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد ، فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة ، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بنى سليم ، ثم تبعهم فى خيله ورجله حتى أخذوا على المسناة ، ثم اقتتلوا هنالك قتالا شديداً جداً ، حتى كان جنح الليل رمى زيد بسهم ، فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فوصل إلى دماغه ، فرجع ورجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا لأجل المساء والليل ، وأدخل زيد فى دار فى سكة البريد ، وجىء بطبيب ، فانتزع ذلك السهم من جبهته ، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته ، رحمه الله .

فاختلف أصحابه : أين يدفنونه ؟ فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه فى الماء . وقال بعضهم : احتزوا رأسه واتركوا جثته فى القتلى . فقال ابنه : لا والله ! لا تأكل أبى الكلاب . وقال بعضهم : ادفنوه فى العباسية . وقال بعضهم : ادفنوه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين . ففعلوا ذلك ، وأجروا على قبره الماء لئلا يعرف ، وانفتل أصحابه حيث لم يبق لهم رأس يقاتلون به ، فما أصبح الفجر ولهم قائمة ينهضون بها ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى ، هل يجد زيداً بينهم ؟. وجاء مولى لزيد سندىٌّ قد شهد دفنه ، فدل على قبره ، فأخذ من قبره . فأمر يوسف بن عمر بصلبه على خشبة بالكناسة ، ومعه نصر بن خزيمة ، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى ، وزياد النهدى . ويقال : إن زيداً مكث مصلوباً أربع سنين ، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق ، فالله أعلم .

وقد ذكر أبو جعفر ، ابن جرير الطبرى : أن يوسف بن عمر لم يعلم بشىء من ذلك ، حتى كتب له هشام بن عبد الملك : إنك لغافل ، وإن زيد بن على غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح فى طلبه ، وأعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله ، فتطلبه يوسف حتى كان من أمره ما تقدم . فلما ظهر على قبره حز رأسه ، وبعثه إلى هشام . وقام من بعده الوليد بن يزيد ، فأمر به فأنزل وحرق فى أيامه ـ قبح الله الوليد بن يزيد . فأما ابنه يحيى بن زيد بن على ، فاستجار بعبد الملك بن بشر ابن مروان ، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهدده حتى يحضره ، فقال له عبد الملك بن بشر : ما كنت لآوى مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا . فصدقه يوسف بن عمر فى ذلك ، ولما هدأ الطلب عنه سيره إلى خراسان ، فخرج يحيى بن زيد فى جماعة من الزيدية إلى خراسان ، فأقاموا بها هذه المدة .

قال أبو مخنف : ولما قتل زيد ، خطب يوسف بن عمر أهل الكوفة فتهددهم وتوعدهم وشتمهم وقال لهم فيما قال : والله لقد استأذنت أمير المؤمنين فى قتل خلق منكم ، ولو أذن لى لقتلت مقاتلتكم ، وسبيت ذراريكم ، وما صعدت لهذا المنبر إلا لأسمعكم ما تكرهون .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم ، ولم يزد ابن جرير على هذا ، وقد ذكر هذا الرجل ابن عساكر فى تاريخه الكبير فقال :

عبد الله أبو يحيى المعروف بالبطال : كان ينزل إنطاكية ، حكى عنه أبو مروان الأنطاكى ، ثم روى بإسناده : أن عبد الملك بن مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، ولّى على رؤساء أهل الجزيرة والشام - البطال ، وقال لابنه : سيّره على طلائعك ، وأمره فليعس بالليل العسكر ، فإنه أمين ثقة ، مقدام شجاع . وخرج معهم عبد الملك يشيعهم إلى باب دمشق . قال : فقدم مسلمة البطال على عشرة آلاف يكونون بين يديه ترساً من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين . قال محمد بن عائذ الدمشقى : ثنا الوليد بن مسلمة ، حدثنى أبو مروان - شيخ من أهل إنطاكية - قال : كنت أغازى مع البطال وقد أوطأ الروم ذلا ، قال البطال : فسألنى بعض ولاة بنى أمية عن أعجب ما كان من أمرى فى مغازىّ فيهم ، فقلت له : خرجت فى سرية ليلا فدفعنا إلى قرية فقلت لأصحابى : أرخوا لجم خيلكم ، ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشىء حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا فى أزقتها ، فدفعت فى أناس من أصحابى إلى بيت يزهر سراجه ، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه ، وهى تقول له : لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتشلته من سريره وقالت : خذه يا بطال ، قال : فأخذته .

وروى محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم ، عن أبى مروان الأنطاكى عن البطال قال : انفردت مرة ليس معى أحد من الجند ، وقد سمطت[1] خلفى مخلاة فيها شعير ، ومعى منديل فيه خبز وشواء[2] ، فبينا أنا أسير لعلى ألقى أحداً منفرداً ، أو أطلع على خبر ، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البقل بالخبز والشواء مع البقل ، فأخذنى إسهال عظيم قمت منه مراراً ، فخفت أن أضعف من كثرة الإسهال ، فركبت فرسى والإسهال مستمر على حاله ، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسى أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بى الإسهال فى السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان فرسى ونمت على وجهى لا أدرى أين يسير الفرس بى ، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط ، فأرفع رأسى فإذا دير ، وإذا قد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جداً ، فجعلت تقول بلسانها : أنزلوه ، فأنزلننى فغسلن عنى ثيابى وسرجى وفرسى ،

---

(١) أى : علقت . (٢) الشواء - بالكسر والضم - اللحم المشوى .

ووضعنني على سرير وعملن لي طعاماً وشرابا ، فمكثت يوما وليلة مستويا[1] ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلى حالي .

فبينا أنا كذلك إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لخطبتها ، فأخبره من كان هنالك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس ؛ فهمّ بالهجوم عليّ فمنعته المرأة من ذلك ، وأرسلت تقول له : إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم عليّ ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق .

قال البطال : فنهضت في أثرهم فهمت أن تمنعني خوفا علي منهم فلم أقبل ، وسقت حتى لحقتهم ، فحملت عليه فانفرج عنه أصحابه ، وأراد الفرار فلحقته فضربت عنقه واستلبته وأخذت رأسه مسمطاً على فرسي ، ورجعت إلى الدير ، فخرجن إلي ووقفن بين يدي ، فقلت : اركبن ، فركبن ما هنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيوش فقدمتهن إليه ، فنفلني ما شئت منهن ، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها ، فهي أم أولادي . والبطريق في لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم ، وكان أبوها بطريقاً كبيراً فيهم — يعني تلك المرأة — وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويهاديه .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولاه المصيصة، بعث البطال سرية إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرها فلم يدر ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له ، وسار حتى وصل عمورّية ، فطرق بابها ليلا فقال له البواب : من هذا ؟ قال البطال : فقلت : أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذ لي طريقاً إليه ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئتك في رسالة فمر هؤلاء فلينصرفوا ، فأمر من عنده فذهبوا . قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة علي وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترطت سيفي وضربت به رأسه صفحاً وقلت له : أنا البطال فأصدقني عن السرية التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة ، فأخبرني ما خبرها ، فقال : هم في بلادي ينتهبون ما تهيأ لهم ، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادي كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان ، فأعطاني الأمان ، فقلت : ايتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاؤا بطعام فوضع لي ، فأكلت فقمت لأنصرف فقال لأصحابه : أخرجوا بين يدي رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يدي ، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكر فإذا أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة . فهذا أغرب ما جرى .

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا ، أنه رأى البطال وهو قافل من حجته ، وكان قد شغل

(١) أي : فاقد الوعي والقوة لا أحس شيئاً .

بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائماً الحج ثم الشهادة ، فلم يتمكن من حجة الإسلام إلا في السنة التي استشهد فيها - رحمه الله تعالى . وكان سبب شهادته ، أن « ليون » ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذي البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطال يخبره بذلك ، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك - وكان الأمير مالك ابن شبيب - وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران ، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالا شديداً والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفا عليه من الروم ، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غالطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة ، فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون ، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها ، وأصبح « اليون » فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق ، فقال له « ليون » : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تقتل الأبطال ، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال « ليون » : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك ، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار . إذ جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، ففر « ليون » في جيشه الخبيث هاربا راجعاً إلى بلاده ، قبحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصن بها .

قال خليفة بن خياط : كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقال ابن جرير : في سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقال ابن حسان الزيادي : قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة ، قيل : - وقد قاله غيره - إنه قتل هو والأمير عبد الوهاب بن بخت في ثلاث عشرة ومائة - كما ذكرنا ذلك ، فالله أعلم ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا في هذه السنة ، فالله أعلم .

قلت : فهذا ملخص ابن عساكر في ترجمة البطال مع تفصيله الأخبار وإطلاعه عليها . وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة والبطال ، والأمير عبد الوهاب ، والقاضي عقبة ، فكذب وافتراء ووضع بارد ، وجهل وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي . كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة ، وكذلك سيرة البكري والدنف ، وغير ذلك . والكذب المفتعل في سيرة البكري أشد إثما وأعظم جرما من غيرها ؛ لأن واضعها

يدخل فى قول النبى ﷺ : « من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

إياس الذكى : وهو إياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن دريد بن أوس بن سواه بن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . هكذا نسبه خليفة بن خياط ، وقيل : غير ذلك فى نسبه ، وهو أبو واثلة المزنى قاضى البصرة ، وهو تابعى ولجده صحبة ، وكان يضرب المثل بذكائه . روى عن أبيه عن جده مرفوعا فى الحياء ؛ عن أنس وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ونافع وأبى مجلز . وعنه الحمادان وشعبة والأصمعى وغيرهم . قال عنه محمد بن سيرين : إنه لفهم ـ إنه لفهم . وقال محمد بن سعد والعجلى وابن معين والنسائى : ثقة . زاد ابن سعد : وكان عاقلا من الرجال فطنا . وزاد العجلى : وكان فقيهاً عفيفا وقدم دمشق فى أيام عبد الملك بن مروان ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، ومرة أخرى حين عزله عدى بن أرطاة عن قضاء البصرة .

قال أبو عبيدة وغيره : تحاكم إياس وهو صبى شاب ، وشيخ ـ إلى قاضى عبد الملك بن مروان بدمشق ، فقال له القاضى : إنه شيخ وأنت شاب فلا تساوه فى الكلام ، فقال إياس : إن كان كبيراً فالحق أكبر منه ، فقال له القاضى : اسكت ، فقال : ومن يتكلم بحجتى إذا سكت ؟ فقال القاضى : ما أحسبك تنطق بحق فى مجلسى هذا حتى تقوم ، فقال إياس : أشهد أن لا إله إلا الله . زاد غيره فقال القاضى : ما أظنك إلا ظالما له ، فقال : ما على ظن القاضى خرجت من منزلى ، فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره خبره ، فقال : اقض حاجته وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس .

وقال بعضهم : لما عزله عدى بن أرطاة عن قضاء البصرة ـ فرّ منه إلى عمر بن عبد العزيز فوجده قد مات ، فكان يجلس فى حلقة جامع دمشق ، فتكلم رجل من بنى أمية فرد عليه إياس ، فأغلظ له الأموى فقام إياس ، فقيل للأموى : هذا إياس بن معاوية المزنى ، فلما عاد من الغد اعتذر له الأموى وقال : لم أعرفك ، وقد جلست إلينا بثياب السوقة ، وكلمتنا بكلام الأشراف فلم نحتمل ذلك .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا نعيم بن حماد ، ثنا ضمرة عن أبى شوذب قال : كان يقال : يولد فى كل مائة سنة رجل تام العقل ، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم . وقال العجلى : دخل على إياس ثلاث نسوة ، فلما رآهن قال : أما إحداهن فرضع ، والأخرى بكر ، والأخرى

ثيب ، فقيل له : بم علمت هذا ؟ فقال : أما المرضع فكلما قعدت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فكلما دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيب فكلما دخلت نظرت ورمت بعينها .
وقال يونس بن صعلب : ثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان ، ثنا حماد بن سلمة ، سمعت إياس بن معاوية يقول : أعرف الليلة التي ولدت فيها ؛ وضعت أمي على رأسي جفنة . وقال المدائني : قال إياس بن معاوية لأمه : ما شيء سمعتيه وأنت حامل بي وله جلبة شديدة ؟ قالت : ذاك طست من نحاس سقط من فوق الدار إلى أسفل ، ففزعت فوضعتك تلك الساعة .

وقال أبو بكر الخرائطي عن عمر بن شبة النميري قال : بلغني أن إياساً قال : ما يسرني أن أكذب كذبة يطلع عليها أبي معاوية . وقال : ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية[1] ، قلت لهم : أخبروني من الظالم ما هو؟ قالوا : أخذ الإنسان ما ليس له ، قلت : فإن الله له كل شيء . قال بعضهم عن إياس قال : كنت في الكتاب وأنا صبي فجعل أولاد النصارى يضحكون من المسلمين ، ويقولون : إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة ، فقلت للفقيه — وكان نصرانياً — : ألست تزعم أن في الطعام ما ينصرف في غذاء البدن ؟ قال : بلى ، قلت : فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم ؟ فقال له معلمه : ما أنت إلا شيطان .

وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بعقله ، قد ورد به الحديث الصحيح كما سنذكره إن شاء الله في أهل الجنة ؛ أن طعامهم ينصرف جشاء وعرقاً كالمسك ، فإذا البطن ضامر . وقال سفيان : وحين قدم إياس واسط جاءه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها ، فقال له : أتأذن لي أن أسألك ؟ قال : سل ، وقد ارتبت حين استأذنت ، فسأله عن سبعين مسألة يجيبه فيها ، ولم يختلفا إلا في أربع مسائل ، رده إياس إلى قوله ، ثم قال له إياس : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم ! قال : أتحفظ قوله : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)[2] ؟ قال : نعم ! قال : وما قبلها وما بعدها ؟ قال : نعم ! قال : فهل أبقت هذه الآية لآل شبرمة رأياً ؟

وقال عباس عن يحيى بن معين : حدثنا سعيد بن عامر بن عمر بن علي قال : قال رجل لإياس ابن معاوية : يا أبا واثلة ! حتى متى يبقى الناس ؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون ؟ فقال لجلسائه : أجيبوه ، فلم يكن عندهم جواب ، فقال إياس : حتى تتكامل العدتان : عدة أهل الجنة ، وعدة أهل النار .

---

(١) فئة من الخوارج تجحد القدر . (٢) من الآية ٣ — من سورة المائدة .

وقال بعضهم : اكترى إياس بن معاوية من الشام قاصداً الحج ، فركب معه فى المحارة[1] غيلان القدرى ، ولا يعرف أحدهما صاحبه ، فمكثا ثلاثا لا يكلم أحدهما الآخر ، فلما كان بعد ثلاث تحادثا فتعارفا ، وتعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه ، لمباينة ما بينهما فى الاعتقاد فى القدر ، فقال له إياس : هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة : (الحمدُ للهِ الذى هَدانا لهذا وَما كُنا لنهتدى لولاَ أنْ هَدانا اللهُ)[2] ، ويقول أهل النار : (رَبنا غَلبتْ علينا شقوتنا)[3] ، وتقول الملائكة : (سُبْحَانَكَ لاَ عِلمَ لنَا إلاَّ مَا عَلمتنا)[4] ، ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم ما فيه إثبات القدر . ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز، فناظر بينهما فقهره إياس ، وما زال يحصره فى الكلام حتى اعترف غيلان بالعجز وأظهر التوبة ، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذبا ، فاستجاب الله منه فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك، ولله الحمد والمنة .

ومن كلام إياس الحسن : لأن يكون فى فعال الرجل فضل عن مقاله خير من أن يكون فى مقاله فضل عن فعاله وقال سفيان بن حسين : ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاويه ، فنظر فى وجهى وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا ! قال : السند والهند والترك ؟ قلت : لا . قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال : فلم أعد بعدها وقال الأصمعى عن أبيه : رأيت إياس بن معاوية فى بيت ثابت البنانى ، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب ، يلون عمامته ، وهو قد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه ، وقد قال له بعضهم : ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك ، فقال : بحق أتكلم أم بباطل ؟ فقيل : بل بحق ، فقال : كلما كثر الحق فهو خير . ولامه بعضهم فى لباسه الثياب الغليظة فقال : إنما ألبس ثوبا يخدمنى ولا ألبس ثوبا أخدمه . وقال الأصمعى : قال إياس بن معاوية : إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان ، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه . وقال بعضهم : سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام . فقال الرجل : فأخبرنى عن الماء ، فقال : حلال . قال : فالكسور[5] ، قال : حلال ، قال : فالتمر؟ قال : حلال، قال فما باله إذا اجتمع حرم ؟ فقال إياس : أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك ؟ قال : لا ، قال : فهذه الحفنة من التبن ؟ قال : لا توجعنى ، قال : فهذه الغرفة من الماء ؟ قال : لا توجعنى شيئاً ، قال : أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طيناً ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك ؟ قال : إى والله وتقتلنى ، قال : فكذلك تلك الأشياء لو اجتمعت .

(١) المحارة : رأس الورك الذى يدور فيه الفخذ. (٢) من الآية : ٤٣ من سورة الأعراف .
(٣) من الآية : ١٠٦ من سورة المؤمنون . (٤) من الآية : ٣٢ من سورة البقرة .
(٥) جمع كسر وهو العظم ليس عليه كثير لحم، ولعله الكسر بالتحريك وهو المنقود إذا أكل ما عليه والتى

وقال المدائنى : بعث عمر بن عبد العزيز عدى ابن أرطاة على البصرة نائباً ، وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشنى ، فأيهما كان أفقه فليوله القضاء ، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى : أيها الرجل: سل فقيهى البصرة ، الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعنى بالقاسم - لأنه كان يأتيهما ، فقال القاسم لعدى : والله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفضل منى وأفقه منى ، وأعلم بالقضاء ، فإن كنتُ صادقاً فوله ، وإن كنت كاذباً فما ينبغى أن تولى كاذباً القضاء . فقال إياس : هذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله ، فقال عدى : أما إذ فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء فمكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم ، وإذا تبين له الحق حكم به . ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستعفاه القضاء ، فولى عدىّ بعده الحسن البصرى.

قالوا : لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيوب : لقد رموها بحجرها ، وجاءه الحسن وابن سيرين فسلما عليه ، فبكى إياس وذكر الحديث « القضاة ثلاثة ، قاضيان فى النار وواحد فى الجنة » فقال الحسن (وداوُدَ وسُليمانَ إذ يَحكمان فى الحَرث) إلى قوله (وكُلاً آتينا حُكماً وعِلماً)[1] قالوا : ثم جلس للناس فى المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات ، فما قام حتى فصل سبعين قضية ، حتى كان يشبه بشريح القاضى . وروى أنه كان إذا أشكل عليه شىء بعث إلى محمد بن سيرين فسأله منه . وقال إياس : إنى لأكلم الناس بنصف عقلى ، فإذا اختصم إلى اثنان جمعت لهما عقلى كله . وقال له رجل : إنك لتعجب برأيك ، فقال : لولا ذلك لم أقض به . وقال له آخر : إن فيك خصالا لا تعجبنى ، فقال : ما هى ؟ فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة . فقال له : أيهما أكثر ؟ الثلاثة أو الاثنان ؟ قال : الثلاثة . فقال : ما أسرع ما فهمت وأجبت ، فقال : أو يجهل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستى لكل أحد ، فلأن أجلس مع من يعرف لى قدرى - أحب إلى من أن أجلس مع من لا يعرف لى قدرى . وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقينى لا ما أقيه أنا .

قالوا ، وتحاكم إليه اثنان فادعى أحدهما عند الآخر مالا ، وجحده الآخر ، فقال إياس للمودع : أين أودعته ؟ قال : عند شجرة فى بستان ، فقال : انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر ، وفى رواية أنه قال له : هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتى بورق منها ؟ قال : نعم ! قال

(١) من الآيتين ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنبياء :

فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعد إلى المكان ؟ فقال : لا — بعد أصلحك الله . فقال له : قم يا عدو الله فأد إليه حقه ، وإلا جعلتك نكالا . وجاء ذاك الرجل فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدني ، فقال له : اذهب الآن وائتني غدا ، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نر له أمينا نضمه عنده إلا أنت فضمه عندك في مكان حريز . فقال له : سمعا وطاعة ، فقال له ، اذهب الآن وائتني غدا ، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له : أعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي ، فقال له ذلك فخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله بكماله ، فجاء إلى إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد وجاء أن يودع فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خائن . وتحاكم إليه اثنان في جارية فادعى المشترى أنها ضعيفة العقل ، فقال لها إياس : أي رجليك أطول ؟ فقالت : هذه ، فقال لها : أتذكرين ليلة ولدت ؟ فقالت نعم . فقال للبائع رد رد .

وروى ابن عساكر ، أن إياسا سمع صوت امرأة من بيتها فقال : هذه امرأة حامل بصبي ، فلما ولدت ولدت كما قال ، فسئل بم عرفت ذلك ؟ قال : سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل ، وفي صوتها صَحَل[1] فعلمت أنه غلام . قالوا : ثم مر يوماً ببعض المكاتب فإذا صبي هنالك فقال : إن كنت أدري شيئاً فهذا الصبي ابن تلك المرأة ، فإذا هو ابنها . وقال مالك عن الزهري عن أبي بكر قال : شهد رجل عند إياس فقال له : ما اسمك ؟ فقال أبو الغنفر فلم يقبل شهادته . وقال الثوري عن الأعمش : دعوني إلى إياس فإذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ في آخر . وقال إياس : كل رجل لا يعرف عيب نفسه فهو أحمق ، فقيل له : ما عيبك ؟ فقال كثرة الكلام . قالوا : ولما ماتت أمه بكى عليها ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة فغلق أحدهما . وقال له أبوه : إن الناس يلدون أبناء وولدت أنا أبا .

وكان أصحابه يجلسون حوله ويكتبون عنه الفراسة ، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت ، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه ، ثم قام فنظر في وجه رجل ثم عاد ، فقال لأصحابه : هذا فقيه كتاب قد أبق له غلام أعور فهو يتطلبه ، فقاموا إلى ذلك الرجل فسألوه فوجدوه كما قال إياس ، فقالوا لإياس : من أين عرفت ذلك ؟ فقال : لما جلس

(١) أي رقة : والضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له .

على دكة الحانوت علمت أنه ذو ولاية ، ثم نظرت فإذا هو لا يصلح إلا لفقهاء المكتب ، ثم جعل ينظر إلى كل من مرّ به ، فعرفت أنه فقد غلاماً ، ثم لما قام فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر ، عرفت أن غلامه أعور .

وقد أورد ابن خلكان أشياء كثيرة فى ترجمته ؛ من ذلك : أنه شهد عنده رجل فى بستان ، فقال له : كم عدد أشجاره ؟ فقال له : كم عدد جذوع هذا المجلس الذى أنت فيه من مدة سنين ؟ فقلت : لا أدرى ، وأقررت شهادته .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة

ذكر المدائنى عن شيوخه : أن خاقان ملك الترك ؛ لما قتل فى ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان ، تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يغير على بعض ، وبعضهم يقتل بعضا ، حتى كادت أن تخرب بلادهم ، واشتغلوا عن المسلمين .

وفيها : سأل أهل الصّغد من أمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ أن يردهم إلى بلادهم ، وسألوه شروطاً أنكرها العلماء ؛ منها : أن لا يعاقب من ارتد منهم عن الإسلام ، ولا يؤخذ أسير المسلمين منهم ، وغير ذلك . فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم فى المسلمين ، فعاب عليه الناس ذلك ؛ فكتب إلى هشام فى ذلك ، فتوقف . ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على معاندتهم المسلمين كان ضررهم أشد ـ أجابهم إلى ذلك . وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفداً إلى أمير المؤمنين يسأل منه أن يضم إليه نيابة خراسان ، وتكلموا فى نصر بن سيار بأنه وإن كان شهماً شجاعاً ، إلا أنه قد كبر وضعف بصره ، فلا يعرف الرجل إلا من قريب بصوته ، وتكلموا فيه كلاماً كثيراً ، فلم يلتفت إلى ذلك هشام ، واستمر به على إمرة خراسان وولايتها .

قال ابن جرير : وحج بالناس فيها : يزيد بن هشام بن عبد الملك ، والعمال فيها من تقدم ذكرهم فى التى قبلها .

وتوفى فى هذه السنة : ربيعة بن يزيد القصير من أهل دمشق ، وأبو يونس سليمان بن جبير ، وسماك بن حرب ، ومحمد بن واسع بن حيان. وقد ذكرنا تراجمهم فى كتابنا «التكميل». ولله الحمد .

[قال محمد بن واسع : أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وقال : خمس خصال تميت القلب : الذنب على الذنب . ومجالسة الموتى . قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غنى مترف ، وسلطان جائر ؟ وكثرة مشافهة النساء ، وحديثهن ، ومخالطة أهله .

وقال مالك بن دينار : إنى لأغبط الرجل يكون عيشه كفافاً فيقنع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله عندى ، من يصبح جائعاً وهو عن الله راض . وقال : ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا اعوججت قوّمنى ، وصلاة فى جماعة يحمل عنى سهوها وأفوز بفضلها ، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه مِنة ، ولا لله علىّ فيه تبِعة .

وروى رواد بن الربيع قال : رأيت محمد بن واسع بسوق يَزور وهو يعرض حماراً له للبيع ، فقال له رجل : أترضاه لى ؟ فقال : لو رضيته لم أبعه .

ولما ثقل محمد بن واسع كثر عليه الناس فى العيادة ، قال بعض أصحابه : فدخلت عليه ، فإذا قوم قعود وقوم قيام ، فقال : ماذا يُغنى هؤلاء عنى إذا أخذ بناصيتى وقدمى غداً وألقيت فى النار ؟ ! وبعث بعض الخلفاء مالا مستكثراً إلى البصرة ليفرق فى فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه ، فلم يقبله ، ولم يلتمس منه شيئاً . وأما مالك بن دينار فإنه قبل ما أمر له به ، واشترى به أرقاء وأعتقهم ، ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً ، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان ، فقال له : يا مالك ! قبلت جوائز السلطان ؟ فقال له مالك : يا أبا عبد الله ! سل أصحابى ماذا فعلت منه ، فقالوا له : إنه اشترى به أرقاء وأعتقهم ، فقال له : سألتك بالله ! أقلبك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يصلوك . فقام مالك وحثى على رأسه التراب وقال : إنما يعرف الله محمد بن واسع ، إنما مالك حمار ، إنما مالك حمار . وكلام محمد بن واسع كثير جداً ، رحمه الله [١] .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها : غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم ، فلقى ملك الروم « اليون » فقاتله ، فسلم سليمان ، وغنم . وفيها : قدم جماعة من دعاة بنى العباس من بلاد خراسان ـ قاصدين إلى مكة ، فمروا بالكوفة ، فبلغهم أن فى السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسرى ، قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا بهم فى السجن ، فدعوهم إلى البيعة لبنى العباس ، وإذا عندهم من ذلك جانب كبير ، فقبلوا منهم . ووجدوا عندهم فى السجن أبا مسلم الخراسانى ، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن معقل العجلى ـ وكان محبوساً ـ فأعجبهم شهامته ، وقوته ، واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر ، فاشتراه بكر بن ماهان منه بأربعمائة درهم ، وخرجوا به معهم ،

---

[١] ما بين القوسين زيادة فى بعض النسخ .

فاستندبوه لهذا الأمر ، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب ، ونتج ما يوجهونه إليه ، ثم كان من أمره ما سنذكره ، إن شاء الله تعالى ، فيما بعد .

قال الواقدى : ومات فى هذه السنة محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو الذى يدعو إليه دعاة بنى العباس ، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح والصحيح أنه إنما توفى فى التى بعدها .

قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، ومعه امرأته أم سلمة بنت هشام بن عبد الملك . وقيل : إنما حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل ، قاله الواقدى والأول ذكره ابن جرير ، والله أعلم . وكان نائب الحجاز محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على باب أم سلمة ، ويهدى إليها الألطاف والتحف ، ويعتذر إليها من التقصير ، وهى لا تلتفت إلى ذلك . ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها .

وفيها توفى :

القاسم بن أبى بَزَّة[1] : أبو عبد الله المكى القارىء ، مولى عبد الله بن السائب ، تابعى جليل ، روى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة وعنه جماعة ، ووثقه الأئمة . توفى فى هذه السنة على الصحيح ، وقيل : بعدها بسنة . وقيل : سنة أربع عشرة . وقيل : سنة خمس عشرة ، فالله أعلم .

الزهرى : محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة ، أبو بكر القرشى الزهرى ، أحد الأعلام من أئمة الإسلام . تابعى جليل ، سمع غير واحد من التابعين ، وغيرهم .

روى الحافظ ابن عساكر عن الزهرى قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد ، فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندى عيال كثيرة ، فجئت جامعها ، فجلست فى أعظم حلقة ، فإذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال : إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة - وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئاً ، وقد شذ عنه فى أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب - فقلت : إنى أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ؛ فأخذنى فأدخلنى على عبد الملك ، فسألنى ممن أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتى ، وعيالى ؛ فسألنى : هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم ، والفرائض والسنن . فسألنى عن ذلك كله ، فأجبته . فقضى دينى وأمر لى بجائزة ، وقال لى : اطلب العلم ، فإنى أرى لك عيناً حافظة وقلباً ذكياً .

---

(١) فى نسخة : القاسم بن أبى يسرة . وفى أخرى : القاسم بن مرة .

قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه ، فبلغني أن امرأة بقباء رأت رؤيا عجيبة ، فأتيتها ، فسألتها عن ذلك ، فقالت : إن بعلي غاب وترك لنا خادماً وداجناً[1] ونخيلات ، نشرب من لبنها ، ونأكل من ثمرها ، فبينما أنا بين النائمة واليقظى رأيت كأن ابني الكبير - وكان مشتداً[2] - قد أقبل ، فأخذ الشفرة ، فذبح ولد الداجن ، وقال : إن هذا يضيق علينا اللبن ، ثم نصب القدر وقطعها ووضعها فيه ، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه - وأخوه صغير كما قد جاء - ثم استيقظت مذعورة ، فدخل ولدي الكبير ، فقال : أين اللبن ؟ فقلت : يا بني ! شربه ولد الداجن . فقال : إنه قد ضيق علينا اللبن ، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه في القدر . فبقيت مشفقة خائفة مما رأيت . فأخذت ولدي الصغير فغيبته في بعض بيوت الجيران ، ثم أقبلت إلى المنزل وأنا مشفقة جداً مما رأيت ، فأخذتني عيني فنمت ، فرأيت في المنام قائلا يقول : مالك مغتمة ؟ فقلت : إني رأيت مناماً فأنا أحذر منه . فقال : يا رؤيا ! يا رؤيا ! فأقبلت امرأة حسناء جميلة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ قالت : ما أردت إلا خيراً . ثم قال : يا أحلام ! يا أحلام ! فأقبلت امرأة دونها في الحسن والجمال ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : ما أردت إلا خيراً . ثم قال : يا أضغاث ! يا أضغاث ! فأقبلت امرأة سوداء شنيعة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : إنها امرأة صالحة ؛ فأحببت أن أغمها ساعة . ثم استيقظت ، فجاء ابني فوضع الطعام وقال : أين أخي ؟ فقلت : درج إلى بيوت الجيران ، فذهب وراءه ، فكأنما هدي إليه ، فأقبل به يقبله ، ثم جاء فوضعه وجلسنا جميعاً ، فأكلنا من ذلك الطعام .

ولد الزهري في سنة ثمان وخمسين في آخر خلافة معاوية ، وكان قصيراً قليل اللحية ، له شعرات طوال ، خفيف العارضين . قالوا : وقد قرأ القرآن في نحو من ثمان وثمانين يوماً ، وجالس سعيد بن المسيب ثمان سنين ، تمس ركبته ركبته . وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستقي له الماء المالح ، ويدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح ، يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري قال : كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين . وقال أبو إسحاق : كان الزهري يرجع من

---

(١) الداجن : الشاة التي تألف البيوت . (٢) أي عليها - والشد : العدو .

عنه عروة، فيقول لجارية عنده فيها لكنة : ثنا عروة، ثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه ، فتقول له الجارية: والله ما أدرى ما تقول ، فيقول لها: اسكتى لكاع ؛ فإنى لا أريدك ، إنما أريد نفسى .
ثم وفد على عبد الملك بدمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دينه وفرض له فى بيت المال ، ثم كان بعدُ من أصحابه وجلسائه ، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده : الوليد ، وسليمان ، وكذا عند عمر بن عبد العزيز ، وعند يزيد بن عبد الملك . واستقضاه يزيد مع سليمان بن حبيب . ثم كان حظيا عند هشام ، وحج معه وجعله معلم أولاده ـ إلى أن توفى فى هذه السنة ، قبل هشام بسنة .

وقال ابن وهب : سمعت الليث يقول : قال ابن شهاب : ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته . قال : وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفأرة ، ويقول : إنه ينسى ، وكان يشرب العسل ويقول : إنه يذكى ، وفيه يقول فايد بن أقرم .

زر ذا وأثن على الكريم محمد واذكر فواضله على الأصحاب
وإذا يقال مَن الجواد بماله قيل : الجواد محمد بن شهاب
أهل المدائن يعرفون مكانه وربيع ناديه على الأعراب
يشرى وفاء جفانه ويمدها بكسور انتاج وفتق لباب

وقال ابن مهدى : سمعت مالكا يقول : حدث الزهرى يوماً بحديث ، فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال : أتستفهمنى ؟ ما استفهمت عالما قط ، ولا رددت على عالم قط ، ثم جعل ابن مهدى يقول : فتلك الطوال وتلك المغازى .

وروى يعقوب بن سفيان عن هشام بن خالد السلامى ، عن الوليد بن مسلم ، عن سعيد ـ يعنى ابن عبد العزيز ـ أن هشام بن عبد الملك سأل الزهرى أن يكتب لبنيه شيئاً من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها ، ثم إن هشاما قال للزهرى : إن ذلك الكتاب ضاع ، فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث ، فأخرج هشام الكتاب الأول فإذا هو لم يغادر حرفا واحداً ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه . وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت أحداً أحسن سوقاً للحديث ـ إذا حدث ـ من الزهرى. وقال سفيان بن عيينة ، عن عمرو ابن دينار : ما رأيت أحداً أنص للحديث من الزهرى ، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده ، وما الدراهم والدنانير عند الزهرى ـ إلا بمنزلة البعر قال عمرو بن دينار : ولقد جالست جابرا وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ـ فما رأيت أحداً أسيق للحديث من الزهرى .
وقال الإمام أحمد : أحسن الناس حديثا وأجودهم إسنادا ـ الزهرى . وقال النسائى : أحسن

الأسانيد الزهري، عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي، عن رسول الله ﷺ . وقال سعيد عن الزهري : مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ، ومن الشام إلى الحجاز ، فما كنت أسمع حديثا أستطرفه . وقال الليث : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت : ما يحسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة ـ كان حديثه بدعا جامعا ، وكان يقول : اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك ، وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة . قال الليث : وكان الزهري أسخى من رأيت ؛ يعطي كل من جاء وسأله ، حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف[1] . وكان يطعم الناس الثريد ويسقيهم العسل ، وكان يستمر على شراب العسل كما يستمر أهل الشراب على شرابهم ، ويقول : اسقونا وحدثونا ، فإذا نعس أحدهم يقول له : ما أنت من سُمّار قريش ، وكانت له قبة معصفرة ، وعليه ملحفة معصفرة ، وتحته بساط معصفر . وقال الليث قال يحيى بن سعيد : ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب .

وقال عبد الرزاق : أنبأ معمر قال : قال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب ؛ فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه ، وكذا قال مكحول . وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري ، فقيل له : ولا الحسن ؟ فقال : ما رأيت أعلم من الزهري . وقيل لمكحول : من أعلم مَن لقيت ؟ قال : الزهري ، قيل : ثم من ؟ قال الزهري . وقال مالك : كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج . وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة . محدثو أهل الحجاز ثلاثة : الزهري ، ويحيى بن سعيد ، وابن جريج وقال علي بن المديني : الذين أفتوا أربعة ؛ الزهري ، والحكم ، وحماد ، وقتادة ، والزهري أفقههم عندي . وقال الزهري : ثلاثة إذا كن في القاضي فليس بقاض ، إذا كره اللاوم وأحب المحامد ، وكره العزل . وقال أحمد بن صالح : كان يقال : فصحاء زمانهم ؛ الزهري ، وعمر بن عبد العزيز ، وموسى بن طلحة ، وعبيد الله - رحمهم الله . وقال مالك عن الزهري : أنه قال : إن هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله ﷺ ، وأدب رسول الله به أمته ـ أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدي إليه ، فمن سمع علما فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

وقال محمد بن الحسين عن يونس عن الزهري قال . الاعتصام بالسنة نجاة ، وقال الوليد عن

---

(١) أي اقترض . والسلف ـ محركة ـ القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض ، وكل عمل صالح قدمته .

الأوزاعى عن الزهرى قال : أمرّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت وقال محمد بن إسحاق عن الزهرى : إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، وفى رواية : أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب ؛ فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله النسيان والكذب ، وهو أشد الغوائل . وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد، عن محمد بن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى قال : القراءة على العالم والسماع عليه سواء ، إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى قال : إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب . وقد قضى عنه هشام مرة ثمانين ألف درهم ، وفى رواية سبعة عشر ألفاً ، وفى رواية عشرين ألفاً ، وقال الشافعى : عتب رجاء بن حيوة على الزهرى فى الإسراف وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك ، فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهرى أن يقصر ، ثم مر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ! ما هذا بالذى فارقتنا عليه ، فقال له الزهرى : انزل فإن السخى لا تؤدبه التجارب . وقد أنشد بعضهم فى هذا المعنى .

له سحائب جود فى أنامله ... أمطارها الفضة البيضاء والذهب
يقول فى العسر إن أيسرت ثانية ... أقصرت عن بعض ما أعطى وما أهب
حتى إذا عاد أيام اليسار له ... رأيت أمواله فى الناس تنتهب

وقال الواقدى : ولد الزهرى سنة ثمان وخمسين ، وقدم فى سنة أربع وعشرين ومائة إلى أمواله بثلاث[1] بشعب زبدا ، وأقام بها فمرض هناك ومات، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق، وكانت وفاته لسبع عشرة من رمضان فى هذه السنة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، قالوا : وكان ثقة كثير الحديث والعلم والرواية ، فقيها جامعا وقال الحسين بن المتوكل العسقلانى : رأيت قبر الزهرى بشعب زبدا من فلسطين مسنما مجصصا ، وقد وقف الأوزاعى يوماً على قبره فقال :

يا قبر كم فيك من علم ومن حلم * يا قبر كم فيك من علم ومن كرم * وكم جمعت روايات وأحكاما

وقال الزبير بن بكار : توفى الزهرى بأمواله بشعب زبدا ليلة الثلاثاء لسبع عشر ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة ـ عن ثنتين وسبعين سنة . ودفن على قارعة الطريق ليدعو له المارة . وقيل : إنه توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة وقال أبو معشر : سنة خمس وعشرين ومائة . والصحيح الأول ، والله أعلم .

---

(١) ثلاث ـ كسحاب ـ اسم موضع .

فصل[1]

وروى الطبرانى عن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرنى صالح ابن كيسان قال . اجتمعت أنا والزهرى ، ونحن نطلب العلم ، فقلنا : نحن نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء عن النبى ﷺ ، ثم قال لى : هلمّ فلنكتب ما جاء عن أصحابه ، فإنه سنة ، فقلت : إنه ليس بسنة ، فلا نكتب . قال: فكتب ما جاء عنهم ولم أكتب، فأنجح وضيعت . وروى الإمام أحمد عن معمر قال : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهرى ، حتى قتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزانته يقول : من علم الزهرى . وروى عن الليث بن سعد قال : وضع الطست بين يدى ابن شهاب ، فتذكر حديثاً ، فلم تزل يده فى الطست حتى طلع الفجر وصححه . وروى أصبغ بن الفرج ، عن بن وهب ، عن يونس عن الزهرى قال : العلم واد ، فإذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه ، فإنك لا تقطعه حتى يقطع بك .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى تغلب ، حدثنا الزبير بن بكار ، حدثنى محمد بن الحسن ابن زبالة ، عن مالك بن أنس عن الزهرى قال : خدمت عبيد الله بن عتبة ، حتى إن كان خادمه ليخرج فيقول : من بالباب ؟ فتقول الجارية : غلامك الأعيمش ، فتظن أنى غلامه ، وإن كنت لأخدمه حتى أستقى له وضوءه . وروى عبد الله بن أحمد، عن محمد بن عباد ، عن الثورى عن مالك ابن أنس ،أراه عن الزهرى . قال : تبعت سعيد بن المسيب ثلاثة أيام فى طلب حديث . وروى الأوزاعى عن الزهرى قال: كنا نأتى العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه . وقال سفيان: كان الزهرى يقول : حدثنى فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول كان عالما . وقال مالك : أول من دون العلم ابن شهاب . وقال أبو المليح : كان هشام هو الذى أكره الزهرى على كتابة الحديث ، فكان الناس يكتبون بعد ذلك . وقال رشيد بن سعد : قال الزهرى : العلم خزائن وتفتحها المسائل وقال الزهرى : كان يصطاد العلم بالمسألة ، كما يصاد الوحش . وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم ، وقال: إنما يذهب العلم النسيان ، وترك المذاكرة . وقال : إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ، ولم تظفر منه بشىء ، ولكن خذه مع الأيام والليالى ، أخذاً رفيقاً تظفر به . وقال : ما أحدث الناس مروءة ، أحب إلىّ من الفصاحة . وقال : العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ، ويكرهه مؤنثوهم . ومر الزهرى على أبى حازم وهو يقول : قال رسول الله ﷺ ، فقال : مالى أرى أحاديث ليس لها خطم[2] ولا أزمة ؟ . وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من العلم .

---

(١) هذا الفصل زيادة فى بعض النسخ . (٢) الخطم : الخطب الجليل : والأزمة : الشدة .

وقال ابن مسلم أبى عاصم : حدثنا دحيم ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن القاسم بن هزان ، أنه سمع الزهرى يقول : لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به ، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى . وقال ضمرة عن يونس عن الزهرى قال : إياك وغلول الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها . وروى الشافعى عن الزهرى قال : حضور المجلس بلا نسخة ذُل . وروى الأصمعى عن مالك ابن أنس عن ابن شهاب قال : جلست إلى ثعلبة بن أبى صعير ، فقال : أراك تحب العلم ؟ قلت : نعم ! قال : فعليك بذاك الشيخ ـ يعنى سعيد بن المسيب ـ قال : فلزمت سعيداً سبع سنين ، ثم تحولت عنه إلى عروة ، ففجرت ثَبَج[1] بحره . وقال الليث : قال ابن شهاب : ما صبر أحد على العلم صبرى ، وما نشره أحد قط نشرى .

فأما عروة بن الزبير فبئر لا تكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس ، فذهب اسمه كل مذهب . وقال مكى بن عبدان : حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الله الأويسى ، حدثنا مالك ابن أنس : أن ابن شهاب سأله بعض بنى أمية ، عن سعيد بن المسيب ، فذكر عله بخير ، وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك سعيداً ، فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلم على سعيد ، فلم يرد عليه ولم يكلمه ، فلما انصرف سعيد مشى الزهرى معه ، فقال : مالى سلمت عليك فلم تكلمنى ؟ ماذا بلغك عنى ! وما قلت إلا خيراً ؟ قال له : ذكرتنى لبنى مروان . وقال أبو حاتم : حدثنا مكى بن عبدان ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنى عطاف ابن خالد المخزومى ، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبى فروة عن ابن شهاب قال : أصاب أهل المدينة حاجة ـ زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد ، وقد خيل إلى أنه قد أصابنا أهل البيت من ذلك ـ مالم يصب أحداً من أهل البلد ، وذلك لخبرتى بأهلى ، فتذكرت : هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة ، أرجو إن خرجت إليه أن أصيب عنده شيئاً ؟ فما علمت من أحد أخرج إليه . ثم قلت : إن الرزق بيد الله عز وجل . ثم خرجت حتى قدمت دمشق ، فوضعت رحلى ، ثم أتيت المسجد ، فنظرت إلى أعظم حلقة رأيتها وأكبرها فجلست فيها ، فبينا نحن على ذلك ، إذ خرج رجل من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، كأجسم الرجال وأجملهم وأحسنهم هيئة ، فجاء إلى المجلس الذى أنا فيه فتحنحنوا له ـ أى أوسعوا ـ فجلس فقال : لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله ، قالوا : ما هو ؟ قال : كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل ، يذكر أن ابناً لمصعب بن الزبير من أم ولد مات ، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثاً منه ، فمنعها عروة بن الزبير ، وزعم أنه لا ميراث لها ،

(١) الثبج : ما بين الكاهل إلى الظهر ـ ووسط الشىء ومعظمه .

فتوم أمير المؤمنين حديثا فى ذلك سمعه من سعيد بن المسيب ، يذكر عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى أمهات الأولاد ، ولا يحفظه الآن ، وقد شذ عنه ذلك الحديث

قال ابن شهاب : فقلت : أنا أحدثه به ، فقام إلى قبيصة حتى أخذ بيدى ، ثم خرج حتى دخل الدار على عبد الملك ، فقال : السلام عليك . فقال له عبد الملك محييا : وعليك السلام فقال قبيصة : أندخل ؟ فقال عبد الملك : ادخل . فدخل قبيصة على عبد الملك ، وهو آخذ بيدى ، وقال : هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث الذى سمعته من ابن المسيب فى أمهات الأولاد . فقال عبد الملك : إيه . قال الزهرى : فقلت : سمعت سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أمرَ بأمهات الأولاد أن يقوَّمن فى أموال أبنائهن بقيمة عدل ، ثم يعتقن فمكث عمر بذلك صدراً من خلافته ، ثم توفى رجل من قريش كان له ابن من أم ولد ، وقد كان عمر يعجب بذلك الغلام . فمرَّ ذلك الغلام على عمر فى المسجد بعد وفاة أبيه بليال ، فقال له عمر : ما فعلت يا ابن أخى فى أمك ؟ قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خيرونى بين أن يسترقوا أمى[1] وبين . فقال عمر : أولست إنما أمرت فى ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأياً وما أمرت بأمر إلا قاتم فيه ثم قام فجلس على المنبر ، فاجتمع الناس إليه حتى إذا رضى من جماعتهم قال : أيها الناس ! إنى قد كنت أمرت فى أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث رأى غير ذلك ، فأيما امرىء كان عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات وهى حرة لا سبيل له عليها

فقال لى عبد الملك : من أنت ؟ قلت : أنا محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب . فقال : أما والله إن كان أبوك لأباً نعاراً فى الفتنة مؤذياً لنا فيها قال الزهرى : فقلت : يا أمير المؤمنين ! قل كما قال العبد الصالح : (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ)[2]. فقال : أجل ! (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ! افرض لى فإنى منقطع عن الديوان فقال : إن بلدك ما فرضنا فيه لأحد منذ كان هذا الأمر ثم نظر إلى قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه ، فكأنه أومأ إليه أن افرض له ، فقال : قد فرض إليك أمير المؤمنين . فقلت : إنى والله ما خرجت من عند أهلى إلا وهم فى شدة وحاجة ما يعلمها إلا الله ، وقد عمت الحاجة أهل البلد . قال : قد وصلك أمير المؤمنين . قال : قلت : يا أمير المؤمنين ! وخادم يخدمنا ، فإن أهلى ليس لهم خادم إلا أختى ، فإنها الآن تعجن وتخبز وتطحن . قال : قد أخدمك أمير المؤمنين .

---

(١) كذا بالأصل ، وفيه نقص ظاهر . (٢) من الآية : ٩٢ من سورة يوسف .

وروى الأوزاعي عن الزهري : أنه روى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » . فقلت للزهري : ما هذا ؟ فقال : من الله العلم ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم ، أمرّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت . وعن ابن أخي ابن شهاب ، عن عمه قال : كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لبيد بن ربيعة التي يقول فيها :

إنّ تقوى ربنا خيـــــر نَفَلْ وبإذنِ اللهِ رَيثي والعَجل

أحمـــــد الله فلا ندّ له بيديه الخـــــير ما شاء فعل

من هـداه سبل الخير اهتدى ناعم البـــال ومن شاء أضَل

وقال الزهري : دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة منزله ، فإذا هو مغتاظ ينفخ ، فقلت : مالي أراك هكذا ؟ فقال : دخلت على أميركم آنفاً ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ ومعه عبد الله بن عمرو بن عثمان ، فسلمت عليهما ، فلم يردّا عليّ السلام ، فقلت :

لا تَعجبا أن تُؤتيا فتكلما فما حشي الأقوام شرّاً من الكبر

وما تراب الأرض منه خلقتما وفيها المعاد والمصير إلى الحشر

فقلت : يرحمك الله !! مثلك في فقهك وفضلك وسنك تقول الشعر ؟! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ . وجاء شيخ إلى الزهري فقال : حدثني . فقال : إنك لا تعرف اللغة . فقال الشيخ : لعلي أعرفها . فقال : فما تقول في قول الشاعر :

صريع نَدَامى يرفع الشَّرب رأسه وقد مات منه كل عضو ومفصل

ما المفصل ؟ قال : اللسان . قال : عُد عليّ أحدثك . وكان الزهري يتمثل كثيراً بهذا :

ذهب الشباب فلا يعود جُمَانا[1] وكأن ما قد كان لم يك كانا

فطويت كفي يا جُمَان على العصا وكفى جمان بطيهـا حدثانا

وكان نقش خاتم الزهري : محمد يسأل الله العافية . وقيل لابن أخي الزهري : هل كان عمك يتطيب ؟ قال : كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهري . وقال : استكثروا من شيء لا تمسه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وامتدحه رجل مرة ، فأعطاه قميصه ، فقيل له : أتعطي على كلام الشيطان ؟ فقال : إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر . وقال سفيان : سئل الزهري عن الزاهد . فقال : من لم يمنع الحلال شكره ، ولم يغلب الحرام صبره . وقال سفيان : قالوا للزهري : لو أنك الآن في آخر عمرك أقمت بالمدينة ، فقعدت إلى مسجد رسول الله ﷺ ، ودرجت

---

(١) الجمان : اللؤلؤ .

وجاسنا إلى عمود من أعمدته ، فذكرت الناس وعلمتهم ؟ فقال : لو أنى فعلت ذلك لوطىء عقبى ، ولا ينبغى لى أن أفعل ذلك حتى أزهد فى الدنيا ، وأرغب فى الآخرة . وكان الزهري يحدث : أنه هلك فى جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبيا ، ماتوا من الجوع والقمل ، كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا ، ولا يلبسون إلا ما عرفوا . وكان يقول : العبادة هى الورع والزهد ، والعلم هو الحسنة ، والصبر هو احتمال المكاره ، والدعوة إلى الله على العمل الصالح] .

وممن توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك ، كما أورده ابن عساكر :

بلال بن سعد بن تميم السكونى - أبو عمرو . وكان من الزهاد الكبار ، والعباد الصوام القوام . روى عن أبيه - وكان أبوه له صحبة - وعن جابر ، وابن عمر ، وأبى الدرداء ، وغيرهم . وعنه جماعات منهم : أبو عمرو الأوزاعى ، وكان الأوزاعى يكتب عنه ما يقوله من الفوائد العظيمة فى قصصه ووعظه . وقال : ما رأيت واعظاً قط مثله . وقال أيضاً : ما بلغنى عن أحد من العبادة ما بلغنى عنه ؛ كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة . وقال غيره - وهو الأصمعى : كان إذا نعس فى ليل الشتاء ، ألقى نفسه فى ثيابه فى البركة ، فعاتبه بعض أصحابه فى ذلك ، فقال : إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم . وقال الوليد بن مسلم : كان إذا كبر فى المحراب سمعوا تكبيره من الأوزاع . قلت : وهى خارج باب الفراديس . وقال أحمد بن عبد الله العجلى : هو شامى تابعى ثقة.

وقال أبو زرعة الدمشقى : كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص ، وقد اتهمه رجاء بن حَيوة بالقدر حتى قال بلال يوماً فى وعظه : رب مسرور مغرور ، ورب مغرور لا يشعر ، فويل لمن له الويل وهو لا يشعر ، يأكل ، ويشرب ، ويضحك ، وقد حق عليه فى قضاء الله أنه من أهل النار ، فياويل لك روحاً ! يا ويل لك جسداً ! فلتبك ولتبك عليك البواكى لطول الأبد .

وقد ساق ابن عساكر شيئاً حسناً من كلامه فى مواعظه البليغة ؛ فمن ذلك قوله : والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها ، زاهدكم راغب ، وعالمكم جاهل ، ومجتهدكم مقصر . وقال أيضاً : أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله ، وأخبرك بعيب فيك - أحب إليك ، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً . وقال أيضاً : لا تكن ولياً لله فى العلانية ، وعدوه فى السر . ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات فى العلانية ، وصديقهم فى السر . ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين ؛ فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر . وقال أيضاً : أيها الناس ! إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للبقاء ، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار .

وقال أيضاً : عباد الرحمن ! إنكم تعملون فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال إلى دار مقام ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلا تنفعن . عباد الرحمن ! لو قد غفرت خطايا كم الماضية - لكان فيما تستقبلون لكم شغلا ، ولو عملتم بما تعلمون - لكان لكم مقتدا ومنتجعا . عباد الرحمن ، أما ما وكلتم به فتضيعونه ، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه ، ما هكذا نعت الله عباده الموقنين .

أذوو عقول فى الدنيا وبله فى الآخرة ؟ وعمى عما خُلقتم له بصراء فى أمر الدنيا ؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته ، فكذلك اشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه ، عباد الرحمن ! هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم قد تقبل منكم ؟ أو شيئاً من خطاياكم قد غفر لكم ؟ (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)(١) ، والله لو عجل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم ما فرض عليكم . أترغبون فى طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون فى جنة أكلها دائم وظلها ، وعرضها عرض السموات والأرض (تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)(٢) ، وقال أيضاً : الذكر ذكران ، ذكر الله باللسان حسن جميل ، وذكر الله عند ما أحل وحرم أفضل . عباد الرحمن ! يقال لأحدنا : تحب أن تموت ؟ فيقول : لا ! فيقال له : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول : سوف اعمل ، فلا تحب أن تموت ، ولا تحب أن تعمل ، وأحب شىء إليه يحب أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه . عباد الرحمن ! إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها ، فما يزال يمنيه الشيطان ، ويزين له - حتى ما يرى شيئاً دون الجنة ، مع إقامته مع معاصى الله

عباد الرحمن ! قبل أن تعملوا أعمالكم انظروا ماذا تريدون بها ، فإن كانت خالصة فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، فإنه قال : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)(٣) ، وقال أيضاً : إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ، يقبل المقبل ، ويدعو المدبر ، وقال أيضاً : إذا رأيت الرجل متحرجاً لحوحا مماريا معجبا برأيه ـ فقد تمت خسارته . وقال الأوزاعى : خرج الناس بدمشق يستسقون ، فقام بهم بلال بن سعد فقال : يا معشر من حضر ! ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك

(١) من الآية : ١١٧ من سورة المؤمنون . (٢) من الآية : ٣٥ من سورة الرعد .

(٣) من الآية ١٠ من سورة فاطر .

قلت : (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)[1] ، وقد أقررنا بالإساءة فاعف عنا واغفر لنا . قال : فسقوا يومهم ذلك ، وقال أيضاً : سمعته يقول : لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا جنّهم الليل كانوا رهبانا . وسمعته أيضاً يقول : لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى من عصيت . وسمعته يقول : مَن بادأك بالود فقد استرقك بالشكر . وكان من دعائه : اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ومضلات الفتن . وقال الأوزاعي عنه أنه قال : عباد الرحمن ! لو أنتم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها ، ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا ـ لكفاكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل . وقال : إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها ، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة .

ترجمة الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن ، وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي ـ وهو مروان الحمار ، آخر خلفاء بني أمية كان شيخه الجعد بن درهم ، أصله من خراسان ، ويقال : إنه من موالي بني مروان ، سكن الجعد دمشق ، وكان له بها دار بالقرب من القلاسيين إلى جانب الكنيسة ، ذكره ابن عساكر . قلت : وهي محلة من الخواصين اليوم ، غربيها عند حمام القطانين الذي يقال له : حمام قلينس .

قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ـ زوج ابنته ، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله ﷺ ـ عن يهودي باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري ، وقيل الترمذي ، وقد أقام ببلخ ، وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران ، حتى نفي إلى ترمذ ، ثم قتل الجهم بأصبهان ، وقيل : بمرو ؛ قتله نائبها سلم بن أحوز ـ رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً ، وأخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبي داود عن بشر ، وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن ، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه . ثم إن خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة ؛ وذلك أن خالداً خطب الناس فقال في خطبته تلك : أيها الناس ! ضحوا يقبل الله ضحايا كم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا . ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم نزل فذبحه في أصل المنبر .

---

(١) من الآية : ٩١ من سورة التوبة .

وقد ذكر هذا غير واحد من الحفاظ ؛ منهم : البخاري ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي ، وعبد الله ابن أحمد ، وذكره ابن عساكر في التاريخ ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه ، وأنه كان كلما راح إلى وهب يغتسل ويقول : أجمع للعقل ، وكان يسأل وهبا عن صفات الله عز وجل ، فقال له وهب يوما : ويلك يا جعد ! اقصر المسألة عن ذلك ، إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك ، وأن له عينا ما قلنا ذلك ، وأن له نفسا ما قلنا ذلك ، وأن له سمعا ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ، ثم قتل . ذكره ابن عساكر ، وذكر في ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف — ويروى لعمران بن حطان :

ليث علي وفي الحروب نعامة ● فتخاء[1] تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ● بل كان قلبك في جناحي طائر .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا رزق الله بن موسى ، ثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك ، ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » ، وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي كريب عن ابن أبي فديك ، عن عبد الملك بن سعيد بن زيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب ، عن الزهري به . قلت : وهذا حديث غريب منكر ، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري — تكلم فيه ، وضعفه علي بن الحسين بن الجنيد . وكذا تكلم في الراوي عنه أيضاً . والله أعلم .

وفيها : غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك — الصائفة من بلاد الروم ، وفي ربيع الآخر منها توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر وفاته وترجمته — رحمه الله : هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي — أمير المؤمنين . وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي ، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين ، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد التي يقال لها : النورية الكبيرة ، وتعرف بدار القبابين — يعني الذين يبيعون القباب وهي الخيام ، فكانت تلك المحلة داره ، والله أعلم . وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه

(١) الفتخاء : اللينة الجناح .

يزيد بن عبد الملك بعهد منه إليه ، وذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة ؛ وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة ، وكان جميلا أبيض أحول يخضب بالسواد ، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولوا الخلافة . وقد كان عبد الملك رأى فى المنام كأنه بال فى المحراب أربع مرات ، فدس إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها ، ففسرها له بأنه يلى الخلافة من ولده أربعة ، فوقع ذلك ، فكان هشام آخرهم . وكان فى خلافته حازم الرأى جماعا للأموال يبخل ، وكان ذكيا مدبرا ، له بصر بالأمور جليلها وحقيرها ، وكان فيه حلم وأناة ، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال : أتشتمنى وأنت خليفة الله فى الأرض ؟ فاستحيا وقال : اقتص منى بدلها ــ أو قال بمثلها ــ فقال : إذاً أكون سفيها مثلك ، قال : فخذ عوضا ، قال : لا أفعل ، قال : فاتركها لله ، قال : هى لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لا أعود إلى مثلها .

وقال الأصمعى : أسمع رجل هشاما كلاما فقال له : أتقول لى مثل هذا وأنا خليفتك ؟ وغضب مرة على رجل فقال له : اسكت وإلا ضربتك سوطا ، وكان على بن الحسين قد اقترض من مروان بن الحكم مالا ــ أربعة آلاف دينار ، فلم يتعرض له أحد من بنى مروان ، حتى استخلف هشام فقال : ما فعل حقنا قبلك ؟ قال : موفور مشكور ، فقال : هو لك .

[قلت : هذا الكلام فيه نظر ؛ وذلك أن على بن الحسين مات سنة الفقهاء ، وهى سنة أربع وتسعين ، قبل أن يلى هشام الخلافة بإحدى عشرة سنة ، فإنه إنما ولى الخلافة سنة خمس ومائة ، فقول المؤلف : إن أحداً من خلفاء بنى مروان لم يتعرض لمطالبة على بن الحسين حتى ولى هشام فطالبه بالمال المذكور ــ فيه نظر ولا يصح ؛ لتقدم موت علىّ على خلافة هشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم][1] .

وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن على وابنه يحيى ــ أمر شديد ، وقال : وددت أنى افتديتهما بجميع ما أملك . وقال المدائنى عن رجل من حمى ، من بشر مولى هشام قال : أتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه وقرنه ، فبكى الشيخ ، قال بشر : فضربه ، قال : أترانى أبكى للضرب ، إنما أبكى لاحتقارك البربط حتى سميته طنبورا . وأغلظ لهشام رجل يوما فى الكلام فقال : ليس لك أن تقول هذا لإمامك . وتفقد أحد ولده يوم الجمعة فلم يجده ، فبعث إليه ما لك لم تشهد الجمعة ؟ فقال : إن بغلتى عجزت عنى ، فبعث إليه ــ أما يمكنك المشى ؟ ومنعه أن يركب سنة ، وأن يشهد الجمعة ماشيا .

(١) ما بين القوسين زيادة فى المصرية .

وذكر المدائنى : أن رجلا أهدى إلى هشام طيرين ، فأوردها السفير إلى هشام ، وهو جالس على سرير فى وسط داره ، فقال له : ارسلهما فى الدار، فأرسلهما ، ثم قال : جائزتى يا أمير المؤمنين، فقال : ويحك ! وما جائزتك على هدية طيرين ؟ خذ أحدهما ، فجعل الرجل يسعى خلف أحدهما . فقال : ويحك ! ما بالك ؟ فقال : أختار أجودهما . قال : وتختار أيضاً الجيد وتترك الردىء ؟ ثم أمر له بأربعين أو خمسين درهما . وذكر المدائنى عن قَحْزم كاتب يوسف بن عمر ، قال : بعثنى يوسف إلى هشام بياقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرابعة[1] ـ جارية خالد بن عبد الله القسرى ـ مشترى الياقوتة ثلاثة وسبعون ألف دينار . قال : فدخلت عليه وهو على سرير فوقه فرش لم أر رأس هشام من علو تلك الفرش ، فأوريتها له . فقال : كم زنتها ؟ فقلت : إن مثل هذه لا مثل لها، فسكت . قالوا : ورأى قوماً يفرطون الزيتون ، فقال : ألقطوه لقطاً ، ولا تنفضوه نفضاً ، فتتفقأ عيونه ، وتتكسر غصونه . وكان يقول : ثلاثة لا يضمن الشريف ؛ تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل . وقال أبو بكر الخرائطى : يقال : إن هشاماً لم يقل من الشعر سوى هذا البيت :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيـــــه عليك مقال

وقد روى له شعر غير هذا . وقال المدائنى عن ابن يسار الأعرجى : حدثنى ابن أبى بجيلة ، عن عِقَال بن شبّة قال : دخلت على هشام ، وعليه قباء فنك أخضر ، فوجهنى إلى خراسان ، ثم جعل يوصينى ، وأنا أنظر إلى القَبَاء ، ففطن . فقال : مالك ؟ قلت : عليك قباء فنك أخضر ، [وكنت رأيت عليك مثله] قبل أن تلى الخلافة ، فجعلت أتأمل : هذا هو ذاك أم غيره ؟ قال : والله الذى إلهَ غيره هو ذاك ، ما لى قباء غيره ، وما ترون من جمعى لهذا المال وصونه إلا لكم . قال عقال : وكان هشام محشواً عقلا .

وقال عبد الله بن علىّ ـ عم السفاح : جمعتُ دواوين بنى أمية ، فلم أر أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . وقال المدائنى عن هشام بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشد نظراً فى أصحابه ودواوينه ، ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم ـ من هشام ، وهو الذى قتل غيلان القدرى ، ولما أحضر بين يديه قال له : ويحك ! قل ما عندك . إن كان حقا اتبعناه ، وإن كان باطلا رجعت عنه . فناظره ميمون بن مهران . فقال لميمون أشياء . فقال له : أيعصى الله كارهاً ؟ فسكت غيلان . فقيده حينئذ هشام وقتله . وقال الأصمعى ، عن أبى الزناد ، عن منذر بن أبى ثور قال : أصبنا فى خزائن هشام اثنى عشر ألف قميص كلها قد أثر بها .

(١) فى الطبرى : الرائقة .

وشكى هشام إلى أبيه ثلاثة أمور : أنه يهاب الصعود إلى المنبر ، والثانية : قلة تناول الطعام ، والثالثة : أن عنده فى القصر مائة جارية من حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن . فكتب إليه أبوه : أما صعودك إلى المنبر ، فإذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى مؤخر الناس ، فإنه أهون عليك ، وأما قلة الطعام فمر الطباخ فليكثر الألوان ، فملك أن تتناول من كل لون لقمة ، وعليك بكل بيضاء بضة ، ذات جمال وحسن . وقال أبو عبد الله الشافعى : لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة قال : أحب أن أخلو بها يوماً لا يأتينى فيه خبر غم ، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور فقال : ولا يوماً واحداً ؟ ! وقال سفيان بن عيينة : كان هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، ثنا حسين بن زيد ، عن شهاب بن عبد ربه ، عن عمر بن على قال : مشيت مع محمد بن على - يعنى ابن الحسين بن على بن أبى طالب - إلى داره عند الحمام ، فقلت له : إنه قد طال ملك هشام وسلطانه ، وقد قرب من العشرين سنة ، وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، فزعم الناس أنها العشرون . فقال : ما أدرى ما أحاديث الناس ، ولكن أبى حدثنى عن أبيه عن على عن النبى ﷺ قال : « لن يعمر الله ملكا فى أمة نبى مضى قبله مابلغ ذلك النبى من العمر فى أمته » فإن الله عمر نبيه ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة وعشراً بالمدينة .

وقال ابن أبى خيثمة : ليس حديث فيه توقيت غير هذا . قرأه يحيى بن معين على كتابى ، فقال : من حدثك به ؟ فقلت : إبراهيم ، فتلهف أن لا يكون سمعه وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن أحمد بن زهير ، عن إبراهيم بن المنذر الحزامى وروى مسلم بن إبراهيم ، ثنا القاسم بن الفضل ، حدثنى عباد بن المرا الفتكى ، عن عاصم بن المنذر بن الزبير ، عن عبد الله بن الزبير أنه سمع علياً يقول : هلاك ملك بنى أمية على رجل أحول - يعنى هشاماً .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا ، عن عمر بن أبى معاذ النميرى ، عن أبيه ، عن عمرو بن كليع ، عن سالم - كاتب هشام بن عبد الملك قال : خرج علينا يوماً هشام وعليه كآبة ، وقد ظهر عليه الحزن ، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! مالى أراك هكذا ؟ فقال : مالى لا أكون ، وقد زعم أهل العلم بالنجوم أنى أموت إلى ثلاث وثلاثين من يومى هذا . قال : فكتبنا ذلك . فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءنى رسوله فى الليل يقول : احضر معك دواء للذبحة ، وكانت قد أصابته قبل ذلك ، فاستعمل منه فعوفى فذهبت إليه ومعى ذلك الدواء ، فتناوله وهو فى وجع شديد ، واستمر فيه عامة الليل . ثم قال : يا سالم ! اذهب إلى منزلك ، فقد وجدت خفة ، وذر الدواء عندى ، فذهبت فما هو إلا أن وصلت إلى منزلى حتى سمعت الصياح عليه ، فجئت ، فإذا هو قد مات .

وذكر غيره : أن هشاماً نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله ، فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له ولما مات جاءت الخزنة فختموا على حواصله ، وأرادوا تسخين الماء ، فلم يقدروا له على فحم حتى استعاروا له . وكان نقش خاتمه « الحكم للحكم الحكيم » .

وكانت وفاته بالرصافة يوم الأربعاء لست بقين(١) من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن بضع وخمسين سنة . وقيل : إنه جاوز الستين . وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي ولى الخلافة بعده . وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة ، وسبعة أشهر ، وأحد عشر يوماً . وقيل : وثمانية أشهر وأيام ، فالله أعلم .

وقال ابن أبي فديك : ثنا عبد الملك بن زيد ، عن مصعب ، عن الزهري ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » قال ابن أبي فديك : زينتها نور الإسلام وبهجته . وقال غيره : يعني الرجال ، والله أعلم .

قلت : لما مات هشام بن عبد الملك ـ مات مُلك بني أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله ، واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس ، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً ، وسلبوهم الخلافة ، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ذلك مبسوطاً مقدراً في مواضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

بحمد الله قد تم الجزء التاسع من البداية والنهاية ، ويليه الجزء العاشر

وأوله : خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

---

(١) في الطبري : لست ليال خلون

فهرس الجزء التاسع من البداية والنهاية لابن كثير



البداية والنهاية

في التاريخ

للامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل

ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ



الجزء العاشر

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي



خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق

قال الواقدي : بويع له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وقال هشام بن الكلبي : بويع له يوم السبت في ربيع الآخر ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة . وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا ، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخلطاء السوء ومجالس اللهو ، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمّره على الحج سنة ست عشرة ومائة ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه ، حتى يقال إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فيه كلب فسمع صوته فأحالوا ذلك على الجمال فضرب على ذلك .

قالوا : واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهي وغير ذلك من المنكرات ، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفا من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك ، فلما تحقق عمه ذلك منه نهاه مراراً فلم ينته ، واستمر على حاله القبيح ، وعلى فعله الردىء ، فعزم عمه على خلعه من الخلافة — وليته فعل — وأن يولي بعده مسلمة بن هشام ، وأجابه إلى ذلك جماعة من الامراء ، ومن أخواله ، ومن أهل المدينة ومن غيرهم ، وليت ذلك تم . ولكن لم ينتظم حتى قال هشام يوما للوليد : ويحك ! والله ما أدرى أعلى الاسلام أنت أم لا ، فانك لم تدع شيئا من

المنكرات إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر . فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائل عن ديننا * ديني على دين أبي شاكر
نشربها صرفا وممزوجة * بالسخن أحيانا وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يسمى أبا شاكر ، وقال له : تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد أن أرقيك إلى الخلافة ، وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار ، وقسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال مولى لأهل المدينة :

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها * ليس بزنديق ولا كافر

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد ما كان يتعاطاه من الفواحش والمنكرات ، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد ، ففر منه الوليد إلى الصحراء ، وجعلا يتراسلان بأقبح المراسلات ، وجعل هشام يتوعده وعيداً شديداً ، ويتهدده ، ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البرية ، فلما كانت الليلة التي قدم في صبيحتها عليه البرد بالخلافة ، قلق الوليد تلك الليلة قلقا شديداً ، وقال لبعض أصحابه : ويحك قد أخذني الليلة قلق عظيم فاركب لعلنا نبسط ، فسارا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به ، من كتبه إليه بالتهديد والوعيد ، ثم رأيا من بعد رهجا وأصواتا وغبارا ، ثم انكشف ذلك عن برد يقصدونه بالولاية ، فقال لصاحبه : ويحك ! إن هذه رسل هشام ، اللهم اعطنا خيرها ، فلما اقتربت البرد منه وتبينوه ترجلوا إلى الارض وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة ، فبهت وقال : ويحكم أمات هشام ؟ قالوا : نعم ، قال : فمن بعثكم ؟ قالوا : سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل ، وأعطوه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن أحوال الناس وكيف مات عمه هشام ، فأخبروه . فكتب من فوره بالاحتياط على أموال هشام وحواصله بالرصافة وقال :

ليت هشاما عاش حتى يرى * مكياله الأوفر قد طبعا
كلناه بالصاع الذي كاله * وما ظلمناه به إصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعة * أحله الفرقان لي أجمعا

وقد كان الزهري يحث هشاما على خلع الوليد هذا ويستنهضه في ذلك ، فيحجم هشام عن ذلك خوف الفضيحة من الناس ، ولئلا تتنكر قلوب الأجناد من أجل ذلك ، وكان الوليد يفهم ذلك من الزهري ويبغضه ويتوعده ويتهدده ، فيقول له الزهري : ما كان الله ليسلطك علي يافاسق ، ثم مات الزهري قبل ولاية الوليد ، ثم فر الوليد من عمه إلى البرية فلم يزل بها حتى مات ، فاحتاط على أموال

عنه ثم ركب من فوره من البرية وقصد دمشق ، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق ، وجاءته الوفود ، وكتب إليه مروان بن محمد - وهو إذ ذاك نائب أرمينية - يبارك له فى خلافة الله له على عباده والتمكين فى بلاده ، ويهنئه بموت هشام وظفره به ، والتحكم فى أمواله وحواصله ، ويذكر له أنه جدد البيعة له فى بلاده ، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك ، ولولا خوفه من الثغر لاستناب عليه وركب بنفسه شوقا إلى رؤيته ، ورغبة فى مشافهته ، ثم إن الوليد سار فى الناس سيرة حسنة بادى الرأى وأمر باعطاء الزمنى والمجذومين والعميان لكل إنسان خادما ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد فى أعطيات الناس ، ولاسيما أهل الشام والوفود ، وكان كريما ممدحاً شاعراً مجيداً ، لا يسأل شيئاً قط فيقول لا ، ومن شعره قوله يمدح نفسه بالكرم :.

ضمنت لكم إن لم تعقنى عوائق * بان سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق معا وزيادة * وأعطية منى إليكم تبرّع
محرَّمكم ديوانكم وعطاؤكم * به يكتب الكتّاب شهراً وتطبع

وفى هذه السنة عقد الوليد البيعة لابنه الحكم ثم عثمان ، على أن يكونا وليى العهد من بعده ، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر أمير العراق وخراسان ، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيار ، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمة بليغة طويلة ، ساقها ابن جرير بكمالها ، واستوثق للوليد الممالك فى المشارق والمغارب ، وأخذت البيعة لولديه من بعده فى الآفاق ، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان ، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردها إليه كما كانت فى أيام هشام ، وأن يكون نصر بن سيار ونوابه من تحت يده ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله ، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف . فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل ، وألف وصيفة وشيئا كثيراً من أباريق الفضة والذهب ، وغير ذلك من التحف ، وكتب إليه الوليد يستحثه سريعا ويطلب منه أن يحمل معه طنابير وبرابط ومغنيات وبازات وبراذين فره ، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق ، فكره الناس ذلك منه وكرهوه . وقال المنجمون لنصر بن سيار : إن الفتنة قريبا ستقع بالشام ، فجعل يتثاقل فى سيره ، فلما أن كان ببعض الطريق جاءته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت الفتنة العظيمة فى الناس بالشام ، فعدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها ، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور ، وذلك بسبب قتل الخليفة على ماسنذكره ، وبالله المستعان .

وفى هذه السنة ولى الوليد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى ولاية المدينة ومكة والطائف ، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمداً ابنى هشام بن إسماعيل المخزومى بالمدينة مهانين لكونهما خالى هشام ، ثم يبعث

بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه . فما زال يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالا كثيرة .
وفى هذه السنة ولى يوسف بن محمد بن يحيى بن سعيد الانصارى قضاء المدينة ، وفيها بعث الوليد بن يزيد إلى أهل قبرص جيشا مع أخيه وقال : خيرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام ، ومن شاء أن يتحول إلى الروم ، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام ، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم .

قال ابن جرير : وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب فلقوا - فى قول بعض أهل السير - محمد بن على فأخبروه بقصة أبى مسلم فقال : أحر هو أم لا ؟ فقالوا : أما هو فيزعم أنه حر ، وأما مولاه فيزعم أنه عبده ، فاشتروه فأعتقوه ، ودفعوا إلى محمد بن على مائتى ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفا ، وقال لهم : لعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا ، فان مت فان صاحبكم إبراهيم بن محمد - يعنى ابنه - فانه ابنى ، فأوصيكم به . ومات محمد بن على فى مستهل ذى القعدة فى هذه السنة بعد أبيه بسبع سنين . وفيها قتل يحيى بن زيد بن على بخراسان . وحج بالناس فيها يوسف ابن محمد الثقفى أمير مكة والمدينة والطائف . وأمير العراق يوسف بن عمر ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وهو فى همة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف ، فقتل الوليد قبل أن يجتمع به . وممن توفى فيها من الأعيان :

﴿ محمد بن على ﴾

ابن عبد الله بن عباس أبو عبد الله المدنى ، وهو أبو السفاح والمنصور ، روى عن أبيه وجده وسعيد بن جبير وجماعة ، وحدث عنه جماعة منهم ابناه الخليفتان ، أبو العباس عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده ، وكان عنده علم بالأخبار ، فبشره بأن الخلافة ستكون فى ولدك ، فدعا إلى نفسه فى سنة سبع وثمانين ، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفى فى هذه السنة ، وقيل فى التى قبلها ، وقيل فى التى بعدها ، عن ثلاث وستين سنة ، وكان من أحسن الناس شكلا ، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم ، فما أبرم الأمر إلا لولده السفاح ، فاستلب من بنى أمية الأمر فى سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتى .

﴿ وأما يحيى بن زيد ﴾

ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فانه لما قتل أبوه زيد فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، لم يزل يحيى مختفياً فى خراسان عند الحريش بن عمرو بن داود ببلخ ، حتى مات هشام ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سيار إلى نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلى ، فأحضر الحريش فعاقبه ستمائة سوط فلم يدل عليه ، وجاء ولد الحريش فدلهم عليه فحبس ، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بذلك ، فبعث إلى الوليد بن يزيد

يخبره بذلك، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره باطلاقه من السجن وإرساله إليه صحبة أصحابه، فأطلقهم وأطلق لهم وجهزهم إلى دمشق، فلما كانوا ببعض الطريق توسم نصر منه غدراً، فبعث إليه جيشا عشرة آلاف فكسرهم يحيى بن زيد، وإنما معه سبعون رجلا، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالا كثيرة، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله

﴿ ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة ﴾

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموى الدمشقى، بويع له بالخلافة بعد عمه هشام فى السنة الخالية بعهد من أبيه كما قدمنا. وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفى، وكان مولده سنة تسعين، وقيل ثنتين وتسعين، وقيل سبع وثمانين، وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا فى جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله، ومع ذلك إنما قتل لفسقه، وقيل وزندقته. وقد قال الامام أحمد: حدثنا أبو المغيرة ثنا بن عياش حدثنى الأوزاعى وغيره عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال: ولد لأخى أم سلمة زوج النبى ﷺ غلام فسموه الوليد، فقال النبى ﷺ «سميتموه باسم فراعينكم، ليكونن فى هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد فساداً لهذه الأمة من فرعون لقومه». قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه الوليد بن مسلم ومعقل بن زياد ومحمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعى فلم يذكروا عمر فى إسناده وأرسلوه، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب، ثم ساق طرقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها. وحكى عن البيهقى أنه قال: هو مرسل حسن، ثم ساق من طريق محمد عن محمد بن عمر بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت: «دخل النبى ﷺ وعندى غلام من آل المغيرة اسمه الوليد، فقال: من هذا يا أم سلمة؟ قالت: هذا الوليد، فقال النبى ﷺ: قد اتخذتم الوليد حنانا (حسانا) غيروا اسمه، فانه سيكون فى هذه الأمة فرعون يقال له الوليد».

وروى ابن عساكر من حديث عبد الله بن محمد بن مسلم ثنا محمد بن غالب الأنطاكى ثنا محمد بن سليمان بن أبى داود ثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبى ثعلبة الخشنى عن أبى عبيدة ابن الجراح عن النبى ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بنى أمية».

﴿ صفة مقتله وزوال دولته ﴾

كان هذا الرجل مجاهرا بالفواحش مصرا عليها، منتهكا محارم الله عز وجل، لا يتحاشى من معصية. وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين، فالله أعلم، لكن الذى يظهر أنه كان عاصيا شاعرا ماجنا متعاطيا للمعاصى، لا يتحاشاها من أحد، ولا يستحى من أحد، قبل أن يلى

الخلافة و بعـد أن ولى ، وقد روى أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى فى قتله ، قال : أشهد أنه كان شروبا للخمر ماجنا فاسقا ، ولقد أرادنى على نفسى الفاسق . وحكى المعافى بن زكريا عن ابن دريد عن أبى حاتم عن العتبى ان الوليد بن يزيد نظر الى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفرى فأحبها ، فبعث يراودها عن نفسها فأبت عليه ، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه ، فاتفق اجتماع النصارى فى بعض كنائسهم لعيد لهم ، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتنكر وأظهر أنه مصاب ، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان ، فرأينه فأحدقن به ، فجعل يكلم سفرى ويحادثها وتضاحكه ولا تعرفه ، حتى اشتفى من النظر إليها ، فلما انصرفت قيل لها : ويحك أتدرين من هذا الرجل ؟ فقالت : لا ! فقيل لها هو الوليد . فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها قبل أن تحن عليه . فقال الوليد فى ذلك أبياتا :

أضحك فؤادك ياوليد عميدا * صبا قديما للحسان صيودا
فى حب واضحة العوارض طفلة * برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعينى وامق * حتى بصرت بها تقبل عودا
عود الصليب فويح نفسى من رأى * منكم صليبا مثله معبودا
فسألت ربى أن أكون مكانه * وأكون فى لهب الجحيم وقودا

وقال فيها أيضا لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس . وقيل إن هذا وقع قبل أن يلى الخلافة :

ألاحبذا سفرى وإن قيل إننى * كلفت بنصرانية تشرب الخمرا
يهون علينا أن نظل نهارنا * الى الليل لانظهر انصلى ولاعصرا

قال القاضى أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى المعروف بابن طرار النهر وانى بعد إيراده هذه الأشياء : للوليد فى نحو هـذا من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره ، وقد ناقضناه فى أشياء من منظوم شعره المتضمن ركيك ضلاله وكفره . وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صاف بالحيرة فقصده حتى شرب منه ثلاثة أرطال من الخمر ، وهو راكب على فرسه ، ومعه اثنان من أصحابه ، فلما انصرف أمر للخمار بخمسمائة دينار . وقال القاضى أبو الفرج : أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة ، وقد جمعت شيئاً من سيرته وأخباره ، ومن شعره الذى ضمنه ماجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة دينه ، وما صرح به من الالحاد فى القرآن العزيز ، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه ، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف ، وباطله بحق نبيه شريف ، وترجيت رضاء الله عز وجل واستيجاب مغفرته .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا سليمان بن أبى شيخ ثنا صالح بن سليمان ، قال : أراد الوليد

ابن يزيد الحج وقال : أشرب فوق ظهر الكعبة الخمر ، فهموا ان يفتكوا به إذا خرج ، فجاؤا إلى خالد ابن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى ، فقالوا له : فاكتم علينا ، فقال : أما هذا فنعم ، فجاء إلى الوليد فقال : لا تخرج فاني أخاف عليك ، فقال : ومن هؤلاء الذين تخافهم على ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر ، قال : وإن بعثت بي إلى يوسف ابن عمر ، فبعثه إلى يوسف فعاقبه حتى قتله . وذكر ابن جرير أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله ، وقد قيل إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف يخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله ، فغضبت أهل اليمن من قتله ، وخرجوا على الوليد .

قال الزبير بن بكار : حدثنا مصعب بن عبد الله قال سمعت أبي يقول : كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس : كان زنديقاً ، فقال المهدي : خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها في زنديق . وقال أحمد بن عمير[1] بن حوصاء الدمشقي : ثنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا الوليد ابن مسلم ثنا حصين بن الوليد عن الأزهري بن الوليد قال : سمعت أم الدرداء تقول : إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم يزل طاعة مستخف بها ودم مسفوك على وجه الأرض بغير حق . قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبري :

﴿ ذكر قتل يزيد بن الوليد الذي يقال له الناقص للوليد بن يزيد وكيف قتله ﴾

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته وفسقه وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها . فانه لم يزدد في الخلافة إلا شراً ولهوا ولذة وركوبا للصيد وشرب المسكر ومنادمة الفساق ، فما زادته الخلافة على ما كان قبلها إلا تماديا وغروراً ، فثقل ذلك على الأمراء والرعية والجند ، وكرهوه كراهة شديدة ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه ، إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساده اليمانية ، وهي أعظم جند خراسان ، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك ، فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه وتنكروا له وساءهم قتله كما سنذكره في ترجمته . ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد ، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك ، فكلمه فيها عمر بن الوليد فقال : لا أردها ، فقال : إذا تكثر الصواهل حول عسكرك . وحبس الأفقم يزيد بن هشام ، وبايع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون

(١) نسخة « ابن عمر » .

البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضا ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل .

قال المدائنى فى روايته : ثقل ذلك على الناس و رماه بنو هاشم و بنو الوليد بالكفر والزندقة وغشيان أمهات أولاد أبيه ، و باللواط وغيره ، وقالوا : قد اتخذ مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل من بنى هاشم ليقتله بها ، و رموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ؛ لأنه أظهر النسك والتواضع ، و يقول مايسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس على الفتك به ، قالوا : وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاعة واليمانية وخلق من أعيان الأمراء وآل الوليد بن عبد الملك ، وكان القائم بأعباء ذلك كله والداعى إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وهو من سادات بنى أمية ، وكان ينسب إلى الصلاح والدين والورع ، فبايعه الناس على ذلك ، وقد نهاه أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل ، فقال : والله لولا أنى أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه ، واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها ، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين فى طائفة من أصحابه نحو المائتين ، إلى ناحية مشارف دمشق ، فانتظم إلى يزيد بن الوليد أمره وجعل أخوه العباس ينهاه عن ذلك أشد النهى ، فلا يقبل ، فقال العباس فى ذلك :

إنى أعيذكم بالله من فتن * مثل الجبال تسامى ثم تندفع

إن البرية قد ملت سياستكم * فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم * إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقرن بأيديكم بطونكم * فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

فلما استوثق ليزيد بن الوليد أمره ، وبايعه من بايعه من الناس ، قصد دمشق فدخلها فى غيبة الوليد فبايعه أكثر أهلها فى الليل ، و بلغه أن أهل المزة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مَصَاد ، فمضى إليه يزيد ماشيا فى نفر من أصحابه ، فأصابهم فى الطريق خطر شديد ، فأتوه فطرقوا بابه ليلا ثم دخلوا فكلمه يزيد فى ذلك فبايعه معاوية بن مصاد ، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القناة وهو على حمار أسود ، فحلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا فى السلاح ، فلبس سلاحا من تحت ثيابه فدخلها ، وكان الوليد قد استناب على دمشق فى غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفى ، وعلى شرطتها أبو العاج كثير بن عبد الله السلمى ، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد بين المشائين عند باب الفراديس ، فلما أذن العشاء الآخرة دخلوا المسجد ، فلما لم يبق فى المسجد غيرهم بعثوا الى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصدوا باب المقصورة ففتح لهم خادم ، فدخلوا فوجدوا أبا العاج وهو سكران ، فأخذوا خزائن بيت المال وتسلموا الحواصل ، وتقووا بالاسلحة ، وأمر يزيد باغلاق أبواب البلد ، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف ، فلما أصبح الناس قدم أهل الحواضر من كل جانب

فـدخلوا من سائر أبواب البلد ، كل أهل محلة من الباب الذى يليهم ، فكثرت الجيوش حول يزيد ابن الوليد بن عبد الملك فى نصرته، وكلهم قد بايعه بالخلافة . وقد قال فيه بعض الشعراء فى ذلك : ـ

فجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا * سكاسكها أهل البيوت الصناددِ
وكلب فجاؤهم بخيل وعـدة * من البيض والابدان ثم السواعد
فأكرم بها أحياء انصار سنَّةٍ * هم منعوا حرماتها كل جاحد
وجاءتهم شيبان والازد شرعاً * وعبس ولخم بين حام وذائد
وغسان والحيّان قيس وتغلب * واحجم عنها كل وان وزاهد
فما أصبحوا إلا وهم أهل ملكها * قد استوثقوا من كل عات ومارد

وبعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد فى مائتى فارس إلى قطنا ليأتوه بعبد الملك بن محمد ابن الحجاج نائب دمشق وله الأمان ، وكان قد تحصن هناك ، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين فى كل واحـد منهما ثلاثون ألف دينار ، فلما مروا بالمزة قال أصحاب ابن مصاد : خذ هـذا المال فهو خير من يزيد بن الوليد ، فقال : لا والله لا تحـدث العرب أنى أول من خان ، ثم أتوا به يزيد بن الوليد فاستخدم من ذلك المـال جندا للقتال قريباً من ألفى فارس ، وبعث به مع أخيه عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد ليأتوا به ، وركب بعض موالى الوليد فرسا سابقا فساق به حتى انتهى إلى مولاه من الليل ، وقـد نفق الفرس من السوق ، فأخبره الخبر فلم يصـدقه وأمر بضربه ، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حمص فانها حصينة . وقال الأبرش سعيد بن الوليد الكلبى : انزل عـلى قومى بتدمر ، فأبى أن يقبل شيئا من ذلك ، بل ركب بمن معه ، وهو فى مائتى فارس ، وقصد أصحاب يزيد فالتقوا بثقلة فى أثناء الطريق فأخـذوه ، وجاء الوليـد فنزل حصن البخراء الذى كان للنعمان بن بشير ، وجاءه رسول العباس بن الوليـد إنى آتيك ـ وكان من أنصاره ـ فأمر الوليد بابراز سريره فجلس عليه وقال . أعـلى يتوثب الرجال وأنا أثب على الأسد وأتخصَّر الأفاعى ؟ وقدم عبد العزيز بن الوليد بمن معه ، وإنما كان قد اعن معه من الألفى فارس ثمانمائة فارس ، فتصافوا فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل من أصحاب العباس ماعة حملت رؤسهم إلى الوليد ، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد ، فبعث إليه خوه عبـد العزيز فجئ به قهرا حتى بايع لأخيه يزيد بن الوليد ، واجتمعوا عـلى حرب الوليد بن يزيد ، فلما رأى الناس اجتماعهـم فروا من الوليد إليهم ، وبقى الوليد فى ذل وقل من الناس ، فلجأ إلى الحصن فجاؤا إليـه وأحاطوا به من كل جانب يحاصرونه ، فـدنا الوليد من باب الحصن فنادى ليكلمنى رجـل شريف ، فـكلمه يزيد بن عنبسة السكسكى ، فقال الوليد : ألم أدفع الموت عنكم ؟

ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم نساءكم ؟ فقال يزيد : إنما ننقم عليك انتهاك المحارم وشرب الخمور ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل . قال : حسبك يا أخا السكاسك ، لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل الله لى لسعة عما ذكرته . ثم قال : أما والله لئن قتلتمونى لا ترتقن فتنتكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم . ورجع إلى القصر فجلس ووضع بين يديه مصحفا فنشره وأقبل يقرأ فيه وقال : يوم كيوم عثمان ، واستسلم ، وتسور عليه أولئك الحائط ، فكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة ، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف فقال : نحه عنك ، فقال الوليد : لو أردت القتال به لكان غير هذا ، فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد ، فبادره عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتلوه ، ثم جروه برجله ليخرجوه ، فصاحت النسوة فتركوه ، واحتز أبو علاقة القضاعى رأسه ، واحتاطوا على ما كان معه مما كان خرج به فى وجهه ذلك ، وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر ، منهم منصور بن جمهور وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بنى كلب ، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفلس ، فلما انتهوا إليه بشروه بقتل الوليد وسلموا عليه بالخلافة ، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف ، فقال له روح بن بشر بن مقبل : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق ، فسجد شكرا لله ورجعت الجيوش إلى يزيد ، فكان أول من أخذ يده للمبايعة يزيد بن عنبسة السكسكى فانتزع يده من يده وقال : اللهم إن كان هذا رضى لك فأعنى عليه ، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف درهم ، فلما جيء به ـ وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء ـ لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة . فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به فى البلد ، فقيل له إنما ينصب رأس الخارجى ، فقال : والله لأنصبنه ، فشهره فى البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد ، فقال أخوه بعداله : أشهد أنك كنت شروبا للخمر ماجنا فاسقا ولقد أرادنى على نفسى هذا الفاسق وأنا أخوه ، لم يأنف من ذلك . وقد قيل إن رأسه لم يزل معلقا بحائط جامع دمشق الشرقى مما يلى الصحن حتى انقضت دولة بنى أمية ، وقيل إنما كان ذلك أثر دمه ، وكان عمره يوم قتل ستا وثلاثين سنة ، وقيل ثمانيا وثلاثين ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل ثنتان وقيل خمس ، وقيل ست وأربعون سنة . ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر ، وقيل ثلاثة أشهر . قال ابن جرير : كان شديد البطش طويل أصابع الرجلين ، كانت تضرب له سكة الحديد فى الارض ويربط فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس ، فتنقلع تلك السكة من الأرض مع وثبته .

﴿ خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ﴾

وهو الملقب بالناقص لنقصه الناس من أعطياتهم ما كان زاده الوليد بن يزيد فى أعطياتهم ،

وهى عشرة عشرة ، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه فى زمن هشام ، ويقال إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد ، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة – حتى سنة ست وعشرين ومائة – وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك ، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كان الوليد زادهم ، وذلك فى كل سنة عشرة عشرة ، فسمى الناقص لذلك ، ويقال فى المثل الأشج والناقص أعدلا خلفاء بنى مروان – يعنى عمر بن عبد العزيز وهذا – ولكن لم تطل أيامه ، فانه توفى من آخر هذه السنة ، واضطربت عليه الأمور ، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بنى مروان فنهض سليمان بن هشام ، وكان معتقلا فى سجن الوليد بعمان فاستحوذ على أموالها وحواصلها ، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعن الوليد ويعيبه ويرميه بالكفر ، فأكرمه يزيد ورد عليه أمواله التى كان أخذها من الوليد ، وتزوج يزيد أخت سليمان ، وهى أم هشام بنت هشام ، ونهض أهل حمص إلى دار العباس بن الوليد التى عندهم فهدموها ، وحبسوا أهله وبنيه ، وهرب هو من حمص فلحق بيزيد بن الوليد إلى دمشق ، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوليد بن يزيد ، وأغلقوا أبواب البلد ، وأقاموا النوائح والبواكى على الوليد ، وكاتبوا الأجناد فى طلب الأخذ بالثأر ، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم ، على أن يكون الحكم بن الوليد بن يزيد الذى أخذ له العهد هو الخليفة ، وخلعوا نائبهم ، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتابا مع يعقوب بن هانئ ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شورى ، فقال عمرو ابن قيس : فاذا كان الامر كذلك فقد رضينا بولى عهدنا الحكم بن الوليد ، فأخذ يعقوب بلحيته وقال : ويحك ! لو كان هذا الذى تدعو إليه يتيما تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله ، فكيف أمر الأمة ، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم . وقال لهم أبو محمد السفيانى : لو قصدت دمشق لم يختلف على منهم اثنان ، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمروا عليهم السفيانى ، فتلقاهم سليمان بن هشام فى جيش كثيف قد جهزه معه يزيد ، وجهز أيضا عبد العزيز بن الوليد فى ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب ، وجهز هشام بن مصاد المزى فى ألف وخمسمائة ليكونوا على عقبة السلمية ، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان ابن هشام ذات اليسار وتعدوه ، فلما سمع بهم سليمان ساق فى طلبهم فلحقهم عند السليمانية فجعلوا الزيتون عن أيمانهم والجبل عن شمائلهم والحيات من خلفهم ، ولم يبق مخلص إليهم إلا من جهة واحدة ، فاقتتلوا هنالك فى قبالة الحر قتالا شديداً ، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين ، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الوليد بمن معه فحمل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب التل الذى

فى وسطهم ، وكانت الهزيمة ، فهرب أهل حمص وتفرقوا ، فاتبعهم الناس يقتلون ويأسرون ، ثم تنادوا بالكف عنهم على أن يبايعوا ليزيد بن الوليد ، وأسروا منهم جماعة ، منهم أبو محمد السفيانى ويزيد ابن خالد بن معاوية ، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز فنزلا عذراء ومعهم الجيوش وأشراف الناس ، وأشراف أهل حمص من الأسارى ومن استجاب من غير أسر ، بعد ماقتل منهم ثلاثمائة نفس ، فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد ، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم ، وأطلق الأعطيات لهم ، لاسيما لأشرافهم ، وولى عليهم الذى اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين ، وطابت عليه أنفسهم ، وأقاموا عنده فى دمشق سامعين مطيعين له .

وفيها بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن بنى سليمان كانت لهم أملاك هناك ، وكانوا يتركونها يبذلونها لهم ، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم ، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سعيد بن روح بن زنباع — وكان رئيس تلك الناحية — إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى المبايعة له ، فأجابوه إلى ذلك . فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضا محمد بن عبد الملك ابن مروان ، وأمروه عليهم ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام فى الدماشقة وأهل حمص الذين كانوا مع السفيانى ، فصالحهم أهل الأردن أولا ورجعوا إلى الطاعة ، وكذلك أهل فلسطين . وكتب يزيد بن الوليد ولاية الامرة بالرملة وتلك النواحى إلى أخيه إبراهيم بن الوليد ، واستقرت الممالك هنالك ، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد ابن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، أما والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، وما بى إطراء نفسى إنى لظلوم لنفسى ، إن لم يرحمنى ربى فانى هالك ، ولكنى خرجت غضبا لله ولرسوله ولدينه ، وداعيا إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ ، لما هدمت معالم الدين ، وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة ، والراكب كل بدعة ، مع أنه والله ما كان مصدقا بالكتاب ، ولا مؤمنا بيوم الحساب ، وإنه لابن عمى فى النسب ، وكفوى فى الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره ، وسألته أن لا يكلنى إلى نفسى ، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهل ولايتى ، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد ، بحول الله وقوته لا بحولى ولا بقوتى . أيها الناس ! إن لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة ، ولا ولدا . ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد ، وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فان فضل عن ذلك فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابى دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل

جوّيتكم ما يجليهم عن بلادهم و يقطع سبلهم ، و إن لكم عندى أعطياتكم فى كل سنة ، وأر زاقكم فى كل شهر ، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فان أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، و إن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعونى و إلا أن تستتيبونى ، فان تبت قبلتم منى ، و إن علمتم أحدا من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه و يدخل فى طاعته . أيها الناس ! إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله فأطيعوه ما أطاع الله ، فاذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يعصى ولا يطاع ، بل يقتل و يهان ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وفى هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الحنق على اليمانية ، وهم قوم خالد بن عبد الله القسرى ، حتى قتل الوليد بن يزيد ، وكان قد سجن غالب من ببلاده منهم ، وجعل الأرصاد على الثغور خوفاً من جند الخليفة ، فعزله عنها أمير المؤمنين يزيد بن الوليد ، وولى عليها منصور بن جمهور مع بلاد السند وسجستان وخراسان ، وقد كان منصور بن جمهور أعرابيا جلفا ، وكان يدين بمذهب الغيلانية القدرية ، ولكن كانت له آثار حسنة ، وعناء كثير فى مقتل الوليد بن يزيد ، فحظى بذلك عند يزيد بن الوليد ، و يقال إنه لما فرغ الناس من الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها إلى يزيد ، وقرر بالأقاليم نوابا وعمالا وكر راجعاً إلى دمشق فى آخر رمضان ، فلذلك ولاه الخليفة ما ولاه والله أعلم .

وأما يوسف بن عمر فانه فر من العراق فلحق ببلاد البلقاء ، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره إليه ، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته ـ وكان كبير اللحية جدا ، ربما كانت تجاوز سرته وكان قصير القامة ـ فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه . ولما انتهى منصور بن جمهور إلى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم فى كيفية مقتل الوليد ، وأن الله أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأنه قد ولى عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب ، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد ، وكذلك أهل السند وسجستان .

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فانه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور : وأبى أن ينقاد لأوامره ، وقد كان نصر هذا جهز هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له . وفى هذه السنة كتب مروان الملقب بالحمار كتابا إلى عمر بن يزيد أخى الوليد بن يزيد ، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد ، وكان مروان يومئذ أميرا على أذربيجان وأرمينية ، ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور ابن جمهور عن ولاية العراق وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقال له : إن أهل العراق يحبون أباك فقد وليتكها ، وذلك فى شوال ، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق يوصيهم به

حشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه ، فسلم اليه وسمع وأطاع وسلم . وكتب الخليفة إلى نصر بن سيار باستمراره بولاية خراسان مستقلا بها ، فخرج عليه رجل يقال له الكرمانى ، لأنه ولد بكرمان ، وهو أبو على جديع بن على بن شبيب المعنى ، واتبعه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة فى نحو من ألف وخمسمائة ، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده ، فتحير نصر بن سيار وامراؤه فيما يصنع به ، فاتفق رأيهم بعد جهد على سجنه ، فسجن قريبا من شهر ، ثم أطلقه فاجتمع إليه ناس كثير ، وجم غفير ، وركبوا معه ، فبعث إليهم نصر من قاتلهم فقتلهم وقهرهم وكسرهم واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمته ، وألحوا عليه فى أعطياتهم وأسمعوه غليظ ما يكره وهو على المنبر ، بسفارة سلم بن احوز أدى إليه ذلك ، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب ، وانفض كثير من الناس عنه ، فقال لهم نصر فيما قال : والله لقد نشرتكم وطويتكم وطويتكم ونشرتكم فما عندى عشرة منكم على دين ، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين الرجل منكم أن ينخلع من أهله وماله وولده ، ولم يكن رآها ، ثم تمثل بقول النابغة :

فان يغلب شقاؤكم عليكم * فانى فى صلاحكم سعيت

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن الورد بن المغيرة الجعد :—

أبيت أرعى النجوم مرتفقا * إذا استقلت تحوى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة * قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاه شاغلها
يمشى السفيه الذى يعنف بالـ * ـجهل سواء فيها وعاقلها
فالناس منها فى لون مظلمة * دهماء ملتجة غياطلها
والناس فى كربة يكاد لها * تنبذ اولادها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة * عمياء تخفى لهم غوائلها
لا ينظر الناس من عواقبها * الا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ * ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا تزرى بوجهته * فيها خطوب حمر زلازلها

وفى هذه السنة أخذ الخليفة البيعة من الأمراء وغيرهم بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، وذلك بسبب مرضه الذى مات فيه . وكان ذلك فى شهر الحجة منها ، وقد حرضه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء . وفيها عزل يزيد عن إمرة الحجاز يوسف بن محمد الثقفى وولى عليها

عبد العزيز بن عمر بن عبـد العزيز ، فقدمها فى أواخر ذى القعدة منها ، وفيها أظهر مروان الحمار الخلاف ليزيد بن الوليد ، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه يطلب بدم الوليد بن يزيد ، فلما وصل إلى حران أظهر الموافقة وبايع لأمير المؤمنين يزيد بن الوليد . وفيها أرسل إبراهيم بن محمـد بن على ابن عبد الله بن عباس أبا هاشم بكر بن ماهان إلى أرض خراسان ، فاجتمع بجماعة من أهل خراسان بمرو ، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمـد الامام إليـه وإليهم ، ووصيته ، فتلقوا ذلك بالقبول ، وأرسلوا معه ما كان عنـدهم من النفقات . وفى سالخ ذى القعدة ، وقيل فى سلخ ذى الحجة ، وقيل لعشر مضين منه ، وقيل بعد الأضحى منها كان وفاة أمير المؤمنين .

﴿ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . وهذه ترجمته رحمه الله تعالى ﴾

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحـكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس ابن عبـد مناف بن قصى . أبو خالد الأموى ، أمير المؤمنين ، بويع له بالخلافة أول ما بويع بها فى قرية المزة ، من قرى دمشق ، ثم دخل دمشق فغلب عليها ، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله ، واستحوذ على الخلافة فى أواخر جمادى الآخرة من هـذه السنة ، وكان يلقب بالناقص لنقصه الناس العشرات التى زادهم إياها الوليد بن يزيد ، وقيل إنما سماه بذلك مروان الحمار ، وكان يقول : الناقص ابن اليد ، وأمه شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى ، كسروية

وقال ابن جرير : وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وهو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروان * وقيصر جدى وجدى خاقان

وإنما قال ذلك لأن جـده فيروز ، وأم أمـه بنت قيصر ، وأمه شيرويه وهى بنت خاقان ملك الترك ، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم ، هى وأخت لها فبعثهما إلى الحجاج ، فأرسل بهذه إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى ، فولدت هذه الوليد بن يزيد الناقص هذا ، وهذه أخذها الحجاج فكانت عنـده بالعراق ، وكان مولده فى سنة تسعين ، وقيل فى سنة ست وتسعين ، وقد روى عنه الأوزاعى مسألة السلم . وقد ذكرنا كيفية ولايته فيما سلف فى هذه السنة ، وأنه كان عادلا ديناً محباً للخير مبغضا للشر . قاصداً للحق . وقد خرج يوم عيد الفطر من هـذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسللة عن يمينه وشماله ، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك ، كان رجلا صالحاً ، يقال فى المثل الاشج والناقص أعـدلا بنى مروان ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا . وقد قال أبو بكر بن أبى الدنيا حـدثنى إبراهيم بن محمد المروزى عن أبى عثمان الليثى قال قال يزيد بن الوليد الناقص : يابنى أميـة إياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهـدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل مايفعل المسكر ، فان كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فانه داعية الزنا . وقال ابن عبد الحـكم

عن الشافعي : لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان . قاله ابن عساكر . قال : ولعله قرب أصحاب غيلان ، لأن غيلان قتله هشام بن عبد الملك . وقال محمد بن المبارك : آخر ماتكلم به يزيد بن الوليد الناقص واحزناه واشقاآه . وكان نقش خاتمه العظمة لله . وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه ، وذلك يوم السبت لسبع مضين من ذي الحجة ، وقيل يوم الاضحى منه ، وقيل بعده بأيام ، وقيل لعشر بقين منه ، وقيل في سلخه ، وقيل في سلخ ذي القعدة من هذه السنة . وأكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة ، وقيل ثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك فالله أعلم . وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الاشهر ، وقيل خمسة أشهر وأيام . وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله . وذكر سعيد بن كثير بن عفير أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير ، وقيل إنه دفن بباب الفراديس ، وكان أسمر نحيفا حسن الجسم حسن الوجه . وقال علي بن محمد المديني : كان يزيد أسمر طويلا صغير الرأس بوجهه خال ، وكان جميلا ، في فمه بعض السعة وليس بالمفرط . وحج بالناس فيها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز ، وأخوه عبد الله نائب العراق ، ونصر بن سيار على نيابة خراسان ، والله سبحانه أعلم . وممن توفي في هذه السنة من الأعيان :

﴿ خالد بن عبد الله بن يزيد ﴾

ابن أسد بن كرز بن عامر بن عبقري ، أبو الهيثم البجلي القسري الدمشقي ، أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان ، وأمير العراقين لهشام خمس عشرة سنة . قال ابن عساكر كانت داره بدمشق في مربعة القز وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي ، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب توما ، روى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا أسد[1] أتحب الجنة ؟ قال : نعم ! قال : فأحب للمسلمين ماتحب لنفسك » . رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار من أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك . وممن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد ، وحبيب بن أبي حبيب ، وحميد الطويل . وروى أنه روى عن جده عن النبي ﷺ في تكفير المرض الذنوب . وكانت أمه نصرانية ، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف ، فيمن أمه نصرانية . وقال المدائني : أول ماعرف من رياسته أنه وطأ صبيا بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه ، فان مات فعليه ديته ، وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان ، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة ، وسلمه إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فعاقبه وأخذ منه أموالا ثم أطلقه ، وأقام بدمشق إلى المحرم من هذه السنة فسلمه الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر يستخلص منه خمسين ألف ألف ، فمات تحت

(١) في تاريخ ابن عساكر (٥ : ٦٧) : « يايزيد بن أسد » .

العقوبة البليغة ، كسر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه ، ثم صدره ، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ، ولا تأوه حتى خرجت روحه رحمه الله .

قال الليثى عن أبيه : خطب خالد القسرى يوما فأرتج عليه فقال : أيها الناس ! إن هذا الكلام يجيء أحيانا ويعزب أحيانا ، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتعذر عند عزوبه مطلبه ، وقد يرد إلى السليط بيانه ويثيب إلى الحصر كلامه ، وسيعود إلينا ما تحبون ، ونعود لكم كما تريدون . وقال الأصمعى وغيره : خطب خالد القسرى يوما بواسط فقال : يا أيها الناس تنافسوا فى المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدّوا بمعروف لم تعجلوه ، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فالله أحسن له جزاء ، وأجزل عطاء ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقما ، فان أفضل المال ما كسب أجرا وأورث ذكرا ، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه رجلا حسنا جميلا يسر الناس إذا نظروا إليه ، ويفوق العالمين . ولو رأيتم البخل لرأيتموه رجلا مشوها قبيحا تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار . إنه من جاد ساد . ومن بخل ذل ، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه ، ومن عفا عن قدرة ، وأفضل الناس من وصل عن قطيعة ، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته ، والفروع عند مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . وروى الاصمعى عن عمر ابن الهيثم أن أعرابياً قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها :

إليك ابن كرز الخير أقبلت راغبا * لتجبر منى ما وها وتبدّدا
إلى الماجد البهلول ذى الحلم والندى * وأكرم خلق الله فرعا ومحتدا
إذا ما أناس قصروا بفعالهم * نهضت فلم تلق هنالك مقعدا
فيالك بحراً يغمر الناس موجه * إذا يسأل المعروف جاش وأزبدا
بلوت ابن عبد الله فى كل موطن * فألفيت خير الناس نفسا وأمجدا
فلو كان فى الدنيا من الناس خالد * لجود بمعروف لكنت مخلدا
فلا تحرمنى منك ما قد رجوته * فيصبح وجهى كالح اللون أربدا

قال : فحفظها خالد ، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابى ينشدها فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله ، وقال : أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه . فنهض الشيخ فولى ذاهبا فأتبعه خالد من يسمع ما يقول فاذا هو ينشد هذه الابيات .

ألا فى سبيل الله ما كنت أرتجى * لديه وما لاقيت من نكد الجهد
دخلت على بحر يجود بماله * ويعطى كثير المال فى طلب الحمد
فخالفنى الجد المشوم لشقوتى * وقاربنى نحسى وفارقنى سعدى

فلو كان لى رزق لديه لنلته * ولكنه أمر من الواحد الفرد

فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقال الأصمعى : سأل أعرابى خالداً القسرى أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه له دراهم ، فقيل للاعرابى حين خرج : مافعل معك ؟ فقال : سألته بما أشتهى فأمر لى بما يشتهى هو . وقال بعضهم : بينما خالد يسير فى موكبه إذ تلقاه أعرابى فسأله أن يضرب عنقه ، فقال ويحك ولم ؟ أقطعت السبيل ؟ أأخرجت يدا من طاعة ؟ فكل ذلك يقول لا ! قال : فلم ؟ قال : من الفقر والفاقة . فقال : سل حاجتك ، قال ثلاثين ألفا . فقال خالد : ماربح أحد مثل ماربحت اليوم ، إنى وضعت فى نفسى أن يسألنى مائة ألف فسأل ثلاثين فربحت سبعين . ارجعوا بنا اليوم ، وأمر له بثلاثين ألفا . وكان إذا جلس يوضع [المال] بين يديه و يقول : إن هذه الأموال ودائع لابد من تفرقتها . وسقط خاتم لجاريته رابعة يساوى ثلاثين ألفا ، فى بالوعة الدار ، فسألت أن تؤتى بمن يخرجه ، فقال : إن يدك أكرم على من أن تلبسه بعد ماصار إلى هذا الموضع القذر ، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله . وقد كان لرابعة هذه من الحلى شىء عظيم ، من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة ، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار .

وقد روى البخارى فى كتاب أفعال العباد ، وابن أبى حاتم فى كتاب السنة ، وغير واحد ممن صنف فى كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسرى خطب الناس فى عيد أضحى فقال : أيها الناس ، ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيرا . ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر . قال غير واحد من الأئمة : كان الجعد بن درهم من أهل الشام ، وهو مؤدب مروان الحمار ، ولهذا يقال له مروان الجعدى ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذى تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون إن الله فى كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد ابن أعصم ، عن خاله لبيد بن أعصم اليهودى الذى سحر النبى ﷺ فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر له ، وتحت راعوفة ببئر ذى اروان الذى كان ماؤها نقاعة الحناء . وقد ثبت الحديث بذلك فى الصحيحين وغيرهما . وجاء فى بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتى المعوذتين .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد الرفاعى سمعت أبا بكر بن عياش قال : رأيت خالداً القسرى حين أتى بالمغيرة وأصحابه ، وقد وضع له سرير فى المسجد ، فجلس عليه ثم أمر برجل من أصحابه فضربت عنقه ثم قال للمغيرة : أحيه - وكان المغيرة يزعم أنه يحيى الموتى - فقال : والله أصلحك الله ما أحيى الموتى . قال : لتحيينه أولأضربن عنقك . قال : والله ما أقدر على ذلك . ثم أمر

بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال للمغيرة : اعتنقه ، فأبى ، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة . قال خالد : هذا والله أحق بالرياسة منك . ثم قتله وقتل أصحابه . وقال المدائني : أتى خالد بن عبد الله برجل تنبأ بالكوفة فقيل له ما علامة نبوتك ؟ قال : قد نزل على قرآن ، قال : إنا أعطيناك الكماهر ، فصل لربك ولا تجاهر . ولا تطع كل كافر وفاجر . فأمر به فصلب فقال وهو يصلب : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، فأنا ضامن لك ألا تعود . وقال المبرد : أتى خالد بشاب قد وجد فى دار قوم وادعى عليه السرقة ، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت حسناء فقالت :

أخالد قد أوطأت والله عثرة * وما العاشق المسكين فينا بسارق

أقرَّ بما لم يجنه غير أنه * رأى القطع أولى من فضيحة عاشق

فظهر خالد باحضار أبيها فزوجها من ذلك الغلام وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم . وقال الاصمعى: دخل أعرابى على خالد فقال : إنى قد مدحتك ببيتين ولست أنشدهما إلا بعشرة آلاف وخادم ، فقال : نعم ! فأنشأ يقول :

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن * سمعت من الأشياء شيئا سوى نعم

وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن * سمعت بها فى سالف الدهر والأمم

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها . قال : ودخل عليه أعرابى فقال له : سل حاجتك فقال : مائة ألف . فقال : أكثرت حط منها . قال : أضع تسعين ألفا ، فتعجب منه خالد فقال : أيها الأمير سألتك على قدرك و وضعت على قدرى ، فقال له : لن تغلبنى أبدا ، وأمر له بمائة ألف ، قال : ودخل عليه أعرابى ، فقال : إنى قد قلت فيك شعرا وأنا أستصغره فيك ، فقال : قل فأنشأ يقول :

تعرضت لى بالجود حتى نعشتنى * وأعطيتنى حتى ظننتك تلعب

فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى * حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال : سل حاجتك . قال : على خمسون ألف دينار ، فقال : قد أمرت لك بها وأضعفتها لك ، فأعطاه مائة ألف . قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوساى : دخل أعرابى على خالد القسرى فأنشده

كتبت نعم ببابك فهى تدعو * اليك الناس مسفرة النقاب

وقلت للا عليك بباب غيرى * فانك لن ترى أبدا ببابى

قال فأعطاه على كل بيت خمسين ألفا . وقد قال فيه ابن معين : كان رجل سوء يقع فى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وذكر الأصمعى عن أبيه : أن خالدا حفر بئرا بمكة ادعى فضلها على زمزم ، وله فى رواية عنه

تفضيل الخليفة على الرسول ، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم .

[والذى يظهر أن هذا لا يصح عنه ، فانه كان قائما فى إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجعد ابن درهم وغيره من أهل الالحاد ، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح ، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة فى أهل البيت ، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اغتر به شيخنا الذهبى فمدحه بالحفظ وغيره] (١).

وقد ذكر ابن جرير وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج فى إمارته فمن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة ، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله وتولية غيره من الجماعة ، فحذر خالد أمير المؤمنين منهم ، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فعاقبه عقابا شديداً ، ثم بعث به إلى يوسف بن عمر فعاقبه حتى مات شر قتلة وأسوئها ، وذلك فى محرم من هذه السنة ـ أعنى سنة ست وعشرين ومائة ـ وذكره القاضى ابن خلكان فى الوفيات وقال : كان متهما فى دينه ، وقد بنى لأمه كنيسة فى داره ، قال فيه بعض الشعراء وقال صاحب الأعيان كان فى نسبه يهود فانتموا إلى القرب ، وكان يقرب [من] شق وسطيح . قال القاضى ابن خلكان : وقد كانا ابنى خالة ، وعاش كل منهما ستمائة ، وولدا فى يوم واحد ، وذلك يوم ماتت طريفة بنت الحر بعد ما تفلت فى فم كل منهما وقالت : إنه سيقوم مقامى فى الكهانة ، ثم ماتت من يومها .

وممن توفى فى هذه السنة جبلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق فى قول ، وسليمان ابن حبيب المحاربى ، قاضى دمشق ، وعبد الرحمن بن قاسم شيخ مالك وعبيد الله بن أبى يزيد وعمرو بن دينار . وقد ذكرنا تراجمهم فى كتابنا التكميل .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة ﴾

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية أخيه يزيد الناقص إليه ، وبايعه الأمراء بذلك ، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه ، وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب بالحمار كان نائبا بأذربيجان وأرمينية ، وتلك كانت لأبيه من قبله ، وكان نقم على يزيد بن الوليد فى قتله الوليد بن يزيد ، وأقبل فى طلب دم الوليد ، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد ، فلم يلبث إلا قليلا حتى بلغه موته ، فأقبل فى أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فنزلوا على طاعته ، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد فحاصرهم حتى يبايعوا لابراهيم بن الوليد ، وقد أصروا على عدم مبايعته ، فلما بلغ عبد العزيز قرب مروان بن محمد ترحل عنها ، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق ، ومعهم جند

(١) وجدت هذه العبارة فى نسخة ثانية بالاستانة .

الجزيرة وجنـد قنسرين ، فتوجه مروان إلى دمشق فى ثمانين ألفا ، وقد بعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبـد الملك فى مائة وعشرين ألفا ، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع ، فدعاهم مروان الى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابنى الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قـد أخذ العهد لهما ، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق ، فأبوا عليه ذلك ، فاقتتلوا قتالا شـديدا من حين ارتفاع النهار إلى العصر ، وبعث مروان سرية تأتى جيش ابن هشام من ورائهم ، فتم لهم ما أرادوه ، وأقبلوا من ورائهـم يكبرون ، وحمل الآخرون من تلقاء عليهـم ، فـكانت الهزيمة فى أصحاب سليمان ، فقتل منهم أهل حمص خلقا كثيراً ، واستبيح عسكرهم ، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق فى ذلك اليوم قريبا من سبعة عشر ألفا أو ثمانية عشر ألفا وأسر منهم مثلهم ، فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابنى الوليد ، الحكم وعثمان ، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد ابن مصاد الكلبيان ، فضربهما بين يديه بالسياط وحبسهما فماتا فى السجن ، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حين قتل . وأما سليمان وبقية أصحابه فانهم استمروا منهزمين ، فما أصبح لهـم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع ، فاجتمع معهم رؤس الامراء فى ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسرى ، وأبو علاقة السكسكى ، والاصبغ بن ذؤالة الـكلبى ونظراؤهم ، على أن يعمدوا إلى قتل ابنى الوليـد الحكم وعثمان ، خشـية أن يليا الخلافة فيهلـكا من عاداهما وقتل أباهما ، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى ، فعمد إلى السجن وفيـه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا ، ويقال وولد لاحدهما ولد فشدخهما بالعمد ، وقتل يوسف بن عمر ـ وكان مسجونا معهما ـ وكان فى سجنهما أيضاً أبو محمـد السفيانى فهرب فدخل فى بيت داخل السجن وجعـل وراء الباب ردما ، فحاصروه فامتنع ، فأتوا بنار ليحرقوا الباب . ثم اشتغلوا عن ذلك بقدوم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق فى طلب المنهزمين .

﴿ ذكر دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة وعزل إبراهيم بن الوليد عنها ﴾

لما أقبل مروان بمن معه من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس ، هرب إبراهيم بن الوليد وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحه وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش ، وثار موالى الوليـد بن يزيد إلى دار عبـد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان بن محمـد دمشق فنزل فى أعاليها وأتى بالغلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه . وأتى بأبى محمد السفيانى وهو فى حبوله فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان : مه ، فقال : إن هذين الغلامين جعلاها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم فى السجن وهى طويلة منها قوله :

ألا من مبلغ مروان عنى * وعمى الغمر طال بذا حنينا
بانى قد ظلمت وصار قومى * على قتل الوليد متابعينا
فان أهلك أنا وولى عهدى * فروان أمير المؤمنينا

ثم قال أبو محمد السفيانى لمروان : ابسط يدك ، فكان أول من بايعه بالخلافة ، فمعاوية بن يزيد بن حصين بن نمير ثم بايعه رؤس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم ، ثم قال لهم مروان : اختاروا أمراء توليهم عليكم ، فاختلو أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم ، فعلى دمشق زامل بن عمرو الجبرانى ، وعلى حمص عبد الله بن شجرة الكندى ، وعلى الاردن الوليد بن معاوية بن مروان ، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجذامى . ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذى كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الامان فأمنهما ، وقدم عليه سليمان بن هشام فى أهل تدمر فبايعوه ، ثم لما استقر مروان فى حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرم له من مبايعة أهل الشام ، فنقض أهل حمص وغيرهم ، فأرسل إلى أهل حمص جيشا فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين ، فنازلها مروان فى جنود كثيرة ، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع ، وسليمان بن هشام ، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء ، فلما حاصر حمص نادوه إنا على طاعتك ، فقال : افتحوا باب البلد ففتحوه . ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستمائة ، فأمر بهم فصلبوا حول البلد ، وأمر بهدم بعض سورها . وأما أهل دمشق فأما أهل الغوطة فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد ابن خالد القسرى وثبت فى المدينة نائبها ، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكرا نحو عشرة آلاف ، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقوا والعسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها ، واستجار يزيد بن خالد القسرى وأبو علاقة الكلبى برجل من أهل المزة من لخم ، فدل عليهم زامل بن عمرو فقتلهما وبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بحمص . وخرج ثابت بن نعيم فى أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها ، فبعث الخليفة إليهم جيشا فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم ، وفر ثابت بن نعيم هاربا إلى فلسطين فاتبعه الأمير أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق عنه أصحابه ، وأسر أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمداواتهم ، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكنانى يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان ، فمازال يتلطف به حتى أخذه أسيراً ، وذلك بعد شهرين ، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه ، وكذلك جماعة كانوا معه ، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها ، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب

إلى ديار مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها ، فأرسل إليهم مقطع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا . وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنه عبد الله ثم عبيد الله وزوجهما ابنتي هشام ، وهما أم هشام وعائشة ، وكان مجمعا حافلا وعقداً هائلا ، ومبايعة عامة ، ولكن لم تكن فى نفس الأمر تامة . وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعد ما كانوا تقطعوا أن يصلبوا على أبواب البلد ، ولم يستبق منهم أحدا إلا واحدا وهو عمرو بن الحارث الكلبي ، وكان عنده فيما زعم علم بودايع كان ثابت بن نعيم أودعها عند أقوام . واستوسق أمر الشام لمروان ماعدا تدمر ، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حمص ، وبلغه أن أهل تدمر قد غوروا مابينه وبينهم من المياه ، فاشتد غضبه عليهم ومعه جحافل من الجيوش ، فتكلم الابرش بن الوليد وكانوا قومه فسأل منه أن يرسل إليهم أولا ليعذر إليهم ، فبعث عمرو بن الوليد أخا الأبرش ، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولا فرجع ، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يذهب إليهم بنفسه فأرسله ، فلما قدم عليهم الأبرش كلمهم واستمالهم إلى السمع والطاعة ، فأجابه أكثرهم وامتنع بعضهم ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بما وقع ، فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها ، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه ، ففعل . فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية ، ومعه من الرؤس إبراهيم بن الوليد المخلوع ، وسليمان بن هشام ، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان ، فأقام بالرصافة أياماً ثم شخص إلى البرية ، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له ، فانحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فأقام ثلاثا ثم مضى إلى قرقيسيا ، وابن هبيرة بها ليبعثه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري ، واشتغل مروان بهذا الأمر . وأقبل عشرة آلاف فارس ممن كان مروان قد بعثهم فى بعض السرايا ، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان استأذن الخليفة فى المقام هناك للراحة ، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربته ، فاستزله الشيطان فأجابهم إلى ذلك ، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين ، وكاتب أهل الشام فانقضوا إليه من كل وجه ، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذى جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي يأمره بالمسير إليه ، فالتف إليه نحو من سبعين ألفاً ، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم فى نحو من سبعين ألفاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالا شديدا ، وجاء مروان والناس فى الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزمهم وقتل يومئذ إبراهيم بن سليمان بن هشام ، وكان أكبر ولده ، وقتل منهم نيفا وثلاثين ألف ، وذهب سليمان مغلوباً فأتى حمص فالتف عليه من انهزم من الجيش فعسكر بهم فيها وبنى ما كان مروان هدم من سورها . فجاءهم مروان فحاصرهم بها ونصب عليهم نيفا وثمانين

منجنيقا ، فمكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلا ونهاراً ، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلون ثم يرجعون . هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان فى الطريق وهموا بالفتك به وأن ينتهبوه فلم يمكنهم ذلك ، ونهيأ لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريبا من ستة آلاف وهم تسمائة ، وانصرفوا إلى تدمر ، ولزم مروان محاصرة حمص كمال عشرة أشهر ، [فلما تتابع عليهم البلاء ، ولزمهم الذل ، سألوه أن يؤمنهم فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، ثم سألوه الأمان على أن يمكنوه من سعيد بن هشام][1] وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكى الذى كان حبس معه ، ومن حبشى كان يفترى عليه ويشتمه فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك ، ثم سار إلى الضحاك ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق قد صالح الضحاك الخارجى على مابيده من الكوفة وأعمالها ، وجاءت خيول مروان قاصدة إلى الكوفة ، فتلقاها نائبها من جهة الضحاك - ملحان الشيبانى - فقاتلهم فقتل ملحان ، واستناب الضحاك عليها المثنى بن عمران من بنى عائذة ، وسار الضحاك فى ذى القعدة إلى الموصل ، وسار ابن هبيره إلى الكوفة فانتزعها من أيدى الخوارج ، وأرسل الضحاك جيشا إلى الكوفة فلم يجد شيئا .

وفى هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيبانى ، وكان سبب خروجه أن رجلا يقال له سعيد بن بهدل - وكان خارجيا - اغتنم غفلة الناس واشتغالهم بقتل الوليد بن يزيد ، فثار فى جماعة من الخوارج بالعراق ، فالتف عليه أربعة آلاف - ولم تجتمع قبلها لخارجى - فقصدتهم الجيوش فاقتتلوا معهم ، فتارة يكسرون وتارة يُكسرون ، ثم مات سعيد بن بهدل فى طاعون أصابه ، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا ، فالتف أصحابه عليه ، والتقى هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقا كثيرا ، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز - أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - فرثاه بأشعار . ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز بالكوفة ، فنهض إليه أهلها فكسرهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها ، واستناب بها رجلا اسمه حسان ، ثم استناب ملحان الشيبانى فى شعبان من هذه السنة ، وسار هو فى طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق ، فالتقوا فجرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها .

وفى هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بنى العباس عند إبراهيم بن محمد الامام ومعهم أبو مسلم الخراسانى ، فدفعوا إليه نفقات كثيرة ، وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر فى هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة ، والفتن الواقعة بين الناس . وفى هذه السنة خرج بالكوفة معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فدعا إلى نفسه وخرج إلى محاربة أمير العراق عبد الله بن عمر

(١) زيادة من المصرية .

ابن عبد العزيز ، فجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، ثم أجلاه عنها فلحق بالجبال فتغلب عليها .

وفى هذه السنة خرج الحارث بن سريج الذى كان لحق ببلاد الترك ومالأهم على المسلمين فمن الله عليه بالهداية ووفقه حتى خرج إلى بلاد الشام ، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الاسلام وأهله فأجابه إلى ذلك ، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائب سورة[1] ، واستمر الحارث ابن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الامام ، وعنده بعض المناوأة لنصر بن سيار .

قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس فى هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير الحجاز ومكة والمدينة والطائف ، وأمير العراق نضر بن سعيد الحرشى ، وقد خرج عليه الضحاك الحرورى ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد خرج عليه الكرمانى والحارث بن سريج . وممن توفى فى هذه السنة :

بكر بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الملك بن مالك الجزرى وعمير بن هانئ ومالك بن دينار ووهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعى .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة ﴾

فيها كان مقتل الحارث بن سريج ، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب إليه كتاب أمان ، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاة المشركين إلى نصرة الاسلام وأهله . وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار نائب خراسان وحشة ومنافسات كثيرة يطول ذكرها ، فلما صارت الخلافة إلى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك . وتولى ابن هبيرة نيابة العراق ، وجاءت البيعة لمروان ، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم فى مروان ، وجاءه مسلمة بن أحوز أمير الشرطة ، وجماعة من رؤس الأجناد والأمراء ، وطلبوا منه أن يكف لسانه ويده ، وأن لا يفرق جماعة المسلمين ، فأبى وبرز ناحية عن الناس ، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته ، واستمر هو على خروجه على الاسلام . وأمر الجهم بن صفوان مولى بنى راسب ويكنى بأبى محرز ــ وهو الذى نسبت إليه الفرقة الجهمية ــ أن يقرأ كتابا فيه سيرة الحارث على الناس ، وكان الحارث يقول أنا صاحب الرايات السود . فبعث إليه نصر يقول : لئن كنت ذاك فلعمرى إنكم الذين تخربون سور دمشق وتزيلون بنى أمية ، فخذ منى خمسمائة رأس ومائة بعير ، وإن كنت غيره فقد أهلكت عشيرتك . فبعث إليه الحارث يقول : لعمرى إن هذا لكائن . فقال له نصر : فابدأ بالكرمانى أولا ، ثم سر إلى الرى ، وأنا فى طاعتك إذا وصلتها . ثم تناظر نصر والحارث ورضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان [فحكما

(١) كذا . ولعل فيه تحريفاً صوابه (نائب خراسان)

أن يعزل نصر ويكون الأمر شورى . فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم بن صفوان [1] وغير قراءة سيرة الحارث على الناس فى الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق كثير ، وجم غفير فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار ، فقصدوه فحارب دونه أصحابه ، فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل فى فيه فقتله ، ويقال بل أسر الجهم فأوقف بين يدى سلم بن أحوز فأمر بقتله ، فقال : إن لى أمانا من أبيك ، فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله ولو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . ثم اتفق الحارث بن سريج والكرمانى على نصر ومخالفته ، والدعوة إلى الكتاب والسنة واتباع أئمة الهدى وتحريم المنكرات إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة ، ثم اختلفا فيما بينهما واقتتلا قتالا شديدا ، فغلب الكرمانى وانهزم أصحاب الحارث . وكان راكبا على بغل فتحول إلى فرس فحرنت أن تمشى ، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه منهم سوى مائة ، فأدركه أصحاب الكرمانى فقتلوه تحت شجرة زيتون ، وقيل تحت شجرة عبيرا . وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة ، وقتل معه مائة من أصحابه ، واحتاط الكرمانى على حواصله وأمواله ، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً ، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو ، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث قال فى ذلك :

يا مدخل الذل على قومه * بعدا وسحقا لك من هالك
شؤمك أردى مُضَرا كلها * وغضَّ من قومك بالحارك
ما كانت الازد وأشياعها * تطمع فى عمرو ولا مالك
ولا بنى سعد إذ ألجموا * كل طِمِرٍّ لونه حالك

وقد أجابه عباد [2] بن الحارث بن سريج فيما قال :

ألا يا نصر قد برح الخفاء * وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو * تقضى فى الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم * على مضر وإن جار القضاء
وحمير فى مجالسها قعود * ترقرق فى رقابهم الدماء
فان مضر بذا رضيت وذلت * فطال لها المذلة والشقاء
وإن هى أعتبت فيها وإلا * فحل على عساكرها العفاء

وفى هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أبامسلم الخراسانى إلى خراسان

(١) زيادة من المصرية (٢) فى المصرية عتاب وفى نسخه القسطنطينية غياث وصححناه من تاريخ ابن جرير الطبرى ٩ : ٧٤

وكتب معه كتبا إلى شيعتهم بها : إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد وليته على ماغلب عليه من أرض خراسان . فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب ، لم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم ، فرجع إلى إبراهيم بن محمد أيام الموسم ، فاشتكاهم إليه وأخبره بما قابلوه من المخالفة ، فقال له : ياعبد الرحمن ! إنك رجل منا أهل البيت ، إرجع إليهم وعليك بهذا الحى من اليمن فأكرمهم وانزل بين أظهرهم فان الله لايتمم هذا الأمر إلا بهم . ثم حذره من بقية الأحياء وقال له : إن استطعت أن لاتدع بتلك البلاد لسانا عربيا فافعل ، ومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله ، وعليك بذلك الشيخ فلا تقصه - يعنى سليمان بن كثير - وسيأتى ما كان من أمر أبى مسلم الخراسانى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجى فى قول أبى مخنف ، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط ووافقه على محاصرته منصور بن جمهور ، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه : إنه لافائدة لك فى محاصرتى ولكن عليك بمروان بن محمد فسر إليه ، فان قتلته اتبعتك . فاصطلحا على مخالفة مروان بن محمد أمير المؤمنين ، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها فمال إليهم فدخلها ، وقتل نائبها واستحوذ عليها ، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حمص ، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه ، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان - وكان الضحاك قد التف عليه مائة ألف وعشرون ألفا فحاصروا نصيبين - وساق مروان فى طلبه فالتقيا هنالك ، فاقتتلا قتالا شديدا، فقتل الضحاك فى المعركة وحجز الليل بين الفريقين ، وفقد أصحاب الضحاك الضحاك وشكوا فى أمره حتى أخبرهم من رآه قد قتل ، فبكوا عليه وناحوا ، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى ، وجاء الخبر إلى مروان وهو مقتول ، وفى رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة ، فأمروا برأسه فطيف به فى مدائن الجزيرة . واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلا يقال له الخيبرى ، فالتف عليه بقية جيش الضحاك ، والتف مع الخيبرى سليمان ابن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ، والجيش الذين كانوا قد بايعوه فى السنة الماضية على الخلافة ، وخلعوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله ، فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان ، فحمل الخيبرى فى أربعمائة من شجعان أصحابه على مروان ، وهو فى القلب ، فكر منهزما واتبعوه حتى أخرجوه من الجيش ، ودخلوا عسكره وجلس الخيبرى على فرشه ، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله ، وميسرته أيضا ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلى . ولما رأى عبد الله العسكر فارين مع الخيبرى ، وأن الميمنة والميسرة من جهتهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها ، وبلغ قتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة ، فرجع مسرورا وانهزم أصحاب الضحاك ،

وقد ولوا عليهم شيبان ، فقصدهم مروان بعد ذلك بمكان يقال له الكراديس فهزمهم .

وفيها بعث مروان الحمار على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل من بها من الخوارج .

وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف ، وأمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار .

وممن توفي في هذه السنة بكر بن سوادة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان ، مقتولا كما تقدم ، والحارث ابن سريج أحد كبراء الأمراء ، وقد تقدم شيء من ترجمته ، وعاصم بن عبدلة ، وأبو حصين عثمان بن عاصم ، ويزيد بن أبي حبيب ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وأبو حمزة النعنبعي ، وأبو الزبير المكي وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المغافري . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة ﴾

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخيبري على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلا لهم ، فتحولوا إليها وتبعهم مروان ابن محمد أمير المؤمنين ، فعسكروا بظاهرها وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان . وقد خندق مروان على جيشه أيضا من ناحيتهم ، وأقام ستة يحاصرهم ويقتتلون في كل يوم بكرة وعشية ، وظفر مروان بابن أخ لسليمان بن هشام ، وهو أمية بن معاوية بن هشام ، أسره بعض جيشه ، فأمر به فقطعت يداه ثم ضرب عنقه ، وعمه سليمان والجيش ينظرون إليه . وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن عمر بن هبيرة [يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده . فجرت له معهم وقعات عديدة ، فظفر بهم ابن هبيرة][1] وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية بالعراق ، واستنقذ الكوفة من أيدي الخوارج ، وكان عليها المثنى بن عمران العائذي - عائذة قريش - في رمضان من هذه السنة ، وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمده بعامر بن صبارة - وكان من الشجعان - فبعثه إليه في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف ، فأرسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاعترضوه في الطريق فهزمهم ابن صبارة وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي ، وأقبل نحو الموصل ، ورجع فل الخوارج إليهم . فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل ، فانه لم يكن يمكنهم الاقامة بها ، ومروان من أمامهم وابن صبارة من ورائهم ، قد قطع عنهم الميرة حتى لم يجدوا شيئا يأكلونه ، فارتحلوا عنها وساروا على حلوان إلى الأهواز ، فأرسل مروان ابن صبارة في آثارهم في ثلاثة آلاف ، فاتبعهم يقتل من تخلف منهم ويلحقهم في مواطن فيقاتلهم ، وما زال وراءهم حتى فرق شملهم شذر مذر ، وهلك أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة القابلة ، قتله خالد بن مسعود بن جعفر بن خليد الأزدي . وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند ، ورجع

(١) هذه الزيادة من نسخة أخرى في الأستانة .

مروان من الموصل فأقام بمنزله بحران [وقد وجد سروراً بزوال الخوارج ، ولكن لم يتم سروره ، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعا ، وأشد بأسا من الخوارج ، وهو ظهور أبى مسلم الخراسانى الداعية إلى دولة بنى العباس] . (١)

{ أول ظهور أبى مسلم الخراسانى }

وفى هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الامام العباسى بطلب أبى مسلم الخراسانى من خراسان ، فسار إليه فى سبعين من النقباء ، لا يمرون ببلد إلا سألوهم إلى أين تذهبون ؟ فيقول أبو مسلم : نريد الحج . و إذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلا إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الامام إلى أبى مسلم : إنى بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة ، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الامام فيوافيه فى الموسم ، فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان فى أول يوم من رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه : أن أظهر دعوتك ولاتتربص . فقدموا عليهم أبا مسلم الخراسانى داعيا إلى بنى العباس ، فبعث أبو مسلم دعاته فى بلاد خراسان ، وأمير خراسان ــ نصر بن سيار ــ مشغول بقتال الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الحرورى ، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم عليه أصحابه بالخلافة فى طوائف كثيرة من الخوارج ، فظهر أمر أبى مسلم وقصده الناس من كل جانب ، فكان ممن قصده فى يوم واحد أهل ستين قرية ، فأقام هناك اثنين وأربعين يوما ، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة . ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان فى هذه السنة ، عقد أبو مسلم اللواء الذى بعثه إليه الامام ، ويدعى الظل ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعا ، وعقد الراية التى بعث بها الامام أيضاً ، وتدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، وهما سوداوان ، وهو يتلو قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير) ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة ، السواد ، وصارت شعارهم ، وأوقدوا فى هذه الليلة ناراً عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحى ، وكانت علامة بينهم فتجمعوا . ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض ، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . وأقبل الناس إلى أبى مسلم من كل جانب ، وكثر جيشه .

ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بالناس ، ونصب له منبراً ، وأن يخالف فى ذلك بنى أمية ، و يعمل بالسنة ، فنودى الصلاة الصلاة جامعة ، ولم يؤذن ولم يقم خلافا

(١) هذه الزيادة من نسخة أخرى فى الأستانة .

لهم . و بدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وكبر ستاً فى الأولى قبل القراءة ، لا أربعاً . وخمساً فى الثانية لا ثلاثا ، خلافا لهم . وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة ، وانصرف الناس من صلاة العيد وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدى الناس ، وكتب إلى نصر بن سيار كتابا بدأ فيه بنفسه ثم قال إلى نصر بن سيار . بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان الله عير أقواماً فى كتابه فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) إلى قوله (تحويلا) فعظم على نصر أن قدم اسمه على اسمه ، وأطال الفكر ، وقال : هذا كتاب له جواب .

قال ابن جرير : ثم بعث نصر بن سيار خيلا عظيمة لمحاربة أبى مسلم ، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً ، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعى ، فالتقوا ، فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول الله ﷺ فأبوا ذلك ، فتصافوا من أول النهار إلى العصر ، فجاء إلى مالك مدد فقوى فظفر بهم مالك ، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه جند بنى العباس وجند بنى أمية .

وفى هذه السنة غلب خازم بن خزيمة على مرو الروذ وقتل عاملها من جهة نصر بن سيار ، وهو بشر بن جعفر السعدى ، وكتب بالفتح إلى أبى مسلم ، وكان أبو مسلم إذ ذاك شاباً حدثاً قد اختاره إبراهيم لدعوتهم . وذلك لشهامته وصرامته ، وقوة فهمه وجودة ذهنه ، وأصله من سواد الكوفة ، وكان مولى لادريس بن معقل العجلى ، فاشتراه بعض دعاة بنى العباس بأربعمائة درهم ، ثم أخذه محمد بن على ثم آل ولاؤه لآل العباس ، و زوجه إبراهيم الامام بابنة أبى النجم إسماعيل بن عمران ، وأصدقها عنه وكتب إلى دعاتهم بخراسان والعراق أن يسمعوا منه ، فامتثلوا أمره ، وقد كانوا فى السنة الماضية قبل هذه السنة ردوا عليه أمره لصغره فيهم ، فلما كانت هذه السنة أكد الامام كتابه إليهم فى الوصاة به وطاعته ، وكان فى ذلك الخير له ولهم (وكان أمر الله قدراً مقدورا) ولما فشا أمر أبى مسلم بخراسان تعاقدت طوائف من العرب الذين بها على حربه ومقاتلته ، ولم يكره الكرمانى وشيبان لأنهما خرجا على نصر وأبو مسلم مخالف لنصر كحالهما ، وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان الحمار ، وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبى مسلم ، أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه ، فاذا قتل أبا مسلم عادا إلى عداوتهما ، فأجابه إلى ذلك ، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى الكرمانى يعلمه بذلك فلام الكرمانى شيبان على ذلك ، وثناه عن ذلك ، و بعث أبو مسلم إلى هراة النضر بن نعيم فأخذها من عاملها عيسى بن عقيل الليثى ، وكتب إلى أبى مسلم بذلك ، وجاء عاملها إلى نصر هاربا ، ثم إن شيبان وادع نصر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه و بينه ، وذلك عن كره من الكرمانى ، فبعث ابن الكرمانى إلى أبى مسلم إنى معك على قتال نصر ، وركب أبو مسلم فى خدمة الكرمانى فاتفقا على حرب نصر ومخالفته ، وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه ، واستعمل على الحرس والشرط

والرسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج إليه الملك عمالا ، وجعل القاسم بن مجاشع التميمى - وكان أحد النقباء - على القضاء وكان يصلى بأبى مسلم الصلوات ، و يقص بعض القصص فيذكر محاسن بنى هاشم و يذم بنى أمية . ثم تحول أبو مسلم إلى قرية يقال لها بالين ، وكان فى مكان منخفض ، فخشى أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء ، وذلك فى سادس ذى الحجة من هذه السنة ، وصلى بهم يوم النحر القاضى القاسم بن مجاشع ، وصار نصر بن سيار فى جحافل كالسحاب قاصدا قتال أبى مسلم ، واستخلف على البلاد نوابا وكان من أمرهما ماسنذكره فى السنة الآتية .

﴿ مقتل ابن الكرمانى ﴾

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار و بين ابن الكرمانى - وهو جديع بن على الكرمانى - فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكاتب كلا من الطائفتين و يستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر و إلى ابن الكرمانى : إن الامام قد أوصانى بكم خيراً ولست أعدو رأيه فيكم ، وكتب إلى الكور يدعو إلى بنى العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وأقبل أبو مسلم فنزل بين خندق نصر وخندق ابن الكرمانى ، فهابه الفريقان جميعا ، وكتب نصر بن سيار إلى مروان يعلمه بأمر أبى مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب فى جملة كتابه :

أرى بين الرماد وميض جمر * واحرى أن يكون له ضرام
فان النار بالعيدان تذكى * و إن الحرب مبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى * أيقاظ أمية أم نيام

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده . و بعضهم يرويها بلفظ آخر :-

أرى خلل الرماد وميض نار * فيوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعيدان تذكى * و إن الحرب أولها كلام
فان لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعرى * أيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام

قال ابن خلكان : وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد و إبراهيم ابنا عبد الله بن الحسين على المنصور أخى السفاح :

أرى ناراً تشب على بقاع * لها فى كل ناحية شعاع
وقد رقدت بنو العباس عنها * وباتت وهى آمنة رتاع
كما رقدت أمية ثم هبت * تدافع حين لا يغنى الدفاع

وكتب نصر بن سيار أيضا إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده وكتب إليه :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه * وقد تحققتُ أن لاخير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها * بيضا إذا أفرخت حُدثتَ بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت * ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يُحتل لهن بها * يلهبن نيران حرب أيما لهب

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق فى وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولا من جهة إبراهيم الامام ومعه كتاب منه إلى أبى مسلم ، وهو يشتمه فيه و يسبه ، و يأمره أن يناهض نصر بن سيار وابن الكرمانى ، ولايترك هناك من يحسن العربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره فيه أن يذهب إلى الحيمة ، وهى البلدة التى فيها إبراهيم بن محمد الامام ، فيقيده و يرسله إليه . فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم الامام جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق ، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان ، فأمر به فسجن ثم قتل كما سيأتى .

وأما أبو مسلم فانه لما توسط بين جيش نصر وابن الكرمانى ، كاتب ابن الكرمانى : إنى معك فمال إليه ، فكتب إليه نصر و يحك لاتغتر فانه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك ، فهلم حتى نكتب كتابا بيننا بالموادعة ، فدخل ابن الكرمانى داره ثم خرج إلى الرحبة فى مائة فارس ، و بعث إلى نصر هلم حتى نتكاتب ، فأبصر نصر غرة من ابن الكرمانى فنهض إليه فى خلق كثير ، فحملوا عليه فقتلوه وقتلوا من جماعته جماعة ، وقتل ابن الكرمانى فى المعركة ، طعنه رجل فى خاصرته نخر عن دابته ، ثم أمر نصر بصلبه وصلب معه جماعة ، وصلب معه سمكة ، وانضاف ولده إلى أبى مسلم الخراسانى ومعه طوائف من الناس من أصحاب ابن الكرمانى ، فصاروا كتفا واحداً على نصر .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها ، وعلى حلوان وقومس واصبهان والرى ، بعد حرب يطول ذكرها ، ثم التقى عامر بن ضبارة معه باصطخر فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا . فكان منهم عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس ، فنسبه ابن ضبارة وقال له : ماجاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمير المؤمنين ؟ فقال : كان علىَّ دين فأتيته فيه . فقام إليه [حرب بن] قطن بن وهب الهلالى فاستوهبه منه وقال : هو ابن أختنا فوهبه له ، وقال : ما كنت لأقدم على رجل من قريش ، ثم استعلم ابن ضبارة منه أخبار ابن معاوية فذمه ورماه هو وأصحابه باللواط ، وجيء من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة ، وقد كان يعمل معهم الفاحشة ، وحمل ابن ضبارة عبد الله بن على على البريد لابن هبيرة ليخبره بما أخبر به

ابن ضبارة عن ابن معاوية . وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك بني أمية يكون على يدي هذا الرجل ، وهو عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس ، ولا يشعر واحد منهم بذلك .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة ولي الموسم أبو حمزة الخارجي فأظهر التحكم والمخالفة لمروان ، وتبرأ منه . فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ أمير مكة والمدينة والطائف ، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فوقفوا على حدة بين الناس بعرفات ، ثم تحيزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة فدخلها الخارجي بغير قتال ، فقال بعض الشعراء في ذلك :ـ

زار الحجيج عصابة قد خالفوا * دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والامارة هاربا * ومضى يخبط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصَّل عرقه * لصفت موارده بعرق الوارد

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخارجي ، و بذل النفقات و زاد في أعطية الأجناد ، وسيرهم سريعاً . وكان أمير العراق يزيد بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني . وممن توفي فيها من الأعيان :

سالم أبو النضر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، في قول ، و يحيى بن أبي كثير . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل ولله الحمد .

﴿ سنة ثلاثين ومائة ﴾

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأولى منها ، دخل أبو مسلم الخراساني مرو ، ونزل دار الامارة بها ، وانتزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة على بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلة من الناس ، نحو من ثلاثة آلاف ، ومعه امرأته المرزبانة ، حتى لحق سرخس وترك امرأته وراءه ، ونجا بنفسه ، واستفحل أمر أبي مسلم جداً ، والتفت عليه العساكر .

﴿ مقتل شيبان بن سلمة الحروري ﴾

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيبان وكان ممالئا له على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلا فحبسهم فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله ، فسار إليه فاقتتلا فهزمه بسام فقتله واتبع أصحابه يقتلهم و يأسرهم ، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابني الكرماني ، ثم وجه أبو مسلم أبا داود إلى بلخ فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري ، وأخذ منهم أموالا جزيلة . ثم إن أبا مسلم اتفق مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا ، وفي ذلك اليوم بعينه يقتل أبو مسلم على بن جديع الكرماني ، فوقع ذلك كذلك .

وفى هذه السنة وجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار ، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء ، منهم خالد بن برمك . فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس ، فقتل قحطبة من أصحاب نصر نحواً من سبعة عشر ألفاً فى المعركة ، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مدداً نحو عشرة آلاف فارس ، عليهم على بن معقل ، فاقتتلوا فقتلوا من أصحاب نصر خلقاً كثيراً ، وقتلوا تميم بن نصر ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، ثم إن يزيد بن عمر بن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية مدداً لنصر بن سيار ، فالتقى معهم قحطبة فى مستهل ذى الحجة ، وذلك يوم الجمعة . فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم جند بنى أمية ، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف ، منهم نباتة بن حنظلة عامل جرجان ، فبعث قحطبة برأسه إلى أبى مسلم .

﴿ ذكر دخول أبى حمزة الخارجى المدينة النبوية واستيلائه عليها مدة ثلاثة أشهر حتى ارتحل عنها ﴾

قال ابن جرير : وفى هذه السنة كانت وقعة بقديد بين أبى حمزة الخارجى الذى كان عام أول فى أيام الموسم ، فقتل من أهل المدينة من قريش خلقا كثيراً ، ثم دخل المدينة وهرب نائبها عبد الواحد ابن سليمان ، فقتل الخارجى من أهلها خلقاً ، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة ، ثم خطب على منبر رسول الله ﷺ فوبخ أهل المدينة ، فقال : يا أهل المدينة إنى مررت بكم أيام الأحول - يعنى هشام بن عبد الملك - وقد أصابتكم عاهة فى ثماركم فكتبتم إليه تسألونه أن يضع الخرص عنكم فوضعه ، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً ، فكتبتم إليه جزاك الله خيراً ، فلا جزاه الله خيراً . فى كلام طويل . فأقام عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهرى ربيع وبعض جمادى الأول فيما قال الواقدى وغيره . وقد روى المدائنى أن أبا حمزة رقى يوما منبر رسول الله ﷺ ثم قال : تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطرا ولا أشرا ، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار ، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحق طمست ، وضعف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فأجبنا داعى الله (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أقبلنا من قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لحافا واحداً قليلون مستضعفون فى الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره ، فأصبحنا والله بنعمة الله إخوانا ، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بنى مروان ، فشتان لعمر الله بين الغى والرشد ، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله ، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب ، بكل مهند ذى رونق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضرب يرتاب منه المبطلون ، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو

بأيدينا ، و يشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهـل المدينـة أولـكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينـة الناس منا ونحن منهـم ، إلا مشركا عابد وثن أو كافراً أهل كتاب ، أو إماما جاراً . يا أهل المدينة من زعم أن الله يكلف نفسا فوق طاقتها ، أو يسألها مالم يؤتها ، فهو لله عدو ، وأنا له حرب . يا أهل المدينة أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله فى كتابه على القوى والضعيف ، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذها لنفسه ، مكابراً محارباً لربه ، يا أهـل المدينة بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى قلتم شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف ، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا أحداثا ، شبابا والله مكتهلون فى شبابهم ، غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن السعى فى الباطل أقدامهم ، قد باعوا لله أنفسا تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية اصـلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار ، و إذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة . فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت ، و إلى الرماح قد شرعت ، و إلى السهام قد فوقت ، وارعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله فى القرآن ، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين فى مناقير الطاير طال ما فاضت فى جوف الليل من خشية الله ، وطال ما بكت خالية من خوف الله ، وكم من يد زالت عن مفصلها طال ما ضربت فى سبيل الله وجاهدت أعداء الله . وطال ما اعتمدها صاحبها فى طاعة الله . أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرى ، وما توفيقى إلا بالله .

ثم روى المدائنى عن العباس عن هارون عن جـده قال : كان أبو حمزة الخارجى قـد أحسن السيرة فى أهل المدينة فمالوا إليه حتى سمعوه [يقول] برح الخفا أين عن بابك نذهب [ثم قال] من زنا فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، فعنـد ذلك أبغضوه و رجعوا عن محبته . وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبـد الملك بن محمد بن عطية أحـد بنى سعد فى خيل أهل الشام أربعة آلاف ، قـد انتخبها مروان من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرساً عربية ، و بغلا لثقله ، وأمره أن يقاتله ولا يرجع عنـه ، ولو لم يلحقه إلا باليمن فليتبعه إليها ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى . فسار ابن عطية حتى بلغ وادى القرى فتلقاه أبو حمزة الخارجى قاصداً قتال مروان بالشام ، فاقتتلوا هنالك إلى الليل ، فقال له : ويحك يا ابن عطية ! إن الله قـد جعل الليل سكناً فأخر إلى غد ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله ، فما زال يقاتلهم حتى كسرهم فولوا ورجع فلهـم إلى المدينة ، فنهض إليهم أهل المدينة فقتلوا منهـم خلقا كثيرا ، ودخل ابن عطية المدينة ، وقد انهزم جيش أبى حمزة عنها ، فيقال إنه أقام بها شهرا ثم استخلف عليها ، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن فخرج إليه عبد الله ابن يحيى نائب صنعاء ، فاقتتلا فقتله ابن عطية و بعث برأسـه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليـه

يأمره بإقامة الحج للناس فى هذه السنة ، و يستعجله فى المسير إلى مكة . فخرج من صنعاء فى اثنى عشر راكبا ، وترك جيشه بصنعاء ، ومعه خرج فيه أربعون ألف دينار ، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جمانة من سادات تلك الناحية ، فقالوا : ويحكم أنتم لصوص . فقال : أنا ابن عطية وهذا كتاب أمير المؤمنين إلىّ بأمرة الحج ، فنحن نعجل السير لندرك الموسم ، فقالوا : هذا باطل ، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد . وأخذوا ما معهم من المال .

قال أبو معشر : وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت اليه إمرة المدينة ومكة والطائف ، ونائب العراق ابن هبيرة ، و إمرة خراسان إلى نصر بن سيار ، غير أن أبا مسلم قد استحوذ على مدن وقرى كثيرة من خراسان ، وقد أرسل نصر إلى ابن هبيرة يستمده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائة ألف ، وكتب أيضا إلى مروان يستمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يمده بما أراد .

وممن توفى فيها من الأعيان شعيب بن الحبحاب ، وعبد العزيز بن صهيب ، وعبد العزيز بن رفيع ، وكعب بن علقمة ، ومحمد بن المنكدر . والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة ﴾

فى المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قومس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالامداد ، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فنزل الرى ، فأقام بها يومين ثم مرض فسار منها إلى همدان فلما كان بساوة قريبا من همدان توفى لمضى ثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة . فلما مات نصر تمكن أبو مسلم وأصحابه من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم جدا ، وسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيرى ، وكان قد ندم على اتباع أبى مسلم ، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتى ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراءه جيشا فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراءه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، و بعث ابنه بين يديه إلى الرى ثم ساق وراءه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبى مسلم بذلك . وارتحل أبو مسلم من مرو فنزل نيسابور واستفحل أمره ، وبعث قحطبة بعد دخوله الرى ابنه الحسن بين يديه إلى همدان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدهم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فنزلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همدان ثم سار وراءهم إلى نهاوند ، وبعث إليه أبوه بالأمداد فحاصرهم حتى افتتحها .

وفى هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى

قحطبة وأمده بالعساكر ، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة فى عشرين ألفا ، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادى : يا أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى مافى هذا المصحف فشتموا المنادى وشتموا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة ، واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وقتلوا ابن ضبارة فى العسكر [لشجاعته فانه لم يول] وأخذوا من عسكرهم مالا يحد ولا يوصف .

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصارا شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يمهل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أمانا ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : مافعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أمانا ، فخرجوا ظانين أنهم فى أمان ، فقال قحطبة للامراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه ، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان هرب من أبى مسلم أحد ، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً . ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهر زور ، عن أمر أبى مسلم فى ثلاثين ألفا فافتتحها ، وقتل نائبها عثمان بن سفيان . وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة و بعث إلى قحطبة بذلك ، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبى مسلم وما وقع من أمرهما ، تحول مروان من حران فنزل بمكان يقال له الزاب الأكبر .

وفيها قصد قحطبة فى جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة . فلما اقترب منه تقهقر ابن هبيرة إلى ورائه ، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة فجازها وراءه ، وكان من أمرهما ماسنذكره فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة ﴾

فى المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلى الفلوجة ، فى خلق كثير وجم غفير ، وقد أمده مروان بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة . ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبعه ابن هبيرة . فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضين من المحرم اقتتلوا قتالا شديداً وكثر القتل فى الفريقين ، ثم ولى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان ، وفقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر . وقتل فى هذه الليلة جماعة من الأمراء . والذى قتل قحطبة معن ابن زائدة ، ويحيى بن حصين . وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثأر ابنى نصر بن سيار فالله أعلم . ووجد قحطبة فى القتلى فدفن هنالك ، وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة ، وقد خرج بها

محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوّد ، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هـذه السـنة ، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، وتحول محمـد بن خالد إلى قصر الامارة فقصده حوثرة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثرة يذهبون إلى محمـد بن خالد فيبايعونه لبني العباس ، فلما رأى حوثرة ذلك ارتحل إلى واسط ، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخـلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخـلال ، وهو بالكوفة ، فلما قـدموا عليـه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعـة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البعوث إلى كل جانب يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها مسلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبـد الله بن أسـيد الخزاعي فأخـذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هـذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخـذت البيعة لأبي العباس السفاح ، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة فالله أعلم .

﴿ ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الامام ﴾

[أخي السفاح ، وهو الذي كانت الدعوة له ، أرسل أبا مسلم إلى بلاد خراسان ليدعو الناس إلى البيعة له كما تقدم ذلك] [1] .

قـد ذكرنا في سـنة تسع وعشرين ومائة أن مروان اطلع عـلى كتاب من إبراهيم الامام إلى أبي مسـلم الخراساني ، يأمره فيـه بأن لا يبقي أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده ، فلمـا وقف مروان عـلى ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له هو بالبلقاء ، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره فبعث نائب دمشق بريدا ومعه صفته ونعته ، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح فاعتقد أنه هو فأخـذه فقيل له : إنه ليس به ، وإنما هو أخوه ، فدل على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له كان يحبـها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من يومهم إليها ، منهم أعمامه الستة وهم : عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنوا علي ، وأخواه أبو العباس السفاح ، ومحمد ابنا محمد بن علي ، وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الامام المسوك ، وخلق سواهم . فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخـلال دار الوليد بن سـعد ، مولى بني هاشم ، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من القواد

(١) زيادة من نسخة الأستانة .

والأمراء ، ثم ارتحل بهم إلى موضع آخر ، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان حتى فتحت البلاد . ثم بويع للسفاح . وأما إبراهيم بن محمد الامام فانه سير به إلى أمير المؤمنين فى ذلك الزمان مروان ابن محمد وهو بحران فحبسه ،وما زال فى السجن إلى هذه السنة، فمات فى صفر منها فى السجن ، عن ثمان وأربعين سنة . وقيل إنه غمّ بمرقفة وضعت على وجهه حتى مات عن إحدى وخمسين سنة ، وصلى عليه رجل يقال له بهلول بن صفوان ، وقيل إنه هدم عليه بيت حتى مات ، وقيل بل سقى لبنا مسموماً فمات ، وقيل إن إبراهيم الامام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك لأنه وقف فى أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له : إن أبا مسلم يدعو الناس إلى هذا و يسمونه الخليفة ، فبعث إليه فى المحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله فى صفر من هذه السنة ، وهذا أصح مما تقدم : وقيل إنه إنما أخذه من الكوفة لامن حميمة البلقاء فالله أعلم .

وقد كان إبراهيم هذا كريما جوادا له فضائل وفواضل ، وروى الحديث عن أبيه عن جده ، وأبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله السفاح ،وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وأبو سلمة عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى ، ومالك بن هاشم . ومن كلامه الحسن : الكامل المروءة من أحرز دينه ، ووصل رحمه ، واجتنب مايلام عليه .

﴿ خلافة أبى العباس السفاح ﴾

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل على ابن أبى طالب ، فغلبه بقية النقباء والأمراء ، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة ، وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة . وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال ، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت صلاة الجمعة خرج السفاح على برذون أبلق ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الامارة ، ثم خرج إلى المسجد الجامع وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر و بايعه الناس وهو على المنبر فى أعلاه ، وعمه داود ابن على واقف دونه بثلاث درج ، وتكلم السفاح ، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه دينا ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ، ووضعنا بالاسلام وأهله فى الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم . فقال تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً) وقال (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) وقال : (وأنذر عشيرتك

الأقربين) وقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين) الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفئ والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبابية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم . أيها الناس بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم النقيصة وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دنياهم ، وإخوانا على سرر متقابلين فى أخراهم ، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد ﷺ ، فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصا منها . ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم ، وتداولوها . فجاروا فيها واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً (فلما آسفونا انتقمنا منهم) فانتزع منهم ما بأيديهم بأيدينا ، ورد الله علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإنى لأرجو [أن] لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح الهائج والثائر المبير . وكان به وعك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهض عمه داود فقال : الحمد لله شكراً الذى أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا . أيها الناس الآن انقشعت حنادس الظلمات وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، فطلعت شمس الخلافة من مطلعها ، ورجع الحق إلى نصابه ، إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم ، أيها الناس إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكنز لجينا ولا عقياناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبنى قصراً ولا لنجمع ذهبا ولا فضة ، وإنما أخرجتنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبنى عمنا ، ولسوء سيرة بنى أمية فيكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا تبا لبنى أمية وبنى مروان ، آثروا العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد ، وسنتهم فى البلاد التى بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا فى أعنة المعاصى ، وركضوا فى ميادين الغى ، جهلا منهم باستدراج الله ، وعميا عن أخذ الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ،

فبعداً للقوم الظالمين . وأدان الله من مروان ، وقد غره بالله الغرور ، أرسل عدو الله في عنانه حتى عثر جواده في فضل خطامه ، أظن عدو الله أن لن يقدر عليه أحد ؟ فنادى حزبه وجمع جنده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وأحل دائرة السوء به ، وأحاط به خطيئته ، ورد إلينا حقنا وآوانا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله مروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . المتوكل على الله المقتدى بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج التقى . قال فعج الناس له بالدعاء ثم قال : واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ـ وأشار بيده إلى السفاح ـ واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر . ثم دخل الناس يبايعون إلى العصر ، ثم من بعد العصر إلى الليل .

ثم إن أبا العباس خرج فعسكر بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود ، وبعث عمه عبد الله ابن على إلى أبي عون بن أبي يزيد ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة . وهو يومئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة ، وبعث يحيى بن [جعفر بن] تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن ، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز ، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالعسكر أشهراً ، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الامارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه من العدول بالخلافة عن ابن العباس إلى آل على بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ ذكر مقتل مروان بن محمد بن مروان ﴾

آخر خلفاء بني أمية ، وتحول الخلافة إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى (والله يؤتى ملكه من يشاء) وقوله (قل اللهم مالك الملك) الآية . وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه وما جرى بأرض خراسان ، تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل ، يقال له الزاب من أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفت عليه الجنود ، واجتمع له أمره ، شق عليه جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو أحد أمراء السفاح ، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ، ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل

بيته ، فانتدب له عبد الله بن علي فقال : سر علـى بركة الله ، فسار فى جنود كثيرة فقدم عـلى أبى عون فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيـه ، وجعل عبد الله بن على على شرطته حياش ابن حبيب الطائى ، ونصير بن المحتفز ، ووجـه أبو العباس موسى بن كعب فى ثلاثين رجـلا على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان ، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور ، وتبرد نيران الحرب . فتقـدم عبـد الله بن على بجنوده حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان فى جنوده وتصاف الفريقان فى أول النهار ، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفا ، ويقال مائة وعشرون ألفاً ، وكان عبد الله بن على فى عشرين ألفا . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر ابن عبـد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم ، وإن قاتلونا قبل الزوال فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم أرسل مروان إلى عبـد الله بن على يسأله الموادعة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لاتزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله ، وكان ذلك يوم السبت لاحـدى عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان : قفوا لاتبتدئون بقتال ، وجعل ينظر إلى الشمس فخالفه الوليـد بن معاوية بن مروان ـ وهو ختن مروان على ابنته ـ فحمل ، فغضب مروان فشتمه فقاتل أهـل الميمنة فانحاز أبو عون إلى عبد الله بن على ، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن على ، فأمر الناس فنزلوا ونودى الأرض الأرض ، فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلوهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يُدفعون ، وجعل عبد الله يمشى قدما ، وجعل يقول : يارب حتى متى نقتل فيك ، ونادى : يا أهل خراسان ، ياثارات إبراهيم الامام ، يامحمد يامنصور ، واشتد القتال جـداً بين الناس ، فلا تسمع إلاوقعاً كالمرازب على النحاس ، فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا ، وأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا : قل لبنى عامر أن يحملوا ، فأرسل إلى السكون أن احمـلوا فقالوا : قل إلى غطفان فليحملوا . فقال لصاحب شرطته : انزل فقال لا والله لا أجعل نفسى غرضا . قال : أما والله لأسوءنك . قال : وددت والله لو قدرت على ذلك .

ويقال : إنه قال ذلك لابن هبيرة . قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان فى أدبارهم يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل وكان فى جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، وقد أمر عبد الله بن على بعقد الجسر ، واستخراج من غرق فى الماء ، وجعل يتلو قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وأقام عبد الله ابن على فى موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص فى مروان وفراره يومئذ :

لج الفرار بمروان فقلت له * عاد الظلوم ظليما همه الهرب

أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت * عنك الهوينا فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب و إن * تطلب نداه فكلب دونه كلب

واحتاز عبد الله مافى معسكر مروان من الأموال والامتعة والحواصل ، ولم يجـد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبـد الله بن مروان ، وكتب إلى أبى العباس السفاح بما فتح الله عليـه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال . فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة ، و رفع فى أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله (فلما فصل طالوت بالجنود) الآية

﴿ صفة مقتل مروان ﴾

لما انهزم مروان سار لايلوى على أحد ، فأقام عبد الله بن على فى مقام المعركة سبعة أيام ، ثم سار خلفه بمن معـه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذلك ، فلما مر مروان بحران اجتازها وأخرج أبا محمد السفيانى من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد ـ وهو ابن أخته ، وزوج ابنته أم عثمان ـ فلما قدم عبد الله على حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبـد الله بن على وأقره على عمله ، وهدم الدار التى سجن فيها إبراهيم الامام ، واجتاز مروان قنسرين قاصداً حمص ، فلما جاءها خرج إليه أهلها بالأسواق والمعايش ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخص منها ، فلما رأى أهل حمص قلة من معه اتبعوه ليقتلوه ونهبوا ما معه ، وقالوا : مرعوب مهزوم ، فأدركوه بواد عند حمص فأكمن لهم أميرين ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهـم فناشـدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته ، فثار القتال بينهـم وثار الكمينان من ورائهم ، فانهزم الحمصيون ، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتها من جهته زوج ابنته الوليد ابن معاوية بن مروان ، فتركه بها واجتاز عنها قاصـدا إلى الديار المصرية ، وجعل عبـد الله بن على لايمر ببلد وقد سودوا فيبايعونه و يعطيهم الأمان ، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد ابن على فى أربعة آلاف ، قد بعثهم السفاح مدداً له ، ثم سار عبـد الله حتى أتى حمص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة ، ثم وصل إليه أخوه صالح ابن على فى ثمانية آلاف مددا من السفاح ، فنزل صالح بمرج عذراء ، ولما جاء عبد الله بن على دمشق نزل على الباب الشرقى ، ونزل صالح أخوه على باب الجابية ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، ونزل بسام على الباب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد و يحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصرها أياما ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هـذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات ، وهدم سورها ، ويقال إن أهل دمشق لما حاصرهم عبـد الله اختلفوا فيما بينهـم ما بين عباسى وأموى ، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضا ، وقتلوا نائبهم ثم سلموا البلد ، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقى رجل يقال له عبد الله الطائى ، ومن

ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها فى هذه المدة نحواً من خمسين ألفا .

[وذكر ابن عساكر فى ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبى طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن على فى حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصريها خمسة أشهر ، وقيل مائة يوم ، وقيل شهراً ونصفاً ، وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيما ، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب اليمانية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتح ، حتى إنهم جعلوا فى كل مسجد محرابين للقبلتين حتى فى المسجد الجامع منبرين ، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع ، وغريب ما اتفق ، وفظيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية ، نسأل الله السلامة والعافية . وقد بسط ذلك ابن عساكر فى هذه الترجمة المذكورة ، وذكر فى ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلى قال : كنت مع عبد الله بن على أول ما دخل دمشق ، دخلها بالسيف ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلا لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بنى أمية فلم يجد فى قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة ، وكان يجد فى القبر العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك فانه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياما ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره فى الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن على ، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير ، سبعمائة سوط ، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء . قال : ثم تتبع عبد الله بن على بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم فى يوم واحد اثنين وتسعين ألفا عند نهر بالرملة ، وبسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سماطا فأكل وهم يختلجون تحته ، وهذا من الجبروت والظلم الذى يجازيه الله عليه ، وقد مضى ولم يدم له ما أراده ورجاه ، كما سيأتى فى ترجمته . وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهى عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها . ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم . وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً] (١)

وقد استدعى بالأوزاعى فأوقف بين يديه فقال له : يا أبا عمرو ما تقول فى هذا الذى صنعناه ؟ قال فقلت له : لا أدرى ، غير أنه قد حدثنى يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » فذكر الحديث . قال الأوزاعى : وانتظرت رأسى أن يسقط بين رجلى ثم أخرجت ، وبعث إلىّ بمائة دينار . ثم سار

(١) سقط من المصرية .

و رآه مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائبا على دمشق ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر ، وجاءه كتاب السفاح : ابعث صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائبا عليها ، فسار صالح يطلب مروان في ذي القعدة من هذه السنة ، ومعه أبو عمرو عامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما ، وقيل الفيوم ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد ، فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله من العلف والطعام ، ومضى صالح في طلبه . فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان فدلهم عليه ، وإذا به في كنيسة أبو صير ، فوافوه من آخر الليل فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير معه فأحاطوا به حتى قتلوه ، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له معود ، ولا يعرفه حتى قال رجل صرع أمير المؤمنين . فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيمة بن يزيد بن هانئ كان على شرطته ، لأمير المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة ، وقيل يوم الخميس لست مضين منها سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور ، واختلفوا في سنه فقيل أربعون سنة ، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة ، وقيل ثمانون فالله أعلم .

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه أعلم .

﴿ وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار ﴾

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية ، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة ، وكانت لابراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا ، ويقال إنها كانت أولا لمصعب بن الزبير ، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكافين ، قاله ابن عساكر . بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة . وقال أبو معشر : بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يقال له مروان الجعدي ، نسبة إلى رأي الجعد بن درهم ، وتلقب بالحمار ، وهو آخر من ملك من بني أمية ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقيل

خمس سنين وشهراً ، وبقي بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر ، وكان أبيض مشرباً حمرة ، أزرق العينين ، كبير اللحية ، ضخم الهامة ، ربعة ، ولم يكن يخضب . ولاه هشام نيابة أذربيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشرة ومائة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لايفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم ، وقد كان شجاعاً بطلا مقداماً حازم الرأي ، لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته . ولكن من يخذل الله يخذل ، ومن يهن الله فماله من مكرم .

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أمه أمة ، فلما وليها مروان هذا أخذت منهم في سنة ثنتين وثلاثين ومائة . وقد قال الحافظ ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسين أخبرنا سهل بن بشر أنبأ الخليل ابن هبة الله بن الخليل أنبأ عبد الوهاب الكلابي حدثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبأ العباس ابن الوليد بن صبح ثنا عباس بن يحيى أبو الحارث حدثني الهيثم بن حميد حدثني راشد بن داود عن أسماء عن ثوبان قال . قال رسول الله ﷺ : « لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة ، فاذا خرجت من أيديهم فلا خير في عيش » . هكذا أورده ابن عساكر وهو منكر جداً ، وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش : من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم للصلاة ، فأعطاه ستة آلاف . قالوا وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب ، يعجبه اللهو والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

قال ابن عساكر : قرأت بخط أبي الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له : كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزماً :

وما زال يدعوني إلى الصبر ما أرى * فآبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكان عزيزاً أن تبيتي وبيننا * حجاب فقد أمسيت مني على عشر
وأنكاهما والله للقلب فاعلمي * إذا زدت مثليها فصرت على شهر
وأعظم من هذين والله أنني * أخاف بان لانلتقي آخر الدهر
سأبكيك لامستبقيا فيض عبرة * ولا طالبا بالصبر عاقبة الصبر

وقال بعضهم : اجتاز مروان وهو هارب براهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له : ياراهب هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم ! عندي من تلونه ألوان . قال : هل تبلغ الدنيا من الانسان أن تجعله مملوكا [بعد أن كان مالكا ؟ قال : نعم ! قال : فكيف ؟ قال : بحبه لها وحرصه على نيل شهواتها

وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرص . فان كنت تحبها فان عبـدها من أحبها] [١] قال فما السبيل إلى العتق ؟ قال : ببغضها والتجافى عنها . قال : هـذا مالايكون . قال الراهب : أما إنه سيكون ، فبادر بالهرب منها قبل أن تسلبها . قال : هل تعرفنى ؟ قال : نعم ! أنت ملك العرب مروان ، تقتل فى بلاد السودان : وتدفن بلا أكفان ، فلولا أن الموت فى طلبك لدللتك عـلى موضع هربك . قال بعض الناس : كان يقال فى ذلك الزمان يقتل ع بن ع بن ع م بن م بن م يعنون يقتل عبد الله بن على بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم، فقال مروان لبعض من يخاطبه : ألا ترى مانحن فيه ؟ لهفى على أيد ماذكرت ، ونعم ماشكرت ، ودولة مانصرت . فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، والخفى حتى يظهر، وأخر فعل اليوم لغد ، حل به أكثر من هـذا . فقال مروان : هذا القول أشـد على من فقد الخلافة . وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وقد جاوز الستين و بلغ الثمانين . وقيل إنما عاش أربعين سنة . والصحيح الأول . وهو آخر خلفاء بنى أمية به انقضت دولتهم .

﴿ ذكر ماورد فى انقضاء دولة بنى أمية وابتداء دولة بنى العباس من الاخبار النبوية وغيرها ﴾

قال العلاء بن عبـد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إذا بلغ بنو العاص أربعين رجـلا اتخذوا دين الله دغلا ، وعباد الله خولا ، ومال الله دولا » . ورواه الأعمش عن عطية عن أبى سعيد مرفوعا بنحوه ، وروى ابن لهيعة عن أبى قبيل عن ابن وهب أنه كان عنـد معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم فى حاجة فقال: اقض حاجتى فانى لأبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة . فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله ﷺ قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهـم دولا ، وعباد الله خولا ، وكتاب الله دغلا ، فاذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة ، كان هلاكهـم أسرع من لوك تمرة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم ؟ فلما أدبر مروان قال معاوية : أنشدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله ﷺ ذكر هذا فقال : « أبو الجبابرة الأربعة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم . وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا القاسم بن الفضـل ثنا يوسف بن مازن الراسبى قال : قام رجـل إلى الحسين بن عـلى فقال : يامسود وجوه المؤمنين ! فقال الحسين : لاتؤنبنى رحمك الله ، فان رسول الله ﷺ رأى بنى أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا فساءه ذلك فنزلت (إنا أعطيناك الكوثر) وهو نهر فى الجنة ، ونزلت (إنا أنزلناه

(١) سقط من المصريه .

فى ليلة القدر) السورة إلى قوله (خير من ألف شهر) مملكة بنى أمية . قال : فحسبنا ذلك فاذا هو كما قال لا يزيد ولا ينقص . وقد رواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن أبى داود الطيالسى ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدى . قال : وشيخه يوسف بن سعد و يقال يوسف بن مازن ، رجل مجهول، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه . وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث القاسم بن الفضل الحدانى ، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث فى التفسير بكلام مبسوط ، و إنما يكون متجها إذا قيل إن دولتهم ألف شهر بأن نسقط منها أيام ابن الزبير ، وذلك أن معاوية بويع له مستقلا بالملك فى سنة أربعين ، وهى عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن على الأمر بعد ستة أشهر من قتل على ، ثم زالت الخلافة عن بنى أمية فى هذه السنة ، وهى سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك ثنتان وتسعون سنة ، و إذا أسقط منها تسع سنين خلافة ابن الزبير بقى ثلاث وثمانون سنة ، وهى مباينة لما ورد فى هذا الحديث ، ولكن ليس هذا الحديث مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، أنه فسر هذه الآية بهذا العدد ، و إنما هذا من قول بعض الرواة ، وقد تكلمنا على ذلك مطولا فى التفسير ، وتقدم فى الدلائل أيضا تقريره والله أعلم .

وقال على بن المدينى عن يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت بنى أمية يصعدون منبرى فشق ذلك على فأنزلت : إنا أنزلناه فى ليلة القدر » فيه ضعف و إرسال . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا يحيى بن معين ثنا عبد الله بن نمير عن سفيان الثورى عن على بن يزيد عن سعيد بن المسيب فى قوله (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) قال : رأى ناساً من بنى أمية على المنابر فساءه ذلك ، فقيل له : إنما هى دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسرى عنه . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع قال : لما أسرى برسول الله ﷺ رأى فلاناً وهو من بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله (و إن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول والله ليُعِزَّنَّ الله ملك بنى أمية كما أعز ملك من كان قبلهم ، ثم ليذلن ملكهم كما أذل ملك من كان قبلهم ، ثم تلا قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى إبراهيم بن سعيد ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة أخبرنى عمر بن سيف مولى لعثمان بن عفان قال سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبى بكر بن سليمان بن أبى خيثمة ــ وذكروا بنى أمية ــ فقال : لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا كيف ؟ قال : يهلك خلفاؤهم و يبقى شرارهم فيتنافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم . وقال يعقوب بن سفيان : أنبأ أحمد بن محمد الأزرقى ثنا الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت فى النوم بنى أبى

الحكم أو بني أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة : قال فما رؤى رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا بعدها حتى توفى » . قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارى [لعله الدارمى] : حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ عن على بن الحكم البنانى عن أبى الحسن هو الحمصى عن عمرو بن مرة ـ وكانت له صحبة ـ قال : جاء الحكم بن أبى العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقال : « ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ماهم ، يشرفون فى الدنيا ويوضعون فى الآخرة ، ذوو دهاء وخديعة ، يعطون فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من خلاق » .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادى : أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد بن المظفر الحافظ أنبأ أبو القاسم تمام بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقى أنبأ أحمد بن إبراهيم بن هشام بن ملابس ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد [مولى أم الحكم بنت عبد العزيز ، حدثنا يزيد] (١) بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعانى عن ثوبان قال : « كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على فخذ أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فنحب ثم تبسم ، فقالوا : يا رسول الله رأيناك نحبت ثم تبسمت ، فقال : رأيت بنى أمية يتعاورون على منبرى فساءنى ذلك ، ثم رأيت بنى العباس يتعاورون على منبرى فسرنى ذلك » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثنى محمد بن خالد بن العباس ثنا الوليد بن مسلم حدثنى أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطى عن أبان بن الوليد عن عقبة بن أبى معيط . قال : قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته ، ثم قال : يا أبا العباس ! هل يكون لكم دولة ؟ فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرنى ، قال نعم ! قال فمن أنصاركم ؟ قال : أهل خراسان . ولبنى أمية من بنى هاشم نطحات .

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير : سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح ، والمنصور ، والمهدى . رواه البيهقى من غير وجه ، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً . وروى ابن أبى خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يختمه بنا . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكذا وقع ويقع للمهدى إن شاء الله . وروى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبى معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد . قال قال رسول الله ﷺ : « يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح ، يعطى المال حثيا » . وقال عبد الرزاق : حدثنا الثورى عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان قال قال رسول

(١) زيادة من المصرية .

الله ﷺ : « يقتتل عند حرتكم هـذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحـد منهم ، ثم تقبل الرايات من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها . ثم ذكر شيئاً فاذا كان كذلك فأتوه ولو حبوا عـلى الثلج ، فانه خليفة الله المهدى » . ورواه بعضهم عن ثوبان فوقفه وهو أشبه والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا راشد بن سعد حدثني يونس ابن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤيب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شئ حتى تنصب بايليا » . وقد رواه البيهقي في الدلائل من حديث راشد بن سعد المصرى ، وهو ضعيف . ثم قال : قد روى قريبا من هذا عن كعب الأحبار وهو أشبه . ثم رواه عن كعب أيضاً قال : « تظهر رايات سود لبنى العباس حتى ينزلوا الشام ، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم » . وروى إبراهيم بن الحسين عن ابن أبي أويس عن ابن أبي ذؤيب عن محمد بن عبـد الرحمن العامرى عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال للعباس : « فيكم النبوة وفيكم المملكة » . وروى عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « انظر هل ترى في السماء من شئ ؟ قلت : نعم ! قال : ما ترى ؟ قلت : الثريا ، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك » . قال البخارى : عبيد بن أبي قرة لا يتابع عـلى حديثه . وروى ابن عـدى من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن تميم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « مررت برسول الله ﷺ ومعـه جبريل وأنا أظنه دحيـة الـكلبى ، فقال جبريل لرسول الله ﷺ : إنه لوسخ الثياب ، وسيلبس ولده من بعده السواد » .

وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن بنى العباس كان السواد من شعارهم ، أخذوا ذلك من دخول رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فأخـذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد والجمع والمحافل . وكذلك كان جندهم لابد أن يكون على أحدهم شئ من السواد ، ومن ذلك الشربوش الذى يلبسه الأمراء إذا خلع عليهـم . وكذلك دخل عبـد الله بن على دمشق يوم دخلها وعليـه السواد ، فجعل النساء والغلمان يعجبون من لباسه ، وكان دخوله من باب كيسان . وقد خطب الناس يوم الجمعة وصلى بهـم وعليـه السواد . وقد روى ابن عساكر عن بعض الخراسانيـة قال : لما صلى عبد الله بن على بالناس يوم الجمعة صـلى إلى جانبي رجل فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غـيرك ، أنظروا إلى عبـدالله بن على ما أقبح وجهه وأشنع سواده ؟ ! وشعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد .

﴿ ذكر استقرار أبي العباس السفاح ﴾

وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

واستقلاله بالخلافة وما اعتمده في أيامه من السيرة الحسنة

قد تقدم أنه أول ما بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر ، وقيل الأول من هذه السنة ، سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ثم جرد الجيوش إلى مروان فطردوه عن المملكة وأجلوه عنها ، وما زالوا خلفه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد ، بأرض مصر ، في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة على ماتقدم بيانه ، وحينئذ استقل السفاح بالخلافة واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية ، خلا بلاد الأندلس ، فانه لم يحكم عليها ولا وصل سلطانه إليها ، وذلك أن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي بيانه . وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف ، فمنهم أهل قنسرين بعد مابايعوه على يدي عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ، وكان من أصحاب مروان وامرائه ، فخلع السفاح ولبس البياض ، وحمل أهل البلد على ذلك فوافقوه ، وكان السفاح يومئذ بالحيرة ، وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المزي ومن وافقه من أهل البلقاء والبثنية وحوران على خلع السفاح ، فلما بلغه عن أهل قنسرين مافعلوا صالح حبيب بن مرة وسار نحو قنسرين ، فلما اجتاز بدمشق ـ وكان بها أهله وثقله ـ استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الكناني في أربعة آلاف ، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حمص ، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلا بن سراقة فخلعوا السفاح وبيضوا وقتلوا الأمير أبا غانم وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله ، ولم يتعرضوا لأهله . وتفاقم الأمر على عبد الله وذلك أن أهل قنسرين تراسلوا مع أهل حمص وتزمروا واجتمعوا على أبي محمد السفياني ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعوه بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفا فقصدهم عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم ، فاقتتلوا مع مقدمة السفياني وعليها أبو الورد فاقتتلوا قتالا شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألوف ، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتتلوا قتالا شديداً جداً ، وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد . وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد ، وثبت أبو الورد في خمسمائة فارس من أهل بيته وقومه ، فقتلوا جميعا وهرب أبو محمد السفياني ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة ، ثم كر عبد الله راجعا إلى دمشق وقد بلغه ماصنعوا ، فلما دنا منها تفرقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأمنهم ودخلوا في الطاعة . وأما أبو محمد السفياني فانه ما زال مضيعاً ومشتتاً حتى لحق بارض الحجاز فقاتله

نائب أبي جعفر المنصور فى أيام المنصور ، فقتله و بعث برأسه و بابنين له أخذهما أسيرين فأطلقهما المنصور فى أيامه . وقد قيل إن وقعة السفيانى يوم الثلاثاء آخر يوم من ذى الحجة سنة ثنتين وثلاثين ومائة فالله أعلم .

وممن خلع السفاح أيضا أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا ، فوافقوهم و بيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح - وهو موسى بن كعب - وكان فى ثلاثة آلاف قد اعتصم بالبلد ، فحاصروه قريبا من شهرين ، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كان بواسط محاصرى ابن هبيرة ، فمر فى مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فغلقوا أبوابها دونه ، ثم مر بالرقة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك ، ثم بحاجر وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة يحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرُّها ، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جند حران فتلقاه المنصور ودخلوا فى جيشه ، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين ، ورئيسهم حرورى يقال له بُريكة ، فصارا حزبا واحداً ، فقصد إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالا شديداً ، فقتل بُريكة فى المعركة ، وهرب بكار إلى أخيه بالرها ، فاستخلفه بها ومضى بمعظم العسكر [حتى نزل] سميساط وخندق على عسكره ، وأقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها ، وجرت له معه وقعات . وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن على أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة ، فسار إليهم عبد الله واجتمع إليه أبو جعفر المنصور ، فكاتبهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك ، على إذن أمير المؤمنين . وولى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فلم يزل عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه ، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلى إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان قد قتل ، وذلك بعد مضى سبعة أشهر وهو محاصر ، وقد كان صاحبا لأبى جعفر المنصور فأمنه .

وفى هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبى مسلم الخراسانى وهو أميرها ، ليستطلع رأيه فى قتل أبى سلمة ، لأنه كان يريد أن يصرف الخلافة عنهم ، فيسأله هل ذلك كان عن ممالأة أبى مسلم لأبى سلمة فى ذلك أم لا ؟ فسكت القوم ، فقال السفاح : لئن كان هذا عن رأيه إنا لَبِعَرَ بلاء عظيم ، إلا أن يدفعه الله عنا . قال أبو جعفر فقال لى أخى : ما ترى ؟ فقلت : الرأى رأيك . فقال : إنه ليس أحد أخصَّ بأبى مسلم منك ، فاذهب إليه فاعلم لى علمه ، فان كان عن رأيه احتلنا له ، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا . قال أبو جعفر : فخرجت إليه قاصداً على وجل . قال المنصور : فلما وصلت إلى الرى إذا كتاب أبى مسلم إلى نائبها يستحثنى إليه فى المسير ، فازددت وجلا ، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثنى أيضاً وقال لنائبها : لاتدعه يقر ساعة

واحــدة . فان أرضك بها خوارج ، فانشرحت لذلك . فلما صرت من مرو على فرسخين، خرج يتلقانى ومعه الناس ، فلما واجهنى ترجل فقبـل يدى ، فأمرته فركب . فلما دخلت مرو نزلت فى داره فمكث ثلاثا لا يسألنى فى أى شئ جئت ، فلما كان فى اليوم الرابع سألنى ما أقدمك ؟ فأخبرته بالأمر . فقال : أفعلها أبو سلمة ؟ أنا أكفيكوه . فدعا مرّار بن أنس الضبى فقال : اذهب إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتـله ، وانته فى ذلك إلى رأى الامام . فقـدم مرار الكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عنـد السفاح ، فلما خرج قتله مرّار وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغلقت البلد . ثم صلى عليـه يحيى بن محمـد بن على أخو أمير المؤمنين ، ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له وزير آل محمـد . ويقال لأبى مسلم أمير آل محمد . قال الشاعر :

إن الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشناك كان وزيرا

ويقال إن أبا جعفر إنما سار إلى أبى مسلم بعد قتل أبى سلمة وكان معه ثلاثون رجلا على البريد ، منهم الحجاج بن أرطاة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمى ، وجماعة من السادات . ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه : لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً حتى تقتله ، لما رأى من طاعة العساكر له ، فقال له السفاح : اكتمها فسكت . ثم إن السفاح بعث أخاه أبا جعفر إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبايع له بالخلافة فأبطأ عليـه جوابه ، فمال إلى مصالحة أبى جعفر ، فاستـأذن أبو جعفر أخاه السفاح فى ذلك فأذن له فى المصالحة ، فكتب له أبوجعفر كتابا بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبى جعفر فى ألف وثلاثمـائة من البخارية ، فلمـا دنا من سرادق أبى جعفر همّ أن يدخل بفرسـه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل . وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان ، ثم أذن له فى الدخول فقال : أنا ومن معى ؟ قال : لا بل أنت وحـدك ، فدخل ووضعت له وسادة فجلس عليها ، فحادثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنـده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جعل يأتيه يوما بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبى جعفر فقال أبو جعفر للحاجب : مره فليأت فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين نفسا ، فقال الحاجب : كأنك تأتى متأهبا[1] ؟ فقال : لو أمرتمونى بالمشى لمشيت إليكم ، ثم كان يأتى فى ثلاثة أنفس. وقـد خاطب ابن هبيرة يوما لأبى جعفر فقال له فى غبون كلامه : ياهناه ـ أو قال يا أيها المرء ـ ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعذره . وقـد كان السفاح كتب إلى أبى مسلم يستشيره فى مصالحـة ابن هبيرة فنهاه عن ذلك ، وكان السفاح لايقطع أمراً دونه ، فلما وقع الصلح على يدى أبى جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، وكتب إلى أبى جعفر يأمره بقتله ، فراجعه أبو جعفر مراراً

(١) فى تاريخ ابن جرير « مباهياً » .

لا يفيده ذلك شيئا ، حتى جاء كتاب السفاح أن اقتله لامحالة [لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم كيف يعطى الامان و ينكث ؟ هذا فعل الجبابرة[1]] وأقسم عليه فى ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود و فى حجره صبى صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه ، وخلصوا إليه ، فألقى الصبى من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد ، واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر فى الناس بالأمان إلا عبد الملك بن بشر وخالد ابن سلمة المخزومى وعمر بن ذر . فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضا .

و فى هذه السنة بعث أبو مسلم الخراسانى محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يأخذ عمال أبى سلمة الخلال فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولى السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة ، وعزله عن الكوفة وولى مكانه عليها عيسى بن موسى ، وولى قضاءها ابن أبى ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبى ، وعلى قضائها الحجاج ابن أرطاة ، وعلى السند منصور بن جمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث . وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور ، وعلى الشام وأعمالها عبد الله بن على عم السفاح ، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد . وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراسانى ، وعلى دوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فيها داود بن على .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان ﴾

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموى ، آخر خلفاء بنى أمية ، فقتل فى العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة كما تقدم ذلك مبسوطاً ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بنى عامر بن لؤى ، الكاتب البليغ الذى يضرب به المثل ، فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وكان إماماً فى الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها . وله رسائل فى ألف ورقة ، وأصله من قيسارية ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدى يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً فى الكتابة أيضا ، وقد كان أولا يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال أن صار وزيراً لمروان ، وقتله السفاح ومثل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه . ومن مستجاد كلامه : العلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة . ومن كلامه وقد رأى رجلا [2] يكتب خطا رديئا فقال : أطل جلفة قلمك وأسمنها ، وحرف قطتك وأيمنها . قال الرجل : ففعلت ذلك فجاد خطى . وسأله رجل أن يكتب له كتابا إلى بعض الأكابر يوصيه به ، فكتب إليه : حق موصل كتابى إليك كحقه على

(١) زيادة من نسخة استامبول . (٢) هو إبراهيم بن جبلة .

إذ رآك موضعاً لأمله ، ورآني أهلا لحاجته ، وقد قضيت أنا حاجته فصدق أنت أمله . وكان كثيراً لما ينشد هذا البيت : —

إذا خرج الكتاب كان دويهم * قسيا وأقلام القسي لها نبلا

وأبو سلمة حفص بن سليمان ، هو أول من وزر لآل العباس ، قتله أبو مسلم بالأنبار عن أمر السفاح ، بعد ولايته بأربعة أشهر ، في شهر رجب . وكان ذا هيئة فاضلا حسن المفاكهة ، وكان السفاح يأنس به ويحب مسامرته لطيب محاضرته ، ولكن توهم ميله لآل علي فدس أبو مسلم عليه من قتله غيلة كما تقدم ، فأنشد السفاح عند قتله :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله * على أي شئ فاتنا منه نأسف

كان يقال له وزير آل محمد ، ويعرف بالخلال ، لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة ، وهو أول من سمي بالوزير ، وقد حكى ابن خلكان عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل ، فكأن السلطان حمله أثقالا لاستناده إلى رأيه ، كما يلجأ الخائف إلى جبل يعتصم به .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة ﴾

فيها ولى السفاح عمه سليمان البصرة وأعمالها ، وكور دجلة والبحرين وعمان . ووجه عمه إسماعيل ابن علي إلى كور الأهواز . وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية ، وفيها توفي داود ابن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول ، واستخلف ابنه موسى على عمله ، وكانت ولايته على الحجاز ثلاثة أشهر ، فلما بلغ السفاح موته استناب على الحجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي ، وولى اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الدار ، وجعل إمرة الشام لعميه عبد الله وصالح بني علي ، وأقر أبا عون على الديار المصرية نائبا . وفيها توجه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتلهم قتالا شديداً حتى فتحها . وفيها خرج شريك بن شيخ المهري ببخاري على أبي مسلم وقال : ماعلى هذا بايعنا آل محمد ، على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفا ، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله .

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل ، وولى عليه عمه إسماعيل . وفيها ولى الصائفة من جهته صالح بن علي بن سعيد بن عبيد الله وغزا ما وراء الدروب . وحج بالناس خال السفاح زياد ابن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي . ونواب البلاد هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه عزل .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة ﴾

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح ، فبعث إليه خازم بن خزيمة فقاتله فقتل عامة أصحابه ، واستباح عسكره . ورجع فر بملأ من بني عبد الدار أخوال السفاح فسألهم

عن بعض مافيه نصرة للخليفة ، فلم يردوا عليه ، واستهانوا به ، وأمر بضرب أعناقهم ـ وكانوا قريباً من عشرين رجلا ومثلهم من مواليهم ـ فاستعدى بنو عبد الدار على خازم بن خزيمة إلى السفاح ، وقالوا : قتل هؤلاء بلا ذنب ، فهمّ السفاح بقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليبعثه مبعثا صعبا ، فان سلم فذاك ، و إن قتل كان الذى أراد . فبعثه إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجهز معه سبعمائة رجل ، وكتب إلى عمه سليمان بالبصرة أن يحملهم فى السفن إلى عمان ففعل ، فقاتل الخوارج فكسرهم وقهرهم واستحوذ على ما هنالك من البلاد ، وقتل أمير الخوارج الصفرية وهو الجلندى ، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف ، و بعث برؤسهم إلى البصرة ، فبعث بها نائب البصرة إلى الخليفة . ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً .

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصغد وغزا أبو داود أحد نواب أبى مسلم بلاد كش ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأوانى الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . وفيها بعث السفاح موسى ابن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند فى اثنى عشر ألفاً ، فالتقاه موسى بن كعب وهو فى ثلاثة آلاف فهزمه واستباح عسكره . وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الدار ، فاستخلف السفاح عليها عمه ، وهو خال الخليفة . وفيها تحول السفاح من الحيرة إلى الأنبار وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى ، ونواب الأقاليم هم هم . وفيها توفى من الأعيان أبو هارون العبدى ، وعمارة بن جوين ، ويزيد بن يزيد بن جابر الدمشقى والله أعلم .

[﴿ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة ﴾

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبى مسلم فأظفره الله بهم فبدد شملهم واستقر أمره بتلك النواحى . وحج بالناس فيها سليمان بن على نائب البصرة . والنواب هم المذكورون قبلها . وممن توفى فيها من الأعيان : يزيد بن سنان ، وأبو عقيل زهرة بن معبد ، وعطاء الخراسانى] (١)

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة ﴾

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح ، وذلك بعد استئذانه الخليفة فى القدوم عليه ، فكتب إليه أن يقدم فى خمسمائة من الجند ، فكتب إليه : إنى قد وترت الناس ، و إنى أخشى من قلة الخمسمائة . فكتب إليه أن يقدم فى ألف ، فقدم فى ثمانية آلاف ، فرقهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئا كثيراً . ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند ، فتلقاه القواد والأمراء إلى مسافة بعيدة . ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريبا منه ، وكان يأتى إلى

(١) سقط من المصرية .

الخلافة كل يوم ، واستأذن الخليفة فى الحج فأذن له ، وقال : لولا أنى عينت الحج لأخى أبى جعفر لأمرتك على الحج . وكان الذى بين أبى جعفر وأبى مسلم خرابا وكان يبغضه ، وذلك لما رأى ما هو فيه من الحرمة حين قدم عليه نيسابور فى البيعة للسفاح وللمنصور بعده ، فحار فى أمره لذلك ، فحقد عليه المنصور وأشار على السفاح بقتله ، فأمره بكتم ذلك . وحين قدم أمره بقتله أيضا وحرضه على ذلك ، فقال له السفاح : قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدولتنا ، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغدى بك هو . فقال له : كيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال : إذا دخل عليك فحادثه ثم أجيء أنا من ورائه فأضرب به بالسيف . قال : كيف بمن معه ؟ قال : هم أذل وأقل . فأذن له فى قتله ، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه ، فبعث إليه الخادم يقول له : إن ذاك الذى بينك وبينه ندم عليه فلا تفعله . فلما جاءه الخادم وجده محتبيا بالسيف قد تهيأ لما يريد من قتل أبى مسلم . فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح ، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراسانى عن أمر الخليفة ، وأذن له فى الحج ، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر إلى أبى جعفر — وكان يسير قبل أبى مسلم بمرحلة — بموت أخيه السفاح ، فكتب إلى أبى مسلم أن قد حدث أمر فالعجل العجل ، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه ، فلحقه إلى الكوفة . وكانت بيعة المنصور على ماسيأتى بيانه وتفصيله قريبا والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وهذه ترجمة أبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس وذكر وفاته ﴾

هو عبد الله السفاح — ويقال له المرتضى ، والقاسم أيضاً — ابن محمد ابن الامام ابن على السجاد ابن عبد الله الحبر ابن العباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى أمير المؤمنين ، وأمه ربطة — ويقال رايطة — بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثى ، كان مولد السفاح بالحميمة من أرض الشراه من البلقاء بالشام ، ونشأ بها حتى أخذ مروان أخاه إبراهيم الامام فانتقلوا إلى الكوفة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه فى حياة مروان يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول بالكوفة كما تقدم . وتوفى بالجدرى بالأنبار يوم الأحد الحادى عشر ، وقيل الثالث عشر من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وكان عمره ثلاثا ، وقيل ثنتين ، وقيل إحدى وثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين سنة . قاله غير واحد . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان أبيض جميلا طويلا ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، حسن اللحية ، حسن الوجه ، فصيح الكلام ، حسن الرأى ، جيد البديهة . دخل عليه فى أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن على ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بنى هاشم من أهل بيته وغيرهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعطنا حقنا الذى جعله الله لنا فى هذا

المصحف . قال : فأشفق عليه الحاضرون أن يعجل السفاح عليه بشيء أو يترك جوابه فيبقى ذلك مسبة عليه وعليهم . فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا منزعج ، فقال : إن جدك علياً كان خيراً منى وأعدل ، وقد ولى هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيراً منك ، شيئا قد أعطيتكه وزدتك عليه ، فما كان هذا جزائى منك . قال : فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً ، وتعجب الناس من سرعة جوابه وجدته وجودته على البديهة .

وقد قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى . قال قال رسول الله ﷺ : « يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح ، يكون إعطاؤه المال حثيا » وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به . وهذا الحديث فى إسناده عطية العوفى وقد تكلموا فيه . وفى أن المراد بهذا الحديث هذا السفاح نظر والله أعلم . وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بنى أمية أخباراً وآثاراً فى مثل هذا المعنى . وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن سلمة بن محمد بن هشام أخبرنى محمد بن عبد الرحمن المخزومى حدثنى داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ وهو والد السفاح ـ قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر : من تجدون الخليفة بعد سليمان ؟ قال له : أنت . فأقبل عمر بن عبد العزيز عليه فقال له : زدنى من بيانك . فقال ثم آخر ، إلى أن ذكر خلافة بنى أمية إلى آخرها . قال محمد بن على : فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصرانى فى بالى فرأيته يوما فأمرت غلامى أن يحبسه على ، وذهبت إلى منزلى فسألته عما يكون فى خلفاء بنى أمية فذكرهم واحداً واحداً ، وتجاوز عن مروان بن محمد . قلت : ثم من ؟ قال : ثم ابن الحارثية ، وهو ابنك . قال : وكان ابنى ابن الحارثية إذ ذاك حملا . قال ووفد أهل المدينة على السفاح فبادروا إلى تقبيل يده غير عمران بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع العدوى ، فانه لم يقبل يده ، وإنما حياه بالخلافة فقط . وقال : والله يا أمير المؤمنين لو كان تقبيلها يزيدك رفعة ويزيدنى وسيلة إليك ماسبقنى إليها أحد من هؤلاء ، وإنى لغنى عما لا أجر فيه ، وربما قادنا عمله إلى الوزر ثم جلس . قال : فوالله مانقصه ذلك عنده حظا من حظ أصحابه ، بل أحبه وزاده . وذكر القاضى المعافى بن زكريا أن السفاح بعث رجلا ينادى فى عسكر مروان بهذين البيتين ليلا ثم رجع :

يا آل مروان إن الله مهلككم * ومبدل أمنكم خوفا وتشريدا
لاعمَّر الله من أنسالكم أحداً * وبثكم فى بلاد الخوف تطريدا

وروى الخطيب البغدادى أن السفاح نظر يوماً فى المرآة ـ وكان من أجمل الناس وجها ـ فقال: اللهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أنا الخليفة الشاب ،ولكن أقول : اللهم عمرنى طويلا فى

طاعتك ممتعاً بالعافية . فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لآخر : الأجل بيني و بينك شهران وخمسة أيام . فتطير من كلامه وقال : حسبي الله لاقوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين . فمات بعد شهرين وخمسة أيام . وذكر محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن على مايرويه عن أبيه فى قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائما ، فأمره أن يحادثه فى يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : فحادثته حتى أخذه النوم فقمت عنه وقلت : أقيل فى منزلى ثم أجئ بعد ذلك . فذهبت فنمت قليلا ثم قمت فأقبلت إلى داره فاذا على بابه بشير يبشر بفتح السند و بيعتهم للخليفة وتسليم الأمور إلى نوابه . قال : فحمدت الله الذى وفقنى فى الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فاذا بشير آخر معه بشارة بفتح إفريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : سبحان الله ، كل شئ بائد سواه ، نعيت والله إلى نفسى ، حدثنى إبراهيم الامام عن أبى هشام عن عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقدم على فى مدينتى هذه وافدان وافد السند والآخر وافد إفريقية بسمعهم وطاعتهم و بيعتهم ، فلا يمضى بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت . قال : وقد أتانى الوافدان فأعظم الله أجرك ياعم فى ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا أمير المؤمنين إن شاء الله . قال بلى إن شاء الله ! لئن كانت الدنيا حبيبة إلى فالآخرة أحب إلى ، ولقاء ربى خير لى ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب إلى منها ، والله ما كُذبت ولا كَذبت . ثم نهض فدخل منزله وأمرنى بالجلوس ، فلما جاء المؤذن يعلمه بوقت الظهر خرج الخادم يعلمنى أن أصلى عنه ، وكذلك العصر والمغرب والعشاء ، و بت هناك ، فلما كان وقت السحر أتانى الخادم بكتاب معه يأمرنى أن أصلى عنه الصبح والعيد ثم أرجع إلى داره ، وفيه يقول : ياعم إذا مت فلا تعلم الناس بموتى حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبايعوا لمن فيه . قال : فصليت بالناس ثم رجعت إليه فاذا ليس به بأس ، ثم دخلت عليه من آخر النهار فاذا هو على حاله غير أنه قد خرجت فى وجهه حبتان صغيرتان ، ثم كبرتا ، ثم صار فى وجهه حب صغار بيض يقال إنه جدرى ، ثم بكّرت إليه فى اليوم الثانى فاذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتى ومعرفة غيرى ، ثم رجعت إليه بالعشى فاذا هو انتفخ حتى صار مثل الزق ، وتوفى اليوم الثالث من أيام التشريق ، فسجيته كما أمرنى ، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم كتابه فاذا فيه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى الاولياء وجماعة المسلمين ، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين الخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا وأطيعوا ، وقد قلدها من بعده عيسى بن موسى إن كان . قال : فاختلف الناس فى قوله « إن كان » قيل إن كان أهلا لها . وقال آخرون إن كان حيا . وهذا القول الثانى هو الصواب ، ذكره الخطيب

وابن عساكر مطولا . وهـذا ملخص منه . وفيه ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جداً . وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ يقول عند ذلك :

انظر إلى ضعف الحرا * ك وذله بعد السكون * ينبيك أن بيانه * هـذا مقدمـة المنون

فقال له الطبيب : أنت صالح . فأنشأ يقول :

يبشرنى بانى ذو صلاح * يبين له وبى داء دفين * لقد أيقنت أنى غير باق * ولاشك إذا وضح اليقين

قال بعض أهل العلم : كان آخر ماتكلم به السفاح : الملك لله الحى القيوم ، ملك الملوك ، وجبار الجبابرة . وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله . وكان موته بالجدرى فى يوم الأحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأنبار العتيقة ، عن ثلاث وثلاثين سنة . وكانت خلافته أربع سـنين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال . وصلى عليه عمه عيسى بن على . ودفن فى قصر الامارة من الأنبار . وترك تسع جبات وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز . وقد ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردناه والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان السفاح كما تقدم ، وأشعث بن سوار ، وجعفر بن أبى ربيعة ، وحصين ابن عبد الرحمن ، وربيعة الراعى ، وزيد بن أسلم ، وعبد الملك بن عمير ، وعبد الله بن أبى جعفر ، وعطاء بن السائب . وقد ذكرنا تراجمهم فى التكميل ولله الحمد .

﴿ خلافة أبى جعفر المنصور ﴾

واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس

قد تقدم انه لما مات السفاح كان فى الحجاز فبلغه موته وهو بذات عرق راجعا من الحج ، وكان معه أبو مسلم الخراسانى ، فعجل السير وعزاه أبو مسلم فى أخيه ، فبكى المنصور عنـد ذلك ، فقال له : أتبكى وقد جاءتك الخلافة ؟ أنا أكفيكها إن شاء الله . فسرى عنـه ، وأمر زياد بن عبيد الله أن يرجع إلى مكة واليا عليها ، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد الله بن معبد بن عباس فأقره عليها . والنواب على أعمالهم حتى انسلخت هـذه السنة ، وقد كان عبد الله بن على قدم على ابن أخيه السفاح الأنبار فأمّره على الصائفة ، فركب فى جيوش عظيمة إلى بلاد الروم ، فلما كان ببعض الطريق بلغه موت السفاح فكر راجعا إلى حران ، ودعا إلى نفسه ، وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولى العهد من بعـده ، فالتفت عليـه جيوش عظيمة ، وكان من أمره ماسنذكره فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة ﴾

﴿ ذكر خروج عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس على ابن أخيه المنصور ﴾

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح ، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم

الجمعة وصلى بهـم ، ثم ارتحل منها إلى الأنبار . وقد أخـذت له البيعة من أهـل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام ، وقد ضبط عيسى بن عـلى بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم ، فسلم إليه الأمر ، وكتب إلى عمه عبد الله بن على يعلمه بوفاة السفاح ، فلما بلغه الخبر نادى فى الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الأمراء والناس ، فقرأ عليهم وفاة السفاح ، ثم قام فيهم خطيبا فذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده ، وشهد له بذلك بعض أمراء العراق ، ونهضوا إليه فبايعوه ، ورجع إلى حران فتسلمها من نائب المنصور بعد محاصرة أربعين ليـلة ، وقتل مقاتل العتكى نائبها . فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليـه أبا مسلم الخراسانى ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن على بحران ، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئا كثيراً جداً ، فسار إليه أبو مسلم الخراسانى وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعى ، فلما تحقق عبد الله قدوم أبى مسلم إليه خشى من جيش العراق أن لاينا صحوه ، فقتل منهم سبعة عشر ألفا ، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبى مسلم ، فركب عبد الله بن على فنزل نصيبين وخنـدق حول عسكره ، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحيـة وكتب إلى عبـد الله : إنى لم أومر بقتالك ، وإنما بعثنى أمير المؤمنين واليا عـلى الشام فأنا أريدها . فخاف جنود الشام من هـذا الـكلام فقالوا : إنا نخاف عـلى ذرارينا وديارنا وأموالنا ، فنحن نذهب إليها نمنعهم منـه . فقال عبد الله : ويحكم ! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا . فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام ، فتحول عبـد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام ، فنهض أبو مسلم فنزل موضعه وغوّر ما حوله من المياه ـ وكان موضع عبـد الله الذى تحول منه موضعا جيداً جداً ـ فاحتاج عبـد الله وأصحابه فنزلوا فى موضع أبى مسلم فوجدوه منزلا رديئا ، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فحاربهم خمسة أشهر ، وكان على خيل عبـد الله أخوه عبد الصمد بن على ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلى ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدى . وعلى ميمنة أبى مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيم ، وقـد جرت بينهم وقعات وقتل منهم جماعات فى أيام نحسات ، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول :

من كان ينوى أهله فلا رجع ❊ فر من الموت وفى الموت وقع

وكان يعمل له عرش فيكون فيه إذا التقى الجيشان فما رأى فى جيشه من خلل أرسل فأصلحه فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتتلوا قتالا شديداً ، فمكر بهـم أبو مسـلم ! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معـه إلا القليل إلى الميسرة ، فلما رأى ذلك أهل الشام انحازوا إلى الميمنة بازاء الميسرة التى تعمرت ، فأرسل حينئذ أبو مسلم إلى القلب أن يحمل بمن بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم ، فجال أهـل القلب

والميمنة من الشاميين فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة ، وانهزم عبد الله بن على بعد تلوم ، واحتاز أبو مسلم ما كان فى معسكرهم ، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً ، وكتب إلى المنصور بذلك ، فأرسل المنصور مولاه أبا الخصيب ليحصى ما وجدوا فى معسكر عبد الله ، فغضب من ذلك أبو مسلم الخراسانى . واستوسقت الممالك لأبى جعفر المنصور ، ومضى عبد الله بن على وأخوه عبد الصمد على وجهيهما ، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبد الصمد ، فلما رجع أبو الخصيب وجده بها فأخذه معه مقيداً فى الحديد فأدخله على المنصور فدفعه إلى عيسى بن موسى فاستأمن له المنصور ، وقيل بل استأمن له إسماعيل بن على . وأما عبد الله بن على فانه ذهب إلى أخيه سليمان ابن على بالبصرة فأقام عنده زمانا مختفيا ، ثم علم به المنصور فبعث إليه فسجنه [فى بيت بنى أساسه على الملح ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبد الله فمات . وهذه من بعض دواهى المنصور والله سبحانه أعلم] (١) . فلبث فى السجن سبع سنين ثم سقط عليه فى البيت الذى هو فيه فمات كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر مهلك أبى مسلم الخراسانى صاحب دعوة بنى العباس ﴾

فى هذه السنة أيضا لما فرغ أبو مسلم من الحج سبق الناس بمرحلة فجاءه خبر السفاح فى الطريق فكتب إلى أبى جعفر يعزيه فى أخيه ولم يهنئه بالخلافة ، ولا رجع إليه . فغضب المنصور من ذلك مع ما كان قد أضمر له من السوء إذا أفضت إليه الخلافة ، وقيل إن المنصور هو الذى كان قد تقدم بين يدى الحج بمرحلة ، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبى مسلم يستعجله فى السير كما قدمنا . فقال لأبى أيوب : اكتب له كتابا غليظا ، فلما بلغه الكتاب أرسل يهنئه بالخلافة وانقمع من ذلك . وقال بعض الأمراء للمنصور : إنا نرى أن لاتجامعه فى الطريق فان معه من الجنود من لا يخالفه . وهم له أهيب ، وعلى طاعته أحرص ، وليس معك أحد ، فأخذ المنصور برأيه ثم كان من أمره فى مبايعته لأبى جعفر ما ذكرنا ، ثم بعثه إلى عمه عبد الله فكسره كما تقدم ، وقد بعث فى غبون ذلك الحسن بن قحطبة لأبى أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بأن أبا مسلم متهم عند أبى جعفر ، فانه إذا جاءه كتاب منه يقرأه ثم يلوى شدقيه ويرمى بالكتاب إلى أبى نصر ويضحكان استهزاء ، فقال أبو أيوب : إن تهمة أبى مسلم عندنا أظهر من هذا . ولما بعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يقطين ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها ، غضب أبو مسلم فشتم أبا جعفر وهمّ بأبى الخصيب ، حتى قيل له : إنه رسول فتركه ورجع . فلما قدم أخبر المنصور بما كان وبما همّ به أبو مسلم من قتله ، فغضب المنصور وخشى أن يذهب أبو مسلم إلى

(١) زيادة وجدت بهامش نسخة الاستانة .

خراسان [فيشق عليه تحصيله بعد ذلك ، وأن تحدث حوادث ، فكتب إليه مع يقطين إنى قد وليتك الشام ومصر وهما خير من خراسان] (١) . فابعث إلى مصر من شئت وأقم أنت بالشام ، لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين ، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً . فغضب أبو مسلم وقال : قد ولانى الشام ومصر ، ولى ولاية خراسان ، فاذاً أذهب إليها وأستخلف على الشام ومصر . فكتب إلى المنصور بذلك فقلق المنصور من ذلك كثيراً . ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور . فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم بالمسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان : إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إراداتها نقضتُ ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة . فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبى مسلم : قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة إلى ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما راحتهم فى تبدد نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة ، وقد حمل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها ، وأسأله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده من هذا ولا أقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك . ويقال إن أبا مسلم كتب إلى المنصور : أما بعد فانى اتخذت رجلا إماماً ودليلا على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلاً وفى قرابته من رسول الله ﷺ قريباً ، فاستجهلنى بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً فى قليل قد تعافاه الله إلى خلقه ، وكان كالذى دلى بغرور ، وأمرنى أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرّفكم الله من كان يجهلكم ، وأطاعكم من كان عدوكم ، وأظهركم الله بى بعد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استنقذنى الله بالتوبة . فان يعف عنى فقدما عرف به ونسب إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدمت يداى ، وما الله بظلام للعبيد . ذكره المدائنى عن شيوخه .

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلى ـ وقد كان أوحد أهل زمانه ـ فى جماعة من الأمراء ، وأمره أن يكلم أبا مسلم بالالين كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون فى جملة ما يكلمه به

(١) سقط من المصرية .

أنه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك والاطلاقات لك ، فان جاء بهذا فذاك ، وإن أبى فقل هو برئ من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره ، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك . ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن . فلما قدم عليه أمراء المنصور بحلوان دخلوا عليه ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين ، وما هو فيه من مخالفته ، ورغّبوه فى الرجوع إلى الطاعة ، فشاور ذوى الرأى من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه ، وأشاروا بأن يقيم فى الرى فتكون خراسان تحت حكمه ، وجنوده طوعاً له ، فان استقام له الخليفة و إلا كان فى عز و منعة من الجند . فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم : ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه . فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذى كان المنصور أمرهم به . فلما سمع ذلك كبره جداً وقال قوموا عنى الساعة .

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد ، فكتب إليه المنصور فى غيبة أبى مسلم حين اتهمه : إن ولاية خراسان لك ما بقيت ، فقد وليتكها وعزلت عنها أبا مسلم . فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبى مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة : إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ ، فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام. فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم : إنى سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به . فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو رده . فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له : ما وراءك ؟ قال : رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك . فغره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة ، فاستشار أميراً يقال له نيزك ، فنهاه ، فصمم على الذهاب ، فلما رآه نيزك عازما على الذهاب تمثل بقول الشاعر : ـ

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له : احفظ عنى واحدة . قال : وما هى ؟ قال : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فان الناس لا يخالفونك . وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه . قال أبو أيوب كاتب الرسائل : فدخلت على المنصور وهو جالس فى خباء شعر جالس فى مصلاه بعد العصر ، وبين يديه كتاب فألقاه إلىّ فاذا هو كتاب أبى مسلم يعلمه بالقدوم عليه ، ثم قال الخليفة : والله لئن ملأت عينى منه لأقتلنه . قال أبو أيوب : فقلت إنا لله و إنا إليه راجعون . و بت تلك الليلة لا يأتينى نوم ، أفكر فى هذه الواقعة ، وقلت : إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والمصلحة تقتضى أن يدخل آمنا ليتمكن منه الخليفة . فلما أصبحت طلبت رجلا من الامراء وقلت له : هل لك أن تتولى مدينة كسكر فانها مغلة فى هذه السنة ؟ فقال : ومن لى بذلك ؟ فقلت له : فاذهب إلى أبى مسلم فتلقاه فى الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد ، فان أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه

ويستريح لنفسه . واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبى مسلم فأذن له ، وقال له : سلم عليه وقل له : إنا بالاشواق إليـه . فسار ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن فلان ـ[1] إلى أبى مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه ، فسره ذلك وانشرح ، وإنما هو غرور ومكر به ، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته ، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والامراء أن يتلقوه ، وكان دخوله عـلى المنصور من آخر ذلك اليوم ، وقـد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله فى ساعته هذه إلى الغد ، فقبل ذلك منـه . فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشى أظهر له الكرامة والتعظيم ، ثم قال : اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام ، فاذا كان الغد فأتنى . فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه ، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له : كيف بلائى عنـدك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو أمرتنى أن أقتل نفسى لقتلتها . قال : فكيف بك لو أمرتك بقتل أبى مسلم ؟ قال : فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب : مالك لا تتكلم ؟ فقال قولة ضعيفة : أقتـله . ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله ، وقال لهم : كونوا من وراء الرواق فاذا صفقت بيدى فاخرجوا عليـه فاقتلوه . ثم أرسل المنصور إلى أبى مسلم رسلا تترى يتبع بعضها بعضاً ، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخـلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم ، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه فى الذى صنع واحدة واحدة ، فيعتذر عن ذلك كله . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قـد طابت عـلىّ . فقال المنصور : أما والله ما زادنى هذا إلا غيظا عليك . ثم ضرب باحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفوه فى عباءة ثم أمر بالقائه فى دجلة ، وكان آخر العهـد به ، وكان مقتله فى يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة .

وكان من جملة ماعاتبه به المنصور ان قال : كتبت الى مرات تبدأ بنفسك ، وأرسلت تخطب عمتى أمينة ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا يقال لى هذا وقد سعيت فى أمركم بما علمه كل أحد . فقال : ويلك ! لو قامت فى ذلك أمة سوداء لأتمـه الله لجدنا وحيطتنا . ثم قال : والله لأقتلنك . فقال : استبقنى يا أمير المؤمنين لأعـدائك . فقال : وأى عـدولى أعدى منك . ثم أمر بقتله كما تقـدم : فقال له بعض الأمراء : يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة . ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك :

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرّ عينا بالاياب المسافر

وذكر ابن خلكان أن المنصور لمـا أراد قتل أبى مسلم تحير فى أمره هل يستشير أحدا فى ذلك أو يستبد هو به لئـلا يشيع وينشر ، ثم استشار واحـداً من نصحاء أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين

(١) كذا بالأصلين . وفى الطبرى : سلمة بن سعيد بن جابر .

قال الله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فقال له : لقد أودعتها أذناً واعية . ثم عزم على ذلك

﴿ وهذه ترجمة أبى مسلم الخراسانى ﴾

هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بنى العباس ، و يقال له أمير آل بيت رسول الله ﷺ ، وقال الخطيب : يقال له عبد الرحمن بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزى ، صاحب الدولة العباسية ، روى عن أبى الزبير وثابت البنانى و إبراهيم وعبد الله ابنى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، زاد ابن عساكر فى شيوخه محمد بن على وعبد الرحمن بن حرملة وعكرمة مولى ابن عباس . قال ابن عساكر : روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وبشر والد مصعب بن بشر ، وعبد الله بن شبرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزى وقديد بن منيع صهر أبى مسلم.

قال الخطيب : وكان أبو مسلم فاتكا ذا رأى وعقل وتدبير وحزم ، قتله أبو جعفر المنصور بالمدائن . وقال أبو نعيم الأصبهانى فى تاريخ أصبهان : كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ، قيل إنه ولد بأصبهان ، و روى عن السدى وغيره ، وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس ابن حوذون ، من ولد بزرجمهر ، وكان يكنى أبا إسحاق ، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى ابن موسى السراج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الامام إلى خراسان قال له : غير اسمك وكنيتك . فتسمى عبد الرحمن بن مسلم ، واكتنى بأبى مسلم ، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكبا على حمار باكاف ، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة ، فدخل خراسان وهو كذلك ، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها ، وذكر أنه فى ذهابه إليها عدا رجل من بعض الحانات فقطع ذنب حماره ، فلما تمكن أبو مسلم جعل ذلك المكان دكا فكان بعد ذلك خراباً . وذكر بعضهم أنه أصابه سبى فى صغره وأنه اشتراه بعض دعاة بنى العباس بأربعمائة درهم ، ثم إن إبراهيم بن محمد الامام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبى النجم إسماعيل الطائى ، أحد دعاتهم ، لما بعثه إلى خراسان ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبى مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقبت ، وفاطمة لم تعقب .

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبى مسلم بأمور خراسان فى سنة تسع وعشرين ومائة ، وكيف نشر دعوة بنى العباس ، وقد كان ذا هيبة وصرامة و إقدام وتسرع فى الأمور . وقد روى ابن عساكر باسناده أن رجلا قام إلى أبى مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد الذى أرى عليك ؟ فقال : حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله « أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء » . وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة . يا غلام اضرب عنقه . وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن على عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله

ﷺ : « من أراد هوان قريش أهانه الله » . وقد كان ابراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه فى زمن الدعوة ، وكان يعده إذا ظهر أن يقيم الحدود ، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم ابن ميمون فى القيام بما وعده به حتى أحرجه ، فأمر بضرب عنقه ، وقال له : لم لا كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أوانى الخز من الذهب فيبعثها إلى بنى أمية ؟ فقال له : إن أولئك لم يقربونى من أنفسهم و يعدونى منها ما وعدتنى أنت . وقد رأى بعضهم لابراهيم بن ميمون هذا منازل عالية فى الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فانه كان آمراً ناهياً قائماً فى ذلك ، فقتله أبو مسلم رحمه الله .

وقد ذكرنا طاعة أبى مسلم للسفاح واعتناءه بأمره وامتثال مراسيمه ، فلما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحتقره ، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره، واستنقذ منه الشام وردها إلى حكم المنصور . ثم شمخت نفسه على المنصور وهم بقتله ، ففطن لذلك المنصور مع ما كان مبطنا له من البغضة ، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه ، فلما تولى المنصور مازال يماكره ويخادعه حتى قدم عليه فقتله . قال بعضهم : كتب المنصور إلى أبى مسلم أما بعد فانه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصى ، فع أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة ، فى برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سوالف القرون (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وإن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تغتر بمن معك من شيعتى وأهل دعوتى ، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله مالم تكن تحتسب ، مهلا مهلا ، احذر البغى أبا مسلم فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة فى الذين قد خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتى بعدك ، فقد قامت الحجة وأعذرت إليك ، وإلى أهل طاعتى فيك . قال تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) .

فأجابه أبو مسلم : أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانبا ، وعن الحق حائدا إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إلى فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، ومايستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وإنى والله ما انسلخت من آيات الله ، ولكننى يا عبد الله بن محمد كنت رجلا متأولا فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متديناً أحسبنى هاديا مهتديا ، وأخطأت فى التأويل وقدماً أخطأ المتأولون ، وقد قال تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على

نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم) وإن أخاك السفاح ظهر فى صورة مهدى وكان ضالا فأمرنى أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا فى طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم . ثم إن الله سبحانه تداركنى منه بالندم واستنقذنى بالتوبة ، فان يعف عنى ويصفح فانه كان للأوابين غفورا ، وإن يعاقبنى فبذنوبى وما ربك بظلام للعبيد .

فكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصى ، فان أخى كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخى اقتديت لما كنت عن الحق حائداً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه فى غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبرى أيها الفاسق أنى قد وليت موسى ابن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بنيسابور ، فان أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادى وشيعتى ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل .

ولم يزل المنصور يراسله تارة بالرغبة وتارة بالرهبة ، ويستخف أحلام من حوله من الأمراء والرسل الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويعدهم ، حتى حسنوا لأبى مسلم فى رأيه القدوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك ، فانه لم يوافق على ذلك ، فلما رأى أبا مسلم وقد انطاع لهم أنشد عند ذلك البيت المتقدم ، وهو : مالرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك ، فانه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة ، فما وصل إلا آخر النهار ، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل أن لا يقتله يومه هذا كما تقدم [فلما وقف بين يدى الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه ، وقال : اذهب الليلة فأذهب عنك وعثاء السفر ثم ائتنى من الغد .] (١) فلما كان الغد أرصد له من الأمراء من يقتله ، منهم عثمان بن نهيك ، وشبيب بن واج ، فقتلوه كما تقدم . ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الاكرام والاحترام ، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به ، وقال : إنى أخافه على نفسى . فقال : لا بأس عليك فانطلق فانى آت وراءك ، أنت فى ذمتى حتى آتيك ، ـ ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة ـ فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له : اجلس ههنا فان أمير المؤمنين يتوضأ ، فجلس وهو يود أن يطول مجلسه ليجىء عيسى بن موسى فأبطأ ، وأذن له الخليفة

(١) زيادة من المصرية .

فدخل عليه فجعل يعاتبه فى أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، و إبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصونى وخالفوا أمرى . فغضب عند ذلك المنصور وقال : و يحك ! أنت تقتـل إذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقـد عصيتنى ؟ وصفق بيـديه وكانت الاشارة بينه و بين المرصدين لقتله ـ ، فتبادروا إليـه ليقتلوه فضربه أحـدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين استبقنى لأعـدائك ، فقال : وأى عدوّ لى أعـدى منك . ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعا ولفوه فى عباءة ، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا أبو مسلم ، فقال : إنا لله و إنا إليه راجعونَ ، فقال له المنصور : احمد الله الذى هجمت علىّ نعمة ، ولم تهجم علىّ نقمة ، فنى ذلك يقول أبو دلامة : ــ

أبا مسلم ما غـير الله نعمة ❊ على عبده حتى يغيرها العبد
أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى ❊ عليك بما خوفتنى الأسد الورد

وذكر ابن جرير أن المنصور تقدم إلى عثمان بن نهيك وشبيب بن واج وأبى حنيفة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريبا منه ، فاذا دخل عليه أبو مسلم وخاطبه وضرب باحدى يديه على الأخرى فليقتلوه . فلما دخل عليه أبو مسلم قال له المنصور : ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن على ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال : أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له : ما حملك على أن تكتب لأبى عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : إننى ظننت أن أخذه لا يحل ، فلما جاءنى كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معـدن العلم . قال : فلم تقدمت على فى طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت التماس الرفق . قال : فلم لا رجعت إلىّ حين أتاك خبر موت أبى العباس ؟ قال : كرهت التضييق على الناس فى طريق الحج ، وعرفت أنا سنجتمع بالكوفة ، وليس عليك منى خلاف . قال : فجارية عبد الله بن على أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ! ولكن خفت أن تضيع فحملتها فى قبـة ووكلت بها من يحفظها . ثم قال له : ألست الـكاتب إلىّ تبدأ بنفسك والـكاتب إلى تخطب آمنة بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ هذا كله و يد المنصور فى يده يعركها و يقبلها و يعتذر ، ثم قال له : فما حملك عـلى مراغمتى ودخولك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون دخلك منى شئ فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بعذرى . قال : فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافى ، فقال : و يحك وأنت أردت خـلافى وعصيتنى ، قتلنى الله إن لم أقتلك . ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليـه أولئك فضربه عثمان فقطع حمائل سـيفه ، وضربه شبيب فقطع رجله ، وحمل عليه بقيتهم بالسيوف ، والمنصور يصيح: و يحكم اضربوه قطع الله أيديكم . ثم ذبحوه

وقطعوه قطعاً قطعاً ، ثم ألقى فى دجلة . ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لايخرج علينا أحد فى هذه الأيام إلاقتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا . ويقال إن المنصور قال : الحمد لله الذى أرانا يومك يا عدو الله . قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك : —

زعمت أن الدَّين لا يُقتضى * فاستوف بالكيل أبا مجرم

سُقيت كأساً كنت تسقى بها * أمرّ فى الحلق من العلقم

ثم إن المنصور خطب فى الناس بعد قتل أبى مسلم فقال : أيها الناس ، لاتنفّروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، ولا تُسروا غش الأئمة فان أحداً لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وطوالع نظره وإنا لن نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا ، ولا ننسى الاحسان إليكم ماذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه ، حتى يستقيم رجالكم ، وترتدع عمالكم . وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء منتهياً ، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا . ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علم اللائم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا فى قتله ، وعنفنا فى إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا فيه حكمه فى غيره ممن شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى للنعمان — يعنى ابن المنذر — :

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولاتقعد على ضمد

وقد روى البيهقى عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبى مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه ، قد اتهمه بعضهم على الاسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أر فيما ذكروه عن أبى مسلم ما يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه ، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء فى إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره .

وقد روى الخطيب عنه أنه قال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكفاف ، وحالفت الأحزان والأشجان وشامخت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتى ، وأدركت نهاية بغيتى . ثم أنشأ يقول :

قد نلت بالعزم والكتمان ماعجزت * عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
مازلت أضربهم بالسيف فانتبهوا * من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
وطفت أسعى عليهم فى ديارهم * والقوم فى ملكهم فى الشام قد رقدوا
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقد كان قتل أبى مسلم بالمدائن يوم الأربعاء لسبع خلون ، وقيل لخمس بقين ، وقيل لأربع ، وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة – أعنى سنة سبع وثلاثين ومائة – قال بعضهم : كان ابتداء ظهوره فى رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل فى شعبان سنة سبع وعشرين ومائة . وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد فى سنة أربعين ، وهذا غلط من قائله ، فان بغداد لم تكن بنيت بعد كما ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد ، ورد هذا القول .

ثم إن المنصور شرع فى تأليف أصحاب أبى مسلم بالأعطية والرغبة والرهبة والولايات ، واستدعى أبا إسحاق – وكان من أعز أصحاب أبى مسلم – وكان على شرطة أبى مسلم ، وهمّ بضرب عنقه فقال: يا أمير المؤمنين والله ما أمنت قط إلا فى هذا اليوم ، وما من يوم كنت أدخل عليك إلا تحنطت ولبست كفنى . ثم كشف عن ثيابه التى تلى جسده فاذا هو محنط وعليه أدراع أكفان ، فرق له المنصور وأطلقه

وذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل فى حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بنى العباس ستمائة ألف صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك . وقد قال للمنصور وهو يعاتبه على ما كان يصنعه : ياأمير المؤمنين لايقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى . فقال له : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأجزأت ناحيتها ، إنما عملت ماعملت بدولتنا وبريحنا ، لو كان ذلك إليك لما وصلت إلى فتيل . ولما قتله المنصور لف فى كساء وهو مقطع إربا إربا ، فدخل عيسى بن موسى فقال : ياأمير المؤمنين أين أبو مسلم ؟ قال : قد كان هاهنا آنفا . فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى إبراهيم الامام فيه . فقال له : يا أنوك والله ما أعلم فى الأرض عدواً أعدى لك منه ، هاهو ذاك فى البساط . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال له المنصور : خلع الله قلبك ! وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ ثم استدعى المنصور برؤس الأمراء فجعل يستشيرهم فى قتل أبى مسلم قبل أن يعلموا بقتله ، فكلهم يشير بقتله ، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفا من أبى مسلم لئلا ينقل إليه ، فلما أطلعهم على قتله أفزعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيرا . ثم خطب المنصور الناس بذلك كما تقدم.

ثم كتب المنصور إلى نائب أبى مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبى مسلم أن يقدم بجميع ماعنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر ، وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم بكماله ، مطبوعا بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب فى الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى

خازنه أنه إذا جاءك كتابى فان رأيته مختوماً بنصف الفص فامض لما فيه ، فانى إنما أختم بنصف فصه على كتبى ، وإذا جاءك الكتاب مختوما عليه بكماله فلا تقبل ،لا تمض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل مابعث به المنصور ، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن ، وكتب المنصور إلى أبى داود إبراهيم بن خالد بأمرة خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبى مسلم .

وفى هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبى مسلم ، وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على قومس وأصبهان ، ويسمى بفيروز اصبهبذ ، فبعث إليه أبوجعفر المنصور جيشا هم عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار العجلى ــ فالتقوا بين همذان والرى بالمفازة ، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم ، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً . وأخذ ماكان استحوذ عليه من أموال أبى مسلم التى كانت بالرى . وخرج فى هذه السنة أيضا رجل يقال له ملبد [بن حرملة الشيبانى] فى ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز إليه المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تنفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة ، فهزمه ملبد وتحصن منه حميد فى بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وتقلع عنه .

وحج بالناس فى هذه السنة عم الخليفة اسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس قاله الواقدى . وكان نائب الموصل ــ يعنى عم المنصور ــ وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة سليمان ابن على ، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة ، وعلى مصر صالح بن على ، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم ابن خالد ، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله . ولم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل الخليفة بسنباذ وغيره . ومن مشاهير من توفى فيها أبو مسلم الخراسانى كما تقدم ، ويزيد بن أبى زياد أحد من تكلم فيه كما ذكرناه فى التكميل ، والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة ﴾

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عمن قدر عليه من مقاتلتها . وفيها غزا الصائفة صالح بن على نائب مصر ، فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية ، وأطلق لأخيه عيسى بن على أربعين ألف دينار ، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن على أربعين ألف دينار . وفيها بايع عبد الله بن على الذى كسره أبو مسلم وانهزم إلى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن على ، حتى بايع الخليفة فى هذه السنة ورجع إلى طاعته . ولكن حبس فى سجن بغداد كما سيأتى . وفيها خلع جهور بن مرار العجلى الخليفة المنصور بعد ما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وعلى أموال أبى مسلم ، فقويت نفسه بذلك وظن أنه لايقدر عليه بعد ، فأرسل إليه

الخليفة محمد بن الأشعث الخزاعى فى جيش كثيف فاقتتلوا قتالا شديداً ، فهزم جمهور وقتل عامة من معه ، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل والذخائر ، ثم لحقوه فقتلوه . وفيها قتل الملبد الخارجي على يدى خازم بن خزيمة فى ثمانية آلاف ، وقتل من أصحاب الملبد مايزيد على ألف وانهزم بقيتهم .

قال الواقدى : وحج بالناس فيها الفضل بن على ، والنواب فيها هم المذكورون بالتى قبلها

وممن توفى فيها من الأعيان زيد بن واقد ، والعلاء بن عبد الرحمن ، وليث بن أبى سليم فى قول

[وفيها كانت خلافة الداخل من بنى أمية إلى بلاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الهاشمى . قلت : ليس هو بهاشمى إنما هو من بنى أمية ويسمى أمويا ، كان قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس ، فاجتاز بمن معه من أصحابه الذين فروا معه بقوم يقتتلون على عصبية اليمانية والمضرية ، فبعث مولاه بدراً إليهم فاستمالهم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الاندلس واستحوز عليها وانتزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن ابن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى وقتله . وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر فى خلافته فى تلك البلاد من هذه السنة إلى سنة ثنتين وسبعين ومائة . فتوفى فيها وله فى الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر . ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهراً . ثم مات فولى بعده الحكم بن هشام ستا وعشرين سنة وأشهرا ثم مات . ثم ولى بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثا وثلاثين سنة ثم مات . ثم ولى بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستا وعشرين سنة . ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد بن المنذر . وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر ، ثم زالت تلك الدولة كما سنذكره من زوال تلك السنون وأهلها وما قضوا فيها من النعيم والعيش الرغيد والنساء الحسان ثم انقضت تلك السنوات وأهلها كأنهم على ميعاد ، ثم أضحوا كأنهم ورق جف ألوت عليه الصبا والدبول] (1) .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة ﴾

فيها أكمل صالح بن على بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث ، فوغل فى بلاد الروم ، وغزا معه أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا على ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن يجاهدا فى سبيل الله عز وجل . وفيها كان الفداء الذى حصل بين المنصور وبين ملك الروم ، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة فى هذه السنة إلى سنة ست وأربعين ، وذلك لاشتغال المنصور بأمر ابنى عبد الله بن حسن كما سنذكره . ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام سنة أربعين فالله أعلم .

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام ، وكانت هذه السنة خصبة جداً - أى كثيرة الخصب فكان

(1) زيادة من نسخة استامبول .

يقال لها السلة الخصبة ـ وقيل إنما كان ذلك فى سنة أربعين . وفيها عزل المنصور عمه سليمان عن إمرة البصرة ، فاختفى عبد الله بن على وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة ، وهو سفيان بن معاوية ، يستحثه فى إحضار عبد الله بن على إليه ، فبعثه فى أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن على عمه ، و بعث بقية أصحابه إلى أبى داود نائب خراسان فقتلهم هناك

وحج بالناس فيها العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وفيها توفى عمر و بن مجاهد ، و يزيد بن عبد الله بن الهاد ، و يونس بن عبيد ، أحد العباد وصاحب الحسن البصرى .

﴿ ثم دخلت سنة أربعين ومائة ﴾

فيها ثار جماعة من الجند على أبى داود نائب خراسان ، وحاصروا داره ، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بجنده ليحضروا إليه ، واتكأ على آجرة فى الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره فمات ، فخلفه على خراسان عاصم ، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير من جهة الخليفة عليها ، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ، فتسلم بلاد خراسان ، وقتل جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل على بن أبى طالب ، وحبس آخرين ، وأخذ نواب أبى داود بجباية الأموال المنكسرة عندهم .

وفيها حج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج إلى المدينة ، ثم رحل إلى بيت المقدس فزاره ، ثم سلك الشام إلى الرقة ، ثم سار إلى الهاشمية ـ هاشمية الكوفة ـ ونواب الأقاليم هم المذكورون فى التى قبلها ، سوى خراسان فانه مات نائبها أبو داود ، فخلفه مكانه عبد الجبار الازدى . وفيها توفى داود بن أبى هند ، وأبو حازم سلمة بن دينار ، وسهيل بن أبى صالح ، وعمارة بن غزية بن قيس السكونى .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة ﴾

فيها خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور . ذكر ابن جرير عن المدائنى أن أصلهم من خراسان ، وهم على رأى أبى مسلم الخراسانى ، كانوا يقولون بالتناسخ ، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور . وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، قبحهم الله .

قال ابن جرير : فأتوا يوماً قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فغضبوا من ذلك وقالوا : علام تحبسهم ؟ ثم عمدوا إلى نعش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد ، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة ، واجتازوا بباب السجن ، فألقوا النعش ودخلوا السجن قهرا واستخرجوا من فيه من أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور

وهم فى ستمائة ، فتنادى الناس وغلقت أبواب البلد ، وخرج المنصور من القصر ماشيا ، لأنه لم يجد دابة يركبها ، ثم جئ بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية ، وجاء معن بن زائدة ، فلما رأى المنصور ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور ، وقال : يا أمير المؤمنين ارجع ا نحن نكفيكهم . فأبى وقام أهل الأسواق إليهم فقاتلوهم ، وجاءت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فحصدوهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم بقية . وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه ، فرض أياماً ثم مات ، فصلى عليه الخليفة ، وقام على قبره حتى دفن ودعا له ، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس ، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر فى آخر وقتها ، ثم أتى بالطعام فقال أين معن بن زائدة ؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذ فى شكره لمن بحضرته لما رأى من شهامته يومئذ . فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإنى لوجل ، فلما رأيت استهانتك بهم وإقدامك عليهم قوى قلبى واطمأن ، وماظننت أن أحداً يكون فى الحرب هكذا ، فذاك الذى شجعنى يا أمير المؤمنين . فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضى عنه وولاه اليمن. وكان معن بن زائدة قبل ذلك مختفياً ، لانه قاتل المسودة مع ابن هبيرة ، فلم يظهر إلا فى هذا اليوم . فلما رأى الخليفة صدقه فى قتاله رضى عنه . ويقال : إن المنصور قال عن نفسه : أخطأت فى ثلاث : قتلت أبا مسلم وأنا فى جماعة قليلة ، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية لو أصابنى سهم غرب لذهبت ضياعاً . وهذا من حزمه وصرامته .

وفى هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً العهد من بعده ودعاه بالمهدى وولاه بلاد خراسان وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة ، فشكاه المنصور إلى أبى أيوب كاتب الرسائل فقال : يا أمير المؤمنين اكتب إليه ليبعث جيشا كثيفا من خراسان إلى غزو الروم ، فاذا خرجوا بعثت إليه من شئت فأخرجوه من بلاد خراسان ذليلا . فكتب إليه المنصور بذلك ، فرد الجواب بأن بلاد خراسان قد عاثت بها الاتراك ، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها . فقال المنصور لأبى أيوب : ماذا ترى ؟ قال : فاكتب إليه : إن بلاد خراسان أحق بالمدد لثغور المسلمين من غيرها ، وقد جهزت إليك بالجنود . فكتب إليه أيضاً : إن بلاد خراسان بضيقة فى هذا العام أقواتها ، ومتى دخلها جيش أفسدها . فقال الخليفة لأبى أيوب : ماتقول ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره . فحينئذ بعث المنصور ابنه محمداً المهدى ليقيم بالرى ، فبعث المهدى بين يديه خازم بن خزيمة مقدمة إلى عبد الجبار ، فما زال به يخدعه ومن معه حتى هرب من معه وأخذوه هو فأركبوه بعيراً محولا وجهه إلى ناحية ذنب البعير . وسيروه كذلك

فى البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله ، فضرب المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه إلى جزيرة فى طرف اليمن ، فأسرتهم الهنود بعد ذلك ، ثم فودى بعضهم بعد ذلك . واستقر المهدى نائبا على خراسان ، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان ، وأن يحارب الاصبهبذ بمن معه من الجنود وأمده بجيش عليهم عمر بن العلاء ، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان ، وهو الذى يقول فيه الشاعر :

فقل للخليفة إن جئته * نصيحاً ولا خير فى المتهم

إذا أيقظتك حروب العدى * فنبه لها عمراً ثم نم

فتى لا ينام على دمنة * ولا يشرب الماء إلا بدم

فلما توافقت الجيوش على طبرستان فتحوها وحصروا الأصبهبذ حتى ألجؤه إلى قلعته فصالحهم على ما فيها من الذخائر ، وكتب المهدى إلى أبيه بذلك ، ودخل الأصبهبذ بلاد الديلم فمات هناك . وكسروا أيضا ملك الترك الذى يقال له المصمغان ، وأسروا أمما من الذرارى ، فهذا فتح طبرستان الأول .

وفيها فرغ بناء المصيصة على يدى جبريل بن يحيى الخراسانى ، وفيها رابط محمد بن إبراهيم الامام ببلاد ملطية . وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد القسرى وقدمها فى رجب . وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العكى . وفيها توفى موسى بن كعب وهو على شرطة المنصور . وعلى مصر من كان عليها فى السنة الماضية ، ثم ولى مصر محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات . وحج بالناس فيها صالح بن على وهو نائب قنسرين وحمص ودمشق ، وبقية البلاد عليها من ذكرنا فى التى قبلها والله أعلم .

وفيها توفى أبان بن تغلب ، وموسى بن عقبة ، صاحب المغازى ، وأبو إسحاق الشيبانى فى قول والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة ﴾

فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة ، فجهز إليه العساكر صحبة عمر بن حفص ابن أبى صفرة ، وولاه السند والهند ، فحاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه . وفيها نكث أصبهبذ طبرستان العهد الذى كان بينه وبين المسلمين ، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان ، فجهز إليه الخليفة الجيوش صحبة خازم بن خزيمة ، وروح بن حاتم ، ومعهم مرزوق أبو الخصيب ، مولى المنصور ، فحاصروه مدة طويلة ، فلما أعيام فتح الحصن الذى هو فيه احتالوا عليه ، وذلك أن أبا الخصيب قال : اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ، ففعلوا ذلك ، فذهب إليه كأنه مغاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته ، فدخل الحصن ففرح به الأصبهبذ وأكرمه وقربه ، وجعل أبو الخصيب يظهر له النصح والخدمة حتى خدعه ، وحظى عنده جدا وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه ، فلما تمكن من ذلك كاتب المسلمين وأعلمهم أنه فى الليلة الفلانية يفتح لهم ، فاقتربوا من الباب حتى

أفتحه لكم ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامتص الأصبهبذ خاتما مسموماً فمات . وكان فيمن أسروا يومئذ أم منصور بن المهدى ، وأم إبراهيم ابن المهدى ، وكانتا من بنات الملوك الحسان .

وفيها بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التى يصلون عندها بالجبان ، وتولى بناءها سلمة بن سعيد ابن جابر نائب الفرات والأبلة . وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد فى ذلك المصلى. وفيها عزل المنصور نوفل بن الفرات عن إمرة مصر وولى عليها حميد بن قحطبة . وحج بالناس فيها إسماعيل بن على . وفيها توفى سليمان بن على بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة . كان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وهو ابن تسع وخمسين سنة ، وصلى عليه أخوه عبد الصمد . روى عن أبيه وعكرمة وأبى بردة بن أبى موسى . وعنه جماعة منهم بنوه جعفر ، ومحمد ، وزينب والأصمعى . وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب فى ذلك السن ، وكان كريماً جواداً ممدحاً . كان يعتق عشية عرفة فى كل سنة مائة نسمة ، وبلغت صلاته لبنى هاشم وسائر قريش والأنصار خمسة آلاف ألف واطلع يوما من قصره فرأى نسوة يغزلن فى دار من دور البصرة ، فاتفق فى نظره هذا إليهن أن قالت واحدة منهن : لو أن الأمير نظر إلينا واطلع على حالنا فأغنانا عن الغزل ؟ فنهض من فوره فجعل يدور فى قصره ويجمع من حلى نسائه من الذهب والجواهر وغيرها ما ملأ به منديلا كبيراً ، ثم دلاه إليهن ونثر عليهن من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً ، فماتت إحداهن من شدة الفرح ، فأعطى ديتها وما تركته من ذلك لورثتها . وقد ولى الحج فى أيام السفاح ، وولى البصرة أيام المنصور ، وكان من خيار بنى العباس ، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد ، وهو عم السفاح والمنصور .

وممن توفى فيها من الأعيان خالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، وعمرو بن عبيد القدرى فى قول .

وهو عمرو بن عبيد بن ثوبان . ويقال ابن كيسان ، التيمى مولاهم أبو عثمان البصرى ، من أبناء فارس ، شيخ القدرية والمعتزلة . روى الحديث عن الحسن البصرى وعبيد الله بن أنس ، وأبى العالية وأبى قلابة ، وعنه الحادان وسفيان بن عيينة والأعمش ـ وكان من أقرانه ـ وعبد الوارث ابن سعيد ، وهارون بن موسى ، ويحيى القطان ، ويزيد بن زريع . قال الامام أحمد بن حنبل : ليس بأهل أن يحدث عنه . وقال على بن المدينى ويحيى بن معين : ليس بشىء ، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة . كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدى لا يحدث عنه . وقال أبو حاتم : متروك. وقال النسائى ليس بثقة . وقال شعبة عن يونس بن عبيد: كان عمرو بن عبيد يكذب فى الحديث .

وقال حماد بن سلمة : قال لي حميد : لاتأخذ عنه فانه كان يكذب على الحسن البصري . وكذا قال أيوب وعوف وابن عون . وقال أيوب : ما كنت أعده عقلا ، وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء . وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر . وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته و زهده وتقشفه . قال الحسن البصري : هذا سيد شباب القراء مالم يحدث . قالوا : فأحدث والله أشد الحدث . وقال ابن حبان : كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة ، وكان يشتم الصحابة و يكذب في الحديث ، وهما لا قصداً . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة . و روى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدوق « ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً » حتى قال : « فيؤمر بأربع كلمات . رزقه وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد » إلى آخره . فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أجبته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله ﷺ لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ما على هذا أخذت علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ، لعنه الله إن كان قال هذا . و إذا كان مكذوبا عليه فعلى من كذبه عليه مايستحقه وقد قال عبد الله ابن المبارك رحمه الله :

أيها الطالب علماً * إيت حماد بن زيد * فخذ العلم بحلم * ثم قيده بقيد
وذر البدعة من * آثار عمرو بن عبيد

وقال ابن عدي : كان عمرو يغر الناس بتقشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جدا ، معلن بالبدع . وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادي : جالس الحسن واشتهر بصحبته ثم أزاله [وأصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه ، واعتزل أصحاب الحديث ، وكان له سمت و إظهار زهد . وقد قيل : إنه][1] وواصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين ، وحكى البخاري أن عمراً مات سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة ، وقد كان عمرو محظياً عند أبي جعفر المنصور ، كان المنصور يحبه و يعظمه لأنه كان يفد على المنصور مع القراء فيعطيهم المنصور فيأخذون ، ولا يأخذ عمرو منه شيئاً ، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه ، فكان ذلك مما يغر المنصور ويروج به عليه حاله ، لأن المنصور كان بخيلا وكان يعجبه ذلك منه و ينشد :

كلكم يمشي رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد ،

---

(١) زيادة من المصرية .

والزهد لا يدل على صلاح ، فان بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين فى زمانه . وقد روينا عن إسماعيل بن خالد القعنبى قال : رأيت الحسن بن جعفر فى المنام بعد ما مات بعبادان فقال لى : أيوب ويونس وابن عون فى الجنة . قلت : فعمرو بن عبيد ؟ قال : فى النار . ثم رآه مرة ثانية ويروى ثالثة ، فيسأله فيقول له مثل ذلك . وقد رؤيت له منامات قبيحة ، وقد أطال شيخنا فى تهذيبه فى ترجمته ولخصنا حاصلها فى كتابنا التكميل ، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة ﴾

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقا ، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً فليذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها . وفيها توفى حجاج الصواف ، وحميد بن رؤبة الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمى ، وقد ذكرناه فى التى قبلها ، وعمرو بن عبيد فى قول ، وليث بن أبى سليم على الصحيح . ويحيى بن سعيد الأنصارى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة ﴾

فيها سار محمد بن أبى العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة . وفيها قدم محمد بن جعفر المنصور المهدى على أبيه من بلاد خراسان ودخل بابنة عمه رايطة بنت السفاح بالحيرة . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الحيرة والعسكر خازم بن خزيمة ، وولى رياح بن عثمان المزنى المدينة وعزل عنها محمد بن خالد القسرى ، وتلقى الناس أبا جعفر المنصور إلى أثناء طريق مكة فى حجه فى سنة أربع وأربعين ومائة . وكان فى جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، فأجلسه المنصور معه على السماط ، ثم جعل يحادثه باقبال زائد بحيث إن المنصور اشتغل بذلك عن عامة غدائه ، وسأله عن ابنيه إبراهيم ومحمد لم لا جاآنى مع الناس ؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدرى أين صارا من أرض الله . وصدق فى ذلك ، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز فى أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان ، وكان فى جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور ، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بنى العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبى جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً .

وذلك لأن المنصور توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان ، والذى توهم منه المنصور وقع فيه ، فذهبا هرباً فى البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن ، ثم سارا إلى الهند فاختفيا

بها ، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر ، فاستدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما ، ثم كذلك . وانتصب إلباً عليهما عند المنصور . والعجب منه أنه من أتباعهما . واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك ، و إلى الآن . فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدرى أين صارا من أرض الله ، ثم ألح المنصور على عبد الله فى طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال : والله لو كانا تحت قدمى مادللتك عليهما . فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله ، فلبث فى السجن ثلاث سنين ، وأشاروا على المنصور بحبس بنى حسن عن آخرهم فحبسهم ، وجد فى طلب إبراهيم ومحمد جداً ، هذا وهما يحضران الحج فى غالب السنين و يكمنان فى المدينة فى غالب الأوقات ، ولا يشعر بهما من ينم عليهما ولله الحمد . والمنصور يعزل نائبا عن المدينة و يولى عليها غيره و يحرضه على إمساكهما والفحص عنهما ، و بذل الأموال فى طلبهما ، وتعجزه المقادير عنهما لما يريده الله عز وجل .

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان ، فعزموا فى بعض الحجات على الفتك بالمنصور بين الصفا والمروة ، فنهاهم عبد الله بن حسن لشرف البقعة . وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما مالأهما ذلك الأمير ، فعذبه حتى أقر بما كانوا تمالؤا عليه من الفتك به . فقال : وما الذى صرفكم عن ذلك ؟ فقال : عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك ، فأمر به الخليفة فغيب فى الأرض فلم يظهر حتى الآن . وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه و وزرائه من ذوى الرأى فى أمر ابنى عبد الله بن حسن ، و بعث الجواسيس والقصاد فى البلاد فلم يقع لهما على خبر ، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر ، والله غالب على أمره . وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه ! إنى قد شفقت على أبى وعمومتى ، ولقد هممت أن أضع يدى فى يد هؤلاء لأريح أهلى . فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها ، فقالوا : لا ولا كرامة ، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً ، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله إن شاء فرج عنا ، و إن شاء ضيق . وتمالؤا كلهم على ذلك رحمهم الله .

وفيها نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفى أرجلهم القيود ، وفى أعناقهم الأغلال . وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبى جعفر المنصور ، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثمانى ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وقد حملت قريباً ، فاستحضره الخليفة وقال : قد حلفت بالعتاق والطلاق إنك لم تغشنى ، وهذه ابنتك حامل ، فان كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به ، و إن كان من غيره فأنت ديوث . فأجابه العثمانى بجواب أحفظه به ، فأمر به فجردت عنه ثيابه فاذا جسمه مثل الفضة النقية ، ثم

ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطا ، منها ثلاثون فوق رأسه ، أصاب أحدها عينه فسالت ، ثم رده إلى السجن وقد بقى كأنه عبد أسود من زرقة الضرب ، وتراكم الدماء فوق جلده ، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن ، فاستسقى ماء فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراسانى من جملة الجلاوزة الموكلين بهم . ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك فى محامل ضيقة ، وعليهم القيود والأغلال ، فاجتاز بهم المنصور وهو فى هودجه ، فناداه عبد الله بن حسن : والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسرائكم يوم بدر ، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر عنهم . ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية ، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وكان جميلا فتيا ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى حسنه وجماله . وكان يقال له : الديباج الأصفر ، فأحضره المنصور بين يديه وقال له : أما لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً . ثم ألقاه بين اسطوانتين وسد عليه حتى مات . فعلى المنصور مايستحقه من عذاب الله ولعنته . وقد هلك كثير منهم فى السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور على ما سنذكره . فكان فيمن هلك فى السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، وقد قيل والأظهر أنه قتل صبراً ، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما ، وقل من خرج منهم من الحبس ، وقد جعلهم المنصور فى سجن لا يسمعون فيه أذانا ، ولا يعرفون فيه وقت صلاة إلا بالتلاوة ، ثم بعث أهل خراسان يشفعون فى محمد بن عبد الله العثمانى ، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان ، لا جزاه الله خيراً ، ورحم الله محمد بن عبد الله العثمانى .

وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموى رحمه الله ، أبو عبد الله المدنى المعروف بالديباج ، لحسن وجهه . وأمه فاطمة بنت الحسين بن على ، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجة بن زيد وطاوس وأبى الزناد والزهرى ونافع وغيرهم ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائى وابن حبان ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله ، وكانت من أحسن النساء ، وبسببها قتله أبو جعفر المنصور فى هذه السنة . وكان كريما جواداً ممدحاً . قال الزبير بن بكار : أنشدنى سليمان بن عباس السعدى لأبى وجرة السعدى يمدحه :

وجدنا المحض الأبيض من قريش * فتى بين الخليفة والرسول
أتاك المجد من هنا وهناك * وكنت له بمعتلج السيول
فما للمجد دونك من مبيت * وما للمجد دونك من مقيل
ولا يمضى وراءك يبتغيه * ولا هو قابل بك من بديل

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة ﴾

فمما كان فيها من الأحداث خروج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة ،

على ما سنبينه إن شاء الله . أما محمد فانه خرج على أثر ذهاب أبي جعفر المنصور بأهله بني حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والنعت الذى تقدم ذكره ، وسجنهم فى مكان ساء مستقراً ومقاماً ، لا يسمعون فيه أذانا ولا يعرفون فيه دخول أوقات صلوات إلا بالأذكار والتلاوة . وقد مات أكثر أكابرهم هنالك رحمهم الله . هذا كله ومحمد الذى يطلبه مختف بالمدينة ، حتى أنه فى بعض الأحيان اختفى فى بئر نزل فى مائه كله إلا رأسه ، وباقيه مغمور بالماء ، وقد تواعد هو وأخوه وقتاً معينا يظهران فيه ، هو بالمدينة و إبراهيم بالبصرة ، ولم يزل الناس - أهل المدينة وغيرهم - يؤنبون محمد بن عبد الله فى اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج ، وذلك لما أضرّ به شدة الاختفاء وكثرة إلحاح رياح نائب المدينة فى طلبه ليلا ونهاراً ، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور فى الليلة الفلانية ، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولى المدينة فأعلمه بذلك ، فضاق ذرعا وانزعج لذلك انزعاجاً شديداً ، وركب فى جحافله فطاف بالمدينة وحول دار مروان ، وهم مجتمعون بها ، فلم يشعر بهم . فلما رجع إلى منزله بعث إلى بنى حسين بن على فجمعهم ومعهم رؤس من سادات قريش وغيرهم ، فوعظهم وأنبهم وقال : يا معشر أهل المدينة ، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل فى المشارق والمغارب وهو بين أظهركم ، ثم ما كفاكم حتى بايعتموه على السمع والطاعة ؟ والله لا يبلغنى عن أحد منكم خرج معه إلا ضربت عنقه . فأنكر الذين هم هنالك حاضرون أن يكون عندهم علم أو شعور بشئ من هذا ، وقالوا : نحن نأتيك برجال مسلحين يقاتلون دونك إن وقع شئ من ذلك . فنهضوا فجاؤه بجماعة مسلحين فاستأذنوه فى دخولهم عليه ، فقال : لا إذن لهم ، إنى أخشى أن يكون ذلك خديعة . فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم لا يتكلم إلا قليلا حتى ذهبت طائفة من الليل ، ثم ما فجئ الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير ، فانزعج الناس فى جوف الليل ، وأشار بعض الناس على الأمير أن يضرب أعناق بنى حسين ، فقال أحدهم : علام ونحن مقرون بالطاعة ؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر ، فاغتنموا الغفلة ونهضوا سراعاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك .

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن فى مائتين وخمسين ، فمر بالسجن فأخرج من فيه ، وجاء دار الامارة فحاصرها فافتتحها ومسك الأمير رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه فى دار مروان ، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة ، وهو الذى أشار بقتل بنى حسين فى أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به . وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استظهر على المدينه ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة إنا فتحنا لك فتحا مبينا . وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السنة . وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة فى هذا اليوم ، فتكلم فى بنى العباس وذكر عنهم أشياء ذمهم

بها ، وأخبرهم أنه لم ينزل بلداً من البلدان إلا وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل .

وقد روى ابن جرير عن الامام مالك أنه أفتى الناس بمبايعته ، فقيل له فان فى أعناقنا بيعة للمنصور ، فقال : إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة . فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته . وقد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته : يا ابن أخى إنك مقتول . فارتدع بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه ، فاستناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومى ، وعلى شرطتها عثمان بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخرمة ، وتلقب بالمهدى طمعاً أن يكون هو المذكور فى الأحاديث فلم يكن به ، ولا تم له ما رجاه ولا ما تمناه ، فانا لله . وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ، فطوى المراحل البعيدة إلى المنصور فى سبع ليال ، فورد عليه فوجده نائما فى الليل ، فقال للربيع الحاجب : استأذن على الخليفة ، فقال : إنه لا يوقظ فى هذه الساعة . فقال : إنه لابد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ فقال : إنه خرج ابن حسن بالمدينة . فلم يظهر المنصور لذلك اكتراثا وانزعاجاً ، بل قال : أنت رأيته ؟ قال : نعم ! فقال : هلك والله وأهلك معه من اتبعه . ثم أمر بالرجل فسجن ، ثم جاءت الأخبار بذلك فتواترت ، فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم .

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً ، فقال له بعض المنجمين : يا أمير المؤمنين لا عليك منه ، فوالله لو ملك الأرض بحذافيرها فانه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً . ثم أمر المنصور جميع رؤس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن حسن ـ والد محمد ـ فيخبروه بما وقع من خروج ولده ويسمعوا ما يقول لهم . فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال : ما ترون ابن سلامة فاعلا ؟ ـ يعنى المنصور ـ فقالوا : لا ندرى . فقال : والله لقد قتل صاحبكم البخل ينبغى له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال ، فان ظهر فاسترجاع ما أنفق سهل ، وإلا لم يكن لصاحبكم شئ فى الخزائن وكان ماخزن لغيره . فرجعوا إلى الخليفة فأخبروه بذلك ، وأشار الناس على الخليفة بمناجزته ، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك ، ثم قال : إنى سأكتب إليه كتابا أنذره به قبل قتاله فكتب إليه :

. بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً) الآية إلى قوله (فاعلموا أن الله غفور رحيم) ثم قال : فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمننك

ومن اتبعك ، ولأعطينك ألف ألف درهم ، ولأدعنك تقيم فى أجب البلاد إليك ، ولأقضين لك جميع حوائجك ، فى كلام طويل . فكتب إليه محمد جواب كتابه :

من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله بن حسن : (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) ثم قال : وإنى أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علىّ ، فأنا أحق بهذا الأمر منكم ، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا ، فان علياً كان الوصىّ وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسبا ، فرسول الله خير الناس وهو جدنا ، وجدتنا خديجة وهى أفضل زوجاته ، وفاطمة ابنته أمنا وهى أكرم بناته ، وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة ، وإن رسول الله ﷺ ولد أبى مرتين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسبا ، [وأصرحهم أباً ، لم تعرّق فىّ العجمُ . ولم تنازع فىّ أمهات الأولاد] [1] فانا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأخفهم عذابا فى النار . فانا أولى بالأمر منك ، وأولى بالعهد وأوفى به منك ، فانك تعطى العهد ثم تنكث ولا تفى ، كما فعلت بابن هبيرة فانك أعطيته العهد ثم غدرت به ، ولا أشد عذابا من إمام غادر ، وكذلك فعلت بعمك عبد الله بن على ، وأبى مسلم الخراسانى . [ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتنى إليه ، ولكن الوفاء بالعهد من مثلك لمثلى بعيد والسلام] [2]

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك فى كتاب طويل حاصله : أما بعد فقد قرأت كتابك فاذا جل فخرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبية والأولياء ، وقد أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) وكان له حينئذ أربعة أعمام ، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا ، وكفر اثنان أحدهما أبوك - يعنى جده أبا طالب - فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما إلاّ ولاذمة ، وقد أنزل الله فى عدم إسلام أبى طالب (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقد فخرت به وأنه أخف أهل النار عذابا ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن أن يفخر بأهل النار ، وفخرت بأن عليا ولده هاشم مرتين . وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين ، فهذا رسول الله ﷺ إنما ولده عبد الله مرة واحدة ، وقولك إنك لم تلدك أمهات أولاد ، فهذا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية ، وهو خير منك ، وعلى بن الحسن من أم ولد وهو خير منك ، وكذلك ابنه محمد بن على ، وابنه جعفر بن محمد ، جداتهما أمهات أولاد وهما خير منك ،

(١) زيادة من الطبرى جئنا بها للمناسبة . (٢) سقط من المصرية .

وأماقولك بنو رسول الله ﷺ فقد قال تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقد جاءت السنة التى لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون ، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله ﷺ بنص الحديث ، وقد مرض رسول الله ﷺ وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس ، بل أمر غيره . ولما توفى لم يعدل الناس بأبى بكر وعمر أحداً ، ثم قدموا عليه عثمان فى الشورى والخلافة ، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به ، وقاتله طلحة والزبير على ذلك ، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية ، ثم طلبها أبوك وقاتل عليها الرجال ، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به ، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودراهم ، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله ، وسلم الأمر إلى غير أهله ، وترك شيعته فى أيدى بنى أمية ومعاوية . فان كانت لكم فقد تركتموها و بعتموها بثمنها . ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وحرقوكم بالنار ، وحملوا نساءكم على الابل كالسبايا إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وذكرنا فضل سلفكم ، فجعلت ذلك حجة علينا ، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حمزة والعباس وجعفر ، وليس الأمر كما زعمت ، فان هؤلاء مضوا ولم يدخلوا فى الفتن ، وسلموا من الدنيا فلم تنقصهم شيئا ، فاستوفوا ثوابهم كاملا ، وابتلى بذلك أبوك . وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلوات المكتوبات ، فأحيينا ذكره وذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه ، وقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية بسقاية الحجيج الأعظم ، وخدمة زمزم ، وحكم رسول الله ﷺ لنا بها . ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس ، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر ، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد رسول الله ﷺ إلا العباس ، فالسقاية سقايته ، والوراثة بوراثته ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف فى الجاهلية والاسلام إلا والعباس وارثه ومورثه ، فى كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة . وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم .

فصل

﴿ فى ذكر مقتل محمد بن عبد الله بن حسن ﴾

بعث محمد بن عبد الله بن حسن فى غبون ذلك رسولا إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه ، وقالوا : قد ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال . وجعل يستميل رؤس أهل المدينة ، فنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه ، وقال له بعضهم : كيف أبايعك وقد ظهرت فى بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال ؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى قتل محمد . و بعث محمد هذا الحسين بن معاوية فى سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس إلى مكة نائباً إن هو دخلها

فساروا إليها ، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم فى ألوف من المقاتلة ، فقال لهم الحسين بن معاوية: علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر ؟ فقال السرى بن عبد الله زعيم أهل مكة : إن برده جاءتنا من أربع ليال وقد أرسلت إليه كتابا فأنا أنتظر جوابه إلى أربع ، فان كان ما تقولون حقا سلمتكم البلد وعلىّ مؤنة رجالكم وخيلكم . فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة ، وحلف لايبيت الليلة إلا بمكة ، إلا أن يموت . وأرسل إلى السرى أن ابرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء فى الحرم . فلم يخرج ، فتقدموا إليهم فصافوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموهم وقتلوا منهم نحو سبعة ، ودخلوا مكة . فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وأعلمهم بأبى جعفر ، ودعاهم إلى محمد بن عبد الله بن حسن المهدى .

﴿ ذكر خروج أخيه إبراهيم بن عبد الله بن حسن ﴾

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وجاء البريد إلى أخيه محمد فانتهى إليه ليلا فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها . فقال : اللهم إنى أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . ثم خرج فأخبر أصحابه عن أخيه فاستبشروا جداً وفرحوا كثيراً ، وكان يقول للناس بعد صلاة الصبح والمغرب : ادعوا الله لاخوانكم أهل البصرة ، وللحسين ابن معاوية بمكة ، واستنصروه على أعدائكم .

وأما ما كان من المنصور فانه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد الله بن حسن ، صحبة عيسى بن موسى عشرة آلاف فارس من الشجعان المنتخبين ، منهم محمد بن أبى العباس السفاح وجعفر بن حنظلة البهرانى ، وحميد بن قحطبة ، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال : يا أمير المؤمنين ادع بمن شئت ممن تثق به من مواليك فابعث بهم إلى وادى القرى يمنعونهم من ميرة الشام ، فيموت هو ومن معه جوعا ، فانه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح . وقدم بين يديه كثير بن الحصين العبدى وقد قال المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه : ياعيسى ! إنى أبعثك إلى جنبى هذين ، فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد فى الناس بالأمان . وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به ، فانهم أعلم بمذاهبه . وكتب معه كتبا إلى رؤساء قريش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة . فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيدهم قيوداً ثقالا ، وأودعهم السجن . ثم إن محمداً استشار أصحابه بالقيام بالمدينة حتى يأتى عيسى بن موسى فيحاصرهم بها ، أو أنه يخرج بمن معه فيقاتل أهل العراق ؟ فمنهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بذاك ، ثم اتفق الرأى على المقام بالمدينة ، لأن رسول

الله ﷺ عدم يوم أحـد على الخروج منها ، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، فأجاب إلى ذلك كله ، وحفر مع الناس فى الخنـدق بيده اقتـداء برسول الله ﷺ ، وقد ظهر لهم لبنة من الخندق الذى حفره رسول الله ﷺ ، ففرحوا بذلك وكبروا و بشروه بالنصر . وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض و فى وسطه منطقة ، وكان شكلا ضخماً أسمر عظيم الهامة .

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة ، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد — وكانوا قريباً من مائة ألف — فقال لهم فى جملة ما قال : إنى جعلتكم فى حل من بيعتى ، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل . ومن أحب أن يتركها فعل . فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه ، ولم يبق إلا شرذمة قليلة معه ، وخرج أكثر أهل المدينـة بأهليهم منها لئلا يشهدوا القتال بها ، فنزلوا الأعراض و رؤس الجبال . وقد بعث محمد أبا الليث ابردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك فى أكثرهم ، واستمروا ذاهبين . وقال محمد لرجل أتأخذ سيفاً و رمحا وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة ؟ فقال : نعم إن أعطيتنى رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض ، وسيفا أضربهم وهم فى رؤس الجبال فعلت . فسكت محمد ثم قال لى : و يحك ؟ إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا — يعنى لبسوا البياض — موافقة لى وخلعوا السواد . فقال : وما ذا ينفعنى أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء — وأنا فى مثل صوفـة الدواة ، وهـذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص . ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة على ميل منها ، فقال له دليله ابن الأصم : إنى أخشى إذا كشفتموهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهـم الخيل . ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبـد الملك على أربعة أميال من المدينـة ، وذلك يوم السبت لصبح اثنتى عشرة ليـلة خلت من رمضان من هذه السنة . وقال : إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل .

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة فى طريق مكة ، وقال لهم هذا الرجل إن هرب فليس له ملجأ إلا مكة ، فحولوا بينه و بينها . ثم أرسـل عيسى إلى محمد يدعوه إلى السمع والطاعة لأمير المؤمنين المنصور ، وأنه قد أعطاه الأمان له ولأهل بيتـه إن هو أجابه . فقال محمد للرسول : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك . ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له : إنى أدعوك إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل ، أو تقتلنى فتكون قتلت من دعاك إلى الله و رسوله . ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام ، هـذا يدعو هذا ، وهذا يدعو هـذا . وجعل عيسى بن موسى يقف فى كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادى : يا أهل المدينة إن دماءكم علينا حرام فمن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، فليس لنا فى قتالكم أرب ، و إنما نريد محمداً

وحده لنذهب به إلى الخليفة . فجعلوا يسبونه وينالون من أمه ، ويكلمونه بكلام شنيع ، ويخاطبونه مخاطبة فظيعة . وقالوا له : هذا ابن رسول الله ﷺ معنا ونحن معه ، نقاتل دونه .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها ، فناداه يا محمد ! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة ، فان فعلت أمنك وقضى دينك وأعطاك أموالا وأراضي ، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة . فناداه محمد : إنه ليس لكم عندي إلا القتال . فنشبت الحرب حينئذ بينهم ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة ، وعلى ميمنته محمد بن السفاح ، وعلى ميسرته داود بن كرار ، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة ، ومعهم عُدد لم ير مثلها . وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة . وكان محمد وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً جداً ، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلا من أبطالهم ، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن ، فاقتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعملوا أبوابا على قدره ، وقيل إنهم ردموه بحدائج الجمال حتى أمكنهم أن يجوزوه ، وقد يكونون فعلوا هذا موضع منه ، وهذا في موضع آخر والله أعلم .

ولم تزل الحرب ناشبة بينهم حتى صليت العصر . فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحميت الحرب حينئذ جداً ، فاستظهر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع ، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله ﷺ .

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا : أخذت المدينة ، وهربوا وبقي محمد في شرذمة قليلة جداً . ثم بقي وحده وليس معه أحد ، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه ، فكان لا يقوم له شيء إلا أنامه ، حتى قتل خلقا من أهل العراق من الشجعان ، ويقال إنه كان في يده يومئذ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبتيه وجعل يحمي نفسه ويقول : ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم . وجعل حميد بن قحطبة يقول : ويحكم ! دعوه لا تقتلوه ، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه . وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه ، فما أدركه إلا كذلك . ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش .

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر ، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع

رأسه بين يديه : ما تقولون فيه ؟ فنال منه أقوام وتكلموا فيه ، فقال رجل : كذبتم والله ! لقد كان صواماً قواماً ، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصى المسلمين فقتلناه على ذلك . فسكتوا حينئذ .

وأما سيفه ذو الفقار فانه صار إلى بنى العباس يتوارثونه حتى جرب به بعضهم فضرب به كلباً فانقطع . ذكره ابن جرير وغيره . وقد بلغ المنصور فى غبون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال : هذا لا يكون ، فانا أهل بيت لا نفر .

وقال ابن جرير : حدثنى عبد الله بن راشد حدثنى أبو الحجاج قال : إنى لقائم على رأس المنصور وهو يسألنى عن مخرج محمد ، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد انهزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال : كلا وأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ما أنى لذلك بعد . وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبى الكرام ، وأمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع ، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلع . ثم نقلوا إلى خندق هناك . وأخذ أموال بنى حسن كلها فسوغها له المنصور ، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم ، حكاه ابن جرير . ونودى فى أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس فى أسواقهم ، وترفع عيسى بن موسى فى الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد ، وجعل ينتاب المسجد من الجرف ، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان ، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد ، وكان محمد قد كتب إليه يقدم عليه ، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد ، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى أخى محمد إبراهيم بن عبد الله ، الذى كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه فى هذه السنة على ما سنذكره .

ولما جىء المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به فى طبق أبيض ثم طيف به فى الأقاليم بعد ذلك ، ثم شرع المنصور فى استدعاء من خرج مع محمد من أشراف أهل المدينة ، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضرباً مبرحاً ، ومنهم من عفا عنه . ولما توجه عيسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين ، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيابتها عبد الله بن الربيع ، فعاث جنده فى المدينة فصاروا إذا اشتروا من الناس شيئاً لا يعطونهم ثمنه ، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب وخوفوه بالقتل ، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا فى بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود فى المدينة ، وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة ، لسبع بقين من ذى الحجة من هذه السنة ، وقيل لخمس بقين من شوال منها ، فقتلوا من الجند طائفة كثيرة بالمزاريق وغيرها ، وهرب الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة . وكان رءوس السودان : وثيق ويعقل ورمقة وحديا وعنقود ، ومسعر ، وأبو النار . فلما رجع عبد الله بن الربيع ركب فى جنوده

والتقى مع السودان فهزموه أيضا فلحقوه بالبقيع فألقى لهم رداءه يشغلهم فيه حتى نجا بنفسه ومن اتبعه، فلحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة، ووقع السودان على طعام المنصور كان مخزونا فى دار مروان قد قدم به فى البحر فنهبوه ونهبوا ما للجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وغيره، وباعوا ذلك بأرخص ثمن. وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان، وخاف أهل المدينة من معرة ذلك، فاجتمعوا وخطبهم ابن أبى سبرة - وكان مسجونا - فصعد المنبر وفى رجليه القيود، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور، وخوفهم شر ماصنعه مواليهم، فاتفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم ويذهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله، ففعلوا ذلك، فسكن الأمر وهدأ الناس وانطفأت الشرور، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبى النار ويعقل ومسعر.

﴿ ذكر خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة وكيفية مقتله ﴾

كان إبراهيم قد هرب إلى البصرة فنزل فى بنى ضبيعة من أهل البصرة، فى دار الحارث بن عيسى، وكان لا يرى بالنهار، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة، وانعقد أسباب هلاكهما فى أوقات متعددة، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة، بعد منصرف الحجيج. وقيل إن قدومه إليها كان فى مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة، قاله الواقدى. قال: وكان يدعو فى السر إلى أخيه، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه فى شوال من هذه السنة، والمشهور أنه قدمها فى حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما تقدم والله أعلم.

ولما قدم البصرة نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطى، فاختفى عنده هذه المدة كلها، حتى ظهر فى هذه السنة فى دار أبى فروة، وكان أول من بايعه نميلة بن مرة، وعبد الله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمر بن سلمة الهجيمى، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشى. وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثير فتحول إلى دار أبى مروان فى وسط البصرة، واستفحل أمره، وبايعه فئام من الناس، وتفاقم الخطب به، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بأخيه محمد، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان سبب تعجيله الظهور كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه، فانتظم أمره بالبصرة، وكان نائبها من جهة المنصور سفيان بن معاوية وكان ممالئا لابراهيم هذا فى الباطن، ويبلغه أخباره فلا يكترث بها، ويكذب من أخبره ويود أن يتضح أمر إبراهيم، وقد أمده المنصور بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع فى عمارتها - إلى الكوفة، وجعل كلما اتهم رجلا من أهل الكوفة فى أمر إبراهيم بعث إليه من يقتله فى الليل فى منزله، وكان الفرافصة

العجلى قدم بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها ، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم ، ويفدون إليها جماعات وفرادى ، وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم فى الطريق و يأتونه برؤسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ بها الناس . وأرسل المنصور إلى حرب الراوندى - وكان مرابطاً بالجزيرة فى ألفى فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إليه إلى الكوفة ، فأقبل بمن معه فاجتاز ببلدة بها أنصار لإبراهيم فقالوا له : لا ندعك تجتاز ، لأن المنصور إنما دعاك لقتال إبراهيم . فقال : ويحكم ! دعونى ، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤسهم إلى المنصور . فقال : هذا أول الفتح . ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، خرج إبراهيم فى الليل إلى مقبرة بنى يشكر فى بضعة عشر فارسا ، وقدم فى هذه الليلة أبو حماد الأبرص فى ألفى فارس مدداً لسفيان ابن معاوية ، فأنزلهم الأمير فى القصر ، ومال إبراهيم وأصحابه على دواب أولئك الجيش وأسلحتهم فأخذوها جميعا ، فتقوّوا بها ، فكان هذا أول ما أصاب . وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً ، فصلى بالناس صلاة الصبح فى المسجد الجامع ، والتف الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر ، وتحصن سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الامارة وحبس عنده الجنود فحاصرهم إبراهيم ، فطلب سفيان ابن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان ، ودخل إبراهيم قصر الامارة فبسطت له حصير ليجلس عليها فى مقدم إيوان القصر ، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن ، فتطير الناس بذلك ، فقال إبراهيم : إنا لا نتطير . وجلس على ظهر الحصير ، وأمر بحبس سفيان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك براءة ساحته عند المنصور ، واستحوذ على ما كان فى بيت المال فاذا فيه ستمائة ألف ، وقيل ألفا ألف . فقوى بذلك جدا .

وكان فى البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن على ، وهما أبناء عم الخليفة المنصور ، فركبا فى ستمائة فارس إليه فهزمهما ، وأركب إبراهيمُ المضاء بن القاسم فى ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلا فهزم ستمائة فارس كانت لهما . وآمن من بقى منهم ، و بعث إبراهيم إلى أهل الاهواز فبايعوه وأطاعوه ، وأرسل إلى نائبها مائتى فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد فى أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد ، و بعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها ، وكذلك واسط والمدائن والسواد ، واستفحل أمره جداً ، ولكن لما جاءه نعى أخيه محمد انكسر جداً ، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور . قال بعضهم : والله لقد رأيت الموت فى وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً ، فازداد الناس حنقا على المنصور وأصبح فعسكر بالناس واستناب على البصرة نميلة وخلف ابنه حسنا معه .

ولما بلغ المنصور خبره تحير فى أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده فى الممالك ، وكان قد

بعث مع ابنـه المهدى ثلاثين ألفا إلى الرى ، و بعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية أربعين ألفا والباقون مع عيسى بن موسى بالحجاز ، ولم يبق مع المنصور سوى ألفى فارس . وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلا ، فيحسب الناظر إليها أن ثم جنـدا كثيراً . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : إذا قرأت كتابى هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه . فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له : اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولنك كثرة من معه ، فانهم جملا بنى هاشم المقتولان جميعا ، فابسط يدك وثق بما عنـدك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور . وكتب المنصور إلى ابنه المهـدى أن يوجه خازم بن خزيمة فى أربعة آلاف إلى الأهواز ، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم ـ وهو المغيرة ـ وأباحها ثلاثة أيام ، ورجع المغيرة إلى البصرة ، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التى نقضت بيعته جندا يردون أهلها إلى الطاعة . قالوا : ولزم المنصور موضع مصلاه فلا يبرح منـه ليلا ونهاراً فى ثياب بذلة قد اتسخت ، فلم يزل مقيما هناك بضعا وخمسين يوما حتى فتح الله عليه . وقد قيل له فى غضون ذلك : إن نساءك قد خبثت نفسهن لغيبتك عنهن . فانتهر القائل وقال : ويحك ليست هذه أيام نساء ، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدى ، أو يحمل رأسى إليه .

وقال بعضهم : دخلت على المنصور وهو مهموم من كثرة ما وقع من الشرور ، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة همه ، وما تفتق عليه من الفتوق والخروق ، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله به ، وقد خرجت عن يده البصرة والاهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد ، وفى الكوفة عنـده مائة ألف مغمدة سيوفها تنتظر به صيحة واحـدة ، فيثبون مع إبراهيم ، وهو مع ذلك يعرك النوائب و يمرسها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما * فصيرته ملكا هماما

وأقبل إبراهيم بعساكر من البصرة إلى الكوفة فى مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى ابن موسى فى خمسة عشر ألفا ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة فى ثلاثة آلاف . وجاء إبراهيم فنزل فى باخمرى فى جحافل عظيمة ، فقال له بعض الأمراء : إنك قد إقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخذت بقفاه فانه ليس عنـده من الجيوش ما يردون عنه . وقال آخرون : إن الأولى أن تناجز هؤلاء الذين بازائنا ، ثم هو فى قبضتنا . فثناهم ذلك عن الرأى الأول . ولو فعله لتم لهم الأمر . ثم قال بعضهم : خندق حول الجيش . وقال آخرون : إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خنـدق حوله ، فترك ذلك . ثم أشار بعضهـم أن يبيت جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم : أنا لا أرى ذلك ، فتركه . ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فان غلب كردوس ثبت الآخر ، وقال آخرون : الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعـالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا

كأنهم بنيان مرصوص) . [والامر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة و بيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لتم له الأمر مع تقدير الله تعالى] [1] .

وأقبل الجيشان فتصافوا فى باخرى وهى على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالا شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة ، فجعل عيسى يناشدهم الله فى الرجوع والكرة فلا يلوى عليه أحد ، وثبت عيسى بن موسى فى مائة رجل من أهله ، فقيل له : لو تنحيت من مكانك هذا لئلا يحطمك جيش إبراهيم فقال : والله لا أزول منه حتى يفتح الله لى أو أقتل هاهنا . وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له ، فاستمر المنهزمون ذاهبين فانتهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم ، وكان أول راجع حميد بن قحطبة الذى كان أول من انهزم . ثم اجتلدوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو فى خمسمائة ، وقيل فى أربعمائة ، وقيل فى تسعين رجلا ، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه ، وقتل إبراهيم فى جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤس أصحابه ، فجعل حميد يأتى بالرؤس إلى عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور ، وكان نيبخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجئ الرأس فأخبره أن إبراهيم مقتول فلم يصدقه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لم تصدقنى فاحبسنى فان لم يكن الأمر كما ذكرت فاقتلنى . فبينا هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم ، ولما جئ بالرأس تمثل المنصور ببيت مُعَقِّر بن أوس بن حمار البارقى :

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

وقيل إن المنصور لما رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال : والله لقد كنت لهذا كارها ، ولكنك ابتليت بى وابتليت بك . ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق . وأقطع نيبخت المنجم الكذاب ألفى جريب .

[فهذا المنجم إن كان قد أصاب فى قضية واحدة فقد أخطأ فى أشياء كثيرة ، فهم كذبه كفره وقد كان المنصور فى ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز] [2] .

وذكر صالح مولى المنصور قال : لما جئ برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم ، حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله

(١) ، (٢) سقط من المصرية .

أجرك يا أمير المؤمنين فى ابن عمك وغفر له ما فرّط فيه من حقك . قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له : يا أبا خالد مرحباً وأهلا ، ههنا فاجلس . فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعاً جيداً . فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة . قال أبو نعيم الفضل بن دكين : كان مقتل إبراهيم فى يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة من هذه السنة .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان ﴾

فمن أعيان أهل البيت عبد الله بن حسن وابناه محمد و إبراهيم ، وأخوه حسن بن حسن ، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج . وقد تقدمت ترجمته .

وأما أخوه عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب القرشى الهاشمى فتابعى ، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهو صحابى جليل ، وغيرهم . وروى عنه جماعة منهم سفيان الثورى والدراوردى ومالك ، وكان معظما عند العلماء ، وكان عابداً كبير القدر . قال يحيى بن معين : كان ثقة صدوقاً ، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه ، ووفد على السفاح فعظمه وأعطاه ألف ألف درهم ، فلما ولى المنصور عامله بعكس ذلك ، وكذلك أولاده وأهله ، وقد مضوا جميعاً والتقوا عند الله عزوجل ، وأخذه المنصور وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية ، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا ، فلم أكرم فيه ، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة ، وقد قيل إنه قتل فى السجن عمداً . وكان عمره يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن على . ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم قتل بعدهما وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم .

وأما ابنه محمد الذى خرج بالمدينة فروى عن أبيه ونافع ، وعن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة فى كيفية الهوىّ إلى السجود ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائى وابن حبان وقال البخارى : لا يتابع على حديثه . وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين ، وكان طويلا سميناً أسمر ضخماً ذا همة سامية ، وسطوة عالية وشجاعة باهرة ، قتل بالمدينة فى منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة . وقد حملوا برأسه إلى المنصور ، وطيف به فى الأقاليم .

وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكان مقتله بعد مقتل أخيه فى ذى الحجة من هذه السنة وليس له شئ فى الكتب الستة ، وحكى أبو داود السجستانى عن أبى عوانة أنه قال : كان إبراهيم وأخوه محمد خارجين . قال داود : ليس كما قال ، هذا رأى الزيدية . قلت : وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما .

﴿ وفيها توفى من المشاهير والأعيان ﴾

الأجلح بن عبد الله ، و إسماعيل بن أبى خالد فى قول ، وحبيب بن الشهيد ، وعبد الملك بن أبى سليمان ، وعمرو مولى عفرة ، ويحيى بن الحارث الذمارى ، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمى ، ورؤبة بن العجاج والعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة ، وأبو محمد التميمى البصرى ، الراجز بن الراجز ، ولكل منهما ديوان رجز ، وكل منهما بارع فى فنه لا يجارى ولا يمارى ، عالم باللغة . وعبد الله بن المقفع الكاتب المفوه ، أسلم على يد عيسى بن على عم السفاح والمنصور ، وكتب له ، وله رسائل وألفاظ صحيحة ، وكان متهما بالزندقة ، وهو الذى صنف كتاب كليلة ودمنة ، ويقال : بل هو الذى عربها من المجوسية إلى العربية . قال المهدى : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد . قالوا ونسى الجاحظ وهو رابعهم . وكان مع هذا فاضلا بارعا فصيحاً . قال الأصمعى : قيل لابن المقفع من أدبك ؟ قال : نفسى ، إذا رأيت من غيرى قبحاً أبيته ، وإذا رأيت حسنا أتيته . ومن كلامه : شربت من الخطب ريا ، ولم أضبط لها رويا ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هى نظاما ، ولا نسيت غيرها كلاما ،

وكان قتل ابن المقفع على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة نائب البصرة ، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه ، وإنما كان يسميه ابن المغتلم ، وكان كبير الانف ، وكان إذا دخل عليه يقول : السلام عليكما – على سبيل التهكم – وقال لسفيان بن معاوية مرة : ما ندمت على سكوت قط . فقال : صدقت ، الخرس لك خير من كلامك . ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله ، فأخذه فأحمى له تنورا وجعل يقطعه إربا إربا ويلقيه فى ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، وقيل غير ذلك فى صفة قتله . قال ابن خلكان : ومنهم من يقول إن ابن المقفع نسب إلى بيع القفاع وهى من الجريد كالزنبيل بلا آذان ، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبو داروية كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت يداه والله أعلم .

وفيها خرج الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة . وحج بالناس فى هذه السنة نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثى . وعلى الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة مسلم بن قتيبة ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة ﴾

فيها تكامل بناء مدينة السلام بغداد ، وسكنها المنصور فى صفر من هذه السنة ، وكان مقيما قبل

ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة ، وكان قد شرع فى بنائها فى السنة الخارجة ، وقيل فى سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم .

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم ، بقيت منهم بقية فخشى على جنده منهم ، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موضعا لبناء مدينة ، فسار فى الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موضعاً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذى هى فيه الآن ، وذلك بأنه موضع يغدا إليه ويراح بخيرات ما حوله فى البر والبحر ، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا ، لايقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر ، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالى فرأى الرياح تهب به ليلا ونهاراً من غير انجمار ولا غبار ، ورأى طيب تلك البقعة وطيب هوائها ، وقد كان فى موضعها قرى وديور لعباد النصارى وغيرهم ـ ذكر ذلك مفصلا بأسمائه وتعداده أبو جعفر ابن جرير ـ فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشى فى طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك ، ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه ، وأحضر من كل البلاد فعالا وصناعاً ومهندسين ، فاجتمع عنده ألوف منهم ، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله . وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفله خمسون ذراعا ، ومن أعلاه عشرون ذراعا ، وجعل لها ثمانية أبواب فى السور البرانى ، ومثلها فى الجوانى ، وليس كل واحد تجاه الآخر ، ولكن جعله أزور عن الذى يليه ، ولهذا سميت بغداد الزوراء ، لازورار أبوابها بعضها عن بعض ، وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها .

وبنى قصر الامارة فى وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء ، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر ، وكان الذى وضع قبلته الحجاج بن أرطاة . وقال ابن جرير : ويقال إن فى قبلته انحرافا يحتاج المصلى فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة ، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بنى قبل القصر ، وجامع المدينة بنى على القصر ، فاختلت قبلته بسبب ذلك . وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فأبى وامتنع فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن . وأخذ الرجال بالعمل ، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلى الخندق ، وكان استتمامه فى سنة أربع وأربعين ومائة . قال ابن جرير : وذكر عن الهيثم بن عدى أن المنصور عرض على أبى حنيفة القضاء والمظالم فامتنع ، فحلف أن لايقلع عنه حتى يعمل له ، فأخبر بذلك أبو حنيفة فدعا بقصبة فعد اللبن ليبر بذلك يمين أبى جعفر ، ومات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك . وذكر أن خالد ابن برمك هو الذى أشار على المنصور ببنائها ، وأنه كان مستحثا فيها للصناع ، وقد شاور المنصور

الأمراء فى نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغـداد لأجـل قصر الامارة بها ، فقالوا : لا تفعل فانه آية فى العالم ، وفيه مصلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فخالفهم ونقل منـه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف فى حمله فتركه ، ونقل أبواب قصر واسط إلى أبواب قصر الامارة ببغداد . وقد كان الحجاج نقل حجارته من مدينة هناك كانت من بناء سليمان بن داود ، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب ، وهى حجارة هائلة . وقد كانت الأسواق وضجيجها تسمع من قصر الامارة ، فكانت أصوات الباعة وهوسات الأسواق تسمع منه ، فعاب ذلك بعض بطارقة النصارى ممن قدم فى بعض الرسائل من الروم ، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر ، وأمر بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً فى أربعين ذراعاً ، ومن بنى فى شىء من ذلك هدم .

قال ابن جرير : وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : وجدت فى خزائن المنصور فى الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق وغـير ذلك ، أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثمانين ألف درهم ، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة ، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة . قال الخطيب البغدادى : وقـد رأيت ذلك فى بعض الكتب ، وحكى عن بعضهم أنه قال : أنفق عليه ثمانية عشر ألف ألف فالله أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحـد المهندسين الذى بنى له بيتاً حسناً فى قصر الامارة فنقصه درهما عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذى كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهما فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً . قال الخطيب : وبناها مـدورة ، ولا يعرف فى أقطار الأرض مدينة مدورة سواها ، ووضع أساسها فى وقت اختاره له نوبخت المنجم . ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لى المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خـذ الطالع لها ، فنظرت فى طالعها - وكان المشـترى فى القوس - فأخبرته بمـا تدل عليـه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس الى مافيها . قال : ثم قلت له : وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبدا . قال : فرأيتـه يبتسم ثم قال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال فى ذلك شعرًا منه :

قضى ربها أن لا يموت خليفة * بها إنه ما شاء فى خلقه يقضى

وقـد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينقضه بشىء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته .
قال : وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضى أبى القاسم على بن حسن التنوخى فقال : محمد الأمين لم يقتل بالمدينة ، وإنما كان قد نزل فى سفينة إلى دجلة ليتنزه فقبض عليه فى وسط دجلة وقتل هناك . ذكر ذلك الصولى وغيره .

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال : اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً ، وذلك بقدر ميلين فى ميلين ، قال الامام أحمد : بغداد من الصراة إلى باب التبن . وذكر الخطيب أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلا ، وقيل أقل من ذلك . وذكر الخطيب صفة قصر الامارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعا ، علىَ رأسها تمثال فرس عليه فارس فى يده رمح يدور به فأى جهة استقبلها واستمر مستقبلها ، علم السلطان أن فى تلك الجهة قد وقع حدث فلم يلبث أن يأتى الخليفة خبره . [وهذه القبة وهى على مجلس فى صدر إيوان الحكمة وطوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا . وقد سقطت هذه القبة فى ليلة برد ومطر ورعد وبرق ، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة] . (١)

وذكر الخطيب البغدادى أنه كان يباع فى بغداد فى أيام المنصور الكبش الغنم بدرهم والحمل بأربعة دوانق ، وينادى على لحم الغنم كل ستين رطلا بدرهم ، ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم ، والتمر كل ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم . ولهذا الامن والرخص كثر ساكنوها وعظم أهلوها وكثر الدارج فى أسواقها وأزقتها ، حتى كان المار لايستطيع أن يجتاز فى أسواقها لكثرة زحام أهلها . قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق : طال والله ما طردت خلف الأرانب فى هذا المكان .

وذكر الخطيب أن المنصور جلس يوماً فى قصره فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب : ماهذا ؟ فكشف فاذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة فى الأسواق ، فقال الرومى: يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، بعده من الماء ، وقرب الاسواق منه ، وليس عنده خضرة ، والعين خضرة تحب الخضرة . فلم يرفع بها المنصور رأسا ثم أمر بتغيير ذلك ، ثم بعد ذلك ساق إليها الماء وبنى عندها البساتين ، وحول الأسواق من ثم إلى الكرخ .

قال يعقوب بن سفيان : كمل بناء بغداد فى سنة ست وأربعين ومائة ، وفى سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ألفا ، وبعد شهرين من ذلك شرع فى بناء قصره المسمى بالخلد ، فكمل سنة ثمان وخمسين ومائة .

وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح ، وبنى للعامة جامعاً للصلاة والجمعة لئلا يدخلوا إلى جامع المنصور ، فأما دار الخلافة التى كانت ببغداد بعد ذلك فانها كانت للحسن بن سهل ، فانتقلت من بعده إلى بوران زوجة المأمون ، فطلبها منها المعتضد ـ وقيل المعتمد ـ فأنعمت له بها ، ثم استنظرته أياما حتى تنتقل منها فأنظرها ، فشرعت فى تلك الأيام فى ترميمها وتبييضها وتحسينها ، ثم فرشتها

(١) زيادة من المصرية .

بأنواع الفرش والبسط ، وعلقت فيها أنواع الستور ، وأرصدت فيها ما ينبغى للخلافة من الجوارى والخدم ، وألبستهم أنواع الملابس ، وجعلت فى الخزائن ما ينبغى من أنواع الأطعمة والمآكل ، وجعلت فى بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر ، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه ، ثم دخلها فوجد فيها ما أرصدته بها ، فهاله ذلك واستعظمه جداً ، وكان أول خليفة سكنها و بنى عليها سوراً . ذكره الخطيب .

وأما التاج فبناه المكتفى على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش . وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التى كانت فى زمن المقتدر بالله ، وما فيها من الفرش والستور والخدم والمماليك والحشمة الباهرة ، والدنيا الظاهرة ، وأنها كان بها إحدى عشر ألف طواشى ، وسبعمائة حاجب . وأما المماليك فألوف لا يحصون كثرة ، وسيأتى ذكر ذلك مفصلا فى أيامهم ودولتهم التى ذهبت كأنها أحلام نوم ، بعد سنة ثلثمائة . وذكر الخطيب دار الملك التى بالمخرم ، وذكر الجوامع التى تقام فيها الجمعات ، وذكر الأنهار والجسور التى بها ، وما كان فى ذلك فى زمن المنصور ، وما أحدث بعده إلى زمانه ، وأنشد لبعض الشعراء فى جسور بغداد التى على دجلة :

يوم سرقنا العيش فيه خلسة * فى مجلس بفناء دجلة مفرد
رق الهواء برقة وقدامة * فغدوت رقا للزمان المسعد
فكأن دجلة طيلسان أبيض * والجسر فيها كالطراز الأسود

وقال آخر :

يا حبذا جسر على متن دجلة * باتقان تأسيس وحسن و رونق
جمال وحسن للعراق ونزهة * وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جئته متأملا * كسطر عبير خط فى وسط مهرق
أو العاج فيه الأبنوس مرقش * مثال فيول تحتها أرض زئبق

وذكر الصولى قال : ذكر أحمد بن أبى طاهر فى كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب ، وأن الجانب الشرقى ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام ، وأقل ما فى كل حمام منها خمسة نفر حامى وقيم و زبال و وقاد وسقاء ، وأن بازاء كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر ـ يعنى إماما وقيما ومؤذنا ومأمومين ـ ثم تناقصت بعد ذلك ، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى . على ما سيأتى بيانه فى موضعه .

وقال الحافظ أبو بكر البغدادى : لم يكن لبغداد نظير فى الدنيا فى جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ،

وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة مائها و برد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد ، ثم ذكرنا نقص أحوالها وهلم جرا إلى زمانه . قلت : وكذا من بعده إلى زماننا هذا ، ولا سيما فى أيام هولاكو بن تولى بن جنكز بن خان التركى الذى وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها وخرب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها فى ذلك العام ، وأخذ الأموال والحواصل ، ونهب الدرارى والأصائل ، وأورث بها حزنا يعدد به فى المبكرات والأصائل ، وصيرها مثلة فى الأقاليم ، وعبرة لكل معتبر عليم ، وتذكرة لكل ذى عقل مستقيم ، و بدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان ، و إنشاد الأشعار ، وكان ، وكان . و بعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية ، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية ، و بعد العلماء بالأطباء ، و بعد الخليفة العباسى بشر الولاة من الاناسى ، و بعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة ، و بعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين ، و بعد العلم بالفقه والحديث وتعبير الرؤيا ، بالموشح ودو بيت ومواليا . وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم (وما ربك بظلام للعبيد) والتحول منها فى هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية ، وأكل الحشيشة ، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذى تكفل الله بأهلها أفضل وأكمل وأجمل . وقد روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، وشرار أهل الشام إلى العراق » .

﴿ ذكر ما ورد فى مدينة بغداد من الآثار والتنبيه على ضعف ما روى فيها من الأخبار ﴾

فيها أربع لغات بغداد و بغداذ باهمال الدال الثانية و إعجامها ، و بغدان بالنون آخره و بالميم مع ذلك أولا مغدان ، وهى كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغ وداد فقيل بغ بستان وداد اسم رجل ، وقيل بغ اسم صنم وقيل شيطان وداد عطية أى عطية الصنم ، ولهذا كره عبد الله بن المبارك والأصمعى وغيرهما تسميتها بغداد و إنما يقال لها مدينة السلام ، وكذا أسماها بانيها أبو جعفر المنصور ، لأن دجلة كان يقال لها وادى السلام ، ومنهم من يسميها الزوراء .

فروى الخطيب البغدادى من طريق عمار بن سيف - وهو متهم - قال : سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفيان الثورى عن أبى عثمان عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبى إليها خزائن الأرض ، وملوكها جبابرة ، فلهى أسرع ذهابا فى الأرض من الوتد الحديد فى الأرض الرخوة » . قال الخطيب : وقد رواه عن عاصم الأحول سيف ابن أخت سفيان الثورى ، وهو أخو عمار بن سيف . قلت : وكلاهما ضعيف متهم يرمى بالكذب ، ومحمد بن جابر اليمانى ضعيف ، وأبو شهاب الحناطى ضعيف . وروى عن سفيان الثورى

عن عاصم من طرق ثم أسند ذلك كله . وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي كثير عن عمار بن سيف عن الثورى عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي ﷺ . وقال أحمد ويحيى : ليس لهذا الحديث أصل . وقال أحمد : ما حدّث به إنسان ثقة ، وقد علاه الخطيب من جميع طرقه وساقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثورى عن أبي عبيدة حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، ولا يصح أيضاً . ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربعى عن حذيفة مرفوعاً بنحوه ، ولا يصح . ومن غير وجه عن على بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس ، وفى بعضها ذكر السفيانى « وأنه يخربها » ولا يصح إسناد شئ من هذه الأحاديث . وقد أوردها الخطيب بأسانيدها وألفاظها ، وفى كل منها نكارة ، وأقرب مافيها عن كعب الأحبار وقد جاء فى آثار عن كتب متقدمة أن بانيها يقال له مقلاص وذو الدوانيق لبخله .

فصل

﴿ فى ذكر محاسن بغداد ومساويها وما روى فى ذلك عن الأئمة ﴾

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى : قال لى الشافعى : هل رأيت بغداد ؟ قلت لا ! فقال : مارأيت الدنيا . وقال الشافعى : ما دخلت بلدا قط إلا عددته سفرا ، إلا بغداد فانى حين دخلتها عددتها وطنا . وقال بعضهم : الدنيا بادية و بغداد حاضرتها . وقال ابن علية : ما رأيت أعقل فى طلب الحديث من أهل بغداد ، ولا أحسن دعة منهم . وقال ابن مجاهد : رأيت أبا عمرو بن العلاء فى النوم فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال لى : دعنى من هذا ، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نقل من جنة إلى جنة . وقال أبو بكر بن عياش : الاسلام ببغداد ، وإنها لصيادة تصيد الرجال ، ومن لم يرها لم ير الدنيا . وقال أبو معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة . وقال بعضهم : من محاسن الاسلام يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . قال الخطيب : من شهد يوم الجمعة بمدينة السلام عظم الله فى قلبه محل الاسلام ، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد فى غيرها من البلاد . وقال بعضهم : كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لى شغل فصليت فى غيره فرأيت فى المنام كأن قائلا يقول : تركت الصلاة فى جامع المدينة وإنه ليصلى فيه كل جمعة سبعون ولياً . وقال آخر : أردت الانتقال من بغداد فرأيت كأن قائلا يقول فى المنام : أتنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولى لله عز وجل ؟ وقال بعضهم : رأيت كأن ملكين أتيا بغداد فقال أحدهما لصاحبه : اقلبها . فقد حق القول عليها : فقال الآخر كيف أقلب ببلد يختم فيها القرآن كل ليلة خمسة آلاف ختمة ؟ وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز بن سليمان بن موسى قال : إذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقيا وصلاته شامية فقد كمل . وقالت زبيدة لمنصور

النمرى قل شعرا تحبب فيه بغداد إلى . فقد اختار عليها الرافقة فقال :

ما ذا ببغداد من طيب الأفانين * ومن منازه للدنيا وللدين
تحيي الرياح بها المرضى إذا نسمت * وجوشت بين أغصان الرياحين

قال : فأعطته ألفى دينار . وقال الخطيب : وقرأت فى كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن بخطه من شعره :

سقى الله صوب الغاديات محلة * ببغداد بين الكرخ فالخلد فالجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها * بأشياء لم يجمعن مذ كن فى مصر
هواء رقيق فى اعتدال وصحة * وماء له طعم ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا * بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
ثراها كمسك والمياه كفضة * وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب فى هذا أشعاراً كثيرة وفيما ذكرنا كفاية . وقد كان الفراغ من بناء بغداد فى هذه السنة - أعنى سنة ست وأربعين ومائة - وقيل فى سنة ثمان وأربعين ، وقيل إن خندقها وسورها كملا فى سنة سبع وأربعين ، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق فى بنائها حتى كان آخر ما بنى فيها قصر الخلد ، فظن أنه يخلد فيها ، أو أنها تخلد فلا تخرب ، فعند كماله مات . وقد خربت بغداد مرات كما سيأتى بيانه .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن سليمان بن على ، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن فتوانى فى ذلك فعزله ، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً ، وهدم دوراً كثيرة . وعزل عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان ، وعزل عن مكة السرى بن عبد الله وولى عليها عبد الصمد بن على . قال : وحج بالناس فى هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم ابن محمد بن على قاله الواقدى وغيره . قال : وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة البهرانى . وفيها توفى من الأعيان أشعث بن عبد الملك ، وهشام بن السائب الكلبى ، وهشام بن عروة . ويزيد بن أبى عبيد فى قول .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة ﴾

فيها أغار استرخان الخوارزمى فى جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا خلقا كثيراً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة ، وممن قتل يومئذ حرب بن عبد الله الراوندى الذى تنسب إليه الحربية ببغداد ، وكان مقيما بالموصل فى ألفين لمقابلة الخوارج ، فأرسله المنصور

لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية ، وكان فى جيش جبريل بن يحيى ، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله . وفى هذه السنة كان مهلك عبد الله بن على عم المنصور .

[وهو الذى أخذ الشام من أيدى بنى أمية ، كان عليها واليا حتى مات السفاح ، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان ابن على والى البصرة فاختفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعى به وسجنه ، فلما كان فى هذه السنة عزم المنصور] (١) على الحج فطلب عمه عيسى بن موسى ـ وكان ولى العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح ـ وسلم إليه عمه عبد الله بن على وقال له : إن هذا عدوى وعدوك ، فاقتله فى غيبتى عنك ولا تتوانى . وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه فى ذلك ويقول له : ماذا صنعت فيما أودعت إليك فيه ؟ مرة بعد مرة . وأما عيسى بن موسى فانه لما تسلم عمه حار فى أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأى أن المصلحة تقتضى أن لا تقتله وابقه عندك وأظهر قتله فانا نخشى أن يطالبك به جهرة فتقول : قتلته ، فيأمر بالقود فتدعى أنه أمرك بقتله بالسر بينك وبينه فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به ، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معا . فتغير عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله . فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا فى عمه عبد الله بن على ، وألحوا فى ذلك فأجابهم إلى ذلك ، واستدعى عيسى بن موسى وقال له : إن هؤلاء شفعوا فى عبد الله بن على وقد أجبتهم إلى ذلك فسلمه إليهم . فقال عيسى : وأين عبد الله ؟ ذاك قتلته منذ أمرتنى . فقال المنصور : لم آمرك بذلك ، وجحد ذلك وأن يكون تقدم إليه منه أمره فى ذلك ، فأحضر عيسى الكتب التى كتبها إليه المنصور مرة بعد مرة فى ذلك فأنكر أن يكون أراد ذلك ، وصمم على الانكار ، وصمم عيسى ابن موسى أنه قد قتله ، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله ، فخرج به بنو هاشم ليقتلوه ، فلما جاؤا بالسيف قال : ردونى إلى الخليفة ، فردوه إليه فقال له : إن عمك حاضر ولم أقتله ، فقال : هلم به . فأحضره فسقط فى يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح ، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك . ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدى ، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه ، ثم كان لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه فى الاذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده ، ثم ما زال يقصيه ويبعده ويتهدده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه ، وبايع لمحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثنى عشر ألف ألف درهم ، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند

(١) سقط من المصرية .

المنصور ، وأقبل عليه بعدما كان قد أعرض عنه . وكان قد جرت بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً ، ومراودات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه ، وأن العامة لا يعدلون بالمهدي أحداً . وكذلك الأمراء والخواص . ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرها ، فعوضه عن ذلك ما ذكرنا ، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً ، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته (ذلك تقدير العزيز العليم) .

وفيها توفي عبيد الله بن عمر العمري ، وهاشم بن هاشم ، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة ﴾

فيها بعث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين عاثوا في السنة الماضية ببلاد تفليس ، فلم يجد منهم أحداً فإنهم انشمروا إلى بلادهم . وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر ، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي جعفر بن محمد الصادق المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه . [وفيها توفي سليمان بن مهران الأعمش أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها (١)] وعمرو بن الحارث ، والعوام بن حوشب ، والزبيدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . ومحمد بن عجلان .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة ﴾

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها . وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسين بن قحطبة ومحمد بن الأشعث . ومات محمد بن الأشعث في الطريق . وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضا عن عمه عبد الصمد بن علي . وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها . وفيها توفي زكريا بن أبي زائدة ، وكهمس بن الحسن ، والمثنى بن الصباح . وعيسى بن عمر أبو عمرو الثقفي البصري النحوي شيخ سيبويه . يقال إنه من موالي خالد بن الوليد ، وإنما نزل في ثقيف فنسب إليهم . كان إماماً كبيراً جليلا في اللغة والنحو والقراآت ، أخذ ذلك عن عبيد الله بن كثير وابن المحيصن وعبد الله بن أبي إسحاق ، وسمع الحسن البصري وغيرهم . وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه . ولزمه وعرف به وانتفع به ، وأخذ كتابه الذي سماه بالجامع فزاد عليه وبسطه ، فهو كتاب سيبويه اليوم ، وإنما هو كتاب شيخه ، وكان سيبويه يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه ، فسأله الخليل أيضا عما صنف عيسى بن عمر فقال : جمع بضعاً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب الاكمال ،

(١) سقط من المصرية .

وهو بأرض فارس . وهو الذى أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فاطرق الخليل ساعة ثم أنشد :

ذهب النحو جميعا كله * غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع * وهما للناس شمس وقمر

وقد كان عيسى يغرب و يتقعر فى عبارته جداً . وقد حكى الجوهرى عنه فى الصحاح أنه سقط يوماً عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكأكأتم علىّ تكأكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى. معناه : مالكم تجمعتم على تجمعكم على مجنون ؟ انكشفوا عنى . وقال غيره : كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع . فجعلوا يعودونه و يقرؤن عليه ، فلما أفاق من غشيته قال ، ماقال . فقال بعضهم : إنى حسبته ـ يتكلم بالفارسية ـ وذكر ابن خلكان أنه كان صاحبا لأبى عمرو بن العلاء ، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبى عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معدّ بن عدنان . فقال له أبو عمرو كيف تقرأ هذا البيت .

قد كن يخبأن الوجوه تستراً * فاليوم حين بدأن للنظار

أو بدين ؟ فقال بدين . فقال أبو عمرو : أخطأت ، ولو قال : بدأن لأخطأ أيضا . وإنما أراد أبو عمرو تغليطه ، وإنما الصواب بدون من بدا يبدو وإذا ظهر ، و بدأ يبدأ إذا شرع فى الشئ .

﴿ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة ﴾

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس فى بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف ، وقتلوا من المسلمين هنالك خلقاً كثيرا ، وهزموا الجيوش التى فى تلك البلاد ، وسبوا خلقاً كثيراً ، وتحكم الفساد بسببهم ، وتفاقم أمرهم ، فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى ابنه المهدى ليوليه حرب تلك البلاد ، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك . فنهض المهدى فى ذلك نهضة هاشمية ، وجمع لخازم بن خزيمة الامرة على تلك البلاد والجيوش ، وبعثه فى نحو من أربعين ألفا ، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب ، وواجههم بالطعن والضرب ، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً ، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز فى جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته ، وأن يعتق من معه من الأجناد ـ وكانوا ثلاثين ألفا ـ ففعل خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع استاذسيس ثوبين ، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدى ، فكتب المهدى بذلك إلى أبيه المنصور . وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاها الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن على عم الخليفة . وتوفى فيها

جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور ودفن أولا بمقابر بنى هاشم من بغداد ، ثم نقل منها إلى موضع آخر . وفيها توفى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز ، ويقال إنه أول من جمع السنن . وعثمان بن الاسود ، وعمر بن محمد بن زيد . وفيها توفى الامام أبو حنيفة .

﴿ ذكر ترجمته ﴾

هو الامام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمى مولاهم الكوفى ، فقيه العراق ، وأحد أئمة الاسلام ، والسادة الأعلام ، وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ، وهو أقدمهم وفاة ، لأنه أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة فالله أعلم .

وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبى سليمان ، وسلمة بن كهيل ، وعامر الشعبى ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والزهرى ، ونافع مولى ابن عمر ، ويحيى بن سعيد الأنصارى وأبو إسحاق السبيعى . وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان ، وإسحاق بن يوسف الأزرق ، وأسد بن عمرو القاضى ، والحسن بن زياد اللؤلؤى ، وحمزة الزيات ، وداود الطائى ، وزفر ، وعبد الرزاق ، وأبو نعيم ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وهشيم ، ووكيع ، وأبو يوسف القاضى . قال يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب ، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضياً . وقد كان يحيى بن سعيد يختار قوله فى الفتوى ، وكان يحيى يقول : لا نكذب الله ! ما سمعنا أحسن من رأى أبى حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله . وقال عبد الله بن المبارك : لولا أن الله أعانى بأبى حنيفة وسفيان الثورى لكنت كسائر الناس . وقال فى الشافعى : رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته : وقال الشافعى : من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة ، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك ، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وقال عبد الله بن داود الحريبى : ينبغى للناس أن يدعوا فى صلاتهم لأبى حنيفة ، لحفظه الفقه والسنن عليهم . وقال سفيان الثورى وابن المبارك : كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض فى زمانه . وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص فى المسائل . وقال مكى بن إبراهيم : كان أعلم أهل الأرض . وروى الخطيب بسنده عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة كان يصلى بالليل ويقرأ القرآن فى كل ليلة ، ويبكى حتى يرحمه جيرانه . ومكث أربعين سنة يصلى الصبح بوضوء العشاء ، وختم القرآن فى الموضع الذى توفى فيه سبعين ألف مرة ، وكانت وفاته فى رجب من هذه السنة ــ أعنى سنة خمسين ومائة ــ وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين . وقال غيره : سنة ثلاث وخمسين . والصحيح الأول .

وكان مولده فى سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة ﴾

فيها عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام بن عمرو التغلبى ، وكان سبب عزله عنها أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر بعث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية وخيول عتاق إلى عمر بن حفص هذا إلى السند فقبلها ، فدعوه إلى دعوة أبيه محمد بن عبد الله بن حسن فى السر فأجابهم إلى ذلك ولبسوا البياض . ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة سقط فى أيديهم وأخذوا فى الاعتذار إلى عبد الله بن محمد ، فقال له عبد الله : إنى أخشى على نفسى . فقال : إنى سأبعثك إلى ملك من المشركين فى جوار أرضنا ، وإنه من أشد الناس تعظيما لرسول الله ﷺ ، وإنه متى عرفك أنك من سلالته أحبك . فأجابه إلى ذلك ، وسار عبد الله ابن محمد إلى ذلك الملك وكان عنده آمناً ، وصار عبد الله يركب فى موكب من الزيدية ويتصيد فى جحفل من الجنود ، وانضم إليه خلق وقدم عليه طوائف من الزيدية .

وأما المنصور فانه بعث يعتب على عمر بن حفص نائب السند ، فقال رجل من الأمراء ابعثنى إليه واجعل القضية مسندة إلى ، فانى سأعتذر إليه من ذلك ، فان سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء . فأرسله سفيراً فى القضية إلى المنصور ، فلما وقف بين يدى المنصور أمر بضرب عنقه ، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضا عن أميرها ، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد فى تحصيل عبد الله بن محمد ، فجعل يتوانى فى ذلك ، فبعث إليه المنصور يستحثه فى ذلك ، ثم اتفق الحال أن سيفا أخا هشام بن عمرو لقى عبد الله بن محمد فى بعض الأماكن فاقتتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه فى القتلى فلم يقدروا عليه . فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله ، [فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذى آواه ، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هناك وأولدها ولداً أسماه محمداً ، فاذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض] (١) هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله ، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام والملك إلى المنصور ، ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة ، وكتب المنصور إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه ، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لئلا يضيع نسبه ، فهو الذى يقال له أبو الحسن بن الأشتر

وفى هذه السنة قدم المهدى بن المنصور على أبيه من خراسان فتلقاه أبوه والأمراء والأكابر

(١) سقط من المصرية .

إلى أثناء الطريق ، وقدم بعد ذلك نواب البلاد والشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر. وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يحد ولا يوصف .

﴿ بناء الرصافة ﴾

قال ابن جرير : وفي هذه السنة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان ، وهي في الجانب الشرقي من بغداد ، وجعل لها سوراً وخندقا ، وعمل عندها ميدانا وبستانا ، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي . قال ابن جرير :

وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعدهما ، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبّلون يد المنصور ويد ابنه ويلمسون يد عيسى بن موسى ولا يقبلونها . قال الواقدي : وولى المنصور معن بن زائدة سجستان .

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو نائب مكة والطائف ، وعلى المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرة جابر بن زيد الكلابي ، وعلى مصر يزيد بن حاتم . ونائب خراسان حميد بن قحطبة ، ونائب سجستان معن بن زائدة . وغزا الصائفة فيها عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

وفيها توفي حنظلة بن أبي سفيان ، وعبد الله بن عون ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علما يهتدى به ، وفخرا يستجلى به ، والناس كلهم عيال عليه في ذلك ، كما قال الشافعي وغيره من الأئمة .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة ﴾

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاها محمد بن سعيد ، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصى وخالف ، فلما جيء به أمر بضرب عنقه . وعزل عن البصرة جابر ابن زيد الكلابي وولاها يزيد بن منصور . وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان . وفيها توفي عباد بن منصور ، ويونس بن يزيد الايلي .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة ﴾

وفيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً ، وطالبهم بالأموال الكثيرة . وكان سبب ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور ، وهو أنه كان في زمن شبيبته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه شيء ، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة ، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير الملك إليهم سريعاً ، فاتفق حبلها منه ، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها

وتركها حاملا ، ووضع عندها رقعة فيها نسبته ، وأنه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وأمرها إذا بلغها أمره أن تأتيه ، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفراً . فولدت غلاماً فسمته جعفرا. ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب ، وأتقن ذلك إتقاناً جيداً ، ثم آل الأمر إلى بنى العباس ، فسألت عن السفاح فاذا هو ليس صاحبها ، ثم قام المنصور وصار الولد إلى بغداد فاختلط بكتّاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الانشاء للمنصور ، وحظى عنده وقدمه على غيره ، فاتفق حضوره معه بين يدى الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه ، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكاتب فدخل ومعه ذلك الغلام ، فكتب بين يدى المنصور كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله ، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر ، فقال : ابن من ؟ فسكت الغلام ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن من خبرى كيت وكيت ، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره ، وسأله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب . ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال : أنت ابنى . ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة الأمر وحال الولد . وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبى أيوب فقال : ما بطأ بك عند الخليفة ؟ فقال : إنه استكتبنى فى رسائل كثيرة ، ثم تقاولا ، ثم فارقه الغلام مغضبا ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد ، إلى أبيه الخليفة . فسار مراحل ، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أنه قد أفشى شيئاً من أسراره إلى الخليفة وفر منه ، فبعث فى طلبه رسولا وقال : حيث وجدته فرده على . فسار الرسول فى طلبه فوجده فى بعض المنازل فخنقه وألقاه فى بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبى أيوب . فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط فى يده وندم على بعثه خلفه . وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه وكشف عن خبره فاذا رسول أبى أيوب قد لحقه وقتله . فحينئذ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة ، ومازال فى العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله ، وجعل يقول : هذا قتل حبيبى . وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً .

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية . فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفا ، ما بين فارس وراجل ، وعليهم أبو حاتم الانماطى ، وأبو عباد . وانضم إليهم أبو قرة الصفرى فى أربعين ألفا ، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه ، وهو عمر بن عثمان بن أبى صفرة الذى كان نائب السند كما تقدم ، قتله هؤلاء الخوارج رحمه الله . وأكثرت الخوارج الفساد فى البلاد ، وقتلوا الحريم والأولاد . وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب ، فقال أبو دلامة الشاعر فى ذلك :

وكنا نرجى من إمام زيادة * فزاد الامام المرتجى فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها * دنان يهود جللت بالبرانس

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجورى فأسر خلقاً كثيراً من الروم ينيف على ستة آلاف أسير، وغنم أموالا جزيلة. وحج بالناس المهدى بن المنصور [وهو ولى العهد الملقب بالمهدى. وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور، وعلى مصر محمد بن سعيد. وذكر الواقدى أن يزيد بن منصور كان ولاه المنصور فى هذه السنة اليمن. فالله أعلم] [١].

وفيها توفى أبان بن صمعة، وأسامة بن زيد الليثى، وثور بن يزيد الحمصى، والحسن بن عمارة، وفطر بن خليفة، ومعمر وهشام بن الغازى والله أعلم.

﴿ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة﴾

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجهز يزيد بن حاتم فى خمسين ألفا وولاه بلاد إفريقية، وأمره بقتال الخوارج، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف درهم، وغزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى. وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم. ونواب البلاد والأقاليم هم المذكورون فى التى قبلها، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان. وفيها توفى أبو أيوب الكاتب وأخوه خالد، وأمر المنصور ببنى أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم. وفيها توفى:

﴿أشعب الطامع﴾

وهو أشعب بن جبير أبو العلاء، ويقال أبو إسحاق المدينى، ويقال له أبو حميدة. وكان أبوه مولى لآل الزبير، قتله المختار، وهو خال الواقدى. روى عن عبد الله بن جعفر «أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى اليمين». وأبان بن عثمان، وسالم وعكرمة، وكان ظريفاً ماجنا يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه، وكان حسن الغناء، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة ذكر عنه فيها أشياء مضحكة، وأسند عنه حديثين. وروى عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال: حدثنى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ. قال: «خصلتان من عمل بهما دخل الجنة» ثم سكت فقيل له: وما هما؟ فقال: نسى عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى. وكان سالم بن عبد الله ابن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة، وكذلك كان غيره من أكابر الناس. وقال الشافعى: عبث الولدان يوماً بأشعب فقال لهم: إن ههنا أناساً يفرقون الجوز ليطردهم

(١) زيادة من المصرية.

عنه ـ فتسارع الصبيان إلى ذلك ، فلما رآهم مسرعين قال : لعله حق فتبعهم . وقال له رجل : مابلغ من طمعك ؟ فقال : ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلى فأ كسح داري وأنظف بابي وأ كنس بيتي . واجتاز يوماً برجل يصنع طبقاً من قش فقال له : زد فيه طورا أو طورين لعله أن يهدي يوماً لنا فيه هدية . وروى ابن عساكر أن أشعب غنى يوما لسالم بن عبد الله بن عمر قول بعض الشعراء :

مضين بها والبدر يشبه وجهها * مطهرة الأثواب والدين وافر
لها حسب زاك وعرض مهذب * وعن كل مكروه من الأمر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ريبة * ولم يستملها عن تقى الله شاعر

فقال له سالم : أحسنت فزدنا . فغناه :

ألمت بنا والليل داج كأنه * جناح غراب عنه قد نفض القطرا
فقلت أعطار ثوى في رحالنا * وما علمت ليلى سوى ريحها عطرا

فقال له : أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزلت لك الجائزة ، وإنك من الأمر لبمكان .

وفيها توفي جعفر بن برقان ، والحكم بن أبان ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقرة بن خالد ، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء ، واسمه كنيته ، وقيل اسمه ريان والصحيح الأول .

وهو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري ، وقيل غير ذلك في نسبه ، كان علامة زمانه في الفقه والنحو وعلم القراآت ، وكان من كبار العلماء العاملين ، يقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب ، ثم تزهد فأحرق ذلك كله ، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب ، وكان قد لقي خلقا كثيراً من أعراب الجاهلية ، كان مقدماً أيام الحسن البصري ومن بعده . ومن اختياراته في العربية قوله في تفسيره الغرة في الجنين : إنها لايقبل فيها إلا أبيض غلاما كان أو جارية . فهم ذلك من قوله عليه السلام : « غرة عبد أو أمة » ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة ، وإنما الغرة البياض . قال ابن خلكان : وهذا غريب ولا أعلم هل يوافقه قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا . وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد بيتا من الشعر حتى ينسلخ ، وإنما كان يقرأ القرآن وأنه كان يشترى له كل يوم كوزا جديداً وريحانا طرياً ، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين .

كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وخمسين ، وقيل تسع وخمسين فالله أعلم . وقد قارب التسعين ، وقيل إنه جاوزها فالله أعلم ، وقبره بالشام وقيل بالكوفة فالله أعلم .

[وقد روى ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله

ابن عباس مرفوعاً « لأن يربى أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب خير له من أن يربى ولداً لصلبه » . وهذا منكر جداً وفى إسناده نظر . ذكره من طريق تمام عن خيثمة بن سليمان عن محمد ابن عوف الحمصى عن أبى المغيرة عبد الله بن السمط عن صالح به ، وعبد الله بن السمط هذا لا أعرفه، وقد ذكره شيخنا الحافظ الذهبى فى كتابه الميزان وقال : روى عن صالح بن على حديثا موضوعاً][1]

﴿ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة ﴾

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عودا على بدء ، وقتل من كان فيها ممن تغلب عليها من الخوارج ، وقتل أمراءهم وأسر كبراءهم وأذل أشرافهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمنا وسلامة ، وبالاهانة كرامة ، وكان من جملة من قتل من أمرائهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان . ثم لما استقامت له وبه الأمور فى البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فمهدها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محذورها والله سبحانه أعلم .

﴿ بناء الرافقة وهى المدينة المشهورة ﴾

وفيها أمر المنصور ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد فى هذه السنة ، وأمر فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة ، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها ، من كل إنسان من أهل اليسار أربعين درهما . وقد فرضها أولا خمسة دراهم ، خمسة دراهم ، ثم جباها أربعين أربعين ، فقال فى ذلك بعضهم

يا لقومى ما رأينا * فى أمير المؤمنينا * قسم الخمسة فينا * وجبانا أربعينا

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى . وفيها طلب ملك الروم الصلح من المنصور على أن يحمل إليه الجزية . وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالا كثيرة . وفيها عزل محمد بن سليمان بن على عن إمرة الكوفة ، فقيل لأمور بلغته عنه فى تعاطى منكرات ، وأمور لا تليق بالعمال ، وقيل لقتله محمد بن أبى العوجاء ــ وقد كان ابن أبى العوجاء هذا زنديقاً ــ يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال ، ويصوّم الناس يوم الفطر ويفطرهم فى أيام الصيام ، فأراد المنصور أن يجعل قتله له ذنباً فعزله به ، وإنما أراد أن يقيده منه ، فقال له عيسى بن موسى : يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا ولا تقتله به ، فانه إنما قتله على الزندقة ، ومتى عزلته به شكره العامة وذموك ، فتركه حينا ثم عزله وولى مكانه على الكوفة عمرو بن زهير . وفيها عزل عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن على ، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفا عليه . وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد ، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية ، وعلى مصر محمد بن سعيد ، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم . وفيها توفى صفوان

(١) سقط من المصرية .

ابن عمرو وعثمان بن أبي العاتكة الدمشقيان ، وعثمان بن عطاء ، ومسعر بن كدام . .

﴿ وحماد الراوية ﴾

وهو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، مولى بكير ابن زيد الخيل الطائي ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها ، وهو الذي جمع السبع المعلقات الطوال ، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب ، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين في ذلك فأنشده تسعاً وعشرين قصيدة على حروف المعجم ، كل قصيدة نحواً من مائة بيت ، وزعم أنه لايسمي شاعر من شعراء العرب إلا أنشد له مالايحفظه غيره . فأطلق له مائة ألف درهم . وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص ، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر ، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام والذهب ، وإذا عنده جاريتان حسنتان جداً ، فاستنشده شيئاً فأنشده ، فقال له : سل حاجتك : فقال : كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : وما هي ؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين . فقال : هما وما عليهما لك ، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم . هذا ملخص الحكاية ، والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد ، فانه ذكر أنه شرب معه الخمر ، وهشام لم يكن يشرب . ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر ، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري ، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز . كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة . قال ابن خلكان : وقيل إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فالله أعلم .

وفيها قتل حماد عجرد على الزندقة . وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي ، ويقال إنه واسطي ، مولى بني سواد ، وكان شاعراً ماجنا ظريفاً زنديقاً متهما على الاسلام ، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يشتهر إلا في أيام بني العباس ، وكان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة ، وقد قتل بشار هذا على الزندقة أيضا كما سيأتي ، ودفن مع حماد هذا في قبره ، وقيل إن حماداً عجرد مات سنة ثمان وخمسين ، وقيل إحدى وستين ومائة فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة ﴾

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب المنصور على البصرة ، بعمرو بن شداد الذي كان عاملا لابراهيم ابن محمد على فارس ، فقيل أمر فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب . وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية هذا الذي فعل هذه الفعلة عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله ، فجمع له بين القضاء والصلاة ، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج ، ورجع الهيثم بن معاوية قاتل عمرو بن شداد إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة ، وهو على بطن جارية له ، وصلى عليه

المنصور ودفن فى مقابر بنى هاشم [ويقال إنه أصابته دعوة عمر بن شداد الذى قتله تلك القتلة ، فليتق العبدُ الظلمَ] (١)

وحج بالناس العباس بن محمد أخو المنصور . ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها . وعلى فارس والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة ، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو . وفيها توفى حمزة الزيات فى قول . وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين ، وإليه تنسب المدود الطويلة فى القراءة اصطلاحاً من عنده ، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة وأنكروها عليه . وسعيد بن أبى عروبة ، وهو أول من جمع السنن فى قول ، وعبد الله بن شوذب ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الافريقى ، وعمر بن ذر .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة ﴾

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد فى بغداد ، تفاؤلا بالتخليد فى الدنيا ، فعند كماله مات وخرب القصر من بعده ، وكان المستحث فى عمارته أبان بن صدقة ، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه . وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الامارة إلى باب الكرخ . وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك . وفيها أمر بتوسعة الطرقات . وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير . وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيما ، وكان ذلك عند دجلة . وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها سعيد بن الخليل . وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى فأوغل فى بلاد الروم ، وبعث سنانا مولى البطال مقدمة بين يديه ففتح حصونا وسبى وغنم . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على . ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها . وفيها توفى الحسين بن واقد ، والامام الجليل علامة الوقت أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى فقيه أهل الشام وإمامهم . وقد بقى أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة .

﴿ وهذا ذكر شئ من ترجمة الأوزاعى رحمه الله ﴾

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعى . والاوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم ، قاله محمد بن سعد . وقال غيره : لم يكن من أنفسهم وإنما نزل فى محلة الأوزاع ، وهى قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق ، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيبانى . قال أبو زرعة : وأصله من سبى السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها . وقال غيره : ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيما فى حجر أمه ، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد ، وتأدب بنفسه ، فلم يكن فى أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أورع ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم ، ولا أكثر صمتاً منه ، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه ، من حسنها ،

(١) سقط من المصرية

وكان يعانى الرسائل والكتابة ، وقد اكتتب مرة فى بعث إلى اليمامة فسمع الحديث من يحيى بن أبى كثير وانقطع إليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة ليسمع من الحسن وابن سيرين . فسار إليها فوجد الحسن قد توفى من شهرين ووجد ابن سيرين مريضاً ، فجعل يتردد لعيادته ، فقوى المرض به ومات ولم يسمع منه الأوزاعى شيئاً . ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراديس ، وساد أهلها فى زمانه وسائر البلاد فى الفقه والحديث والمغازى وغير ذلك من علوم الأسلام . وقد أدرك خلقا من التابعين وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين ، كمالك بن أنس والثورى والزهرى ، وهو من شيوخه . وأثنى عليه غير واحد من الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته . قال مالك : كان الأوزاعى إماما يقتدى به . وقال سفيان بن عيينة وغيره : كان الأوزاعى إمام أهل زمانه ، وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثورى آخذ بزمام جمله ، ومالك بن أنس يسوق به ، والثورى يقول : افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه . وقد تذاكر مالك والأوزاعى مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر ، ومن العصر حتى صليا المغرب ، فغمره الأوزاعى فى المغازى ، وغمره مالك فى الفقه . أو فى شئ من الفقه . وتناظر الأوزاعى والثورى فى مسجد الخيف فى مسألة رفع اليدين فى الركوع والرفع منه . فاحتج الأوزاعى على الرفع فى ذلك بما رواه عن الزهرى عن سالم عن أبيه « أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه فى الركوع والرفع منه » . واحتج الثورى على ذلك بحديث يزيد بن أبى زياد [1] فغضب الأوزاعى وقال : تعارض حديث الزهرى بحديث يزيد بن أبى زياد وهو رجل ضعيف ؟ فاحمار وجه الثورى ، فقال الاوزاعى : لعلك كرهتَ ما قلتُ ؟ قال : نعم . قال : قم بنا حتى نلتعن عند الركن أينا على الحق . فسكت الثورى . وقال هِقْل بن زياد : أفتى الأوزاعى فى سبعين ألف مسألة بحدثنا . وأخبرنا . وقال أبو زرعة : روى عنه ستون ألف مسألة . وقال غيرهما : أفتى فى سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، ثم لم يزل يفتى حتى مات وعقله زاك . وقال يحيى القطان عن مالك : اجتمع عندى الأوزاعى والثورى وأبو حنيفة فقلت : أيهم أرجح ؟ قال : الأوزاعى . وقال محمد بن عجلان : لم أر أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعى . وقال غيره : ما رؤى الأوزاعى ضاحكا مقهقها قط ، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد فى مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه ، وما رأيناه يبكى فى مجلسه قط وكان إذا خلى بكى حتى يُرحم . وقال يحيى بن معين : العلماء أربعة : الثورى ، وأبو حنيفة ، ومالك ، والأوزاعى . قال أبو حاتم : كان ثقة متبعاً لما سمع . قالوا : وكان الأوزاعى لا يلحن فى كلامه ، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها .

(١) بياض بجميع الأصول . والمراد أنه احتج بهذا الحديث على عدم الرفع .

وقد قال المنصور يوما لأحظى كتّابه عنده ـ وهو سليمان بن مجالد ـ : ينبغي أن نجيب الأوزاعي على ذلك دائماً ، لنستعين بكلامه فيما نكاتب به إلى الآفاق إلى من لا يعرف كلام الأوزاعي . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه . وقال الوليد ابن مسلم : كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس ، وكان يأثر عن السلف ذلك . قال : ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث . وقال الأوزاعي : رأيت ربّ العزة في المنام فقال : أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقلت : بفضلك أي رب . ثم قلت : يا رب أمتني على الاسلام . فقال : وعلى السنة . وقال محمد بن شعيب بن شابور : قال لي شيخ بجامع دمشق : أناميت في يوم كذا وكذا . فلما كان في ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتفلى ، فقال لي : اذهب إلى سرير الموتى فاحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه . فقلت : ماتقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، وإني رأيت كأن قائلا يقول فلان قدري ، وفلان كذا وعثمان بن العاتكة نعم الرجل ، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض ، وأنت ميت في يوم كذا وكذا . قال محمد بن شعيب : فما جاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بعدها وأخرجت جنازته . ذكر ذلك ابن عساكر . وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكا طويل الصمت ، وكان يقول : من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة ، أخذ ذلك من قوله تعالى (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) وقال الوليد بن مسلم : ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة . وقال غيره : حج فما نام على الراحلة ، إنما هو في صلاة ، فاذا نعس استند إلى القتب ، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى . ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولا فقالت لها : لعل الصبي بال ههنا . فقالت : هذا أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده ، هكذا يصبح كل يوم . وقال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فان الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم . وقال أيضا : اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم ، وقل ما قالوا وكف عما كفوا ، وليسعك ما وسعهم . وقال : العلم ما جاء عن أصحاب محمد ، ومالم يجيء عنهم فليس بعلم . وكان يقول : لايجتمع حب عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن . وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل . قالوا : وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم ، وكان له في بيت المال على الخلفاء أقطاع صار إليه من بني أمية وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار ، فلم يمسك منها شيئاً ، ولا اقتنى شيئا من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه ، بل

كان ينفق ذلك كله فى سبيل الله و فى الفقراء والمساكين .

ولما دخل عبـد الله بن على ـ عم السفاح الذى أجلى بنى أمية عن الشام ، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده ـ دمشق فطلب الأوزاعى فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه . قال الأوزاعى : دخلت عليـه وهو على سرير وفى يده خيزرانة والمسوّدة عن يمينه وشماله ، معهـم السيوف مصلتة ـ والعمد الحديد ـ فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التى فى يده ثم قال : يا أوزاعى ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصارى يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمى يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليـه » . قال فنكت بالخيزرانة أشـد مما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعى ما تقول فى دماء بنى أميـة ؟ فقلت : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسـلم إلا باحـدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينـه المفارق للجماعة » . فنكت بها أشـد من ذلك ثم قال : ما تقول فى أموالهم ؟ فقلت : إن كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضا ، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى . فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : ألا نوليك القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون علىّ فى ذلك ، وإنى أحب أن يتم ما ابتدؤنى به من الاحسان . فقال : كأنك تحب الانصراف ؟ فقلت : إن ورائى حرما وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن ، وقلوبهن مشـغولة بسببى . قال : وانتظرت رأسى أن يسـقط بين يدى ، فأمرنى بالانصراف . فلما خرجت إذا برسوله من ورائى ، وإذا معه مائتا دينار ، فقال يقول لك الأمير : استنفق هذه . قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً . قال : وكان فى تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده .

قالوا : ثم رحل الأوزاعى من دمشق فنزل ببيروت مرابطا بأهـله وأولاده ، قال الأوزاعى : وأعجبنى فى بيروت أنى مررت بقبورها فاذا امرأة سوداء فى القبور فقلت لهـا : أين العمارة ياهنتاه ؟ فقالت : إن أردت العمارة فهى هـذه ـ وأشارت إلى القبور ـ وإن كنت تريد الخراب فأمامك ـ وأشارت إلى البلد ـ فعزمت على الاقامة بها . وقال محمد بن كثير : سمعت الأوزاعى يقول : خرجت يوماً إلى الصحراء فاذا رجل جراد وإذا شخص راكب عـلى جرادة منها وعليـه سلاح الحـديد ، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده ، وهو يقول : الدنيا باطل باطل باطل ، وما فيها باطل

باطل باطل . وقال الأوزاعي : كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة فخسف ببغلته فلم يبق منها إلا أذناها ، وخرج الأوزاعي يوما من باب مسجد بيروت وهناك وكان فيه رجل يبيع الناطف و إلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول : يابصل أحلى من العسل ، أو قال أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئا من الكذب يباح ؟ فكأن هذا ما يرى فى الكذب بأسا .

وقال الواقدى قال الأوزاعي : كنا قبل اليوم نضحك ونلعب ، أما إذ صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك ، وينبغي أن نتحفظ . وكتب إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب ، وإنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر العهد بك والسلام .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنى محمد بن إدريس سمعت أبا صالح - كاتب الليث - يذكر عن الهقل ابن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال فى موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة ، التي تطلع الأفئدة ، فانكم فى دار الثواء فيها قليل ، وأنتم عما قليل عنها راحلون ، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آنقها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعمارا وأمد أجساما ، وأعظم أحلاما ، وأكثر أموالا وأولادا ، فخددوا الجبال وجابوا الصخر بالواد ، وتنقلوا فى البلاد ، مؤيدين ببطش شديد ، وأجساد كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت آثارهم ، وأخربت منازلهم وديارهم ، وأنست ذكرهم ، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزا ؟ كانوا بلهو الأمل آمنين ، وعن ميقات يوم موتهم غافلين ، فآبوا إياب قوم نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين ، وأصبح الباقون المتخلفون يبصرون فى نعمة الله وينظرون فى آثار نقمته ، وزوال نعمته عمن تقدمهم من الهالكين ينظرون والله فى مساكن خالية خاوية ، قد كانت بالعز محفوفة ، وبالنعم معروفة ، والقلوب إليها مصروفة ، والأعين نحوها ناظرة ، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى . وأصبحتم بعدهم فى أجل منقوص ودنيا منقوصة ، فى زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه ، فلم يبق منه إلا جمة شر ، وصبابة كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال فتن ، وتتابع زلازل ، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد فى البر والبحر ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار ، فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل ، وغيره طول الأجل ، ولعبت به الأمانى ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذادعى بدر ، وإذا نهى انتهى ، وعقل مثواه فمهد لنفسه .

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه ، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع

الحاجب : الحقه فاسأله لم كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أنى قلت لك . فسأله الربيع فقال : لأنى لم أر محرما أحرم فيه ، ولا ميتا كفن فيه ، ولا عروسا جليت فيه ، فلهذا أكرهه . وقد كان الأوزاعى فى الشام معظما مكرما أمره أعز عندهم من أمر السلطان ، وقد هم به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه : دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك . ولما مات جلس على قبره بعض الولاة فقال : رحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذى ولانى ـ يعنى المنصور ـ وقال ابن أبى العشرين : ما مات الأوزاعى حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه .

وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى قال : كنت جالساً عند الثورى فجاءه رجل فقال : رأيت كأن ريحانة من المغرب ـ يعنى قلعت ـ . قال : إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعى . فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعى فى ذلك اليوم . وقال أبو مسهر : بلغنا أن سبب موته أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه ، ولم تكن عامدة ذلك ، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة . قال : وما خلف ذهبا ولا فضة ولا عقاراً ، ولا متاعا إلا ستة وثمانين ، فضلت من عطائه . وكان قد اكتتب فى ديوان الساحل . وقال غيره : كان الذى أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام ، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتا قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله .

قلت : لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً ، واختلفوا فى سنه ووفاته ، فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال قال أحمد : رأيت الأوزاعى وتوفى سنة خمسين ومائة . قال العباس بن الوليد البيروتى : توفى يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو الذى عليه الجمهور وهو الصحيح ، وهو قول أبى مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم ـ فى أصح الروايات عنه ـ ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبى عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد . قال العباس بن الوليد : ولم يبلغ سبعين سنة . وقال غيره : جاوز السبعين ، والصحيح سبع وستون سنة ، لأن ميلاده فى سنة ثمان وثمانين على الصحيح . وقيل إنه ولد سنة ثلاث وسبعين ، وهذا ضعيف . وقد رآه بعضهم فى المنام فقال له : دلنى على عمل يقربنى إلى الله . فقال : ما رأيت فى الجنة درجة أعلا من درجة العلماء العاملين ، ثم المحزونين ..

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة ﴾

فيها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه ، وفيها مات طاغية الروم . وفيها وجه المنصور ابنه المهدى إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل ، وأن يولى عليها خالد بن برمك ، وكان ذلك بعد نكتة غريبة اتفقت ليحيى بن خالد ، وذلك أن

المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك ، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف ، فضاق ذرعا بذلك ، ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثرها ، وقد أجله ثلاثة أيام ، وأن يحمل ذلك فى هذه الثلاثة الأيام وإلا فدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم ، فكان منهم من أعطاه مائة ألف ، ومنهم أقل وأكثر . قال يحيى بن خالد : فبينا أنا ذات يوم من تلك الأيام الثلاثة على جسر بغداد ، وأنا مهموم فى تحصيل ماطلب منا مما لا طاقة لنا به ، إذ وثب إلى زاجر من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية ، فقال لى : ابشر ، فلم ألتفت إليه ، فتقدم إلى حتى أخذ بلجام فرسى ثم قال لى : أنت مهموم ، ليفرجن الله همك ولتمرن غداً فى هذا الموضع واللواء بين يديك ، فان كان ما قلت لك حقا فلى عليك خمسة آلاف . فقلت : نعم . ولو قال خمسون ألفا لقلت نعم ، لبعد ذلك عندى . وذهبت لشأنى ، وقد بقى علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد فيها ، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح للموصل ؟ فأشار بعضهم بخالد بن برمك ، فقال له المنصور : أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ؟ فقال : نعم ! وأنا الضامن أنه يصلح لها ، فأمر باحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه ، وعقد له اللواء ، وولى ابنه يحيى أذربيجان وخرج الناس فى خدمتهما . قال يحيى : فمررنا بالجسر فثار لى ذلك الزاجر فطالبنى بما وعدته به ، فأمرت له به فقبض خمسة آلاف .

وفى هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدى معه ، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذى مات به وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه فى الهواجر ، وأخذه إسهال وأفرط به ، فقوى مرضه ، ودخل مكة فتوفى بها ليلة السبت لست مضين من ذى الحجة ، وصلى عليه ودفن بكدا عند ثنية باب المعلاة التى بأعلا مكة ، وكان عمره يومئذ ثلاثا وقيل أربعا وقيل خمساً وستين ، وقيل إنه بلغ ثمانيا وستين سنة فالله أعلم . وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدى من القواد ورؤس بنى هاشم ، ثم دفن . وكان الذى صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على ، وهو الذى أقام للناس الحج فى هذه السنة .

﴿ وهذه ترجمة المنصور ﴾

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور . وكان أكبر من أخيه أبى العباس السفاح ، وأمه أم ولد اسمها سلامة . روى عن جده عن ابن عباس « أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه » أورده ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمى عن المأمون عن الرشيد عن المهدى عن أبيه المنصور به ، بويع له بالخلافة بعد أخيه فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة ، لأنه ولد فى سنة خمس وتسعين

على المشهور فى صفر منها بالحميمة من بلاد البلقاء ، وكانت خلافته ثنتين وعشرين سنة إلا أياماً ، وكان أسمر اللون موفر اللمة خفيف اللحية ، رحب الجبهة ، أقنى الأنف ، أعين كأن عينيه لسانان ناطقان ، يخالطه أبهة الملك ، وتقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يعرف الشرف فى مواضعه ، والعنف فى صورته ، والليث فى مشيته ، هكذا وصفه بعض من رآه . وقد صح عن ابن عباس أنه قال : « منا السفاح والمنصور » وفى رواية « حتى نسلمها إلى عيسى بن مريم » . وقد روى مرفوعاً ولا يصح ولا وقفه أيضاً . وذكر الخطيب أن أمه سلامة قالت : رأيت حين حملت به كأنه خرج منى أسد فزأر واقفا على يديه ، فما بقى أسد حتى جاء فسجد له . وقد رأى المنصور فى صغره مناما غريبا كان يقول : ينبغى أن يكتب فى ألواح الذهب ، ويعلق فى أعناق الصبيان . قال : رأيت كأنى فى المسجد الحرام وإذا رسول الله ﷺ فى الكعبة والناس مجتمعون حولها ، فخرج من عنده مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخى السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها ، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود . ثم نودى أين عبد الله ؟ فقمت أنا وعمى عبد الله بن على نستبق ، فسبقته إلى باب الكعبة فدخلتها ، فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وبلال ، فعقد لى لواء وأوصانى بأمته وعممنى عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً ، وقال : « خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة » .

وقد اتفق سجن المنصور فى أيام بنى أمية فاجتمع به نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له : ممن تكون ؟ فقال : من بنى العباس ، فلما عرف منه نسبه وكنيته قال : أنت الخليفة الذى تلى الأرض . فقال له : ويحك ماذا تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، فضع لى خطك فى هذه الرقعة أن تعطينى شيئاً إذا وليت . فكتب له ، فلما ولى أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه ، وكان قبل ذلك مجوسيا . ثم كان من أخص أصحاب المنصور . وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة ، وأحرم من الحيرة ، وفى سنة أربع وأربعين ، وفى سنة سبع وأربعين . وفى سنة ثنتين وخمسين ، ثم فى هذه السنة التى مات فيها . وبنى بغداد والرصافة والرافقة وقصره الخلد .

قال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، وأنا . وقال مالك : قال لى المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقلت : أبو بكر . وعمر . فقال : أصبت وذلك رأى أمير المؤمنين . وعن إسماعيل البهرى قال سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على ماله أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه ، وقد جعلنى الله عليه قفلا فان شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسم أرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلنى عليه قفلنى . فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى

وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به فى كتابه ، إذ يقول : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) . أن يوفقنى للصواب ويسددنى للرشاد ويلهمنى الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحنى لاعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، فانه سميع مجيب .

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثنى على الله عز وجل ، فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذاكره ، واتق الله فيما تأتيه وتذره . فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال : أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) أو أن أكون جباراً عصياً ، أيها الناس ! إن الموعظة علينا نزلت ومن عندنا نبتت . ثم قال للرجل : ما أظنك فى مقالتك هذه تريد وجه الله ، وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين ، أيها الناس لا يغرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها ، ثم قال لمن هو عنده : أعرض عليه الدنيا فان قبلها فأعلمنى ، وإن ردها فأعلمنى ، فما زال به الرجل الذى هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدنيا فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة فى بزة حسنة ، وثياب وشارة وهيئة دنيوية ، فقال له الخليفة : ويحك ! لو كنت محقاً مريداً وجه الله بما قلت على رؤس الناس لما قبلت شيئاً مما أرى ، ولكن أردت أن يقال عنك إنك وعظت أمير المؤمنين ، وخرجت عليه ، ثم أمر به فضربت عنقه . وقد قال المنصور لابنه المهدى : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة . والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه . وقال أيضاً : يا بنى استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله .

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع والسيف ، فقال له مبارك : سمعت الحسين يقول قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » فأمر بالعفو عن ذلك الرجل . ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائم ذلك الرجل وماصنعه . وقال الأصمعى : أتى المنصور برجل ليعاقبه فقال : يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والعفو فضل ، وتعوذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين ، وأدنى القسمين ، دون أرفع الدرجتين . قال فعفا عنه .

وقال الأصمعى : قال المنصور لرجل من أهل الشام : احمد الله يا أعرابى الذى دفع عنكم الطاعون بولايتنا . فقال إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ، ولايتكم والطاعون . والحكايات فى ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً . [ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تبيت فى القبر لم تبت قبلها ليلة ، واذكر ليلة تمخض عن

يوم لا ليلة بعده . قال : فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال فقال : لو احتجت إلى مالك لما وعظتك][1]
ودخل عمرو بن عبيد القدرى على المنصور فأكرمه وعظمه وقربه وسأله عن أهله وعياله ، ثم قال له : عظنى . فقرأ عليه سورة الفجر إلى (إن ربك لبالمرصاد) فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك ، ثم قال له : زدنى . فقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك ، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة . فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجفانه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقاً بأمير المؤمنين . فقال عمرو : وماذا على أمير المؤمنين أن يبكى من خشية الله عز وجل . ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال : لا حاجة لى فيها . فقال المنصور : والله لتأخذنها . فقال : والله لا آخذنها . فقال له المهدى وهو جالس فى سواده وسيفه إلى جانب أبيه : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت إلى المنصور فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا ابنى محمد ولى العهد من بعدى . فقال عمرو : إنك سميته اسما لم يستحقه لعمله ، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل مايكون عنه . ثم التفت إلى المهدى فقال : يا ابن أخى ! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلأن يحنث أبوك أيسر من أن يحنث عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم ! قال : وما هى ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك . ولا تعطنى حتى أسألك . فقال المنصور : إذا والله لا نلتقى . فقال عمرو : عن حاجتى سألتنى . فودعه وانصرف . فلما ولى أمده بصره وهو يقول :

كلكم يمشى رويد * كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد

ويقال إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة فى موعظته إياه وهى قوله :

يا أيهذا الذى قد غره الأمل * ودون مايأمل التنغيص والأجل
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها * كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا
حتوفها رصد وعيشها نكد * وصفوها كدر وملكها دول
تظل تقرع بالروعات ساكنها * فما يسوغ له لين ولا جذل
كأنه للمنايا والردى غرض * تظل فيه بنات الدهر تنتقل
تديره ما تدور به دوائرها * منها المصيب ومنها المخطىء الزلل
والنفس هاربة والموت يطلبها * وكل عثرة رجل عندها جلل
والمرء يسعى بما يسعى لوارثه * والقبر وارث ما يسعى له الرجل

(١) زيادة من المصرية .

وقال ابن دريد عن الرياشي عن محمد بن سلام قال : رأت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فقالت : خليفة وقميص مرقوع ؟ فقال : ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وبعض قميصه مرقوع

وقال بعض الزهاد للمنصور : اذكر ليلة تبيت فى القبر لم تبت قبلها ليلة مثلها ، واذكر ليلة تمخض عن يوم القيامة لاليلة بعدها فأفحم المنصور قوله فأمر له بمال . فقال : لو احتجت إلى مالك ما وعظتك . ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم : —

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فان فساد الرأى أن يترددا

ولا تمهل الأعداء يوما لغدرة * وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريحا بين يديه قال : —

قد اكتنفتك خلات ثلاث * جلبن عليك محتوم الحمام

خلافك وامتناعك من يمينى * وقودك للجماهير العظام

ومن شعره أيضاً : —

المرء يأمل أن يعيـ * ـش وطول عمر قد يضره

تبلى بشاشته ويبـ * ـقى بعد حلو العيش مره

وتخونه الأيام حتى * لا يرى شيئاً يسره

كم شامت بى إن هلكـ * ـت وقائل لله دره

قالوا : وكان المنصور فى أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والولايات والعزل والنظر فى مصالح العامة ، فاذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر ، فاذا صلاها جلس لأهل بيته ونظر فى مصالحهم الخاصة ، فاذا صلى العشاء نظر فى الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام فى فراشه إلى الثلث الآخر ، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه. وقد ولى بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلابا وبزاة ، فكتب إليه ثكلتك أمك وعشيرتك ، ويحك إنا إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحوش فى البرارى ، فسلم ماتلى من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً .

وأتى يوماً بخارجى قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور : ويحك يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش ؟ فقال الخارجى : ويلك سوأة لك بينى وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب ، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فما أستقبلها أبداً .

قال فاستحيى منه المنصور وأطلقه . فما رأى له وجها إلى الحول [وقال لابنه لما ولاه العهد : يا بنى ائتدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والنصر بالتواضع ، والتألف بالطاعة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله] (١)

وقال أيضا : يا بنى ليس العاقل من يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن العاقل الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه . وقال المنصور : يا بنى لا تجلس مجلساً إلا وعندك من أهل الحديث من يحدثك ، فان الزهرى قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهه إلا مؤنثوهم ، وصدق أخو زهرة . وقد كان المنصور فى شبيبته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانبا جيداً وطرفاً صالحا ، وقد قيل له يوما : يا أمير المؤمنين هل بقى شئ من اللذات لم تنله ؟ قال : شئ واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المحدث للشيخ من ذكرت رحمك الله . فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : ليمل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالعراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن . فهؤلاء نقلة الحديث .

وقال يوما لابنه المهدى : كم عندك من دابة ؟ فقال لا أدرى . فقال : هذا هو التقصير ، فأنت لأمر الخلافة أشد تضييعاً فاتق الله يا بنى . وقالت خالصة إحدى حظيات المهدى : دخلت يوما على المنصور وهو يشتكى ضرسه ويداه على صدغيه فقال لى : كم عندك من المال يا خالصة ؟ فقلت ألف درهم . فقال : ضعى يدك على رأسى واحلفى ، فقلت : عندى عشرة آلاف دينار . قال : اذهبى فاحمليها إلى . قالت : فذهبت حتى دخلت على سيدى المهدى وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه فوكزنى برجله وقال : ويحك ! إنه ليس به وجع ولكنى سألته بالأمس مالا فتمارض ، وإنه لا يسعك إلا ما أمرك به . فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار ، فاستدعى بالمهدى فقال له : تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة ؟ وقال المنصور لخازنه : إذا علمت بمجئ المهدى فائتنى بخلقان الثياب قبل أن يجئ ، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدى والمنصور يقلبها ، فجعل المهدى يضحك ، فقال : يا بنى من ليس له خلق ليس له جديد ، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد . فقال المهدى : علىّ كسوة أمير المؤمنين وعياله ، فقال : دونك فافعل .

وذكر ابن جرير عن الهيثم أن المنصور أطلق فى يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم . وفى هذا اليوم فرق فى بيته عشرة آلاف درهم ، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا فى يوم واحد . وقرأ بعض القراء عند المنصور (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) فقال : والله لولا أن المال حصن

(١) زيادة من المصرية .

للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما مابتُّ ليلة واحدة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهما لما أجد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم فى إعطائه من جزيل المثوبة . وقرأ عنده قارئ آخر (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية . فقال : ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل . وقال المنصور : سمعت أبى يقول سمعت على بن عبد الله يقول : سادة أهل الدنيا فى الدنيا الأسخياء ، وسادة أهل الآخرة فى الآخرة الأتقياء .

ولما عزم المنصور على الحج فى هذه السنة دعا ولده المهدى فأوصاه فى خاصة نفسه و بأهل بيته و بسائر المسلمين خيراً ، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور ، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وحرج عليه أن لا يفتح شيئا من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فان بها من الأموال ما يكفى المسلمين لولم يُجب إليهم من الخراج درهم عشر سنين ، وعهد إليه أن يقضى ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار ، فانه لم ير قضاءها من بيت المال . فامتثل المهدى ذلك كله . وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال : يا بنى إنى ولدت فى ذى الحجة وقد وقع لى أن أموت فى ذى الحجة ، وهذا الذى جرأنى على الحج عامى هذا . وودعه وسار واعتراه مرض الموت فى أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو ثقيل جداً ، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا فى صدر منزله مكتوب : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لابد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من كرب المنية مانع

فدعا بالحجبة فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعى إليه . قالوا : ورأى المنصور فى منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول : ــ

أما ورب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
عليك يانفس إن أسأت وإن * أحسنت يا نفس كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا بنقل السلطان عن ملك * إذا انقضى ملكه إلى ملك
حتى يُصير انه إلى ملك * ماعزّ سُلطانه بمشترك
ذاك بديع السماء والأرض والمر * سى الجبال المسخر الفلك

فقال المنصور : هذا أوان حضور أجلى وانقضاء عمرى . وكان قد رأى قبل ذلك فى قصره الخلد الذى بناه وتأنق فيه مناما أفزعه فقال للربيع : ويحك يا ربيع ! لقد رأيت مناما هالنى ، رأيت قائلا وقف فى باب هذا القصر وهو يقول :

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه أهله ومنازله
وصار رئيس القصر من بعد بهجة * إلى جدث يبنى عليه جنادله

فما أقام فى الخلد إلا أقل من سنة حتى مرض فى طريق الحج ، ودخل مكة مدنفاً ثقيلا . وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذى الحجة ، وكان آخر ما تكلم به أن قال : اللهم بارك لى فى لقائك . وقيل : إنه قال يا رب إن كنت عصيتك فى أمور كثيرة فقد أطعتك فى أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصا . ثم مات . وكان نقش خاتمه : الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . وكان عمره يوم وفاته ثلاثا وستين سنة على المشهور ، منها ثنتان وعشرون سنة خليفة . ودفن بباب المعلاة رحمه الله . قال ابن جرير : ومما رثى به قول سلم الخاسر الشاعر :

عجبا للذى نعى الناعيان * كيف فاهت بموته الشفتان
ملك أن عدا على الدهر يوماً * أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفاحثت عليه تراباً * لم تعد فى يمينها ببنان
حين دانت له البلاد على العسـ * ـف وأغضى من خوفه الثقلان
أين رب الزوراء قد قلدته الـ * ـملك عشرين حجة واثنتان
إنما المرء كالزناد إذا ما * أخذته قوادح النيران
ليس يثنى هواه زجر ولا يقـ * ـدح فى حبله ذوو الأذهان
قلدته أعنة الملك حتى * قاد أعداءه بغير عنان
يكسر الطرف دونه وترى الأيـ * ـدى من خوفه على الأذقان
ضم أطراف ملكه ثم أضحى * خلف أقصاهم ودون الدانى
هاشمى التشمير لا يحمل الثقـ * ـل على غارب الشرود الهدان
ذو أناة ينسى لها الخائف الخو * ف وعزم يلوى بكل جنان .
ذهبت دونه النفوس حذاراً * غير أن الارواح فى الابدان

وقد دفن عند باب المعلاة بمكة ولا يعرف قبره لأنه أعمى قبره ، فان الربيع الحاجب حفر مائة قبر ودفنه فى غيرها لئلا يعرف .

﴿ ذكر أولاد المنصور ﴾

محمد المهدى وهو ولى عهده ، وجعفر الأكبر مات فى حياته ، وأمهما أروى بنت منصور . وعيسى ، ويعقوب ، وسليمان ، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله . وجعفر الأصغر من أم ولد كردية ، وصالح المسكين من أم ولد رومية ـ يقال لها قالى الفراشة ـ والقاسم من أم

ولد أيضاً . والعالية من امرأة من بنى أمية .

﴿ ذكر خلافة المهدى بن المنصور ﴾

لما مات أبوه بمكة لست أو لسبع مضين من ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت البيعة للمهدى من رؤس بنى هاشم والقواد الذين هم مع المنصور فى الحج قبل دفنه ، وبعث الربيع الحاجب بالبيعة مع البرد إلى المهدى وهو ببغداد ، فدخل عليه البريد بذلك يوم الثلاثاء النصف من ذى الحجة ، فسلم عليه بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة ، وبايعه أهل بغداد ، ونفذت بيعته إلى سائر الآفاق . وذكر ابن جرير أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجدد البيعة لابنه المهدى ، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه . وحج بالناس فى هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه المنصور ، وهو الذى صلى عليه ، وقيل إن الذى صلى على المنصور عيسى بن موسى ولى العهد من بعد المهدى ، والصحيح الأول ، لأنه كان نائب مكة والطائف ، وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن على ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبى ـ أخو المسيب ابن زهير أمير الشرطة للخليفة ـ وعلى خراسان حميد بن قحطبة ، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة ابن حمزة ، وعلى صلاتها وقضائها عبد الله بن الحسن العنبرى ، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج .

قال الواقدى : وأصاب الناس فى هذه السنة وباء شديد فتوفى فيه خلق كثير وجم غفير ، منهم أفلح بن حميد ، وحيوة بن شريح ، ومعاوية بن صالح بمكة ، وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان ، يقال له التميمى العنبرى الكوفى الفقيه الحنفى ، أقدم أصحاب أبى حنيفة وفاة ، وأكثرهم استعمالا للقياس ، وكان عابداً ، اشتغل أولا بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس . ولد سنة ست عشرة ومائة ، وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله وإيانا .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة ﴾

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله محمد بن المنصور المهدى ، فبعث فى أولها العباس ابن محمد إلى بلاد الروم فى جيش كثيف ، وركب معهم مشيعاً لهم ، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم ، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد منهم أحد . وفيها توفى حميد بن قحطبة نائب خراسان ، فولى المهدى مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد ، وولى حمزة بن مالك سجستان ، وولى جبريل بن يحيى سمرقند وفيها بنى المهدى مسجد الرصافة وخندقها . وفيها جهز جيشا كثيفا إلى بلاد الهند فوصلوا إليها فى السنة الآتية ، وكان من أمرهم ما سنذكره . وفيها توفى نائب السند معبد بن الخليل فولى المهدى مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبى عبد الله . وفيها أطلق المهدى من كان فى السجون إلا من كان محبوساً على دم ، أو من سعى فى الأرض فساداً ، أو من كان عنده

حق لأحد . وكان فى جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بنى سليم ، والحسن بن إبراهيم ابن عبد الله بن حسين ، وأمر بصيرورة حسن هذا إلى نصير الخادم ليحترز عليه . وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه ، فلما خرج يعقوب بن داود ناصح الخليفة بما كان عزم عليه فنقله من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه ، وحظى يعقوب بن داود عند المهدى جداً حتى صار يدخل عليه فى الليل بلا استئذان ، وجعله على أمور كثيرة ، وأطلق له مائة ألف درهم . وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدى من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عنده . وقد عزل المهدى نواباً كثيرة عن البلاد وولى بدلهم . وفى هذه السنة تزوج المهدى بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن على ، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً ، وهى أم الرشيد . وفيها وقع حريق عظيم فى السفن التى فى دجلة بغداد . ولما ولى المهدى سأل عيسى بن موسى ـ وكان ولى العهد من بعده ـ أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدى ، وسأل المهدى أن يقيم بأرض الكوفة فى ضيعة له فأذن له ، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم ، فكتب إلى المهدى : إن عيسى بن موسى لا يأتى الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة ، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلى الناس . فكتب إليه المهدى أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى المسجد إلا مشاة . فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبى عبيدة من ورثته ـ وكانت ملاصقة المسجد ـ وكان يأتى إليها من يوم الخميس ، فاذا كان يوم الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل إلى هناك وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله ، ثم ألح المهدى عليه فى أن يخلع نفسه وتوعده إن لم يفعل ، ووعده إن فعل فأجابه إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة ، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف ، وقيل عشرين ألف ألف ، وبايع المهدى لولديه من بعده موسى الهادى ، ثم هارون الرشيد كما سيأتى .

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدى ، وكان نائبا على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقا إليه ، وغالب نواب البلاد عزلهم المهدى ، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد ابن سليمان أبو ضمرة ، وعلى خراسان أبو عون ، وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة ، وعلى اليمن رجاء بن روح ، وعلى اليمامة بشر بن المنذر ، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى المدينة عبيد الله بن صفوان الجمحى ، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح الكندى ، وعلى خراجها ثابت بن موسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعى ، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاتها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميرى ، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبرى .

وفيها توفى عبد العزيز بن أبى روّاد ، وعكرمة بن عمار ، ومالك بن مغول ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبى ذيب المدنى : نظير مالك بن أنس فى الفقه ، وربما أنكر على مالك أشياء ترك الأخذ فيها ببعض الأحاديث ، كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل .

﴿ ثم دخلت سنة ستين ومائة ﴾

فيها خرج رجل بخراسان على المهدى منكراً عليه أحواله وسيرته وما يتعاطاه ، يقال له يوسف البرم ، والتف عليه خلق كثير ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب به ، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقيه فاقتتلا قتالا شديداً حتى تنازلا وتعانقا ، فأسر يزيد بن مزيد يوسف هذا ، وأسر جماعة من أصحابه فبعثهم إلى المهدى فأدخلوا عليه ، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذناب الابل ، فأمر الخليفة هرثمة أن يقطع يدى يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأكبر مما يلى عسكر المهدى وأطفأ الله نائرتهم وكفى شرهم .

﴿ ذكر البيعة لموسى الهادى ﴾

ذكرنا أن المهـدى ألحّ على عيسى بن موسى أن يخلع نفسـه وهو مع كل ذلك يمتنع وهو مقيم بالكوفة ، فبعث إليه المهدى أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ فى ألف من أصحابه لاحضاره إليه ، وأمر كل واحد منهم أن يحمل طبلا ، فاذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهـم على طبله ، ففعلوا ذلك فارتجت الكوفة ، وخاف عيسى بن موسى ، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه يشتكى ، فلم يقبلوا ذلك منـه بل أخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة فى يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة ، فاجتمع عليه وجوه بنى هاشم والقضاة والأعيان وسألوه فى ذلك وهو يمتنع ، ثم لم يزل الناس به بالرغبـة والرهبة حتى أجاب فى يوم الجمعة لأربع مضين من المحرم بعـد العصر . وبويع لولدى المهدى موسى وهارون الرشـيد صباحة يوم الخميس لثـلاث بقين من المحرم وجلس المهـدى فى قبـة عظيمة فى إيوان الخلافة ، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المنبر وجلس ابنه موسى الهادى تحته ، وقام عيسى بن موسى على أول درجة ، وخطب المهدى فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قـد حلل الناس من الايمان التى له فى أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهادى . فصدق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدى عـلى ذلك . ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهـم ، وكتب على عيسى بن موسى مكتوبا مؤكدا بالايمان البالغة من الطلاق والعتاق ، وأشهد عليـه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بنى هاشم وغيرهم وأعطاه ما ذكرنا من الأموال وغيرها .

وفيها دخل عبـد الملك بن شهاب المسمعى مدينة باربد[1] من الهند فى جحفل كبير فحاصروها

(١) وفى بعض النسخ من تاريخ ابن جرير (نابذ) ومعنى بُدّ : الصنم .

ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها ، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر ، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح ، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فغرق طائفة أيضا ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير ، فيهم بنت ملكهم . وفيها حكم المهدي بالحاق ولد أبي بكرة الثقفي إلى ولاء رسول الله ﷺ وقطع نسبهم من ثقيف ، وكتب بذلك كتابا إلى والي البصرة . وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففي ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار : —

إن زياداً ونافعا وأبا * بكرة عندي من أعجب العجب

ذا قرشي كما يقول وذا * مولى وهذا بزعمه عربي

وقد ذكر ابن جرير أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك .

وفي هذه السنة حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء ، منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكانته ، وكان الحسن ابن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز ، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته ، وفرق المهدي في أهل مكة مالا كثيرا جداً ، كان قد قدم معه بثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، وجاء من مصر ثلثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة . وشكت الحجبة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوى ، فأمر بتجريدها ، فلما انتهوا إلى كساوى هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جداً ، فأمر بازالتها وبقيت كساوى الخلفاء قبله وبعده ، فلما جردها طلاها بالخلوق وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال إنه استفتى مالكا في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فاني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هي .

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسع المسجد النبوي ، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبه العتيق إذا زعزع ، فتركه . وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية ، وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرسا بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم .

وفيها توفي الربيع بن صبيح ، وسفيان بن حسين ، أحد أصحاب الزهري ، وشعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي ، ثم انتقل إلى البصرة . رأى شعبة الحسن وابن سيرين ،

وروى عن أمم من التابعين ، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الاسلام . وهو شيخ المحدثين الملقب فيهم بأمير المؤمنين قاله الثورى . وقال يحيى بن معين : هو إمام المتقين ، وكان فى غاية الزهد والورع والتقشف والحفظ وحسن الطريقة . وقال الشافعى : لولاه ماعرف الحديث بالعراق . وقال الامام أحمد : كان أمة وحده فى هذا الشأن ، ولم يكن فى زمانه مثله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا حجة صاحب حديث . وقال وكيع : إنى لأرجو أن يرفع الله لشعبة فى الجنة درجات بذبه عن حديث رسول الله ﷺ . وقال صالح بن محمد بن حرزة : كان شعبة أول من تكلم فى الرجال وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين . وقال ابن مهدى : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا أشد تقشفا من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك ، ولا أحفظ للحديث من الثورى . وقال مسلم بن إبراهيم : ما دخلت على شعبة فى وقت صلاة الا ورأيته يصلى ، وكان أبا للفقراء وأماً لهم. وقال النضر ابن شميل : ما رأيت أرحم بمسكين منه ، كان إذا رأى مسكينا لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه . وقال غيره : ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بعظمه . وقال يحيى القطان : ما رأيت أرق للمسكين منه ، كان يدخل المسكين فى منزله فيعطيه ما أمكنه . قال محمد بن سعد وغيره : مات فى أول سنة ستين ومائة فى البصرة عن ثمان وسبعين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة ﴾

فيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل دابق ، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من الدخول إليها بسبب ذلك . وفيها أمر المهدى بحفر الركايا وعمل المصانع وبناء القصور فى طريق مكة وولى يقطين بن موسى على ذلك ، فلم يزل يعمل فى ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، مقدار عشر سنين ، حتى صارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها . وفيها وسع المهدى جامع البصرة من قبلته وغربه . وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة فى مسجد جماعة ، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله ﷺ ، ففعل ذلك فى المدائن كلها . وفيها اتضعت منزلة أبى عبيد الله وزير المهدى وظهرت عنده خيانته فضم إليه المهدى من يشرف عليه ، وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علية ، ثم أبعده وأقصاه وأخرجه من معسكره . وفيها ولى القضاء عافية بن يزيد الأزدى وكان يحكم هو وابن علاثة فى عسكر المهدى بالرصافة . وفيها خرج رجل يقال له المقنع بخراسان فى قرية فى قرى مرو ، وكان يقول بالتناسخ واتبعه على ذلك خلق كثير . فجهز إليه المهدى عدة من أمرائه وأنفذ إليه جيوشاً كثيرة ، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان ، وكان من أمره وأمرهم ماسنذكره .

وحج بالناس فيها موسى الهادى بن المهدى . وفيها توفى إسرائيل بن يونس بن إسحاق السبيعى

وزائدة بن قدامة و ﴿ سفيان بن سعيد ﴾ بن مسروق الثورى أحد أئمة الاسلام وعبادهم والمقتدى به أبو عبد الله الكوفى . روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم ، قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد : هو أمير المؤمنين فى الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم . وقال أيوب : ما رأيت كوفياً أفضله عليه . وقال يونس بن عبيد : ما رأيت أفضل منه . وقال عبد الله : ما رأيت أفقه من الثورى . وقال شعبة : ساد الناس بالورع والعلم . وقال : أصحاب المذاهب ثلاثة : ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه ، والثورى فى زمانه . وقال الامام أحمد : لا يتقدمه فى قلبى أحد . ثم قال : تدرى من الامام ؟ الامام سفيان الثورى . وقال عبد الرزاق : سمعت الثورى يقول : ما استودعت قلبى شيئاً قط فخاننى حتى إنى لأمرّ بالحائك يتغنى فأسد أذنى مخافة أن أحفظ ما يقول . وقال : لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبنى الله عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس .

قال محمد بن سعد : أجمعوا أنه توفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة ، ورآه بعضهم فى المنام يطير فى الجنة من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقرأ (الحمد لله الذى صدقنا وعده) الآية . وقال : إذا ترأس الرجل سريعا أخر بكثير من العلم . وممن توفى فيها : ﴿ أبو دلامة ﴾

زيد بن الجون الشاعر الماجن ، أحد الظرفاء ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظى عند المنصور لأنه كان يضحكه وينشده الأشعار ويمدحه ، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور ـ وكانت ابنة عمه ـ يقال لها حمادة بنت عيسى ، وكان المنصور قد حزن عليها ، فلما سووا عليها التراب وكان أبو دلامة حاضرا ، فقال له المنصور : ويحك يا أبا دلامة ، ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور حتى استلقى ، ثم قال : ويحك فضحتنا . ودخل يوماً على المهدى يهنئه بقدومه من سفره وأنشده :

إنى حلفت لئن رأيتك سالماً * بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبى محمد * ولتملأن دراهما حجرى

فقال المهدى : أما الأول فنعم ، فصلى على النبى محمد ﷺ ، وأما الثانى فلا . فقال : ياأمير المؤمنين هما كلمتان فلا تفرق بينهما . فأمر أن يملأ حجره دراهم ، ثم قال له : قم ! فقال : ينخرق منها قميصى فأفرغت منه فى أكياسها ثم قام فحملها وذهب . وذكر عنه ابن خلكان أنه مرض ابن له فداواه طبيب فلما عوفى قال له : ليس عندنا ما نعطيك ، ولكن ادّع على فلان اليهودى بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتى أشهد أنا وولدى عليه بالمبلغ المذكور . قال : فذهب الطبيب إلى قاضى الكوفة محمد

ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى - وقيل ابن شبرمة - فادعى عليه عنده فأنكر اليهودى فشهد عليه أبو دلامة وابنه ، فلم يستطع القاضى أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى الطبيب المدعى المال من عنده وأطلق اليهودى . وجمع القاضى بين المصالح . توفى أبو دلامة فى هذه السنة ، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة ﴾

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكرى بأرض قنسرين واتبعه خلق كثير ، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء فلم يقدروا عليه ، وجهز إليه المهدى جيوشا وأنفق فيهم أموالا فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك . وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة فى ثمانين ألفا من المرتزقة سوى المتطوعة ، فدمر الروم وحرق بلادآنا كثيرة ، وخرب أماكن وأسر خلقا من الذرارى . وكذلك غزا يزيد بن أبى أسيد السلمى بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبى خلقا كثيراً .

وفيها خرجت طائفة بجرجان فلبسوا الحمرة مع رجل يقال له عبد القهار ، فغزاهم عمرو بن العلاء من طبرستان فقهر عبد القهار وقتله وأصحابه . وفيها أجرى المهدى الأرزاق فى سائر الأقاليم والآفاق على المجذّمين والمحبوسين ، وهذه مثوبة عظيمة ومكرمة جسيمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور . وفيها توفى من الأعيان :

﴿ إبراهيم بن أدهم ﴾

أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد . كانت له همة عالية فى ذلك رحمه الله . فهو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمى ، ويقال له العجلى ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق ، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبى هريرة وأبى إسحاق السبيعى وخلق . وحدث عنه خلق منهم بقية والثورى وأبو إسحاق الفزارى ومحمد بن حميد . وحكى عنه الأوزاعى . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزرى عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبى هريرة . قال : « دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلى جالساً فقلت : يا رسول الله إنك تصلى جالساً فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . قال : فبكيت فقال : لا تبك فان شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب فى دار الدنيا » . ومن طريق بقية عن إبراهيم بن أدهم حدثنى أبو إسحاق الهمدانى عن عمارة بن غزية عن أبى هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفا ، وينجو العالم منها بعلمه » .

قال النسائى : إبراهيم بن أدهم ثقة مأمون أحد الزهاد . وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان ، وكان قد حبب إليه الصيد ، قال : فخرجت مرة فأثرت ثعلبا فهتف بى هاتف

من قربوس سرجي : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت، جاءني نذير من رب العالمين . فرجعت إلى أهلي فخليت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصفُ لي بها الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد ، وكان يقول : ماتهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام . أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل ، فمن يراني يقول هو موسوس . ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان لايأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وعمل الفاعل وحفظ البساتين وغير ذلك مما روى عنه أنه وجد رجلا في البادية فعلمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له : إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم ، ذكره القشيري وابن عساكر عنه باسناد لا يصح . وفيه أنه قال له : إن إلياس علمك اسم الله الأعظم . وقال إبراهيم : أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك . وقيل له إن اللحم قد غلا فقال : ارخصوه أي لا تشتروه فانه يرخص . وقال بعضهم : هتف به الهاتف من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) اتق الله وعليك بالزاد ليوم القيامة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة . وروى ابن عساكر باسناد فيه نظر في ابتداء أمره قال : بينما أنا يوماً في منظرة لي ببلخ وإذا شيخ حسن الهيئة حسن اللحية قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي ، فأمرت غلاماً فدعاه فدخل فعرضت عليه الطعام فأبى فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت : أين تريد ؟ قال الحج . قلت في هذا الوقت ؟ ـ وقد كان أول يوم من ذي الحجة أو ثانيه ـ فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصحبة . قال : إن أحببت ذلك فموعدك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم بسم الله فأخذت ثياب سفري وسرنا نمشي كأنما الأرض تجذب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ونقول : هذه فلانة هذه فلانة ، فاذا كان الصباح فارقني ويقول : موعدك الليل ، فاذا كان الليل جاءني ففعلنا مثل ذلك . فانتهينا إلى مدينة النبي ﷺ ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلا فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بيت المقدس وقال : إني عازم على المقام بالشام ، ثم رجعت أنا إلى بلدي بلخ كسائر الضعفاء حتى رجعنا إليها ولم أسأله عن اسمه ، فكان ذلك أول أمري .

[وروى من وجه آخر فيه نظر . وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال : كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة كان رجلا فاضلا له سرائر وما رأيته

يظهر تسبيحا ولا شيئا ولا أ كل مع أحد طعاما إلا كان آخر من يرفع يديه .] (١)

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلا فاضلا له سرائر ومعاملات بينه و بين الله عز وجل وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله ، ولا أ كل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده . وقال بشر بن الحارث الحافى : أربعة رفعهم الله بطيب المطعم ، إبراهيم بن أدهم ، وسليمان بن الخواص ووهيب بن الورد ، و يوسف بن أسباط . وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال : إنما سمع إبراهيم بن أدهم حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه . قال : حدثنا منصور عن ربعى بن خراش قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله دلى على عمل يحبنى الله عليه و يحبنى الناس قال : « إذا أردت أن يحبك الله فابغض الدنيا ، و إذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم » وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث و إبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس : فعاتبه بعض أصحابه فى ذلك ! فقال . إنى لأخشى مضرة ذلك المجلس فى قلبى إلى اليوم . وقال رشدين بن سعد مر إبراهيم بن أدهم بالأوزاعى وحوله حلقة فقال : لو أن هذه الحلقة على أبى هريرة لعجز عنهم . فقام الأوزاعى وتركهم . وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن أدهم : لم تركت الحديث ؟ فقال : إنى مشغول عنه بثلاث ، بالشكر على النعم ، و بالاستغفار من الذنوب ، و بالاستعداد للموت ، ثم صاح وغشى عليه فسمعوا هاتفاً يقول : لاتدخلوا بينى و بين أوليائى.

وقال أبو حنيفة يوماً لابراهيم بن أدهم : قد رزقت من العبادة شيئاً صالحا فليكن العلم من بالك فانه رأس العبادة وقوام الدين . فقال له إبراهيم : وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك و إلا هلكت . وقال إبراهيم : ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل و يحاسب هؤلاء المساكين الاغنياء . وقال شقيق بن إبراهيم : لقيت ابن أدهم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق و بين يديه ثلاثون شاكريا . فقلت له : تركت ملك خراسان ، وخرجت من نعمتك ؟ فقال : اسكت ما تهنيت بالعيش إلا ههنا ، أفر بدينى من شاهق إلى شاهق ، فمن يرانى يقول هو موسوس أو حمال أو ملاح ، ثم قال : بلغنى أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدى الله فيقول له : يا عبدى مالك لم تحج ؟ فيقول : يا رب لم تعطنى شيئاً أحج به . فيقول الله : صدق عبدى اذهبوا به إلى الجنة . وقال أقمت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز حلال . وقال : الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك ، فحزنك على الآخرة لك ، وحزنك على الدنيا و زينتها عليك . وقال : الزهد ثلاثة ، واجب ،

(١) زيادة من المصرية .

ومستحب ، و زهد سلامة ، فأما الواجب فالزهد فى الحرام ، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب ، والزهد عن الشبهات سلامة . وكان هو وأصحابه يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يجعلون فى ملحهم أبزاراً ، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بطيبها إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون . وقال قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع . وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها منى . فقال : إن كنت غنياً قبلتها ، وإن كنت فقيراً لم أقبلها . قال : أنا غنى . قال : كم عندك ؟ قال ألفان . قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال فأنت فقير ، لا أقبلها منك . وقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : لو أمكننى أن أطلق نفسى لطلقتها . ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لاشئ له ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء ، وصلى بوضوء واحد خمس عشرة صلاة ، وأكل يوماً على حافة الشريعة كسيرات مبلولة بالماء وضعها بين يديه أبو يوسف الغسولى ، فأكل منها ثم قام فشرب من الشريعة ثم [جاء واستلقى على قفاه وقال : يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش . فقال له أبو يوسف : طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم إبراهيم وقال : من أين لك هذا الكلام ؟ و بينما هو بالمصيصة فى جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فأرشد إليه ، فقال : يا سيدى أنا غلامك ، و إن أباك قد مات وترك مالا هو عند القاضى ، وقد جئتك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ ، وفرس و بغلة . فسكت إبراهيم طويلا ثم رفع رأسه فقال : إن كنت صادقا فالدراهم والفرس والبغلة لك ، ولا تخبر به أحداً . و يقال : إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله فى سبيل الله .

وكان معه بعض أصحابه فمكثوا شهرين لم يحصل لهم شئ يأكلونه ، فقال له إبراهيم : ادخل إلى هذه الغيضة — وكان ذلك فى يوم شات — قال : فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فملأت منه جرابى ثم خرجت ، فقال : ما معك ؟ قلت : خوخ . فقال : يا ضعيف اليقين ؟ لو صبرت لوجدت رطبا جنيا ، كما رزقت مريم بنت عمران . وشكا إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فاذا حوله دنانير كثيرة فقال لصاحبه : خذ منها ديناراً ، فأخذه واشترى لهم به طعاما . وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشترى البيض والزبدة وتارة الشواء والجوذبان والخبيص فيطعمه أصحابه وهو صائم ، فاذا أفطر يأكل من ردئ الطعام و يحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفا لهم وتحببا وتودداً إليهم .

وأضاف الأوزاعى إبراهيم بن أدهم فقصر إبراهيم فى الأكل فقال : مالك قصرت ؟ فقال : لأنك قصرت فى الطعام . ثم عمل إبراهيم طعاما كثيراً ودعا الأوزاعى فقال الأوزاعى : أما تخاف

أن يكون سرفا ؟ فقال : لا ! إنما السرف ما كان فى معصية الله ، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين . وذكروا أنه حصد مرة بعشرين ديناراً ، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم ، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن تحلق رأسى وتحجمنى ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً ، وقال : أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبدا . وقال مضاء بن عيسى : مافاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء .

[وكان إبراهيم يقول : فروا من الناس كفراركم من الأسد الضارى ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة . وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يحدثه إبراهيم ، وكان إذا حضر فى مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا . وربما تسامر هو وسفيان الثورى فى الليلة الشاتية إلى الصباح ، وكان الثورى يتحرز معه فى الكلام ، ورأى رجلا قيل له : هذا قاتل خالك ، فذهب إليه فسلم عليه وأهدى له وقال : بلغنى أن الرجل لا يبلغ درجة اليقين حتى يأمنه عدوه . وقال له رجل : طوبى لك أفنيت عمرك فى العبادة وتركت الدنيا والزوجات . فقال : ألك عيال ؟ قال : نعم . فقال : لروعة الرجل بعياله - يعنى فى بعض الأحيان من الفاقة - أفضل من عبادة كذا وكذا سنه . ورآه الأوزاعى ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا . فقال له : اسكت يا أبا عمرو ! فقد بلغنى أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة فى طلب الحلال وجبت له الجنة . وخرج ابن أدهم من بيت المقدس فمر بطريق فأخذته المسلحة فى الطريق فقالوا : أنت عبد ؟ قال : نعم . قالوا : آبق ؟ قال نعم . فسجنوه . فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاؤا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا : علام سجنت إبراهيم بن أدهم ؟ قال : ماسجنته . قالوا : بلى هو فى سجنك . فاستحضره فقال : علام سجنت . فقال : سل المسلحة ، قالوا : أنت عبد ؟ قلت نعم وأنا عبد الله . قالوا : آبق ؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبى . فخلى سبيله .

وذكروا أنه مرمع رفقة فاذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن أدهم فقال له : يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فعودك على بدئك . قالوا : فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبه ، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال : قولوا : اللهم راعنا بعينك التى لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله ، يا الله ، يا الله . قال خلف بن تميم : فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لى لص ولا غيره .

وقد روى لهذا شواهد من وجوه أخر . وروى أنه كان يصلى ذات ليلة فجاءه .] (١) أسد

(١) سقط من المصرية .

ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه ، وجاء الثانى ففعل مثل ذلك ، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك ، واستمر إبراهيم فى صلاته ، فلما كان وقت السحر قال لهم : إن كنتم أمرتم بشئ فهلموا ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا . وصعد مرة جبلا بمكة ومعه جماعة فقال لهم : لو أن وليا من أولياء الله قال لجبل زل لزال . فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال : اسكن فانما ضربتك مثلا لأصحابى . وكان الجبل أبا قبيس . وركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء ، وأيقظوه وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذه شدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك . فصار البحر كأنه قدح زيت . وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حمله دينارين وألح عليه ، فقال له : اذهب معى حتى أعطيك ديناريك ، فأتى به إلى جزيرة فى البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قد ملئ دنانير ، فقال له : خذ حقك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد . وقال حذيفة المرعشى : أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً ، فقال لى : كأنك جائع . قلت : نعم . فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال ، المشار إليه بكل معنى ،

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر * أنا جائع أنا حاسر أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك وهج نار خضتها * فأجر عبيدك من دخول النار

ثم قال لى : اخرج بهذه الرقعة ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه . فخرجت فاذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إلى ستمائة دينار وانصرف ، فسألت رجلا من هذا الذى على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصرانى . فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يجئ فيسلم . فما كان غير قريب حتى جاء فأكب على رأس إبراهيم وأسلم . وكان إبراهيم يقول : دارنا أمامنا وحياتنا بعد وفاتنا . فاما إلى الجنة وإما إلى النار . مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له هول المضجع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون . ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خر مغشيا عليه . ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له : لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تنس ما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع فى البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك من يموت ولا يدرى أين يذهب به إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساء . ثم قال : أوّه أوّه ! ثم خرّ مغشياً عليه . وكان يقول : مالنا نشكو فقرنا إلى

مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : ثكلت عبداً أمه أحب الدنيا ونسي ما في خزائن مولاه وقال : إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف ترضى من هو بأمورك قائماً . ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . وقال : إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبح شين المعصية .

وكتب إلى الثوري : من عرف مايطلب هان عليه مايبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وسأله بعض الولاة من أين معيشتك ؟ فأنشأ يقول :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لما توعد الدنيا به من شرورها * يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنها * لأروح مما كان فيه وأوسع
إذا أبصر الدنيا استهل كأنما * يرى ماسيلقى من أذاها ويسمع

وكان يتمثل أيضا :

رأيت الذنوب تميت القلوب * ويورثها الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وما أفسد الدين إلا ملوك * وأحبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس فلم يربحوا * ولم يغل بالبيع أثمانها
لقد رتع القوم في جيفة * تبين لذى اللب أنتانها

وقال : إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل ، فكر في ذنبك وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك ، واقطع الطمع إلا من ربك . وقال : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك ، ذم مولانا الدنيا فمدحناها ، وأبغضها فأحببناها ، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها ، ووعدكم بخراب الدنيا فحصنتموها ، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها ، وأنذركم الكنوز فكنزتموها ، دعتكم إلى هذه الغرارة دواعيها ، فأجبتم مسرعين مناديها ، خدعتكم بغرورها ، ومنتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها تتمرغون في زهراتها وزخارفها ، وتتنعمون في لذاتها وتتقلبون في شهواتها ، وتتلوثون بتبعاتها ، تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها . وشكى إليه رجل كثرة عياله فقال : ابعث إلي منهم من لا رزقه على الله . فسكت الرجل . وقال : مررت في بعض جبال فإذا حجر مكتوب عليه بالعربية :

كل حيّ وإن بقى * فمن العيش يستقى

فاعمل اليوم واجتهد * واحذر الموت يا شقى

قال : فبينا أنا واقف أقرأ وأبكى ، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال : مم تبكى ؟ فقلت : من هذا . فأخذ بيدى ومضى غير بعيد فاذا بصخرة عظيمة مثل المحراب فقال اقرأ وابك ولا تقصر . وقام هو يصلى فاذا فى أعلاه نقش بين عربى :

لا تبغين جاهاً وجاهك ساقط * عند المليك وكن لجاهك مصلحا

وفى الجانب الآخر نقش بين عربى :

من لم يثق بالقضاء والقدر * لاقى هموماً كثيرة الضرر

وفى الجانب الأيسر منه نقش بين عربى :

ما أزين التقى وما أقبح الخنا * وكل مأخوذ بما جنا * وعند الله الجزا

وفى أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر :

انما الفوز والغنى * فى تقى الله والعمل (١)

قال : فلما فرغت من القراءة التفت فاذا ليس الرجل هناك ، فما أدرى انصرف أم حجب عنى . وقال : أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان ، ومن وفى العمل وفى له الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير . وقال : كل سلطان لا يكون عادلا فهو واللص بمنزلة واحدة ، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة ، وكل من خدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة . وقال : ما ينبغى لمن ذل لله فى طاعته أن يذل لغير الله فى مجاعته ، فكيف بمن هو يتقلب فى نعم الله وكفايته ؟ وقال : أعربنا فى كلامنا فلم نلحن ، ولحنا فى أعمالنا فلم نعرب . وقال : كنا إذا رأينا الشاب يتكلم فى المجلس أيسنا من خيره . وقال : جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنا القاضى أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين الأسترابادى قال : أنبأ عبد الله بن محمد الحميدى الشيرازى أنبأ القاضى أحمد بن خرزاد الأهوازى حدثنى على بن محمد القصرى حدثنى أحمد بن محمد الحلبى سمعت سريا السقطى يقول سمعت بشر ابن الحارث الحافى يقول : قال إبراهيم بن أدهم : وقفت على راهب فأشرف على فقلت له : عظنى فأنشأ يقول :

خذ عن الناس جانباً * كى يعدوك راهبا

(١) قد صححنا هذه الأبيات من الحلية لأبى نعيم فى ترجمة ابن أدهم .

إن دهراً أظلنى * قد أرانى العجائبا
قلب الناس كيف شئـ * ـت تجدهم عقاربا

قال بشر فقلت لا براهيم : هذه موعظة الراهب لك ، فعظنى أنت . فأنشأ يقول :

توحش من الاخوان لا تبغ مونساً * ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحبا
وكن سامرى الفعل من نسل آدم * وكن أوحديا ما قدرت مجانبا
فقد فسد الاخوان والحب والاخا * فلست ترى إلا مذوقا وكاذبا
فقلت ولولا أن يقال مدهده * وتنكر حالاتى لقد صرت راهبا

قال سرى : فقلت لبشر : هذه موعظة إبراهيم لك فعظنى أنت ، فقال : عليك بالخمول ولزوم بيتك . فقلت بلغنى عن الحسن أنه قال : لولا الليل وملاقاة الاخوان ما باليت متى مت . فأنشأ بشر يقول :

يا من يسر برؤية الاخوان * مهلا أمنت مكايد الشيطان
خلت القلوب من المعاد وذكره * وتشاغلوا بالحرص والخسران
صارت مجالس من ترى وحديثهم * فى هتك مستور وموت جنان

قال الحلبى فقلت لسرى : هذه موعظة بشر فعظنى أنت . فقال : عليك بالاخمال فقلت أحب ذاك ، فأنشأ يقول :

يا من يروم بزعمه إخمالا * إن كان حقا فاستعد خصالا
ترك المجالس والتذاكر يا أخى * واجعل خروجك للصلاة خيالا
بل كن بها حياً كأنك ميت * لا يرتجى منه القريب وصالا

قال على بن محمد القصرى : قلت للحلبى هذه موعظة سرى لك فعظنى أنت . فقال : يا أخى أحب الأعمال إلى الله ما صعد إليه من قلب زاهد فى الدنيا، فازهد فى الدنيا يحبك الله . ثم أنشأ يقول:

أنت فى دار شتات * فتأهب لشتاتك * واجعل الدنيا كيوم * صمته عن شهواتك
واجعل الفطر إذا * ما صمته يوم وفاتك

قال ابن خرزاد فقلت لعلى : هذه موعظة الحلبى لك فعظنى أنت . فقال لى : احفظ وقتك واسخ بنفسك لله عز وجل ، وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سرك ويذكو به ذكرك . ثم أنشدنى :

حياتك أنفاس تعد فكلما * مضى نفس منها انتقصت به جزءا
فتصبح فى نقص وتمسى بمثله * ومالك معقول تحس به رزءا
يميتك ما يحييك فى كل ساعة * ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا

قال أبو محمد قلت لأحمد : هـذه موعظة على لك فعظنى . فقال : يا أخى عليك بلزوم الطاعة وإياك أن تفارق باب القناعة ، وأصلح مثواك ، ولا تؤثر هواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، واشتغل بما يعنيك بترك مالا يعنيك . ثم أنشدنى :ــ

ندمت على ما كان منى ندامة * ومن يتبع ما تشتهى النفس يندم
فخافوا لكيما تأمنوا بعد موتكم * ستلقون ربا عادلا ليس يظلم
فليس لمغرور بدنياه زاجر * سيندم إن زلت به النعل فاعلموا

قال ابن زامين فقلت لأبى محمد : هـذه موعظة أحمد لك فعظنى أنت . فقال : اعلم رحمك الله أن الله عز وجل ينزل العبيـد حيث نزلت قلوبهـم بهمومها ، فانظر أين ينزل قلبك ، واعـلم أن الله سبحانه يقرب من القلوب على حسب ما تقرب منه ، وتقرب منه على حسب ما قرب إليها . فانظر من القريب من قلبك . وأنشدنى :

قلوب رجال فى الحجاب نزول * وأرواحهم فيها هناك حلول
تروح نعيم الأنس فى عز قربه * بافراد توحيد الجليل تحول
لهم بفناء القرب من محض بره * عوائد بذل خطبهن جليل

قال الخطيب : فقلت لابن زامين : هذه موعظة الحيدى لك فعظنى أنت . فقال : اتق الله وثق به ولا تتهمه فان اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدنى :

اتخذ الله صاحبا * ودع الناس جانبا
جرب الناس كيف شئـ * ـت تجدهم عقاربا

قال أبو الفرج غيث الصورى : فقلت للخطيب : هـذه موعظة ابن زامين لك فعظنى أنت . فقال : احذر نفسك التى هى أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها ، فذاك أعضل دائك ، واستشرف الخوف من الله تعالى بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها ، فانها الأمارة بالسوء والفحشاء ، والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء ، واعمـد فى جميع أمورك إلى تحرى الصدق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سـبيل الله . وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل جنـة الخلد قراره ومأواه ثم أنشد لنفسه :

إن كنت تبغى الرشاد محضا * فى أمر دنياك والمعاد
فخالف النفس فى هواها * إن الهوى جامع الفساد

قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفى سنة ثلثين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى وستين وقيل سنة ثلاث . والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . وذكروا أنه توفى فى جزيرة من

جزائر بحر الروم وهو مرابط ، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة مات نحواً من عشرين مرة ، وفى كل مرة يجدد الوضوء بعدهذا ، وكان به البطن ، فلما كانت غشية الموت قال : أوتروا لى قوسى ، فأوتروه فقبض عليه فمات وهو قابض عليه يريد الرمى به إلى العدو رحمه الله وأكرم مثواه .

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابى : حدثنا محمد بن على بن يزيد الصائغ قال سمعت الشافعى يقول : كان سفيان معجباً به :

[أجاعتهم الدنيا فخافوا ولم يزل * كذلك ذوالتقوى عن العيش ملجما
أخو طىء داود منهم ومسعر * ومنهم وهيب والعريب ابن أدهما
وفى ابن سعيد قدوة البر والنهى * وفى الوارث الفاروق صدقا مقدما
وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه * ويوسف ان لم يأل أن يتسلما
أولئك أصحابى وأهل مودتى * فصلى عليهم ذو الجلال وسلما
فما ضر ذا التقوى نصال أسنة * وما زال ذو التقوى أعز وأكرما
وما زالت التقوى تريك على الفتى * إذا محض التقوى من العز ميسما

وروى البخارى فى كتاب الأدب عن إبراهيم بن أدهم وأخرج الترمذى فى جامعه حديثا معلقا فى المسح على الخفين . والله سبحانه أعلم .] (١)

وفيها توفى أبو سليمان داود بن نصير الطائى الكوفى الفقيه الزاهد ، أخذ الفقه عن أبى حنيفة . قال سفيان بن عيينة : ثم ترك داود الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه . قال عبد الله بن المبارك : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائى . وقال ابن معين : كان ثقة ، وفد على المهدى ببغداد ثم عاد إلى الكوفة . ذكره الخطيب البغدادى . وقال : مات فى سنة ستين ومائة ، وقيل فى سنة ست وخمسين ومائة . وقد ذكر شيخنا الذهبى فى تاريخه أنه توفى فى هذه الحجة ـ أعنى سنة ثنتين وستين ومائة ـ فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة ﴾

فيها حصر المقنع الزنديق الذى كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأنام ، والسفلة من العوام ، فلما كان فى هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحريثى فألح عليه فى الحصار ، فلما أحس بالغلبة تحسى سما وسم نساءه فماتوا جميعاً ، عليهم لعائن الله . ودخل الجيش الاسلامى قلعته فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدى ، وكان المهدى بحلب . قال ابن خلكان : كان اسم المقنع عطاء ، وقيل حكيم ، والأول أشهر . وكان أولا قصاراً ثم ادعى الربوبية ، مع أنه كان أعور قبيح المنظر ، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب ، وتابعه على جهالته خلق

(١) زيادة من المصرية .

كثير ، وكان يرى الناس قمراً يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب ، فعظم اعتقادهم له ومنعوه بالسلاح ، وكان يزعم لعنه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً أن الله ظهر فى صورة آدم ، ولهذا سجدت له الملائكة ، ثم فى نوح ، ثم فى الأنبياء واحداً واحداً ، ثم تحول إلى أبى مسلم الخراسانى ، ثم تحول إليه . ولما حاصره المسلمون فى قلعته التى كان جددها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنام ، تحسى هو ونساؤه سماً فماتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله

وفيها جهز المهدى البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم ، وأمّر على الجميع ولده هارون الرشيد ، وخرج من بغداد مشيعاً له ، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادى ، وكان فى هذا الجيش الحسين بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك ـ وهو مثل الوزير للرشيد ولى العهد ـ ويحيى بن خالد ـ وهو كاتبه وإليه النفقات ـ وما زال المهدى مع ولده مشيعاً له حتى بلغ الرشيد إلى بلاد الروم ، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية فى بلاد الروم ، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم فى جحافل عظيمة ، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة ، وغنموا أموالا جزيلة جداً ، وكان لخالد بن برمك فى ذلك أثر جميل لم يكن لغيره ، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدى فأكرمه المهدى وأجزل عطاءه .

وفيها عزل المهدى عمه عبد الصمد بن على عن الجزيرة وولى عليها زفر بن عاصم الهلالى ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن على . وفيها ولى المهدى ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذربيجان وارمينية ، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك ، وولى وعزل جماعة من النواب . وحج بالناس فيها على بن المهدى .

وفيها توفى إبراهيم بن طهمان ، وحريز بن عثمان الحمصى الرحبى ، وموسى بن على اللخمى المصرى وشعيب بن أبى حمزة ، وعيسى بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وإليه ينسب قصر عيسى ، ونهر عيسى ببغداد ، قال يحيى بن معين : كان له مذهب جميل ، وكان معتزلا للسلطان . توفى فى هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة . وهمام بن يحيى ، ويحيى بن أبى أيوب المصرى ، وعبيدة بنت أبى كلاب العابدة ، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت . وكانت تقول : أشتهى الموت فانى أخشى أن أجنى على نفسى جناية تكون سبب هلاكى يوم القيامة .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة ﴾

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميخائيل البطريق فى نحو من تسعين ألفاً ، فيهم طازاذ الأرمنى البطريق ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف راجعا ـ فأراد المهدى ضرب عنقه فكلم فيه فحبسه فى المطبق .

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصراً من ابن بعيسا باذ ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فأصابه حمى فرجع من أثناء الطريق ، فعطش الناس في الرجعة حتى كاد بعضهم يهلك ، فغضب المهدي على يقطين صاحب المصانع ، وبعث من حيث رجع المهلب بن صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ . وفيها توفي شيبان بن عبد الرحمن النحوي ، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة ﴾

فيها جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الصائفة ، وأنفذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلا ، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون دينارا ، ومن الفضة إحدى وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف ، وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم . قاله ابن جرير . فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة أليون ، ومعها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها ، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة ، فقبل ذلك منها ، وذلك بعد ماقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفا وأسر من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وأربعة وأربعين رأسا ، وقتل من الأسرى ألفي قتيل صبراً ، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس ، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس . وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفا بدرهم . فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً * إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها * بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وحج بالناس صالح بن أبي جعفر المنصور ، وفيها توفي سليمان بن المغيرة ، وعبد الله بن العلاء ابن دبر ، وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان . ووهب بن خالد .

﴿ ثم دخلت سنة ست وستين ومائة ﴾

في المحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره . وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ، ولقب بالرشيد . وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظي عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة ، وفي ذلك يقول بشار بن برد : ـ

بني أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا * خليفة الله بين الخمر[1] والعود

(١) رواية ابن جرير : بين الدُّف والعود .

فلم تزل السعاة والوشاة بينه و بين الخليفة حتى أخرجوه عليه ، وكلما سعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره معه ، حتى وقع من أمره ما سأذكره ، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدى فى مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير ، وحول ذلك المكان أصحان مزهرة بأنواع الأزاهير ، فقال : يايعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحسن منه . فقال : هو لك بما فيه ، وهذه الجارية ليتم بها سرورك ، ولى إليك حاجة أحب أن تقضيها . قلت : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حتى تقول نعم . فقلت : نعم ! وعلى السمع والطاعة . فقال ! ألله ؟ فقلت : ألله . قال : وحياة رأسى قلت وحياة رأسك . فقال : ضع يدك على رأسى وقل ذلك ، ففعلت . فقال : إن ههنا رجلا من العلويين أحب أن تكفينيه ، والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب . فقلت : نعم ، فقال : وعجـل على ، ثم أمر بتحويل ما فى ذلك المجلس إلى منزلى وأمر لى بمائة ألف درهم وتلك الجارية ، فما فرحت بشىء فرحى بها . فلما صارت بمنزلى حجبتها فى جانب الدار فى خدر ، فأمرت بذلك العلوى فجىء به فجلس إلى فتكلم ، فما رأيت أعقل منه ولا أفهم . ثم قال لى : يا يعقوب تلقى الله بدمى وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا والله ولكن اذهب حيث شئت وأين شئت . فقال : إنى أختار بلاد كذا وكذا . فقلت : اذهب كيف شئت ، ولا يظهرن عليك المهدى فتهلك وأهلك . فخرج من عندى وجهزت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد ، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علما بما جرى ، وأنها كالجاسوس علـى ، فبعثت بخادمها إلى المهدى فأعلمته بما جرى ، فبعث المهـدى إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوى فحبسه عنده فى بيت من دار الخلافة ، وأرسل إلىّ من اليوم الثانى فذهبت إليه ولم أشعر من أمر العلوى بشىء ، فلما دخلت عليه قال : ما فعل العلوى ؟ قلت : مات . قال : ألله ! قلت ألله . قال : فضع يدك على رأسى واحلف بحياته ، ففعلت . فقال : يا غلام أخرج ما فى هذا البيت ، فخرج العلوى فأسـقط فى يدى ، فقال المهدى : دمك لى حـلال . ثم أمر به فألقى فى بئر فى المطبق . قال يعقوب : فكنت فى مكان لا أسمع فيـه ولا أبصر ، فذهب بصرى وطال شعرى حتى صرت مثل البهائم ، ثم مضت على مدد متطاولة ، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر فقيل لى : سلم على أمير المؤمنين . فسلمت وأنا أظنه المهدى ، فلما ذكرت المهدى قال : رحم الله المهدى . فقلت : الهادى ؟ فقال : رحم الله الهادى . فقلت : الرشـيد ؟ قال نعم . فقلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ماحل بى من الضعف والعلة ، فان رأيت أن تطلقنى . فقال : أين تريد ؟ قلت : مكة . فقال : اذهب راشداً ، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلا حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدى فى تعاطيه شرب النبيذ بين يديه ، وكثرة سماع الغناء فكان

يلومه على ذلك ويقول : ما على هـذا استوزرتنى ، ولا على هذا صحبتك ، أبعـد الصلوات الخمس في المسجد الحرام يشرب الخمر ويغنى بين يديك ؟ فيقول له المهدى : فقد سمع عبـد الله بن جعفر ، فقال له يعقوب : إن ذلك لم يكن له من حسناته ، ولو كان هـذا قربة لكان كلما داوم عليـه العبد أفضل . وفى ذلك يقول بعض الشعراء حثاً للمهدى على ذلك :

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا * وأقبل على صهباء طيبة النشر

وفيها ذهب المهدى إلى قصره المسمى بعيسا باذ - بنى له بالآجر بعد القصر الأول الذى بناه باللبن - فسكنه وضرب هناك الدراهم والدنانير . وفيها أمر المهدى باقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة . وفيها خرج موسى الهادى إلى جرجان . وفيها ولى القضاء أبا يوسف صاحب أبى حنيفة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة . ولم يكن فى هذه السـنة صائفة للهدنة التى كانت بين الرشـيد وبين الروم . وفيها توفى صدقة بن عبـد الله السمين ، وأبو الأشهب العطاردى ، وأبو بكر النهشلى ، وعفير بن معدان .

(ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة) .

فيها وجه المهدى ابنه موسى الهادى إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله ، وجعل على رسائله أبان بن صدقة . وفيها توفى عيسى بن موسى الذى كان ولى العهد من بعـد المهـدى : مات بالكوفة فأشهد نائبها روح بن حاتم عـلى وفاته القاضى وجماعـة من الأعيان ، ثم دفن . وكان قد امتنع من الصلاة عليه فكتب إليه المهدى يعنفه أشد التعنيف ، وأمر بمحاسبته على عمله . وفيها عزل المهدى أبا عبيـد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس الحاجب ، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته . وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، وأظلمت الدنيا حتى كانت كالليل حتى تعالى النهار ، وكان ذلك لليال بقين من ذى الحجة من هذه السنة . وفيها تتبع المهدى جماعة من الزنادقة فى سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه ، وكان المتولى أمر الزنادقة عمر الـكلواذى . وفيها أمر المهدى بزيادة كثيرة فى المسجد الحرام ، فدخل فى ذلك دور كثيرة ، وولى ذلك ليقطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين ، فلم يزل فى عمارة ذلك حتى مات المهدى كما سيأتى . ولم يكن للناس صائفة للهدنة . وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد . وتوفى بعد فراغه من الحج بأيام . وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن على بن عبد الله بن عباس .

وممن توفى فيها من الأعيان .

بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل ، ولد أعمى ، وقال الشعر وهو دون عشر سنين ، وله التشبيهات التى لم يهتد إليها البصراء . وقد أثنى عليه الأصمعى والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة ، وقال

له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر . فلما بلغ المهدى أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات عن بضع وسبعين سنة . وقد ذكره ابن خلكان فى الوفيات ، فقال : بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى مولاهم ، وقد نسبه صاحب الأغانى فأطال نسبه . وهو بصرى قدم بغداد أصله من طخارستان ، وكان ضخما عظيم الخلق ، وشعره فى أول طبقات المولدين ، ومن شعره البيت المشهور :

هل تعلمين وراء الحب منزلة * تُدنى إليك فان الحب أقصانى

وقوله : أنا والله أشتهى سحر عينيـ * ـك وأخشى مصارع العشاق

وله : يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا لم لا ترى عينيك قلت لهم * الأذن كالعين تروى القلب مكانا[1]

وله : إذا بلغ الرأى التشاور فاستعن * بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغلُّ أختها * وما خير سيف لم يؤيد بقائم

كان بشار يمدح المهدى حتى وشى إليه الوزير[2] أنه هجاه وقذفه ونسبه إلى شئ من الزندقة ، وأنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعذر إبليس فى السجود لآدم ، وأنه أنشد :ـ

الأرض مظلمة والنار مشرقة * والنار معبودة مذ كانت النار

فأمر المهدى بضربه فضرب حتى مات . ويقال : إنه غرق ثم نقل إلى البصرة فى هذه السنة .

وفيها توفى الحسن بن صالح بن حي ، وحماد بن سلمة ، والربيع بن مسلم ، وسعيد بن عبد العزيز ابن مسلم ، وعتبة الغلام : وهو عتبة بن أبان بن صممة أحد العباد المشهورين البكائين المذكورين ، كان يأكل من عمل يده فى الخوص ، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح . والقاسم الحذاء ، وأبو هلال محمد بن سليم ، ومحمد بن طلحة ، وأبو حمزة اليشكرى محمد بن ميمون .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة ﴾

فيها فى رمضان منها نقضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذى عقده هارون الرشيد عن أمر أبيه المهدى ، ولم يستمروا على الصلح إلا ثنتين وثلاثين شهراً ، فبعث نائب الجزيرة خيلا إلى الروم فقتلوا وأسروا وغنموا وسلموا . وفيها اتخذ المهدى دواوين الأزمة[3] ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك . وفيها حج بالناس على بن محمد المهدى الذى يقال له ابن ريطة . وفيها توفى الحسن

(١) فى هذا البيت تحريف (٢) بهامش التركية : أى نسب الوزير لبشار .

(٣) ويسمى واحدها (ديوان الزمام) . وروى أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع تفكر فاذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الازمة فى خلافة المهدى .

ابن يزيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ولاه المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه فضربه وحبسه وأخذ جميع ماله . [وحماد عجرد . كان ظريفا ماجناً شاعراً ، وكان ممن يعاشر الوليد ابن يزيد ويهاجي بشار بن برد . وقدم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة . قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء : ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة : حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان النحوي . وكانوا يتشاعرون ويتماجنون .] (١) وخارجة بن مصعب ، وعبد الله بن الحسن ابن الحصين بن أبي الحسن البصري ، قاضي البصرة بعد سوار . سمع خالداً الحذاء وداود بن أبي هند ، وسعيداً الجريري . وروى عنه ابن مهدي . وكان ثقة فقيها له اختيارات تعزى إليه غريبة في الأصول والفروع ، وقد سئل عن مسألة فأخطأ في الجواب فقال له قائل : الحكم فيها كذا وكذا . فأطرق ساعة ثم قال : إذا أرجع وأنا صاغر ، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل . توفي في ذي القعدة من هذه السنة ، وقيل بعد ذلك لعشر سنين فالله أعلم . غوث ابن سليمان بن زياد بن ربيعة أبو يحيى الجرمي ، قاضي مصر ، كان من خيار الحكام ، ولي الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي . [وفليح بن سليمان ، وقيس بن الربيع في قول ، ومحمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة بن مالك ، أبو اليسر العقيلي ، قاضي الجانب الشرقي من بغداد للمهدي ، هو وعافية بن يزيد . وكان يقال لابن علاثة قاضي الجن ، لأنه كانت بئر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال : أيها الجن ! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار . فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء . قال ابن معين : كان ثقة . وقال البخاري : في حفظه شيء .] (٢) .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة ﴾

فيها في المحرم منها توفي المهدي بن المنصور بمكان يقال له ما سبذان ، بالحمى ، وقيل مسموماً وقيل عضه فرس فمات .

﴿ وهذه ترجمته ﴾

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو عبد الله المهدي ، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به ، وإن اشتركا في الاسم فقد افترقا في الفعل ، ذاك يأتي في آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً . وقد قيل إن في أيامه ينزل عيسى بن مريم بدمشق كما سيأتي ذلك في أحاديث الفتن والملاحم . وقد جاء في حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس ، وجاء موقوفا على ابن عباس وكعب الأحبار ولا يصح ، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون على التعيين ، وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم . وأم المهدي بن المنصور أم موسى

(١) زيادة من المصرية . (٢) سقط من المصرية .

بنت منصور بن عبد الله الحميرى . روى عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس « أن رسول الله ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم » . رواه عنه يحيى بن حمزة النهشلى قاضى دمشق ، وذكر أنه صلى خلف المهدى حين قدم دمشق فجهر فى السورتين بالبسملة ، وأسند ذلك عن رسول الله ﷺ ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة ، ورواه المهدى عن المبارك بن فضالة ، ورواه عنه أيضاجعفر ابن سليمان الضبعى ، ومحمد بن عبد الله الرقاشى ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدى.

وكان مولد المهدى فى سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، ولى الخلافة بعد موت أبيه فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة ، ولد بالحميمة من أرض البلقاء ، وتوفى فى المحرم من هذه السنة - أعنى سنة تسع وستين ومائة - عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وبعض شهر ، وكان أسمر طويلا جعد الشعر ، على إحدى عينيه نكتة بيضاء ، قيل على عينه اليمنى ، وقيل اليسرى . قال الربيع الحاجب : رأيت المهدى يصلى فى ليلة مقمرة فى بهو له عليه ثياب حسنة ، فما أدرى هو أحسن أم القمر ، أم بهوه ، أم ثيابه . فقرأ (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) الآية . ثم أمرنى فأحضرت رجلا من أقاربه كان مسجونا فأطلقه . ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما تقدم ، كتم الأمر يومين ثم نودى فى الناس يوم الخميس الصلاة جامعة ، فقام فيهم خطيباً فأعلمهم بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعى فأجاب فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة المسلمين . ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ . وقد عزاه أبو دلامة وهنأه فى قصيدة له يقول فيها : -

عيناى واحدة ترى مسرورة * بأميرها جذلا وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ويسوءها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرماً * ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى * شعراً أرجله وآخر ينتف
هلك الخليفة يال أمة أحمد * وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة * ولذاك جنات النعيم تزخرف

وقد قال المهدى يوماً فى خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهنكم العافية ، وتحمدوا العاقبة ، واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معدلته فيكم ، ويطوى ثوب الاصر عنكم . وأهال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله ، مقدما ذلك على فعل من تقدمه ، والله لأعفين عمرى من عقوبتكم ، ولأحملن نفسى على الاحسان إليكم . قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه . ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التى كانت لا تحد ولا توصف كثرة ، ففرقها

فى الناس ، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئاً ، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال ، لكل واحد خمسمائة فى الشهر غير الأعطيات وقد كان أبو ... ريصاً على توفير بيت المال ، وإنما كان ينفق فى السنة ألفى درهم من مال السراة . وأمر المهدى ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها ، وبنى مدنا ذكرناها فيما تقدم .

وذكر له عن شريك بن عبد الله القاضى أنه لا يرى الصلاة خلفه ، فأحضره فتكلم معه ثم قال له المهدى فى جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال له شريك : مه مه يا أمير المؤمنين . فلقد كانت صوامة قوامة . فقال له : يا زنديق لأقتلنك . فضحك شريك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات ، واتخاذهم القينات . فأطرق المهدى وخرج شريك من بين يديه . وذكروا أنه هاجت ريح شديدة ، فدخل المهدى بيتاً فى داره فألزق خده بالتراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أناذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بى الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك . فقال : هاتها ، فناوله إياها ، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدى : والله إنى لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذه النعل ، فضلا عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ فردها على ، فتصدقه الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالما ، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ، ورأينا هذا أرجح وأصلح .

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها ، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبى هريرة : « لاسبق إلا فى خف أو نعل أو حافر » . وزاد فى الحديث « أو جناح » فأمر له بعشرة آلاف . ولما خرج قال : والله إنى لأعلم أن عتابا كذب على رسول الله ﷺ . ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر عتابا بعدها . وقال الواقدى : دخلت على المهدى يوماً فحدثته بأحاديث فكتبها عنى ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلئ غيظاً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على الخيزران فقامت إلى ومزقت ثوبى وقالت : ما رأيت منك خيراً ، وإنى والله يا واقدى إنما اشتريتها من نخاس ، وقد نالت عندى ما نالت ، وقد بايعت لولديها بامرة المؤمنين من بعدى . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : « إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام » . وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته » . وحدثته فى هذا الباب بكلام حضرنى . فأمر لى بألفى دينار ، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقنى بألفى دينار إلا عشرة دنانير ، وإذا معه أثواب أخر ، وبعثت تشكرنى وتثنى على معروفا .

وذكروا أن المهدى كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف ، فدخل الرجل بغداد متنكراً فلقيه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى · هذا طلبة أمير المؤمنين . وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر ، فبيناهما ، يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما ، إذ مر أمير فى موكبه ـ وهو معن بن زائدة ـ فقال الرجل ! يا أبا الوليد خائف مستجير . فقال معن : ويحك مالك وله ؟ فقال هذا طلبة أمير المؤمنين ، جعل لمن جاء به مائة ألف . قال معن : أما علمت أنى قد أجرته ؟ أرسله من يدك . ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله ، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر ، فبلغ المهدى فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه السلام وقال : يا معن أبلغ من أمرك أن تجير على ؟ قال : نعم قال : ونعم أيضا قال : نعم ! قد قتلت فى دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لى رجل واحد ؟ فأطرق المهدى ثم رفع رأسه إليه وقال : قد أجرنا من أجرت يامعن . فقال : يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف ، فأمر له بثلاثين ألفا . فقال : إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية . فأمر له بمائة ألف ، فحملت بين يدى معن إلى ذلك الرجل ، فقال له معن : خذ المال وادع لأمير المؤمنين وأصلح نيتك فى المستقبل .

وقدم المهدى مرة البصرة فخرج ليصلى بالناس فجاء أعرابى فقال : يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينتظرونى حتى أتوضأ ـ يعنى المؤذنين ـ فأمرهم بانتظاره ، ووقف المهدى فى المحراب لم يكبر حتى قيل له هذا الأعرابى قد جاء . فكبر ، فتعجب الناس من سماحة أخلاقه وقدم أعرابى ومعه كتاب مختوم فجعل يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين إلى ، أين الرجل الذى يقال له الربيع الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة وأوقف الاعرابى وفتح الكتاب فاذا هو قطعة أدم فيها كتابة ضعيفة ، والأعرابى يزعم أن هذا خط الخليفة ، فتبسم المهدى وقال : صدق الأعرابى ، هذا خطى ، إنى خرجت يوماً إلى الصيد فضعت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله ﷺ فرفع لى نار من بعيد فقصدتها فاذا هذا الشيخ وامرأته فى خباء يوقدان نارا ، فسلمت عليهما فردا السلام وفرش لى كساء وسقانى مذقة من لبن مشوب بماء ، فما شربت شيئاً إلا وهى أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أنى نمت أحلى منها . فقام إلى شويهة له فذبحها فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك . فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويهة وقلت له : أعندك شئ أكتب لك فيه كتابا ؟ فأتانى بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف ، وإنما أردت خمسين ألفا ، والله لأنفذنها له كلها ولو لم يكن فى بيت المال سواها . فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابى واستمر مقيما فى ذلك الموضع فى طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يقرى الضيف ومن مرّ به من الناس ، فعرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدى .

وعن سوار ـ صاحب رحبة سوار ـ قال : انصرفت يوماً من عند المهدى فجئت منزلى فوضع لى الغداء فلم تقبل نفسى عليـه ، فدخلت خلوتى لأنام فى القائلة فلم يأخذنى نوم ، فاستدعيت بعض حظاياى لأتلهى بها فلم تنبسط نفسى إليها ، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتى فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقينى رجل ومعه ألفا درهم ، فقلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد . فاستصحبته معى وسرت فى أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد فى بعض الحارات ، فنزلت لأصلى فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قـد أخذ بثيابى فقال : إن لى إليك حاجة ، فقلت : وما حاجتك ؟ فقال : إنى رجل ضرير ولكننى لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة ، فأحببت أن أفضى إليك بحاجتى . فقلت : وما هى ؟ فقال : إن هذا القصر الذى تجاه المسجد كان لأبى فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخـذنى معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابنى أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبى ، فجئت إلى صاحب هـذا القصر أطلب منـه شيئاً أتبلغ به لعلى أجتمع بسوار ، فانه كان صاحباً لأبى ، فلعله أن يكون عنـده سعة يجود منها على . فقلت : ومن أبوك ؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إلى ، فقلت : إنى أنا سوار صاحب أبيك ، وقد منعنى الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجنى من منزلى لأجتمع بك ، وأجلسنى بين يديك ، وأمرت وكيلى فدفع له الألفى الدرهم التى معه . وقلت له : إذا كان الغـد فأت منزلى فى مكان كذا وكذا . وركبت فجئت دار الخلافة وقلت : ما أتحف المهدى الليلة فى السمر بأغرب من هذا . فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر لذلك الأعمى بألفى دينار ، وقال لى : هل عليك دين ؟ قلت نعم ! قال : كم ؟ قلت : خمسون ألف دينار . فسكت وحادثنى ساعة ثم لما قمت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الحمالون قد سبقونى بخمسين ألف دينار وألفى دينار للأعمى ، فانتظرت الأعمى أن يجئ فى ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت عدت إلى المهدى فقال : قد فكرت فى أمرك فوجـدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شئ ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى . فلما كان اليوم الثالث جاءنى الأعمى فقلت : قد رزقنى الله بسببك خيراً كثيراً ، ودفعت له الألفى الدينار التى من عند الخليفة وزدته ألفى دينار من عندى أيضاً .

ووقفت امرأة للمهدى فقالت : يا عصبة رسول الله اقض حاجتى . فقال المهدى : ما سمعتها من أحد غيرها ، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم . ودخل ابن الخياط على المهدى فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول : ـ

أخـذت بكفى كفه أبتغى الغنى • ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منـه ما أفاد ذوو الغنى • أفدت وأعدانى فبددت ماعندى

قال : فبلغ ذلك المهدى فأعطاه بدل كل درهم ديناراً . وبالجملة فان للمهدى مآثر ومحاسن كثيرة ، وقد كانت وفاته بما سبذان ، كان قد خرج إليها ليبعث إلى ابنه الهادى ليحضر إليه من جرجان حتى يخلعه من ولاية العهد ويجعله بعد هارون الرشيد ، فامتنع الهادى من ذلك ، فركب المهدى إليه قاصداً إحضاره ، فلما كان بماسبذان مات بها . وكان قد رأى فى النوم وهو بقصره ببغداد ـ المسمى بقصر السلامة ـ كأن شيخاً وقف بباب القصر ، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول : ـ

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة * وملك إلى قبر عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلائله

فما عاش بعدها إلا عشراً حتى مات . وروى أنه لما قال له الهاتف : ـ

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وقد درست أعلامه ومنازله
فأجابه المهدى: كذاك أمور الناس يبلى جديدها * وكل فتى يوما ستبلى فعائله
فقال الهاتف: تزود من الدنيا فانك ميت * وإنك مسئول فما أنت قائله
فأجابه المهدى: أقول بأن الله حق شهدته * وذلك قول ليس تحصى فضائله
فقال الهاتف : تزود من الدنيا فانك راحل * وقد أزف الأمر الذى بك نازل
فأجابه المهدى: متى ذاك خبرنى هديت فاننى * سأفعل ما قد قلت لى وأعاجله
فقال الهاتف: تلبث ثلاثا بعد عشرين ليلة * إلى منتهى شهر وما أنت كامله

قالوا : فلم يعش بعدها إلا تسعاً وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير اختلافاً فى سبب موته ، فقيل إنه ساق خلف ظبى والكلاب بين يديه فدخل الظبى إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل بمشواره فدخل الخربة فكسر ظهره ، وكانت وفاته بسبب ذلك . وقيل إن بعض حظاياه بعثت إلى أخرى لبنا مسموماً فمر الرسول بالمهدى فأكل منه فمات . وقيل بل بعثت إليها بصينية فيها الكمثرى وفى أعلاها واحدة كبيرة مسمومة ، وكان المهدى يعجبه الكمثرى ، فمرت به الجارية ومعها تلك الصينية فأخذ التى فى أعلاها فأكلها فمات من ساعته ، فجعلت الحظية تندبه وتقول : واأمير المؤمنيناه ، أردت أن يكون لى وحدى فقتلته بيدى . وكانت وفاته فى المحرم من هذه السنة ـ أعنى سنة تسع وستين ومائة ـ وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً ، ورثاه الشعراء بمراثى كثيرة قد ذكرها ابن جرير وابن عساكر .

وفيها توفى عبيد الله بن زياد ، ونافع بن عمر الجمحى ، ونافع بن أبى نعيم القارى .

﴿ خلافة موسى الهادى بن المهدى ﴾

توفى أبوه فى المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة ، وكان ولى العهد من بعد أبيه ، وكان أبوه قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه فى ولاية العهد ، فلم يتفق ذلك حتى مات المهدى بماسبذان . وكان الهادى إذ ذاك بجرجان ، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له ، وكان الرشيد حاضراً ببغداد ، وعزموا على النفقة على الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدى من ذلك . فأسرع الهادى السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر ، فساق منها إليها فى عشرين يوماً ، فدخل بغداد وقام فى الناس خطيباً ، وأخذ البيعة منهم فبايعوه ، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادى حتى حضر بين يديه ، فعفا عنه وأحسن إليه وأقره على حجوبيته ، وزاده الوزارة وولايات أخر . وشرع الهادى فى تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة ، واقتدى فى ذلك بأبيه ، وقد كان موسى الهادى من أفكه الناس مع أصحابه فى الخلوة ، فاذا جلس فى مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه ، لما يعلوه من المهابة والرياسة ، وكان شابا حسناً وقوراً مهيباً .

وفيها – أعنى سنة تسع وستين ومائة – خرج بالمدينة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس فى المسجد النبوى ، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين ، والتف عليه جماعة فبايعوه على الكتاب والسنة والرضى من أهل البيت . وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد لتهنئ الخليفة بالولاية ويعزيه فى أبيه . ثم جرت أمور اقتضت خروجه ، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوى ، ومنعوا الناس من الصلاة فيه ، ولم يجبه أهل المدينة إلى ما أراده ، بل جعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد ، حتى ذكر أنهم كانوا يقذرون فى جنبات المسجد ، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتل من هؤلاء وهؤلاء . ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج ، فبعث إليه الهادى جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه ، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذر مذر . فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان كريما من أجود الناس ، دخل يوما على المهدى فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها فى أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة ، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص ، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص .

وفيها حج بالناس سليمان بن أبى جعفر عم الخليفة . وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معتوق بن يحيى فى جحفل كثيف ، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث . وفيها توفى الحسين بن على بن حسن بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب قتل فى أيام التشريق كما تقدم .

والربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور ، وكان حاجبه ووزيره ، وقد وزر للمهدى والهادى ، وكان بعضهم يطعن فى نسبه . وقد أورد الخطيب فى ترجمته حديثا من طريقه ولكنه منكر ، وفى صحته عنه نظر . وقد ولى الحجوبية بعده ولده الفضل بن الربيع ، ولاه إياها الهادى .

﴿ ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية ﴾

وفيها عزم الهادى على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادى فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب ، واستدعى الهادى جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك ، وأبت ذلك أمهما الخيزران ، وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى ، وكان الهادى قد منعها من التصرف فى شئ من المملكة لذلك ، بعد ما كانت قد استحوذت عليه فى أول ولايته ، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جنابها ، فحلف الهادى لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل منه شفاعة ، فامتنعت من الكلام فى ذلك ، وحلفت لا تكلمه أبدا ، وانتقلت عنه إلى منزل آخر . وألح هو على أخيه هارون فى الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك ـ وكان من أكابر الأمراء الذين هم فى صف الرشيد ـ فقال له : ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابنى جعفر ؟ فقال له خالد : إنى أخشى أن تهون الايمان على الناس ، ولكن المصلحة تقتضى أن تجعل جعفراً ولى العهد من بعد هارون ، وأيضا فانى أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر ، لأنه دون البلوغ ، فيتفاقم الامر ويختلف الناس . فأطرق مليا ـ وكان ذلك ليلا ـ ثم أمر بسجنه ثم أطلقه . وجاء يوما إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً ، فجعل الهادى ينظر إليه مليا ثم قال . يا هارون ! تطمع أن تكون وليا للعهد حقا ؟ فقال : إى والله ، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت ، ولأنصفن من ظلمت ، ولأزوجن بنيك من بناتى . فقال ذاك الظن بك . فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادى ليجلس معه على السرير فجلس معه ، ثم أمر له بألف ألف دينار ، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد ، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه . ففعل ذلك كله ورضى الهادى عن الرشيد . ثم سافر الهادى إلى حديثة الموصل بعد الصلح ، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول ، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وكانت خلافته سنة أشهر[(١)] وثلاثة وعشرون يوما . وكان طويلا جميلا ، أبيض ، بشفته العليا تقلص .

وقد توفى هذه الليلة خليفة وهو الهادى ، وولى خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد . وقد قالت الخيزران أمهما فى أول الليل : إنه بلغنى أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة . يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعى قبل ذلك بمدة ، وقد سرها ذلك جداً . ويقال : إنها

(١) فى المصرية : سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوما .

سمت ولدها الهادى خوفا منه على ابنها الرشيد ، ولأنه كان قد أبعدها وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها فالله أعلم .

﴿ وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادى ﴾

هو موسى بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادى . ولى الخلافة فى محرم سنة تسع وستين ومائة . ومات فى النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل ست وعشرون سنة ، والصحيح الأول ، ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله فى سنه ، وكان حسناً جميلا طويلا ، أبيض ، وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان أبوه يسميه ريحانتى . ذكر عيسى بن دأب قال : كنت يوماً عند الهادى إذ جيء بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا ، لم أر أحسن صوراً منهما ، ولامثل شعورهما ، وفى شعورهما اللآلئ والجواهر منضدة ، ولا رأيت مثل طيب ريحهما . فقال لنا الخليفة : أتدرون ما شأن هاتين ؟ قلت : لا . فقال : إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة ، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءنى فقال : إنهما مجتمعتان ، فجئت فوجدتهما فى لحاف واحد وهما على الفاحشة ، فأمرت بحز رقابهما . ثم أمر برفع رؤسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الاول كأنه لم يصنع شيئاً . وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً ، ومن كلامه : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجانى ، والعفو عن الزلات ، ليقل الطمع عن الملك . وغضب يوما على رجل فاسترضى عنه فرضى ، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادى : إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار . وعزى رجلا فى ولده فقال له : سرك وهو عدو وفتنة ، وساءك وهو صلاة ورحمة . وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبى حفصة أنشد الهادى قصيدة له منها قوله : ــ

تشابه يوما بأسه ونواله * فما أحد يدرى لأيهما الفضل

فقال له الهادى : أيما أحب إليك ؟ ثلاثون ألفا معجلة أو مائة ألف تدور فى الدواوين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تكون ألفا معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين . فقال الهادى : أوأحسن من ذلك ، نعجل الجميع لك . فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة.

قال الخطيب البغدادى : حدثنى الأزهرى ثنا سهل بن أحمد الديباجى ثنا الصولى ثنا الغلابى حدثنى محمد بن عبد الرحمن التيمى المكى حدثنى المطلب بن عكاشة المزنى قال : قدمنا على أبى محمد الهادى شهوداً على رجل منا أنه شتم قريشا وتخطى إلى رسول الله ﷺ ، فجلس لنا مجلسا أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه ، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه . فتغير وجه الهادى ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال : إنى سمعت أبى المهدى يحدث عن أبيه المنصور

عن أبيه على بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشا أهانه الله ، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن آذيت قريشا حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ ؟ اضربوا عنقه . فما برحنا حتى قتل .

توفى الهادى فى ربيع الأول من هذه السنة ، وصلى عليه أخوه هارون ، ودفن فى قصر بناه وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقى من بغداد ، وكان له من الولد تسعة ، سبعة ذكور وابنتان، فالذكور جعفر ، وعباس ، وعبد الله ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وسليمان ، وموسى الأعمى ، الذى ولد بعد وفاته فسمى باسم أبيه . والبنتان هما أم عيسى التى تزوجها المأمون ، وأم العباس تلقب توبة .

﴿ خلافة هارون الرشيد بن المهدى ﴾

بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان عمر الرشيد يومئذ ثنتان وعشرين سنة ، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ، وقد كان الهادى عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد ، وكان الرشيد ابنه من الرضاعة ، فولاه حينئذ الوزارة ، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الانشاء . وكان هو الذى قام خطيباً بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ ، ويقال إنه لما مات الهادى فى الليل جاء يحيى ابن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائما فقال : قم يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : كم تروعنى ، لو سمعك هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبى عنده ؟ فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون فقال : أشر على فى الولايات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد ، فبينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام . فقال : هو عبد الله وهو المأمون . ثم أصبح فصلى على أخيه الهادى ، ودفنه بعيساباذ ، وحلف لا يصلى الظهر إلا ببغداد . فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبى عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادى ، فزاحموا الرشيد على جسر فقال أبو عصمة : اصبر وقف حتى يجوز ولى العهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير . فجاز جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلا . فلما ولى أمر بضرب عنق أبى عصمة ، ثم سار إلى بغداد . فلما انتهى إلى جسر بغداد أستدعى بالغواصين فقال إنى سقط منى ههنا خاتم كان والدى المهدى قد اشتراه لى بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إلى الهادى يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا . فغاص الغواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . ولما ولى الرشيد يحيى بن خالد الوزارة قال له : قد فوضت إليك امر الرعية وخلعت ذلك من عنقى وجعلته فى عنقك ، فول من رأيت واعزل من رأيت . ففى ذلك يقول إبراهيم بن الموصلى : —

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن هارون أمر يحيى بن خالد أن لا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزران . فكانت هى المشاورة فى الأمور كلها ، فتبرم وتحل وتمضى وتحكم .

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوى القربى أن يقسم بين بنى هاشم على السواء . وفيها تتبع الرشيد خلقا من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة . وفيها خرج عليه بعض أهل البيت . وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد ابن زبيدة . وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة . وفيها كمل بناء مدينة طرسوس على يدى فرج الخادم التركى ونزلها الناس . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد ، وأعطى أهل الحرمين أموالا كثيرة ، ويقال إنه غزا فى هذه السنة أيضا . وفى ذلك يقول داود بن رزين الشاعر : ـ

بهارون لاح النور فى كل بلدة * وقام به فى عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغله * وأكثر ما يعنى به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهه * إذا ما بدا للناس منظره البلج
وإن أمين الله هارون ذا الندا * ينيل الذى يرجوه أضعاف مايرجو

وغزا الصائفة فيها سليمان بن عبد الله البكائى .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان ﴾

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدى ، ويقال الفرهودى الأزدى ، شيخ النحاة ، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شميل ، وغير واحد من أكابرهم ، وهو الذى اخترع علم العروض . قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بحراً ، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبب ، وقد قال بعض الشعراء : ـ

قد كان شعر الورى صحيحاً * من قبل أن يخلق الخليل

وقد كان له معرفة بعلم النغم ، وله فيه تصنيف أيضاً ، وله كتاب العين فى اللغة ، ابتدأه وأكمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحاب الخليل ، كمؤرج السدوسى ، ونصر بن على الجهضمى . فلم يناسبوا ما وضعه الخليل . وقد وضع ابن درستويه كتابا وصف فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد . وقد كان الخليل رجلا صالحا عاقلا وقوراً كاملا ، وكان متقللا من الدنيا جداً ، صبوراً على خشونة العيش وضيقه ، وكان يقول : لا يجاوز همى ما وراء بابى ، وكان ظريفاً حسن الخلق ، وذكر أنه اشتغل رجل عليه فى العروض وكان بعيد الذهن فيه . قال فقلت له يوماً : كيف تقطع هذا البيت ؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معى فى تقطيعه على قدر معرفته ، ثم إنه نهض من عندى فلم يعد إلى ، وكأنه فهم ما أشرت

إليه . ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي ﷺ بأحمد سوى أبيه . روى ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم . ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور ، وقيل سنة ستين ، وزعم ابن الجوزى فى كتابه شذور العقود أنه توفى سنة ثلاثين ومائة ، وهذا غريب جداً . والمشهور الأول .

وفيها توفى الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى مولاهم ، المصرى المؤدب راوية الشافعى ، وآخر من روى عنه . وكان رجلا صالحاً تفرس فيه الشافعى وفى البويطى والمزنى وابن عبد الحكم العلم فوافق ذلك ما وقع فى نفس الأمر . ومن شعر الربيع هذا :

صبراً جميلا ما أسرع الفرجا * من صدق الله فى الأمور نجا

من خشى الله لم ينله أذى * ومن رجا الله كان حيث رجا

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزى فانه روى عن الشافعى أيضاً . وقد مات فى سنة ست وخمسين ومائتين والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة ﴾

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة . وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً فى قصر الخلد بين يديه . وفيها خرج الفضل بن سعيد الحرورى فقتل . وفيها قدم روح بن حاتم نائب إفريقية . وفيها خرجت الخيزران إلى مكة فأقامت بها إلى أن شهدت الحج ، وكان الذى حج بالناس فيها عبد الصمد بن على عم الخلفاء .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة ﴾

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذى كان يؤخذ منهم بعد النصف . وفيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موضعاً يسكنه غير بغداد فتشوش فرجع . وفيها حج بالناس يعقوب بن أبى جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن على .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة ﴾

فيها توفى بالبصرة محمد بن سليمان فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التى تصلح للخلفاء ، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والأمتعة وغير ذلك ، فنضدوه ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين . وهو محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وأمه أم حسن بنت جعفر بن حسن بن حسن بن على ، وكان من رجالات قريش وشجعانهم . جمع له المنصور بين البصرة والكوفة ، وزوجه المهدى ابنته العباسة ، وكان له من الأموال شئ كثير ، كان دخله فى كل يوم مائة ألف . وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم ير مثله . وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر ،

وهو حديث مرفوع فى مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه ، ومسح رأس من له أب إلى مؤخر رأسه . وقد وفد على الرشيد فهناه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده فى عمله شيئاً كثيراً . ولما أراد الخروج خرج معه الرشيد يشيعه إلى كلواذا . توفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين سنة ، وقد أرسل الرشيد من اصطفى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار ، ومن الدراهم ستة آلاف ألف ، خارجا عن الأملاك .

وقد ذكر ابن جرير أن وفاته ووفاة الخيزران فى يوم واحد ، وقد وقفت جارية من جواريه على قبره فأنشأت تقول :

أمسى التراب لمن هويت مبيتا * الق التراب فقل له حييتا
إنا نحبك يا تراب وما بنا * إلا كرامة من عليه حثيتا

وفيها توفيت الخيزران جارية المهدى وأم أميرى المؤمنين الهادى والرشيد ، اشتراها المهدى وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين : موسى الهادى والرشيد . ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العبسية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، وهى أم الوليد وسليمان . وكذلك لشاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد ، ولدت لمولاها الوليد بن عبد الملك : مروان وإبراهيم . وكلاهما ولى الخلافة . وقد روى من طريق الخيزران عن مولاها المهدى عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « من اتقى الله وقاه كل شئ » . ولما عرضت الخيزران على المهدى ليشتريها أعجبته إلا دقة فى ساقيها ، فقال لها : يا جاوية إنك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقة ساقيك وخموشهما . فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ماتكون اليهما لا تراهما . فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً . وقد حجت الخيزران مرة فى حياة المهدى فكتب إليها وهى بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر : —

نحن فى غاية السرور ولكن * ليس إلا بكم يتم السرور
عيب مانحن فيه يا أهل ودى * أنكم غُيَّب ونحن حضور
فأجدّوا فى السير بل إن قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته أو أمرت من أجابه :

قدأتانا الذى وصفت من الشو * ق فكدنا وما قدرنا نطير
ليت أن الرياح كن يؤدين * إليكم ماقد يكنُّ الضمير
لم أزل صبة فان كنت بعدى * فى سرور فدام ذاك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذى مات فى اليوم الذى ماتت فيه مائة

وصيفة ، مع كل وصيفة جام من فضة مملوء مسكا . فكتبت إليه : إن كان ما بعثته ثمنا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت ، وقد بخستنا فى الثمن ، و إن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتنى فى المودة . وردت ذلك عليه . وقد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها فى المسجد الحرام .

وكان مغلّ ضياعها فى كل سنة ألف ألف وستين ألفا . واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . وخرج ابنها الرشيد فى جنازتها وهو حامل سريرها يخب فى الطين . فلما انتهى إلى المقبرة أتى بماء فغسل رجليه ولبس خفاً وصلى عليها ، ونزل لحدها . فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات . وأنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندمانى جذيمة برهة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكاً * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وفيها توفيت :

﴿ غادر ﴾

جارية كانت لموسى الهادى ، كان يحبها حبا شديداً جداً ، وكانت تحسن الغناء جداً ، فبينما هى يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه ، فسأله بعض الحاضرين : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخذتنى فكرة أنى أموت وأخى هارون يتولى الخلافة بعدى ويتزوج جاريتى هذه . ففدّاه الحاضرون ودعوا له بطول العمر . ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع فعوذه الرشيد من ذلك ، فاستحلفه الهادى بالأيمان المغلظة من الطلاق والعتاق والحج ماشياً حافياً أن لايتزوجها ، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له ، فلم يكن إلا أقل من شهرين حتى مات ، ثم خطبها الرشيد فقالت : كيف بالايمان التى حلفناها أنا وأنت ؟ فقال : إنى أكفر عنى وعنك . فتزوجها وحظيت عنده جداً ، حتى كانت تنام فى حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها . فبينما هى ذات ليلة نائمة إذ انتبهت مذعورة تبكى ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين رأيت الهادى فى منامى هذا وهو يقول :

أخلفتِ عهدى بعد ما * جاورتُ سكان المقابر

ونسيتنى وحنثت فى * أيمانك الكذب الفواجر

ونكحت غادرة أخى * صدق الذى سماك غادر

أمسيت فى أهل البلى * وعددت فى الموتى الغوابر

لا يهنك الألف الجديـ * ـد ولا تدر عنك الدوائر

ولحقت بى قبل الصبا * ح وصرت حيث غدوتُ صائر

فقال لها الرشيد : أضغاث أحلام . فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ، فكأنما كتبت هذه الأبيات فى قلبى . ثم ما زالت ترتعد وتضطرب حتى ماتت قبل الصباح . وفيها ماتت :

﴿هيلانه﴾ جارية الرشيد ، وهو الذى سماها هيلانة لكثرة قولها هى لانه . قال الأصمعى : وكان لها محباً ، وكانت قبله لخالد بن يحيى بن برمك ، فدخل الرشيد يوما منزله قبل الخلافة فاعترضته فى طريقه وقالت : أمالنا منك نصيب ؟ فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ فقالت : استوهبنى من هذا الشيخ . فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده ، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزنا شديداً ورثاها وكان من قوله فيها : —

قد قلت لما ضمنوك الثرى * وجالت الحسرة فى صدرى

اذهب فلاق الله لا سرنى * بعدك شئ آخر الدهر

وقال العباس بن الأحنف فى موتها :

يامن تباشرت القبور بموتها * قصد الزمان مساءتى فرماك

أبغى الأنيس فما أرى لى مؤنساً * إلا التردد حيث كنت أراك

قال : فأمر له الرشيد بأربعين ألفا ، لكل بيت عشرة آلاف ، فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة النبوية ﴾

فيها وقعت عصبية بالشام وتخبيط من أهلها . وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضى أبى يوسف وأبوه حى . وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم . وفيها حج بالناس الرشيد ، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف وقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة ﴾

فيها أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين ، وعمره إذ ذاك خمس سنين ، فقال فى ذلك سلم الخاسر :

قد وفق الله الخليفة إذ بنى * بيت الخلافة للهجان الأزهر

فهو الخليفة عن أبيه وجده * شهدا عليه بمنظر وبمخبر

قد بايع الثقلان فى مهد الهدى * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقد كان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة فى عبد الله المأمون ، ويقول : والله إن فيه حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة نفس الهادى . ولو شئت أن أقول الرابعة منى لقلت ، وإنى لأقدم محمد بن زبيدة وإنى لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك . ثم أنشأ يقول :

لقد بان وجه الرأى لى غير أننى * غلبت على الأمر الذى كان أحزما
وكيف يرد الدَّر فى الضرع بعدما * توزع حتى صار نهبا مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه * وأن ينقض الأمر الذى كان أبرما

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح ، فى قول الواقدى . وحج بالناس الرشيد . وفيها سار يحيى ابن عبد الله بن حسن إلى الديلم وتحرك هناك . وفيها توفى من الأعيان .

﴿ شعوانة العابدة الزاهدة ﴾

كانت أمة سوداء كثيرة العبادة ، روى عنها كلمات حسان ، وقد سألها الفضيل بن عياض الدعاء فقالت : أما بينك و بينه ما إن دعوته استجاب لك ؟ فشهق الفضيل و وقع مغشيا عليه . وفيها توفى ﴿ الليث بن سعد بن عبد الرحمن ﴾ الفهمى مولاهم . قال ابن خلكان : كان مولى قيس بن رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمى ، كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة ، وولد بقرقشندة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين . وكانت وفاته فى شعبان من هذه السنة ، ونشأ بالديار المصرية . وقال ابن خلكان : أصله من قلقشندة وضبطه بلامين الثانية متحركة . وحكى عن بعضهم أنه كان جيد الذهن ، وأنه ولى القضاء بمصر فلم يحمدوا ذهنه بعد ذلك ، ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، وذلك غريب جداً . وذكروا أنه كان يدخله من ملكه فى كل سنة خمسة آلاف دينار . وقال آخرون : كان يدخله من الغلة فى كل سنة ثمانون ألف دينار . وما وجبت عليه زكاة ، وكان إماماً فى الفقه والحديث والعربية . قال الشافعى : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه . و بعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصفر لأجل جهاز ابنته ، فبعث إليه بثلاثين حملا ، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار ، و بقيت عنده منه بقية . وحج مرة فأهدى له مالك طبقا فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار . وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما يقارب ذلك . وكان يخرج إلى الاسكندرية فى البحر هو وأصحابه فى مركب ومطبخه فى مركب . ومناقبه كثيرة جداً . وحكى ابن خلكان أنه سمع قائلا يقول يوم مات الليث :

ذهب الليث فلا ليث لكم * ومضى العلم غريباً وقبر

فالتفتوا فلم يروا أحداً . وفيها توفى :

﴿ المنذر بن عبد الله بن المنذر ﴾

القرشى ، عرض عليه المهدى أن يلى القضاء و يعطيه من بيت المال مائة ألف درهم ، فقال : إنى عاهدت الله أن لا ألى شيئاً ، وأعيذ أمير المؤمنين بالله أن أخيس بعهدى . فقال له المهدى : الله ؟ قال : الله . قال : انطلق فقد أعفيتك .

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة ﴾

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ببلاد الديلم ، واتبعه خلق كثير وجم غفير ، وقويت شوكته ، وارتحل إليه الناس من الكور والأمصار ، فانزعج لذلك الرشيد وقلق من أمره ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك فى خمسين ألفاً ، وولاه كور الجبل والرى وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك . فسار الفضل بن يحيى إلى تلك الناحية فى أبهة عظيمة ، وكتبُ الرشيد تلحقه مع البرد فى كل منزلة ، وأنواع التحف والبر ، وكاتب الرشيد صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى إليهم ، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يعده ويمنيه ويؤمله ويرجيه ، وأنه إن خرج إليه أن يقيم له العذر عند الرشيد . فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده . فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعا عظيما . وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بنى هاشم ، منهم عبد الصمد بن على ، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز وتحفاً كثيرة إليهم ، ليدفعوا ذلك جميعه إليه . ففعلوا وسلمه إليه فدخلوا به بغداد ، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له فى العطاء ، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة ، بحيث إن يحيى بن خالد كان يقول : خدمته بنفسى وولدى : وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى بالصلح بين العباسيين والفاطميين ، ففى ذلك يقول مروان ابن أبى حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على صنيعه هذا :

ظفرت فلا شلت يد برمكية * رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه * فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة * من المجد باق ذكرها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً * لكم كلما ضُمّت قداح المسام

قالوا : ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه ، ويقال : إنه سجنه ثم استحضره وعنده جماعات من الهاشميين ، وأحضر الأمان الذى بعث به إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحيح هو ؟ قال : نعم ! فتغيظ الرشيد عليه . وقال أبو البخترى : ليس هذا الأمان بشئ فاحكم فيه بما شئت ، ومزق الأمان . وبصق فيه أبو البخترى ، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : هيه هيه ، وهو يبسم تبسم الغضب ، وقال : إن الناس يزعمون أنا سممناك . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحما وحقا ، فعلام تعذبنى وتحبسنى ؟ فرق له الرشيد ، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال : يا أمير المؤمنين لا يغرنك هذا الكلام من هذا ، فانه عاص شاق ، وإنما هذا منه مكر وخبث . وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر

فيها العصيان. فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائى وآباء هذا. ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين لقد جاءنى هذا حين قتل أخى محمد بن عبد الله فقال: لعن الله قاتله، وأنشدنى فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال لى، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال: فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيرى وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب فى ذلك، وتحير الرشيد. ثم قال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال: نعم. وأنشده منها جانباً. فازداد الزبيرى فى الانكار، فقال له يحيى بن عبد الله: فقل: إن كنت كاذبا فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلنى الله إلى حولى وقوتى. فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته. ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله.

وفيها وقعت فتنة عظيمة بالشام بين النزارية، وهم قيس، واليمانية وهم يمن، وهذا كان أول بدو أمر العشيرتين بحوران، وهم قيس ويمن، أعادوا ما كانوا عليه فى الجاهلية فى هذا الآن. وقتل منهم فى هذه السنة بشر كثير. وكان على نيابة الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى، وقيل عبد الصمد بن على فالله أعلم. [وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندى بن سهل أحد موالى جعفر المنصور، وقد هدم سور دمشق حين ثارت الفتنة خوفا من أن يتغلب عليها أبو الهيذام المزى رأس القيسية، وقد كان مزى هذا دميم الخلق. قال الجاحظ: وكان لا يحلف المكارى ولا الملاح ولا الحائك، ويقول: القول قولهم، ويستخير الله فى الحمال ومعلم الكتاب. وقد توفى سنة أربع ومائتين] (١) فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد ورؤس الكتاب، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الرعية، وحملوا جماعات من رؤس الفتنة إلى الرشيد فرد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم، وفى ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجاً * يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها * بخيله وجنوده
فدانت الشام لما * أتى بسنح وحيده
هذا الجواد الذى بذ * كل جود بجوده

(١) سقط من المصرية.

أعـداه جود أبيـه * يحيى وجود جدوده
فجاد موسى بن يحيى * بطارف وتليـده
ونال موسى ذرى المجـ * ـد وهو حشو مهوده
خصصته بمـديحي * منثوره وقصيده
من البرامك عوداً * له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا * خفيفـه ومـديده

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خراسان وولاها حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعى الملقب بالعروس. وفيها ولى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد نيابة مصر، فاستناب عليها جعفر عمر بن مهران، وكان ردئ الخلق ردئ الشكل زمن الكف أحول، وكان سبب ولايته إياها أن نائبها موسى ابن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد. فقال الرشيد: والله لأعزلنه ولأولين عليها أحسن الناس. فاستدعى عمر بن مهران هـذا فولاه عليها عن نائبه جعفر بن يحيى البرمكى. فسار إليها عـلى بغل وغلامه أبو درة عـلى بغل آخر، فدخلها كذلك فانتهى إلى مجلس نائبها موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو، فقال: ألك حاجة يا شيخ؟ قال: نعم أصلح الله الأمير. ثم دفع الكتب إليـه فلما قرأها قال: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم! قال: لعن الله فرعون حين قال: أليس لى ملك مصر؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل منها، وأقبل عمر بن مهران على عمله، وكان لا يقبل شيئاً من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قماشاً، ثم يكتب على كل هدية اسم مهديها، ثم يطالب بالخراج ويلح فى طلبه عليهم، وكان بعضهم يماطله به، فأقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل. فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، وكان يبعث ما جمعه إلى بغداد، ومن ماطله بعثه إلى بغداد. فتأدب الناس معه. ثم جاءهم القسط الثانى فعجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليـه من الهدايا، فان كان نقداً أداه عنهم، وإن كان براً باعه وأداه عنهم، وقال لهم: إنى إنما ادخرت هذا لكم إلى وقت حاجتكم. ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله، ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشـيد أنه إذا مهد البلاد وجبى الخراج، فذاك إذنه فى الانصراف. ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه، وهو منفذ أموره. وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً. وفيها حجت زبيدة زوجة الرشيد ومعها أخوها، وكان أمير الحج سليمان بن أبى جعفر المنصور عم الرشيد. وفيها توفى:

﴿ إبراهيم بن صالح ﴾

ابن على بن عبد الله بن عباس، كان أميراً على مصر، توفى فى شعبان. ﴿ وإبراهيم بن هرمة ﴾

كان شاعراً . وهو إبراهيم بن على بن سلمة بن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهرى المدنى ، وفد على المنصور فى وفد أهل المدينة حين استوفدهم عليه ، فجلسوا إلى ستر دون المنصور ، يرى الناس من ورائه ولا يرونه ، وأبو الخصيب الحاجب واقف يقول : يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب ، فيأمره فيخطب ، ويقول : هذا فلان الشاعر فيأمره فينشد . حتى كان من آخرهم ابن هرمة هذا ، فسمعته يقول : لامرحباً ولا أهلا ولا أنعم الله بك عيناً . قال : فقلت : هلكت ، ثم استنشدنى فأنشدته قصيدتى التى أقول فيها : سرى ثوبه عند الصبا المتجابل[1] * وقرب للبين الخليط المزايل

حتى انتهيت إلى قولى :

فأما الذى أمنته يأمن الردى * وأما الذى حاولت بالثكل ثاكل

قال : فأمر برفع الحجاب فاذا وجهه كأنه فلقة قمر ، فاستنشدنى بقية القصيدة وأمر لى بالقرب بين يديه ، والجلوس إليه ، ثم قال : ويحك يا إبراهيم ! لولا ذنوب بلغتنى عنك لفضلتك على أصحابك ، فقلت : يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغك عنى لم تعف عنه فأنا مقر به . قال : فتناول المخصرة فضربنى بها ضربتين وأمر لى بعشرة آلاف وخلعة وعفا عنى وألحقنى بنظرائى . وكان من جملة مانقم المنصور عليه قوله : ـ ومهما ألام على حبهم * فانى أحب بنى فاطمه

بنى بنت من جاء بالمحكما * ت وبالدين وبالسنة القائمه

فلست أبالى بحبى لهم * سواهم من النعم السائمه

قال الأخفش . قال لنا ثعلب قال الأصمعى : ختمت الشعراء بابن هرمة . ذكر وفاته فى هذه السنة أبو الفرج ابن الجوزى . وفيها توفى الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح ، وسعيد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المدينى ، ولى قضاء بغداد سبعة عشر سنة لعسكر المهدى ، وثقه ابن معين وغيره . وفيها توفى :

﴿ صالح بن بشير المرّى ﴾

أحد العباد الزهاد ، كان كثير البكاء وكان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثورى وغيره من العلماء ، ويقول : سفيان هذا نذير قوم ، وقد استدعاه المهدى ليحضر عنده فجاء إليه راكبا على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه ـ ولىي العهد من بعده موسى الهادى وهارون الرشيد ـ أن يقوما إليه لينزلاه عن دابته ، فابتدراه فأنزلاه ، فأقبل صالح على نفسه فقال : لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق فى هذا اليوم ، وفى هذا المقام . ثم جلس إلى المهدى فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه ، ثم قال له : اعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه فى أمته ، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه ، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة ، وإلا فاستسلم للهلكة ، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضةً صريع هوى بدعته ، واعلم أن الله قاهر فوق عباده ، وأن أثبت الناس قدما

(١) كذا ولعل فيه تحريفاً .

آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكلام طويل . فبكى المهدى وأمر بكتابة ذلك الكلام فى دواوينه .

وفيها توفى عبد الملك بن محمد بن محمد بن أبى بكر عمرو بن حزم قدم قاضيا بالعراق . وفرج بن فضالة التنوخى الحمصى ، كان على بيت المال ببغداد فى خلافة الرشيد ، فتوفى فى هذه السنة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة . ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه : لم لم تقم ؟ قال : خفت أن يسألنى الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك ، وقد كره رسول الله ﷺ القيام للناس . قال : فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه . والمسيب بن زهير بن عمرو أبو سلمة الضبى ، كان والى الشرطة ببغداد فى أيام المنصور والمهدى والرشيد ، وولى خراسان مرة للمهدى . عاش ستا وتسعين سنة . والوضاح بن عبد الله أبو عوانة السرى مولاهم ، كان من أئمة المشايخ فى الرواية . توفى فى هذه السنة وقد جاوز الثمانين .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة ﴾

فيها عزل الرشيد جعفر البرمكى عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان ، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكى مضافا إلى ما كان بيده من الأعمال بالرى وسجستان وغير ذلك . وذكر الواقدى أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة فى أواخر المحرم من هذه السنة ، وكذلك فى أواخر صفر منها . وفيها حج بالناس الرشيد وفيها توفى ﴿ شريك بن عبد الله ﴾ القاضى الكوفى النخعى ، سمع أبا إسحاق وغير واحد ، وكان مشكوراً فى حكمه وتنفيذ الاحكام ، وكان لايجلس للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من خفه فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه ، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما فى تلك الورقة فاذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله اذكر الموقف بين يدى الله عز وجل . كانت وفاته يوم السبت مستهل ذى القعدة منها .

وفيها توفى عبد الواحد بن زيد ، ومحمد بن مسلم وموسى بن أعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة ﴾

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاعة على عامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت فتنة عظيمة . فبعث الرشيد هرثمة بن أعين نائب فلسطين فى خلق من الأمراء مدداً لاسحاق ، فقاتلوهم حتى أذعنوا بالطاعة وأدوا ماعليهم من الخراج والوظائف ، واستمر هرثمة نائباً على مصر نحواً من شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان ، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبد الملك بن صالح . وفيها وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب ، فبعث إليهم الرشيد هرثمة فرجعوا إلى الطاعة على يديه . وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك . وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها ، ثم

مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سنذكره . وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة فيها وبنى فيها الربط والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم له ، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف ، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد ، فكانوا يعرفون بها بالكرمينية ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له * عند الحروب إذا ماتأفل الشهب
حام على ملك قوم عزّ سهمهم * من الوراثة فى أيديهم سبب
أمست يد لبنى ساقى الحجيج بها * كتائب مالها فى غيرهم أرب
كتائب لبنى العباس قد عرفت * ماألّف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين فى عدادهم * من الألوف التى أحصت لها الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم * أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق * يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له مذ شد مئزره * إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها * للطالبين مداها دونها تعب
يعطى النهى حين لا يعطى الجواد ولا * ينبو إذا سلت الهندية القضب
ولا الرضى والرضى لله غايته * إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله * غيث مغيث ولا بحر له حدب

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان :

ألم تر أن الجود من يد آدم * تحدر حتى صار فى راحة الفضل
إذا ما أبو العباس سحت سماؤه * فيالك من هطل ويالك من وبل

وقال فيه أيضا :

إذا أم طفل راعها جوع طفلها * دعته باسم الفضل فاعتصم الطفل
ليحيى بك الاسلام إنك عزه * وإنك من قوم صغيرهم كهل

قال فأمر له بمائة ألف درهم . ذكره ابن جرير . وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً :

وكيف تخاف من بؤس بدار * يجاورها[1] البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى * نفير ما يوازنه نفير
له يومان يوم ندى وبأس * كأن الدهر بينهما أسير

(١) فى المصرية والطبرى : تكنفها .

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر * فهمته أمير أو وزير

وقد اتفق للفضل في هذه السفرة إلى خراسان أشياء غريبة ، وفتح بلادا كثيرة ، منها كابل وما وراء النهر ، وقهر ملك الترك وكان ممتنعا ، وأطلق أموالا جزيلة جداً ، ثم قفل راجعا إلى بغداد ، فلما اقترب منها خرج الرشيد و وجوه الناس إليه ، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس ، فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفذ في ذلك من الأموال شيئا كثيراً لا يمكن حصره إلا بتعب وكلفة ، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال :

كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالد * وجود يديه بخل كل بخيل

فأمر له بمال جزيل . وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم . وغزا الشاتية سليمان ابن راشد . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نائب مكة .

وفيها توفي جعفر بن سليمان ، وعنتر بن القاسم ، وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد ، وصلى عليه الرشيد ودفن بها ، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة ﴾

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمر بن جميل ، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري . وفيها عزل الرشيد خالد بن برمك عن الحجوبة وردها إلى الفضل بن الربيع . وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني ، وكان من أمره ما سيأتي طرف منه . وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه ، فقالت الفارعة في أخيها الوليد ابن طريف ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً * كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى * ولا المال إلا من قنا وسيوف

وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد شكراً لله عز وجل ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة ، فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً ، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة . وفيها توفي :

﴿ إسماعيل بن محمد ﴾

ابن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد ، كان من الشعراء المشهورين المبرزين فيه ، ولكنه كان رافضياً خبيثاً ، وشيعياً غثيثا ، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة - أي بالدور - قال يوماً لرجل : أقرضني ديناراً ولك عندي مائة دينار إذا رجعنا إلى الدنيا . فقال له

الرجل : إنى أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب دينارى .

وكان قبحه الله يسب الصحابة فى شعره . قال الأصمعى : ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً فى طبقته ، ولا سيما الشيخين وابنيهما . وقد أورد ابن الجوزى شيئا من شعره فى ذلك كرهت أن أذكره لبشاعته وشناعته ، وقد اسود وجهه عند الموت وأصابه كرب شديد جداً . ولما مات لم يدفنوه لسبه الصحابة رضى الله عنهم . وفيها توفى ﴿ حماد بن زيد ﴾

أحد أئمة الحديث . وخالد بن عبد الله أحد الصلحاء ، كان من سادات المسلمين ، اشترى نفسه من الله أربع مرات . ومالك بن أنس الامام ، والهقل بن زياد صاحب الأوزاعى ، وأبو الأحوص . وكلهم قد ذكرناهم فى التكميل . ﴿ والامام مالك ﴾

هو أشهرهم وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فهو مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميرى ، أبو عبد الله المدنى إمام دار الهجرة فى زمانه ، روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة ، منهم السفيانان ، وشعبة ، وابن المبارك ، والأوزاعى ، وابن مهدى وابن جريج والليث والشافعى والزهرى شيخه ، ويحيى بن سعيد الأنصارى وهو شيخه ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن يحيى الأندلسى ، ويحيى بن يحيى النيسابورى . قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال سفيان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، إلا أبا أمية . وقال غير واحد : هو أثبت أصحاب نافع والزهرى . وقال الشافعى : إذا جاء الحديث فمالك النجم . وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك . ومناقبه كثيرة جداً ، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر فى هذا المكان . قال أبو مصعب : سمعت مالكا يقول : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك . وكان إذا أراد أن يحدث تنظف وتطيب وسرح لحيته ولبس أحسن ثيابه ، وكان يلبس حسناً . وكان نقش خاتمه حسبى الله ونعم الوكيل ، وكان إذا دخل منزله قال : ما شاء الله لاقوة إلا بالله . وكان منزله مبسوطا بأنواع المفارش . ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يأتى أحداً لا لعزاء ولا لهناء ، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة ، ويقول : ما كل ما يعلم يقال ، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم جعل يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، ثم قبض فى ليلة أربعة عشر من صفر ، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة ، وله خمس وثمانون سنة . قال الواقدى : بلغ سبعين سنة ودفن بالبقيع . وقد روى الترمذى عن سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن أبى الزبير عن أبى صالح عن أبى هريرة : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل

يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » . ثم قال : هذا حديث حسن . وقد روى عن ابن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس . وكذا قال عبد الرزاق . وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمرى . وقد ترجمه ابن خلكان فى الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة .

﴿ ثم دخلت سنة ثمانين ومائة ﴾

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمنية ، فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفر البرمكى إلى الشام فى جماعة من الأمراء والجنود ، فدخل الشام فانقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفا ولا رمحا إلا استلبه من الناس ، وأطفأ الله به نار تلك الفتنة . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانكسارها

رماها بميمون النقيبة ماجد * تراضى به قحطانها ونزارها

ثم كر جعفر راجعا إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى العكى ، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه ، وشرع جعفر يذكر كثرة وحشته له فى الشام ، ويحمد الله الذى من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه . وفيها ولى الرشيد جعفراً خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة ، ثم عزل الرشيد جعفراً عن خراسان بعد عشرين ليلة . وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج ، وجعل الرشيد جعفراً على الحرس ، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقين ، وعزل هرثمة عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس . وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الاسكندرية . وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيبانى فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلى . وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة لبسوا الحمرة واتبعوا رجلا يقال له عمرو بن محمد العمركى ، وكان ينسب إلى الزندقة ، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل وأطفأ الله نارهم فى ذلك الوقت . وفيها غزا الصائفة زفر بن عاصم . وحج بالناس موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان : ﴿ إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى ﴾

قارئ أهل المدينة ومؤدب على بن المهدى ببغداد . وقد مات على بن المهدى فى هذه السنة أيضا . وقد ولى إمارة الحج غير مرة ، وكان أسن من الرشيد بشهور .

﴿ حسان بن أبى سنان ﴾

ابن أبى أوفى بن عوف التنوخى الأنبارى ، ولد سنة ستين ، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء من

نسله قضاة ووزراء وصلحاء، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. وكان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار. وفيها توفي: ﴿ عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد الثقات ﴾

﴿ وعافية بن يزيد ﴾

ابن قيس القاضي للمهدي على جانب بغداد الشرقي، هو وابن علاثة، وكانا يحكمان بجامع الرصافة، وكان عافية عابدا زاهداً ورعاً، دخل يوما على المهدي في وقت الظهيرة فقال: ياأمير المؤمنين اعفني، فقال له المهدي: ولم أعفيك؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء؟ فقال له: لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدى إلى منه طبقا لا يصلح إلا لأمير المؤمنين، فرددته عليه، فلما أصبحنا: وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندي في قلبي ولا نظري، بل مال قلبي إلى المهدي منهما، هذا مع أني لم أقبل منه ما أهداه فكيف لو قبلت منه؟ فاعفني عفا الله عنك فأعفاه. وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ماقيل عنه وهو يجيب عما يسأله. وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية، فقال له الرشيد: لم لم تشمتني مع الناس؟ فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث في ذلك. فقال له الرشيد: ارجع لعملك فوالله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها. ثم رده رداً جميلا إلى ولايته.

وفيها توفي: ﴿ سيبويه ﴾

إمام النحاة، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، المعروف بسيبويه، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل مولى آل الربيع بن زياد، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، ومعنى سيبويه رائحة التفاح، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء، وكان يستملي على حماد بن سلمة، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، ودخل بغداد وناظر الكسائي. وكان سيبويه شاباً حسناً جميلا نظيفا، وقد تعلق من كل علم بسبب، وضرب مع كل أهل أدب بسهم، مع حداثة سنه. وقد صنف في النحو كتابا لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من درره، ولم يبلغوا إلى قعره. وقد زعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه، بل ساعده جماعة في تصنيفه نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم، وهو أصول الخليل، فادعاه سيبويه إلى نفسه. وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة. قال: وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب والأخفش وغيرهما، وكان سيبويه يقول: سعيد بن أبي العروبة، والعروبة يوم الجمعة، وكان يقول: من قال عروبة فقد أخطأ. فذكر ذلك ليونس فقال

أصاب لله دره ، وقد ارتحل إلى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فانه كان يحب النحو فمرض هناك مرضه الذى توفى فيه فتمثل عند الموت :

يؤمل دنيا لتبقى له * فمات المؤمل قبل الأمل

يربى فسيلا ليبقى له * فعاش الفسيل ومات الرجل

ويقال : إنه لما احتضر وضع رأسه فى حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكى فقال :

وكنا جميعاً فرق الدهر بيننا * إلى الأمد الأقصى فمن يأمن الدهرا

قال الخطيب البغدادى : يقال إنه توفى وعمره ثنتان وثلاثون سنة . وفيها توفيت :

﴿ عفيرة العابدة ﴾

كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء . قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكى ، فقيل لها فى ذلك فقالت : لقد ذكرنى قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله ، فمسرور ومثبور . وفيها مات مسلم بن خالد الزنجى شيخ الشافعى ، كان من أهل مكة ، ولقد تكلموا فيه لسوء حفظه

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة ﴾

فيها غزا الرشيد بلاد الروم فافتتح حصنا يقال له الصفصاف ، فقال فى ذلك مروان بن أبى حفصة :

إن أمير المؤمنين المنصفا * قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة . وفيها تغلبت المحمرة على جرجان . وفيها أمر الرشيد أن يكتب فى صدور الرسائل الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عز وجل . وفيها حج بالناس الرشيد وتعجل بالنفر ، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بمكة . وفيها توفى : ﴿ الحسن بن قحطبة ﴾

أحد أكابر الأمراء ، وحمزة بن مالك ، وولى إمرة خراسان فى أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ الحسن بن عرفة عن مائة سنة : ﴿ وعبد الله بن المبارك ﴾

أبو عبد الرحمن المروزى ، كان أبوه تركيا مولى لرجل من التجار من بنى حنظلة من أهل همذان ، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خوارزمية ، ولد اثنان عشرة ومائة ، وسمع إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحميد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . وحدث عنه خلائق من الناس ، وكان موصوفا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر ، له التصانيف الحسان ، والشعر الحسن المتضمن حكما جمة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به فى البلدان ، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه ، وكان يربو كسبه فى كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها فى أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله . قال

سفيان بن عيينة : نظرت فى أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا فى صحبتهم رسول الله ﷺ . وقال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله ، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله فى . ابن المبارك ، ولقد حدثنى أصحابى أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم . وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد ، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله ، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس ؟ فقيل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك لا ملك هارون الرشيد الذى يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بالقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأخى هنا ليس لنا شئ إلا هذا الازار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقال : عد منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو واعطها الباقى . فهذا أفضل من حجنا فى هذا العام ، ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم فى هذا العام على الحج فليأتنى بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها فى صندوق ، ثم يخرج بهم فى أوسع مايكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فاذا قضوا حجتهم فيقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ، فيشترى لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها ، فاذا جاؤا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فاذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم شعثها ، فاذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التى عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم فى الحر الشديد .

وسأله مرة سائل فأعطاه درهما فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فانه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم . وفضائله ومناقبه كثيرة جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله . توفى عبد الله بن المبارك بهيت فى هذه السنة فى رمضانها عن ثلاث وستين سنة

﴿ ومفضل بن فضالة ﴾

ولى قضاء مصر مرتين ، وكان ديناً ثقة ، فسأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهبه ، فكان بعد ذلك لا يهنئه العيش ولا شئ من الدنيا ، فسأل الله أن يرده عليه فرده فرجع إلى حاله .

﴿ ويعقوب التائب ﴾

العابد الكوفى ، قال على بن الموفق عن منصور بن عمار : خرجت ذات ليلة وأنا أظن أنى قد أصبحت ، فاذا على ليل ، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكى وهو يقول : وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سولت لى نفسى ، وغلبتنى شقوتى ، وغرنى سترك المرخى علىّ فلاآن من عذابك من يستنقذنى ؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامى فى معصية ربى ، ياويلى كم أتوب وكم أعود ، قد حان لى أن أستحى من ربى عز وجل . قال منصور فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) قال : فسمعت صوتا واضطرابا شديدا فذهبت لحاجتى ، فلما رجعت مررت بذلك الباب فاذا جنازة موضوعة ، فسألت عنه فاذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة ﴾

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة ، وذلك بالرقة بعد مرجعه من الحج ، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكى وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، وسماه المأمون . وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكى من مجاورته بمكة إلى بغداد . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف . وفيها سملت الروم عينى ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه رينى وتلقب أغسطه . وحج بالناس موسى بن عيسى بن العباس .

وفيها توفى من الأعيان إسماعيل بن عياش الحمصى أحد المشاهير من أئمة الشاميين ، وفيه كلام . ومروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور المشكور ، كان يمدح الخلفاء والبرامكة .

﴿ ومعن بن زائدة ﴾

حصل من الأموال شيئاً كثيراً جداً ، وكان مع ذلك من أبخل الناس ، لا يكاد يأكل اللحم من بخله ، ولا يشعل فى بيته سراجا ، ولا يلبس من الثياب الا الكرباسى والفرو الغليظ ، وكان رفيقه

سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتى عـلى برذون وعليـه حلة تساوى ألف دينار ، والطيب ينفح من ثيابه ، و يأتى هو فى شر حالة وأسوئها . وخرج يوماً إلى المهدى فقالت امرأة من أهله : إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لى منه شيئاً . فقال : إن أعطانى مائة ألف درهم فلك درهم . فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق . توفى ببغداد فى هذه السنة ، ودفن فى مقبرة نصر بن مالك .

{ والقاضى أبو يوسف }

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سـعد بن حسنة ، وهى أمـه ، وأبوه بجير بن معاوية ، استصغر يوم أحد ، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبى حنيفة ، روى الحديث عن الأعمش وهمام ابن عروة ومحمد بن إسحاق و يحيى بن سعيد وغيرهم . وعنه محمـد بن الحسن وأحمد بن حنبل و يحيى ابن معين . قال على بن الجعـد : سمعته يقول : توفى أبى وأنا صغير فأسلمتنى أمى إلى قصار فكنت أمر على حلقة أبى حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمى تتبعنى فتأخذ بيدى من الحلقة وتذهب بى إلى القصار ، ثم كنت أخالفها فى ذلك وأذهب إلى أبى حنيفة ، فلما طال ذلك عليها قالت لأبى حنيفة: إن هذا صبى يتيم ليس له شئ إلا ما أطعمه من مغزلى ، و إنك قد أفسدته على . فقال لها : اسكتى يا رعناء ، هاهوذا يتعلم العلم وسيأ كل الفالوذج بدهن الفستق فى صحون الفيروزج . فقالت له : إنك شيخ قد خرفت . قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء ــ وكان أول من ولاه القضاء الهادى وهو أول من لقب قاضى القضاة ، وكان يقال له : قاضى قضاة الدنيا ، لأنه كان يستنيب فى سائر الأقاليم التى يحكم فيهـا الخليفـة ــ . قال أبو يوسف : فبينا أنا ذات يوم عنـد الرشـيد إذ أتى بفالوذج فى صحن فيروزج فقال لى : كل من هذا ، فانه لايصنع لنا فى كل وقت . وقلت : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال: هذا الفالوذج . قال فتبسمت فقال : مالك تتبسم ؟ فقلت : لا شئ أبقى الله أمير المؤمنين . فقال : لتخبرنى . فقصصت عليـه القصة فقال : إن العـلم ينفع و يرفع فى الدنيا والآخرة . ثم قال : رحم الله أبا حنيفة ، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه . وكان أبو حنيفة يقول عن أبى يوسف : إنه أعـلم أصحابه . وقال المزنى : كان أبو يوسف أتبعهـم للحديث . وقال ابن المدينى : كان صدوقا . وقال ابن معين : كان ثقة . وقال أبو زرعة : كان سليما من التجهم . وقال بشار الخفاف : سمعت أبا يوسف يقول : من قال القرآن مخلوق فحرام كلامـه ، وفرض مباينته ، ولا يجوز السـلام ولا رده عليه . ومن كلامه الذى ينبغى كتابته بماء الذهب قوله : من طلب المال بالكيميا أفلس ، ومن تتبع غرائب الحديث كذب ، ومن طلب العلم بالكلام تزندق . ولما تناظر هو ومالك بالمدينـة بحضرة الرشـيد فى مسألة الصاع و زكاة الخضراوات احتج مالك بما اسـتدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسـلافهم ، و بأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شئ فى زمن الخلفاء الراشـدين . فقال

أبو يوسف : لو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه .

وقـد كان يحضر فى مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم ، حتى إن أحمـد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجالسه فى أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضا . وقال : وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألنى عن جور ولا ميل إلى أحد ، إلا يوما واحداً جاءنى رجل فذكر أن له بستانا وأنه فى يد أمير المؤمنين ، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال : البستان لى اشتراه لى المهـدى . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه . فأحضره فادعى بالبستان فقلت : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هو بستانى . فقلت للرجل : قد سمعت ما أجاب . فقال الرجل : يحلف ، فقلت ، أتحلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثا فان حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين . فعرضتها عليـه ثلاثا فامتنع فحكمت بالبستان للمدعى . قال : فكنت فى أثناء الخصومة أودأن ينفصل ولم يمكنى أن أجلس الرجل مع الخليفة . وبعث القاضى أبو يوسف فى تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافى بن زكريا الجريرى عن محمد بن أبى الأزهر عن حماد بن أبى إسحاق عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبى يوسف . قال : بينا أنا ذات ليلة قد نمت فى الفراش ، إذا رسول الخليفة يطرق الباب ، فخرجت منزعجا فقال : أمير المؤمنين يدعوك ، فذهبت فاذا هو جالس ومعه عيسى ابن جعفر فقال لى الرشيد : إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل ، أو يبيعنيها ، وإنى أشهدك إن لم يجبنى إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى : لم لم تفعل ؟ فقال : إنى حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالى كله أن لا أبيعها ولا أهبها . فقال لى الرشـيد : فهل له من مخلص ؟ فقلت : نعم يبيعك نصفها ويهبك نصفها . فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار ، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ، فلما رآها الرشـيد قال : هل لى من سبيل عليها الليـلة ؟ قلت : إنها مملوكة ولا بد من استبرائها ، إلا أن تعتقها وتتزوجها فان الحرة لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار ، وأمر لى بمائتى ألف درهم وعشرين تختا من ثياب ، وأرسلت إلىّ الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين : كنت عند أبى يوسف فجاءته هدية من ثياب دبيقى وطيب وتماثيل ند وغير ذلك ، فذاكرنى رجل فى إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف : إنما ذاك فى الأقط والتمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا فى ذلك الوقت ماترون ، ياغلام ارفع هذا إلى الخزائن ، ولم يعطهـم منها شيئا . وقال بشر بن غياث المريسى : سمعت أبا يوسف يقول : صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سـنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة ، وما أظن أجلى إلا أن اقترب . فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف فى ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة ، ومكث فى القضاء بعده ولده يوسف . وقد كان نائبه على الجانب الشرقى من بغداد . ومن زعم من الرواة أن الشافعى اجتمع بأبى يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب فى الرحلة التى ساقها الشافعى فقد أخطأ فى ذلك ، إنما ورد [الشافعى] بغداد فى أول قدمة قدمها إليها فى سنة أربع وثمانين . وإنما اجتمع الشافعى بمحمد بن الحسن الشيبانى فأحسن إليه وأقبل عليه ، ولم يكن بينهما شنآن كما يذكره بعض من لا خبرة له فى هذا الشأن والله أعلم . وفيها توفى :

﴿ يعقوب بن داود بن طهمان ﴾

أبو عبد الله مولى عبد الله بن حازم السلمى ، استوزره المهدى وحظى عنده جداً ، وسلم إليه أزمة الأمور ، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوى كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدى فى بئر وبنيت عليه قبة ، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام ، وعمى ، ويقال بل غشى بصره ، ومكث نحواً من خمسة عشر سنة فى ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا فى أوقات الصلوات يعلمونه بذلك ، ويدلى إليه فى كل يوم رغيف وكوز ماء ، فمكث كذلك حتى انقضت أيام المهدى وأيام الهادى وصدر من أيام الرشيد ، قال يعقوب : فأتانى آت فى منامى فقال :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريبُ

فيأمن خائف ويفك عانٍ * ويأتى أهله النائى الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أنى أعلم بوقت الصلاة ، ودلى إلىّ حبل وقيل لى : اربط هذا الحبل فى وسطك ، فأخرجونى ، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً ، وأوقفت بين يدى الخليفة فقيل لى : سلم على أمير المؤمنين ، فظننته المهدى فسلمت عليه باسمه ، فقال : لست به ، فقلت الهادى ؟ فقال : لست به . فقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد . فقال : نعم ، ثم قال لى : والله إنه لم يشفع فيك عندى أحد ، ولكنى البارحة حملت جارية لى صغيرة على عنقى فذكرت حملك إياى على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك . ثم أنعم عليه وأحسن إليه . فغار منه يحيى بن خالد بن برمك ، وخشى أن يعيده إلى منزلته التى كان عليها أيام المهدى ، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد فى الذهاب إلى مكة فأذن له ، فكان بها حتى مات فى هذه السنة رحمه الله . وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً ، ولو رددت إلى مكانى . وفيها ﴿ توفى يزيد بن زريع ﴾ أبو معاوية شيخ الامام أحمد بن حنبل فى الحديث ، كان ثقة عالما عابداً ورعا ، توفى أبوه وكان والى البصرة وترك من المال خمسمائة درهم ، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحدا ، وكان يعمل الخوص بيده ويقتات منه هو وعياله . توفى بالبصرة فى هذه السنة ، وقيل قبل ذلك فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة ﴾

فيها خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية فعاثوا فى تلك البلاد فساداً ، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف ، وقتلوا بشراً كثيراً ، وانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم ، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد فى جيوش كثيرة كثيفة ، فأصلحوا ما فسد فى تلك البلاد . وحج بالناس العباس بن موسى الهادى .

وفيها توفى من الأعيان ﴿ على بن الفضيل بن عياض ﴾ فى حياة أبيه . كان كثير العبادة والورع والخوف والخشية . ﴿ ومحمد بن صبيح ﴾ أبو العباس مولى بنى عجل المذكر . ويعرف بابن السماك . روى عن إسماعيل بن أبى خالد والأعمش والثورى وهشام بن عروة وغيرهم ، ودخل يوما على الرشيد فقال : إن لك بين يدى الله موقفا فانظر أين منصرفك ، إلى الجنة أم النار ؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت .

﴿ وموسى بن جعفر ﴾

ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . أبو الحسن الهاشمى ، ويقال له الكاظم ، ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة ، وكان كثير العبادة والمروءة ، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتحف ، وله من الذكور والاناث أربعون نسمة . وأهدى له مرة عبد عصيدة فاشتراه واشترى المزرعة التى هو فيها بألف دينار وأعتقه ، ووهب المزرعة له . وقد استدعاه المهدى إلى بغداد فحبسه ، فلما كان فى بعض الليالى رأى المهدى علي بن أبى طالب وهو يقول له : يا محمد (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلا فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه ، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده ، فقال : والله ما هذا من شأنى ولا حدثت فيه نفسى ، فقال : صدقت . وأمر له بثلاثة آلاف دينار ، وأمر به فردّ إلى المدينة ، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق ، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فحج ، فلما دخل ليسلم على قبر النبى ﷺ ومعه موسى بن جعفر الكاظم ، فقال الرشيد : السلام عليك يارسول الله يا ابنَ عم . فقال موسى : السلام عليك يا أبت . فقال الرشيد : هذا هو الفخر يا أبا الحسين . ثم لم يزل ذلك فى نفسه حتى استدعاه فى سنة تسع وستين وسجنه فأطال سجنه ، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها : أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينقض عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء ، حتى يفضى بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون . توفى لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور . وفيها توفى :

﴿ هاشم بن بشير بن أبى حازم ﴾

القاسم بن دينار أبو معاوية السلمى الواسطى ، كان أبوه طباخا للحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم كان

بعد ذلك يبيع الكوامخ ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله ، فأبى إلا أن يسمع الحديث . فاتفق أن هاشما مرض فجاءه أبو شيبه قاضي واسط عائداً له ومعه خلق من الناس ، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال : يابني أبلغ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث . كان هاشم من سادات العلماء ، وحدث عنه مالك وشعبة والثوري وأحمد بن حنبل وخلق غير هؤلاء ، وكان من الصلحاء العباد . ومكث يصلي الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت بعشر سنين .

﴿ ويحيى بن زكريا ﴾

ابن أبي زائدة قاضي المدائن ، كان من الأئمة الثقات . ويونس بن حبيب أحد النحاة النجباء ، أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء وغيره ، وأخذ عنه الكسائي والفراء ، وقد كانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والغرباء . توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة ﴾

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذي عليهم ، وولى رجلا يضرب الناس على ذلك ويحبسهم ، وولى على أطراف البلاد . وعزل وولى وقطع ووصل . وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشاري فبعث إليه الرشيد من قبله شهر زور . وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد العباسي . وفيها توفي :

﴿ أحمد بن الرشيد ﴾

كان زاهداً عابداً قد تنسك ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده في الطين ، كان يعمل فاعلا فيه ، وليس يملك إلا مرواً وزنبيلا – أي مجرفة وقفة – وكان يعمل في كل جمعة بدرهم ودانق يتقوت بهما من الجمعة إلى الجمعة ، وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط . ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . وكان من زبيدة في قول بعضهم ، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام ، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتما من ياقوت أحمر ، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها ، بل اختفيا ، وبلغه أنهما ماتا ، ولم يكن الأمر كذلك ، وفحص عنهما فلم يطلع لهما على خبر ، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يعمل في الطين ويأكل مدة زمانية . هذا وهو ابن أمير المؤمنين ، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه في دار من كان يستعمله في الطين فمرضه عنده ، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل : اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له : صاحب هذا الخاتم يقول لك : إياك أن تموت في سكرتك هذه فتندم [حيث لا ينفع نادماً ندمه ، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين ، وأن يكون آخر العهد بك ، فان ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك ، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى] (١) .

(١) سقط من المصرية .

قال : فلما مات دفنته وطلبت الحضور عند الخليفة ، فلما أوقفت بين يديه قال : ماحاجتك ؟ قلت : هـذا الخاتم دفعه إلى رجل وأمرنى أن أدفعـه إليك ، وأوصانى بكلام أقوله لك ، فلما نظر الخاتم عرفه فقال : ويحك وأين صاحب هذا الخاتم ؟ قال فقلت : مات يا أمير المؤمنين . ثم ذكرت الـكلام الذى أوصانى به ، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل فى كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق ، أو بدرهم ودانق ، يتقوت به سائر الجمعـة ، ثم يقبل عـلى العبادة . قال : فلما سمع هذا الـكلام قام فضرب بنفسـه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول : والله لقـد نصحتنى يابنى ، ثم بكى ، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال : أتعرف قبره ؟ قلت : نعم ! أنا دفنتـه . قال : إذا كان العشى فائتنى . قال : فأتيته فذهب إلى قبره فلم يزل يبكى عنده حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم . وكتب له ولعياله رزقاً . وفيها مات :

﴿ عبد الله بن مصعب ﴾

ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشى الأسدى ، والد بكار . ألزمه الرشيد بولاية المدينـة فقبلها بشروط عدل اشترطها ، فأجابه إلى ذلك ، ثم أضاف إليـه نيابة اليمن ، فكان من أعدل الولاة ، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة .

﴿ وعبد الله بن عبد العزيز العمرى ﴾

أدرك أبا طوالة ، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد ، وكان عابداً زاهداً ، وعظ الرشيد يوما فأطنب وأطيب . قال له وهو واقف على الصفا : أتنظر كم حولها - يعنى الكعبة - من الناس ؟ فقال : كثير . فقال : كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاء كثيراً ، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعـه . ثم قال له : ياهارون إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليـه ، فكيف بمن يسرف فى أموال المسلمين كلهـم ؟ ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكى . وله معه مواقف محمودة غير هذه . توفى عن ست وستين سنة .

﴿ ومحمد بن يوسف بن معدان ﴾

أبو عبد الله الأصبهانى ، أدرك التابعين ، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة . كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد . وقال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أفضل منه ، كان كأنه قد عاين . وقال ابن مهدى : ما رأيت مثله ، وكان لا يشترى خبزه من خباز واحد ، ولا بقله من بقال واحد ، كان لا يشـترى إلا ممن لايعرفه ، يقول : أخشى أن يحابونى فأكون ممن يعيش بدينـه . وكان لايضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاء . ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة ﴾

فيها قتل أهل طبرستان متوليهم مهرويه الرازي ، فولى الرشيد عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي . وفيها قتل عبد الرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج القلعة . وفيها عاث حمزة الشاري ببلاد باذغيس من خراسان ، فنهض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم ، وسار وراء حمزة إلى كابل وزابلستان . وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوى أمره . وفيها توفي يزيد بن مزيد ببرذعة ، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن يزيد . واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له ، ثم رابط بجنده إلى وقت الحج . وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي :

﴿ عبد الصمد بن علي ﴾

ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور . ولد سنة أربع ومائة ، وكان ضخم الخلق جداً ولم يبدل أسنانه ، وكانت أصولها صفيحة واحدة ، قال يوماً للرشيد : يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين ، وعم عمه ، وعم عم عمه ، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد ، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان ، وعبد الصمد بن علي عم السفاح ، وتلخيص ذلك أن عبد الصمد عم عم الرشيد لأنه عم جده . روى عبد الصمد عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إن البر والصلة ليطيلان الأعمار ، ويعمران الديار ، ويثريان الأموال ، ولو كان القوم فجاراً » . وبه أن رسول الله ﷺ قال : « إن البر والصلة ليخففان الحساب يوم القيامة » ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) . وغير ذلك من الأحاديث .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، المعروف بالامام ، كان على إمارة الحاج ، وإقامة سقايته في خلافة المنصور عدة سنين . توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من هذه السنة ، ودفن بالعباسية .

وفيها توفي من مشايخ الحديث تمام بن إسماعيل ، وعمرو بن عبيد . والمطلب بن زياد . والمعافى ابن عمران . في قول . ويوسف بن الماجشون . وأبو إسحاق الفزاري إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة .

﴿ ورابعة العدوية ﴾

وهي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية العابدة المشهورة . ذكرها أبو نعيم في الحلية والرسائل ، وابن الجوزي في صفوة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف ، والقشيري . وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، واتهمها بالزندقة ،

فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهروردى فى المعارف : ــ

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى * وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس موانس * وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقد ذكروا لها أحوالا وأعمالا صالحة ، وصيام نهار وقيام ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة فالله أعلم . توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة ﴾

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبى الخصيب إلى نسا فقاتله بها ، وسبى نساءه وذراريه . واستقامت خراسان . وحج بالناس فيها الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وذلك أنه كان يعطى الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهم ، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهم . وكان إلى الأمين ولاية الشام والعراق ، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق . ثم تابع الرشيد لولده القاسم من بعد ولديه ، ولقبه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه القاسم هذا كان فى حجر عبد الملك بن صالح ، فلما بايع الرشيد لولديه كتب إليه : ــ

يا أيها الملك الذى * لو كان نجماً كان سعدا

اعقد لقاسم بيعة * واقدح له فى الملك زندا

الله فرد واحد * فاجعل ولاة العهد فردا

ففعل الرشيد ذلك ، وقد حمده قوم على ذلك ، وذمه آخرون . ولم ينتظم للقاسم هذا أمر ، بل اختطفته المنون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار . ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من الأمراء والوزراء ، وأحضر وليى العهد محمداً الأمين وعبد الله المأمون . وكتب بمضمون ذلك صحيفة ، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها فى الكعبة فسقطت فقيل : هذا أمر سريع انتقاضه . وكذا وقع كما سيأتى . وقال إبراهيم الموصلى فى عقد هذه البيعة فى الكعبة :

خير الأمور مغبة * وأحق أمر بالتمام

أمر قضى أحكامه الر * حمن فى البلد الحرام

وقد أطال القول فى هذا المقام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزى فى المنتظم .

﴿ وفيها توفى من الأعيان ﴾

أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو ريان فى رمضان منها . وحسان بن إبراهيم قاضى

كرمان عن مائة سنة .

﴿ وسلم الخاسر الشاعر ﴾

وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى به ديوان شعر لامرئ القيس ، وقيل لأنه أنفق مائتى ألف فى صناعة الأدب . وقد كان شاعراً منطيقاً له قدرة على الانشاء على حرف واحد ، كما قال فى موسى الهادى :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر كم اعتبر ثم فتر وكم قدر ثم غفر عدل السير باقى الأثر
خير البشر فرع مضر بدرٌ بدر لمن نظر هو الوزر لمن حضر والمفتخر لمن غبر

وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق ، وأنه كان من تلاميذ بشار ابن برد ، وأن نظمه أحسن من نظم بشار ، فما غلب فيه بشاراً قوله :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فقال سلم من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

فغضب بشار وقال : أخذ معانى كلامى فكساها ألفاظا أخف من ألفاظى . وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحواً من أربعين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك . ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبى الشمر الغسانى ، فغنى إبراهيم الموصلى يوما الرشيد فأطر به فقال له : سل . فقال : يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً ليس فيه من مالك شئ ، ولا أرزأوك شيئاً سواه . قال : وماهو ؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر ، وأنه لم يترك وارثا . فأمر له بها . ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار .

﴿ والعباس بن محمد ﴾

ابن على بن عبد الله بن عباس عم الرشيد ، كان من سادات قريش ، ولى إمارة الجزيرة فى أيام الرشيد ، وقد أطلق له الرشيد فى يوم خمسة آلاف ألف درهم ، وإليه تنسب العباسية ، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة ، وصلى عليه الامين .

﴿ ويقطين بن موسى ﴾

كان أحد الدعاة إلى دولة بنى العباس ، وكان داهية ذا رأى ، وقد احتال مرة حيلة عظيمة لما حبس مروان الحمار إبراهيم بن محمد بحرّان ، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يولون ، ومن يكون ولى الأمر من بعده إن قتل ؟ فذهب يقطين هذا إلى مروان فوقف بين يديه فى صورة تاجر فقال : يا أمير المؤمنين إنى قد بعت إبراهيم بن محمد بضاعة ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك ، فان رأى أمير المؤمنين أن يجمع بينى وبينه لأطالبه بمالى فعل . قال : نعم ! فأرسل به إليه مع غلام ، فلما رآه قال : يا عدو الله إلى من أوصيت بعدك آخذ مالى منه ؟ فقال له : إلى ابن الحارثية ـ يعنى أخاه عبد الله السفاح ـ فرجع يقطين إلى الدعاة إلى بنى العباس فأعلمهم بما قال ، فبايعوا السفاح ، فكان من أمره

ما ذكرناه .   ﴿ ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة ﴾

فيها كان مهلك البرامكة على يدى الرشـيد ، قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، ودمر ديارهم واندرست آثارهم ، وذهب صغارهم وكبارهم . وقد اختلف فى سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره ، قيل إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكى ليسجنه عنده ، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه ، فنمّ الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فقال له الرشيد : ويلك لاتدخل بينى وبين جعفر ، فلعله أطلقه عن أمرى وأنا لا أشعر . ثم سأل الرشـيد جعفراً عن ذلك فصـدقه فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه ، وكره البرامكة ، ثم قتلهم وقلاهم بعد ما كانوا أحظى الناس عنده ، وأحبهم إليه ، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشـيد من الرضاعة ، وقد جعلهم الرشـيد من الرفعة فى الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهـم من الوزراء ولا لمن بعـدهم من الأكابر والرؤساء ، بحيث إن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وكان ذلك من جملة مانقمه عليه الرشيد . ويقال : إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لايمر ببلد ولا إقليم ولاقرية ولامزرعة ولابستان إلا قيل هـذا لجعفر ، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة . وقيل إنما قتلهم بسبب العباسة . ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره .

وذكر ابن الجوزى أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال : لو أعلم أن قيصى يعلم ذلك لأحرقته . وقـد كان جعفر يدخل على الرشـيد بغير إذن حتى كان يدخل عليـه وهو فى الفراش مع حظاياه ـ وهذه وجاهة ومنزلة عالية ـ وكان عنده من أحظى العشراء على الشراب المسكر ـ فان الرشيد كان يستعمل فى أواخر أيام خلافته المسكر ـ وكان أحب أهله إليه أخته العباسة بنت المهدى ، وكان يحضرها معه ، وجعفر البرمكى حاضر أيضاً معـه ، فزوجه بها ليحل النظر إليها ، واشترط عليه أن لا يطأها . وكان الرشيد ربما قام وتركهما وهما ثملان من الشراب فربما واقعها جعفر فحبلت منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواريها إلى مكة ، وكان يربى بها .

وذكر ابن خلكان أن الرشيد لما زوج أخته العباسة من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفا من الرشيد ، فاحتالت عليه ـ وكانت أمه تهدى له فى كل ليلة جمعة جارية حسناء بكرا ـ فقالت لأمه : أدخلينى عليـه بصفة جارية . فهابت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك . فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعها فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمه فقال : بعتينى والله برخيص . ثم إن والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد فى النفقة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرات ، ثم أفشت له سر العباسـة ، فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به إلى مكة حج عام ذلك حتى تحقق الأمر . ويقال:

إن بعض الجوارى نمّت عليها إلى الرشيد وأخبرته بما وقع ، وأن الولد بمكة وعنده جوار وأموال وحلى كثيرة . فلم يصدق حتى حج فى السنة الخالية ، ثم كشف الأمر عن الحال ، فاذا هو كما ذكر . وقد حج فى هذه السنة التى حج فيها الرشيد يحيى بن خالد ، فجعل يدعو عند الكعبة : اللهم إن كان يرضيك عنى سلب جميع مالى وولدى وأهلى فافعل ذلك وأبق علىّ منهم الفضل ، ثم خرج . فلما كان عند باب المسجد رجع فقال : اللهم والفضل معهم فانى راض برضاك عنى ولا تستثن منهم أحداً .

فلما قفل الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب فى السفن إلى العمر من أرض الأنبار ، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجند ، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلا ، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب ، وأبو ركانة الأعمى المغنى الكلوذانى ، وهو فى أمره وسروره ، وأبو زكانة يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فقال الخادم له : يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقك ، أجب أمير المؤمنين . فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصى إليهم ويودعهم ، فقال : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص . فأوصى وأعتق جميع مماليكه أو جماعة منهم ، وجاءت رسل الرشيد تستحثه فأخرج إخراجاً عنيفا ، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذى فيه الرشيد ، فحبسه وقيده بقيد حمار ، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل ، فأمر بضرب عنقه ، فجاء السياف إلى جعفر فقال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن آتيه برأسك . فقال : يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران ، فاذا صحا عاتبك فى ، فعاوده . فرجع إلى الرشيد فقال : إنه يقول : لعلك مشغول . فقال : يا ماص بظر أمه ائتنى برأسه . فكرر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد فى الثالثة : برئت من المهدى إن لم تأتنى برأسه لأبعثن من يأتينى برأسك ورأسه . فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه ، وأرسل الرشيد من ليلته البرد بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها ، ومن كان منهم بسبيل . فأخذوا كلهم عن آخرهم . فلم يفلت منهم أحد . وحبس يحيى بن خالد فى منزله ، وحبس الفضل بن يحيى فى منزل آخر . وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا ، وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى ، وشقت الجثة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل ، والآخر عند الجسر الآخر ، ثم أحرقت بعد ذلك . ونودى فى بغداد : أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم ، إلا محمد بن يحيى بن خالد فانه مستثنى منهم لنصحه للخليفة . وأتى الرشيد بانس بن أبى شيخ كان يتهم بالزندقة ، وكان مصاحباً لجعفر ، فدار بينه وبين الرشيد كلام ، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفا وأمر بضرب عنقه به . وجعل يتمثل ببيت قيل فى قتل أنس قبل ذلك :

تلحظ السيف من شوق إلى أنس * فالسيف يلحظ والأقدار تنتظر

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب ، فقال الناس : إن السيف كان للزبير بن العوام . ثم شحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها ، وزالت عنهم النعمة . وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل جعفراً في آخره ، هو وإياه راكبين في الصيد في أوله ، وقد خلا به دون ولاة العهود ، وطيبه في ذلك بالغالية بيده ، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال : لولا أن الليلة ليلة خلوتي بالنساء ما فارقتك ، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشا حتى تكون على مثل حالي ، فأكون أنا وأنت في اللذة سواء . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أشتهي ذلك إلا معك . فقال : لا ! انصرف إلى منزلك . فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره . وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ، وقيل إنها أول ليلة من صفر في هذه السنة ، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة ، ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال : قتل الله ابنه . ولما قيل له : قد خربت دارك قال : خرب الله دوره . ويقال : إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها ، وانتهب ما فيها . قال : هكذا تقوم الساعة . وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما جرى له ، فكتب إليه جواب التعزية : أنا بقضاء الله راض ، وباختياره عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد . وما يغفر الله أكثر ولله الحمد . وقد أكثر الشعراء من المراثي في البرامكة فمن ذلك قول الرقاشي ، وقيل إنها لأبي نواس :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا * وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أمنت من السُّرى * وطيِّ الفيافي فدفداً بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر * ولن تظفري من بعده بمسود

وقل للعطايا بعد فضل تعطلي * وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونك سيفاً برمكيا مهنداً * أصيب بسيف هاشمي مهند

وقال الرقاشي ، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه :

أما والله لولا خوف واش * وعين للخليفة لا تنام

لطفنا حول جذعك واستلمنا * كما للناس بالحجر استلام

فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى * حساما فلّه السيف الحسام

على اللذات والدنيا جميعاً * ودولة آل برمك السلام

قال فاستدعاه الرشيد فقال له : كم كان يعطيك جعفر كل عام ؟ قال : ألف دينار . قال : فأمر له

بألفي دينار . وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قال : لما قتل الرشيد جعفراً وقفت امرأة على حمار فاره فقالت بلسان فصيح : والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت في المكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولما رأيت السيف خالط جعفراً * ونادى مناد للخليفة في يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنت أنما * قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا

وما هي إلا دولة بعد دولة * تخوّل ذا نعمى وتعقب ذا بلوى

إذا أنزلت هذا منازل رفعة * من الملك حطت ذا إلى الغاية القصوى

قال : ثم حركت حمارها فذهبت فكأنها كانت ريحا لا أثر لها ، ولا يعرف أين ذهبت .

وذكر ابن الجوزي أن جعفراً كان له جارية يقال لها فتينة مغنية ، لم يكن لها في الدنيا نظير ، كان مشتراها عليه بمن معها من الجواري مائة ألف دينار ، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك ، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجلس شرابه وعنده جماعة من جلسائه وسمّاره ، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغني ، حتى انتهت النوبة إلى فتينة ، فأمرها بالغناء فأسبلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد غضباً شديداً ، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له ، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه : لا تطأها . ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرها . فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضي عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد أشد من غضبه في المرة الأولى وقال : النطع والسيف ، وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد : إذا أمرتك ثلاثا وعقدت أصابعي ثلاثا فاضرب . ثم قال لها غني : فبكت وقالت : أما بعد السادة فلا . فعقد أصبعه الخنصر ، ثم أمرها الثانية فامتنعت ، فعقد اثنتين ، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الاشفاق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغني لئلا تقتل نفسها ، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد . ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة :

لما رأيت الدنيا قد درست * أيقنت أن النعيم لم يعد

قال فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر ، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوار من حولها ، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث .

وروى أن الرشيد كان يقول : لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم .

وحكى ابن خلكان أن جعفراً اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار ، فالتفتت إلى بائعها وقالت : اذكر العهد الذي بيني وبينك ، لا تأكل من ثمني شيئاً . فبكى سيدها وقال : اشهدوا أنها

حرة ، وأنى قد تزوجتها . فقال جعفر : اشهدوا أن الثمن له أيضا . وكتب إلى نائب له : أما بعد فقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فأما أن تعدل ، وإما أن تعتزل . ومن أحسن ما وقع منه من التلطف في إزالة هم الرشيد ، وقد دخل عليه منجم يهودي فأخبره أنه سيموت في هذه السنة ، فحمل الرشيد هماً عظيما ، فدخل عليه جعفر فسأله : ما الخبر ؟ فأخبره بقول اليهودي فاستدعى جعفر اليهودي فقال له : كم بقي لك من العمر ؟ فذكر مدة طويلة . فقال : يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن عمره . فأمر الرشيد باليهودي فقتل ، وسرى عن الرشيد الذي كان فيه .

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، وذلك أنه حزن على البرامكة ، ولا سيما على جعفر ، كان يكثر البكاء عليهم ، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم ، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته : ائتني بسيفي ، فيسله ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ، فأكثر أن يقول ذلك ، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم ، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة ، فاستدعى به فاستخبره فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم فجاء به فشهد ، فقال الرشيد : لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي ، لعلهما قد تواطآ على ذلك . فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال : ويحك يا إبراهيم ! إن عندي سراً أحب أن أطلعك عليه ، أقلقني في الليل والنهار . قال : وما هو ؟ قال : إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أني خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فاني لم أجد بعدهم لذة ولا راحة . فقال : رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله . فقال له : قم لعنك الله ، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام . وسلم أهله وولده .

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة ، واشتد غضبه بسببه على البرامكة الذين هم في الحبوس ، ثم سجنه فلم يزل في السجن حتى مات الرشيد فأخرجه الأمين وعقد له على نيابة الشام . وفيها ثارت العصبية بالشام بين المضرية والنزارية ، فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فانهدم بعض سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل . وفيها بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة ، وجعله قرباناً ووسيلة بين يديه ، وولاه العواصم ، فسار إلى بلاد الروم فحاصرهم حتى افتدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم ، ففعل ذلك . وفيها نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين ، الذي كان عقده الرشيد بينه وبين رني ملكة الروم الملقبة أغسطه . وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور ، وكان شجاعا ، يقال إنه

من سلالة آل جفنة ، فخلعوا ربى وسملوا عينيها . فكتب نقفور إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هذا فاردد إلى ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ، ولا يستطيع مخاطبته ، وأشفق عليه جلساؤه خوفا منه ، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ماتراه دون ما تسمعه والسلام . ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها ، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق ، فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه فى كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك . فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق ، وكان البرد قد اشتد جداً ، فلم يقدر أحد أن يجىء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد ، حتى يخرج فصل الشتاء . وحج بالناس فيها عبد الله بن عباس بن محمد بن على .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان ﴾

جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكى الوزير ابن الوزير ، ولاه الرشيد الشام وغيرها من البلاد ، وبعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة المشيران بحوران بين قيس ويمن ، وكان ذلك أول نار ظهرت بين قيس ويمن فى بلاد الاسلام ، كان خامداً من زمن الجاهلية فأثاروه فى هذا الأوان ، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور ، وقيلت فى ذلك أشعار حسان ، قد ذكر ذلك ابن عساكر فى ترجمة جعفر من تاريخه منها :ـ

لقد أوقدت فى الشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهباتها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانجبارها
هو الملك المأمول للبر والتقى * وصولاته لايستطاع خطارها

وهى قصيدة طويلة ، وكانت له فصاحة وبلاغة وذكاء وكرم زائد ، كان أبوه قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف فتفقه عليه ، وصار له اختصاص بالرشيد ، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شىء منها عن موجب الفقه . وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثابت كاتب الوحى . قال قال رسول الله

ﷺ : « إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه » . رواه الخطيب وابن عساكر من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم ، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي - وقد كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن زريق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به . وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر للرشيد : يا أمير المؤمنين ! قال لي أبي يحيى : إذا أقبلت الدنيا عليك فاعط ، وإذا أدبرت فاعط ، فانها لا تبقى ، وأنشدني أبي :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
فان تولت فأحرى أن تجود بها * فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب : ولقد كان جعفر من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفرد بها ، ولم يشاركه فيها أحد . وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر . وكان أيضاً من ذوي الفصاحة والمذكورين بالبلاغة .

وروى ابن عساكر عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته فاقة وضائقة ، وكان عليه ديون ، فألح عليه المطالبون وعنده سفط فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف ، فأتى به جعفراً فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن ، وأخبره بالحاح المطالبين بديونهم ، وأنه لم يبق له سوى هذا السفط . فقال : قد اشتريته منك بألف ألف ثم أقبضه المال وقبض السفط منه ، وكان ذلك ليلا . ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه في السمر تلك الليلة ، فلما رجع إلى منزله إذا السفط قد سبقه إلى منزله أيضاً . قال فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأتشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه ، فقال له جعفر : إني قد ذكرت أمرك للفضل ، وقد أمر لك بألف ألف . وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك ، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين . فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار .

وكان جعفر ليلة في سمره عند بعض أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال لم إن الناس يقولون : من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه . فأمر له جعفر بألف دينار . ثم عادت الخنفساء ، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى .

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه : انظر جارية أشتريها تكون فائقة في الجمال والغناء والدعابة ، ففتش الرجل فوجد [جارية] على النعت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر ، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها ، فلما غنته أعجبته أكثر ، فساومه صاحبها فيها ، فقال له جعفر : قد أحضرنا مالا فان أعجبك وإلا زدناك ، فقال لها سيدها : إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور ، وإنه قد انقبض علي حالي ، وإني قد أحببت أن

أبيعك لهذا الملك ، لكى تكونى عنده كما كنت عندى . فقالت له الجارية : والله يا سيدى لو ملكت منك كما ملكت منى لم أبعك بالدنيا ومافيها ، وأين ما كنت عاهدتنى أن لا تبيعنى ولا تأكل من ثمنى . فقال سيدها لجعفر وأصحابه : أشهدكم أنها حرة لوجه الله ، وأنى قد تزوجتها . فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال . فقال جعفر : والله لا يتبعنى ، وقال للرجل : قد ملكتك هذا المال فأنفقه على أهلك ، وذهب وتركه .

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل ، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا . وروى ابن عساكر من طريق الدارقطنى بسنده أنه لما أصيب جعفر وجدوا له فى جرّة ألف دينار ، زنة كل دينار مائة دينار ، مكتوب على صفحة الدينار جعفر

وأصفر من ضرب دار الملوك * يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائة واحداً * متى تعطه معسراً يوسر

وقال أحمد بن المعلى الراوية : كتبت عنان جارية الناطفى لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها فى جعفر : —

يا لائمى جهلا ألا تقصر * من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحنى إذا شربت الهوى * صرفاً فممزوج الهوى سكر
أحاط بى الحب فخلفى له * بحر وقدّامى له أبحر
تخفق رايات الهوى بالردى * فوقى وحولى للهوى عسكر
سيان عندى فى الهوى لائم * أقل فيه والذى يكثر
أنت المصفى من بنى برمك * يا جعفر الخيرات يا جعفر
لا يبلغ الواصف فى وصفه * مافيك من فضل ولا يعشر
من وفر المال لأغراضه * فجعفر أغراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه * وفى يديه العارض الممطر
سحت علينا منهما ديمة * ينهل منها الذهب الأحمر
لو مسحت كفاه جلمودة * نضر فيها الورق الأخضر
لا يستتم المجد إلا فتى * يصبر للبذل كما يصبر
يهتز تاج الملك من فوقه * فخراً ويزهى تحته المنبر
أشبهه البدر إذا ما بدا * أو غرة فى وجهه يزهر
والله ما أدرى أبدر الدجى * فى وجهه أم وجهه أنور

يستمطر الزوار منك الندى * وأنت بالزوار تستبشر

وكتبت تحت أبياتها حاجتها ، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها فقال : لا والله لا أشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، واشتهر أمرها وهى التى يقول فيها أبو نواس :

لا يشتريها إلا ابن زانية * أو قلطبان يكون من كانا

ولحن ثمامة بن أشرس قال : بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكى مذعوراً فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخا جاء فأخذ بعضادتى هذا الباب وقال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال فأجبته : بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

قال ثمامة : فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر إليه فتأمله ثم أنشأ يقول :

تقاضاك دهرك ما أسلفا * وكدر عيشك بعد الصفا

فلا تعجبن فان الزمان * رهين بتفريق ما ألفا

قال : فنظرت إلى جعفر وقلت : أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت فى الكرم والجود غاية ، قال : فنظر إلى كأنه جمل صؤول ثم أنشأ يقول : ـ

ما يعجب العالم من جعفر * ما عاينوه فبنا كانا

مَن جعفر أو من أبوه ومن * كانت بنو برمك لولانا

ثم حول وجه فرسه وانصرف .

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة ، ومكث وزيراً سبع عشرة سنة . وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس فى يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به ، فسألوها عن ما كانت فيه من النعمة فقالت : لقد أصبحت فى مثل هذا اليوم وان على رأسى أربعمائة وصيفة ، وأقول إن ابنى جعفراً عاق لى . وروى الخطيب البغدادى باسناده أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفراً وما أحل بالبرامكة ، استقبل القبلة وقال : اللهم إن جعفراً كان قد كفانى مؤنة الدنيا فا كفه مؤنة الآخرة .

﴿ حكاية غريبة ﴾

ذكر ابن الجوزى فى المنتظم أن المأمون بلغه أن رجلا يأتى كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكى عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يئس من الحياة ، فقال له : ويحك اما يحملك على صنيعك هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنهم أسدوا إلى معروفاً وخيراً كثيراً . فقال : وما الذى

أسدوه إليك ؟ فقال : أنا المنذر بن المنير ممن أهل دمشق ، كنت بدمشق فى نعمة عظيمة واسعة ، فزالت عنى حتى أفضى بى الحال إلى أن بعت دارى ، ثم لم يبق لى شئ ، فأشار بعض أصحابى على بقصد البرامكة ببغداد ، فأتيت أهلى وتحملت بعيالى ، فأتيت بغداد ومعى نيف وعشرون امرأة فأنزلتهن فى مسجد مهجور ثم قصدت مسجدا مأهولا أصلى فيه . فدخلت مسجداً فيه جماعة لم أر أحسن وجوهاً منهم ، فجلست إليهم فجعلت أدبر فى نفسى كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال الذين معى ، فيمنعنى من ذلك السؤال الحياء ، فبينا أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم ، فدخلوا داراً عظيمة ، فاذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله ، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا فلق المسك و بنادق العنبر ، ثم جاء الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار ، ومعها فتات المسك ، فأخذها القوم ونهضوا و بقيت أنا جالساً ، و بين يدى الصينية التى وضعوها لى ، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها فى نفسى ، فقال لى بعض الحاضرين : ألا تأخذها وتذهب ؟ فمددت يدى فأخذتها فأفرغت ذهبها فى جيبى وأخذت الصينية تحت إبطى وقمت ، وأنا خائف أن تؤخذ منى ، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلى وأنا لا أشعر ، فلما بلغت الستارة أمرهم فردونى فيئست من المال ، فلما رجعت قال لى : ما شأنك خائف ؟ فقصصت عليه خبرى ، فبكى ثم قال لأولاده : خذوا هذا فضموه إليكم . فجاءنى خادم فأخذ منى الصينية والذهب وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد ، وخاطرى كله عند عيالى ، ولا يمكننى الانصراف ، فلما انقضت العشرة الأيام جاءنى خادم فقال : ألا تذهب إلى عيالك ؟ فقلت : بلى والله ، فقام يمشى أمامى ولم يعطنى الذهب ولا الصينية ، فقلت : يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ منى الصينية والذهب ، ياليت عيالى رأوا ذلك . فسار يمشى أمامى إلى دار لم أر أحسن منها ، فدخلتها فاذا عيالى يتمرغون فى الذهب والحرير فيها ، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وكتابا فيه تمليك الدار بما فيها ، وكتابا آخر فيه تمليك قريتين جليلتين ، فكنت مع البرامكة فى أطيب عيش ، فلما أصيبوا أخذ منى عمرو بن مسعدة القريتين وألزمنى بخراجهما ، فكلما لحقتنى فاقة قصدت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم . فأمر المأمون برد القريتين ، فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال المأمون : مالك ؟ ألم استأنف بك جميلا ؟ قال : بلى ! ولكن هو من بركة البرامكة . فقال له المامون : امض مصاحباً فان الوفاء مبارك ، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الايمان . وفيها توفى :

﴿ الفضيل بن عياض ﴾

أبو على التميمى أحد أئمة العباد الزهاد ، وهو أحد العلماء والأولياء ، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير ، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن

عبد الرحمن وغيرهم . ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلا ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضى عنه . وله مع الرشيد قصة طويلة ، وقد روينا ذلك مطولا فى كيفية دخول الرشيد عليه منزله ، وما قال له الفضيل بن عياض ، وعرض عليه الرشيد المال فأبى أن يقبل منه ذلك . توفى بمكة فى المحرم من هذه السنة . وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق ، وكان يتعشق جارية ، فبينا هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئا يقرأ (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فقال : بلى ! وتاب وأقلع عما كان عليه . ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون : خذوا حذركم إن فضيلا أمامكم يقطع الطريق ، فأمنهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة ، ثم صار علما يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله.

قال الفضيل : لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه ، وقال : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقال له الرشيد يوماً : ما أزهدك ، فقال : أنت أزهد منى ، لأنى أنا زهدت فى الدنيا التى هى أقل من جناح بعوضة ، وأنت زهدت فى الآخرة التى لا قيمة لها ، فأنا زاهد فى الفانى وأنت زاهد فى الباقى ، ومن زهد فى درة أزهد ممن زهد فى بعرة . وقد روى مثل هذا عن أبى حازم أنه قال ذلك لسليمان بن عبد الملك .

وقال : لو أن لى دعوة مستجابة لجعلتها للامام ، لأن به صلاح الرعية ، فاذا صلح أمنت العباد والبلاد . وقال : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى وامرأتى وفأر بيتى [وقال فى قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) . قال : يعنى أخلصه وأصوبه ، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله ، وصوابا على متابعة النبى ﷺ] (١) وفيها توفى :

بشر بن المفضل . وعبد السلام بن حرب . وعبد العزيز بن محمد الدراوردى . وعبد العزيز العمى . وعلى بن عيسى ، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد فى الصائفة . ومعتمر بن سليمان وأبو شعيب البرانى الزاهد ، وكان أول من سكن براثا فى كوخ له يتعبد فيه ، فهويته امرأة من بنات الرؤساء فانخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة ، وتزوجته وأقامت معه فى كوخه تتعبد حتى ماتا ، يقال إن اسمها جوهرة .

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة)

فيها غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النقفور لقتاله فجرح النقفور ثلاث جراح ، وانهزم ، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفا ، وغنموا أكثر من

(١) زيادة من المصرية .

أربعة آلاف دابة . وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق . وفيها حج بالناس الرشيد ، وكانت آخر حجاته . وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج ـ وقد اجتاز بالكوفة ـ لا يحج الرشيد بعدها ، ولا يحج بعده خليفة أبداً . وقد رأى الرشيد بهلول المولّه فوعظه موعظة حسنة ، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال : حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فاذا بهلول المجنون يهذي ، فقلت : اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين ، فسكت . فلما حاذاه الهودج قال : يا أمير المؤمنين حدثني أيمن بن نائل ثنا قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل وتحته رحل رث ، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك . قال الربيع فقلت : يا أمير المؤمنين إنه بهلول ، فقال : قد عرفته ، قل يا بهلول فقال :

هب أن قد ملكت الأرض طراً * ودان لك العباد فكان ماذا
أليس غداً مصيرك جوف قبر * ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال : أجدت يا بهلول ، أفغيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالا فعف في جماله ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئاً ، فقال : إنا أمرنا بقضاء دينك . فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تقتات به . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه سبحانه لا يعطيك وينساني ؛ [وها أنا قد عشت عمراً لم تجر على رزقاً ، انصرف لاحاجة لي في جرايتك . قال : هذه ألف دينار خذها . فقال :ارددها على أصحابها فهو خير لك ، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذيتني . قال : فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا] (١) وممن توفي فيها من الأعيان :

﴿ أبو إسحاق الفزاري ﴾

إبراهيم بن محمد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة ، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك . أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما ، توفي في هذه السنة . وقيل قبلها .

﴿ وإبراهيم الموصلي ﴾

النديم ، وهو إبراهيم بن ماهان بن بهمن أبو إسحاق ، أحد الشعراء والمغنين والندماء للرشيد وغيره ، أصله من الفرس وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء ، ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا : الموصلي . ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد ، وكان من جملة سماره وندمائه ومغنيه ، وقد أثرى وكثر ماله جداً ، حتى قيل إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف

(١) سقط من المصرية .

درهم ، وكانت له طرف وحكايات غريبة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة فى الكوفة ، ونشأ فى كفالة بنى تميم ، فتعلم منهم ونسب إليهم ، وكان فاضلا بارعاً فى صناعة الغناء ، وكان مزوجاً بأخت المنصور الملقب بزلزل ، الذى كان يضرب معه ، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس . توفى فى هذه السنة على الصحيح ، وحكى ابن خلكان فى الوفيات أنه توفى وأبو العتاهية وأبو عمرو الشيبانى ببغداد فى يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين . وصحح الأول . ومن قوله فى شعره عند احتضاره قوله :

ملّ والله طبيبي * من مقاساة الذى بى

سوف أنعى عن قريب * لعــدوٍ وحبيب

وفيها مات جرير بن عبـد الحميد . ورشد بن سعد . وعبدة بن سليمان . وعقبة بن خالد . وعمر ابن أيوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل . وعيسى بن يونس فى قول .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة ﴾

فيها رجع الرشـيد من الحج وسار إلى الرى فولى وعزل . وفيها رد عـلى بن عيسى إلى ولاية خراسان ، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان ، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده ، ودخل إلى بغداد لثلاث بقين من ذى الحجة ، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكى فأحرقت ودفنت ، وكانت مصلوبة من حين قتل إلى هذا اليوم ، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها ، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها ، وقد قال العباس بن الأحنف فى خروجهم من بغداد مع الرشيد :

ما أنخنا حتى ارتحلنا فما نـ * ـفرق بين المناخ والارتحال

ساءلونا عن حالنا إذ قدمنا * فقرنّا وداعهـم بالسؤال

وفيها فادى الرشـيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم ، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيرا من المسلمين . فقال فيه بعض الشعراء :

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها * محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها * وقالوا سجون المشركين قبورها

وفيها رابط القاسم بن الرشـيد بمرج دابق يحاصر الروم . وفيها حج بالناس العباس بن موسى ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان ﴾

على بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسـدى مولاهم ، الكوفى المعروف بالكسائى لاحرامه فى كساء ، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات فى كساء ، كان نحويا لغويا أحد أئمة القراء ، أصله

من الكوفة ثم استوطن بغداد ، فأدب الرشيد و ولده الأمين ، وقد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته ، وكان يقرئ بها ، ثم اختار لنفسه قراءة وكان يقرأ بها . وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبو عبيد . قال الشافعي : من أراد النحو فهو عيال على الكسائي . أخذ الكسائي عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً : عن من أخذت هذا العلم ؟ قال : من بوادي الحجاز . فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً ، ثم عاد إلى الخليل فاذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس ، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها يونس بالفضل ، وأجلسه في موضعه .

قال الكسائي : صليت يوماً بالرشيد فأعجبتني قراءتي ، فغلطت غلطة ما غلطها صبي ، أردت أن أقول لعلهم يرجعون ، فقلت لعلهم ترجعين ، فما تجاسر الرشيد أن يردها . فلما سلمت قال : أي لغة هذه ؟ فقلت : إن الجواد قد يعثر . فقال : أما هذا فنعم . وقال بعضهم : لقيت الكسائي فاذا هو مهموم ، فقلت : مالك ؟ فقال : إن يحيى بن خالد قد وجه إلى ليسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ ، فقلت : قل ما شئت فأنت الكسائي ، فقال : قطعه الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم . وقال الكسائي يوماً قلت لنجار : بكم هذان البابان ؟ فقال : بسالجيان يا مصفعان .

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور ، عن سبعين سنة . وكان في صحبة الرشيد ببلاد الري فمات بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكان الرشيد يقول : دفنت الفقه والعربية بالري . قال ابن خلكان : وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة ، وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجهه كالبدر فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي بالقرآن . فقلت : ما فعل حمزة ؟ قال : ذاك في عليين ، ما نراه إلا كما نرى الكوكب . وفيها توفي :

﴿ محمد بن الحسن بن زفر ﴾

أبو عبد الله الشيباني مولاهم ، صاحب أبي حنيفة . أصله من قرية من قرى دمشق ، قدم أبوه العراق فولد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسعر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول ، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها ، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة ، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله . وكان يقول لأهله : لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي . وخذوا ما شئتم من مالي فانه أقل لهمي وأفرغ لقلبي . وقال الشافعي : ما رأيت حبراً سميناً مثله ، ولا رأيت أخف روحاً منه ، ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته . وقال أيضاً : ما رأيت أعقل منه ، كان يملأ العين والقلب ، قال الطحاوي : كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن

كتاب السير فلم يجبه إلى الاعارة فكتب إليه : ــ

قل للذى لم تر عيناى مثله * حتى كأن من رآه قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله * لعله يبذله لأهله لعله

قال : فوجه به إليه فى الحال هدية لاعارية . وقال إبراهيم الحربى : قيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل الدقاق من أين هى لك ؟ قال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله . وقد تقدم أنه مات هو والكسائى فى يوم واحد من هذه السنة . فقال الرشيد : دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً . وكان عمره ثمانية وخمسين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة ﴾

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه ، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية ، واستفحل أمره ، فسار إليه نائب خراسان على بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به . وفيها سار الرشيد لغزو بلاد الروم لعشر بقين من رجب ، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المعلا الكلابى :

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمر * وفى أرض الترفه فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

فسار حتى وصل إلى الطوانة فعسكر بها وبعث إليه نقفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأس ولده ورأسه ، وأهل مملكته ، فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقلة ، وكان قد خطبها على ولده ، فبعث بها الرشيد مع هدايا وتحف وطيب بعث يطلبه من الرشيد ، واشترط عليه الرشيد أن يحمل فى كل سنة ثلثمائة ألف دينار ، وأن لا يعمر هرقلة . ثم انصرف الرشيد راجعا واستناب على الغزو عقبة بن جعفر . ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى ، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً . وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادى .

﴿ ذكر من توفى فيها من الأعيان والمشاهير ﴾

أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلى الكوفى صاحب أبى حنيفة ، حكم ببغداد وبواسط ، فلما انكف بصره عزل نفسه عن القضاء . قال أحمد بن حنبل : كان صدوقا . ووثقه ابن معين ، وتكلم فيه على بن المدينى والبخارى ﴿ وسعدون المجنون ﴾ صام ستين سنة فخف دماغه فسماه الناس مجنونا ، وقف يوماً على حلقة ذى النون المصرى فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول :

ولا خير فى شكوى إلى غير مشتكى * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر

وقال الأصمعي : مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : مالى أراك عند رأس هـذا الشيخ ؟ فقال : إنه مجنون . فقلت : أنت مجنون أو هو ؟ قال : لا بل هو ، لأنى صليت الظهر والعصر فى جماعة وهو لم يصل جماعة ولا فرادى . وهو مع هـذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها . قلت : فهل قلت فى هذا شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشأ يقول : ـــ

تركت النبيذ لأهل النبيذ * وأصبحت أشرب ماء قراحا
لأن النبيـذ يذل العزيز * ويكسو السواد الوجوه الصباحا
فان كان ذا جائزا للشباب * فما العذر منه إذا الشيب لاحا

قال الأصمعي : فقلت له : صدقت ، أنت العاقل وهو المجنون .

﴿ وعبيدة بن حميد ﴾ بن صهيب ، أبو عبد الرحمن التيمى الكوفى ، مؤدب الأمين . روى عن الأعمش وغيره ، وعنه أحمد بن حنبل . وكان يثنى عليه . وفيها توفى :

﴿ يحيى بن خالد بن برمك ﴾

أبو على الوزير والد جعفر البرمكى ، ضم إليه المهـدى ولده الرشـيد فرباه ، وأرضعته امرأته مع الفضل بن يحيى ، فلما ولى الرشيد عرف له حقه ، وكان يقول : قال أبى ، قال أبى . وفوض إليه أمور الخلافة وأزمتها ، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه يحيى فى الحبس حتى مات فى هذه السنة . وكان كريما فصيحا ، ذا رأى سديد ، يظهر من أموره خير وصلاح . قال يوماً لولده : خـذوا من كل شئ طرفا ، فان من جهل شيئاً عاداه . وقال لأولاده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول لهم : إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وكان إذا سأله سائل فى الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتى درهم . فقال رجل يوماً : ـــ

يا سمى الحصور يحيى * أتيحت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مر فى الطريق عليكم * فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلى قليل * هى للفارس العجلان

فقال : صدقت . وأمر فسبق به إلى الدار ، فلما رجع سأل عنه فاذا هو قـد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف ، وعن دار أربعة آلاف ، وعن الأمتعة أربعة آلاف . وكلفة الدخول أربعة آلاف ، وأربعة آلاف يستظهر بها . وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال : ويحك لقد جئتنى فى وقت لا أملك فيه مالاً ، وقد بعث إلى صاحب لى يطلب منى أن يهدى إلى ما أحب ، وقد بلغنى أنك تريد أن تبيع جارية لك ، وأنك قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار ، وإنى سأطلبها

فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار . فجاؤني فبلغوا معي بالمساومة إلى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، وأجبت إلى بيعها ، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار . فأهداها إلى يحيى ، فلما اجتمعت بيحيى قال : بكم بعتها ؟ قلت : بعشرين ألف دينار . قال : إنك لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلى صاحب فارس يطلب مني أن أستهديه شيئاً ، و إني سأطلبها منه فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار . فجاؤني فوصلوا فى ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار ، فبعتها منهم . فلما جئته لامني أيضاً وردها عليّ ، فقلت : أشهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها ، وقلت : جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم .

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم ، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم ، فضاق ذرعاً ، وقد توعده بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها فى يومه ذلك ، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف ، واستطلق له من ابنه الفضل ألفى ألف ، وقال لابنه : يابنى بلغنى أنك تريد أن تشترى بها ضيعة . وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر . وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف ، ومن جاريته دنانير عقداً اشتراه بمائة ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، وقال للمترسم عليه : قد حسبناه عليك بألفى ألف . فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد ، وكان قد وهبه لجارية يحيى ، فلم يعد فيه بعد إذ وهبه . وقال له بعض بنيه وهم فى السجن والقيود : يا أبت بعد الأمر والنهى والنعمة صرنا إلى هذا الحال ، فقال : يابنى دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون و لم يغفل الله عنها . ثم أنشأ يقول :

رب قوم قد غدوا فى نعمة * زمنا والدهر ريان غدق
سكت الدهر زمانا عنهم * ثم أبكاهم دما حين نطق

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجرى على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعو له فى سجوده يقول : اللهم إنه قد كفانى المؤنة وفرغنى للعبادة فاكفه أمر آخرته . فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه فى المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بدعاء سفيان .

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله فى الحبس فى الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة عن سبعين سنة ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن على شط الفرات ، وقد وجد فى جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : قد تقدم الخصم والمدعا عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك ، و بقى أياماً يتبين الأسى فى وجهه . وقد قال بعض الشعراء فى يحيى بن خالد : ـ

سألت الندا هل أنت حر فقال لا * ولكننى عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء قال لا بل ورائة * توارث رق والد بعد والد

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة ﴾

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف ، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه ، وكتب بالفتح إلى الرشيد . وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام . وفيها وقع الثلج ببغداد . وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيرى فى عشرة آلاف ، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه فى خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس ، وانهزم الباقون ، وولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين ، وضم إليه ثلاثين ألفا فيهم مسرور الخادم ، وإليه النفقات .

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم . وأمر الرشيد بهدم الكنائس والديور ، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيآتهم فى بغداد وغيرها من البلاد . وفيها عزل الرشيد على بن موسى عن إمرة خراسان وولاها هرثمة بن أعين . وفيها فتح الرشيد هرقلة فى شوال وخربها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة ، والكنيسة السوداء . وكان دخل هرقلة فى كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر ، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفى دينار ، باعهم أبو البخترى القاضى .

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدى المأمون . وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن على العباسى ، وكان والى مكة ، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين .

وفيها توفى من الأعيان :

سلمة بن الفضل الأبرش . وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوى عن مالك بن يونس بن أبى إسحاق ، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل ، نحواً من خمسين ألفا فلم يقبله . والفضل بن موسى الشيبانى . ومحمد بن سلمة . ومحمد بن الحسين المصيصى أحد الزهاد الثقات . قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الاعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها توفى معمر الرقى .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة ﴾

فيها دخل هرثمة بن أعين إلى خراسان نائبا عليها ، وقبض على على بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على بعير وجهه لذنبه ونادى عليه ببلاد خراسان ، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره على ذلك ، ثم أرسله إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد . وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطمورة . وفيها كان الصلح بين المسلمين والروم على يد ثابت

ابن نصر . وفيها خرجت الخرمية بالجبل و بلاد أذربيجان . فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس فقتل منهم خلقا وأسر وسبى ذراريهم ، وقدم بهم بغداد فأمر له الرشيد بقتل الرجال منهم ، وبالذرية فبيعوا فيها . وكان قد غزاهم قبل ذلك خزيمة بن خازم . وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمة بن خازم ، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها ، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً لخراسان ، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين ، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين ، فأذن له فسار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاة العهد من بعده ، وأراه داء في جسده ، وقال إن لكل واحد من الأمين والمأمون والقاسم عندي عينا علي ، وهم يعدون أنفاسي و يتمنون انقضاء أيامي ، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون . فدعا له ذلك الأمير ثم أمر له الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه ، وكان آخر العهد به .

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة . وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني . ومات عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق . وفيها حج بالناس العباس ابن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وفيها توفي :

﴿ إسماعيل بن جامع ﴾

ابن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم ، أحد المشاهير بالغناء ، كان ممن يضرب به المثل ، وقد كان أولا يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن ، وذكر عنه أبو الفرج بن علي بن الحسين صاحب الأغاني حكايات غريبة ، من ذلك أنه قال كنت يوماً مشرفاً من غرفة بحران إذ أقبلت جارية سوداء معها قربة تستقي الماء ، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني :

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي * لها عسل مني وتبذل علقما
فردي مصاب القلب أنت قتلته * ولا تتركيه هائم القلب مغرما

قال : فسمعت مالا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت ، فنزلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت : إن علي خراجاً كل يوم درهمين ، فأعطيتها درهمين فأعادته فحفظته وسلكته يومي ذلك ، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين ، ثم قالت : كأنك تستكثر أربعة دراهم ، كأني بك وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار . قال فغنيته ليلة الرشيد فأعطاني ألف دينار ، ثم استعادنيه ثلاث مرات أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار ، فتبسمت فقال : مم تبسمت ؟ فذكرت له القصة فضحك وألقى إلي كيسا آخر فيه ألف دينار . وقال :

لا أكذب السوداء . وحكى عنه أيضاً قال : أصبحت يوماً بالمدينة وليس معى إلا ثلاثة دراهم، فاذا جارية على رقبتها جرة تريد الركى وهى تسعى وتترنم بصوت شجى : -

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا * فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم * سريعاً ولايغشى لناالنوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى * جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما * نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

قال : فاستعدته منها وأعطيتها الدراهم الثلاثة فقالت : لتأخذن بدلها ألف دينار، وألف دينار وألف دينار . فأعطانى الرشيد ثلاثة آلاف دينار فى ليلة على ذلك الصوت . وفيها توفى :

﴿ بكر بن النطاح ﴾ أبو وائل الحنفى البصرى الشاعر المشهور ، نزل بغداد زمن الرشيد ، وكان يخالط أبا العتاهية . قال أبو دفان : أشعر أهل العدل من المحدثين أربعة ، أولهم بكر بن النطاح . وقال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يتناشدون ، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن النطاح لنفسه :

ما ضرها لو كتبت بالرضى * فجف جفن العين أو أغمضا
شفاعة مردودة عندها * فى عاشق يود لو قد قضى
يانفس صبراً واعلمى أنما * يأمل منها مثلما قد مضى
لم تمرض الأجفان من قاتل * بلحظه إلا لأن أمرضا

قال : فابتدروه يقبلون رأسه . ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال :

مات ابن نطاح أبو وائل * بكر فأمسى الشعر قد بانا

وفيها توفى بهلول المجنون ، كان يأوى إلى مقابر الكوفة ، وكان يتكلم بكلمات حسنة ، وقد وعظ الرشيد وغيره كما تقدم . ﴿ وعبد الله بن إدريس ﴾

الأودى الكوفى ، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكا وخلقاً سواهم . وروى عنه جماعات من الأئمة ، وقد استدعاه الرشيد ليوليه القضاء فقال : لا أصلح ، وامتنع أشد الامتناع ، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً ، فطلب حفص بن غياث فقبل . وأطلق لكل واحد خمسة آلاف عوضا عن كلفته التى تكلفها فى السفر ، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس ، وقبل ذلك حفص ، فحلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً . وحج الرشيد فى بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضى أبو يوسف والأمين والمأمون ، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليسمعوا ولديه ، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا ، وعيسى بن يونس . فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من

المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعهما مائة حديث ، فقال له المأمون : ياعم إن أردت أعدتها من حفظى ، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها ، فتعجب لحفظه . ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منـه شيئاً ، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليـه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال : والله لو ملأت لى المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منـه شيئا على حـديث رسول الله ﷺ . ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال : علام تبكين؟ فقد ختمت فى هـذا البيت أربعة آلاف ختمة .

﴿ صعصعة بن سلام ﴾

و يقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقى ، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنها فى زمن عبد الملك ابن معاوية وابنه هشام ، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعى إلى بلاد الأندلس ، وولى الصلاة بقرطبة ، وفى أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعى والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك والأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز . وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه ، وذكره فى كتاب الفقهاء ، وذكره ابن يونس فى تاريخه ـ تاريخ مصر ـ والحميدى فى تاريخ الأندلس ، وحرر وفاته فى هذه السنة . وحكى عن شـيخه ابن حزم أن صعصعة هـذا أول من أدخل مذهب الأوزاعى إلى الأندلس . وقال ابن يونس : أول من أدخل علم الحديث إليها . وذكر أنه توفى قريبا من سنة ثمانين ومائة ، والذى حرره الحميدى فى هذه السنة أثبت

﴿ على بن ظبيان ﴾

أبو الحسن العبسى قاضى الشرقية من بغداد ، ولاه الرشيد ذلك . كان ثقة عالماً من أصحاب أبى حنيفة ، ثم ولاه الرشيد قضاء القضاة ، وكان الرشـيد يخرجه معه إذا خرج من عنده ، مات بقوميسين فى هذه السنة .

﴿ العباس بن الأحنف ﴾

ابن الأسود بن طلحـة الشاعر المشهور ، كان من عرب خراسان ونشأ ببغـداد ، وكان لطيفا ظريفاً مقبولا حسن الشعر . قال أبو العباس قال عبـد الله بن المعتز : لو قيل لى من أحسن الناس شعراً تعرفه ؟ لقلت العباس : —

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا * وفرق الناس فينا قولهم فرقاً

فكاذب قد رمى بالظن غيركم * وصادق ليس يدرى أنه صدقا

وقد طلبه الرشيد ذات ليـلة فى أثناء الليل فانزعج لذلك وخاف نساؤه ، فلما وقف بين يدى الرشيد قال له : ويحك إنه قد عن لى بيت فى جارية لى فأحببت أن تشفعه بمثله ، فقال :يا أمير المؤمنين ما خفت أعظم من هذه الليلة ، فقال : ولم ؟ فذكر له دخول الحرس عليه فى الليل ، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

حنان قد رأيناها فلم نر مثلها بشراً * يزيدك وجهها حسنا إذا مازدته نظرا

فقال الرشيد : زد . فقال :

إذا ما الليل مال عليك بالاظلام واعتكرا * ودج فلم تر قمرا فابرزها تر قمرا

فقال : إنا قد رأيناها ، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم . ومن شعره الذى أقر له فيه بشار ابن برد وأثبته فى سلك الشعراء بسببه قوله :

أبكى الذين أذاقونى مودتهم * حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

واستنهضونى فلما قمت منتصبا * بثقل ما حملونى منهم قعدوا

وله أيضا وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى * جنونا فزدنى من حديثك ياسعد

هواها هوى لم يعرف القلب غيره * فليس له قبل وليس له بعد

قال الأصمعى : دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه * مفرداً يبكى على شجنه

كلما جد النحيب به * زادت الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ثم انتبه بصوت طائر على شجرة فقال :

ولقد زاد الفؤاد شجاً * هاتف يبكى على فننه

شاقه ما شاقنى فبكى * كلنا يبكى على سكنه

قال ثم أغمى عليه أخرى فحركته فاذا هو قد مات . قال الصولى : كانت وفاته فى هذه السنة ، وقيل بعدها ، وقيل قبلها فى سنة ثمان وثمانين ومائة فالله أعلم . وزعم بعض المؤرخين أنه بقى بعد الرشيد .

﴿ عيسى بن جعفر بن أبى جعفر المنصور ﴾

أخو زبيدة ، كان نائبا على البصرة فى أيام الرشيد فمات فى أثناء هذه السنة . وفيها توفى :

﴿ الفضل بن يحيى ﴾

ابن خالد بن برمك أخو جعفر وأخوته ، كان هو والرشيد يتراضعان . أرضعت الخيزران فضلا ، وأرضعت أم الفضل وهى زبيدة بنت بن بريه هارون الرشيد . وكانت زبيدة هذه من مولدات بقبين البرية ، وقد قال فى ذلك بعض الشعراء :

كفى لك فضلا أن أفضل حرة * غذتك بثدى والخليفة واحد

لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها * كما زان يحيى خالداً فى المشاهد

قالوا : وكان الفضل أكرم من أخيه جعفر ، ولكن كان فيه كبر شديد ، وكان عبوساً ، وكان جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجها ، وأقل عطاء . وكان الناس إليه أميل ، ولكن خصلة الكرم

تغطى جميع القبائح ، فهى تستر تلك الخصلة التى كانت فى الفضل . وقد وهب الفضـل لطباخه مائة ألف درهم فعابه أبوه عـلى ذلك ، فقال : يا أبت إن هـذا كان يصحبنى فى العسر واليسر والعيش الخشن ، واستمر معى فى هذا الحال فأحسن صحبتى ، وقد قال بعض الشعراء :

إن الـكرام إذا ما أيسروا ذكروا * من كان يعتادهم فى المنزل الخشن

ووهب يوماً لبعض الأدباء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له : مم تبكى ، أستقللتها ؟ قال : لا والله ، ولكنى أبكى أن الأرض تأكل مثلك ، أو توارى مثلك .

وقال على بن الجهم عن أبيه : أصبحت يوماً لا أملك شيئاً حتى ولا علف الدابة . فقصدت الفضل ابن يحيى ، فاذا هو قد أقبل من دار الخلافة فى موكب من الناس ، فلما رآنى رحب بى وقال : هلم . فسرت معه ، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار ، و إذا هو يدعوها باسم جارية له يحبها ، فانزعج لذلك وشكا إلى ما لقى من ذلك ، فقلت : أصابك ما أصاب أخى بنى عامر حيث يقول :

ودَاعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى * فهيج أحزان الفؤاد ولا يدرى

دعا باسم ليلى غيرها وكأنما * أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فقال : اكتب لى هذين البيتين . قال : فـذهبت إلى بقال فرهنت عنده خاتمى على ثمن ورقة وكتبتهما له ، فأخذها وقال : انطلق راشداً . فرجعت إلى منزلى فقال لى غلامى : هات خاتمك حتى نرهنه عـلى طعام لنا وعلف الدابة ، فقلت : إنى رهنته . فما أمسينا حتى أرسل إلى الفضل بثلاثين ألفاً من الذهب ، وعشرة آلاف من الورق ، أجراه على كل شهر ، وأسلفنى شهراً .

ودخل على الفضل يوماً بعض الأكابر فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير ، فشكا إليـه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم فى ذلك أمير المؤمنين . فقال : نعم ، وكم دينك ؟ قال ثلاثمائة ألف درهم . فخرج من عنـده وهو مهموم لضعف رده عليـه ، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فاذا المال قد سبقه إلى داره . وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لك الفضل يافضل بن يحيى بن خالد * وما كل من يدعى بفضل له فضل

رأى الله فضلا منك فى الناس واسعاً * فسماك فضلا فالتقى الاسم والفعل

وقد كان الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر ، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص . وقـد ولى الفضل أعمالا كباراً ، منها نيابة خراسان وغيرها . ولما قتل الرشيد البرامكة وحبسهم جلد الفضل هذا مائة سوط وخلده فى الحبس حتى مات فى هذه السنة ، قبل الرشيد بشهور خمسة فى الرقة . وصلى عليه بالقصر الذى مات فيه أصحابه ، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس ، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة ، وكان سبب موته ثقل أصابه فى لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة ، وتوفى

قبل أذان الغـداة من يوم السبت . قال ابن جرير : وذلك فى المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقال ابن الجوزى : فى سنة ثنتين وتسعين فالله أعلم .

وقد أطال ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحا من محاسنه ومكارمه ، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائبا على خراسان ، وكان بها بيت النار التى كانت تعبـدها المجوس ، وقد كان جده برمك من خدامها ، فهـدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله ، لقوة إحكامه ، وبنى مكانه مسجداً لله تعالى . وذكر أنه كان يتمثل فى السجن بهذه الأبيات ويبكى :

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى * ففى يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها * فلانحن فى الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة * عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ومحمد بن أمية الشاعر الكاتب ، وهو من بيت كلهم شعراء ، وقد اختلط أشعار بعضهم فى بعض

﴿ ومنصور بن الزبرقان ﴾

ابن سلمة أبو الفضل النميرى الشاعر ، امتدح الرشيد ، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجده مطعم الكبش الرخم ، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم تحوم حولهم ، فأمر بكبش يذبح للرخم حتى لايتأذى بها ضيفانه ، ففعل له ذلك . فقال الشاعر فيه :

أبوك زعيم بنى قاسط * وخالك ذو الكبش يقرى الرخم

وله أشعار حسنة ، وكان يروى عن كلثوم بن عمرو ، وكان شيخه الذى أخذ عنه الغناء .

﴿ يوسف ابن القاضى أبى يوسف ﴾

سمع الحديث من السرى بن يحيى ويونس بن أبى إسحاق ، ونظر فى الرأى وتفقه ، وولى قضاء الجانب الشرقى ببغداد فى حياة أبيه أبى يوسف ، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد . توفى فى رجب من هذه السنة وهو قاضى ببغداد .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة ﴾

قال ابن جرير : فى المحرم منها توفى الفضل بن يحيى ، وقال ابن الجوزى توفى الفضل فى سنة ثنتين وتسعين كما تقـدم . وما قاله ابن جرير أقرب . قال : وفيها توفى سـعيد الجوهرى ، قال : وفيها وافى الرشـيد جرجان وانتهت إليه خزائن على بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير ، وذلك فى صفر منها ، ثم تحول منها إلى طوس وهو عليل ، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها . وفيها تواقع هرثمة نائب العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمـة وافتتح بخارى وأسر أخاه بشـير بن الليث ، فبعثه الى الرشيد وهو بطوس قد ثقل عن السير ، فلما وقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه ، بل قال :

والله لو لم يبق من عمرى إلا أن أحرك شفتى بقتلك لقتلتك ، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما مكنه من أخيه بشير .

﴿ ذكر وفاة الرشيد ﴾

كان قد رأى وهو بالكوفة رؤيا أفزعته وغمه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفا فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريرى وقائلا يقول : هذه تربة هارون . فهون عليه جبريل أمرها وقال : هذه من أضغاث الأحلام من حديث النفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين . فلما سار يريد خراسان ومر بطوس واعتقلته العلة بها ، ذكر رؤياه فهاله ذلك وقال لجبريل : ويحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتنى بشىء من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حمراء فى يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف التى رأيت ، والتربة التى كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفى ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته فى الدار التى كان فيها ، وهى دار حميد بن أبى غانم الطائى ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير إلى هذا . ثم أمر أن يقرأوا القرآن فى قبره ، فقرءوه حتى ختموه وهو فى محفة على شفير القبر . ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة وجلس يقاسى سكرات الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكا صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر : وإنى من قوم كرام يزيدهم • شماساً وصبراً شدة الحدثان

مات ليلة السبت ، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، عن خمس ، وقيل سبع وأربعين سنة . وكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة .

﴿ وهذه ترجمته ﴾

هو هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدى محمد بن المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشى الهاشمى ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر . وأمه الخيزران أم ولد . كان مولده فى شوال سنة ست وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعين ومائة ، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة ، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادى فى ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، بعهد من أبيه المهدى . روى الحديث عن أبيه وجده ، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . أورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس ، وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمى والد إسحاق ، ونباتة بن عمرو . وكان الرشيد أبيض طويلا سمينا جميلا ، وقد غزا الصائفة فى حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية ، وقد لقى المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفا شديداً ، وكان

الصلح مع امرأة ليون وهى الملقبة بأغسطه على حمل كثير تبذله للمسلمين فى كل عام ، ففرح المسلمون بذلك ، وكان هذا هو الذى حدا أباه على البيعة له بعد أخيه فى سنة ست وستين ومائة . ولما أفضت إليه الخلافة فى سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزوا وحجا ، ولهذا قال فيه أبو السعلى :

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طمر * وفى أرض الترفه فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم ، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحجج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة ، وكان يحب التشبه بجده أبى جعفر المنصور إلا فى العطاء ، فانه كان سريع العطاء جزيله ، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم ، ولا يضيع لديه بر ومعروف ، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله . وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة تطوعا ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ، وكان ابن أبى مريم هو الذى يضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها . وكان الرشيد قد أنزله فى قصره وخلطه بأهله . نبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) فقال ابن أبى مريم : لا أدرى والله . فضحك الرشيد وقطع الصلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك . ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالية من أحسن الطيب ، فجعل يمدحها ويزيد فى شكرها ، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبى مريم فوهبها له ، فقال له العباس : ويحك ! جئت بشئ منعته نفسى وأهلى وآثرت به أمير المؤمنين سيدى فأخذته . فحلف ابن أبى مريم ليطيبن به استه ، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها ، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك . ثم قال لخادم قائم عندهم يقال له خاقان : اطلب لى غلامى . فقال الرشيد : ادع له غلامه . فقال له : خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فرها فلتطيب منها إستها حتى أرجع إليها فأنيكها . فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب ، ثم أقبل ابن أبى مريم على العباس بن محمد فقال له : جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذى ما تمطر السماء شيئاً ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفى يده ؟ وأعجب من هذا أن قيل لملك الموت : ما أمرك به هذا فأنفذه . وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه بقال أو خباز أو طباخ أو تمار ، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك . ثم أمر لابن أبى مريم بمائة ألف درهم .

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبى مريم أن يلى الحجابة فى هذا اليوم ، ومهما حصل له كان بينه وبين أمير المؤمنين ، فولاه الحجابة ، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب ، من عند زبيدة

والبرامكة وكبار الأمراء ، وكان حاصله فى هذا اليوم ستين ألف دينار ، فسأله الرشيد فى اليوم الثانى عما تحصل فأخبره بذلك ، فقال له : فأين نصيبي ؟ فقال ابن أبى مريم : قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاحة .

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية : ماذكرت عنده حديثا إلا قال صلى الله وسلم على سيدى ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدى فصب الماء على وأنا لا أراه . ثم قال : يا أبا معاوية أتدرى من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا . قال : يصب عليك أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : فدعوت له ، فقال : إنما أردت تعظيم العلم . وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى ، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ على بالنطع والسيف ، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد : هذه زندقة . ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرنى من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة منى وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطلقه .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه فى قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل . وقال بعض أهل العلم : يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك ، فقال الرشيد : أولست كذلك ؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما . وقال له ابن السماك : إن الله لم يجعل أحداً فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك . فقال : لئن كنت أقصرت فى الكلام لقد أبلغت فى الموعظة .

[وقال له الفضيل بن عياض ـ أو غيره ـ إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك فى الدنيا ، فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك فى الآخرة ، فاكدح لنفسك وأعملها فى طاعة ربك][1]

ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأتى بقلة فيها ماء مبرد فقال لابن السماك : عظنى . فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشتريا هذه الشربة لو منعتها ؟ فقال : بنصف ملكى . فقال : اشرب هنيئا ، فلما شرب قال : أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشترى ذلك ؟ قال بنصف ملكى الآخر . فقال : إن ملكا قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، لخليق أن لا يتنافس فيه . فبكى هارون .

(١) سقط من المصرية .

وقال ابن قتيبة : ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، و بلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر . فقلت : يا أمير المؤمنين أو تخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني ؟ .

وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال : كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطعام . فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال : مم تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني و بين جاريتي البارحة . فقال له : بحق عليك لما أخبرتني به . فقال : حتى تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله لتخبرني . فقال : يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله ، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم جزور ، فنحن ننحر كل يوم جزورا لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأنا لا نشتري من السوق لحم جزور . فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم . [قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة . فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف] (١) .

قال : فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السماط من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي ، و بألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، و إنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ماتذبحونه من الجزور يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، و بما يسره الله عليك من الصدقة ، و بما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف . ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا اليوم عشاءه .

---

(١) سقط من المصرية .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظما ، ونديمه عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مريم ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها .

وروى الخطيب البغدادي أن الرشيد كان يقول : إنا من قوم عظمت رزيتهم ، وحسنت بغيتهم ، ورثنا رسول الله ﷺ وبقيت فينا خلافة الله . وبينا الرشيد يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة ، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولا لينا . وعن شعيب بن حرب قال : رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك . فقلت : لابد من ذلك ، فناديته فقلت : يا هارون ! قد أتعبت الأمة والبهائم . فقال : خذوه . فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين . فقال ثكلتك أمك ممن أنت ؟ فقلت : من الأنبار . فقال : ما حملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال : فخطر ببالي شئ لم يخطر قبل ذلك ، فقلت : أنا أدعو الله باسمه يا الله ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى يا عيسى ، يا محمد ، وكنى أبغض خلقه إليه فقال : تبت يدا أبي لهب . فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه .

وقال له ابن السماك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل ، والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال ، ولا يقبل فداء بمال . فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السماك ! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة . فقام فخرج من عنده وهو يبكي . وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة - : ياصبيح الوجه إنك مسؤل عن هؤلاء كلهم ، وقد قال تعالى (وتقطعت بهم الأسباب) قال حدثنا ليث عن مجاهد : الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكى حتى جعل يشهق . وقال الفضيل : استدعاني الرشيد يوما وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال : -

عش ما بدا لك سالما * فى ظل شاهقة القصور
تسعى عليك بما اشتهيـ * ـت لدى الرواح إلى البكور
فاذا النفوس تقعقعت * عن ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا * ما كنت إلا فى غرور

قال : فبكى الرشيد بكاء كثيراً شديداً . فقال له الفضل بن يحيى : دعاك أمير المؤمنين تسره فأحزنته ؟ فقال له الرشيد : دعه فانه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا عمى . ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبى العتاهية : عظنى بأبيات من الشعر وأوجز فقال :ـ

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس * ولو تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت صائبة * لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليبس

قال : فخر الرشيد مغشيا عليه . وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول ، فكتب مرة على جدار الحبس :

أما والله إن الظلم شوم * وما زال المسىء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

قال : فاستدعاه واستحله فى حل ووهبه ألف دينار وأطلقه . وقال الحسن بن أبى الفهم : ثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال : دخلت على الرشيد فقال : ما خبرك ؟ فقلت :

بعين الله ما تخفى البيوت * فقد طال التحمل والسكوت

فقال : يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغنى عقبه ، ولا تضر الرشيد شيئا . وقال الأصمعى : كنت مع الرشيد فى الحج فمررنا بواد فاذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهى تسأل منها وهى تقول :ـ

طحطحتنا طحاطح الأعوام * ورمتنا حوادث الأيام
فأتيناكم نمد أكفا * نائلات لزادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا * أيها الزائرون بيت الحرام
من رآنى فقد رآنى ورحلى * فارحموا غربتى وذل مقامى

قال الأصمعى : فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهبا ، فملأها حتى جعلت تفيض يمينا وشمالا . وسمع مرة الرشيد أعرابيا يحدو إبله فى طريق الحج :

أيها الجمع هما لاتهم * أنت تقضى ولك الحى تحم

كيف ترقيك وقد جف القلم * حطت الصحة منك والسقم

فقال الرشيد لبعض خدمه : ما معك ؟ قال : أربعمائة دينار ، فقال : ادفعها إلى هذا الأعرابى . فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلا :

وكنت جليس قعقاع بن عمرو * ولا يشقى بقعقاع جليس

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطى المتمثل ما معه من الذهب فاذا معه مائتا دينار . قال أبو عبيد إن [أصل] هـذا المثل أن معاوية بن أبى سفيان أهديت له هـدية جامات من ذهب فرقها عـلى جلسائه والى جانبـه قعقاع بن عمرو ، و إلى جانب القعقاع أعرابى لم يفضـل له منها شئ . فأطرق الأعرابى حياء فدفع إليه القعقاع الجام الذى حصل له ، فنهض الأعرابى وهو يقول وكنت جليس قعقاع بن عمرو إلى آخره .

وخرج الرشيد يوما من عنـد زبيدة وهو يضحك فقيل له مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت اليوم إلى هـذه المرأة ـ يعنى زبيدة ـ فأقلت عندها و بت ، فما استيقظت إلا عـلى صوت ذهب يصب ، قالوا : هذه ثلثمائة ألف دينار قـدمت من مصر ، فقالت زبيدة : هبهالى يا ابن عم ، فقلت : هى لك ، ثم ماخرجت حتى عربدت على وقالت : أى خير رأيته منك ؟ وقال الرشـيد مرة للمفضل الضبى : ما أحسن ما قيل فى الذئب ، ولك هذا الخاتم ، وشراؤه ألف وستمائة دينار ، فأنشد قول الشاعر : ينام باحدى مقلتيه ويتقى * بأخرى الرزايافهو يقظان نائم .

فقال : ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم . ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة دينار ، و بعثت به إلى الرشـيد وقالت : إنى رأيتك معجباً به . فرده إلى المفضل والدنانير ، وقال : ما كنا لنهب شيئاً ونرجع فيه .

وقال الرشيد يوما للعباس بن الأحنف : أى بيت قالت العرب أرق ؟ فقال : قول جميل فى بثينة :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى * بثينة لا يخفى على كلامها

فقال له الرشيد : أرق منه قولك فى مثل هذا :

طاف الهوى فى عباد الله كلهم * حتى إذا مر بى من بينهم وقفا

فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله :

أما يكفيك أنك تملكينى * وأن الناس كلهم عبيـدى

وأنك لو قطعت يدى ورجلى * لقلت من الهوى أحسنت زيدى

قال : فضحك الرشيد وأعجبه ذلك . ومن شعر الرشيد فى ثلاث حظيات كن عنده من الخواص

قوله :

ملك الثلاث الناشآت عنانى * وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها * وأطيعهن وهنّ فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى * وبه قوين أعز من سلطانى

ومما أورد له صاحب العقد فى كتابه :

تبدى الصدود وتخفى الحب عاشقة * فالنفس راضية والطرف غضبان

وذكر ابن جرير وغيره أنه كان فى دار الرشيد من الجوارى والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأنهن حضرن يوما بين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً ، وأمر بمال فنثر عليهن . وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم فى ذلك اليوم . رواه ابن عساكر أيضاً

وروى أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بها جداً فأمر باحضار مواليها ومن يلوذ بهم ليقضى حوائجهم ، فقدموا عليه بثمانين نفسا فأمر الحاجب ـ وهو الفضل بن الربيع ـ أن يتلقاهم ويكتب حوائجهم ؛ فكان فيهم رجل قد أقام بالمدينة لأنه كان يهوى تلك الجارية ، فبعث إليه فأتى به فقال له الفضل : ما حاجتك ؟ قال : حاجتى أن يجلسنى أمير المؤمنين مع فلانة فأشرب ثلاثة أرطال من خمر ، وتغنينى ثلاثة أصوات . فقال : أمجنون أنت ؟ فقال : لا ولكن اعرض حاجتى هذه على أمير المؤمنين . فذكر للرشيد ذلك فأمر باحضاره وأن تجلس معه الجارية بحيث ينظر إليهما ولا يريانه فجلست على كرسى والخدام بين يديها ، وأجلس على كرسى فشرب رطلا وقال لها غنى :

خليلى عوجا بارك الله فيكما * وإن لم تكن هند بأرضكما قصدا
وقولا لها ليس الضلال أجازنا * ولكننا جزنا لنلقاكم عمدا
غدا يكثر البادون منا ومنكم * وتزداد دارى من دياركم بعدا

قال : فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلا آخر ، وقال : غنى جعلت فداك :

تكلم منا فى الوجوه عيوننا * فنحن سكوت والهوى يتكلم
ونغضب أحيانا ونرضى بطرفنا * وذلك فيما بيننا ليس يعلم

قال : فغنته . ثم شرب رطلا ثالثا وقال : غنى جعلنى الله فداك :

أحسن ما كنا تفرقنا * وخاننا الدهر وما خنا
فليت ذا الدهر لنا مرة * عاد لنا يوماً كما كنا

قال ثم قام الشاب إلى درجة هناك ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات . فقال الرشيد : عجل الفتى ، والله لو لم يعجل لوهبتها له .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً . قد ذكر الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجا صالحا . وقد كان الفضيل بن عياض يقول : ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما أتخوف بعده من الحوادث ، وإنى لأدعو الله أن يزيد فى عمره من عمرى قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات ، وظهر القول بخلق القرآن ، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك . وقد تقدمت رؤياه لتلك الكف وتلك التربة الحمراء وقائل يقول : هذه تربة أمير المؤمنين . فكان موته بطوس . وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى فى منامه قائلا يقول : كأنى بهذا القصر قد باد أهله . الشعر إلى آخره .

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادى . وأبوه محمد المهدى فالله أعلم .

وقدمنا أنه أمر بحفر قبره فى حياته ، وأن تقرأ فيه ختمة تامة ، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابن آدم . ويبكى ، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجليه ، ثم جعل يقول : (ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) ويبكى . وقيل : إنه لما احتضر قال : اللهم انفعنا بالاحسان ، واغفر لنا الاساءة ، يا من لا يموت ارحم من يموت . وكان مرضه بالدم ، وقيل بالسل ، وجبريل الطبيب يكتم ما به من العلة ، فأمر الرشيد رجلا أن يأخذ ماءه فى قارورة ويذهب به إلى جبريل فيريه إياه ، ولا يذكر له بول من هو ، فان سأله قال : هو بول مريض عندنا . فلما رآه جبريل قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به ، فقال له : بالله عليك أخبرنى عن حال صاحب هذا الماء . فان لى عليه مالا ، فان كان به رجاء وإلا أخذت مالى منه . فقال : اذهب فتخلص منه فانه لا يعيش إلا أياما . فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد . وقد قال الرشيد وهو فى هذه الحال :

إنى بطوس مقيم ... مالى بطوس حميم
أرجو إلهى لما بى ... فانه بى رحيم
لقد أتى بى طوساً ... قضاؤه المحتوم
وليس إلا رضائى ... والصبر والتسليم

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقيل إنه توفى فى جمادى الأولى ، وقيل فى ربيع الأول ، وله من العمر خمس ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعون سنة . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً . وقيل ثلاثة أشهر . وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباذ . وقال بعضهم : قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته .

منازل العسكر معمورة * والمنزل الأعظم مهجور
خليفة الله بدار البلى * تسعى على أجداثه المور

أقبلت العير تباهى به * وانصرفت تندبه العير

وقد رثاه أبو الشيص فقال :

غربت فى الشرق شمس * فلها العينان تدمع

ما رأينا قط شمساً * غربت من حيث تطلع

وقد رثاه الشعراء بقصائد . قال ابن الجوزى : وقد خلف الرشيد من الميراث مالم يخلفه أحد من الخلفاء ، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار ، وخمسة وثلاثون ألف دينار . قال ابن جرير : وكان فى بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيف .

﴿ ذكر زوجاته وبنيه وبناته ﴾

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبى جعفر المنصور ، تزوجها فى سنة خمس وستين ومائة فى حياة أبيه المهدى ، فولدت له محمداً الأمين . وماتت زبيدة فى سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتى . وتزوج [أمة العزيز] أم ولد كانت لأخيه موسى الهادى فولدت له على بن الرشيد . وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين ، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبى جعفر فزفتا إليه فى ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقة ، وتزوج عزيزة بنت الغطريف ، وهى بنت خاله أخى أمه الخيزران ، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية ، ويقال لها الجُرشية ، لأنها ولدت بجرش باليمن . وتوفى عن أربع : زبيدة ، وعباسة ، وابنة صالح ، والعثمانية هذه . وأما الحظايا من الجوار فكثير جداً حتى قال بعضهم : إنه كان فى داره أربعة آلاف جارية سرارى حسان .

وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة ، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراجل ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة ، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف . وعلىّ أمه أمة العزيز . وصالح من جارية اسمها رئم . ومحمد أبو يعقوب . ومحمد أبو عيسى . ومحمد أبو العباس . ومحمد أبو على كل هؤلاء من أمهات أولاد . وكان من الاناث سكينة من قصف . وأم حبيب من ماردة . وأروى . وأم الحسن . وأم محمد وهى حمدونة وفاطمة وأمها غصص . وأم سلمة . وخديجة . وأم القاسم رملة . وأم على . وأم الغالية . وريطة كلهن من أمهات أولاد .

﴿ خلافة محمد الأمين ﴾

(ابن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور)

لما توفى الرشيد بطوس فى جمادى الآخرة من هذه السنة ـ أعنى سنة ثلاث وتسعين ومائة ـ كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولى العهد من بعد أبيه محمد الأمين بن زبيدة وهو ببغداد يعلمه بوفاة أبيه ويعزيه فيه ، فوصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة ، يوم

الخميس الرابع عشر من جمادى الآخرة ، فركب الأمين من قصره الخلد إلى قصر أبى جعفر المنصور ـ وهو قصر الذهب ـ على شط بغداد ، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم فى الرشيد ، و بسط آمال الناس ووعدهم الخير . فبايعه الخواص من قومه ووجوه بنى هاشم والأمراء ، وأمر بصرف أعطيات الجند عن سنتين ، ثم نزل وأمر عمه سليمان بن جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين واستقام حاله حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر اختلاف الأمين والمأمون ﴾

كان السبب فى ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع مافيها من الحواصل والدواب والسلاح لولده المأمون ، وجدد له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب فى خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد ، فلما توفى الرشيد نفذت الكتب إلى الامراء وإلى صالح بن الرشيد ، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة ، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين ، وارتحل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد وقد بقى فى نفوسهم تحرج من البيعة التى أخذت للمأمون ، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فوقعت الوحشة بين الأخوين ، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين ، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم ، و بعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك ، وهو نائبه عليها ، وقد أمر الأمين فى صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد ، فقال فى ذلك بعض الشعراء : ـ

بنى أمين الله ميدانا * وصير الساحة بستانا
وكانت الغزلان فيه بانا * يهدى إليه فيه غزلانا

و فى شعبان من هذه السنة قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف والقماش من الرشيد ، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والرى وغير ذلك ، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور ، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم .

وفيها مات نقفور ملك الروم ، قتله البرجان ، وكان ملكه تسع سنين ، وأقام بعده ولده استبراق شهرين فمات ، فملكهم ميخائيل زوج أخت نقفور لعنهم الله . وفيها تواقع هرثمة نائب خراسان و رافع ابن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا و بقى رافع وحده فضعف أمره . وحج بالناس نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على . وفيها توفى :

﴿ إسماعيل بن علية ﴾

وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء ، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وقد ولى المظالم ببغداد ، وكان ناظر الصدقات بالبصرة ، وكان ثقة نبيلا جليلا كبيراً ، وكان قليل التبسم وكان يتجر فى البز وينفق على عياله منه ويحج منه ، ويبر أصحابه منه مثل السفيانين وغيرهما ، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ ابن المبارك أنه تولى القضاء كتب إليه يلومه نظما ونثراً ، فاستعفى ابن علية من القضاء فأعفاه . وكانت وفاته فى ذى القعدة من هذه السنة ، ودفن فى مقابر عبد الله بن مالك وفيها مات :

﴿ محمد بن جعفر ﴾

الملقب بغندر . روى عن شعبة وسعيد بن أبى عروبة وعن خلق كثير ، وعنه جماعة منهم أحمد بن حنبل ، وكان ثقة جليلا حافظا متقنا . وقد ذكر عنه حكايات تدل على تغفيله فى أمور الدنيا ، كانت وفاته بالبصرة فى هذه السنة ، وقيل فى التى قبلها ، وقيل فى التى بعدها . وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المتقدمين والمتأخرين . وفيها توفى :

﴿ أبو بكر بن العياش ﴾

أحد الأئمة ، سمع أبا إسحاق السبيعى والأعمش وهشام وهمام بن عروة وجماعة . وحدث عنه خلق منهم أحمد بن حنبل . وقال يزيد بن هارون : كان حبراً فاضلا لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة ، قالوا : ومكث ستين سنة يختم القرآن فى كل يوم ختمة كاملة ، وصام ثمانين رمضانا ، وتوفى وله ست وتسعون سنة . ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال : يا بنى علام تبكى ؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة ﴾

فيها خلع أهل حمص نائبهم فعزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشى فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرق نواحيها ، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً . وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور ، وولى على ذلك خزيمة بن خازم ، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد . وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر فى سائر الأمصار وبالامرة من بعده ، وسماه الناطق بالحق ، ثم يدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم ، وكان من نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما ، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته فى أخويه ، وحسن له خلع المأمون والقاسم ، وصغر عنده شأن المأمون . وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلعه من الحجابة . فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده ، وذلك فى ربيع الأول من هذه السنة . فلما بلغ المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز ، وتنكر للأمين . وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه

فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه ، وجاء هرثمة على إثره فتلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس ، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتابا وأرسل إليه رسلا ثلاثة من أكابر الأمراء ، سأله أن يجيبه إلى تقديم ولده عليه ، وأنه قد سماه الناطق بالحق ، فأظهر المأمون الامتناع فشرع الأمراء فى مطايبته وملاينته ، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الاباء ، فقال له العباس بن موسى بن عيسى : فقد خلع أبى نفسه فماذا كان ؟ فقال المأمون إن أباك كان امرءاً مكروها ، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة ، ثم لما رجع إلى بغداد كان يراسله بما كان من أمر الأمين ويناصحه ، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه ، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين فى خلع المأمون ، فخلعه وأمر بالدعاء لولده فى سائر البلاد ، وأقاموا من يتكلم فى المأمون ويذكر مساويه ، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذى كتبه الرشيد وأودعه فى الكعبة ، فرقه الأمين وأكد البيعة إلى ولده الناطق بالحق على ما ولاه من الأعمال ، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها . وقد استقصاها ابن جرير فى تاريخه ، ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيأ الجيوش والجنود وتألف الرعايا . وفيها غدرت الروم بملكهم ميخائيل فراموا خلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم اليون . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى ، وقيل على بن الرشيد . وفيها توفى من الأعيان :

﴿ سلم بن سالم أبو بحر البلخى ﴾

قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثورى . وعنه الحسن بن عرفة . وكان عابداً زاهداً ، مكث أربعين سنة لم يفرش له فراش ، وصامها كلها إلا يومى العيد ، ولم يرفع رأسه إلى السماء ، وكان داعية الارجاء ضعيف الحديث ، إلا أنه كان رأسا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان قد قدم بغداد فأنكر على الرشيد وشنع عليه فحبسه وقيده باثنى عشر قيداً ، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى جعلوه فى أربعة قيود ، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله . فلما توفى الرشيد أطلقته زبيدة فرجع ـ وكانوا بمكة قد جاؤا حجاجاً ـ فمرض بمكة . واشتهى يوماً بردا فسقط فى ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه . مات فى ذى الحجة من هذه السنة .

﴿ وعبد الوهاب بن عبد المجيد ﴾

الثقفى كانت غلته فى السنة قريباً من خمسين ألفا ينفقها كلها على أهل الحديث . توفى عن أربع وثمانين سنة .

﴿ وأبو النصر الجهنى المصاب ﴾

كان مقيما بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد فى الحائط الشمالى منه ، وكان طويل السكوت ، فاذا سئل أجاب بجواب حسن ، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب ، وكان يخرج يوم الجمعة

قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) و (يوم لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) ثم ينتقل إلى جماعة أخرى ثم إلى أخرى ، حتى يدخل المسجد فيصلى فيه الجمعة ثم لايخرج منه حتى يصلى العشاء الآخرة .

وقد وعظ مرة هارون الرشيد بكلام حسن فقال : اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جوابا ، وقد قال عمر بن الخطاب لو ماتت سخلة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إنى لست كعمر ، وإن دهرى ليس كدهره . فقال : ماهذا بمغن عنك شيئا . فأمر له بثلثمائة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة فمر بها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة ﴾

فيها فى صفر منها أمر الأمين الناس أن لا يتعاملوا بالدراهم والدنانير التى عليها اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر ، وأن يدعى له ولولده من بعده : وفيها تسمى المأمون بامام المؤمنين . وفى ربيع الآخر فيها عقد الأمين لعلى بن عيسى بن ماهان الامارة على الجبل وهمذان واصبهان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشا كثيراً ، وأنفق فيهم نفقات عظيمة ، وأعطاه مائتى ألف دينار ، ولولده خمسين ألف دينار وألفى سيف محلى ، وستة آلاف ثوب للخلع . فخرج على بن موسى بن ماهان من بغداد فى أربعين ألف مقاتل فارس ، ومعه قيد من فضة ليأتى فيه بالمأمون . وخرج الأمين معه مشيعاً فسار حتى وصل الرى فتلقاه الأمير طاهر فى أربعة آلاف ، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا ، فقتل على بن عيسى وانهزم أصحابه وحمل رأسه وجثته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذى الرياستين ، وكان الذى قتل على بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمى ذا اليمينين ، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به على بن عيسى بن ماهان ، ففرح بذلك المأمون وذووه ، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة ، فقال : ويحك دعنى من هذا فان كوثراً قد صاد سمكتين . ولم أصد بعد شيئا . وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر ، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون ، وما وقع من الأمر الفظيع . وكان رجوع الخبر إليه فى شوال من هذه السنة . ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى فى عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية ، فلما اقتربوا منهم تواجهوا فتقاتلوا قتالا شديداً حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن ابن جبلة فلجئوا إلى همذان فحاصرهم بها طاهر حتى اضطرهم إلى أن دعوا إلى الصلح ، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم ، وانصرف عبد الرحمن بن جبلة على أن يكون راجعاً إلى بغداد ، ثم غدروا بأصحاب

طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة ، وفر أصحابه خائبين .

فلما رجعوا إلى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف ، وكان ذلك فى ذى الحجة من هذه السنة ، وطرد طاهر عمال الأمين عن قزوين وتلك النواحى ، وقوى أمر المأمون جداً بتلك البلاد . وفى ذى الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفيانى بالشام ، واسمه على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه ، فبعث إليه الأمين جيشا فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقة ، ثم كان من أمره ما سنذكره . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود ابن عيسى . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان منهم :

﴿ إسحاق بن يوسف الأزرق ﴾

أحد أئمة الحديث . روى عنه أحمد وغيره . ومنهم :

﴿ بكار بن عبد الله ﴾

ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، كان نائب المدينة للرشيد ثنتى عشرة سنة وشهراً ، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار ، وكان شريفاً جوادا ممدحا .

وفيها توفى ﴿ أبو نواس الشاعر المشهور ﴾

واسمه الحسن بن هانىء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن هنب بن داود بن غنم بن سليم ، ونسبه عبد الله بن سعد إلى الجراح بن عبد الله الحكمى ، ويقال له أبو نواس البصرى ، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد ، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها خلبان ، فولدت له أبا نواس وابنا آخر يقال له أبا معاذ ، ثم صار أبو نواس إلى البصرة فتأدب بها على أبى زيد وأبى عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر ، وصحب يونس بن حبيب الجرمى النحوى . وقد قال القاضى ابن خلكان : صحب أبا أسامة وابن الحباب الكوفى ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد، وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان . وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفى . وحدث عنه جماعة منهم الشافعى وأحمد بن حنبل وغندر ومشاهير العلماء ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فان حسن الظن بالله ثمن الجنة » . وقال محمد بن إبراهيم : دخلنا عليه وهو فى الموت فقال له صالح بن على الهاشمى : يا أبا على ! أنت اليوم فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله من عملك . فقال : إياى تخوف ؟ بالله اسندونى . قال : فأسندناه فقال : حدثنى حماد بن سلمة

عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي شفاعة وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » . ثم قال : أفلاتراني منهم . وقال أبو نواس : ماقلت الشعر حتى رويت عن ستين امرأة منهن خنساء وليلى ، فما الظن بالرجال ؟ وقال يعقوب بن السكيت : إذا رويت الشعر عن امرئ القيس والأعشى من أهل الجاهلية ، ومن الاسلاميين جرير والفرزدق ، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك . وقد أثنى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام . قال أبو عمرو الشيباني : لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقذار لاحتججنا به ـ يعني شعره الذي قاله في الخمريات والمردان ، وقد كان يميل إليهم ـ ونحو ذلك مما هو معروف في شعره . واجتمع طائفة من الشعراء عند المأمون فقيل لهم : أيكم القائل :

فلما تحساها وقفنا كأننا * نرى قمراً في الأرض يبلغ كوكبا

قالوا : أبو نواس . قال : فأيكم القائل : ـ

إذا نزلت دون اللهاة من الفتى * دعى همه عن قلبه برحيل

قالوا أبو نواس . قال : فأيكم القائل : ـ

فتمشت في مفاصلهم * كتمشي البرء في السقم

قالوا : أبو نواس . قال : فهو أشعركم . وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر : ما أشعر ظريفكم أبا نواس في قوله :

يا قمراً أبصرت في مأتم * يندب شجوا بين أتراب
أبرزه المأتم لي كارها * برغم ذي باب وحجاب
يبكي فيذري الدر من عينه * ويلطم الورد بعناب
لا زال موتا دأب أحبابه * ولم تزل رؤيته دابي

قال ابن الأعرابي أشعر الناس أبو نواس في قوله : ـ

تسترت من دهري بظل جناحه * فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام عني مادرت * وأين مكاني ما عرفن مكاني

وقال أبو العتاهية : قلت في الزهد عشرين ألف بيت ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي هذه ، وكانت مكتوبة على قبره :

يا نواسي توقر * أو تغير أو تصبر
إن يكن ساءك دهر * فلما سرك أكثر
يا كثير الذنب * عفو الله من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس يمدح بعض الأمراء : ـ

أوجده الله فما مثله * بطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

وأنشدوا سفيان بن عيينة قول أبى نواس :

ما هوى إلا له سبب * يبتدى منه وينشعب
فتنت قلبى محجبة * وجهها بالحسن منتقب
خلته والحسن تأخذه * تنتقى منه وتنتخب
فاكتست منه طرائفه * واستردت بعض ما نهب
فهى لو صيرت فيه لها * عودة لم يثنها أرب
صار جداً ما مزحت به * رب جد جره اللعب

فقال ابن عيينة : آمنت بالذى خلقها . وقال ابن دريد قال أبو حاتم : لو أن العامة بدلت هذين البيتين كتبتهما بماء الذهب :

ولو أنى استزدتك فوق مابى * من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتى * بعيش مثل عيشى لم يريدوا

وقد سمع أبو نواس حديث سهيل عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « القلوب جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . فنظم ذلك فى قصيدة له فقال :

إن القلوب لأجناد مجندة * لله فى الأرض بالأهواء تعترف
فما تناكر منها فهو مختلف * وما تعارف منها فهو مؤتلف

ودخل يوماً أبو نواس مع جماعة من المحدثين على عبد الواحد بن زياد فقال لهم عبد الواحد ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث أحدثه بها ، فاختار كل واحد عشرة إلا أبا نواس ، فقال له : مالك لا تختار كما اختاروا ؟ فأنشأ يقول :

ولقد كنا روينا * عن سعيد عن قتاده عن سعيد بن المسيـ * ـب ثم سعد بن عباده
وعن الشعبى والشعـ * ـبى شيخ ذو جلاده وعن الأخيار نحكيـ * ـه وعن أهل الافادة
أن من مات محبا * فله أجر شهادة

فقال له عبد الواحد : قم عنى يا فاجر ، لاحدثتك ولا حدثت أحدا من هؤلاء من أجلك . فبلغ ذلك مالك بن أنس و إبراهيم بن أبى يحيى فقالا : كان ينبغى أن يحدثه لعل الله أن يصلحه .

قلت : وهذا الذى أنشده أبو نواس قد رواه ابن عدى فى كامله عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعا « من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً » . ومعناه أن من ابتلى بالعشق من غير اختيار منه فصبر

وعف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير . فان صح هـذا كان ذلك له نوع شهادة والله أعلم .

وروى الخطيب أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له : حدثنا من طرفك ، فقال مرتجلا : حدثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر ومسعر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ إلى عامر قالوا جميعا : أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر ، كانت له الجنة مفتوحة يرتع في مرتعها الزاهر ، وأي معشوق جفا عاشقا بعد وصال دائم ناصر ! ففي عذاب الله بعداً له نعم وسحقا دائم داخر . فقال له شعبة : إنك لجميل الأخلاق ، وإني لأرجو لك . وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحر المقلتين والجيد * وقاتلي منك بالمواعيد
توعدني الوصل ثم تخلفني * ويلاي من خلفك موعودي
حدثني الأزرق المحدث عن * شهر وعوف عن ابن مسعود
ما يخلف الوعد غير كافرة * وكافر في الجحيم مصفود

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرق فقال : كذب عدو الله علي وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد ﷺ . وعن سليم بن منصور بن عمار قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبكي بكاء شـديداً فقلت : إني لأرجو أن لايعذبك الله بعد هذا البكاء فأنشأ يقول :

لم ابك في مجلس منصور * شوقا إلى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله * ولا من النفخة في الصور
ولا من النار وأغلالها * ولا من الخذلان والجور
لـكن بكائي لبكا شادن * تقيه نفسي كل محذور

ثم قال : إنما بكيت لبكاء هذا الأمرد الذي إلى جانب أبيك ـ وكان صبيا حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفا من الله عز وجل ـ

قال : أبو نواس : دعاني يوماً بعض الحاكة وألح علي ليضيفني في منزله ، ولم يزل بي حتى أجبته فسار إلى منزله وسرت معه فاذا منزل لابأس به ، وقد احتفل الحائك في الطعام وجمع جمعاً من الحياك ، فأكلنا وشربنا ثم قال : ياسيدي أشتهي أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر ـ وكان مغرماً بجارية له ـ قال فقلت أرنيها حتى أنظر على شكلها وحسنها ، فكشف عنها فاذا هي أسمج خلق الله وأوحشهم ، سوداء شمطاء ديدانية يسيل لعابها على صـدرها . فقلت لسيدها : ما اسمها ؟ فقال تسنيم ، فأنشأت أقول :

أسهر ليلي حب تسنيم * جارية في الحسن كالبوم
كأنما نكهتها كامخ * أو حزمة من حزم الثوم

خرطت من حبى لها خرطة * أفزعت منها ملك الروم

قال فقام الحائك يرقص و يصفق سائر يومه و يفرح و يقول : إنه شبهها والله بملك الروم . ومن شعره أيضاً[1] أيرمنى الناس يقولون * بزعمهم كثرت اوزاريه

إن كنت فى النار أم فى جنة * ماذا عليكم يابنى الزانيه

و بالجملة فقد ذكروا له أموراً كثيرة ، ومجونا وأشعاراً منكرة ، وله فى الخمريات والقاذورات والتشبب بالمردان والنسوان أشياء بشعة شنيعة ، فمن الناس من يفسقه و يرميه بالفاحشة ، ومنهم من يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول : كان إنما يخرب على نفسه ، والأول أظهر ، لما فى أشعاره . فأما الزندقة فبعيدة عنه ، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة . وقد عزوا إليه فى صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها ، والعامة تنقل عنه أشياء كثيرة لا حقيقة لها . وفى صحن جامع دمشق قبة يفور منها الماء يقول الدماشقة قبة أبى نواس ، وهى مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة ، فما أدرى لأى شئ نسبت إليه فالله أعلم بهذا .

وقال محمد بن أبى عمر : سمعت أبا نواس يقول : والله ما فتحت سراويلى لحرام قط : وقال له محمد الأمين بن الرشيد : أنت زنديق . فقال : يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصلى الصلاة الخمس فى حين وقتها * وأشهد بالتوحيد لله خاضعا

وأحسن غسلى إن ركبت جنابة * و إن جاءنى المسكين لم أك مانعا

و إنى و إن حانت من الكاس دعوة * إلى بيعة الساقى أجبت مسارعا

وأشربها صرفا على جنب ما عز * وجدى كثير الشحم أصبح راضعا

وجوذاب حوّارى ولوز وسكر * وما زال الخمار ذلك نافعا

وأجعل تخليط الروافض كلهم * لنفخة بختيشوع فى النار طائعا

فقال له الأمين : ويحك ! وما الذى ألجأك إلى نفخة بختيشوع ؟ فقال : به تمت القافية . فأمر له بجائزة . وبختيشوع الذى ذكره هو طبيب الخلفاء . وقال الجاحظ : لا أعرف فى كلام الشعراء أرق ولا أحسن من قول أبى نواس حيث يقول :

أية نار قدح القادح * وأىّ جد بلغ المازح

لله در الشيب من واعظ * وناصح لو خطئ الناصح

يأبى الفتى الا اتباع الهوى * ومنهج الحق له واضح

فاسم بعينيك إلى نسوة * مهورهن العمل الصالح

لا يجتلى الحوراء فى خدرها * إلا امرؤ ميزانه راجح

(١) فى البيت تحريف .

من اتقى الله فذاك الذى * سيق إليه المتجر الرابح
فاغد فما فى الدين أغلوطة * ورح لما أنت له رائح

وقد استنشده أبو عفان قصيدته التى فى أولها : لاتنس ليلى ولاتنظر إلى هند . فلما فرغ منها سجد له أبو عفان ، فقال له أبو نواس : والله لا أكلمك مدة . قال : فغمنى ذلك ، فلما أردت الانصراف قال : متى أراك ؟ فقلت : ألم تقسم ؟ فقال : الدهر أقصر من أن يكون معه هجر .

ومن مستجاد شعره قوله :

ألا رب وجه فى التراب عتيق * ويا رب حسن فى التراب رقيق
ويا رب حزم فى التراب ونجدة * ويا رب رأى فى التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن * إلى سفر نائى المحل سحيق
أرى كل حى هالكا وابن هالك * وذا نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى لباس صديق

وقوله

لا تشرهن فان الذل فى الشره * والعز فى الحلم لا فى الطيش والسفه
وقل لمغتبط فى التيه من حمق * لو كنت تعلم ما فى التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة * للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وجلس أبو العتاهية القاسم بن إسماعيل على دكان وراق فكتب على ظهر دفتر هذه الأبيات :

أيا عجباً كيف يعصى الإلـ * ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية * تدل على أنه الواحد

ثم جاء أبو نواس فقرأها فقال : أحسن قائله والله . والله لوددت أنها لى بجميع شئ قلته ، لمن هذه ؟ قيل له : لأبى العتاهية ، فأخذ فكتب فى جانبها :

سبحان من خلق الخلا * ق من ضعف مهين
يسوقه من قرار * إلى قرار مكين
يخلق شيئا فشيئا * فى الحجب دون العيون
حتى بدت حركات * مخلوقة فى سكون

ومن شعره المستجاد قوله :

انقطعت شدتى فعفت الملاهى إذ * رمى الشيب مفرقى بالدواهى
ونهتنى النهى فملت إلى العدل * وأشفقت من مقالة ناهى
أيها الغافل المقر على السهو * ولا عذر فى المعاد لساهى

لا بأعمالنا نطيق خلاصا * يوم تبدو السماء فوق الجباه
على أنا على الاساءة والتف * ريط نرجو من حسن عفو الاله

وقوله :
نموت ونبلى غير أن ذنوبنا * إذا نحن متنا لا تموت ولا تبلى
ألا رب ذى عينين لا تنفعانه * وما تنفع العينان مَن قلبه أعمى

وقوله :
لو أن عيناً أوهمتها نفسها * يوم الحساب ممثلا لم تطرف
سبحان ذى الملكوت أية ليلة * محقت صبيحتها بيوم الموقف
كتب الفناء على البريَّة ربها * فالناس بين مقدم ومخلف

وذكر أن أبا نواس لما أراد الاحرام بالحج قال :

يا مالكاً ما أعدلك مليك كل من ملك لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
عبدك قد أهلَّ لك أنت له حيث سلك لولاك يا رب هلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك على مجارى تنسلك
كل نبى وملك وكل من أهل لك سبح أو صلى فلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك يا مخطئاً ما أجهلك عصيت ربا عدلك وأقدرك وأمهلك
عجل وبادر أملك واختم بخير عملك لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

وقال المعافى بن زكريا الحريرى : ثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى بن ثعلب يقول : دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه ، فما زلت أترفق به وتوسلت إليه أنى من موالى شيبان حتى كلمنى ، فقال : فى أى شئ نظرت من العلوم ؟ فقلت : فى اللغة والشعر . قال : رأيت بالبصرة جماعة يكتبون عن رجل الشعر ، قيل لى هذا أبو نواس . فتخللت الناس ورائى فلما جلست إليه أملى علينا :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن فى الخلاء رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أنما يخفى عليه يغيب
لهونا عن الآثام حتى تتابعت * ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى * ويأذن فى توباتنا فنتوب

وزاد بعضهم فى رواية عن أبى نواس بعد هذه الأبيات :

أقول إذا ضاقت علىَّ مذاهبى * وحلت بقلبى للهموم ندوب
لطول جناياتى وعظم خطيئتى * هلكت ومالى فى المتاب نصيب
واغرق فى بحر المخافة آيسا * وترجع نفسى تارة فتتوب

وتذكرني عفو الكريم عن الورى * فأحيا وأرجو عفوه فأنيب
وأخضع في قولي وأرغب سائلا * عسى كاشف البلوى على يتوب

قال ابن طراز الجريري : وقد رويت هذه الأبيات لمن ؟ قيل لأبي نواس وهي في زهدياته . وقد استشهد بها النحاة في أماكن كثيرة قد ذكرناها . وقال حسن بن الداية : دخلت على أبي نواس وهو في مرض الموت فقلت : عظني . فأنشأ يقول :

فكثر ما استطعت من الخطايا * فانك لاقيا ربا غفوراً
ستبصر إن وردت عليه عفواً * وتلقى سيداً ملكا قديرا
تعض ندامة كفيك مما * تركت مخافة النار الشرورا

فقلت : ويحك ! بمثل هذا الحال تعظني بهذه الموعظة ؟ فقال : اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال النبي ﷺ : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . وقد تقدم بهذا الاسناد عنه « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » . وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال : دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فأنشأ يقول :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته * بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منةً وتكرما
ولولاك لم يقدر لابليس عابد * وكيف وقد أغوى صفيك آدما

رواه ابن عساكر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوبا فيها بخطه :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة * فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً * فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ان كان لا يرجوك إلا محسن * فمن الذي يرجو المسيء المجرم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا * وجميل عفوك ثم أني مسلم

وقال يوسف بن الداية : دخلت عليه وهو في السياق فقلت : كيف تجدك ؟ فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال :

دب فيّ الفناء سفلا وعلواً * وأراني أموت عضواً فعضواً
ليس يمضي من لحظة بي إلا * نقصتني بمرها فيّ جزواً
ذهبت جدتي بلذة عيشي * وتذكرت طاعة الله نضواً
قد أسأنا كل الاساءة فاللـ * ـهم صفحاً عنا وغفرا وعفواً

ثم مات من ساعته سامحنا الله وإياه آمين .

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصا ، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك . ولما

مات لم يجدوا له من المال سوى ثلثمائة درهم وثيابه وأثاثه ، وقد كانت وفاته فى هذه السنة ببغداد ودفن فى مقابر الشونيزى فى تل اليهود . وله خمسون سنة . وقيل ستون سنة ، وقيل تسع وخمسون سنة . وقد رآه بعض أصحابه فى المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى بأبيات قلتها فى النرجس :

تفكر فى نبات الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات * بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

وفى رواية عنه أنه قال : غفر لى بأبيات قلتها وهى تحت وسادتى فجاؤا فوجدوها برقعة فى خطه

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة * فلقد علمت أن عفوك أعظم

الأبيات . وقد تقدمت . وفى رواية لابن عساكر قال بعضهم : رأيته فى المنام فى هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ، قلت : بماذا وقد كنت مخلطا على نفسك ؟ فقال : جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألفى قل هو الله أحد ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا فى جملتهم ، فغفر الله لى . وقال ابن خلكان : أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب * إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب * تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

وقال المأمون : ما أحسن قوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك * وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى لباس صديق

قال ابن خلكان : وما أشد رجاءه بربه حيث يقول :

تحمل ما استطعت من الخطايا * فإنك لاقيا ربا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً * وتلقى سيداً ملكا كبيرا
تعض ندامة كفيك مما * تركت مخافة النار الشرورا

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة ﴾

فيها توفى أبو معاوية الضرير أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين . والوليد بن مسلم الدمشقى تلميذ الأوزاعى . وفيها حبس الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه فى أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره فى هذا الوقت . وفيها وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد ابن قحطبة فى أربعين ألفا إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون ، فلما وصلوا إلى قريب

من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة فى إيقاع الفتنة بين الأميرين ، فاختلفا فرجعا ولم يقاتلاه ، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ، وأن يتوجه هو إلى الأهواز . ففعل ذلك . وفيها رفع المأمون وزيره الفضل بن سهل وولاه أعمالا كباراً وسماه ذا الرياستين . وفيها ولى الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن على - وقد كان أخرجه من سجن الرشيد - وأمره أن يبعث له رجالا وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة ، فلما وصل إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة ، فقدم عليه منهم خلق كثير ، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص ، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس ، ومات عبد الملك ابن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن على بن ماهان ، فتلقاه أهل بغداد بالاكرام ، وذلك فى شهر رجب من هذه السنة . فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال : والله ما أنا بسامر ولا مضحك ، ولا وليت له عملا ولا جبى على يدى مالا ، فلماذا يطلبنى فى هذه الليلة ؟.

﴿ ذكر سبب خلع محمد بن زبيدة الأمين ﴾

(وكيف أفضت الخلافة إلى أخيه عبد الله المأمون)

لما أصبح الحسين بن على بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه ، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام ، قام فى الناس خطيبا وألبهم على الأمين ، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصى ، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله ، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس ، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه ، وندبهم لذلك ، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلا فاقتتلوا مليا من النهار ، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح ، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ، وذلك يوم الأحد الحادى عشر من شهر رجب من هذه السنة ، ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبى جعفر وسط بغداد ، وضيق عليه وقيده واضطهده ، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضربها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها ، فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن على أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين ، فرقة مع الأمين وفرقة عليه . فاقتتلوا قتالا شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك ، وأسروا الحسين بن على ابن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على سريره ، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن ، فانتهب الناس الخزائن التى فيها السلاح بسبب ذلك ، وأمر الأمين فأتى بالحسين بن على بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك . فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه

الخاتم وولاه ما وراء بابه ، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان ، فلما وصل إلى الجسر هرب فى حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من برده ، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم وقاتلوه فقتلوه لمنتصف رجب ، وجاؤا برأسه إلى الأمين ، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة ، ولما قتل الحسين بن على بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون ، واستناب بها النواب ، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، ودنا طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها ، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ، ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل . وفى شعبان منها عقد الأمين أربعمائة لواء مع كل لواء أمير ، وبعثهم لقتال هرثمة ، فالتقوا فى شهر رمضان فكسرهم هرثمة وأسر مقدمهم على بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وبعث به إلى المأمون . وهرب جماعة من جند طاهر فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالا كثيرة ، وأكرمهم وغلف لحاهم بالغالية فسموا جيش الغالية . ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشا كثيفاً لقتال طاهر فهزمهم طاهر وفرق شملهم ، وأخذ ما كان معهم . واقترب طاهر من بغداد لمحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً ، ثم وقع بين الجيش وتشعبت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين فى سادس ذى الحجة فقال بعض البغاددة :

قل لأمين الله فى نفسه * ماشتت الجند سوى الغاليه

وطاهر نفسى فدا طاهر * برسله والعدة الكافيه

أضحى زمام الملك فى كفه * مقاتلا للفئة الباغيه

يا ناكثا أسلمه نكثه * عيوبه فى خبثه فاشيه

قد جاءك الليث بشداته * مستكلبا فى أسد ضاريه

فاهرب ولا مهرب من مثله * إلا إلى النار أو الهاويه

فتفرق على الأمين شمله ، وحار فى أمره ، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، واشتد الحال على أهل البلد وأخاف الدعار والشطار أهل الصلاح ، وخربت الديار ، وثارت الفتنة بين الناس ، حتى قاتل الأخ أخاه للاهواء المختلفة ، والابن أباه ، وجرت شرور عظيمة ، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد .

وحج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمى من قبل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة ، وهو أول موسم دعى فيه للمأمون .

وفيها توفى بقية بن الوليد الحمصى إمام أهل حمص وفقيهها ومحدثها .

﴿ وحفص بن غياث القاضى ﴾

عاش فوق التسعين . ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له : لا تبك ! والله ما حلت سراويلى على حرام قط ، ولا جلس بين يدى خصمان فباليت على من وقع الحكم عليه منهما ، قريبا كان أو بعيداً ، ملكا أو سوقة .

وعبد الله بن مرزوق أبو محمد الزاهد ، كان وزيرا للرشيد فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل الله أن يرحمه .

﴿ وأبو شيص ﴾

الشاعر محمد بن رزين بن سليمان ، كان أستاذ الشعراء ، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ، كذا قال ابن خلكان وغيره . وكان هو وأبو مسلم بن الوليد - الملقب صريع الغوانى - وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون . وقد عمى أبو الشيص فى آخر عمره ، ومن جيد شعره قوله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة * حباً لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم * إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغراً * ما من يهون عليك ممن تكرم

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة ﴾

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ومن معهما فى حصار بغداد والتضييق على الأمين ، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدى إلى المأمون فأكرمهما ، وولى أخاه القاسم جرجان . واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرّادات . وضاق الأمين بهم ذرعا ، ولم يبق معه ما ينفق فى الجند ، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير ، وهرب كثير من جنده إلى طاهر ، وقتل من أهل البلد خلق كثير ، وأخذت أموال كثيرة منهم ، وبعث الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى فى ذلك من المصلحة ، فعل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم ، وقتل وخربت دياره كما سيأتى قريباً ، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تخرب بكمالها ، فقال بعضهم فى ذلك :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين * ألم تكونى زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم * إلا تحدر ماء العين من عينى

كانوا ففرقهم دهرٌ وصـدعهم * والدهر يصدع مابين الفريقين

وقد أكثر الشعراء فى ذلك . وقد أورد ابن جرير من ذلك طرفاً صالحاً ، وأورد فى ذلك قصيدة طويلة جداً فيها بسط ما وقع ، وهى هول من الأهوال اقتصرناها بالكلية .

واستحوذ طاهر عـلى ما فى الضياع من الغلات والحواصل للأمراء وغيرهم ، ودعاهم إلى الأمان والبيعة للمأمون فاستجابوا جميعهم ، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن عـلى بن ماهان ، ومحمد بن أبى العباس الطوسى ، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء ، وصارت قلوبهم معه . واتفق فى بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهـم طائفة عند قصر صالح ، فلما سمع الأمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب ، ووكل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن عيسى بن نهيك ، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأمين جـداً ، وانحاز الناس إلى جيش طاهر — وكان جانبه آمنا جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك — وقد أخذ طاهر أكثر محال بغـداد وأرباضها ، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خالفه ، فغلت الاسعار جداً عند من خالفه ، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك ، ومنعت التجار من القـدوم إلى بغـداد بشئ من البضائع أو الدقيق ، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها ، وجرت بين الفريقين حروب كثيرة ، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين ، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتى عريانا ومعـه بارية مقيرة ، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة ، فاذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه ببارية فلا يؤذيه ، وإذا اقترب منه رماه بحجر فى المقلاع أصابه ، فهزموهم لذلك . ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين ، فشق ذلك على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية ، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم ، واسترد منهـم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم من أصحابه ، فشق ذلك على محمد الأمين وقال فى ذلك :—

منيت بأشجع الثقلين قلباً * إذا ما طال ليس كما يطول

له مع كل ذى بدنٍ رقيب * يشاهده ويعلم ما يقول

فليس بمغفل أمرا عناداً * إذا ما الأمر ضيّعه الغفول

وضعف أمر الأمين جـداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا عـلى نفسه ، وتفرق أكثر أصحابه عنه ، وبقى مضطهداً ذليلا . ثم انقضت هذه السنة بكمالها والناس فى بغداد فى قلاقل وأهوية مختلفة ، وقتال وحريق ، وسرقات ، وساءت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد عن أحد كما هى عادة الفتن .

وحج بالناس فيها العباس بن موسى الهاشمى من جهة المأمون . وفيها توفى شعيب بن حرب أحد

الزهاد . وعبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية . وعبد الرحمن بن مسهر أخو على بن مسهر . وعثمان بن سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبى نعيم . ووكيع بن الجراح الرواسى أحد أعلام المحدثين . مات عن ست وستين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة ﴾

فيها خامر خزيمة بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر . ودخل هرثمة بن أعين من الجانب الشرقى . وفى يوم الأربعاء لثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن على بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه . ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد الأمين ، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقى فباشر القتال بنفسه ، ونادى بالأمان لمن لزم منزله ، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعات ، وأحاطوا بمدينة أبى جعفر والخلد وقصر زبيدة ، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة ، ورماه بالمنجنيق ، فخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبى جعفر ، وتفرق عنه عامة الناس فى الطريق ، لا يلوى أحد على أحد ، حتى دخل قصر أبى جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمى المنجنيق ، وأمر بتحريق ما كان فيه من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك ، ثم حصر حصراً شديداً . ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه على الهلاك خرج ذات ليلة فى ضوء القمر إلى شاطىء دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول : غير هذا ، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته :

أما ورب السكون والحرك * إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء فى الفلك
إلا لنقل السلطان من ملك * قد انقضى ملكه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً * ليس بفان ولا بمشترك

قال : فسبها وأقامها من عنده فعثرت فى قدح كان له من بلور فكسرته فتطير بذلك . ولما ذهبت الجارية سمع صارخاً يقول (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) فقال لجليسه : ويحك ألا تسمع ، فتسمع فلا يسمع شيئاً ، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل فى رابع صفر يوم الأحد ، وقد حصل له من الجهد والضيق فى حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام يأكله ولا شراب بحيث إنه جاع ليلة فما أتى برغيف ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة ، ثم طلب ماء فلم يوجد له فبات عطشانا فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء .

﴿ كيفية مقتله ﴾

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقى معه من الأمراء والخدم والجند ، فشاورهم فى أمره فقالت

طائفة : تذهب بمن بقى معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال . وقال بعضهم تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أمانا وتبايع لأخيك ، فاذا فعلت ذلك فان أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفى أهلك من أمر الدنيا ، وغاية مرادك الدعة والراحة ، وذلك يحصل لك تاماً . وقال بعضهم : بل هرثمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فانه مولاكم وهو أحنى عليك . فمال إلى ذلك ، فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثمة أن يخرج إليه ، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلسانا واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال : أستودعكما الله ، ومسح دموعه بطرف كمه ، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة ، فلما انتهى إلى هرثمة أكرمه وعظمه وركبا فى حراقة فى دجلة ، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال : أنا الذى فعلت هذا كله ويذهب إلى غيرى ، وينسب هذا كله إلى هرثمة ؟ فلحقهما وهما فى الحراقة فأمالها أصحابه فغرق من فيها ، غير أن الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند . وجاء فأعلم طاهراً فبعث إليه جنداً من العجم فجاؤا إلى البيت الذى هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له : ادن منى فانى أجد وحشة شديدة ، وجعل يلتف فى ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقانا عظيما ، كاد يخرج من صدره . فلما دخل عليه أولئك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول : ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى . فلم يلتفتوا إلى شئ من ذلك ، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته ، ثم جاؤا بكرة إليها فلفوها فى جل فرس وذهبوا بها . وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة .

﴿ وهذا شئ من ترجمته ﴾

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور ، أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمى العباسى ، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة [قال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عياش بن هشام عن أبيه قال : ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد فى شوال سنة سبعين ومائة (١)] . وأتته الخلافة بمدينة السلام بغداد لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقيل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم ، وقتل سنة ثمان وتسعين ومائة ، قتله قريش الدندانى ، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على رمح وتلا هذه الآية (قل اللهم مالك الملك) وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، وكان طويلا سمينا أبيض أقنى الأنف صغير العينين ، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين . وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة . وقد ذكر ابن جرير طرفاً من سيرته فى إكثاره من

(١) زيادة من المصرية .

اقتناء السودان والخصيان ، و إعطائه الأموال والجواهر ، وأمره باحضار الملاهي والمغنين من سائر البلاد ، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس ، وأنفق على ذلك أموالا جزيلة جداً ، وقد امتدحه أبو نواس بشعر أقبح فى معناه من صنيع الأمين فانه قال فى أوله : سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب المحراب

فاذا ما ركابه سرن براً * سار فى الماء راكبا ليث غاب

ثم وصف كلا من تلك الحراقات . واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغيرها ، وأنفق فى ذلك أموالا كثيرة جداً . فكثر النكير عليه بسبب ذلك .

وذكر ابن جرير أنه جلس يوماً فى مجلس أنفق عليه مالا جزيلا فى الخلد ، وقد فرش له بأنواع الحرير ، ونضد بآنية الذهب والفضة ، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانة أن تهيء له مائة جارية حسناء وأمرها أن تبعثهن إليه عشراً بعد عشر يغنينه ، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد:

هم قتلوه كى يكونوا مكانه * كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس ، وأمر بالقهرمانة أن تلقى إلى الأسد فأكلها . ثم استدعى بعشرة فاندفعن يغنين :

من كان مسروراً بمقتل مالك * فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه * يلطمن قبل تبلج الأسحار

فطردهن واستدعى بعشر غيرهن ، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً * وأيسر ذنبا منك ضرج بالدم

فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحريق ما فيه .

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر و يعطى عليه الجوائز الكثيرة ، وكان شاعره أبا نواس ، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حسانا ، وقد وجده مسجونا فى حبس الرشيد مع الزنادقة فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجعله من ندمائه ، ثم حبسه مرة أخرى فى شرب الخمر وأطال حبسه ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتى الذكور من المردان فامتثل ذلك ، وكان لا يفعل شيئا من ذلك بعد ما استتابه الأمين ، وقد تأدب على الكسائى وقرأ عليه القرآن . وروى الخطيب من طريقه حديثا أورده عنه لما عزى فى غلام له توفى بمكة فقال : حدثنى أبى عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن على بن عبد الله عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول . « من مات محرماً حشر ملبيا » .

وقد قدمنا ما وقع بينه و بين أخيه من الاختلاف والفرقة ، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله ، ثم

إلى التضييق عليه ، ثم إلى قتله ، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرثمة ، وأنه ألقى في حراقة ثم ألقى منها فسبح إلى الشط الآخر فدخل دار بعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعرى ، فجعل الرجل يلقنه الصبر والاستغفار ، فاشتغل بذلك ساعة من الليل ، ثم جاء الطلب وراءه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب ، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقا فتدافعوا عليه وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة في يده ، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه أو خاصرته بالسيوف ، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما طاهرا ، ففرح بذلك فرحا شديداً ، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هنالك حتى أصبح الناس فنظروا إليه فوق الرمح عند باب الأنبار ، وكثر عدد الناس ينظرون إليه . ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب ، وبعث معه بالبردة والقضيب والنعل — وكان من خوص مبطن — فسلمه إلى ذى الرياستين ، فدخل به على المأمون على ترس ، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم . وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر : أمرناه بأن يأتى به أسيراً فأرسل به إلينا عقيراً . فقال المأمون : مضى ما مضى . وكتب طاهر إلى المأمون كتابا ذكر فيه صورة ما وقع حتى آل الحال إلى ما آل إليه .

ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخمدت الشرور ، وأمن الناس ، وطابت النفس ، ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى معسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبى جعفر إلى قصر الخلد ، فخرجت يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وبعث بموسى وعبد الله ابنى الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان ، وكان ذلك رأيا سديداً . وقد وثب طائفة من الجند على طاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال ، فتحزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه ونادوا : يا موسى يا منصور ، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق هنالك ، وإذا هو قد سيره إلى عمه . وانحاز طاهر بمن معه من القواد ناحية وعزم على قتالهم بمن معه ، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندموا ، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس ، فطابت الخواطر . ثم إن إبراهيم بن المهدى قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورثاه بأبيات ، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك . وقد ذكر ابن جرير مراثى كثيرة للناس فى الأمين ، وذكر من أشعار الذين هجوه طرفا ، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله : —

ملكت الناس قسراً واقتداراً ٭ وقتلت الجبابرة الكبارا

ووجهت الخلافة نحو مرو ٭ إلى المأمون تبتدر ابتدارا

{ ذكر خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون }

لما قتل أخوه محمد فى رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل فى المحرم ، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون : فولى الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن ، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم ، وكتب إلى طاهر بن الحسين أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث ، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب . وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان . وفيها حج بالناس العباس بن عيسى الهاشمى . وفيها توفى سفيان بن عيينة . وعبد الرحمن ابن مهدى . ويحيى القطان فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء فى الحديث والفقه وأسماء الرجال .

{ ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة }

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائبا عليها من جهة المأمون ، ووجه نوابه إلى بقية أعماله ، وتوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب . وسار هرثمة إلى خراسان نائبا عليها ، وكان قد خرج فى أواخر السنة الماضية فى ذى الحجة منها الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فجبى الأموال وانتهب الأنعام وعاث فى البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشا فقتلوه فى المحرم من هذه السنة . وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ، يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذى يقال له ابن طباطبا ، وكان القائم بأمره وتدبير الحرب بين يديه أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، وقد اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ، ووفدت إليه الأعراب من نواحى الكوفة ، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان ابن أبى جعفر المنصور ، فبعث الحسن بن سهل يلومه ويؤنبه على ذلك ، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس صحبة زاهر بن زهير بن المسيب ، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زاهرا واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه ، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الغد من الوقعة توفى ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة ، يقال إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن على ابن الحسين بن على بن طالب . وانعزل زاهر بمن بقى معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة ، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس ، صورة مدد لزاهر ، فالتقوا هم وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد ، وانتشر الطالبيون فى تلك البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير فى الكوفة ، ونقش عليه (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا) الآية . ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها من النواب ودخلوها قهراً ، وقويت شوكتهم ، فأهم ذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبى السرايا

فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة . ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فنهبوها وخربوا ضياعهم ، وفعلوا أفعالا قبيحة، وبعث أبو السرايا إلى المدائن فاستجابوا ، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس ليقيم لهم الموسم فخاف أن يدخلها جهرة ، ولما سمع نائب مكة ـ وهو داود بن عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس ـ هرب من مكة طالبا أرض العراق ، وبقى الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد ابن محمد بن الوليد الأزرقى أن يصلى بهم فأبى ، فقيل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن المخزومى فامتنع ، وقال : لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد . فقدم الناس رجلا منهم فصلى بهم الظهر والعصر، وبلغ الخبر إلى حسين الأفطس فدخل مكة فى عشرة أنفس قبل الغروب فطاف بالبيت ، ثم وقف بعرفة ليلا وصلى بالناس الفجر بمزدلفة وأقام بقية المناسك فى أيام منى ، فدفع الناس من عرفة بغير إمام . وفيها توفى إسحاق بن سليمان . وابن نمير . وابن سابور . وعمر والعنبرى ، والد مطيع البلخى ويونس بن بكير .

(ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة)

فى أول يوم منها جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد الكعبة مما عليها من كساوى بنى العباس ، وقال : نطهرها من كساويهم . وكساها ملاءتين صفراوتين عليهما اسم أبى السرايا ، ثم أخذ ما فى كنز الكعبة من الأموال ، وتتبع ودائع بنى العباس فأخذها ، حتى أنه أخذ مال ذوى المال ويزعم أنه للمسودة . وهرب منه الناس إلى الجبال ،وسبك ما على رؤس الأساطين من الذهب ، وكان ينزل مقدار يسير بعد جهد ، وقلعوا ما فى المسجد الحرام من الشبابيك وباعوها بالبخس ، وأساؤا السيرة جداً . فلما بلغه مقتل أبى السرايا كتم ذلك وأمر رجلا من الطالبيين شيخاً كبيراً ، واستمر على سوء السيرة ، ثم هرب فى سادس عشر المحرم منها ، وذلك لما قهر هرثمة أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبيين من الكوفة ، ودخلها هرثمة ومنصور بن المهدى فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد . وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية ، ثم سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزمهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً ، وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبى السرايا برأس العين ، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهروان حين طردته الحربية ، فأمر بضرب عنق أبى السرايا فجزع من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بجسده أن يقطع اثنتين وينصب على جسرى بغداد ، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر . فبعث الحسن بن سهل بن محمد إلى المأمون مع رأس أبى السرايا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر ضربة الحسن بن سهل * بسيفك يا أمير المؤمنينا

أدارت مرو رأس أبي السرايا * وأبقت عبرة للعالمينا

وكان الذي في يده البصرة من الطالبيين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي ، ويقال له زيد النار ، لكثرة ما حرق من البيوت التي للمسودة ، فأسره علي بن سعيد وأمنه وبعث به وبمن معه من القواد إلى اليمن لقتال من هناك من الطالبيين .

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له الجزار لكثرة من قتل من أهل اليمن ، وأخذ من أموالهم . وهو الذي كان بمكة وفعل فيها ما فعل كما تقدم ، فلما بلغه قتل أبي السرايا هرب إلى اليمن ، فلما بلغ نائب اليمن خبره ترك اليمن وسار إلى خراسان واجتاز بمكة وأخذ أمه منها . واستحوذ إبراهيم هذا على بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة يطول ذكرها ، ورجع محمد بن جعفر العلوي عما كان يزعمه ، وكان قد ادعى الخلافة بمكة ، وقال : كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك ، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين . ولما هزم هرثمة أبا السرايا ومن كان معه من ولاة الخلافة وهو محمد بن محمد وشى بعض الناس إلى المأمون أن هرثمة راسل أبا السرايا وهو الذي أمره بالظهور ، فاستدعاه المأمون إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام ، وانطوى خبره بالكلية . ولما وصل خبر قتله إلى بغداد عبثت العامة والحربية بالحسن ابن سهل نائب العراق وقالوا : لا نرضى به ولا بعماله ببلادنا ، وأقاموا إسحاق بن موسى المهدي نائباً ، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد ، وأرسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال ، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة . ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان ، فما زال يمطلهم إلى ذي القعدة حتى يدرك الزرع ، فخرج في ذي القعدة زيد بن موسى الذي يقال له زيد النار ، وهو أخو أبي السرايا ، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار ، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمدائن إذ ذاك فأخذ وأتي به إلى علي ابن هشام ، وأطفأ الله ثائرته .

وبعث المأمون في هذه السنة يطلب من بقي من العباسيين ، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، ما بين ذكور وإناث . وفيها قتلت الروم ملكهم اليون ، وقد ملكهم سبع سنين ، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه . وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ، لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين . فقتل صبراً بين يديه . وفيها حج بالناس محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد .

وفيها توفي من الأعيان :

أسباط بن محمد . وأبو ضمرة أنس بن عياض . ومسلم بن قتيبة . وعمر بن عبد الواحد . وابن أبي فديك . ومبشر بن إسماعيل ومحمد بن جبير . ومعاذ بن هشام .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى ومائتين ﴾

فيها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك ، فراودوه على أن يكون نائبا للمأمون يدعو له في الخطبة فأجابهم إلى ذلك ، وقد أخرجوا علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك . وفيها عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى ، كانوا يأتون الرجل يسألونه مالا يقرضهم أو يصلهم به فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في منزله ، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان ، ويأتون أهل القرية فيستاقون من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان ، ونهبوا أهل قطربل ولم يدعوا لهم شيئا أصلا ، فانتدب لهم رجل يقال له خالد الدريوش ، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان . والتف عليهم جماعة من العامة فكفوا شرهم وقاتلوهم ومنعوهم من الفساد في الأرض ، واستقرت الأمور كما كانت ، وذلك في شعبان ورمضان . وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند ، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء . وفيها بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده ، وسماه الرضى من آل محمد ، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة ، فلبسها هو وجنده ، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وذلك أن المأمون رأى أن عليا الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه ، فجعله ولي عهده من بعده .

﴿ ذكر بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي ﴾

لما جاء الخبر أن المأمون بايع لعلي الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم ، فمن مجيب مبايع ، ومن آب ممانع ، وجمهور العباسيين على الامتناع من ذلك ، وقام في ذلك ابنا المهدي إبراهيم ومنصور ، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك — وكان أسود اللون — ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي ، وخلعوا المأمون . فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة . لا تدعوا إلا إلى إبراهيم فقط ، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم ، ولم يصلوا الجمعة ، وصلى الناس فرادى أربع ركعات .

وفيها افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز . وذكر ابن حزم أن سلما الخاسر

قال فى ذلك شعرا . وقد ذكر ابن الجوزى، وغيره أن سلماً توفى قبل ذلك بسنين فالله أعلم .

وفيها أصاب أهل خراسان والرى وأصبهان مجاعة شديدة وغلا الطعام جداً . وفيها تحرك بابك الخرّمى واتبعه طوائف من السفلة والجهلة وكان يقول بالتناسخ . وسيأتى ما آل أمره إليه . وفيها حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمى .

وفيها توفى من الأعيان : أبو أسامة حماد بن أسامة . وحماد بن مسعدة . وحرمى بن عمارة . وعلى بن عاصم . ومحمد بن محمد صاحب أبى السرايا الذى قد كان بايعه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين ﴾

فى أول يوم منها بويع لابراهيم بن المهدى بالخلافة ببغداد وخلع المأمون ، فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدى المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك ، وغلب على الكوفة وأرض السواد ، وطلب منه الجند أرزاقهم فماطلهم ثم أعطاهم مائتى درهم لكل واحد ، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد ، فخرجوا لا يمرون بشئ إلا انتهبوه ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان ، واستناب على الجانب الشرقى العباس بن موسى الهادى ، وعلى الجانب الغربى إسحاق بن موسى الهادى .

وفيها خرج خارجى يقال له مهدى بن علوان ، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم ابن الرشيد فى جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده . وفيها خرج أخو أبى السرايا فبيض بالكوفة فأرسل إليه إبراهيم بن المهدى من قاتله فقتل أخو أبى السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم ، ولما كان ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت فى السماء حمرة ثم ذهبت وبقى بعدها عمودان أحمران فى السماء إلى آخر الليل ، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون ، واقتتلوا قتالا شديداً . وعلى أصحاب إبراهيم السواد ، وعلى أصحاب المأمون الخضرة ، واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب .

وفيها ظفر إبراهيم بن المهدى بسهل بن سلامة المطوع فسجنه ، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس يقومون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة ، وصار باب داره كأنه باب دار السلطان ، عليه السلاح والرجال وغير ذلك من أبهة الملك ، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة ثم اختفى فى بعض الدور ، فأخذ وجئ به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة . وفيها أقبل المأمون من خراسان قاصدا العراق ، وذلك أن على بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن والاختلاف بارض العراق ، وبأن الهاشميين قد أنهوا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومسجون ، وأنهم قد نقموا عليك بيعتك لعلى بن موسى ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم

ابن المهدى . فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا عليا فيما قال ، بعد أخذهم الأمان منه ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هرثمة ، وقد كان ناصحا لك . فعاجله بقتله ، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فقعد لا عمل له ولا تستنهضه فى أمر ، وإن الأرض تفتقت بالشرور والفتن من أقطارها . فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ، وقد فطن الفضل بن سهل بما تمالأ عليه أولئك الناصحون ، فضرب قوما ونتف لحى بعضهم . وسار المأمون فلما كان بسرخس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو فى الحمام فقتلوه بالسيوف ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شوال وله ستون سنة ، فبعث المأمون فى آثارهم فجئ بهم وهم أربعة من المماليك فقتلهم ، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزيه فيه ، وولاه الوزارة مكانه ، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدى بالمدائن ، وفى مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون .

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وزوج على بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن على بن موسى بابنته الأخرى أم الفضل . وحج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو على الرضى ، ودعا لأخيه بعد المأمون ، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن ، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن على بن موسى بن ماهان . وفيها توفى : أيوب بن سويد . وضمرة . وعمرو بن حبيب . والفضل بن سهل الوزير . وأبو يحيى الحمانى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين ﴾

فيها وصل المأمون العراق ومر بطوس فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياما من شهر صفر ، فلما كان فى آخر الشهر أكل على بن موسى الرضى عنبا فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد ، وأسف عليه أسفا كثيراً فيما ظهر ، وكتب إلى الحسن بن سهل يعزيه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه ، وكتب إلى بنى العباس يقول لهم : إنكم إنما نقمتم على بسبب توليتى العهد من بعدى لعلى بن موسى الرضى ، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة . فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد . وفيها تغلبت الثوار على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع فى بيت ، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون ، فكتب إليهم إنى واصل على إثر كتابى هذا . ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد ، وتنكروا عليه وأبغضوه . وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد وتفاقم الحال ، وصلوا يوم الجمعة ظهراً ، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة ، صلوا أربع ركعات ، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم فى إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأمونية عليهم .

﴿ ذكر خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدى ودعائهم للمأمون ﴾

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس للمأمون وخلعوا إبراهيم ، وأقبل حميد بن عبد الحميد فى جيش

من جهة المأمون فحاصر بغداد . وطمع جندها فى العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون . وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبى خالد فى جماعة من جهة إبراهيم بن المهدى ، ثم احتال عيسى حتى صار فى أيدى المأمونية أسيرا ، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدى فى آخر هذه السنة . وكانت أيامه سنة و إحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً . وقدم المأمون فى هذا الوقت إلى همذان وجيوشه قد استنقذوا بغداد إلى طاعته . وحج بالناس فى هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن على . وفيها توفى من الأعيان :

﴿ على بن موسى ﴾

ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، القرشى الهاشمى العلوى الملقب بالرضى ، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك ، فجعله ولى العهد من بعده كما قدمنا ذلك . توفى فى صفر من هذه السنة بطوس . وقد روى الحديث عن أبيه وغيره ، وعنه جماعة منهم المأمون وأبو الصلت الهروى وأبو عثمان المازنى النحوى ، وقال سمعته يقول : الله أعدل من أن يكلف العباد مالا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . ومن شعره :

كلنا يأمل مداً فى الأجل * والمنايا هن آفات الأمل
لاتغرنك أباطيل المنى * والزم القصد ودع عنك العلل
إنما الدنيا كظل زائل * حل فيه راكب ثم ارتحل

﴿ ثم دخلت سنة أربع ومائتين ﴾

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق ، وذلك أنه مر بجرجان فأقام بها شهراً ، ثم سار منها وكان ينزل فى المنزل يوماً أو يومين ، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام ، وقد كتب إلى طاهر بن الحسين وهو بالرقة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه بها وتلقاه رؤس أهل بيته والقواد وجمهور الجيش ، فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد حين ارتفع النهار لأربع عشرة ليلة خلت من صفر ، فى أبهة عظيمة وجيش عظيم ، وعليه وعلى جميع أصحابه وفتيانه الخضرة ، فلبس أهل بغداد وجميع بنى هاشم الخضرة ، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصر على دجلة ، وجعل الأمراء ووجوه الدولة يترددون إلى منزله على العادة ، وقد تحول لباس البغادة إلى الخضرة ، وجعلوا يحرقون كل ما يجدونه من السواد ، فمكثوا كذلك ثمانية أيام . ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين فكان أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد ، فانه لباس آبائه من دولة ورثة الأنبياء . فلما كان السبت الآخر وهو الثامن والعشرين من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضرة ، ثم إنه أمر بخلعة سوداء فألبسها طاهراً ، ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد ، فلبس الناس السواد وعادوا إلى

ذلك ، فعلم منهــم بذلك الطاعة والموافقة ، وقيل إنه مكث يلبس الخضرة بعد قدومه بغــداد سبعا وعشرين يوماً ، فالله أعلم .

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدى بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ، فأخــذ فى الاعتذار والاستغفار ، ثم قال : أنا الذى منذتَ عليــه يا أمير المؤمنين بالعفو ، وأنشد المأمونَ عند ذلك :

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم * ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسواد منك نصيب * فبياض الأخلاق منك نصيبى

قال ابن خلكان : وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلانس الاسكندرى فقال :

رب سوداء وهى بيضاء فعل * حسد المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه الناس * سوادا وإنمــا هو نور

وكان المأمون قد شاور فى قتل عمه إبراهيم بن المهدى بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير الأحول : يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء فى ذلك ، وإن عفوت عنه فما لك نظير . ثم شرع المأمون فى بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره ، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور ، وأمر بمقاسمة أهل السواد عــلى الخسين ، وكانوا يقاسمون على النصف . واتخــذ القفيز الملحم وهو عشرة مكاكى بالمكوك الأهوازى ، ووضع شيئا كثيراً من خراجات بلاد شتى ، ورفق بالناس فى مواضع كثيرة ، وولى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولى أخاه صالحا البصرة ، وولى عبيــد الله بن الحسين ابن عبد الله بن العباس بن عــلى بن أبى طالب نيابة الحرمين ، وهو الذى حج بالناس فيها . وواقع يحيى بن معاذ بابك الخرّمى فلم يظفر به . وفيها توفى من الأعيان جماعة منهم :

﴿ أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ﴾

وقد أفردنا له ترجمــة مطولة فى أول كتابنا طبقات الشافعيين ، ولنذكر ههنا ملخصاً من ذلك وبالله المستعان .

هو محمــد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف بن قصى ، القرشى المطلبى ، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر ، وابنه شافع ابن السائب من صغار الصحابة ، وأمــه أزدية . وقد رأت حين حملت به كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع فى كل بلد منــه شظية . وقد ولد الشافعى بغزة ، وقيل بعسقلان ، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه ، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع ســنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وأفتى وهو ابن

خمس عشرة سنة . وقيل ابن ثماني عشرة سنة ، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي ، وعنى باللغة والشعر ، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها ، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبته قراءته وهمته ، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي . وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم ، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل .

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، منهم عمرو بن علي وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . وكلهم عن رسول الله ﷺ . وتفقه أيضاً على مالك عن مشايخه ، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد . وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة . فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد ، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن ، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين ، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقر بعير ، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه ، ثم عاد الشافعي إلى العراق في سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرابيسي ، والحارث بن شريح البقال ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، والزعفراني ، وغيرهم . ثم رجع إلى مكة ثم رجع إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة ، سنة أربع ومائتين . وصنف بها كتابه الأم وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع ابن سليمان ، وهو مصري . وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم ، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم .

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له الرسالة ، وكان يدعو له في الصلاة دائماً ، وشيخه مالك بن أنس وقتيبة ابن سعيد . وقال : هو إمام . وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وكان يدعو له أيضاً في

صلاته . وأبو عبيد ، وقال : ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أورع من الشافعي . ويحيى بن أكثم القاضي ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن ، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم .

وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة ، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي علقمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال فعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، والشافعي على رأس المائة الثانية . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا جعفر بن سليمان عن نصر بن معبد الكندي ــ أو العبدي ــ عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علماً ، اللهم إنك إذ أذقت أولها عذابا ووبالا فأذق آخرها نوالا » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الاسفرايينى : لاينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي . حكاه الخطيب . وقال يحيى بن معين عن الشافعي : هو صدوق لا بأس به . وقال مرة : لو كان الكذب له مباحاً مطلقا لكانت مروءته تمنعه أن يكذب . وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : الشافعي فقيه البدن ، صدوق اللسان . وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال : ما عند الشافعي حديث غلط فيه . وحكى عن أبي داود نحوه .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ــ وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعي ؟ ــ فقال : لا . ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها ، وتارة مرسلة ، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم . وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة . وقال أبو ثور : ما رأينا مثل الشافعي ولا هو رأى مثل نفسه . وكذا قال الزعفراني وغيره . وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي : للشافعي من الفضائل مالم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه ، وصحة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف ، وجودة الأصحاب والتلامذة ، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه ، وإقامته على السنة . ثم سرد أعيان أصحابه من البغادذة والمصريين ، وكذا عد أبو داود من جملة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل . وقد كان الشافعي من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة ، وأشد الناس نزعاً للدلائل منهما ، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً ، كان يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إليّ شيء منه أبداً فأوجر عليه ولا يحمدوني . وقد قال غير واحد عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قولي ، فأني أقول به ، وإن لم تسمعوا مني .

وفى رواية فلا تقلدونى . وفى رواية فلا تلتفتوا إلى قولى . وفى رواية فاضربوا بقولى عرض الحائط ، فلا قول لى مع رسول الله ﷺ . وقال : لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشئ من الأهواء . وفى رواية خير من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : لو علم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم فى القبائل وينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطى : سمعت الشافعى يقول : عليكم بأصحاب الحديث فانهم أكثر الناس صواباً . وقال : إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ، جزاهم الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل . ومن شعره فى هذا المعنى قوله :

كل العلوم سوى القرآن مشغلة * إلا الحديث وإلا الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا * وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وكان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر . وقد روى عن الربيع وغيرِ واحد من رؤس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، على طريقة السلف . وقال ابن خزيمة : أنشدنى المزنى وقال أنشدنا الشافعى لنفسه قوله :

ما شئتَ كان وإن لم أشأ * وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمت * ففى العلم يجرى الفتى والمسن
فمنهم شقى ومنهم سعيد * ومنهم قبيح ومنهم حسن
على ذا مننت وهذا خذلت * وهذا أعنت وذا لم تعن

وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على . وعن الربيع قال : أنشدنى الشافعى :

قد عوج الناس حتى أحدثوا بدعاً * فى الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل
حتى استخف بحق الله أكثرهم * وفى الذى حملوا من حقه شغل

وقد ذكرنا من شعره فى السنة وكلامه فيها وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً فى الذى كتبناه فى أول طبقات الشافعية . وقد كانت وفاته بعصر يوم الخميس ، وقيل يوم الجمعة ، فى آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، وعن أربع وخمسين سنة ، وكان أبيض جميلا طويلا مهيبا يخضب بالحناء ، مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفيها توفى : إسحاق بن الفرات . وأشهب بن عبد العزيز المصرى المالكى . والحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى الحنفى . وأبو داود سليمان بن داود الطيالسى صاحب المسند ، أحـد الحفاظ . وأبو بدر شجاع بن الوليد . وأبو بكر الحنفى . وعبد الكريم . وعبد الوهاب بن عطا الخفاف . والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة . وهشام بن محمد بن السائب الكلبى أحد علماء التاريخ .

﴿ ثم دخلت سنة خمس ومائتين ﴾

فيها ولى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغـداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق ، ورضى عنـه ورفع منزلته جـداً ، وذلك لأجل مرض الحسن بن سهل بالسواد . وولى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ . وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد فى هذه السنة ، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث . وولى المأمون عيسى ابن يزيد الجلودى مقاتلة الزط . وولى عيسى بن محـمد بن أبى خالد أذربيجان . ومات نائب مصر السرى بن الحكم بها ، ونائب السند داود بن يزيد ، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه فى كل سنة ألف ألف درهم . وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفى من الأعيان : إسحاق بن منصور السلولى . وبشر بن بكر الدمشقى . وأبو عامر العقدى . ومحمد بن عبيد الطنافسى . ويعقوب الحضرى . ﴿ وأبو سليمان الدارانى ﴾ عبد الرحمن بن عطية ، وقيل عبد الرحمن ابن أحـمد بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الدارانى ، أحـد أئمة العلماء العاملين ، أصله من واسط سكن قرية غربى دمشق يقال لها داريا .

وقـد سمع الحديث من سفيان الثورى وغيره ، وروى عنـه أحمد بن أبى الحوارى وجماعة . وأسند الحافظ ابن عساكر من طريقه قال : سمعت على بن الحسن بن أبى الربيع الزاهد يقول سمعت إبراهيم بن أدهم يقول سمعت ابن عجـلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « من صلى قبل الظهر أربعاً غفر الله ذنوبه يومه ذلك » . وقال أبو القاسم القشيرى : حكى عن أبى سليمان الدارانى قال : اختلفت إلى مجلس قاصٍّ فأثر كلامه فى قلبى ، فلما قمت لم يبق فى قلبى منـه شئ ، فعدت إليه ثانية فأثر كلامه فى قلبى بعد ما قمت وفى الطريق ، ثم عدت إليه ثالثة فأثر كلامـه فى قلبى حتى رجعت إلى منزلى ، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق ، فحكيت هـذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركيا ـ يعنى بالعصفور القاص وبالكركى أبا سليمان ـ وقال أحـمد بن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر ، فاذا سمع به فى الأثر عمل به فكان نوراً على نور . وقال الجنيد قال أبو سليمان ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة .

قال : وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس . وقال لكل شئ علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله . وقال : لكل شئ صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن . وقال كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم . وقال : كنت ليلة فى المحراب أدعو ويداى ممدودتان فغلبنى البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها ، وغلبتنى عينى فنمت فهتف بى هاتف : يا أبا سليمان قد وضعنا فى هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها . قال : فآليت على نفسى ألا أدعو إلا ويداى خارجتان ، حراً كان أو برداً . وقال : نمت ليلة عن وردى فاذا أنا بحوراء تقول لى : تنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام ؟ وقال أحمد بن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول : إن فى الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور ، ينشئ الله خلق الحوراء إنشاء ، فاذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام ، الواحدة منهن جالسة على كرسى من ذهب ميل فى ميل ، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرسى ، فيجئ أهل الجنة من قصورهم يتنزهون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن . قال أبو سليمان : كيف يكون فى الدنيا حال من يريد افتضاض الأبكار على شاطئ تلك الأنهار فى الجنة .

وقال : سمعت أبا سليمان يقول : ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة أتفكر فى معانيها ، ولربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل ، فسبحان من يرده بعد . وسمعته يقول : أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال لى يوماً : يا أحمد جوع قليل وعرى قليل وفقر قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا . وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفا حاراً بملح فجئته به فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى ويقول : يارب عجلت لى شهوتى ، لقد أطلت جهدى وشقوتى وأنا تائب ؟ فلم يذق الملح حتى لحق بالله عز وجل . قال : وسمعته يقول : ما رضيت عن نفسى طرفة عين ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا . وسمعته يقول : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وسمعته يقول : من حسن ظنه بالله ثم لم يخفه ويطعه فهو مخدوع . وقال : ينبغى للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء ، فاذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب . وقال لى يوماً : هل فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم ـ يعنى الرضا ـ فصرخ صرخة غشى عليه ثم أفاق فقال : إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب ، فما ظنك بالأخرى وهم الذين رضى عنهم . وقال : ما يسرنى أن لى الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقه فى وجوه البر ، وإنى أغفل عن الله طرفة عين . وقال : قال زاهد لزاهد : أوصنى ، فقال : لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، فقال : زدنى . فقال : ماعندى زيادة. وقال من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ، ومن صدق فى

ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له . وقال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ، و إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، و إذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة ، لأن الدنيا لئيمة والآخرة كريمة ، وماينبغى لكريم أن يزاحم لئيما

وقال أحمد بن أبى الحوارى : بت ليلة عند أبى سليمان فسمعته يقول : وعزتك وجلالك لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتنى ببخلى لأطالبنك بكرمك ، ولئن أمرت بى إلى النار لأخبرن أهل النار أنى أحبك . وكان يقول : لو شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى . وكان يقول : ما خلق الله خلقا أهون علىّ من إبليس ، ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ماتعوذت منه أبداً ، ولو تبدى لى مالطمت إلا صفحة وجهه . وقال : إن اللص لايجئ إلى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أى مكان شاء ، و إنما يجئ إلى البيت المعمور ، كذلك إبليس لا يجئ إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله و ينزله عن كرسيه و يسلبه أعز شئ . وقال : إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس والرؤيا . وقال : الرؤيا - يعنى الجنابة - وقال : مكثت عشرين سنة لم أحتلم فدخلت مكة ففاتتنى صلاة العشاء جماعة فاحتلمت تلك الليلة . وقال : إن من خلق الله قوماً لايشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون بالدنيا عنه ؟ وقال : الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها ، و إنما الزهد فى الجنان والحور العين ، حتى لا يرى الله فى قلبك غيره . وقال الجنيد : شئ يروى عن أبى سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : خير السخاء ما وافق الحاجة . وقال : من طلب الدنيا حلالا واستغناء عن المسألة واستغناء عن الناس لقى الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالا مفاخراً ومكاثراً لقى الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان . وقد روى نحو هذا مرفوعاً . وقال : إن قوماً طلبوا الغنى فى المال وجمعه فأخطأوا من حيث ظنوا ، ألا و إنما الغنى فى القناعة ، وطلبوا الراحة فى الكثرة و إنما الراحة فى القلة ، وطلبوا الكرامة من الخلق و إنما هى فى التقوى ، وطلبوا التنعم فى اللباس الرقيق اللين ، والطعام الطيب ، والمسكن الأنيق المنيف ، و إنما هو فى الاسلام والايمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله . وقال : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكرى الأنهار ، و إنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل . وقال : أهل الطاعة فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم . وقال : ربما استقبلنى الفرح فى جوف الليل ، و ربما رأيت القلب يضحك ضحكا . وقال : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا فأقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد إذ ذهب بى النوم فاذا

أنا بها - يعنى الحوراء - قد ركضتنى برجلها فقالت : حبيبى أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين فى تهجدهم ؟ بؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقى المحبون بعضهم بعضا ، فما هذا الرقاد ؟ ! حبيبى وقرة عينى أترقد عيناك وأنا أتربى لك فى الخدور منذ كذا وكذا ؟ قال : فوثبت فزعا وقد عرقت حياء من توبيخها إياى ، وإن حلاوة منطقها لفى سمعى وقلبى . وقال أحمد : دخلت على أبى سليمان فاذا هو يبكى فقلت : مالك ؟ فقال : زجرت البارحة فى منامى . قلت : ما الذى زجرك ؟ قال : بينا أنا نائم فى محرابى إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا حسنا ، وبيدها ورقة وهى تقول : أتنام ياشيخ ؟ فقلت : من غلبت عينه نام قالت : كلا إن طالب الجنة لا ينام ، ثم قالت : أتقرأ ؟ قلت : نعم ، فأخذت الورقة من يدها فاذا فيها مكتوب :

لهت بك لذة عن حسن عيش * مع الخيرات فى غرف الجنان
تعيش مخلداً لا موت فيها * وتنعم فى الجنان مع الحسان
تيقظ من منامك إن خيراً * من النوم التهجد فى القران

وقال أبو سليمان : أما يستحى أحدكم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفى قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟ وقال أيضاً : لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات فى قلبه ، فاذا لم يبق فى قلبه شىء من الشهوات جاز له أن يظهر إلى الناس الزهد بلبس العبا فانها علم من أعلام الزهاد ، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم لزهده من لبس العبا . وقال : إذا رأيت الصوفى يتنوق فى لبس الصوف فليس بصوفى . وخيار هذه الأمة أصحاب القطن ، أبو بكر الصديق وأصحابه ، وقال غيره : إذا رأيت ضوء الفقير فى لباسه فاغسل يديك من فلاحه . وقال أبو سليمان : الاخ الذى يعظك برؤيته قبل كلامه ، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابى بالعراق فأنتفع برؤيته شهراً . وقال أبو سليمان قال الله تعالى : عبدى إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك الحساب يوم القيامة . وقال أحمد : سألت أبا سليمان عن الصبر فقال : والله إنك لا تقدر عليه فى الذى تحب فكيف تقدر عليه فيما تكره ؟ وقال أحمد تنهدت عنده يوما فقال : إنك مسؤل عنها يوم القيامة ، فان كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك . وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل الوصول ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا . وقال إنما عصى الله من عصاه لهوانهم عليه ، ولو عزوا عليه وكرموا لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها . وقال : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالا الكرم والحلم والعلم والحكمة والرأفة والرحمة والفضل والصفح والاحسان والبر والعفو واللطف .

وذكر أبو عبد الرحمن السلمى فى كتاب محن المشايخ أن أبا سليمان الدارانى أخرج من دمشق

وقالوا : إنه يرى الملائكة ويكلمونه ، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل الشام فى منامه أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا . فخرجوا فى طلبه وتشفعوا له وتذللوا له حتى ردوه .

وقد اختلف الناس فى وفاته على أقوال فقيل : مات سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة خمس ومائتين ، وقيل خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين فالله أعلم . وقد قال مروان الطاطرى يوم مات أبو سليمان : لقد أصيب به أهل الاسلام كلهم . قلت : وقد دفن فى قرية داريا فى قبلتها ، وقبره بها مشهور وعليه بناء ، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر النهروانى ، ووقف على المقيمين عنده وقفاً يدخل عليهم منه غلة ، وقد جدد مزاره فى زماننا هذا ولم أر ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالكلية ، وهذا منه عجيب . وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبى الحوارى قال كنت أشتهى أن أرى أباسليمان فى المنام فرأيته بعد سنة فقلت له : ما فعل الله بك يامعلم ؟ فقال : يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حمل شيح فأخذت منه عوداً فما أدرى تخللت به أو رميته ، فأنا فى حسابه إلى الآن . وقد توفى ابنه سليمان بعده بنحو من سنتين رحمهما الله تعالى

(ثم دخلت سنة ست ومائتين)

فيها ولى المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة الزط . وفيها جاء مد كثير فغرق أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً . وفيها ولى المأمون عبد الله ابن طاهر بن الحسين أرض الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث ، وذلك أن نائبها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون ، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأمور ، وحثه على قتال نصر بن شبث ، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع الكتاب والسنة . وقد ذكره ابن جرير بطوله ، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه وتهادوه بينهم ، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فقرئ بين يديه فاستجاده جداً ، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال فى الأقاليم . وحج بالناس عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيها توفى إسحاق بن بشر الكاهلى أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ . وحجاج بن محمد الأعور . وداود بن المحبر الذى وضع كتاب العقل . وشبابة بن سوار (شبابة) ومحاضر بن المورد . وقطرب صاحب المثلث فى اللغة . ووهب بن جرير . ويزيد بن هارون شيخ الامام أحمد

(ثم دخلت سنة سبع ومائتين)

فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد عك فى اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، وذلك لما أساء العمال السيرة وظلموا الرعايا ، فلما ظهر بايعه الناس فبعث إليه المأمون دينار بن عبد الله فى جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع

وأطاع ، فحضروا الموسم ثم ساروا إلى اليمن و بعثوا بالكتاب إلى عبد الرحمن فسمع وأطاع وجاء حتى وضع يده فى يد دينار ، فساروا به إلى بغداد ولبس السواد فيها .

و فى هذه السنة توفى طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخراسان بكمالها ، وجد فى فراشه ميتاً بعد ما صلى العشاء الآخرة والتف فى الفراش ، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً ، فلما بلغ موته المأمون قال : لليدين وللفم الحمد لله الذى قدمه وأخرنا . وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر ، ومع هذا ولى ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولاه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين . ثم توفى طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد ، وكان نائبه على بغداد إسحاق ابن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذى انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله ، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له ، ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر : مايبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يخبره ، فأعطى طاهر حسينا الخادم مائتى ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فأخبره المأمون وقال لا تخبر به أحداً [وإلا] أقتلك ، إنى ذكرت قتله لأخى وما ناله من الاهانة على يدى طاهر ، ووالله لا تفوته منى . فلما تحقق طاهر ذلك سعى فى النقلة من بين يدى المأمون ، ولم يزل حتى ولاه خراسان وأطلق له خادماً من خدامه ، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئا يريبه أن يسمه ، ودفع إليه سما لا يطاق . فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون سمه الخادم فى كامخ فمات من ليلته . وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين ، وكان أعور بفرد عين . فقال فيه عمرو بن نباتة :

ياذا اليمينين وعين واحده * نقصان عين ويمين زائده

واختلف فى معنى قوله ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلا بشماله فقده نصفين ، وقيل لأنه ولى العراق وخراسان . وقد كان كريما ممدحا يحب الشعراء ويعطيهم الجزيل ، ركب يوماً فى حراقة فقال فيه شاعر :

عجبت لحراقة ابن الحسين * لا غرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد * وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذلك أعوادها * وقد مسها كيف لاتورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار . وقال إن زدتنا زدناك . قال ابن خلكان : وما أحسن ماقاله بعض الشعراء فى بعض الرؤساء وقد ركب البحر :

ولما امتطى البحر ابتهلت تضرعاً * إلى الله يا مجرى الرياح بلطفه

جعلت الندا من كفه مثل موجه * فسلمه واجعل موجه مثل كفه

مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين ، وكان مولده سنة سبع وخمسين ، وكان الذى سار إلى ولده عبد الله إلى الرقة يعزيه فى أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد ، القاضى يحيى بن أكثم عن أمر المأمون . وفيها غلا السعر ببغداد والكوفة والبصرة ، حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة أربعين درهما . وفيها حج بالناس أبو على بن الرشيد أخو المأمون .

وفيها توفى بشر بن عمر الزهرانى . وجعفر بن عون . وعبد الصمد بن عبد الوارث . وقراد ابن نوح . وكثير بن هشام . ومحمد بن كناسة . ومحمد بن عمر الواقدى قاضى بغداد وصاحب السير والمغازى . وأبو النضر هاشم بن القاسم . والهيثم بن عدى صاحب التصانيف .

و ﴿ يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور ﴾

أبو زكريا الكوفى نزيل بغداد مولى بنى عبد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء ، كان يقال له أمير المؤمنين فى النحو ، وروى الحديث عن حازم بن الحسن البصرى عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك . قال : « قرأ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان مالك يوم الدين بألف » رواه الخطيب قال : وكان ثقة إماماً . وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب فى النحو فأملاه وكتبه الناس عنه ، وأمر المأمون بكتبه فى الخزائن ، وأنه كان يؤدب ولديه وليى العهد من بعده ، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه ، فتنازعا فى ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما نعلا ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار ، وللفراء عشرة آلاف درهم . وقال له : لا أعزمنك اذ يقدم نعليك والدا أمير المؤمنين ووليا العهد من بعده . وروى أن بشر المريسى أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها فى سجدتى السهو فقال : لا شئ عليه . قال : ولم ؟ قال : لأن أصحابنا قالوا المصغر لا يصغر . فقال : ما رأيت أن امرأة تلد مثلك . والمشهور أن محمداً هو الذى سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء ، وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولى : توفى الفراء سنة سبع ومائتين . قال الخطيب : كانت وفاته ببغداد ، وقيل بطريق مكة ، وقد امتدحوه وأثنوا عليه فى مصنفاته .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان ومائتين ﴾

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فارا من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبى خالد فحاصره حتى نزل قهراً ، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه . وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولى مكانه إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة . وفيها ولى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومى القضاء بعسكر المهدى فى شهر المحرم ، ثم عزله عن قريب وولى مكانه بشر بن سعيد بن الوليد الكندى فى شهر ربيع الأول منها ، فقال المخزومى فى ذلك :ـ

ألا أيها الملك الموحد ربه • قاضيك بشر بن الوليد حمار
ينفى شهادة من يدين بما به • نطق الكتاب وجاءت الأخبار
ويعد عدلا من يقول بانه • شيخ يحيط بجسمه الأقطار

وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون .

وفيها توفى من الأعيان : الأسود بن عامر . وسعيد بن عامر . وعبدالله بن بكر أحد مشايخ الحديث . والفضل بن الربيع الحاجب . ومحمد بن مصعب . وموسى بن محمد الأمين الذى كان قد ولاه العهد من بعده ولقبه بالناطق فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم . ويحيى بن أبى بكر . ويحيى بن حسان . ويعقوب بن إبراهيم الزهرى . ويونس بن محمد المؤدب .

﴿ وفاة السيدة نفيسة ﴾

وهى نفيسة بنت أبى محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، القرشية الهاشمية ، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين ، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأخذ منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها ، وأودعه السجن ببغداد . فلم يزل به حتى توفى المنصور فأطلقه المهدى وأطلق له كل ما كان أخذ منه ، وخرج معه إلى الحج فى سنة ثمان وستين ومائة ، فلما كان بالحاجر توفى عن خمس وثمانين سنة . وقد روى له النسائى حديثه عن عكرمة عن ابن عباس « أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم » . وقد ضعفه ابن معين وابن عدى ، ووثقه ابن حبان . وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه فى رياسته وشهامته . والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر ، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذمى والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير . ولما ورد الشافعى مصر أحسنت إليه وكان ربما صلى بها فى شهر رمضان . وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت عليه . ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فمنعه أهل مصر من ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم ، فدفنت فى المنزل الذى كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديما بدرب السباع بين مصر والقاهرة ، وكانت وفاتها فى شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان . قال : ولأهل مصر فيها اعتقاد . قلت : وإلى الآن قد بالغ العامة فى اعتقادهم فيها وفى غيرها كثيراً جداً ، ولا سيما عوام مصر فانهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تودى إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً كثيرة ينبغى أن يعرفوا أنها لا تجوز . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته . والذى ينبغى أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة فى القبور وأصحابها ، وقد أمر النبى ﷺ بتسوية القبور وطمسها ، والمغالاة فى البشر حرام .

ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك . رحمها الله وأكرمها .

﴿ الفضل بن الربيع ﴾

ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان ، كان الفضل هذا متمكنا من الرشيد ، وكان زوال دولة البرامكة على يديه ، وقد وزر مرة للرشيد ، وكان شديد التشبه بالبرامكة ، وكانوا يتشبهون به ، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا كما تقدم . وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه ، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة ، فجمعهن الفضل بن الربيع وقال : ارجعن خائبات خاسئات ثم نهض وهو يقول :

عسى وعسى يثني الزمان عنانه * بتصريف حال والزمان عثور

فتقضى لبانات وتشفى حزائز * وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له : أقسمت عليك لما رجعت ، فأخذ منه القصص فوقع عليها . ثم لم يزل يحفر خلفهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

ما رعى الدهر آل برمك لما * أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهراً لم يرع ذمة ليحيى * غير راع ذمام آل الربيع

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أمانا فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه ، ثم لم يزل خاملا حتى مات في هذه السنة ، وله ثمان وستون سنة .

﴿ ثم دخلت سنة تسع ومائتين ﴾

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبث بعد ما حار به خمس سنين وضيق عليه جداً حتى ألجأه إلى أن طلب منه الأمان ، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك ، فأرسل إليه أن يكتب له أمانا عن أمير المؤمنين . فكتب له كتاب أمان فنزل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها ، وذهب شره . وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الأسلام وأحد مقدمي العساكر ، فاشتد ذلك على المسلمين . وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو والى مكة . وفيها توفى ملك الروم ميخائيل بن نقفور (جرجس) وكان له عليهم تسع سنين ، فملكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

وفيها توفى من مشايخ الحديث : الحسن بن موسى الأشيب ، وأبو على الحنفي . وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور . وعثمان بن عمر بن فارس . ويعلى بن عبيد الطنافسي .

﴿ ثم دخلت سنة عشر ومائتين ﴾

في صفر منها دخل نصر بن شبث بغداد ، بعثه عبد الله بن طاهر فدخلها ولم يتلقاه أحد من

الجندبل دخلها وحده ، فأنزل فى مدينة أبى جعفر ثم حول إلى موضع آخر . وفى هـذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدى فعاقبهم وحبسهم فى المطبق ، ولما كان ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدى - وكان مختفياً مدة ست سنين وشهوراً متنقباً فى زى امرأة ومعه امرأتان - فى بعض دروب بغداد فى أثناء الليل ، فقام الحارس فقال : إلى أين هـذه الساعة ؟ ومن أين ؟ ثم أراد أن يمسكهن فأعطاه إبراهيم خاتماً كان فى يده من ياقوت ، فلما نظر إليه استراب وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشان ، فذهب بهن إلى متولى الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن ، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فاذا هو هو ، فعرفه فذهب به إلى صاحب الجسر فسلمه إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون ، فأصبح فى دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة فى صدره ليراه الناس ، وليعلموا كيف أخذ . فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة ، ثم أطلقه ورضى عنه . هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن ، فصلب منهم أربعة .

وقد ذكروا أن إبراهيم لما وقف بين يدى المأمون أنبه على ما كان منه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً ، وقال : يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك . فقال : بل أعفو يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل ، وهو أكبر مما تسأله . فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل .

وقد امتدح إبراهيم بن المهدى ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها ، فلما سمعها المأمون قال : أقول كما قال يوسف لأخوته (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وذكر ابن عساكر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يغنيه شيئاً فقال : إنى تركته . فأمره فأخذ العود فى حجره وقال :

هذا مقام سرور خربت منازله ودوره * نمت عليه عداته كذبا فعاقبه أميره

ثم عاد فقال :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت عنى * لوى الدهر بى عنها وولى بها عنى
فان أبك نفسى أبك نفساً عزيزة * وإن أحتقرها أحتقرها على ضغن
وإنى وإن كنت المسئ بعينه * فأنى بربى موقن حسن الظن
عدوت على نفسى فعاد بعفوه * على فعاد العفو مناً على من

فقال المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً . فرمى العود من حجره ووثب قائماً فزعاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون : اجلس واسكن مرحباً بك وأهلا ، لم يكن ذلك لشئ تتوهمه ، ووالله لا رأيت طول أيامى شيئا تكرهه . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ثم أمر له برد جميع

ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه ، وخرج من عنده مكرماً معظماً .

﴿ عرس بوران ﴾

وفى رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وقيل إنه خرج فى رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفم الصلح ، وكان الحسن قد عوفى من مرضه ، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بنى هاشم ، فدخل ببوران فى شوال من هذه السنة فى ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع العنبر ، ونثر على رأسه الدر والجوهر ، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر . وكان عدد الجوهر منه ألف درة ، فأمر به فجمع فى صينية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نثرناه لتلتقطه الجوارى ، فقال : لا أنا أعوضهن من ذلك . فجمع كله ، فلما جاءت العروس ومعها جدتها زبيدة أم أخيه الأمين ـ من جملة من جاء معها ـ فأجلست إلى جانبه فصب فى حجرها ذلك الجوهر وقال : هذا نحلة منى إليك وسلى حاجتك ، فأطرقت حياء . فقالت جدتها : كلمى سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك . فقالت : يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدى ، وأن ترده إلى منزلته التى كان فيها ، فقال : نعم ! قالت : وأم جعفر ـ تعنى زبيدة ـ تأذن لها فى الحج . قال نعم ! فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأميرية وأطلقت له قرية مقورة . وأما والد العروس الحسن بن سهل فانه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه فى رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس ، فمن وقعت بيده رقعة فى قرية منها بعث إلى القرية التى فيها نوابه فسلمها إليه ملكا خالصا . وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش فى مدة إقامته عنده سبعة عشر يوما ما يعادل خمسين ألف ألف درهم . ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه البلد الذى هو نازل بها ، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الاقطاعات . ورجع المأمون إلى بغداد فى أواخر شوال من هذه السنة . وفى هذه السنة ركب عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السرى بن الحكم المتغلب عليها ، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها . وفيها توفى من الأعيان أبو عمرو الشيبانى اللغوى واسمه إسحاق بن مراد . ومروان بن محمد الطاطرى . ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين ﴾

فيها توفى أبو الجواب . وطلق بن غنام . وعبد الرزاق بن همام الصنعانى صاحب المصنف والمسند . وعبد الله بن صالح العجلى .

﴿ وأبو العتاهية الشاعر المشهور ﴾

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز ، وقد كان تعشق جارية للمهدى

اسمها عتبة ، وقد طلبها منه غير مرة فاذا سمح له بها لم ترده الجارية ، وتقول للخليفة : أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار ؟ فكان يكثر التغزل فيهـا ، وشاع أمره واشتهر بها ، وكان المهـدى يفهـم ذلك منـه . واتفق فى بعض الأحيان أن المهدى استدعى الشعراء إلى مجلسه وكان فيهم أبو العتاهية و بشار بن برد الأعمى ، فسمع صوت أبى العتاهية . فقال بشار لجليسه : أثم ههنا أبو العتاهية ؟ قال : نعم . فانطلق يذكر قصيدته فيها التى أولها :

ألا ما لسيدتى مالها * أدلت فأجمـل إدلالها

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا . حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله :

أتته الخلافة منقادة * إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره * لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب * لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه : انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فوالله ما خرج أحـد من الشعراء يومئـذ بجائزة غيره . قال ابن خلكان : اجتمع أبو العتاهية بأبى نواس ـ وكان فى طبقته وطبقة بشار ـ فقال أبو العتاهيـة لأبى نواس : كم تعمل فى اليوم من الشعر ؟ قال : بيتاً أو بيتين . فقال : لكنى أعمل المائة والمائتين . فقال أبو نواس : لعلك تعمل مثل قولك :

يا عتب مالى ولك * يا ليتنى لم أرك

ولو عملت أنا مثل هذا لعملت الألف والألفين وأنا أعمل مثل قولى :

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر * لها محبان لوطى وزناء

ولو أردت مثلى لأعجزك الدهر . قال ابن خلكان : ومن لطيف شعر أبى العتاهية :

إنى صبوت إليك حـ * ـتى صرت من فرط التصابى

يجد الجليس إذا دنا * ريح التصابى فى ثيابى

وكان مولده سنة ثلاثين ومائة . وتوفى يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل ثلاث عشرة ومائتين ، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد :

إن عيشا يكون آخره المو * ت لعيش معجل التنغيص

﴿ثم دخلت سنة ثنتى عشرة ومائتين﴾

فيها وجـه المأمون محمد بن حميـد الطوسى على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمى فى أرض أذربيجان ، فأخذ جماعة من المتغلبين عليه فبعث بهم إلى المأمون . وفى ربيع الأول أظهر المأمون

فى الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطم من الأخرى ، وهى القول بخلق القرآن ، والثانية تفضيل على بن أبى طالب على الناس بعد رسول الله ﷺ . وقد أخطأ فى كل منهما خطأ كبيراً فاحشا ، وأثم إثما عظيما . وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسى . وفيها توفى أسد بن موسى الذى يقال له أسد السنة . والحسن بن جعفر . وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد . وأبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامى الدمشقى . ومحمد بن يونس الفريابى شيخ البخارى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين ﴾

فيها ثار رجلان عبد السلام وابن جليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية ، وتابعهما طائفة من القيسية واليمانية ، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام ، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . فلم ير يوم أكثر إطلاقا منه ، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وفيها ولى السند غسان بن عباد . وحج بالناس أمير السنة الماضية . وفيها توفى عبد الله بن داود الجريبى . وعبد الله بن يزيد المقرى المصرى . وعبد الله بن موسى العبسى . وعمرو بن أبى سلمة الدمشقى . وحكى ابن خلكان أن بعضهم قال : وفيها توفى إبراهيم بن ماهان الموصلى النديم . وأبو العتاهية . وأبو عمرو الشيبانى النحوى فى يوم واحد ببغداد ؛ ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفى سنة ثمان وثمانين ومائة . قال السهيلى : وفيها توفى عبد الملك بن هشام راوى السيرة عن ابن إسحاق . حكاه ابن خلكان عنه ، والصحيح أنه توفى سنة ثمان عشرة ومائتين كما نص عليه أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر

﴿ والعكوك الشاعر ﴾

أبو الحسن بن على بن جبلة الخراسانى يلقب بالعكوك ، وكان من الموالى ولد أعمى وقيل بل أصابه جدرى وهو ابن سبع سنين ، وكان أسود أبرص ، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً ، وقد أثنى عليه فى شعره الجاحظ فمن بعده . قال : ما رأيت بدوياً ولا حضرياً أحسن إنشاء منه . فمن ذلك قوله :

بأبى من زارنى متكتما * حذراً من كل شئ جزعا
زائراً نم عليه حسنه * كيف يخفى الليل بدراً طلعا
رصد الخلوة حتى أمكنت * ورعى السامر حتى هجعا
ركب الأهوال فى زورته * ثم ما سلم حتى رجعا

وهو القائل فى أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مغزاه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضره
يرتجيه نيل مكرمة * يأتسيها يوم مفتخره

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات - وهى قصيدة طويلة - عارض فيها أبا نواس فتطلبه المأمون فهرب منه ثم أحضر بين يديه فقال له : ويحك فضلت القاسم بن عيسى علينا . فقال : يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده ، وآتاكم ملكا عظيما، و إنما فضلته على أشكاله وأقرانه . فقال : والله ما أبقيت أحداً حيث تقول :

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضره

ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا ، ولكن بشركك وكفرك حيث تقول فى عبد ذليل :

أنت الذى تنزل الأيام منزلها * وتنقل الدهر من حال إلى حال
ومامددت مدى طرف إلى أحد * إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله يفعله ، أخرجوا لسانه من قفاه . فأخرجوا لسانه فى هذه السنة فمات . وقد امتدح حميد بن عبد الحميد الطوسى :

إنما الدنيا حميد * وأياديه جسام * فاذا ولى حميد * فعلى الدنيا السلام

ولما مات حميد هذا رثاه أبو العتاهية بقوله :

أبا غانم أما ذراك فواسع * وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره * إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقد أورد ابن خلكان لمكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً .

﴿ ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين ﴾

فى يوم السبت لخمس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمى لعنه الله ، فقتل الخرمى خلقا كثيراً من جيشه ، وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد ، فبعث المأمون إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر يخيرانه بين خراسان ، ونيابة الجبال وأذربيجان وأرمينية ومحاربة بابك ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى الضبط ، وللخوف من ظهور الخوارج . وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية فانتزعها من يد عبد السلام وابن جليس وقتلهما . وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابى فبعث إليه المأمون ابنه العباس فى جماعة من الأمراء فقتلوا بلالا ورجعوا إلى بغداد . وفيها ولى المأمون على بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان . وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وفيها توفى أحمد بن خالد الوهبى .

﴿ وأحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح ﴾

أبو جعفر الكاتب ولى ديوان الرسائل للمأمون. ترجمه ابن عساكر وأورد من شعره قوله:

قد يرزق المرء من غير حيلة صدرت * ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهى

ما مسنى من غنى يوماً ولا عدم * إلا وقولى عليه الحمد لله

وله أيضا: إذا قلت فى شئ نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل لا تسترح بها * لئلا يقول الناس إنك كاذب

وله: إذا المرء أفشى سره بلسانه * فلام عليه غيره فهو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

وحسن بن محمد المروزى شيخ الامام أحمد. وعبد الله بن الحكم المصرى. ومعاوية بن عمر.

﴿ وأبو محمد عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصرى ﴾

أحد من قرأ الموطأ على مالك وتفقه بمذهبه، وكان معظما ببلاد مصر، وله بها ثروة وأموال وافرة. وحين قدم الشافعى مصر أعطاه ألف دينار، وجمع له من أصحابه ألفى دينار، وأجرى عليه وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذى صحب الشافعى. ولما توفى فى هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعى. ولما توفى ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب قبر أبيه من القبلة. قال ابن خلكان فهى ثلاثة أقبر الشافعى شاميها. وهما قبلته. رحمهم الله.

﴿ ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين ﴾

فى أواخر المحرم منها ركب المأمون فى العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم، واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلما كان بتكريت تلقاه محمد بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من المدينة النبوية، فأذن له المأمون فى الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون. وكان معقود العقد عليها فى حياة أبيه على بن موسى، فدخل بها، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز. وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل، وسار المأمون فى جحافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها فى جمادى الأولى، وفتح حصنا هناك عنوة وأمر بهدمه، ثم رجع إلى دمشق فنزلها وعمر دير مرات بسفح قيسون، وأقام بدمشق مدة. وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسى.

وفيها توفى أبو زيد الانصارى. ومحمد بن المبارك الصورى. وقبيصة بن عقبة. وعلى بن الحسن بن شقيق. ومكى بن إبراهيم.

﴿ فأما أبو زيد الأنصارى ﴾

فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصرى اللغوى أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى ليلة

القدر . قال أبو عثمان المازنى : رأيت الأصمعى جاء إلى أبى زيد الأنصارى وقبل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة . قال ابن خلكان : وله مصنفات كثيرة ، منها خلق الانسان ، وكتاب الابل ، وكتاب المياه ، وكتاب الفرس والترس ، وغير ذلك توفى فى هذه السنة ، وقيل فى التى قبلها أو التى بعدها ، وقد جاوز التسعين ، وقيل إنه قارب المائة . وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته .

﴿ ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين ﴾

فيها عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم فى أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ، وكتب إلى المأمون فبدأ بنفسه ، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر ، فافتتح بلدانا كثيرة صلحا وعنوة ، وافتتح أخوه ثلاثين حصنا ، وبعث يحيى بن أكثم فى سرية إلى طوانة فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقا وحرق حصونا عدة ، ثم عاد إلى العسكر . وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان ، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهرى فى شعبان من هذه السنة ببلاد مصر ، فتغلب على نواب أبى إسحاق بن الرشيد واتبعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة إلى الديار المصرية ، فكان من أمره ما سنذكره

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس ، فكان أول ما بدئ بذلك فى جامع بغداد والرصافة يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من رمضان ، وذلك أنهم كانوا إذا قضوا الصلاة قام الناس قياماً فكبروا ثلاث تكبيرات ، ثم استمروا على ذلك فى بقية الصلوات . وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضا بلا مستند ولا دليل ولا معتمد ، فان هذا لم يفعله قبله أحد ، ولكن ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله ﷺ ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة ، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره . وقال ابن بطال : المذاهب الأربعة على عدم استحبابه . قال النووى : وقد روى عن الشافعى أنه قال : إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع ، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنى . وهذا كما روى عن ابن عباس أنه كان يجهر فى الفاتحة فى صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة ، ولهذا نظائر والله أعلم .

وأما هذه البدعة التى أمر بها المأمون فانها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف . وفيها وقع برد شديد جداً . وفيها حج بالناس الذى حج بهم فى العام الماضى ، وقيل غيره والله أعلم . وفيها توفى حبان ابن هلال . وعبد الملك بن قريب الأصمعى صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك . ومحمد بن بكار بن

هلال . وهوذة بن خليفة . ﴿ وزبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه ﴾

وهى ابنة جعفر أم العزيز الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد ، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر ، وكان له معها من الحظايا والجوارى والزوجات غيرها كثيراً كما ذكرنا ذلك فى ترجمته ، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهى صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة ، لبياضها، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به ، وأصل اسمها أم العزيز . وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شئ كثير . وروى الخطيب أنها حجت فبلغت نفقتها فى ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم ، ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت : هنأت نفسى بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة لم ألده ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعا بما عوض . توفيت ببغداد فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

ثم قال الخطيب : حدثنى الحسين بن محمد الخلال لفظا قال : وجدت أبا الفتح القواس قال ثنا صدقة بن هبيرة الموصلى ثنا محمد بن عبد الله الواسطى قال قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة فى المنام فقلت : مافعل الله بك ؟ فقالت غفر لى فى أول معول ضرب فى طريق مكة . قلت : فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسى زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدى فهذه الصفرة من تلك الزفرة . وذكر ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ماقدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يسمع لهن فى القصر دوى كدوى النحل ، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن ، وورد أنها رؤيت فى المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته فى طريق الحج فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن فى السحر . وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها .

﴿ ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين ﴾

فى المحرم منها دخل المأمون مصر وظفر بعبدوس الفهرى فأمر فضربت عنقه ، ثم كر راجعاً إلى الشام . وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً لحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفا لخدعته الروم فأسروه فأقام فى أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، لجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون فسار إليه ، فلما أحس توفيل بقدومه هرب وبعث وزيره صنغل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون كتابا بليغا مضمونه التقريع والتوبيخ ، وإنى إنما أقبل منك الدخول فى الحنيفية

وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى . وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان ابن علي . وفيها توفي الحجاج بن منهال . وشريح بن النعمان . وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين ﴾

في أول يوم من جمادى الأولى وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوانة وتجديد عمارتها . وبعث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها ، من مصر والشام والعراق ، فاجتمع عليها خلق كثير ، وأمره أن يجعلها ميلا في ميل ، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب .

﴿ ذكر أول المحنة والفتنة ﴾

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن . وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستحثه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير كلها ، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين فضلا عن المحدثين ، فان القائلين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بان فعله تعالى القائم بذاته المقدسة مخلوق ، بل لم يكن مخلوقا ، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق ، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقا ، وقد قال الله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فالأمر بالسجود صدر منه بعد خلق آدم ، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقا ، وهذا له موضع آخر . وقد صنف البخاري كتابا في هذا المعنى سماه خلق أفعال العباد . والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد بغداد قرئ على الناس ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم المستملي ، ويزيد بن هارون[1] ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبي مسعود . وأحمد ابن الدورقي . فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك واظهروا موافقته وهم كارهون ، فردهم إلى بغداد وأمر باشهار أمرهم بين الفقهاء ، ففعل إسحاق ذلك . وأحضر خلقا من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم ، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون ، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك ، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم ، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم كتب المأمون إلى إسحاق أيضا بكتاب ثان يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل أيضا لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها ، بل هي من المتشابه

(١) قد ذكر المؤلف وفاة يزيد بن هارون في سنة ست ومائتين ، ثم ذكره هنا في المحضرين فلا وجه إلا أن يكون غالطا هنا او هناك .

وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه . أورد ابن جرير ذلك كله . وأمر نائبه أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن ، فأحضر أبو إسحاق جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل . وقتيبة . وأبو حيان الزيادى . وبشر بن الوليد الكندى . وعلى بن أبى مقاتل . وسعدويه الواسطى . وعلى بن الجعد . وإسحاق بن أبى إسرائيل ، وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، ويحيى ابن عبد الحميد العمرى . وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضيا على الرقة ، وأبو نصر التمار ، وأبو معمر القطيعى ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح الجنديسابورى المضروب ، وابن الفرخان ، والنضر بن شميل . وأبو على بن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة . فلما دخلوا على أبى إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون . فلما فهموه قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : ليس عن هذا أسألك . وإنما أسألك أهو مخلوق ؟ قال : ليس بخالق . قال : ولا عن هذا أسألك . فقال : ما أحسن غير هذا . وصمم على ذلك . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شئ ولا بعده شئ ولا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ؟ قال : نعم ! فقال للكاتب : اكتب بما قال . فكتب . ثم امتحنهم رجلا رجلا فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فكان اذا امتنع الرجل منهم امتحنه بالرقعة التى وافق عليها بشر بن الوليد الكندى ، من أنه يقال لا يشبهه شئ من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه فيقول : نعم كما قال بشر . ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال له : أتقول إن القرآن مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له : ما تقول فى هذه الرقعة ؟ فقال أقول (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول : سميع بأذن بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أراده الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك . فكتب جوابات القوم رجلا رجلا وبعث بها إلى المأمون . وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرها لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الافتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاسماع والأداء . ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ فصل ﴾

فلما وصلت جوابات القوم إلى المأمون بعث إلى نائبه يمدحه على ذلك ويرد على كل فرد فرد ما قال فى كتاب أرسله . وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره فى الناس ، ومن لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظا به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه

رأيه ، ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعنـد ذلك عقـد النائب ببغـداد مجلسا آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدى ، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندى ، وقد نص المأمون على قتلهما إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان) الآية . إلا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والحسن ابن حماد سجاده ، وعبيـد الله بن عمر القواريرى . فقيـدهم وأرصدهم ليبعث بهـم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم فى اليوم الثانى فامتحنهم فأجاب سجاده إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم فى اليوم الثالث فأجاب القواريرى إلى ذلك فأطلق قيده . وأخر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابورى لأنهما أصرا على الامتناع من القول بذلك ، فأكد قيودهما وجمعهما فى الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس ، وكتب كتابا بارسالهما إليـه فسارا مقيدين فى محارة على جمل متعادلين رضى الله عنهما . وجعل الأمام أحمـد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون ، وأن لا يرياه ولا يراهما . ثم جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغنى أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) الآية . وقد أخطأوا فى تأويلهم ذلك خطأ كبيراً ، فأرسلهم كلهم إلى أمير المؤمنين . فاستدعاهم إسحاق وألزمهـم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها ، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهـم موت المأمون فردوا إلى الرقة ، ثم أذن لهـم بالرجوع إلى بغداد . وكان أحمد ابن حنبل وابن نوح قـد سبقا الناس ، ولـكن لم يجتمعا به . بل أهلكه الله قبل وصولهما إليـه ، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الأمام أحمد بن حنبل ، فلم يريا المأمون ولا رآهما ، بل ردوا إلى بغداد . وسـيأتى تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع فى أول ولاية المعتصم بن الرشيد ، وتمام بقى الكلام على ذلك فى ترجمة الأمام أحمد عند ذكر وفاته فى سنة إحدى وأربعين ومائتين والله المستعان .

﴿ وهذه ترجمة المأمون ﴾

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسى القرشى الهاشمى أبو جعفر أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية ، وكان مولده فى ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفى عمه الهادى ، وولى أبوه هارون الرشيد ، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقـدم ، قال ابن عساكر : روى الحديث عن أبيـه وهاشم بن بشر ، وأبى معاوية الضرير ، ويوسف بن عطية ، وعباد بن العوام ، وإسماعيل بن علية ، وحجاج بن محمد الأعور . وروى عنه أبو حذيفة إسحاق بن بشر ـ وهو أسن منه ـ ويحيى بن أكثم القاضى وابنه الفضل بن المأمون ومعمر بن شبيب وأبو يوسف القاضى وجعفر بن أبى عثمان الطيالسى وأحمد بن الحارث الشعبى ـ أو اليزيدى ـ وعمرو بن مسعدة وعبدالله بن طاهر بن الحسين ، ومحمد بن إبراهيم السلمى ودعبل بن على الخزاعى . قال : وقدم دمشق مرات وأقام بها مدة ، ثم روى ابن عساكر

من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلى قال : سمعت المأمون فى الشماسية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكثم : أما ترى كثرة الناس ؟ قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » . ومن حديث أبى بكر المنابجى عن الحسين بن أحمد المالكى عن يحيى بن أكثم القاضى عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « الحياء من الايمان » . ومن حديث جعفر بن أبى عثمان الطيالسى أنه صلى العصر يوم عرفة خلف المأمون بالرصافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول : لا يا غوغاء لا يا غوغاء ، غدا التكبير سنة أبى القاسم ﷺ . فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال : أنبأ هشيم بن بشير ثنا ابن شبرمة عن الشعبى عن البراء بن عازب عن أبى بردة بن دينار . قال قال رسول الله ﷺ : « من ذبح قبل أن يصلى فانما هو لحم قدمه لأهله ، ومن ذبح بعد أن يصلى الغداة فقد أصاب السنة » . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا ، اللهم اصلحنى واستصلحنى وأصلح على يدى . تولى المأمون الخلافة فى المحرم لخمس بقين منه بعد مقتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة ، واستمر فى الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، وقد بايع فى سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لعلى الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وخلع السواد ولبس الخضرة كما تقدم ، فأعظم ذلك العباسيون من البغاددة وغيرهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدى ، ثم ظفر المأمون بهم واستقام له الحال فى الخلافة ، وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسى ، فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل ، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنده الباطل . ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً . وذلك فى آخر أيامه وانقضاء دولته . وقال ابن أبى الدنيا : كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب يعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقها ضيق الجبين ، على خده خال . أمه أم ولد يقال لها مراجل . وروى الخطيب عن القاسم بن محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون ، وهذا غريب جدا لا يوافق عليه ، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء . قالوا : وقد كان المأمون يتلو فى شهر رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة ، وجلس يوماً لاملاء الحديث فاجتمع حوله القاضى يحيى ابن أكثم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثا . وكانت له بصيرة بعلوم متعددة ، فقهاً وطباً وشعراً وفرائض وكلاماً ونحواً وغريبه ، وغريب حديث ، وعلم النجوم . وإليه ينسب الزيج المأمونى . وقد اختبر مقدار الدرجة فى وطئه سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء . وروى ابن عساكر

أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء ، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار ، فلم يحصل لها سوى دينار واحد . فقال لها المأمون على البديهة : قد وصل إليك حقك ، كان أخاك قد ترك بنتين وأما و زوجة واثنى عشر أخا وأختا واحدة وهي أنت ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : للبنتين الثلثان أربعمائة دينار ، وللأم السدس مائة دينار ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون دينارا ، بقي خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران ، ولك دينار واحد . فعجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه . وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب .

ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيما ، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلا ، فخرج من عنده محروماً ، فلقيه شاعر آخر فقال له : ألا أعجبك ! أنشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً . فقال : وما هو ؟ قال قلت فيه :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا * بالدين والناسُ بالدنيا مشاغيل

فقال له الشاعر الآخر : ما زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها . فهلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه * ولاعرض الدنيا عن الدين شاغله

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه : بيتان اثنان لاثنين ما يلحق بهما أحد ، قول أبي نواس :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في لباس صديق

وقول شريح : تهون على الدنيا الملامة إنه * حريص على استصلاحها من يلومها

قال المأمون : وقد ألجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوقة فرأيت رجلا في دكان عليه أثواب خلقة ، فنظر إلى نظر من يرحمني أو من يتعجب من أمري فقال :

أرى كل مغرور تمنيه نفسه * إذا ما مضى عام سلامة قابل

وقال يحيى بن أكثم : سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ﷺ ثم قال : عباد الله ! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين ، فوالله إنه للجد لا اللعب ، و إنه للحق لا الكذب ، وماهو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان والصراط ثم العقاب أوالثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز . ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار . وروى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت يا نضر ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين . فقال : ما الارجاء ؟ فقلت دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . قال : صدقت . ثم قال : يا نضر أتدري ماقلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني لمن علم الغيب لبعيد . فقال قلت أبياتا وهي :

أصبح ديني الذي أدين به • ولست منه الغداة معتذرا
حب عليّ بعد النبي ولا • أشتم صديقاً ولا عمرا
ثم ابن عفان في الجنان مع الـ • أبرار ذاك القتيل مصطبرا
ألا ولا أشتم الزبير ولا • طلحة إن قال قائل غدرا
وعائش الام لست أشتمها • من يفتريها فنحن منه برا

وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة وفيه تفضيل عليّ على الصّحابة . وقد قال جماعة من السلف والدارقطني : من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار - يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان وتقديمه على عليّ بعد مقتل عمر - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع ، على ما ذكره صاحب كتاب البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم ، وهو كتاب ينتهي به إلى أكفر الكفر . وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : لاأوتى بأحد فضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفترى . وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر . فقد خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب . وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأنصار ، البدعة الأخرى والطامة الكبرى وهي القول بخلق القرآن مع مافيه من الانهماك على تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال التي تعدد فيها المنكر . ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم ، وقتل رجالهم وسبي نسائهم ، وكان يقول : كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجاب وأنا بنفسي ، وكان يتحرّى العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل ، جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فان الحق أنطقها والباطل أسكته ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم

وكتب إلى بعض الأمراء : ليس المروءة أن يكون بيتك من ذهب وفضة وغريمك عار ، وجارك طاو والفقير جائع . ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون : والله لأقتلنك . فقال : يا أمير المؤمنين تأن علي فان الرفق نصف العفو ، فقال : ويلك ويحك لقد حلفت لأقتلنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حانثا خير من أن تلقاه قاتلا . فعفا عنه . وكان يقول : ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم . وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين - يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون - فجعل المأمون يتبسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل

القدر ؟ وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ما تناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعت يا شيخ ؟ فقال : بلى ، حدثنى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « من أكل ماتحت مائدته أمن من الفقر » . قال فأمر له المأمون بألف دينار .

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عباد بن المهلب : ياأبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف وأعطيك ديناراً . فقال : يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود . فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! اعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف . ولما أراد المأمون أن يدخل ببوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة ، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء . فأهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب ، ومزوداً فيه أشنان جيد ، وكتب إليه : إنى كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها ، فوجهت إليك بالمبتـدأ به ليمنه وبركته ، وبالمختوم به لطيبه ونظافته . وكتب إليه :

بضاعتى تقصر عن همتى * وهمتى تقصر عن مالى
فالملح والاشنان ياسيدى * أحسن مايهديه أمثالى

قال : فدخل بها الحسن بن سهل علـى المأمون فأعجبـه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا وملئا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب . وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهانى ، ودخل بعض الشعراء فقال يهنيه بولده :

مد لك الله الحياة مدا * حتى ترى ابنك هذا جدا
ثم يفدّى مثل ما تفدى * كأنه انت إذا تبدى
أشبه منك قامة وقدا * مؤزرا بمجده مردا

قال فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقـدم عليـه وهو بدمشق مال جزيل بعـد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه المعتصم ذلك ، فوردت عليـه خزائن من خراسان ثلاثون الف الف درهم ، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال ، ومعه يحيى بن أكثم القاضى ، فلما دخلت البلد قال : ليس من المروءة ان نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون . ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله فى الركاب لم ينزل عن فرسه . ومن لطيف شعره : —

لسانى كتوم لأسراركم * ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا دموعى كتمت الهوى * ولولا الهوى لم تكن لى دموع

وقد بعث خادماً ليلة من الليالى ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث ، وتمنعت الجارية من

المجيء إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه ، فانشأ المأمون يقول :

بعثتك مشتاقا ففزت بنظرة * وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا

فناجيت من أهوى وكنت مباعداً * فياليت شعري عن دنوك ما أغنى

ورددت طرفا في محاسن وجهها * ومتعت باستسماع نغمتها أذنا

أرى أثراً منه بعينيك بيِّنا * لقد سرقت عيناك من عينها حسنا

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال ، فرح بذلك بشر المريسي - وكان بشر هذا شيخ المأمون - فانشأ يقول :

قد قال مأموننا وسيدنا * قولا له في الكتب تصديق

إن عليا اعني أبا حسن * أفضل من قد أقلت النوق

بعد نبي الهدى وإن لنا * أعمالنا والقران مخلوق

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل * لمن يقول كلام الله مخلوق

ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر * ولا النبي ولم يذكره صديق

ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع * على الرسول وعند الله زنديق

بشر أراد به إمحاق دينهم * لأن دينهم والله ممحوق

ياقوم أصبح عقل من خليفتكم * مقيداً وهو في الاغلال موثوق

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هـذا فيؤدبه على ذلك ، فقال : ويحك لو كان فقيها لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له . ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفرة سافرها إلى طرسوس استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت : قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك ثم أنشأت تقول :

سأدعوك دعوة المضطر ربا * يثيب على الدعاء ويستجيب

لعل الله أن يكفيك حربا * ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلا : -

فيا حسنها إذ يغسل الدمع كحلها * وإذ هي تذرى الدمع منها الأنامل

صبيحة قالت في العتاب قتلتني * وقتلي بما قالت هناك تحاول

ثم أمر مسروراً الخادم بالاحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع ، ثم قال : نحن كما قال الأخطل

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت بأطهار

ثم ودعها وسار فرضت الجارية في غيبته هــذه ، ومات المأمون أيضا في غيبته هذه ، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهى فى السياق :

إن الزمان سقانا من مرارته * بعد الحلاوة كاسات فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا * ثم انثنى تارة أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزال بنا * من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا تراها ترينا من تصرفها * ما لا يدوم مصافاة وأحزانا
ونحن فيها كأنا لا يزايلنا * للعيش أحيا وما يبكون موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس فى يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافتــه عشرين ســنة وأشهراً ، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولى العهد من بعــده ، ودفن بطرسوس فى دار خاقان الخادم ، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء ، وقيــل يوم الأربعاء لثمان بقين من هذه السنة . وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها ، وقيل إنه نقل إلى أذنة فى رمضان فدفن بها فالله أعلم . وقد قال أبو سعيد المخزومى : —

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ * مون شيئا أو ملكه المأنوس
خلفوه بعرصتى طرســوس * مثل ما خلفوا أباه بطوس

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بحضرته وبحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب . وفيها القول بخلق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليــه وانقطع عمله وهو عــلى ذلك لم يرجع عنــه ولم يتب منه ، وأوصى أن يكبر عليــه الذى يصلى عليه خمساً ، وأوصى المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية ، وأوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده اخوه المأمون فى القرآن ، وأن يدعو الناس إلى ذلك ، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبى دواد ، وقال شاوره فى أمورك ولا تفارقه ، وإياك ويحيى بن أكثم أن تصحبــه ، ثم نهاه عنه وذمــه وقال : خاننى ونفر الناس عنى ففارقته غير راض عنه . ثم أوصاه بالعلويين خيراً ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأن يواصلهم بصلاتهم فى كل سنة

وقد ذكر ابن جرير للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها ابن عساكر مع كثرة ما يورده ، وفوق كل ذى علم عليم .

﴿ ذكر خلافة المعتصم بالله أبى إسحاق بن هارون ﴾

بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثانى عشر من رجب من سنة

ثمانى عشرة ومائتين ، وكان إذ ذاك مريضاً ، وهو الذى صلى على أخيه المأمون ، وقد سعى بعض الأمراء فى ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس فقال : ما هذا الخلف البارد ؟ أنا قد بايعت عمى المعتصم . فسكن الناس وخمدت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الآفاق ، وبالتعزية بالمأمون . فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون فى مدينة طوانة ، ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين ، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم ، ثم ركب المعتصم بالجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون ، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان فى أبهة عظيمة وتجمل تام . وفيها دخل خلق كثير من أهل همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان فى دين الخرمية ، فتجمع منهم بشر كثير ، فجهز إليهم المعتصم جيوشا كثيرة آخرهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فى جيش عظيم ، وعقد له على الجبال ، فخرج فى ذى القعدة وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية ، وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم ، وعلى يدى هذا جرت فتنة الامام أحمد وضرب بين يديه كما سيأتى بسط ذلك فى ترجمة أحمد فى سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها توفى من الأعيان :

﴿ بشر المريسى ﴾

وهو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسى المتكلم شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، وقد كان هذا الرجل ينظر أولا فى شئ من الفقه ، وأخذ عن أبى يوسف القاضى ، وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وقد نهاه الشافعى عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه ، وقال الشافعى : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إلى من أن يلقاه بعلم الكلام . وقد اجتمع بشر بالشافعى عند ما قدم بغداد . قال ابن خلكان : جدد القول بخلق القرآن وحُكى عنه أقوال شنيعة ، وكان مرجئيا وإليه تنسب المريسية من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة للكفر ، وكان يناظر الشافعى وكان لا يحسن النحو ، وكان يلحن لحناً فاحشاً . ويقال : إن أباه كان يهوديا صباغاً بالكوفة ، وكان يسكن درب المريسى ببغداد . والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر . قال : ومريس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها فى الشتاء ريح باردة

وفيها توفى عبد الله بن يوسف الشيبى . وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغسانى الدمشقى . ويحيى بن عبد الله البابلتى .

﴿ وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحيرى المعافرى ﴾

راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحاق مصنفها ، وإنما نسبت إليه فيقال سيرة ابن هشام ، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها ، وحرر أماكن واستدرك أشياء . وكان إماما فى

اللغة والنحو ، وقد كان مقيما بمصر واجتمع به الشافعي حين وردها ، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً . كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، قاله ابن يونس في تاريخ مصر . وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين ﴾

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد ، واجتمع عليه خلق كثير وقاتله قواد عبد الله بن طاهر مرات متعددة ، ثم ظهروا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين ، فمكث فيه ثلاثا ، ثم حول لأوسع منه وأجرى عليه رزق ومن يخدمه ، فلم يزل محبوساً هناك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلى له حبل من كوة كان يأتيه الضوء منها ، فذهب فلم يدر كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض .

وفي يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية ، ومعه أسارى منهم ، وقد قتل في حربه منهم مائة ألف مقاتل . وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة ، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات ، فمكث في قتالهم تسعة أشهر فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراءهم . وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سماق ، وهو داهيتهم وشيطانهم ، فأراح الله المسلمين منه ومن شره .

وفيها توفي سليمان بن داود الهاشمي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الشافعي وعلي بن عياش . وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري . وأبو مجلز المندي .

﴿ ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة ﴾

في يوم عاشوراء منها دخل عجيف في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفا قد جاؤا بالأمان إلى الخليفة ، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نقلهم إلى عين زربة ، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد . فكان آخر العهد بهم . وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كاوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لعنه الله ، وكان قد استفحل أمره جداً ، وقويت شوكته ، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها ، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين ، وكان زنديقاً كبيراً وشيطانا رجيما ، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإرصاد المدد ، وأرسل إليه المعتصم مع بغا الكبير أموالا جزيلة نفقة لمن معه من

الجند والأتباع ، فالتقى هو وبابك فاقتتلا قتالا شديداً ، فقتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً أزيد من مائة ألف ، وهرب هو إلى مدينته فأوى فيها مكسوراً ، فكان هذا أول ما تضعضع من أمر بابك ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، وقد استقصاها ابن جرير .

وفيها خرج المعتصم من بغداد فنزل القاطول فأقام بها . وفيها غضب المعتصم على الفضل بن مروان بعد المكانة العظيمة ، وعزله عن الوزارة وحبسه وأخذ أمواله وجعل مكانه محمد بن عبد الملك ابن الزيات . وحج بالناس فيها صالح بن على بن محمد أمير السنة الماضية في الحج .

وفيها توفى آدم بن أبي إياس . وعبد الله بن رجاء . وعفان بن مسلمة . وقالون أحد مشاهير القراء . وأبو حذيفة الهندى .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين ﴾

فيها كانت وقعة هائلة بين بغا الكبير وبابك فهزم بابك بغا وقتل خلقاً من أصحابه . ثم اقتتل الأفشين وبابك فهزمه افشين وقتل خلقا من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير . وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى العباسى .

وفيها توفى عاصم بن على . وعبد الله بن مسلم القعنبي . وعبدان . وهشام بن عبيد الله الرازى .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين ﴾

فيها جهز المعتصم جيشا كثيراً مدداً للأفشين على محاربة بابك وبعث إليه ثلاثين ألف ألف درهم نفقة للجند ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، وافتتح الافشين البذ مدينة بابك واستباح ما فيها ، وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد . وقد أطال ابن جرير بسط ذلك جدا . وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما فيه من الأموال مما قدر عليه .

﴿ ذكر مسك بابك ﴾

لما احتوى المسلمون على بلده المسمى بالبذ وهى دار ملكه ومقر سلطنته هرب بمن معه من أهله وولده ومعه أمه وامرأته ، فانفرد فى شرذمة قليلة ولم يبق معهم طعام ، فاجتازوا بحراث فبعث غلامه إليه وأعطاه ذهباً فقال : اعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز ، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد وهو يأخذ منه الخبز ، فظن أنه قد اغتصبه منه ، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له سهل بن سنباط ليستعدى على ذلك الغلام ، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال : ما خبرك ؟ فقال : لا شئ ، إنما أعطيته دنانير وأخذت منه الخبز . فقال : ومن أنت ؟ فأراد أن يعمى عليه الخبر فألح عليه فقال : من غلمان بابك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : ها هو ذا جالس يريد الغداء . فسار إليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وقبل يده وقال : يا سيدى أين تريد ؟ قال : أريد أن أدخل بلاد

الروم ، فقال : إلى عنـد من تذهب أحرز من حصنى وأنا غلامك وفى خدمتك ؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه إلى الحصن فأنزله عنـده وأجرى عليه النفقات الـكثيرة والتحف وغير ذلك ، وكتب إلى الأفشين يعلمه ، فأرسل إليـه أميرين لقبضه ، فنزلا قريباً من الحصن وكتبا إلى ابن سنباط فقال : أقيما مكانكما حتى يأتيكما أمرى . ثم قال لبابك : إنه قد حصل لك هم وضيق من هذا الحصن وقـد عزمت عـلى الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزاة وكلاب ، فان أحببت أن تخرج معنا لتشرح صـدرك وتذهب همك فافعـل . قال : نعم ! فخرجوا و بعث ابن سنباط إلى الأميرين أن كونوا مكان كذا وكذا فى وقت كذا وكذا من النهار ، فلما كانا بذلك الموضع أقبـل الأميران بمن معهما من الجنود فأحاطوا ببابك وهرب ابن سنباط ، فلما رأوه جاؤا إليه فقالوا : ترجل عن دابتك ، فقال : ومن أنتما ؟ فذكرا أنهما من عند الأفشين ، فترجل حينئذ عن دابته وعليه دراعـة بيضاء وخف قصير وفى يده باز ، فنظر إلى ابن سنباط فقال : قبحك الله فهلا طلبت منى من المال ما شئت كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء ! ثم أركبوه وأخذوه معهما إلى الأفشين ، فلما اقتربوا منه خرج فتلقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأمر بابك أن يترجل فيـدخل بين الناس وهو ماش ، ففعل ذلك ، وكان يوماً مشهوداً جـداً . وكان ذلك فى شوال من هذه السنة . ثم احتفظ به وسجنه عنده . ثم كتب الأفشين إلى المعتصم بذلك فأمره أن يقدم به و بأخيه ، وكان قد مسكه أيضاً . وكان اسم أخى بابك عبد الله ، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد فى تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد . وحج بالناس فيها الأمير المتقدم ذكره فى التى قبلها .

وفيها توفى أبو اليمـان الحكم بن نافع . وعمر بن حفص بن عياش . ومسلم بن إبراهيم . و يحيى بن صالح الوحاظى .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين ﴾

فى يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين وصحبته بابك عـلى المعتصم سامرا ، ومعه أيضاً أخو بابك فى تجمل عظيم ، وقد أمر المعتصم ابنـه هارون الواثق أن يتلقى الأفشين وكانت أخباره تفد إلى المعتصم فى كل يوم من شـدة اعتناء المعتصم بأمر بابك ، وقد ركب المعتصم قبـل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه ، فنظر إليه ثم رجع ، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سماطين وأمر بابك أن يركب عـلى فيل ليشهر أمره و يعرفوه ، وعليـه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة ، وقـد هيئوا الفيل وخضبوا أطرافه ولبسوه من الحرير والأمتعة التى تليق به شيئاً كثيراً ، وقد قال فيه بعضهم :

قد خضب الفيل كعاداته * يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب أعضاؤه * الا لذى شأن من الشان

ولما أحضر بين يدى المعتصم أمر بقطع يديه و رجليه وجز رأسه وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرّا ، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة قتله وهى ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة . وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين فى مدة ظهوره - وهى عشرون سنة - مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير - وأسر خلقا لا يحصون ، وكان جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلا ، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثة وعشرين امرأة من الخواتين ، وقد كان أصل بابك من جارية زرية الشكل جداً ، فآل به الحال إلى ما آل به إليه ، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام .

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على مافعل من الخير إلى المسلمين ، وعلى تخريبه بلاد بابك التى يقال لها البذ وتركه إياها قيعانا خرابا . فقالوا فى ذلك فأحسنوا ، وكان من جملتهم أبو تمام الطائى وقد أورد قصيدته بتمامها ابن جرير وهى قوله :

بذ الجلاد البذَّ فهو دفين * ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يقرهذا السيف هذا الصبر فى * هيجاء إلا عز هذا الدين
قد كان عُذرة سودد فافتضّها * بالسيف فحلُ المشرق الأفشين
فأعادها تعوى الثعالب وسطها * ولقد ترى بالأمس وهى عرين
هطلت عليها من جماجم أهلها * ديم إمارتها طُلّى وشؤون
كانت من المهجات قبل مفازة * عسراً فأضحت وهى منه معين

وفى هذه السنة - أعنى سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقا كثيرا من المسلمين ، وأسر مالا يحصون كثرة ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات . ومثّل بمن وقع فى أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم قبحه الله . وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به فى مدينة البذ استوسقت الجيوش حوله وكتب إلى ملك الروم يقول له : إن ملك العرب قد جهز إلى جمهور جيشه ولم يبق فى أطراف بلاده من يحفظها ، فان كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ماحولك من بلاده فخذها فانك لا تجد أحداً يمانعك عنها . فركب توفيل بمائة ألف وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا فى الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى ملطية فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا

وأسروا نساءهم ، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ فى قصره بالنفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضى والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فعسكر غربى دجلة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة ، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر راجعا إلى بلاده ، وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه ، فرجعوا إلى الخليفة لاعلامه بما وقع من الأمر ، فقال للأمراء . أى بلاد الروم أمنع ؟ قالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية .

﴿ ذكر فتح عمورية على يد المعتصم ﴾

لما تفرغ المعتصم من بابك وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء ، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية فى جحافل أمثال الجبال ، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية سروج ، وعبى جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها ، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب ، فانتهى فى سيره إلى نهر اللسى وهو قريب من طرسوس ، وذلك فى رجب من هذه السنة . وقد ركب ملك الروم فى جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى ، فجاؤا فى أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقيا عليه فيهلك ، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه . ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم فى شرذمة من جيشه واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقيا هو والأفشين فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها ، فثبت الأفشين فى ثانى الحال وقتل من الروم خلقا وجرح آخرين ، وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فاذا نظام الجيش قد انحل ، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك وركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك ، فوجدوا أهلها قد هربوا منه فتقووا منها بما وجدوا من طعام وغيره ، ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالميمنة عليها الأفشين ، والميسرة عليها اشناس ، والمعتصم فى القلب ، وبين كل عسكرين فرسخان ، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلبا ومقدمة وساقة ، وأنهم مهما مروا عليه من القرى حرقوه وخربوه وأسروا وغنموا ، وسار بهم كذلك قاصدا إلى عمورية ، وكان بينها وبين مدينة أنقرة سبع مراحل ، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان

من هذه السنة ، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها ، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده ، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها تحصنا شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة . وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذى أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشد إليه ، أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الاسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان فى السور كان قد هدمه السيل وبنى بناء ضعيفا بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذى دلهم عليه ذلك الأسير ، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلم تغن شيئاً ، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش فى طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما ممن أنتما ؟ فقالا : من أصحاب فلان ـ لأمير سموه من أمراء المسلمين ـ فحملا إلى المعتصم فقررهما فاذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائنا فى ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينثر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذى كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما . ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة ، فضاقت الروم ذرعا بذلك ، وألح عليهم المسلمون فى الحصار ، وقد زاد المعتصم فى المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب . ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق فى مقاومة السور ، وكان قد غنم فى الطريق غنما كثيراً جداً ففرقها فى الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأسا ويجىء بملء جلده تراباً فيطرحه فى الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقا ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك . وبينا الناس فى الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب ، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة ، فبعث المعتصم من نادى فى الناس : إنما ذلك سقوط السور . ففرح المسلمون بذلك فرحا شديداً ، لكن لم يكن ما هدم يسع الخيل والرجال إذا دخلوا . وقوى الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ،

فضعف ذلك الأمير الذى هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون فى حفظه .

فلما يئس منهـم خرج إلى المعتصم ليجتمع به . فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التى قد خلت من المقاتلة ، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم ولا يقدرون على دفاعهم ، فلم يلتفت إليهم المسلمون ، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون ، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهـم فى كل مكان حيث وجـدوهم ، وقـد حشروهم فى كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهـم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذى فيه النائب ، وهو مناطس فى حصن منيع ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذى فيه مناطس فناداه المنادى ويحك يا مناطس ! هـذا أمير المؤمنين واقف تجاهك . فقالوا : ليس بمناطس ههنـا مرتين . فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس هذا مناطس هـذا مناطس . فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين . فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف فى عنقه ثم جئ به حتى أوقف بين يدى المعتصم فضربه بالسوط على رأسـه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهانا إلى الوطاق الذى فيـه الخليفة نازل ، فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالا لاتحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم باحراق ما بقى من ذلك ، وباحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئـلا يتقوى بها الروم على شئ من حرب المسلمين ، ثم انصرف المعتصم راجعا إلى ناحية طرسوس فى آخر شوال من هذه السنة . وكانت إقامته على عمورية خمسة وعشرين يوماً .

﴿ ذكر مقتل العباس بن المأمون ﴾

كان العباس مع عمه المعتصم فى غزوة عمورية ، وكان عجيف بن عنبسة قد ندّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها ، ولامه على مبايعته عمه المعتصم ، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه وأخذ البيعة من الأمراء له ، وجهز رجـلا يقال له الحارث السمرقنـدى وكان نديماً للعباس ، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء فى الباطن ، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلى الفتك بعمه ، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقره ومنها إلى عمورية ، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمـه فى هـذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغـداد ، فقال العباس : إنى أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم

واجتهد بالعزم، واستدعى بالحارث السمرقندى فاستقره فأقرّ له بجملة الأمر، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس فقيده وغضب عليه وأهانه. ثم أظهر له أنه قد رضى عنه وعفا عنه، فأرسله من القيد وأطلق سراحه، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته فى مجلس شرابه واستخلى به حتى سقاه واستحكاه عن الذى كان قد دبره من الأمر، فشرح له القضية، وذكر له القصة، فاذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندى. فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانيا فذكرها له كما ذكرها أول مرة، فقال: ويحك إنى كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلا بصدقك إياى فى هذه القصة. ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين، وأمر بعجيف وبقية الأمراء الذين ذكرهم فاحتفظ عليهم، ثم أخذهم بأنواع النقمات التى اقترحها لهم، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر، ومات العباس بن المأمون بمنبج فدفن هناك، وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً، ثم جىء بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فنمع منه حتى مات، وأمر المعتصم بلعنه على المنبر وسماه اللعين. وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً.

وحج بالناس فيها محمد بن داود. وفيها توفى من الأعيان. بابك الخرّمى قتل وصلب كما قدمنا. وخالد بن خراش. وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد. ومحمد بن سنان العوفى. وموسى ابن إسماعيل.

﴿ ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين ﴾

فيها خرج رجل بآمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن يزداهرمز، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه، فيبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد ليقبضه منه ثم يدفعه إلى ابن طاهر، ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر المخالفة للمعتصم. وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمى ويعده بالنصر. ويقال إن الذى قوى رأس مازيار على ذلك الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه، فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب - أخا إسحاق بن إبراهيم - فى جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير، وكان آخر ذلك أسر المازيار وحمله إلى ابن طاهر، فاستقره عن الكتب التى بعثها إليه الأفشين فأقر بها، فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التى احتفظت للخليفة، وهى أشياء كثيرة جدا، من الجواهر والذهب والثياب. فلما أوقف بين يدى الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمى على جسر بغداد، وقتل عيون أصحابه وأتباعه.

وفيها تزوج الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس ودخل بها فى قصر المعتصم بسامرا فى جمادى،

وكان عرساً حافلا ، وليه المعتصم بنفسه ، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية . وفيها خرج منكجور الأشروسنى قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة ، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك ، فظفر منكجور بمال عظيم مخزون لبابك فى بعض البلدان ، فأخذه لنفسه وأخفاه عن المعتصم ، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد الله بن عبد الرحمن ، فكتب إلى الخليفة فى ذلك فكتب منكجور يكذبه فى ذلك ، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل . فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فجار به وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة . وفيها مات مناطس الرومى نائب عمورية ، وذلك أن المعتصم أخذه معه أسيرا فاعتقله بسامرا حتى مات فى هذه السنة . وفى رمضان منها مات (إبراهيم بن المهدى بن المنصور) عم المعتصم ويعرف بابن شكله ، وكان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلا ، قال ابن ماكولا : وكان يقال له الصينى – يعنى لسواده –. وقد كان ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة ، وذكر أنه ولى إمرة دمشق نيابة عن الرشيد أخيه مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية فأقام بها أربع سنين . وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة ، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، ولما بويع بالخلافة فى أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد ، فهزمه إبراهيم هذا ، فقصده حميد الطوسى فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون ، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه . وكانت مدة ولايته الخلافة سنة وإحدى عشر شهراً واثنا عشر يوماً ، وكان بدء اختفائه فى أواخر ذى الحجة سنة ثلاث ومائتين ، فمكث مختفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشرا . قال الخطيب : كان إبراهيم بن المهدى هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخى الكف ، وكان معروفا بصناعة الغناء ، حاذقا فيها وقد قل المال عليه فى أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه فى أعطياتهم فجعل يسوف بهم . ثم خرج إليهم رسوله يقول : إنه لا مال عنده اليوم ، فقال بعضهم : فليخرج الخليفة إلينا فليغن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات . فقال فى ذلك دعبل شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدى :

يامعشر الأعراب لا تغلطوا * خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حُنينية * لاتدخل الكيس ولاتربط
والمعبـديات لقوادكم * وما بهذا أحد يغبط
فهكذا برزق أصحابه * خليفة مصحفه البربط

وكتب إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء : ولىّ الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو ، كما جعل كل ذى نسب دونه ، فان عفا

فبفضله و إن عاقب فبحقه . فوقع المأمون فى جواب ذلك : القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شئ . ولما دخل عليه أنشأ يقول :

إن أكن مذنبا لحظى أخطأت • فدع عنك كثرة التأنيب

قل كما قال يوسف لبنى يعقو • ب لما أتوه لا تثريب

فقال المأمون : لا تثريب . وروى الخطيب أن إبراهيم لما وقف بين يدى المأمون شرع يؤنبه على مافعل فقال : يا أمير المؤمنين حضرت أبى وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبى فأمر بقتله فقال مبارك بن فضالة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك حديثا ، فقال : قل . فقال : حدثنى الحسن البصرى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال ؟ « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم الجزاء ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال المأمون : قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك ياعم . وقد ذكرنا فى سنة أربع ومائتين زيادة على هذا . وكانت أشعاره جيدة بليغة سامحه الله . وقد ساق من ذلك ابن عساكر جانباً جيداً .

كان مولد إبراهيم هذا فى مستهل ذى القعدة سنة ثنتين وستين ومائة ، وتوفى يوم الجمعة لسبع خلون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة .

وفيها توفى سعيد بن أبى مريم المصرى . وسليمان بن حرب . وأبو معمر المقعد . وعلى بن محمد المدائنى الأخبارى أحد أئمة هذا الشأن فى زمانه . وعمرو بن مرزوق شيخ البخارى . وقد تزوج هذا الرجل ألف امرأة . (وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادى) أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس ، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين الناس ، حتى يقال إن الامام أحمد كتب كتابه فى الغريب بيده ، ولما وقف عليه عبد الله بن طاهر رتب له فى كل شهر خمسمائة درهم ، وأجراها على ذريته من بعده . وذكر ابن خلكان أن ابن طاهر استحسن كتابه وقال : ماينبغى لعقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن يحوج صاحبه إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم فى كل شهر . وقال محمد بن وهب المسعودى : سمعت أبا عبيد يقول : مكثت فى تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة . وقال هلال بن المعلى الرقى : من الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة : الشافعى تفقه فى الفقه والحديث ، وأحمد بن حنبل فى المحنة . ويحيى بن معين فى نفى الكذب . وأبو عبيد فى تفسير غريب الحديث . ولولا ذلك لاقتحم الناس المهالك .

وذكر ابن خلكان أن أبا عبيد ولى القضاء بطرسوس ثمانى عشرة سنة ، وذكر له من العبادة والاجتهاد فى العبادة شيئا كثيراً . وقد روى الغريب عن أبى زيد الأنصارى والأصمعى وأبى

عبيدة معمر بن المثنى ، وابن الأعرابى ، والفراء والكسائى وغيرهم . وقال إسحاق بن راهويه : نحن نحتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا . وقدم بغداد وسمع الناس منه ومن تصانيفه . وقال إبراهيم الحربى : كان كأنه جبل نفخ فيه روح ، يحسن كل شئ . وقال أحمد بن كامل القاضى : كان أبو عبيد فاضلا دينا ربانيا عالماً متقنا فى أصناف علوم أهل الايمان والاتقان والاسلام : من القرآن والفقه والعربية والأحاديث ، حسن الرواية صحيح النقل ، لا أعلم أحداً طعن عليه فى شئ من علمه وكتبه ، وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه ، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله . توفى فى هذه السنة قاله البخارى . وقيل فى التى قبلها بمكة ، وقيل بالمدينة . وله سبع وستون سنة . وقيل جاوز السبعين فالله أعلم .

ومحمد بن عثمان أبو الجماهر الدمشقى الكفرتوثى أحد مشايخ الحديث . ومحمد بن الفضل أبو النعمان السدوسى الملقب بعارم شيخ البخارى ومحمد بن عيسى بن الطباع . ويزيد بن عبد ربه الجرجسى الحمصى شيخها فى زمانه .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين ﴾

فيها دخل بغا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان . وفيها عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن ايتاخ . وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالمازيار فدخل بغداد على بغل باكاف فضربه المعتصم بين يديه أربعمائة وخمسين سوطاً ثم سقى الماء حتى مات ، وأمر بصلبه إلى جنب بابك ، وأقر فى ضربه أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له خلع الطاعة ، فغضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه ، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة تسمى الكوة ، إنما تسعه فقط ، وذلك لما تحقق أنه يريد مخالفته والخروج عليه ، وأنه قد عزم على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد ابن أبى دؤاد المعتزلى ، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فاتهم الأفشين فى هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس . منها أنه غير مختتن فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك ، فقال له الوزير - وهو الذى كان يناظره من بين القوم - فأنت تطاعن بالرماح فى الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلفة ببدنك ؟ ومنها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذنا كل واحد ألف سوط لأنهما هدما بيت أصنام فاتخذاه مسجداً . ومنها أنه عنده كتاب كليله ودمنه مصوراً فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب ، فاعتذر أنه ورثه من آبائهم . واتهموا بأن الأعاجم يكاتبونه وتكتب إليه فى كتبها : أنت إله الآلهة من العبيد ، وأنه يقرهم على ذلك . فجعل يعتذر بأنه أجراهم على ما كانوا يكاتبون به أباه وأجداده ، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فيتضع عندهم .

فقال له الوزير : ويحك فماذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ؟ وأنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه فى ضيق حتى ينصر دين المجوس الذى كان قديماً و يظهره على دين العرب ، وأنه كان يستطيب المنخنقة على المذبوحة ، وأنه كان فى كل يوم أربعاء يستدعى بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشى بينهما ثم يأكلها ، فعند ذلك أمر المعتصم بغا الكبير أن يسجنه مهانا ذليلا فجعل يقول : إنى كنت أتوقع منكم ذلك .

وفى هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بنت أشناس إلى سامرا . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيها توفى من الأعيان اصبغ بن الفرج ، وسعدويه ، ومحمد بن سلام البيكندى شيخ البخارى ، وأبو عمر الجرمى . وأبو دلف العجلى التميمى الأمير أحد الأجواد .

﴿ وسعيد بن مسعدة ﴾

أبو الحسن الأخفش الأوسط البلخى ثم البصرى النحوى ، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتبا كثيرة منها كتاب فى معانى القرآن ، وكتاب الأوسط فى النحو وغير ذلك ، وله كتاب فى العروض زاد فيه بحر الخبب على الخيل ، وسمى الأخفش اصغر عينيه وضعف بصره ، وكان أيضا أدلغ ، وهو الذى لايضم شفتيه على أسنانه ، كان أولا يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير ، أبى الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد المجرى ، شيخ سيبويه وأبى عبيدة ، فلما ظهر على بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط ، والهجرى الأكبر ، وعلى ابن سليمان الأصغر . وكانت وفاته فى هذه السنة ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

﴿ الجرمى النحوى ﴾

وهو صالح بن إسحاق البصرى ، قدم بغداد وناظر بها الفراء ، وكان قد أخذ النحو عن أبى عبيدة وأبى زيد والأصمعى وصنف كتبا منها الفرخ ـ يعنى فرخ كتاب سيبويه ـ وكان فقيها فاضلا نحويا بارعا عالما باللغة حافظاً لها ، دينا ورعا حسن المذهب ، صحيح الاعتقاد وروى الحديث . ذكره ابن خلكان وروى عنه المبرد ، وذكره أبو نعيم فى تاريخ اصبهان .

﴿ ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين ﴾

فى شعبان منها توفى الأفشين فى الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وذرى رماده فى دجلة واحتيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكللة بذهب وجواهر ، وكتبا فى فضل دين المجوس واشياء كثيرة كان يتهم بها ، تدل على كفره وزندقته ، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانتماء إلى

دين آبائه المجوس . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيها توفى إسحاق القروى . و إسماعيل بن أبى أوس . ومحمد بن داود صاحب التفسير . وغسان ابن الربيع . ويحيى بن يحيى التيمى شيخ مسلم بن الحجاج . ومحمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين

﴿ وأبو دلف العجلى ﴾

عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعى بن عبد العزيز بن دلف ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم الأمير أبو دلف العجلى أحد قواد المأمون والمعتصم و إليه ينسب الأمير أبو نصر بن ما كولا ، صاحب كتاب الاكمال . وكان القاضى جلال الدين خطيب دمشق القزوينى يزعم أنه من سلالته ، و يذكر نسبه إليه ، وكان أبو دلف هذا كريما جواداً ممدحاً ، قد قصده الشعراء من كل أوب ، وكان أبو تمام الطائى من جملة من يغشاه و يستمنح نداه ، وكانت لديه فضيلة فى الأدب والغناء ، وصنف كتباً منها سياسة الملوك ، ومنها فى الصيد والبزاة . وفى السلاح وغير ذلك . وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاع الشاعر :

يا طالباً للكيمياء وعلمه * مدح ابن عيسى الكيمياء الأعظم
لو لم يكن فى الأرض إلا درهم * ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

فيقال : إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، وكان شجاعا فاتكا ، وكان يستدين و يعطى ، وكان أبوه قد شرع فى بناء مدينة الكرخ فمات ولم يتمها فأتمها أبو دلف ، وكان فيه تشيع ، وكان يقول: من لم يكن متغاليا فى التشيع فهو ولد زنا . فقال له ابنه دلف : لست على مذهبك يا أبة . فقال : والله لقد وطئت أمك قبل أن أشتريها ، فهذا من ذاك . وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى فى المنام بعد وفاة أبيه أن آتيا أتاه فقال : أجب الأمير ! قال فقمت معه فأدخلنى داراً وحشة وعرة سوداء الحيطان مغلقة السقوف والأبواب . ثم أصعدنى فى درج منها ثم أدخلنى غرفة ، و إذا فى حيطانها أثر النيران ، وفى أرضها أثر الرماد ، و إذا بأبى فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لى كالمستفهم : أدلف ؟ فقلت دلف . فأنشأ يقول :

أبلغن أهلنا ولا تخف عنهم * ما لقينا فى البرزخ الخناق
قد سئلنا عن كل ما قد فعلنا * فارحموا وحشتى وما قد ألاقى

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! ثم أنشأ يقول :

فلو أنا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شى

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم . وانتبهت .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين ﴾

فيها خرج رجل من أهل الثغور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع اليمانى ، فخلع الطاعة ودعا إلى نفسه . وكان سبب خروجه أن رجلا من الجند أراد أن ينزل فى منزله عند امرأته فى غيبته فمانعته المرأة فضربها الجندى فى يدها فأثرت الضربة فى معصمها . فلما جاء بعلها أبو حرب أخبرته فذهب إلى الجندى وهو غافل فقتله ثم تحصن فى رؤس الجبال وهو مبرقع ، فاذا جاء أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويذم من السلطان ، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحراثين وغيرهم ، وقالوا : هذا هو السفيانى المذكور أنه يملك الشام ، فاستفحل أمره جداً ، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل ، فبعث إليه المعتصم وهو فى مرض موته جيشا نحواً من مائة ألف مقاتل ، فلما قدم أمير المعتصم بمن معه وجدهم أمة كثيرة وطائفة كبيرة ، قد اجتمعوا حول أبى حرب ، فخشى أن يواقعه والحالة هذه ، فانتظر إلى أيام حرث الأراضى فتفرق عنه الناس إلى أراضيهم ، وبقى فى شرذمة قليلة فناهضه فأسره وتفرق عنه أصحابه ، وحمله أمير السرية وهو رجاء بن أيوب حتى قدم به على المعتصم ، فلامه المعتصم فى تأخره عن مناجزته أول ما قدم الشام ، فقال : كان معه مائة ألف أو يزيدون ، فلم أزل أطاوله حتى أمكن الله منه ، فشكره على ذلك .

وفيها فى يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبى إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور .

﴿ وهذه ترجمته ﴾

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور العباسى يقال له المثمن لأنه ثامن ولد العباس ، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته ، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات ، ومنها أنه أقام فى الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقيل ويومين ، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة فى شعبان وهو الشهر الثامن من السنة ، وأنه توفى وله من العمر ثمانية وأربعون سنة ، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثمانى بنات ، ومنها أنه دخل بغداد من الشام فى مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون ، قالوا : وكان أميا لا يحسن الكتابة ، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد : ما فعل غلامك ؟ قال : مات فاستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : وقد بلغ منك كراهة الكتاب إلى أن تجعل الموت راحة منه ؟ والله يا بنى لا تذهب بعد اليوم إلى الكتاب . فتركوه فكان أميا ، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة . وقد أسند الخطيب من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما فى ذم بنى أمية ومدح بنى العباس من الخلفاء . والثانى فى النهى عن الحجامة يوم الخميس . وذكر بسنده

عن المعتصم أن ملك الروم كتب إليه كتابا يتهدده فيه فقال للكاتب اكتب : قد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . قال الخطيب : غزا المعتصم بلاد الروم فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فأنكى نكاية عظيمة فى العدو ، وفتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفا وسبى مثلهم ، وكان فى سبيه ستون بطريقا ، وطرح النار فى عمورية فى سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائها إلى العراق وجاء ببابها أيضا معه وهو منصوب حتى الآن على أحد أبواب دار الخلافة مما يلى المسجد الجامع فى القصر . و روى عن أحمد بن أبى دؤاد القاضى أنه قال : ربما أخرج المعتصم ساعده إلى وقال لى : عض يا أبا عبد الله بكل ماتقدر عليه ، فأقول إنه لاتطيب نفسى يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك ، فيقول : إنه لا يضرنى . فأكدم بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك فى يده . ومر يوماً فى خلافة أخيه بمخيم الجند فاذا امرأة تقول : ابنى ابنى ، فقال لها : ماشأنك ؟ فقالت : ابنى أخذه صاحب هذه الخيمة . فجاء إليه المعتصم فقال له : أطلق هذا الصبى ، فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بأخراج الصبى إلى أمه . ولما ولى الخلافة كان شهما وله همة عالية فى الحرب ومهابة عظيمة فى القلوب ، و إنما كانت نهمته فى الانفاق فى الحربّ لافى البناء ولا فى غيره .

وقال أحمد بن أبى دؤاد : تصدق المعتصم على يدى ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم . وقال غيره : كان المعتصم إذا غضب لايبالى من قتل ولا مافعل . وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة له تغنيه فقال لى : كيف تراها ؟ فقلت له : اراها تقهره بحذق وتجتله برفق ، ولا تخرج من شئ إلا إلى أحسن منه ، وفى صوتها قطع شذور ، احسن من نظم الدر على النحور . فقال : والله لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها . ثم قال لابنه هارون الواثق ولى عهده من بعده : اسمع هذا الكلام . وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقا عظيما كان له من المماليك الترك قريب من عشرين ألفا ، وملك من آلات الحرب والدواب مالم يتفق لغيره . ولما حضرته الوفاة جعل يقول (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) وقال : لو علمت ان عمرى قصير مافعلت . وقال : إنى أحدث هذا الخلق ، وجعل يقول : ذهبت الحيل فلا حيلة . وروى عنه انه قال فى مرض موته : اللهم إنى أخافك من قبلى ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلى .

كانت وفاته بسر من رأى فى يوم الخميس ضحى لسبعة عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ــ أعنى سنة سبع وعشرين ومائتين ــ وكان مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة ، وولى الخلافة فى رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وكان أبيض أصهب اللحية

طويلها مربوعاً مشرباً اللون ، أمه ام ولد اسمها ماردة ، وهو أحد أولاد ستة من أولاد الرشيد ، كل منهم اسمه محمد ، وهم ابو إسحاق محمد المعتصم ، وأبو العباس محمد الأمين ، وأبو عيسى محمد ، وأبو احمد ، وأبو يعقوب ، وأبو أيوب . قاله هشام بن الكلبي . وقد ولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

وقد ذكر ابن جرير أن وزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات رثاه فقال :

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت * عليك أيدي التراب والطين

اذهب فنعم الحفيظ كنت على الـ * ـدنيا ونعم الظهير للدين

لا جبر الله أمة فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

وقال مروان بن أبي الجنوب ـ وهو ابن أخي حفصة ـ :

أبو إسحاق مات ضحى فمتنا * وأمسينا بهارون حيينا

لئن جاء الخميس بما كرهنا * لقد جاء الخميس بما هوينا

﴿ خلافة هارون الواثق بن المعتصم ﴾

بويع له بالخلافة قبل موت أبيه يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وعشرين ومائتين ـ ويكنى أبا جعفر ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى ، وذلك لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة ، وكان الذي أقام للناس الحج فيها جعفر بن المعتصم

وفيها توفي ملك الروم توفيل بن ميخائيل ، وكانت مدة ملكه ثنتي عشرة سنة ، فملكت الروم بعده امرأته تدورة . وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صغيراً . وفيها توفي :

﴿ بشر الحافي الزاهد المشهور ﴾

وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ، نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله الغيور ، أسلم على يدي علي بن أبي طالب . قلت : وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة ، وسمع بها شيئاً كثيراً من حماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وابن مهدي ، ومالك ، وأبي بكر بن عياش ، وغيرهم . وعنه جماعة منهم أبو خيثمة ، وزهير بن حرب ، وسري السقطي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم . قال محمد بن سعيد : سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهادته وورعه ونسكه وتقشفه . قال الإمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوج لتم أمره . وفي رواية عنه أنه قال : ما ترك بعده مثله . وقال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلا منه ، ولا أحفظ للسانه منه ، ما عرف له غيبة

لمسلم ، وكان فى كل شعرة منه عقل . ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شىء . وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً فى بدء أمره ، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل فى أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال سيدى اسمك ههنا ملقى يداس ! ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالية وضمخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال ، فأحيى الله قلبه وألهمه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة .

ومن كلامه : من أحب الدنيا فليتهيأ للذل . وكان بشر يأكل الخبز وحده فقيل له : أما لك أدم ؟ فقال : بلى أذكر العافية فأجعلها أدماً . وكان لا يلبس نعلا بل يمشى حافيا ، فجاء يوماً إلى باب فطرقه فقيل من ذا ؟ فقال : بشر الحافى . فقالت له جارية صغيرة لو اشترى نعلا بدرهم لذهب عنه اسم الحافى (١) . قالوا : وكان سبب تركه النعل أنه جاء مرة إلى حذاء فطلب منه شراكا لنعله فقال : ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس ؟ ! فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نعلا أبداً .

قال ابن خلكان : وكانت وفاته يوم عاشوراء ، وقيل فى رمضان ببغداد ، وقيل بمرو . قلت : الصحيح ببغداد فى هذه السنة ، وقيل فى سنة ست وعشرين والأول أصح والله أعلم . وحين مات اجتمع فى جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر فى قبره إلا بعد العتمة . وكان على المدائنى وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلا صوته فى الجنازة : هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة . وقد روى أن الجن كانت تنوح عليه فى بيته الذى كان يسكنه . وقد رآه بعضهم فى المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لى ولكل من أحبنى إلى يوم القيامة . وذكر الخطيب أنه كان له أخوات ثلاث وهن : مخة . ومضغة ، وزبدة . وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعا أيضاً . ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إنى ربما طفئ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل على عند البيع أن أميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فميزى للمشترى . وقالت له مرة إحداهن : ربما تمر بنا مشاعل بنى طاهر فى الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصنى من ذلك . فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار . وسألته عن أنين المريض أفيه شكوى ؟ قال لا ! إنما هو شكوى إلى الله عز وجل . ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يابنى اذهب خلفها فاعلم لى من هذه المرأة ؟ قال عبد الله : فذهبت وراءها فإذا هى قد دخلت دار بشر ، وإذا هى أخته مخة .

وروى الخطيب أيضا عن زبدة قالت : جاء ليلة أخى بشر فدخل برجله فى الدار وبقيت

(١) فى المصرية : ماوجد دانقين يشترى بهما نعلا ويستريح من هذا الاسم ؟ .

الأخرى خارج الدار ، فاستمر كذلك ليلتـه حتى أصبح ، فقيـل له فيم تفكرت ليلتك ؟ فقال : تفكرت فى بشر النصرانى و بشر اليهودى و بشر المجوسى وفى نفسى لأن اسمى بشر ، فقلت فى نفسى : ما الذى سبق لى من الله حتى خصنى بالاسلام من بينهم ؟ فتفكرت فى فضل الله على وحمدته أن هدانى للاسـلام ، وجعلنى ممن خصه به ، وألبسنى لباس أحبابه . وقد ترجمه ابن عساكر فأطنب وأطيب وأطال من غير ملال ، وقد ذكر له أشعاراً حسنة ، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات :

تعاف القذى فى الماء لا تستطيعه • وتكرع من حوض الذنوب فتشرب
وتؤثر من أكل الطعام ألذه • ولا تذكر المختار من أين يُكسب
وترقد يامسكين فوق نمارق • وفى حشوها نار عليك تلهب
فحتى متى لا تستفيق جهالة • وأنت ابن سبعين بدينك تلعب

وممن توفى فيها أحمد بن يونس . و إسماعيل بن عمرو البجلى . وسعيد بن منصور صاحب السنن المشهورة التى لا يشاركه فيها إلا القليل . ومحـمد بن الصباح الدولابى . وله سنن أيضاً . وأبو الوليد الطيالسى . وأبو الهذيل العلاف المتكلم المعتزلى . والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين ﴾

فى رمضان منها خلع الواثق على اشناس الأمير ، وتوجه وألبسه وشاحين من جوهر وحج بالناس فيها محـمد بن داود الأمير . وغلا السعر على الناس فى طريق مكة جداً ، وأصابهم حر شـديد وهم بعرفة ، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم ، كل ذلك فى ساعة واحدة ، ونزل عليهم وهم بمنى مطر لم ير مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج .

قال ابن جرير : وفيها مات أبو الحسن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن فى منزل إسحاق بن إبراهيم الموصلى . وحبيب بن أوس الطائى أبو تمام الشاعر

قلت أما أبو الحسن المدائنى فاسمه على بن المدائنى أحد أئمة هذا الشأن ، و إمام الأخباريين فى زمانه ، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة . وأما

﴿ أبو تمام الطائى الشاعر ﴾

صاحب الحماسـة التى جمعها فى فضـل الشتاء بهمدان فى دار وزيرها . فهو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى أبو تمام الطائى الشاعر الأديب . ونقل الخطيب عن محـمد بن يحيى الصولى أنه حكى عن بعض الناس أنهـم قالوا : أبو تمـام حبيب بن تدرس النصرانى ، فسماه أبوه حبيب أوس بدل تدرس . قال ابن خلكان : وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدور بالقرب من طبرية ، وكان بدمشق يعمل عنـد حائك ، ثم سار به إلى مصر فى شبيبته . وابن خلكان أخذ ذلك

من تاريخ ابن عساكر ، وقد ترجم له أبو تمام ترجمة حسنة . قال الخطيب : وهو شامي الأصل ، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس بعض الأدباء فأخذ عنهم وكان فطناً فهماً ، وكان يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله إليه وهو بسر من رأى ، فعمل فيه قصائد فأجازه وقدمه على شعراء وقته ، قدم بغداد فجالس الأدباء وعاشر العلماء ، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق . وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر أخباراً بسنده . قال ابن خلكان : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع وغير ذلك ، وكان يقال : في طيء ثلاثة : حاتم في كرمه ، وداود الطائي في زهده ، وأبو تمام في شعره . وقد كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيص ، ودعبل ، وابن أبي قيس ، وكان أبو تمام من خيارهم دينا وأدبا وأخلاقا . ومن رقيق شعره قوله : —

يا حليف الندى ويا معدن الجود * ويا خير من حويت القريضا

ليت حماك بي وكان لك الأجـ * ـر فلا تشتكي وكنتُ المريضا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة إحدى وثلاثين ومائتين وكذا قال ابن جرير . وحكى عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل سنة ثنتين وثلاثين فالله أعلم . وكانت وفاته بالموصل ، وبنيت على قبره قبة ، وقد رثاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فقال :

نبأ أتى من أعظم الأنباء * لما ألم مقلقل الأحشاء

قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم * ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

وقال غيره :

فجع القريض بخاتم الشعراء * وغدير روضتها حبيب الطائي

ماتا معا فتجاورا في حفرة * وكذاك كانا قبل في الأحياء

وقد جمع الصولي شعر أبي تمام على حروف المعجم . قال ابن خلكان : وقد امتدح أحمد بن المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له بعض الحاضرين : أتقول هذا لأمير المؤمنين وهو أكبر قدراً من هؤلاء ؟ فانك ما زدت على أن شبهته بأجلاف من العرب البوادي . فأطرق إطراقة ثم رفع رأسه فقال :

لاتنكروا ضربي له من دونه * مثلاشروداً به في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

قال : فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، وإنما قالهما ارتجالا . قال : ولم يعش بعد هذا إلا قليلا حتى مات . وقيل إن الخليفة أعطاه الموصل لما مدحه بهذه القصيدة ، فأقام بها أربعين

يوماً ثم مات . وليس هـذا بصحيح ، ولا أصل له ، وإن كان قـد لهج به بعض الناس كالزمخشرى وغيره . وقد أورد له ابن عساكر أشياء من شعره مثل قوله : ـــ

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن إذا من جهلهن البهائم

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد فى كف امرئ والدراهم

ومنه قوله : وما أنا بالغيران من دون غرسه * إذا أنا لم أصبح غيوراً على العلم

طبيب فؤادى مذ ثلاثين حجة * ومذهب همى .والمفرج للغم

وفيها توفى أبو نصر التمار أبى . والعبسى . وأبو الجهم . ومسدّد . وداود بن عمرو الضبى . ويحيى بن عبد الحميد الحمانى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين ﴾

فيها أمر الواثق بعقوبة الدواوين وضربهـم واستخلاص الأموال منهـم ، لظهور خياناتهـم وإسرافهم فى أمورهم ، فنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار . ودون ذلك ، وجاهر الوزير محمـد بن عبد الملك لسائر ولاة الشرط بالعـداوة فعسفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيما ، وجهداً جهيداً ، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر فى أمرهم ، وأقيموا للناس وافتضحوا هم والدواوين فضيحة بليغـة . وكان سبب ذلك أن الواثق جلس ليـلة فى دار الخـلافة وجلسوا يسمرون عنده ، فقال : هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدى الرشيد للبرامكة ؟ فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين ! سبب ذلك أن الرشيد عرضت له جارية فأعجبه جمالها فساوم سـيدها فيها فقال : يا أمير المؤمنين إنى أقسمت بكل يمين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار ، فاشتراها منه بها وبعث إلى يحيى بن خالد الوزير ليبعث إليه بالمال من بيت المال ، فاعتل بأنها ليست عنده ، فأرسل الرشـيد إليه يؤنبه ويقول : أما فى بيت مالى مائة ألف دينار ؟ وألح فى طلبها فقال يحيى بن خالد : أرسلوها إليـه دراهم ليستكثرها ، ولعله يرد الجارية . فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها فى طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة ، فلما اجتاز به رأى كوماً من دراهم ، فقال : ماهذا قالوا : ثمن الجارية ، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خدمه فى دار الخلافة ، وأعجبه جمع المال فى حواصله ، ثم شرع فى تتبع أموال بيت المال فاذا البرامكة قد اسـتهلكوها ، فجعل يهم بهم تارة بريد أخـذهم وهلاكهم ، وتارة يحجم عنهـم ، حتى إذا كان فى بعض الليالى سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفا من الدراهم ، فذهب إلى الوزير يحيى بن خالد بن برمك فطلبها منـه فماطله مدة طويلة ، فلما كان فى بعض الليالى فى السمر عرض أبو العود بذلك للرشيد فى قول عمر بن أبى ربيعة :

وعدت هند وما كادت تعد * ليت هنداً أنجزتنا ما تعد

واستبدت مرة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد

فجعل الرشيد يكرر قوله : إنما العاجز من لا يستبد ، ويعجبه ذلك . فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما ، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد ؟ فقيل له أبو العود . فبعث إليه وأعطاه الثلاثين ألفاً وأعطاه من عنده عشرين ألفا ، وكذلك ولداه الفضل وجعفر ، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة ، وكان من أمرهم ما كان .

فلما سمع ذلك الواثق أعجبه ذلك وجعل يكرر قول الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد . ثم بطش بالكتاب وهم الدواوين على إثر ذلك ، وأخذ منهم أموالا عظيمة جداً . وفيها حج بالناس أمير السنة الماضية وهو أمير الحجيج فى السنتين الماضيتين .

وفيها توفى خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء ، وعبد الله بن محمد السندى ، ونعيم بن حماد الخزاعى أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية ، وله المصنفات فى السنن وغيرها ، وبشار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه ، ولكنها عالية الاسناد إليه ، ولكنها موضوعة .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين ﴾

فى جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعاثوا فى الأرض فساداً ، وأخافوا السبيل ، وقاتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحوذوا على ما بين المدينة ومكة من المناهل والقرى ، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركى فى جيش فقاتلهم فى شعبان فقتل منهم خمسين فارساً وأسر منهم وانهزم بقيتهم ، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤسهم فى دار يزيد بن معاوية وخرج إلى الحج فى هذه السنة ، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق . وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم . وفيها توفى : ﴿ عبد الله بن طاهر بن الحسين ﴾

نائب خراسان وما والاها . وكان خراج ما تحت يده فى كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولى الواثق مكانه ابنه طاهر . وتوفى قبله أشناس التركى بتسعة أيام ، يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقال ابن خلكان : توفى سنة ثمان وعشرين بمرو ، وقيل بنيسابور . وكان كريماً جواداً ، وله شعر حسن ، وقد ولى نيابة مصر بعد العشرين ومائتين . وذكر الوزير أبو القاسم بن المعزى أن البطيخ العبدلاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله بن طاهر هذا . قال ابن خلكان : لأنه كان يستطيبه ، وقيل لأنه أول من زرعه هناك والله أعلم . ومن جيد شعره :

اغتفر زلتى لتحرز فضل الشـ ● ـكر منى ولا يفوتك أجرى

لا تكلنى إلى التوسل بالعذ * ر لعلى ان لا أقوم بعذرى

ومن شعره قوله: نحن قوم يلييننا الخد والنحـ * ـر على أننا نلين الحديدا
طوع أيدى الصبا تصيدنا العيـ * ـن ومن شأننا نصيد الأسودا
نملك الصيد ثم تملكنا البيـ * ـض المضيئات أعينا وخدودا
تتقى سخطنا الأسود ونخشى * سقط الخشف حين تبدى القعودا
فترانا يوم الكريهة أحرا * راً وفى السلم للغوانى عبيدا

قال ابن خلكان : وكان خزاعياً من موالى طلحة الطلحات الخزاعى ، وقد كان أبو تمام يمدحه ، فدخل إليه مرة فأضافه الملح بهمدان فصنف له كتاب الحماسة عند بعض نسائه [ولما ولاه المأمون نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما فى ديار مصر من الحواصل ، فحمل إليه وهو فى أثناء الطريق ثلاثة آلاف ألف دينار ، ففرقها كلها فى مجلس واحد ، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال : قبح الله فرعون ، ما كان أخسه وأضعف همته حين تبجح وتعاظم بملك هذه القرية ، وقال : أنا ربكم الأعلى . وقال : أليس لى ملك مصر . فكيف لو رأى بغداد وغيرها (١)]

وفيها توفى علـى بن جعد الجوهرى . ومحمد بن سعد كاتب الواقـدى مصنف كتاب الطبقات وغيره . وسعيد بن محمد الجرمى

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين ﴾

فيها تمت مفاداة الأسارى المسلمين الذين كانوا فى أيدى الروم على يدى الأمير خاقان الخادم وذلك فى المحرم من هذه السنة ، وكان عـدة الأسارى أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين أسيراً .

وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعى رحمه الله وأكرم مثواه

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعى وكان جده مالك ابن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بنى العباس الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر هـذا له وجاهة ورياسة ، وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث ، وقـد بايعه العامة فى سنة إحـدى ومائتين على القيام بالأمر والنهى حين كثرت الشطار والدعار فى غيبة المأمون عن بغـداد كما تقدم ذلك ، وبه تعرف سويقة نصر ببغداد ، وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد فى الخير ، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غـير مخـلوق ، وكان الواثق من أشـد الناس فى القول بخلق القرآن ، يدعو إليه ليلا ونهاراً ، سرا وجهاراً ، اعتمادا على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون ، من

(١) سقط من المصرية .

غير دليل ولا برهان ، ولا حجـة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن . فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله و إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غـير مخـلوق ، فى أشياء كثيرة دعا الناس إليها . فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد ، والتف عليه من الألوف أعداد ، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقى ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربى فاجتمع عليـه من الخلائق ألوف كثيرة ، وجماعات غزيرة ، فلما كان شهر شعبان من هـذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعى فى السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصى والفواحش وغيرها . فتواعدوا على أنهم فى الليلة الثالثة من شعبان ــ وهى ليلة الجمعة ــ يضرب طبل فى الليل فيجتمع الذين بايعوا فى مكان اتفقوا عليـه ، وأنفق طالب وأبو هارون فى أصحابه دينارا دينارا ، وكان من جملة من أعطوه رجـلان من بنى أشرس ، وكانا يتعاطيان الشراب ، فلما كانت ليلة الخميس شربا فى قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هى ليلة الوعـد ، وكان ذلك قبله بليلة ، فقاما يضربان عـلى طبل فى الليل ليجتمع إليهما الناس ، فلم يجئ أحـد وانخرم النظام وسمع الحرس فى الليل فأعلموا نائب السلطنة ، وهو محـمد بن إبراهيم بن مصعب ، وكان نائبا لأخيـه إسحاق بن إبراهيم ، لغيبته عن بغداد ، فأصبح الناس متخبطين ، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فأحضرا فعاقبهما فأقرا على أحـمد بن نصر ، فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان ، فجمع جماعة من رؤس أصحاب أحمد بن نصر معـه وأرسل بهـم إلى الخليفة بسر من رأى ، وذلك فى آخر شـعبان ، فأحضر له جماعـة من الأعيان وحضر القاضى أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى ، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد ابن نصر عتب ، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدى الواثق لم يعاتبه على شئ مما كان منه فى مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغـيره ، بل أعرض عن ذلك كله وقال له : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله . وكان أحمد بن نصر قد استقتل وباع نفسه وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما يسترها فقال له . فمـا تقول فى ربك ، أتراه يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى (وجوه يومئـذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال رسول الله ﷺ : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته » . فنحن على الخبر . زاد الخطيب قال الواثق : ويحك ! أيرى كما يرى المحدود المتجسم ؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته .

قلت : وما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم . ثم قال أحمد بن

نصر للواثق : وحدثني سفيان بحديث يرفعه « إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء » وكان النبي ﷺ يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقال له إسحاق بن إبراهيم : ويحك ، انظر ما تقول . فقال : أنت أمرتني بذلك . فأشفق إسحاق من ذلك وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم ، أنت أمرتني أن أنصح له . فقال الواثق لمن حوله : ماتقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه . فقال عبد الرحمن بن إسحاق - وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل وكان مواداً لأحمد بن نصر قبل ذلك - يا أمير المؤمنين هو حلال الدم . وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد : اسقني دمه يا أمير المؤمنين . فقال الواثق : لابد أن يأتي ما تريد . وقال ابن أبي دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل . فقال الواثق : إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي ، فاني أحتسب خطاي . ثم نهض إليه بالصمصامة - وقد كانت سيفا لعمرو بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير - فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعاً رحمه الله على النطع ميتاً ، فانا لله وإنا إليه راجعون . رحمه الله وعفا عنه . ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل معترضا حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها ، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقيص ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما ، وفي الغربي أياماً ، وعنده الحرس في الليل والنهار ، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح ، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

ثم أمر الواثق بتتبع رؤس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلا فأودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجرى على المحبوسين ، وهذا ظلم عظيم .

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وهاشم بن بشير ، وكانت عنده مصنفاته كلها ، وسمع من الامام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين ، وذكره يوما فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ويقول إني لست أهلا لذلك . وأحسن يحيى بن معين الثناء

عليـه جداً . وذكره الامام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمـه الله ما كان أسخاه بنفسه لله ، لقد جاد بنفسه له . وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناى و إلا فقئتا وسمعت أذناى و إلا فصمتا أحمـد ابن نصر الخزاعى حين ضربت عنقـه يقول رأسـه : لا إله إلا الله . وقـد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ (الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) قال : فاقشعر جلدى . ورآه بعضهم فى النوم فقال له : ما فعـل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلى . ورأى بعضهـم رسول الله ﷺ فى المنام ومعه أبو بكر وعمر ، قد مروا على الجذع الذى عليـه رأس أحمـد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم عنـه فقيل له : يارسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : « أعرضت عنه استحياء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتى » .

ولم يزل رأسه منصوباً من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة ــ أعنى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ــ إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقى من بغـداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمـه الله . وذلك بأمر المتوكل على الله الذى ولى الخلافة بعد أخيه الواثق ، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكنانى ــ صاحب كتاب الحيدة ــ على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة ، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون ، فانهم أساؤا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم ، فأمره أن ينزل جثة محمـد بن نصر ويدفنه ففعل ، وقد كان المتوكل يكرم الامام أحمـد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتى بيانه فى موضعه . والمقصود أن عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة قال للمتوكل : يا أمير المؤمنين ما رأيت أو ما رئى أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمـد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن . فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع فى أخيـه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل : فى قلبى شىء من قتل أحمد بن نصر . فقال : يا أمير المؤمنين أحرقنى الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً . ودخل عليه هرثمة فقال له فى ذلك فقال : قطعنى الله إربا إربا إن قتله إلا كافراً . ودخل عليه القاضى أحمد بن أبى دؤاد فقال له مثل ذلك فقال : ضربنى الله بالفالج إن قتـله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار . وأما هرثمة فانه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحى فقال : يا معشر خزاعة هـذا الذى قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه . فقطعوه إربا إربا . وأما ابن أبى دؤاد فقد سجنه الله فى جلده ــ يعنى بالفالج ــ ضربه الله قبل موته بأربع سنين ، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتى بيانه فى موضعه .

وروى أبو داود فى كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقى عن أحمد بن نصر قال : سألت سفيان بن عيينة « القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، وإن الله يضحك ممن يذكره فى الأسواق » . فقال : اروها كما جاءت بلا كيف .

وفيها أراد الواثق أن يحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامئذ . وفيها تولى جعفر بن[1] دينار نائب اليمن فسار إليها فى أربعة آلاف فارس . وفيها عدا قوم من العامة على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأخذوا وسجنوا . وفيها ظهر خارجى ببلاد ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهزم أصحابه . وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الاكراد نحو من خمسمائة فى القيود ، كانوا قد أفسدوا فى الطرقات وقطعوها ، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة وسبعين ألف دينار ، وخلع عليه . وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه وبين الروم ، وقدم معه جماعة من رؤس الثغور ، فأمر الواثق بامتحانهم بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الآخرة فأبوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الآخرة . وأمر الواثق أيضا بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الآخرة فمن أجاب [إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الآخرة فودى وإلا ترك فى أيدى الكفار ، وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح ، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر فى موضعه . وبالله المستعان][2]

وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس ، عند سلوقية بالقرب من طرسوس ، بدل كل مسلم أو مسلمة فى أيدى الروم أو ذمى أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدى المسلمين ممن لم يسلم ، فنصبوا جسرين على النهر فاذا أرسل الروم مسلما أو مسلمة فى جسرهم فانتهى إلى المسلمين كبر وكبر المسلمون ، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرهم فاذا انتهى إليهم تكلم بكلام يشبه التكبير أيضاً . ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس ، ثم بقى مع خاقان جماعة من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم .

قال ابن جرير : وفيها مات الحسن بن الحسين أخو طاهر بطبرستان فى شهر رمضان . وفيها مات الخطاب بن وجه الفلس وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابى الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من شعبان ، وهو ابن ثمانين سنة . وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت على بن موسى الرضا . وفيها مات مخارق المغنى . وأبو نصر أحمد بن حاتم راوية الأصمعى . وعمرو بن أبى عمرو الشيبانى . ومحمد بن سعدان النحوى . قلت : وممن توفى فيها أيضا أحمد بن نصر الخزاعى كما تقدم . وإبراهيم

(١) فى المصرية أحمد بن دينار (٢) زيادة من المصرية ومن نسخة أخرى من الأستانة.

ابن محمد بن عرعرة . وأمية بن بسطام . وأبو تمام الطائى فى قول . والمشهور ما تقدم . وكامل بن طلحة . ومحمد بن سلام الجمحى . وأخوه عبد الرحمن . ومحمد بن منهال الضرير . ومحمد بن منهال أخو حجاج . وهارون بن معروف . والبويطى صاحب الشافعى مات فى السجن مقيدا على القول بخلق القرآن فامتنع من ذلك . ويحيى بن بكير راوى الموطأ عن مالك .

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين ﴾

فيها عاثت قبيلة يقال لها بنو نمير باليمامة فساداً فكتب الواثق إلى بغا الكبير وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسر منهم آخرين ، وهزم بقيتهم ، ثم التقى مع بنى تميم وهو فى ألفى فارس ، وهم ثلاثة آلاف ، فجرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم آخرا ، وذلك فى النصف من جمادى الآخرة . ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ومعهم من أعيان رؤسهم فى القيود والأسر جماعة ، وقد فقد من أعيانهم فى الوقائع ما ينيف على ألفى رجل من بنى سليم ونمير ومرة وكلاب وفزارة وثعلبة وطى وتميم وغيرهم . وفى هذه السنة أصاب الحجيج فى رجوعهم عطش شديد حتى بيعت الشربة بالدنانير الكثيرة ، ومات خلق كثير من العطش . وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر . وفيها كانت وفاة ﴿ الخليفة الواثق بن محمد المعتصم ﴾ ابن هارون الرشيد أبى جعفر هارون الواثق . كان هلاكه فى ذى الحجة من هذه السنة بعلة الاستسقاء ، فلم يقدر على حضور العيد عامئذ ، فاستناب فى الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن أبى دؤاد الأيادى المعتزلى . توفى لست بقين من ذى الحجة ، وذلك أنه قوى به الاستسقاء فأقعد فى تنور قد أحمى له بحيث يمكنه الجلوس فيه ليسكن وجعه ، فلان عليه بعض الشئ اليسير ، فلما كان من الغد أمر بأن يحمى أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع فى محفة فحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه وقاضيه ، فمات وهو محمول فيها ، فما شعروا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت ، فغمض القاضى عينيه بعد سقوط جبينه ، وولى غسله والصلاة عليه ودفنه فى قصر الهادى ، عليهما من الله مايستحقانه . وكان أبيض اللون مشربا حمرة جميل المنظر خبيث القلب حسن الجسم سئ الطوية ، قائم العين اليسرى ، فيها نكتة بيضاء ، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة ، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام وثنتى عشرة ساعة . فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة . وقد جمع الواثق أصحاب النجوم فى زمانه حين اشتدت علته ، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعى ليلحقه إلى بين يدى الله ، فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا فى مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته ، فاجتمع عنده من رؤسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل ابن إسحاق الهاشمى ، وإسماعيل بن نوبخت . ومحمد بن موسى الخوارزمى المجوسى القطربلى وسند

صاحب محمد بن الهيثم ، وعامة من ينظر فى النجوم ، فنظروا فى مولده وما يقتضيه الحال عندهم فأجمعوا على أنه يعيش فى الخلافة دهراً طويلا ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا نظر من لم يبصر ، فانه لم يعش بعد قولهم وتقديرهم إلا عشرة أيام حتى هلك . ذكره الامام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله .

قال ابن جرير : وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام وقد قعد مجلساً كان أول مجلس قعده ، وكان أول ما غنى به فى ذلك المجلس أن غنته شارية جارية إبراهيم بن المهدى :

ما درى الحاملون يوم استقلوا * نعشه للثواء أم للقاء
فليقل فيك باكياتك ما شئـ * ن صباحاً فى وقت كل مساء

قال : فبكى و بكينا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم اندفع بعضهم يغنى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فازداد بكاؤه وقال : ما سمعت كاليوم قط تعزية بأب و نعى نفس ، ثم ارفض ذلك المجلس . و روى الخطيب أن دعبل بن علـى الشاعر لما تولى الواثق عمد إلى طومار فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء إلى الحاجب فدفعه إليه وقال : اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل : هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضها الواثق إذا فيها :

الحمد لله لا صبر ولا جلد * ولا عزاء إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد * وآخر قام لم يفرح به أحد
فمرّ هذا ومرّ الشؤم يتبعه * وقام هذا فقام الويل والنكد

قال : فتطلبه الواثق بكل ما يقدر عليه من الطلب فلم يقدر عليه حتى مات الواثق . و روى أيضا أنه لما استخلف الواثق ابن أبى دؤاد على الصلاة فى يوم العيد و رجع إليه بعد أن قضاها قال له : كيف كان عيدكم يا أبا عبد الله ؟ قال : كنا فى نهار لا شمس فيه . فضحك وقال : يا أبا عبد الله أنا مؤيد بك . قال الخطيب : وكان ابن أبى دؤاد استولى على الواثق وحمله على التشديد فى المحنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . قال و يقال : إن الواثق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرنى عبد الله ابن أبى الفتح أنبأ أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدثنى حامد بن العباس عن رجل عن المهدى أن الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن . وروى أن الواثق دخل عليه يوما مؤدبه فأكرمه إكراماً كثيراً فقيل له فى ذلك فقال : هذا أول من فتق لسانى بذكر الله وأدنانى برحمة الله . وكتب إليه بعض الشعراء : —

جذبت دواعى النفس عن طلب الغنى * وقلت لها عفى عن الطلب النزر

فان أمير المؤمنين بكفه * مدار رحا الأرزاق دائبة تجرى

فوقع له فى رقعته جذبتك نفسك عن امتهانها ، ودعتك إلى صونها فخذ ما طلبته هينا . وأجزل له انعطاه . ومن شعره قوله : —

هى المقادير تجرى فى أعنتها * فاصبر فليس لها صبر على حال

ومن شعر الواثق قوله :

تنح عن القبيح ولا ترده * ومن أوليته حسنا فزده

ستكفى من عدوك كل كيد * إذا كاد العدو ولم تكده

وقال القاضى يحيى بن أكثم : ما أحسن أحد من خلفاء بنى العباس إلى آل أبى طالب ما أحسن إليهم الواثق : ما مات وفيهم فقير . ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموت فيه جميع الخلق مشترك * لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضر أهل قليل فى تفاقرهم * وليس يغنى عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وقال بعضهم : لما احتضر الواثق ونحن حوله غشى عليه فقال بعضنا لبعض : انظروا هل قضى ؟ قال : فدنوت من بينهم إليه لأنظر هل هدأ نفسه ، فأفاق فلحظ إلى بعينه فرجعت القهقرى خوفا منه ، فتعلقت قائمة سيفى بشئ فكدت أن أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه الباب الذى هو فيه و بقى فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل ، وجلست أنا أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فاذا جرذ قد أكل عينه التى لحظ إلى بها ، وما كان حولها من الخدين .

وكانت وفاته بسرمن رأى التى كان يسكنها فى القصر الهارونى ، فى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة من هذه السنة — أعنى سنة ثنتين وثلاثين ومائتين — عن ست وثلاثين سنة ، وقيل ثنتين وثلاثين سنة . وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل خمس سنين وشهران و إحد وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم .

﴿ خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ﴾

بويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق وقت الزوال من يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة ، وكانت الأتراك قد عزموا على تولية محمد بن الواثق فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا ، وكان عمره إذ ذاك ستا وعشرين سنة ، وكان الذى ألبسه خلعة الخلافة أحمد بن أبى دؤاد القاضى ، وكان هو أول من سلم عليه بالخلافة و بايعه الخاصة والعامة ، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنتصر بالله ،

إلى صبيحة يوم الجمعة فقال ابن أبي دؤاد رأيت أن يلقب بالمتوكل على الله ، فاتفقوا على ذلك ، وكتب إلى الآفاق وأمر باعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور ، والمغاربة أربعة شهور ، ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به . وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئا نزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله ، فعبره فقيل له هي الخلافة ، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حينا ثم أرسله .

وفيها حج بالناس أمير الحجيج محمد بن داود . وفيها توفى الحكم بن موسى . وعمرو بن محمد . الناقد

(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين)

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفة المتوكل على الله بالقبض على محمد بن عبد الملك ابن الزيات وزير الواثق ، وكان المتوكل يبغضه لأمور ، منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيده غضباً عليه ، فبقى ذلك في نفسه ، ثم كان الذى استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤاد فحظى بذلك عنده في أيام ملكه ، ومنها أن ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه ، ولفَّ عليه الناس ، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت إليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله ، رغم أنف ابن الزيات . فلهذا أمر بالقبض عليه سريعاً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بعث إليه ، فانتهى به الرسول إلى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتيط به وقيد وبعثوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما فيها من الأموال واللآلى والجواهر والحواصل والجوارى والأثاث ، ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشرب ، وبعث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسامرا وضياعه وما فيها فاحتاط عليها ، وأمر به أن يعذب ومنعوه من الكلام ، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس بالحديد ، ثم وضعه بعد ذلك كله في تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد ، فمكث كذلك أياماً حتى مات وهو كذلك . ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضرب ، ويقال إنه أحرق ثم دفعت جثته إلى أولاده فدفنوه ، فنبشت عليه الكلاب فأكلت مابقى من لحمه وجلده . وكانت وفاته لأحدى عشرة من ربيع الأول منها . وكان قيمة ماوجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف دينار . وقد قدمنا أن المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعى فقال : يا أمير المؤمنين أحرقنى الله بالنار إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأنا أحرقته بالنار .

وفيها في جمادى الأولى منها بعد مهلك ابن الزيات فلج أحمد بن أبي دؤاد القاضى المعتزلى . فلم يزل مفلوجاً حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك ، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن

قتل أحمد بن نصر كما تقدم . ثم غضب المتوكل على جماعة من الدواوين والعمال ، وأخذ منهم أموالا جزيلة جداً . وفيها ولى المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان منها .

وفيها عمد ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدورة فأقامها بالشمس وألزمها الدير وقتل الرجل الذي اتهمها به ، وكان ملكها ست سنين . وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة .

وفيها توفى إبراهيم بن الحجاج الشامي . وحيان بن موسى العربي . وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي . وسهل بن عثمان العسكري . ومحمد بن سماعة القاضي . ومحمد بن عائذ الدمشقي صاحب المغازي . ويحيى المقابري . ويحيى بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل ، وأستاذ أهل هذه الصناعة في زمانه .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين ﴾

فيها خرج محمد بن البعيث بن حلبس عن الطاعة في بلاده أذربيجان ، وأظهر أن المتوكل قد مات والتف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق ، ولجأ إلى مدينة مرند فحصنها ، وجاءته البعوث من كل جانب ، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضا ، فنصبوا على بلده المجانيق من كل جانب ، وحاصروه محاصرة عظيمة جداً ، وقاتلهم مقاتلة هائلة ، وصبر هو وأصحابه صبراً بليغا ، وقدم بغا الشرابي لمحاصرته ، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحريمه وقتل خلقا من رؤس أصحابه ، وأسر سائرهم وانحسمت مادة ابن البعيث . وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن .

وفيها حج ايتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والى مكة ، ودعى له على المنابر ، وقد كان ايتاخ هذا غلاما خزريا طباخاً ، وكان لرجل يقال له سلام الأبرش ، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، فرفع منزلته وحظى عنده ، وكذلك الواثق من بعده ، ضم إليه أعمالا كثيرة ، وكذلك عامله المتوكل وذلك لفروسيته ورجلته وشهامته ، ولما كان في هذه السنة شرب ليلة مع المتوكل فعربد عليه المتوكل فهم ايتاخ بقتله ، فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له : أنت أبي وأنت ربيتني ، ثم دس إليه من يشير إليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له ، وأمره على كل بلدة يحل بها ، وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج ، ووكل المتوكل الحجابة لوصيف الخادم عوضا عن إيتاخ وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة .

وفيها توفى أبو خيثمة زهير بن حرب . وسليمان بن داود الشاركوني أحد الحفاظ . وعبد الله ابن محمد النفيلي . وأبو ربيع الزهراني . وعلى بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث . ومحمد بن عبد الله بن نمير . ومحمد بن أبي بكر المقدمي . والمعافا الرسيعني . ويحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين ﴾

فى جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ فى السجن ، وذلك أنه رجع من الحج فتلقته هدايا الخليفة ، فلما اقترب يريد دخول سامرا التى فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه إليها ليتلقاه وجوه الناس وبنى هاشم ، فدخلها فى أبهة عظيمة ، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنيه مظفر ومنصور وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصرانى فأسلم تحت العقوبة ، وكان هلاك إيتاخ بالعطش ، وذلك أنه أكل أكلا كثيراً بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخرة منها . ومكث ولداه فى السجن مدة خلافة المتوكل ، فلما ولى المنتصر ولد المتوكل أخرجهما . وفى شوال منها قدم بغا سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخواه صقر وخالد ، ونائبه العلاء ومعهم من رؤس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنسانا فأدخلوا على الجمال ليراهم الناس ، فلما أوقف ابن البعيث بين يدى المتوكل أمر بضرب عنقه ، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون فوقفوا حوله ، فقال له المتوكل : ويلك مادعاك إلى ما فعلت ؟ فقال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لى فيك لظنين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو . ثم اندفع يقول بديهة :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى * إمام الهدى والصفح بالمرء أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة * وعفوك من نور النبوة يُجْبَل
فانك خير السابقين إلى العلى * ولا شك أنْ خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل : إن معه لأدبا . ثم عفا عنه . ويقال بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشفعه ، ويقال بل أودع فى السجن فى قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك ، وقد قال حين هرب : ـ

كم قد قضيت أموراً كان أهملها * غيرى وقد أخذ الافلاس بالكظم
لا تعذلينى فيما ليس ينفعنى * إليك عنى جرى المقدور بالقلم
سأتلف المال فى عسر وفى يسر * إن الجواد الذى يعطى على العدم

وفيها أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين فى لباسهم وعمائمهم وثيابهم ، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالعسلى وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم ، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا فى رقابهم كرات من خشب كثيرة ، وأن لا يركبوا خيلا ، ولتكن ركبهم من خشب ، إلى غير ذلك من الأمور المذلة لهم المهينة لنفوسهم ، وأن لا يستعملوا فى شئ من الدواوين التى يكون لهم فيها حكم على مسلم ، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة ، وبتضييق منازلهم المتسعة ، فيؤخذ منها العشر ، وأن يعمل مما كان متسعاً من منازلهم

مسجد ، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض ، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق ، وإلى كل بلد ورستاق .

وفيها خرج رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري ، وهو ممن كان يتردد إلى خشبة بابك وهو مصلوب فيقعد قريباً منه ، وذلك بقرب دار الخلافة بسر من رأى ، فادعى أنه نبي ، وأنه ذو القرنين وقد اتبعه على هذه الضلالة ووافقه على هذه الجهالة جماعة قليلون ، وهم تسعة وعشرون رجلا ، وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبحه الله ، زعم أن جبريل جاءه به من الله ، فأخذ فرفع أمره إلى المتوكل فأمر فضرب بين يديه بالسياط ، فاعترف بما نسب إليه وما هو معول عليه ، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه ، فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه التسعة والعشرين أن يصفعه فصفعوه عشر صفعات فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسموات . ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ثم أبو عبد الله المعتز ، واسمه محمد ، وقيل الزبير ، ثم لابراهيم وسماه المؤيد بالله ، ولم يل الخلافة هذا . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائبا عليها ويستنيب فيها ويضرب له السكة بها ، وقد عين ابن جرير ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم ، وعقد لكل واحد منهم لواءين لواء أسود للعهد ، ولواء للعمالة ، وكتب بينهم كتابا بالرضى منهم ومبايعته لأكثر الأمراء على ذلك وكان يوما مشهوداً . وفيها في شهر ذي الحجة منها تغير ماء دجلة إلى الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء الدردي ففزع الناس لذلك . وفيها أتى المتوكل بيحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي ، وكان قد اجتمع إليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثماني عشرة مقرعة ثم حبس في المطبق . وحج بالناس محمد بن داود .

قال ابن جرير : وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر - يعني نائب بغداد - يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وجعل ابنه محمد مكانه ، وخلع عليه خمس خلع وقلده سيفاً . قلت : وقد كان نائبا في العراق من زمن المأمون ، وهو من الدعاة تبعاً لسادته وكبرائه إلى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل) الآية . وهو الذي كان يمتحن الناس ويرسلهم إلى المأمون . وفيها توفي :

﴿ إسحاق بن ماهان ﴾

الموصلي النديم الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته ، المجموع من كل فن يعرفه أبناء عصره ، في الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة والشعر ، ولكن اشتهر بالغناء لانه لم يكن له في الدنيا

نظير فيه . قال المعتصم : إن إسحاق إذا غنى يخيل لى أنه قد زيد فى ملكى . وقال المأمون : لولا اشتهاره بالغناء لوليته القضاء لما اعلمه من عفته ونزاهته وأمانته . وله شعر حسن وديوان كبير ، وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن . توفى فى هذه السنة وقيل فى التى قبلها ، وقيل فى التى بعدها . وقد ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشعاراً رائقة وحكايات مدهشة يطول استقصاؤها . فمن غريب ذلك أنه غنى يوماً يحيى بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه جعفر بمثلها ، وابنه الفضل بمثلها ، فى حكايات طويلة .

وفيها توفى شريح بن يونس . وشيبان بن فروخ . وعبيد الله بن عمر القواريرى . وأبو بكر بن أبى شيبة أحد الأعلام وأئمة الاسلام وصاحب المصنف الذى لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده .

﴿ ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين ﴾

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب وما حوله من المنازل والدور ، ونودى فى الناس من وجدناه بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق . فلم يبق هناك بشر ، واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث وتستغل . وفيها حج بالناس محمد بن المنتصر بن المتوكل . وفيها توفى محمد بن إبراهيم ابن مصعب سمه ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء الكبار . وفيها توفى الحسن بن سهل الوزير والد بوران زوجة المأمون التى تقدم ذكرها ، وكان من سادات الناس ، ويقال إن إسحاق بن إبراهيم المغنى توفى فى هذه السنة فالله أعلم . وفيها توفى أبو سعيد محمد بن يوسف المروزى فجأة ، فولى ابنه يوسف مكانه على نيابة أرمينية . وفيها توفى إبراهيم بن المنذر الحرانى . ومصعب بن عبد الله الزبيرى . وهدبة بن خالد القيسى . وأبو الصلت الهروى أحد الضعفاء .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين ﴾

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب الخليفة ، واتفق بعد بعثه إياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد ، فتحزب أهل تلك الطريق وجاؤا فحاصروا البلد التى بها يوسف فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك كثير من الناس من شدة البرد ، ولما بلغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك الناحية بغا الكبير فى جيش كثيف جداً فقتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة نحواً من ثلاثين ألفاً وأسر منهم طائفة كبيرة ، ثم سار إلى بلاد ألباق من كور البسفرجان وسلك إلى مدن كثيرة كبار ومهد الممالك ووطد البلاد والنواحى . وفى صفر منها غضب المتوكل على ابن أبى دؤاد القاضى المعتزلى وكان على المظالم ، فعزله عنها واستدعى بيحيى بن أكثم فولاه قضاء القضاة والمظالم أيضاً . وفى ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبى دؤاد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد

فحبسه فى يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم . وكان ابن أبى دؤاد قد أصابه الفالج كما ذكرنا ، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين قال ابن جرير فقال فى ذلك أبو العتاهية :

لو كنت فى الرأى منسوبا إلى رشد * وكان عزمك عزماً فيه توفيق

لكان فى الفقه شغل لو قنعت به * عن أن تقول كتاب الله مخلوق

ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم * ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق

وفى عيد الفطر منها أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخزاعى والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً ، واجتمع فى جنازته خلق كثير جداً ، وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه ، وكان يوماً مشهوداً . ثم أتوا إلى الجذع الذى صلب عليه فجعلوا يتمسحون به ، وأرهج العامة بذلك فرحاً وسروراً ، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردعهم عن تعاطى مثل هذا وعن المغالاة فى البشر ، ثم كتب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام فى مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن ، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت . وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير ، ثم أظهر إكرام الامام أحمد بن حنبل ، استدعاه من بغداد إليه ، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنية فلم يقبلها ، وخلع عليه خلعة سنية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيراً فلبسها إلى الموضع الذى كان نازلا فيه ثم نزعها نزعا عنيفا وهو يبكى رحمه الله تعالى . وجعل المتوكل فى كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاما بل كان صائما مواصلا طاويا تلك الأيام ، لأنه لم يتيسر له شئ يرضى أكله ، ولكن كان ابنه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشئ من ذلك ، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشى على أحمد أن يموت جوعاً ، وارتفعت السنة جداً فى أيام المتوكل عفا الله عنه ، وكان لا يولى أحداً إلا بعد مشورة الامام أحمد ، وكان ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة موضع ابن أبى دؤاد عن مشورته ، وقد كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة السنة ، وعلماء الناس ، ومن المعظمين للفقه والحديث واتباع الأثر ، وكان قد ولى من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية ، وسوار ابن عبد الله قضاء الجانب الغربى ، وكان كلاهما أعورا . فقال فى ذلك بعض أصحاب ابن أبى دؤاد :

رأيت من العجائب قاضيين * هما أحدوثة فى الخافقين

هما أقتسما العمى نصفين قداً * كما اقتسما قضاء الجانبين

ويحسب منهما من هز رأسا * لينظر فى مواريث ودين

كأنك قد وضعت عليه دنا * فتحت بزاله من فرد عين

هما فأل الزمان بهلك يحيى * إذ افتتح القضاء بأعورين

وغزا الصائفة فى هذه السنة على بن يحيى الأرمنى . وحج بالناس على بن عيسى بن جعفر بن أبى جعفر المنصور أمير الحجاز . وفيها توفى حاتم الأصم . وممن توفى فيها عبد الأعلى بن حماد . وعبيد الله ابن معاذ العنبرى . وأبو كامل الفضيل بن الحسن الجحدرى .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين ﴾

فى ربيع الأول منها حاصر بغا مدينة تفليس وعلى مقدمته زيرك التركى ، فخرج إليه صاحب تفليس إسحاق بن إسماعيل فقاتله فأسر بغا إسحاق فأمر بغا بضرب عنقه وصلبه ، وأمر بالقاء النار فى النفط إلى نحو المدينة ، وكان أكثر بنائها من خشب الصنوبر ، فأحرق أكثرها وأحرق من أهلها نحواً من خمسين ألفا ، وطفئت النار بعد يومين ، لأن نار الصنوبر لا بقاء لها . ودخل الجند فأسروا من بقى من أهلها واستلبوهم حتى استلبوا المواشى . ثم سار بغا إلى مدن أخرى ممن كان يمالئ أهلها مع من قتل نائب أرمينية يوسف بن محمد بن يوسف ، فأخذ بثأره وعاقب من تجرأ عليه .

وفيها جاءت الفرنج فى نحو من ثلثمائة مركب قاصدين مصر من جهة دمياط ، فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقاً وحرقوا المسجد الجامع والمنبر ، وأسروا من النساء نحواً من ستمائة امرأة ، من المسلمات مائة وخمسة وعشرين امرأة ، وسائرهن من نساء القبط ، وأخذوا من الأمتعة والمال والأسلحة شيئاً كثيراً جداً ، وفر الناس منهم فى كل جهة ، وكان من غرق فى بحيرة تنيس أكثر ممن أسروه ، ثم رجعوا على حمية ولم يعرض لهم أحد حتى رجعوا بلادهم لعنهم الله . وفى هذه السنة غزا الصائفة على ابن يحيى الأرمنى . وفيها حج بالناس الأمير الذى حج بهم قبلها .

وفيها توفى إسحاق بن راهويه أحد الأعلام ، علماء الاسلام ، والمجتهدين من الأنام . وبشر بن الوليد الفقيه الحنفى . وطالوت بن عباد . ومحمد بن بكار بن الزيات . ومحمد بن البرجانى . ومحمد بن أبى السرى العسقلانى .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين ﴾

فى المحرم منها زاد المتوكل فى التغليظ على أهل الذمة فى التميز فى اللباس وأكد الأمر بتخريب الكنائس المحدثة فى الاسلام . وفيها نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان . وفيها اتفق شعانين النصارى ويوم النيروز فى يوم واحد وهو يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذى القعدة . وزعمت النصارى أن هذا لم يتفق مثله فى الأسلام إلا فى هذا العام . وغزا الصائفة على بن يحيى المذكور . وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود والى مكة .

قال ابن جرير : وفيها توفى أبو الوليد محمد بن القاضى أحمد بن أبى دؤاد الأيادى المعتزلى .

قلت . وممن توفى فيها داود بن رشيد . وصفوان بن صالح مؤذن أهل دمشق . وعبد الملك بن حبيب الفقيه المالكى ، أحد المشاهير . وعثمان بن أبى شيبة صاحب التفسير والمسند المشهور . ومحمد بن مهران الرازى . ومحمود بن غيلان . ووهب بن نفيه . وفيها توفى :

﴿ أحمد بن عاصم الانطاكى ﴾

أبو على الواعظ الزاهد أحد العباد والزهاد ، له كلام حسن فى الزهد ومعاملات القلوب ، قال أبو عبد الرحمن السلمى : كان من طبقة الحارث المحاسبى ، و بشر الحافى . وكان أبو سليمان الدارانى يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته . روى عن أبى معاوية الضرير وطبقته ، وعنه أحمد بن الحوارى ، ومحمود بن خالد ، وأبو زرعة الدمشقى . وغيرهم . روى عنه أحمد بن الحوارى عن مخلد ابن الحسين عن هشام بن حسان قال : مررت بالحسن البصرى وهو جالس وقت السحر فقلت : يا أبا سعيد مثلك يجلس فى هذا الوقت ؟ قال : إنى توضأت وأردت نفسى على الصلاة فأبت على ، وأرادتنى على أن تنام فأبيت عليها . ومن مستجاد كلامه قوله : إذا أردت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ جوارحك . وقال : من الغنيمة الباردة أن تصلح ما بقى من عمرك فيغفر لك ما مضى منه . وقال : يسير اليقين يخرج الشك كله من قلبك ، و يسير الشك يخرج اليقين كله منه . وقال : من كان بالله أعرف كان منه أخوف . وقال : خير صاحب لك فى دنياك الهم ، يقطعك عن الدنيا و يوصلك إلى الآخرة . ومن شعره :

همت ولم أعزم ولو كنت صادقاً * عزمت ولكن الفطام شديد
ولو كان لى عقل و إيقان موقن * لما كنت عن قصد الطريق أحيد
ولو كان فى غير السلوك مطامعى * ولكن عن الأقدار كيف أميد

ومن شعره أيضاً :

قد بقينا مذبذبين حيارى * نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل
فقد الصدق فى الأماكن حتى * وصفه اليوم ما عليه دليل
لا نرى خائفاً فيلزمنا الخوف * ولسنا نرى صادقا على مايقول

ومن شعره أيضا :

هون عليك فكل الأمر ينقطع * وخل عنك ضباب الهم يندفع
فكل هم له من بعده فرج * وكل كرب إذا ما ضاق يتسع
إن البلاء وإن طال الزمان به * الموت يقطعه أو سوف ينقطع

وقد أطال الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته ، وإنما ذكرته ههنا تقريباً والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة أربعين ومائتين ﴾

فيها عدا أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل رجلا من أشرافهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بين أظهرهم ، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقال للسفير معه : إن قبلوه وإلا فأعلمني . فقبلوه فعمل فيهم الأعاجيب وأهانهم غاية الاهانة . وفيها عزل المتوكل يحيى بن أكثم القاضي عن قضاء القضاة وصادره بما مبلغه ثمانون ألف دينار ، وأخذ منه أراضي كثيرة في أرض البصرة ، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي على قضاء القضاة . قال ابن جرير : وفي المحرم منها توفي أحمد بن أبي دؤاد بعد ابنه بعشرين يوماً .

﴿ وهذه ترجمته ﴾

هو أحمد بن أبي دؤاد واسمه الفرج - وقيل دعمي ، والصحيح أن اسمه كنيته - الايادي المعتزلي . قال ابن خلكان في نسبه : هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد نجم بن مالك بن فيض بن منعة بن برجان بن دوس الهذلي بن أمية بن حذيفة بن زهير بن إياد بن أد بن معد بن عدنان . قال الخطيب : ولي ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصم ، ثم للواثق . وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى في الآخرة . قال الصولي : لم يكن بعد البرامكة أكرم منه ، ولولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الانس . قالوا : وكان مولده في سنة ستين ومائة ، وكان أسن من يحيى بن أكثم بعشرين سنة . قال ابن خلكان : وأصله من بلاد قنسرين ، وكان أبوه تاجراً يفد إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذ ولده هذا معه إلى العراق ، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال ، وذكر أنه كان يصحب يحيى بن أكثم القاضي ويأخذ عنه العلم . ثم سرد له ترجمة طويلة في كتاب الوفيات ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال : -

رسول الله والخلفاء منا * ومنا أحمد بن أبي دؤاد

فرد عليه بعض الشعراء فقال :

فقل للفاخرين على نزار * وهم في الأرض سادات العباد
رسول الله والخلفاء منا * ونبرأ من دعي بني إياد
وما منا إيادُ إذا أقرت * بدعوة أحمد بن أبي دؤاد

قال : فلما بلغ ذلك أحمد بن أبي دؤاد قال : لولا أني أكره العقوبة لعاقبت هذا الشاعر عقوبة

ما فعلها أحد . وعفا عنه . قال الخطيب : حدثنى الأزهرى ثنا أحمد بن عمر الواعظ حدثنا عمر بن الحسن بن على بن مالك حدثنى جرير بن أحمد أبو مالك قال : كان أبى - يعنى أحمد بن أبى دؤاد - إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما * نجح الأمور بقوة الأسباب

واليوم حاجتنا إليك وإنما * يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل على ابن أبى دؤاد يوماً فقال له : أحسبك عاتباً ، فقال : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا . فقال له : أنى لك هذا ؟ فقال : من قول أبى نواس :

وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

وامتدحه أبو تمام يوماً فقال :

لقد أنست مساوى كل دهر * محاسن أحمد بن أبى دؤاد

وما سافرت فى الآفاق إلا * ومن جدواك راحلتى وزادى

نعم الظن عندك والأمانى * وإن قلقت ركابى فى البلاد

فقال له : هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك ؟ فقال : هو لى ، غير أنى ألمحت بقول أبى نواس :

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة * لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

وقال محمد بن الصولى : ومن مختار مديح أبى تمام لأحمد بن أبى دؤاد قوله :

أأحمد إن الحاسدين كثير * ومالك إن عد الكرام نظير

حللت محلا فاضلا متقادماً * من المجد والفخر القديم فخور

فكل غنى أو فقير فانه * إليك وإن نال السماء فقير

إليك تناهى المجد من كل وجهة * يصير فما يعدوك حيث يصير

وبدر إياد أنت لا ينكرونه * كذاك إياد للانام بدور

تجنبت أن تدعى الأمير تواضعاً * وأنت لمن يدعى الأمير أمير

فما من يد إلا إليك ممدة * وما رفعة إلا إليك تشير

قلت : قد أخطأ الشاعر فى هذه الأبيات خطأ كبيراً ، وأفحش فى المبالغة فحشا كثيراً ، ولعله إن اعتقد هذا فى مخلوق ضعيف مسكين ضال مضل ، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً . وقال ابن أبى دؤاد يوماً لبعضهم : لما لم لا تسألنى ؟ فقال له : لأنى لو سألتك أعطيتك ثمن صلتك . فقال له : صدقت . وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم .

وقال ابن الأعرابى : سأل رجل ابن أبى دؤاد أن يحمله على عير فقال : يا غلام اعطه عيراً وبغلا

وبرذونا وفرسا وجارية . وقال له : لو أعلم مركوباً غير هـذا لأعطيتك . ثم أورد الخطيب بأسانيده عن جماعة أخباراً تدل على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات ، وعظم منزلته عند الخلفاء . وذكر عن محمـد المهدى بن الواثق أن شيخا دخل يوماً عـلى الواثق فسلم فلم يرد عليه الواثق بل قال : لا سـلم الله عليك . فقال : يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك معلمك . قال الله تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها . فقال ابن أبى دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم . فقال : ناظره . فقال ابن أبى دؤاد : ماتقول يا شيخ فى القرآن أمخلوق هو ؟ فقال الشيخ : لم تنصفنى ، المسألة لى . فقال : قل . فقال : هذا الذى تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ أو ماعلموه ؟ فقال ابن أبى دؤاد : لم يعلموه . قال : فأنت علمت مالم يعلموا ؟ فخجل وسكت . ثم قال أقلنى بل علموه ، قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ، أما يسعك ما وسعهم ؟ فخجل وسكت وأمر الواثق له بجائزة نحو أربعمائة دينار فلم يقبلها . قال المهـدى : فدخل أبى المنزل فاستلقى عـلى ظهره وجعل يكرر قول الشيخ عـلى نفسـه ويقول : أما وسعك ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده ، وسقط من عينيه ابن أبى دؤاد ولم يمتحن بعـده أحداً . ذكره الخطيب فى تاريخه باسـناد فيـه بعض من لا يعرف ، وساق قصته مطولة . وقد أنشد ثعلب عن أبى حجاج الأعرابى أنه قال فى ابن أبى دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبى دؤاد * فأصبح من أطاعك فى ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً * أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعـلم * على جبريل إلى خير العباد [(١)]
ومن أمسى ببابك مستضيفاً * كمن حلّ الفلاة بغير زاد
لقد أطرفت يا ابن أبى دؤاد * بقولك إننى رجل إيادى

ثم قال الخطيب : أنبأ القاضى أبو الطيب طاهر بن عبـد الله الطبرى قال : أنشـدنا المعافى بن زكريا الجريرى عن محمد بن يحيى الصولى لبعضهم يهجو ابن أبى دؤاد :

لو كنت فى الرأى منسوباً إلى رشد * وكان عزمك عزماً فيه توفيق

وقد تقدمت هذه الأبيات .

وروى الخطيب عن أحمد بن الموفق أو يحيى الجلاء أنه قال : ناظرنى رجل من الواقفية فى خلق القرآن فنالنى منه ما أكره ، فلما أمسيت أتيت امرأتى فوضعت لى العشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئا ، فنمت فرأيت رسول الله ﷺ فى المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه ، فجعل رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية (فان يكفر بها هؤلاء) ويشير إلى حلقة ابن أبى دؤاد (فقد وكلنا

(١) كذا فى الأصل والوزن غير مستقيم .

بها قوماً ليسوا بها بكافرين) ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه . وقال بعضهم : رأيت فى المنام كأن قائلا يقول : هلك الليلة أحمد بن أبى دؤاد . فقلت له : وما سبب هلاكه ؟ فقال : إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات . وقال غيره : رأيت ليلة مات ابن أبى دؤاد كأن النار زفرت زفرة عظيمة فخرج منها لهب فقلت : ما هذا ؟ فقيل هذا أنجزت لابن أبى دؤاد .

وقد كان هلاكه فى يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه العباس ودفن فى داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقى طريحا فى فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئا من جسده ، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك .

وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عائداً وإنما جئتك لأعزيك فى نفسك وأحمد الله الذى سجنك فى جسدك الذى هو أشد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر فى العام الماضى بأموال جزيلة جداً ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . قال ابن خلكان : كان مولده فى سنة ستين ومائة . قلت : فعلى هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يحيى بن أكثم الذى ذكر ابن خلكان أن ابن أكثم كان سبب اتصال ابن أبى دؤاد بالخليفة المأمون ، فحظى عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه المعتصم ، فولاه المعتصم القضاء والمظالم ، وكان ابن الزيات الوزير يبغضه ، وجرت بينهما منافسات وهجو ، وقد كان لا يقطع أمراً بدونه . وعزل ابن أكثم عن القضاء وولاه مكانه ، وهذه المحنة التى هى أس ما بعدها من المحن ، والفتنة التى فتحت على الناس باب الفتن .

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال ، وأن ابنه أبا الوليد محمد صودر بألف ألف دينار ومائتى ألف دينار ، وأنه مات قبل أبيه بشهر . وأما ابن عساكر فانه بسط القول فى ترجمته وشرحها شرحاً جيداً . وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر العطاء على المنع ، والتفرقة على الجمع . وقد روى ابن عساكر باسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون خروج الواثق فقال ابن أبى دؤاد إنه ليعجبنى هذان البيتان :

ولى نظرة لو كان يُحبلُ ناظرٌ * بنظرته أنثى لقد حبلت منى

فان ولدت ما بين تسعة أشهر * إلى نظر ابنا فان ابنها منى

وممن توفى فيها من الأعيان أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبى أحد الفقهاء المشاهير . قال الامام أحمد : هو عندنا فى مسلاخ الثورى . وخليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحدثانى وسويد بن نصر . وعبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون أحد فقهاء المالكية المشهورين . وعبد الواحد ابن غياث . وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة والسنة . وأبو العميثل عبد الله بن خالد كاتب عبد الله بن

طاهر وشاعره ، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة ، ومن شعره يمدح عبد الله بن طاهر :

يا من يحاول أن تكون صفاته * كصفات عبد الله أنصت واسمع
فلأنصحنك فى خصال والذى * حج الحجيج إليه فاسمع أو دع
أصدق وعف وبر واصبر واحتمل * واصفح وكاف ودار واحلم واشجع
والطف ولن وتأن وارفق واتئد * واحزم وجد وحام واحمل وادفع
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتى * وهديت للنهج الأسد المهيع

﴿ وأما سحنون المالكى صاحب المدونة ﴾

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جندب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخى ، أصله من مدينة حمص ، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها ، وانتهت إليه رياسة مذهب مالك هنالك ، وكان قد تفقه على ابن القاسم ، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات صاحب الامام مالك من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه عنها ، فنقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون ، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ، ورجع عن أشياء منها ، فرتبها سحنون ورجع بها إلى بلاد المغرب ، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها فلم يقبل ، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه ، وصارت الرحلة إلى سحنون ، وانتشرت عنه المدونة ، وساد أهل ذلك الزمان ، وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفى فى هذه السنة عن ثمانين سنة رحمه الله وإيانا .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين ﴾

فى جمادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه فأرادوا قتله ، وساعدهم نصارى أهلها أيضا عليه ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، فكتب إليه يأمره بمناهضتهم ، وكتب إلى متولى دمشق أن يمده بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ، ثم يصلبهم على أبواب البلد ، وأن يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلثمائة ، وأن يرسلهم إلى سامرا مقيدين فى الحديد ، وأن يخرج كل نصرانى بها ويهدم كنيستها العظمى التى إلى جانب المسجد الجامع ، وأن يضيفها إليه ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سنية . فامتثل ما أمره به الخليفة فيهم . وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن

جعفر بن محمد بن عاصم ، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً ، يقال إنه ضرب ألف سوط حتى مات . وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلا عند قاضى الشرقية أبى حسان الزيادى أنه يشتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضى الله عنهم . فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضرب به بين الناس حد السب ، ثم يضرب بالسياط حتى يموت ويلقى فى دجلة ولا يصلى عليه ، ليرتدع بذلك أهل الالحاد والمعاندة . ففعل معه ذلك قبحه الله ولعنه . ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة بالاجماع ، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين قولان ، والصحيح أنه يكفر أيضا ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ ورضى عنهن .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت ، وذلك ليلة الخميس لليلة خلت من جمادى الآخرة . قال : وفيها مطر الناس فى آب مطراً شديداً جداً . قال : وفيها مات من الدواب شئ كثير ولاسيما البقر . قال : وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط وأخذوا نساءهم وذراريهم ودوابهم . قال : وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم فى بلاد طرسوس بحضرة قاضى القضاة جعفر بن عبد الواحد ، عن إذن الخليفة له فى ذلك ، واستنابته ابن أبى الشوارب . وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة ، وقد كانت أم الملك تدورة لعنها الله عرضت النصرانية على من كان فى يدها من الأسارى ، وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته ، فقتلت اثنى عشر ألفا وتنصر بعضهم ، وبقى منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجالا ونساء .

وفيها أغارت البجة على جيش من أرض مصر ، وقد كانت البجة لا يغزون المسلمين قبل ذلك ، لهدنة كانت لهم من المسلمين ، فنقضوا الهدنة وصرحوا بالخلاف . والبجة طائفة من سودان بلاد المغرب ، وكذا النوبة وشنون وزغرير ويكسوم وأمم كثيرة لا يعلمهم إلا الله . وفى بلاد هؤلاء معادن الذهب والجوهر ، وكان عليهم حمل فى كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن ، فلما كانت دولة المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة ، فكتب نائب مصر - وهو يعقوب بن إبراهيم الباذغيسى مولى الهادى وهو المعروف بقوصرة - بذلك كله إلى المتوكل ، فغضب المتوكل من ذلك غضباً شديداً ، وشاور فى أمر البجة فقيل له : يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية ، وإن بلادهم بعيدة ومعطشة ، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاما وماء ، فصده ذلك عن البعث إليهم ، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد ، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم ، فجهز لحربهم محمد بن عبد الله القمى ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم ، وكتب إلى عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك ، فتخلص وتخلص معه من الجيوش

الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم فى عشرين ألف فارس وراجل ، وحمل معه الطعام والأدام فى مراكب سبعة ، وأمر الذين هم بها أن يلجوا بها فى البحر فيوافوه بها إذا توسط بلاد البجة ، ثم سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادنهم وأقبل إليه ملك البجة - واسمه على بابا - فى جمع عظيم أضعاف من مع محمد بن عبد الله القمى ، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ، فجعل الملك يطاول المسلمين لعله تنفد أزوارهم فيأخذونهم بالأيدى ، فلما نفد ماعند المسلمين طمع فيهم السودان فيسر الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغير ذلك مما يحتاجون إليه شئ كثير جداً فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم ، فيئس السودان من هلاك المسلمين جوعاً فشرعوا فى التأهب لقتال المسلمين ، ومركبهم الابل شبيهة بالهجن زعرة جداً كثيرة النفار ، لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئا إلا جفلت منه . فلما كان يوم الحرب عمد أمير المسلمين إلى جميع الأجراس التى معهم فى الجيش فجعلها فى رقاب الخيول ، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل واحد ، فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الاجراس فى كل وجه ، وتفرقوا شذر مذر ، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاؤا ، لا يمتنع منهم أحد ، فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل . ثم أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمى من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقى منهم وأخذ ملكهم بالأمان ، وأدى ما كان عليه من الحمل ، وأخذه معه أسيرا إلى الخليفة . وكانت هذه الوقعة فى أول يوم من هذه السنة ، فولاه الخليفة على بلاده كما كان ، وجعل إلى ابن القمى أمر تلك الناحية والنظر فى أمرها ولله الحمد والمنة .

قال ابن جرير : ومات فى هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة فى جمادى الآخرة . قلت : وهذا الرجل كان نائبا على الديار المصرية من جهة المتوكل . وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد ابن داود ، وحج جعفر بن دينار وهو والى طريق مكة وأحداث الموسم ، ولم يتعرض ابن جرير لوفاة أحد من المحدثين فى هذه السنة ، وقد توفى من الأعيان الأمام أحمد بن حنبل . وجبارة بن المغلس الحمانى . وأبو توبة الحلبى . وعيسى بن حماد سجادة . ويعقوب بن حميد بن كاسب . ولنذكر شيئا من

﴿ ترجمة الأمام أحمد بن حنبل ﴾

فنقول وبالله المستعان : هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام - أبو عبد الله الشيبانى ثم المروزى ثم البغدادى ، هكذا ساق نسبه

الحافظ الكبير أبو بكر البيهقى فى الكتاب الذى جمعه فى مناقب أحمد عن شيخه الحافظ أبى عبد الله الحاكم صاحب المستدرك ، وروى عن صالح ابن الامام أحمد قال : رأى أبى هـذا النسب فى كتاب لى فقال : وما تصنع به؟ ولم ينكر النسب . قالوا : وقـدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعته أمه ببغداد فى ربيع الأول من سـنة أربع وستين ومائة ، وتوفى أبوه وهو ابن ثلاث سـنين فكفلته أمه . قال صالح عن أبيـه : فثقبت أذنى وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلى فبعتهما بثلاثين درهما . وتوفى أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله .

وقـد كان فى حـداثته يختلف إلى مجلس القاضى أبى يوسف ، ثم ترك ذلك وأقبل عـلى سماع الحديث ، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه فى سنة سبع وثمانين ومائة ، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة ، وأول حجة حجها فى سنة سبع وثمانين ومائة ، ثم سنة إحدى وتسعين . وفيها حج الوليد بن مسلم ، ثم سـنة ست وتسعين ، وجاور فى سنة سبع وتسعين ، ثم حج فى سـنة ثمان وتسعين ، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق إلى اليمن ، فكتب عنه هو ويحيى بن معين و إسحاق بن راهويه . قال الامام أحمد : حججت خمس حجج منها ثلاث راجـلا ، أنفقت فى إحدى هـذه الحجج ثلاثين درهما . قال : وقـد ضلت فى بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول : ياعباد الله دلونى على الطريق ، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق . قال : وخرجت إلى الكوفة فكنت فى بيت تحت رأسى لبنة ، ولو كان عندى تسعون درهما كنت رحلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الرى وخرج بعض أصحابنا ولم يمكنى الخروج لأنه لم يكن عندى شئ .

وقال ابن أبى حاتم عن أبيه عن حرملة : سمعت الشافعى قال : وعدنى أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر فلم يقدم . قال ابن أبى حاتم : يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعته أن يفى بالعدة . وقد طاف أحمد بن حنبل فى البلاد والآفاق ، وسمع من مشايخ العصر ، وكانوا يجلونه ويحترمونه فى حال سماعه منهم ؛ وقد سرد شيخنا فى تهذيبه أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم ، وكذلك الرواة عنه . قال البيهقى بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الأمام أحمد : وقد ذكر أحمد بن حنبل فى المسند وغيره الرواية عن الشافعى ، وأخـذ عنه جملة من كلامه فى أنساب قريش ، وأخذ عنه من الفقه ما هو مشهور ، وحين توفى أحمد وجدوا فى تركته رسالتى الشافعى القديمة والجديدة .

قلت : قد أفرد ما رواه أحمد عن الشافعى وهى أحاديث لا تبلغ عشرين حديثا ، ومن أحسن ما رويناه عن الأمام أحمد عن الشافعى عن مالك بن أنس عن الزهرى عن عبـد الرحمن بن كعب ابن مالك عن أبيـه قال قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه

إلى جسده يوم بعث » . وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين[1] ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة . قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شاميا أو عراقياً أو يمنياً - يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين و ينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب - وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد و إجلال له وانه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه . وقد كان الامام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بعلو المكانة في العلم والحديث ، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شبيبته في الآفاق .

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الايمان وأنه قول وعمل و يزيد و ينقص ، وكلامه في القرآن كلام الله غير مخلوق ، و إنكاره على من يقول : إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن . قال : وفيها حكى أبو عمارة وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال : اللفظ محدث . واستدل بقوله (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال : فاللفظ كلام الآدميين . و روى غيرهما عن أحمد أنه قال : القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق ، وأما أفعالنا فهي مخلوقة . قلت : وقد قرر البخاري في هذا المعنى في أفعال العباد وذكره أيضاً في الصحيح ، واستدل بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري . وقد قرر البيهقي ذلك أيضاً .

[و روى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال : من قال : القرآن محدث فهو كافر . ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) . قال : يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث ، لا الذكر نفسه هو المحدث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يحتمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله ﷺ أو وعظه إياهم . ثم ذكر البيهقي كلام الامام أحمد][2] في رؤية الله في الدار الآخرة ، واحتج بحديث صهيب في الرؤية وهي زيادة ، وكلامه في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي ﷺ وعن أصحابه [و روى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأول قول الله تعالى : (وجاء ربك) أنه جاء ثوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لاغبار عليه][3] وقال الامام أحمد : حدثنا أبو بكر بن عياش ثنا عاصم عن زر عن عبد الله - هو ابن مسعود -

---

(١) تقدم أن الرحلة الثانية للشافعي كانت سنة ثمان وتسعين ومائة .

(٢) ، (٣) زيادة من المصرية .

قال : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سئ . وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر رضى الله عنه إسناد صحيح . قلت : وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة فى تقديم الصديق . والأمر كما قاله ابن مسعود ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة . وقد قال أحمد حين اجتاز بحمص وقد حمل إلى المأمون فى زمن المحنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمصى فقال له : ما تقول فى الخلافة ؟ فقال : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، ومن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضى الله عنه .

﴿ فصل فى ورعه وتقشفه وزهده رحمه الله ورضى عنه ﴾

روى البيهقى من طريق المزنى عن الشافعى أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلا نوله إياها . فقال الشافعى لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه فى جملة من يأخذ عنه : ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعا شديداً وقال للشافعى : إنى إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد فى الدنيا ، فتأمرنى أن ألى القضاء ؟ ولولا العلم لما أكلك بعد اليوم . فاستحى الشافعى منه . وروى أنه كان لا يصلى خلف عمه إسحاق بن حنبل ، ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقاً فعرف أهله حاجته إلى الطعام فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً فقال : ما هذه العجلة ! كيف خبزتم ؟ فقالوا : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه . فقال : ارفعوا ، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقى : لأن صالحا أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل على الله . وقال عبد الله ابنه : مكث أبى بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوما لم يأكل فيها إلا ربع مد سويقا ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة منه حتى رجع إلى بيته ، ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر . وقد رأيت موقيه دخلا فى حدقتيه . قال البيهقى : وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع وكان أحمد لا يتناول منها شيئا . قال : وبعث المأمون مرة ذهبا يقسم على أصحاب الحديث فما بقى منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فانه أبى .

وقال سليمان الشاذكونى : حضرت أحمد وقد رهن سطلا له عند فامى باليمن ، فلما جاءه بفكاكه أخرج له سطلين فقال : خذ متاعك منهما . فاشتبه عليه أيهما له فقال : أنت فى حل منه ومن الفكاك ، وتركه وذهب . وحكى ابنه عبد الله قال : كنا فى زمن الواثق فى ضيق شديد ، فكتب رجل إلى أبى : إن عندى أربعة آلاف درهم ورثتها من أبى وليست صدقة ولا زكاة ، فان رأيت أن تقبلها . فامتنع من ذلك ، وكرر عليه فأبى ، فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبى : لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها ، وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها

باسمه فأبى أن يقبلها وقال : نحن فى كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً . وعرض عليـه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه . ونفدت نفقة أحمـد وهو فى اليمن فعرض عليه شيخه عبد الرزاق ملء كفه دنانير فقال : نحن فى كفاية و لم يقبلها . وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس فى بيته ورد عليه الباب وفقده أصحابه فجاءوا إليـه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهبا فلم يقبله ولم يأخذ منهم إلا ديناراً واحداً ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمه الله . وقال أبو داود : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شىء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط. وروى البيهقى أن أحمد سئل عن التوكل فقال : هو قطع الاستشراف باليأس من الناس ، فقيل له : هل من حجة على هذا ؟ قال : نعم ! إن إبراهيم لما رمى به فى النار فى المنجنيق عرض له جبريل فقال : هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه حاجة . فقال : أحب الأمرين إلىّ أحبهما إليه .

وعن أبى جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال : كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى فقلنا : ادع الله لنا فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ما تحب دائما . ثم سكت . فقلنا : زدنا فقال : اللهـم إنا نسألك بالقـدرة التى قلت للسموات والارض (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فنطغى ولا تقل علينا فننسى ، وهب لنا من رحمتك وسـعة رزقك ما يكون بلاغا لنا فى دنيانا ، وغنى من فضلك . قال البيهقى : وفى حكاية أبى الفضل التميمى عن أحمد : وكان يدعو فى السجود : اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق . وكان يقول : اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد ﷺ فداء فاجعلنى فداء لهم . وقال صالح بن أحمد : كان أبى لا يدع أحداً يستقى له الماء للوضوء ، بل كان يلى ذلك بنفسه ، فاذا خرج الدلو ملآن قال : الحمد لله . فقلت : يا أبة ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بنى أما سمعت قول الله عز وجـل (أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) والأخبار عنه فى هذا الباب كثيرة جداً . وقد صنف أحمد فى الزهد كتابا حافلا عظيما لم يسبق إلى مثله ، ولم يلحقه أحد فيه . والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله .

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج : قال لى أحمـد بن حنبل : هل تستطيع أن ترينى الحارث المحاسبى إذا جاء منزلك ؟ فقلت : نعـم ! وفرحت بذلك ، ثم ذهبت إلى الحـارث فقلت له : إنى أحب أن تحضر الليلة عندى أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير فأحضر لهـم التمر والكسب . فلما كان بين العشاءين جاؤا وكان الإمام أحمـد قد سبقهم فجلس فى غرفة بحيث يراهم و يسمع كلامهـم ولا يرونه ، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئاً ، بل جاؤا فجلسوا بين يدى الحارث سكوتا

مطرق الرؤس ، كأنما على رؤسهم الطير ، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأله رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكى وهذا يئن وهذا يزعق ، قال : فصعدت إلى الأمام أحمد إلى الغرفة فاذا هو يبكى حتى كاد يغشى عليه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح ، فلما أرادوا الانصراف قلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما رأيت أحداً يتكلم فى الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل هؤلاء ، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم . قال البيهقى : يحتمل أنه كرّه له صحبتهم لأن الحارث بن أسد ، وإن كان زاهداً ، فانه كان عنده شئ من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كرّه له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع . قلت : بل إنما كره ذلك لأن فى كلامهم من التقشف وشدة السلوك التى لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة مالم يأت بها أمر ، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازى على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذى جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثورى والأوزاعى والليث ، ودع عنك هذا فانه بدعة . وقال إبراهيم الحربى : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على مايحب . وقال : الصبر على الفقر مرتبة لاينالها إلا الاكابر . وقال : الفقر أشرف من الغنى ، فان الصبر عليه مرارة وانزعاجه أعظم حالا من الشكر . وقال : لا أعدل بفضل الفقر شيئاً . وكان يقول : على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس ، ولا يقبله إذا تقدمه طمع أو استشراف . وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب . وقال إبراهيم قال رجل لأحمد : هذا العلم تعلمته لله ؟ فقال له أحمد : هذا شرط شديد ولكن حبب إلى شئ فجمعته . وفى رواية أنه قال : أما لله فعزيز ، ولكن حبب إلى شئ فجمعته .

وروى البيهقى أن رجلا جاء إلى الأمام أحمد فقال : إن أمى زمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتنى إليك لتدعو لها ، فكأنه غضب من ذلك وقال : نحن أحوج أن تدعو هى لنا من أن ندعو لها . ثم دعا الله عز وجل لها . فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجليها وقالت : قد وهبنى الله العافية . وروى أن سائلا سأل فأعطاه الامام أحمد قطعة فقام رجل إلى السائل فقال : هبنى هذه القطعة حتى أعطيك عوضها ، ما تساوى درهما . فأبى فرقاه إلى خمسين درهما وهو يأبى وقال : إنى أرجو من بركتها مانرجوه أنت من بركتها . ثم قال البيهقى رحمه الله :

﴿ باب ذكر ما جاء فى محنة أبى عبد الله أحمد بن حنبل ﴾

فى أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم فى ذلك إليه وصبره عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم ، وكان أحمد عالما بما ورد بمثل حاله من

الآيات المتلوة ، والأخبار المأثورة ، وبلغه ما أوصى به فى المنام واليقظة فرضى وسلم إيمانا واحتسابا، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، وهيأه الله بما آتاه من ذلك لبلوغ أعلى منازل أهل البلاء فى الله من أوليائه ، وألحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والعصمة .

قال الله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال الله تعالى (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) فى سواها فى معنى ما كتبنا . وقد روى الامام أحمد الممتحن فى مسنده قائلا فيه : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن بهدلة سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الله الرجل على حسب دينه ، فان كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » . وقد روى مسلم فى صحيحه قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفى ثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس . قال قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » . أخرجاه فى الصحيحين .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان بن عمرو السكسكى ثنا عمرو بن قيس السكونى ثنا عاصم بن حميد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحا » . وبه قال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه » . قال البغوى : سمعت أحمد يقول : اللهم رضنا . وروى البيهقى عن الربيع قال بعثنى الشافعى بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل ، فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ فقلت : لا ! فأخذه فقرأه فدمعت عيناه ، فقلت : يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال : يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام فقال : اكتب إلى أبى عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه منى السلام وقل له : إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم ، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة . قال الربيع : فقلت حلاوة البشارة ، فخلع قميصه الذى يلى جلده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعى أخبرته فقال : إنى لست أفجعك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطنيه حتى أتبرك به .

﴿ ذكر ملخص الفتنة والمحنة مجموعاً من كلام أئمة السنة أثابهم الله الجنة ﴾

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق

إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفى الصفات عن الله عز وجل . قال البيهقى : ولم يكن فى الخلفاء قبله من بنى أمية وبنى العباس خليفة الاعلى مذهب السلف ومنهاجهم ، فلما ولى هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له ، واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن ، واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثمانى عشرة ومائتين. فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من ائمة الحديث فدعاهم الى ذلك فامتنعوا ، فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين : واستمر على الامتناع من ذلك الامام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند يسابورى ، فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان فى محمل على بعير واحد فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر ، فسلم على الامام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فانه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حميداً . قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمى على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذى يدعوننى إليه . فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول : يعز على يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفا لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف . قال : فجثى الامام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدى غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فان يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته . قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون فى الثلث الأخير من الليل . قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولى الخلافة وقد انضم اليه أحمد بن أبى دؤاد ، وأن الأمر شديد ، فردونا إلى بغداد فى سفينة مع بعض الأسارى ، ونالنى منهم أذى كثير ، وكان فى رجليه القيود ، ومات صاحبه محمد بن نوح فى الطريق وصلى عليه أحمد ، فلما رجع أحمد الى بغداد دخلها فى رمضان ، فأودع فى السجن نحوا من ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً ، ثم أخرج الى الضرب بين يدى المعتصم . وقد كان أحمد وهو فى السجن هو الذى يصلى فى اهل السجن والقيود فى رجليه .

﴿ ذكر ضربه رضى الله عنه ﴾

﴿ بين يدى المعتصم عليه من الله ما يستحقه ﴾

لما أحضره المعتصم من السجن زاد فى قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشى بها فربطتها فى

النكة وحملتها بيدى ، ثم جاؤنى بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط عـلى وجهى من ثقل القيود وليس معى أحد يمسكنى ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ، فأدخلت فى بيت وأغلق عـلىّ وليس عندى سراج ، فأردت الوضوء فمددت يدى فاذا إناء فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة ولله الحمد . ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إلىّ وعنده ابن أبى دؤاد قال : أليس قد زعمتم أنه حدث السن وهذا شيخ مكهل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لى : ادله ، فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ثم قال : اجلس ! فجلست وقد أثقلنى الحديد ، فمكثت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى م دعا إليه ابن عمـك رسول الله ﷺ ؟ قال : إلى شـهادة أن لا إله إلا الله . قلت : فانى أشهد أن لا إله إلا الله . قال : ثم ذكرت له حديث ابن عباس فى وفد عبد القيس ثم قلت : فهذا الذى دعا إليه رسول الله ﷺ . قال : ثم تكلم ابن أبى دؤاد بكلام لم أفهمه ، وذلك أنى لم أتفقه كلامه ، ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت فى يد من كان قبلى لم أتعرض إليك ، ثم قال : يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ قال أحمد : فقلت ، الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال : ناظره يا عبد الرحمن ، كلمه . فقال لى عبد الرحمن : ماتقول فى القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه فقلت : ما تقول فى العلم ؟ فسكت ، فقلت . القرآن من عـلم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فـلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبـد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، فقلت : كان الله ولا عـلم ؟ فسكت . فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين اعطونى شيئاً من كتاب الله أو سـنة رسوله حتى أقول به ، فقال : ابن أبى دؤاد : وأنت لاتقول إلا بهذا وهذا ؟ فقلت : وهل يقوم الاسلام إلا بهما . وجرت مناظرات طويلة ، واحتجوا عليه بقوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) و بقوله (الله خالق كل شئ) وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله (تدمر كل شئ بأمر ربها) فقال ابن أبى دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم ، فقال لهـم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل ماقال ابن أبى دؤاد ، ثم أحضروه فى اليوم الثانى وناظروه أيضا ثم فى اليوم الثالث ، وفى ذلك كله يعلو صوته عليهم وتغلب حجته حججهم . قال : فاذا سكتوا فتح الـكلام عليهم ابن أبى دؤاد ، وكان من أجهلهم بالعلم والـكلام ، وقد تنوعت بهـم المسائل فى المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعـلوا ينـكرون الآثار و يردون الاحتجاج بها ، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها ، وقد تـكلم معى ابن غوث [1] بكلام طويل ذكر فيـه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقلت : لا أدرى ما تقول ، إلا أنى أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثله شئ ، فسكت عنى . وقد أوردت لهم حديث

(١) فى هامش الأصل : لعله ابن غياث وهو المريسى .

الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه ، وهيهات ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي . فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها .

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى (يا أبة لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) وبقوله (وكلم الله موسى تكليما) وبقوله (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) وبقوله :(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ونحو ذلك من الآيات . فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل . وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمي واشتد غضبه ، وكان ألينهم عريكة ، وهو يظن أنهم على شيء . قال أحمد فعند ذلك قال لي : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ، ثم قال : خذوه واخلعوه واسحبوه . قال أحمد : فأخذت وسحبت وخلعت وجيء بالعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شعرات من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين العقابين ، فقلت : يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا باحدى ثلاث » وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » : فبم تستحل دمي ولم آت شيئا من هذا ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين الله كوقوفي بين يديك ، فكأنه أمسك . ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم ، فتخلعت يداي وجيء بالضرابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له ـ يعني المعتصم ـ : شد قطع الله يديك ، ويجيء الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك ، فضربوني أسواطا فأغمي علي وذهب عقلي مرارا ، فاذا سكن الضرب يعود علي عقلي ، وقام المعتصم إلي يدعوني إلى قولهم فلم أجبه ، وجعلوا يقولون : ويحك ! الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إلي فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إلي الثالثة ، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي ؛ وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة باطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطا ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضربا مبرحاً

شديداً جداً . وقد كان الامام أحمد رجلاً طوالا رقيقا أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله .

ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم ، أتوه بسويق ليفطر من الضعف فامتنع من ذلك وأتم صومه ، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي : وصليت فى دمك ! فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه يثعب دما ، فسكت . وروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشى أن يسقط سراويله فتنكشف عورته فحرك شفتيه فدعا الله فعاد سراويله كما كان ، وروى أنه قال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أنى قائم لك بحق فلا تهتك لى عورة .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحى فقطع لحماً ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب فى كل وقت يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندما كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفى فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقى مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد ، وجعل كل من آذاه فى حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو فى ذلك قوله تعالى (وليعفوا وليصفحوا) الآية . ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين) وينادى المنادى يوم القيامة : « ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ثلاث أقسم عليهن : مانقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله »

وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة[1] : أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمد بن نوح بن ميمون الجند يسابورى ، ومات فى الطريق . ونعيم بن حماد الخزاعى ، وقد مات فى السجن ، وأبو يعقوب البويطى وقد مات فى سجن الواثق على القول بخلق القرآن . وكان مثقلا بالحديد . وأحمد بن نصر الخزاعى وقد ذكرنا كيفية مقتله .

﴿ ذكر ثناء الأئمة على الامام أحمد بن حنبل المعظم المبجل ﴾

قال البخارى : لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسى يقول : لو كان أحمد فى بنى إسرائيل لكان أحدوثة . وقال إسماعيل بن الخليل : لو كان أحمد فى بنى إسرائيل لكان نبياً . وقال المزنى : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان يوم الدار ، وعلى يوم الجمل وصفين . وقال حرملة : سمعت الشافعى يقول : خرجت من العراق فما تركت رجلا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل . وقال شيخ أحمد يحيى بن سعيد القطان : ما قدم على بغداد أحد أحب إلى من أحمد بن حنبل . وقال قتيبة : مات سفيان الثورى ومات الورع ، ومات الشافعى وماتت السنن ، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع . وقال إن أحمد

(١) هم خمسة كما سيأتى .

ابن حنبل قام فى الأمة مقام النبوة . قال البيهقى – يعنى فى صبره على ما أصابه من الأذى فى ذات الله – وقال أبو عمر بن النحاس – وذكر أحمد يوماً – فقال رحمه الله : فى الدين ما كان أبصره ، وعن الدنيا ما كان أصبره ، وفى الزهد ما كان أخبره ، و بالصالحين ما كان ألحقه ، و بالماضين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها . وقال بشر الحافى بعد ما ضرب أحمد بن حنبل : أدخل أحمد الكير فخرج ذهبا أحمر . وقال الميمونى قال لى على بن المدينى بعد ما امتحن أحمد وقيل قبل أن يمتحن : يا ميمون ما قام أحد فى الاسلام ما قام أحمد بن حنبل . فعجبت من هذا عجبا شديداً وذهبت إلى أبى عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة على بن المدينى فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعوانا ، و إن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان . ثم أخذ أبو عبيد يطرى أحمد و يقول : لست أعلم فى الاسلام مثله . وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله و بين عبيده فى أرضه . وقال على بن المدينى : إذا ابتليت بشئ فأفتانى أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربى كيف كان . وقال أيضا : إنى اتخذت أحمد حجة فيما بينى و بين الله عز وجل ، ثم قال : ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله ؟ وقال يحيى بن معين : كان فى أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها فى عالم قط ، كان محدّثا ، وكان حافظا ، وكان عالماً ، وكان ورعاً ، وكان زاهداً ، وكان عاقلا . وقال يحيى بن معين أيضا : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه . وقال الذهلى : اتخذت أحمد حجة فيما بينى و بين الله . وقال هلال بن المعلى الرقى : منّ الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعى فهم الأحاديث وفسرها ، و بين مجملها من مفصلها ، والخاص والعام والناسخ والمنسوخ . و بأبى عبيد بين غريبها . و بيحيى بن معين نفى الكذب عن الأحاديث ، و بأحمد بن حنبل ثبت فى المحنة لولا هؤلاء الأربعة لهلك الناس . وقال أبو بكر ابن أبى داود : أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلما ومحبرة – يعنى فى عصره – وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله . وقال أبو زرعة الرازى : ما أعرف فى أصحابنا أسود الرأس أفقه منه . وروى البيهقى عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبرى قال : أنشدنا أبو عبد الله البوسندى فى أحمد بن حنبل رحمه الله : —

إن ابن حنبل ان سألت إمامنا * وبه الأئمة فى الأنام تمسكوا
خلف النبى محمداً بعد الألى * خلفوا الخلائف بعده واستهلكوا
حذو الشراك على الشراك وإنما * يحذو المثال مثاله المستمسك

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » . وروى البيهقى عن

أبي سعيد الماليني عن ابن عدى عن أبي القاسم البغوى عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى ح . قال البغوى : وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر عن معاذ عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى ح . قال البغوى قال قال رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وهذا الحديث مرسل و إسناده فيه ضعف . والعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من حمل العلم ، والامام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله وأكرم مثواه .

﴿ ذكر ما كان من أمر الامام أحمد بعد المحنة ﴾

حين خرج من دار الخلافة صار إلى منزله فدووى حتى برأ ولله الحمد ، ولزم منزله فلا يخرج منه إلى جمعة ولا جماعة ، وامتنع من التحديث ، وكانت غلته من ملك له فى كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله و يتقنع بذلك رحمه الله صابرا محتسبا . ولم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم ، وكذلك فى أيام ابنه محمد الواثق ، فلما ولى المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته ، فانه كان محباً للسنة وأهلها ، ورفع المحنة عن الناس ، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد فى القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد ــ وهو إسحاق بن إبراهيم ــ أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعى إسحاق بالامام أحمد إليه فأكرمه وعظمه ، لما يعلم من إعظام الخليفة له و إجلاله إياه ، وسأله فيما بينه و بينه عن القرآن فقال له أحمد : سؤالك هذا سؤال تعنت أو استرشاد . فقال : بل سؤال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق ، فسكن إلى قوله فى ذلك ، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه . و بلغه أن أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأته ولم يسلم عليه ، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل : يرد و إن كان قد وطئ بساطى ، فرجع الامام أحمد من الطريق إلى بغداد . وقد كان الامام أحمد كارها لمجيئه إليهم ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس و إنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذى كان هو السبب فى ضربه . ثم إن رجلا من المبتدعة يقال له ابن البلخى وشى إلى الخليفة شيئاً فقال : إن رجلا من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبايع له الناس فى الباطن . فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل . فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة ، فوجدوا الامام أحمد جالساً فى داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال : ليس عندى من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتى ، و إنى لأرى طاعة أمير المؤمنين فى السر والعلانية ، وفى عسرى و يسرى ومنشطى ومكرهى ، وأثرة على ، و إنى لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، فى الليل والنهار ، فى كلام كثير . ففتشوا منزله حتى مكان الكتب و بيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً . فلما بلغ

المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجبة - بعشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال : هو يقرأ عليك السلام ويقول : استنفق هذه ، فامتنع من قبولها . فقال : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب . فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبني عمه وعياله وقال : لم أنم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس مابين الخمسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهما ، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج ، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه ، ولم يعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء بنو ابنه فقال : اعطني درهما . فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي فسكت أحمد . وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيف . فقال : صدقت .

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله ابن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الامام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال : إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأتيني ، وكتب إلى أحمد : إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . فسار إليه الامام أحمد - وهو عليل - في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب العسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الامام أحمد فرد السلام وقال له وصيف : قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد . فلم يرد عليه جوابا ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف . فلما وصلوا إلى العسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكرى له دار غيرها . وكان رؤس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يقلعون ما عليهم من الزينة والسلاح وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك الدار العظيمة ، وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضا عما فاتهم منه في أيام المحنة ومابعدها من السنين المتطاولة ، فاعتذر إليه بأنه عليل وأسنانه تتحرك وهو ضعيف . وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم بمائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج ، مما يقاوم مائة وعشرين درهما في كل يوم ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية ، بل كان صائما يطوى ، فمكث ثمانية أيام لم يستطعم بطعام ، ومع ذلك هو مريض ، ثم أقسم عليه ولده حتى شرب قليلا من السويق بعد ثمانية أيام . وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمال جزيل من الخليفة جائزة له فامتنع

من قبوله ، فألح عليـه الأمير فلم يقبل . فأخذها الأمير ففرقها على بنيه وأهله ، وقال : إنه لا يمكن ردها على الخليفة . وكتب الخليفة لأهله وأولاده فى كل شهر بأربعة آلاف درهم ، فمانع أبو عبد الله الخليفة ، فقال الخليفة : لا بد من ذلك ، وما هـذا إلا لولدك . فأمسك أبو عبد الله عن مما نعته ثم أخـذ يلوم أهله وعمه ، وقال لهم : إنما بقى لنا أيام قلائل ، وكأننا قـد نزل بنا الموت ، فاما إلى جنة وإما إلى نار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قـد أخذت من مال هؤلاء . فى كلام طويل يعظهـم به . فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح « ماجاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه » . وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان . فقال : وما هذا وذاك سواء ، ولو أعلم أن هـذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر فى مرضـه ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين إن أحمـد ليس به علة فى بدنه ، وإنما علتـه من قـلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة . فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منـه أن ترى الامام أحمد ، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنـه المعتز ويدعو له ، وليكن فى حجره . فتمنع من ذلك ثم أجاب إليـه رجاء أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغـداد . وبعث الخليفة إليه بخلعة سنية ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثرة نمور ، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقـد جلس الخليفة وأمه فى ناحية فى ذلك المجلس ، من وراء ستر رقيق . فلما جاء أحمد قال : سلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليـه بالامرة ، فقالت أم الخليفة : الله الله يا بنى فى هذا الرجل ترده إلى أهله ، فان هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيـه . وحين رأى المتوكل أحمـد قال لأمه : يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلعة سنية مبطنة وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الامام أحمد : ولما جلست إلى المعتز قال مؤدبه : أصلح الله الأمير هذا الذى أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال : إن علمنى شيئا تعلمته ، قال أحمـد : فتعجبت من ذكائه فى صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقته وغضبه .

ثم بعـد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهيأ له حراقة فلم يقبـل أن ينحدر فيها ، بل ركب فى زورق فدخل بغداد مختفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلعة وأن يتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين . وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول : سلمت منهم طول عمرى ثم ابتليت بهم فى آخره . وكان قد جاع عنـدهم جوعا عظيما كثيراً حتى كاد أن يقتله الجوع . وقدقال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاما ، ولا يشرب لك شرابا ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم وكلمنى فى أحمد ماقبلت منه . وجعلت رسل الخليفة تفد إليه فى كل يوم تستعلم أخباره

وكيف حاله . وجعل يستفتيه فى أموال ابن أبى دؤاد فلا يجيب بشئ ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبى دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه واملاكه واخذ امواله كلها . قال عبد الله بن أحمد : وحين رجع أبى من سامرا وجدنا عينيه قد دخلتا فى موقيه ، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيتا هم فيه أو ينتفع بشئ مما هم فيه لأجل قبولهم أموال السلطان .

وكان مسير أحمد إلى المتوكل فى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه فى أمور يشاوره فيها ، ويستشيره فى أشياء تقع له . ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى ، فامتنع من قبولها وتفرقتها ، وقال : إن أمير المؤمنين قد أعفانى مما أكره فردها ، وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول : يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة . فكتب فيها المتوكل : أما المأمون فانه خلط فسلط الناس على نفسه ، وأما أبى المعتصم فانه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام ، وأما أخى الواثق فانه استحق ماقيل فيه . ثم أمر أن يضرب الرجل الذى رفع اليه الرقعة مائتى سوط ، فأخذه عبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط . فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط ؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قذف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل .

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول فى القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولاعناد . فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيها آثار عن الصحابة وغيرهم ، وأحاديث مرفوعة . وقد أوردها ابنه صالح فى المحنة التى ساقها ، وهى مروية عنه ، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ .

{ ذكر وفاة الامام أحمد بن حنبل }

قال ابنه صالح : كان مرضه فى أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف ، فقلت : يا أبت ما كان غداؤك ؟ فقال : ماء الباقلا . ثم إن صالحا ذكر كثرة مجئ الناس من الأكابر وعموم الناس لعيادته وكثرة حرج الناس عليه ، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها ، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملكه وأن يكفر عنه كفارة يمين ، فأخذ شيئاً من الأجرة فاشترى تمرا وكفرعن أبيه ، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم . وكتب الامام أحمد وصيته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله فى العابدين ، وأن يحمدوه فى

الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً ، وأوصى لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيها فيقضى ماله على من غلة الدار إن شاء الله ، فاذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم .

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعولهم ، وكان قد ولد له صبى قبل موته بخمسين يوماً فسماه سعيدا ، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فدعاه فالتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبرالسن ؟ فقيل له : ذرية تكون بعدك يدعون لك . قال وذاك إن حصل . وجعل يحمد الله تعالى . وقد بلغه فى مرضه عن طاوس أنه كان يكره أنين المريض فترك الأنين فلم يئن حتى كانت الليلة التى توفى فى صبيحتها أنّ ، وكانت ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فأنّ حين اشتدبه الوجع . وقد روى عن ابنه عبد الله وروى عن صالح أيضاً أنه قال : حين احتضر أبى جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت : يا أبة ماهذه اللفظة التى تلهج بها فى هذه الساعة ؟ فقال : يا بنى إن إبليس واقف فى زواية البيت وهو عاض على اصبعه وهو يقول : فتنى يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد ـ يعنى لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد ـ كما جاء فى بعض الأحاديث قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضؤه فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعى وهو يذكر الله عز وجل فى جميع ذلك ، فلما أكملوا وضوءه توفى رحمه الله ورضى عنه . وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين ، فاجتمع الناس فى الشوارع وبعث محمد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان ، وأرسل يقول : هذا نيابة عن الخليفة ، فانه لو كان حاضراً لبعث بهذا . فأرسل أولاده يقولون : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه فى حياته مما يكره وأبوا أن يكفنوه بتلك الأكفان ، وأتى بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه واشتروا معه عوز لفافة وحنوطا ، واشتروا له راوية ماء وامتنعوا ان يغسلوه بماء بيوتهم ، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً ، وكان لا يزال متغضباً عليهم لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال ، وهو فى كل شهر أربعة آلاف درهم وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بنى هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء مالم يعلم عددهم إلا الله ، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف فى جملة الناس ، ثم تقدم فعزى أولاد الامام أحمد فيه ، وكان هو الذى أم الناس فى الصلاة عليه ، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر وعلى القبر بعد أن دفن من أجل

ذلك ، ولم يستقر فى قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

وقد روى البيهقى وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، وفى رواية وسبعمائة ألف سوى من كان فى السفن . وقال ابن أبى حاتم : سمعت أبا زرعة يقول بلغنى أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذى وقف الناس فيه حيث صلوا على الامام أحمد بن حنبل فبلغ مقاسه ألفى ألف وخمسمائة ألف . قال البيهقى عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضى يقول سمعت محمد بن يحيى الزنجانى سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جمعاً فى الجاهلية ولا فى الاسلام اجتمعوا فى جنازة أكثر من الجمع الذى اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل . فقال عبد الرحمن بن أبى حاتم سمعت أبى يقول حدثنى محمد بن العباس المكى سمعت الوركانى ـ جار أحمد ابن حنبل ـ قال : أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس ، وفى بعض النسخ أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفا فالله أعلم .

وقال الدارقطنى : سمعت أبا سهل بن زياد سمعت عبد الله بن أحمد يقول سمعت أبى يقول : قولوا لاهل البدع بيننا و بينكم الجنائز حين تمر . وقد صدق الله قول أحمد فى هذا ، فانه كان إمام السنة فى زمانه ، وعيون مخالفيه أحمد بن أبى دؤاد وهو قاضى قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان . وكذلك الحارث بن أسد المحاسبى مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه فى خطراته وحركاته ، لم يصل عليه إلا ثلاثة أو أربعة من الناس . وكذلك بشر بن غياث المريسى لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فلله الأمر من قبل ومن بعد . وقد روى البيهقى عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل فى سبيل الله ولم أصلّ على الامام أحمد . وروى عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد : دفن اليوم سادس خمسة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز وأحمد . وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر رحمه الله تعالى .

﴿ ذكر ما رئى له من المنامات الصالحة وما رأى هو لنفسه ﴾

وقد صح فى الحديث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . وفى رواية « إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » . وروى البيهقى عن الحاكم سمعت على بن محشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول : كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل ؟ فقال أحمد : أنا ما حاجتك ؟ فقال ضربت إليك من أربعمائة فرسخ ، أريت الخضر فى المنام فقال لى : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له : إن ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت نفسك لله عز وجل . وعن أبى عبد الله محمد بن خزيمة الاسكندرانى . قال : لما

مات أحمد بن حنبل اغتممت غما شديداً فرأيته فى المنام وهو يتبختر فى مشيته فقلت له : يا أبا عبد الله أى مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام فى دار السلام . فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال : غفرلى وتوجنى وألبسنى نعلين من ذهب ، وقال لى : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامى ، ثم قال لى : يا أحمد ادعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفيان الثورى وكنت تدعو بهن فى دار الدنيا ، فقلت : يارب كل شئ ، بقدرتك على كل شئ اغفر لى كل شئ حتى لاتسألنى عن شئ . فقال لى : يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها . فدخلت فاذا أنا بسفيان الثورى وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول (الحمد لله الذى أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) . قال فقلت له : مافعل بشر الحافى ؟ فقال بخ بخ ، ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدى الجليل و بين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يامن لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يامن لم ينعم ، أو كما قال . وقال أبو محمد بن أبى حاتم عن محمد بن مسلم ابن وارة قال : لما مات أبو زرعة رأيته فى المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال قال الجبار : ألحقوه بأبى عبد الله وأبى عبد الله وأبى عبد الله ، مالك والشافعى وأحمد بن حنبل . وقال أحمد بن خرّزاد الانطاكى : رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله ، لفصل القضاء ، وكأن مناديا ينادى من تحت العرش : أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة . قال فقلت لملك إلى جنبى : من هؤلاء ؟ فقال : مالك ، والثورى ، والشافعى وأحمد بن حنبل . وروى أبو بكر بن أبى خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسى قال : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم وهو نائم وعليه ثوب مغطى به وأحمد بن حنبل و يحيى بن معين يذبان عنه . وقد تقدم فى ترجمة أحمد بن أبى دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل فى حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبى دؤاد فى حلقة أخرى وكأن رسول الله ﷺ واقف بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية (فان يكفر بها هؤلاء) و يشير إلى حلقة ابن أبى دؤاد (فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) و يشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه

﴿ ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين ﴾

فيها كانت زلازل هائلة فى البلاد ، فنها ما كان بمدينة قومس ، تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً . وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة . وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا شيئاً كثيراً وأسروا نحواً من عشرة آلاف من الذرارى . فانا لله وإنا إليه راجعون . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن إبراهيم الامام بن محمد بن على نائب مكة .

وفيها توفى من الأعيان الحسن بن على بن الجعد قاضى مدينة المنصور .

﴿ وأبو حسان الزيادى ﴾

قاضى الشرقية ، واسمه الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد البغدادى ، سمع الوليد بن مسلم ، ووكيع بن الجراح ، والواقدى ، وخلقاً سواهم . وعنه أبو بكر بن أبى الدنيا وعلى ابن عبد الله الفرغانى الحافظ المعروف بطفل ، وجماعة . ترجمه ابن عساكر فى تاريخه . قال : وليس هو من سلالة زياد بن أبيه ، إنما تزوج بعض أجداده بأم ولد لزياد ، فقيل له الزيادى . ثم أورد من حديثه بسنده عن جابر « الحلال بين والحرام بين » . الحديث . وروى عن الخطيب أنه قال : كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة ، ولى قضاء الشرقية فى خلافة المتوكل ، وله تاريخ على السنين ، وله حديث كثير . وقال غيره : كان صالحا دينا قد عمل الكتب ، وكانت له معرفة جيدة بأيام الناس ، وله تاريخ حسن ، وكان كريما مفضالا . وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء حسنة ، منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر له أنه قد أصابته ضائقة فى عيد من الأعياد ، ولم يكن عنده غير مائة دينار ، فأرسلها بصرتها إليه ، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضا وشكا إليه مثلما شكا إلى الزيادى ، فأرسل بها الآخر إلى ذلك الآخر . وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير الذى وصلت إليه أخيرا يستقرض منه شيئاً وهو لا يشعر بالأمر ، فأرسل إليه بالمائة فى صرتها ، فلما رآها تعجب من أمرها وركب إليه يسأله عن ذلك فذكر أن فلانا أرسلها إليه ، فاجتمعوا الثلاثة واقتسموا المائة الدينار رحمهم الله وجزاهم عن مروءتهم خيراً .

وفيها توفى أبو مصعب الزهرى أحد رواة الموطأ عن مالك ، وعبد الله بن ذكوان أحد القراء المشاهير . ومحمد بن أسلم الطوسى . ومحمد بن رمح . ومحمد بن عبد الله بن عمار الموصلى أحد أئمة الجرح والتعديل . والقاضى يحيى بن أكثم .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين ﴾

فى ذى القعدة منها توجه المتوكل على الله من العراق قاصداً مدينة دمشق ليجعلها له دار إقامة ومحلة إمامة فأدركه عيد الأضحى بها ، وتأسف أهل العراق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم ، فقال فى ذلك يزيد بن محمد المهلبى :

أظن الشام تشمت بالعراق ＊ إذا عزم الامام على انطلاق
فان يدع العراق وساكنيها ＊ فقد تبلى المليحة بالطلاق

وحج بالناس فيها الذى حج بهم فى التى قبلها وهو نائب مكة .

وفيها توفى من الأعيان كما قال ابن جرير :

﴿ إبراهيم بن العباس ﴾

متولى ديوان الضياع . قلت : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولى الشاعر الكاتب ،

وهو عم محمد بن يحيى الصولى ، وكان جده صول بكر ملك جرجان وكان أصله منها ، ثم تمجس ثم أسلم على يدى يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، ولابراهيم هذا ديوان سعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى * ذرعا وعند الله منها مخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكنت أظنها لا تفرج

ومنها قوله : كنت السواد لمقلتى * فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعتصم محمد بن عبد الملك بن الزيات :

وكنت أخى باخاء الزمان * فلما نبى صرت حربا عوانا
وكنت أذم إليك الزمان * فأصبحت منك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات * فهاأنا أطلب منك الأمانا

وله أيضاً : لا يمنعنك خفض العيش فى دعة * نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها * أهلا بأهل وأوطانا بأوطان

كانت وفاته بمنتصف شعبان من هذه السنة . بسر من رأى . والحسن بن مخلد بن الجراح خليفة إبراهيم بن شعبان . قال : ومات هاشم بن فيجور فى ذى الحجة .

قلت : وفيها توفى أحمد بن سعيد الرباطى . والحارث بن أسد المحاسبى . أحد أئمة الصوفية . وحرملة ابن يحيى التجيبى صاحب الشافعى . وعبد الله بن معاوية الجمحى . ومحمد بن عمر العدنى . وهارون ابن عبد الله الحمانى . وهناد بن السرى .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين ﴾

فى صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق فى أبهة الخلافة وكان يوماً مشهوداً ، وكان عازماً على الاقامة بها ، وأمر بنقل دواوين الملك إليها ، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا ، فأقام بها مدة ، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواءها بارد ندى وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه ، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال فى زمن الصيف ، فلا يزال فى اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه ، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج ، فضجر منها ثم جهز بغا إلى بلاد الروم ، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، ففرح به أهل بغداد فرحاً شديداً . وفيها أتى المتوكل بالحربة

التي كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ فرح بها فرحاً شديداً ، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ يوم العيد وغيره ، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام ، فوهبها الزبير للنبي ﷺ ، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملها بين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ . وفيها غضب المتوكل على الطبيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله . وحج بالناس فيها عبد الصمد المتقدم ذكره قبلها . واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وخميس فطر اليهود وشعانين النصارى وهذا عجيب غريب .

وفيها توفي أحمد بن منيع . و إسحاق بن موسى الخطمي . وحميد بن مسعدة . وعبد الحميد بن سنان . وعلي بن حجر . والوزير محمد بن عبد الملك الزيات . و يعقوب بن السكيت صاحب إصلاح المنطق .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين ﴾

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهرها ، فيقال إنه أنفق على بنائها و بناء قصر الخلافة بها الذي يقال له « اللؤلؤة » ألفي ألف دينار . وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى ، فمن ذلك مدينة إنطاكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار ، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً ، وسمعت من كوى دورها أصوات مزعجة جداً فخرجوا من منازلهم سراعاً يهرعون ، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الاقرع فساخ في البحر ، فهاج البحر عند ذلك وارتفع دخان أسود مظلم منتن ، وغار نهر على فرسخ منها فلا يدرى أين ذهب . ذكر أبو جعفر بن جرير قال : وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير . قال : و زلزلت فيها الرها والرقة وحران ورأس العين وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة ، وأذنة وسواحل الشام ، ورجفت اللاذقية بأهلها فما بقي منها منزل إلا انهدم ، ومابقي من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جبلة بأهلها . وفيها غارت مشاش — عين — مكة حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً . ثم أرسل المتوكل فأنفق عليها مالا جزيلا حتى خرجت . وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي . وهلال الرازي .

وفيها هلك (نجاح بن سلمة) وقد كان على ديوان التوقيع . وقد كان حظيا عند المتوكل ، ثم جرت له حكاية أفضت به إلى أن أخذ المتوكل أمواله وأملاكه وحواصله ، وقد اورد قصته ابن جرير مطولة . وفيها توفي أحمد بن عبدة الضبي ، وأبو الحيس القواس مقرئ مكة ، وأحمد بن نصر النيسابوري . و إسحاق بن أبي إسرائيل و إسماعيل بن موسى ابن بنت السدي . وذو النون المصري ، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم ، ومحمد بن رافع ، وهشام بن عمار ، وأبو تراب النخشبي .

﴿ وابن الراوندي ﴾

الزنديق ، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي ، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان

ثم نشأ ببغداد ، كان بها يصنف الكتب فى الزندقة ، وكانت لديه فضيلة ، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسب ما ذكرها ابن الجوزى فى سنة ثمان وتسعين ومائتين و إنما ذكرناه ههنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفى فى هذه السنة ، وقد تلبس عليه ولم يجرحه بل مدحه فقال : هو أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندى العالم المشهور ، له مقالة فى علم الكلام ، وكان من الفضلاء فى عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشرة كتابا ، منها فضيحة المنزلة ، وكتاب التاج ، وكتاب الزمردة ، وكتاب القصب ، وغير ذلك . وله مجالس ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام ، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام .

توفى سنة خمس وأربعين ومائتين ، برحبة مالك بن طوق التغلبى ، وقيل ببغداد . نقلت ذلك عن ابن خلكان بحروفه وهو غلط . و إنما أرخ ابن الجوزى وفاته فى سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتى له هنالك ترجمة مطولة .

﴿ ذو النون المصرى ﴾

ثوبان بن إبراهيم ، وقيل ابن الفيض بن إبراهيم ، أبو الفيض المصرى أحد المشايخ المشهورين ، وقد ترجمه ابن خلكان فى الوفيات ، وذكر شيئا من فضائله وأحواله ، وأرخ وفاته فى هذه السنة ، وقيل فى التى بعدها ، وقيل فى سنة ثمان وأربعين ومائتين فالله أعلم . وهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن مالك . وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر ، قال : كان أبوه نوبياً ، وقيل إنه كان من أهل اخميم ، وكان حكيما فصيحاً ، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قبرة عمياء نزلت من وكرها فانشقت لها الأرض عن سكرجتين من ذهب وفضة فى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء ، فأكلت من هذه وشربت من هذه . وقد شكيَ عليه مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق ، فلما دخل عليه وعظه فأبكاه ، فرده مكرماً . فكان بعد ذلك إذا ذكر عند المتوكل يثنى عليه

(ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين)

فى يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فنزل بقصر الخلافة فيها ، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق ، وكان يوماً مشهوداً ، وفى صفر منها وقع الفداء بين المسلمين والروم ، ففدى من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير . وفى شعبان منها أمطرت بغداد مطرا عظيما استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً ، ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط . وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزينبى ، وحج فيها من الاعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولى أمر الموسم .

وممن توفى فيها من الأعيان أحمد بن إبراهيم الدورقى . والحسين بن أبى الحسن المروزى . وأبو عمرو الدورى . أحد القراء المشاهير . ومحمد بن مصفى الحمصى .

﴿ ودعبل بن على ﴾

ابن رزين بن سليمان الخزاعى ، مولام الشاعر الماجن البليغ فى المدح ، وفى الهجاء أكثر . حضر يوماً عند سهل بن هارون الكاتب وكان بخيلا ، فاستدعى بغدائه فاذا ديك فى قصعة ، و إذا هو قاس لا يقطعه سكين إلا بشدة ، ولا يعمل فيه ضرس . فلما حضر بين يديه فقد رأسه فقال للطباخ ويلك ، ماذا صنعت ؟ أين رأسه ، قال : ظننت أنك لا تأكله فألقيته ، فقال : ويحك ، والله إنى لأعيب على من يلقى الرجلين فكيف بالرأس ، وفيه الحواس الأربع ، ومنه يصوت وبه ، فضل عينيه وبهما يضرب المثل ، وعرفه وبه يتبرك ، وعظمه أهنى العظام ، فان كنت رغبت عن أكله فأحضره . فقال : لا أدرى أين هو ؟ فقال : بل أنا أدرى ، هو فى بطنك قاتلك الله . فهجاه بأبيات ذكر فيها بخله ومسكه .

﴿ أحمد بن أبى الحوارى ﴾

واسمه[1] عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث أبو الحسن التغلبى الغطفانى ، أحد العلماء الزهاد المشهورين ، والعباد المذكورين ، والأبرار المشكورين ، ذوى الأحوال الصالحة ، والكرامات الواضحة ، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتخرج بأبى سليمان الدارانى رحمهما الله . وروى الحديث عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبى أسامة وخلق . وعنه أبو داود وابن ماجه وأبو حاتم وأبو زرعة الدمشقى ، وأبو زرعة الرازى وخلق كثير . وقد ذكره أبو حاتم فأثنى عليه . وقال يحيى بن معين : إنى لأظن أن الله يسقى أهل الشام به . وكان الجنيد بن محمد يقول : هو ريحانة الشام .

وروى ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الدارانى ألا يغضبه ولا يخالفه ، فجاءه يوماً وهو يحدث الناس فقال : يا سيدى هذا قد سجروا التنور فماذا تأمر ؟ فلم يرد عليه أبو سليمان ، لشغله بالناس ، ثم أعادها أحمد ثانية ، وقال له فى الثالثة : اذهب فاقعد فيه . ثم اشتغل أبو سليمان فى حديث الناس ثم استفاق فقال لمن حضره : إنى قلت لأحمد : اذهب فاقعد فى التنور ، وإنى أحسب أن يكون قد فعل ذلك ، فقوموا بنا إليه . فذهبوا فوجدوه جالساً فى التنور ولم يحترق منه شئ ولا شعرة واحدة . وروى أيضا أن أحمد بن أبى الحوارى أصبح ذات يوم وقد ولد له ولد ولا يملك شيئاً يصلح به الولد ، فقال لخادمه : اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق ، فبينا هو فى ذلك إذ جاءه رجل بمائتى درهم فوضعها بين يديه ، فدخل عليه رجل فى تلك الساعة فقال : يا أحمد إنه قد ولد لى الليلة ولد ولا أملك شيئا ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : يامولاى هكذا بالعجلة . ثم قال للرجل : خذ هذه الدراهم ، فأعطاه إياها كلها ، ولم يبق منها شيئاً ، واستدان لأهله دقيقا . وروى عنه خادمه أنه خرج الثغر لأجل الرباط فما زالت الهدايا تفد إليه من بكرة النهار إلى الزوال ، ثم فرقها كلها إلى وقت

(١) أى إسم أبى الحوارى والد أحمد .

الغروب ثم قال لى : كن هكذا لا ترد على الله شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً .

ولما جاءت المحنة فى زمن المأمون إلى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبى الحوارى وهشام ابن عمار ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ذكوان ، فكلهم أجابوا إلا ابن أبى الحوارى فحبس بدار الحجارة ، ثم هدد فأجاب تورية مكرها ، ثم أطلق رحمه الله . وقد قام ليلة بالثغر يكرر هذه الآية (إياك نعبد و إياك نستعين) حتى أصبح . وقد ألقى كتبه فى البحر وقال : نعم الدليل كنت لى على الله و إليه . ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال . ومن كلامه لا دليل على الله سواه ، و إنما يطلب العلم لآداب الخدمة . وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه . وقال : قلت لأبى سليمان فى ابتداء أمرى : أوصنى ، فقال : أتستوصى أنت ؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى . فقال : خالف نفسك فى كل مراداتها فإنها الأمارة بالسوء ، و إياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دثاراً ، والخوف منه شعاراً ، والاخلاص له زاداً ، والصدق جنة ، واقبل منى هذه الكلمة الواحدة ولاتفارقها ولا تغفل عنها : من استحيى من الله فى كل أوقاته وأحواله وأفعاله ، بلغه الله إلى مقام الأولياء من عباده . قال فجعلت هذه الكلمات أمامى فى كل وقت أذكرها وأطالب نفسى بها . والصحيح أنه توفى فى هذه السنة ، وقيل فى سنة ثلاثين ومائتين ، وقيل غير ذلك فالله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين ﴾

فى شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر ، وكان سبب ذلك أنه أمر ابنه عبد الله المعتز الذى هو ولى العهد من بعده أن يخطب بالناس فى يوم جمعة ، فأداها أداء عظيما بليغا ، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ ، وحنق على أبيه وأخيه ، فأحضره أبوه وأهانه وأمر بضربه فى رأسه وصفعه ، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه ، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان . فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به ، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال فى مثلها ، فنزل هناك ثم استدعى فى يوم ثالث شوال بندمائه على عادته فى سمره وحضرته وشربه ، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال ، ويقال من شعبان من هذه السنة ، وهو على السماط فابتدروه بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر .

﴿ وهذه ترجمة المتوكل على الله ﴾

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور العباسى ، وأم المتوكل أم ولد يقال لها

شجاع ، وكانت من سروات النساء سمحا وحزماً . كان مولده بفم الصلح سنة سبع ومائتين ، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق فى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة لسنة ثنتين وثلاثين ومائتين . وقد روى الخطيب من طريقه عن يحيى بن أكثم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من حرم الرفق حرم الخير » . ثم أنشأ المتوكل يقول :

الرفق يمن والاناة سعادة * فاستأن فى رفق تلاق نجاحا

لا خير فى حزم بغير روية * والشك وهن إن أردت سراحا

وقال ابن عساكر فى تاريخه : وحدث عن أبيه المعتصم ويحيى بن أكثم القاضى . وروى عنه على ابن الجهم الشاعر ، وهشام بن عمار الدمشقى ، وقدم المتوكل دمشق فى خلافته وبنى بها قصراً بأرض داريا . وقال يوماً لبعضهم : إن الخلفاء تتغضب على الرعية لتطيعها ، وإنى ألين لهم ليحبونى ويطيعونى . وقال أحمد بن مروان المالكى : ثنا أحمد بن على البصرى قال : وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء فجمعهم فى داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المعذل . فقال المتوكل لعبيد الله : إن هذا لا يرى بيعتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بلى ! ولكن فى بصره سوء . فقال أحمد بن المعذل : يا أمير المؤمنين ما فى بصرى سوء ، ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبى ﷺ : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه . وروى الخطيب أن على بن الجهم دخل على المتوكل وفى يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التى يقول فيها : —

وإذا مررت ببئر عروة فاستقى من مائها

فأعطاه التى فى يمينه وكانت تساوى مائة ألف . ثم أنشده :

بسر من رأى أمير * تغرف من بحره البحار

يرجى ويخشى لكل خطب * كأنه جنة ونار

الملك فيه وفى بنيه * ما اختلف الليل والنهار

يداه فى الجود ضرتان * عليه كلتاهما تغار

لم تأت منه اليمين شيئاً * إلا أتت مثله اليسار

قال : فأعطاه التى فى يساره أيضاً . قال الخطيب : وقد رويت هذه الأبيات لعلى بن هارون البحترى فى المتوكل . وروى ابن عساكر عن على بن الجهم قال : وقفت فتحية حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدها بالغالية جعفر فتأمل ذلك ثم أنشأ يقول :

وكاتبة فى الخد بالمسك جعفراً * بنفسى محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت سطرا من المسك خدها * لقد أودعت قلبى من الحب اسطرا
فيامن مناها فى السريرة جعفر * سقا الله من سقيا ثناياك جعفرا
ويامن لمملوك بملك يمينه * مطيع له فيما اسر وأظهرا

قال ثم أمر المتوكل عريبا فغنت به . وقال الفتح بن خاقان : دخلت يوماً على المتوكل فاذا هو مطرق مفكر فقلت : يا أمير المؤمنين مالك مفكر ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشا ، ولا أنعم منك بالا . قال : بلى أطيب منى عيشا رجل له دار واسعة و زوجة صالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فنزدريه . وكان المتوكل محببا إلى رعيته قائما فى نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصديق فى قتله أهل الردة ، لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين . و بعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بنى أمية . وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها واشتهارها فرحمه الله . وقد رآه بعضهم فى المنام بعد موته وهو جالس فى نور قال فقلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل . قلت : فما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لى . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى فى منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلا يصعد به إلى السماء وقائلا يقول :

ملك يقاد إلى مليك عادل * متفضل فى العفو ليس بجائر

وروى عن عمرو بن شيبان الحلبى قال : رأيت ليلة المتوكل قائلا يقول : ـــ

يا نائم العين فى أوطان جثمان * أفض دموعك يا عمرو بن شيبان
أما ترى الفئة الأرجاس ما فعلوا * بالهاشمى وبالفتح بن خاقان
وافى إلى الله مظلوماً فضج له * أهل السموات من مثنى و وحدان
وسوف يأتيكم من بعده فتن * توقعوها لها شأن من الشان
فابكوا على جعفر وابكوا خليفتكم * فقد بكاه جميع الأنس والجان

قال : فلما أصبحت أخبرت الناس برؤياى فجاء نعى المتوكل أنه قد قتل فى تلك الليلة ، قال ثم رأيته بعد هذا بشهر وهو واقف بين يدى الله عز وجل فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفرلى . قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . قلت فما تصنع ههنا ؟ قال : أنتظر ابنى محمداً أخاصمه إلى الله الحليم العظيم الكريم

وذكرنا قريبا كيفية مقتله وأنه قتل فى ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة ـ أعنى سنة سبع وأربعين ومائتين ـ بالمتوكلية وهى الماحوزية ، وصلى عليه يوم الاربعاء ،

ودفن بالجعفرية وله من العمر أربعون سنة، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام . وكان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر والله سبحانه أعلم .

﴿ خلافة محمد المنتصر بن المتوكل ﴾

قد تقدم أنه تمالأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه ، وحين قتل بويع له بالخلافة فى الليل ، فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعث إلى أخيه المعتز فأحضره إليه فبايعه المعتز ، وقد كان المعتز هو ولى العهد من بعد أبيه ، ولكنه أكرهه وخاف فسلم وبايع . فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه ، وقتل الفتح أيضا ، ثم بعث البيعة له إلى الآفاق . وفى ثانى يوم من خلافته ولى المظالم لأبى عمرة أحمد ابن سعيد مولى بنى هاشم فقال الشاعر :

يا ضيعة الاسلام لما ولى * مظالم الناس أبو عمره
صيرٌ مأمونا على أمة * وليس مأمونا على بعره

وكانت البيعة له بالمتوكلية ، وهى الماحوزة ، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع قوّاده وحشمه منها إلى سامرا . وفيها فى ذى الحجة أخرج المنتصر عمه على بن المعتصم من سامرا إلى بغداد ووكل به . وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبى . وفيها توفى من الأعيان إبراهيم بن سعيد الجوهرى . وسفيان بن وكيع بن الجراح ، وسلمة بن شبيب .

﴿ وأبو عثمان المازنى النحوى ﴾

واسمه بكر بن محمد بن عثمان البصرى شيخ النحاة فى زمانه ، أخذه عن أبى عبيدة والاصمعى وأبى زيد الأنصارى وغيرهم ، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وأكثر عنه ، وللمازنى مصنفات كثيرة فى هذا الشأن . وكان شبيها بالفقهاء ورعا زاهداً ثقة مأمونا . روى عنه المبرد أن رجلا من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب سيبويه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك . فلامه بعض الناس فى ذلك فقال : إنما تركت أخذ الأجرة عليه لما فيه من آيات الله تعالى . فاتفق بعد هذا أن جارية غنت بحضرة الواثق : اظلوم إن مصابكم رجلا * رد السلام تحية ظلم

فاختلف من بحضرة الواثق فى إعراب هذا البيت ، وهل يكون رجلا مرفوعا أو منصوبا ، وبم نصب ؟ أهو اسم أو ماذا ؟ وأصرت الجارية على أن المازنى حفظها هذا هكذا . قال فأرسل الخليفة إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت المازنى ؟ قال : نعم . قال من مازن تميم أم من مازن ربيعة أم مازن قيس ؟ فقلت من مازن ربيعة . فأخذ يكامنى بلغتى ، فقال : باسمك ؟ وهم يقلبون الباء ميما والميم باء ، فكرهت أن أقول مكر فقلت : بكر ، فأعجبه إعراضى عن المكر إلى البكر ، وعرف ما أردت .

فقال : على م انتصب رجلا ؟ فقلت : لأنه معمول المصدر بمصابكم فأخذ اليزيدى يعارضه فعلاه المازنى بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً . فعوضه الله عن المائة الدينار ـ لما تركها لله سبحانه ولم يمكن الذمى من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن ـ ألف دينار عشرة أمثالها . روى المبرد عنه قال : أقرأت رجلا كتاب سيبويه إلى آخره ، فلما انتهى إلى آخره قال لى : أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفا . توفى المازنى فى هذه السنة وقيل فى سنة ثمان وأربعين .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين ﴾

فيها أغزى المنتصر وصيفاً التركى الصائفة لقتال الروم ، وذلك أن ملك الروم قصد بلاد الشام ، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهز معه نفقات وعددا كثيرة ، وأمره إذا فرغ من قتال الروم أن يقيم بالثغر أربع سنين ، وكتب له إلى محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتابا عظيما فيه آيات كثيرة فى التحريض للناس على القتال والترغيب فيه . وفى ليلة السبت لسبع بقين من صفر خلع أبو عبد الله المعتز والمؤيد إبراهيم أنفسهما من الخلافة ، وأشهدا عليهما بذلك ، وأنهما عاجزان عن الخلافة ، والمسلمين فى حل من بيعتهما ، وذلك بعد ما تهددهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلا ذلك ، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب بإشارة أمراء الأتراك بذلك . وخطب بذلك على رؤس الأشهاد بحضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر ، ويتوالى على محال الكتابة ، والله غالب على أمره ، فأراد أن يسلبهما الملك ويجعله فى ولده ، والأقدار تكذبه وتخالفه ، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر ، ففى أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه ، وقد كان المنتصر رأى فى منامه كأنه يصعد سلماً فبلغ إلى آخر خمس وعشرين درجة . فقصها على بعض المعبرين فقال : تلى خمساً وعشرين سنة الخلافة ، وإذا هى مدة عمره قد استكملها فى هذه السنة . وقال بعضهم : دخلنا عليه يوماً فاذا هو يبكى وينتحب شديداً ، فسأله بعض أصحابه عن بكائه فقال : رأيت أبى المتوكل فى منامى هذا وهو يقول : ويلك يا محمد قتلتنى وظلمتنى وغصبتنى خلافتى ، والله لا أمتعت بها بعدى إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار . قال : فما أملك عينى ولا جزعى . فقال له أصحابه من الغرارين الذين يغرون الناس ويفتنونهم : هذه رؤيا وهى تصدق وتكذب ، قم بنا إلى الشراب ليذهب همك وحزنك . فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماؤه فأخذ فى الخمر وهو منكسر الهمة ، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات .

وقد اختلفوا فى علته التى كان فيها هلاكه ، فقيل داء فى رأسه فقطر فى أذنه دهن فلما وصل

إلى دماغه عوجل بالموت ، وقيل بل ورمت معدته فانتهى الورم إلى قلبه فمات ، وقيل بل أصابته ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فمات ، وقيل بل فصده الحجام بمفصد مسموم فمات من يومه . قال ابن جرير : أخبرنى بعض أصحابنا أن هـذا الحجام رجع إلى منزله وهو محموم فدعا تلميذاً له حتى يفصده فأخذ مبضع أستاذه ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام فما ذكر حتى رآه قد فصده به وتحكم فيه السم ، فأوصى عندذلك ومات من يومه . وذكر ابن جرير أن أم الخليفة دخلت عليه وهو فى مرضـه الذى مات فيـه فقالت له كيف حالك ؟ فقال : ذهبت منى الدنيا والآخرة ، ويقال إنه أنشد لما أحيط به وأيس من الحياة :

فما فرحت نفسى بدنيا أصبتها * ولكن إلى الرب الكريم أصير

فمات يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت صلاة العصر ، عن خمس وعشرين سـنة ، قيل وستة أشهر . ولاخلاف أنه إنما مكث بالخلافة ستة أشهر لا أزيد منها . وذكر ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون ـ العامة وغيرهم حين ولى المنتصر ـ إنه لا يمكث فى الخلافة سوى سـتة أشهر ، وذلك مدة خلافة من قتل أباه لأجلها ، كما مكث شيرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك ، كذلك وقع ، وقد كان المنتصر أعين أقنى قصيراً مهيباً جيد البدن ، وهو أول خليفة من بنى العباس أبرز قبره باشارة أمه حبشية الرومية .

ومن جيد كلامه قوله : والله ما عز ذو باطل قط ، ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق قط ولو أصفق العالم عليه .

بحمد الله تعالى قد تم طبع الجزء العاشر من البداية والنهاية ويليه الجزء الحادى عشر وأوله خلافة أحمد المستعين بالله . والله نسأل المعونة والتوفيق .

فهرس المجلد العاشر من البداية والنهاية

(تم الفهرس)

